اليمن

في ظل حكم الإمام المهدي

المعروف بـ (صاحب المواهب)

١٠٩٧ – ١١٣٠هـ / ١٦٨١ – ١٧١٨م

تأليف

محمد علي دبي الشهاري

الجيل الجديد ناشرون

صنعاء

اليمن في ظل حكم الإمام المهدي

المعروف بـ: (صاحب المواهب)

١٠٩٧ — ١١٣٠ هـ / ١٦٨٦ـ١٧١٨م

تأليف /

محمد علي دبي الشهاري

الجيل الجديد ناشرون

صنعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٩ — ١٤٣٠ هـ

٢٠٠٨ — ٢٠٠٩ م

الناشر

مكتبة الجيل الجديد

الجيل الجديد ناشرون

اليمن - صنعاء

هاتف: ٢١٣١٦٢/٤/٥

فاكس: ٢١٣١٦٢

E-mail :

Aljeel@y.net.ye

Web site:

www.aljeel-aljadeed.com

قسم التوزيع والجملة :

(٢٥٥٢٨٦) تحويله (١٠٤)

فرع الجامعة الجديدة هـ/ ٢٢٧٥٤٠

فرع الحي السياسي هـ/ ٤٧٣٩٤٠

فرع عدن : هـ/ ٢٦٦٤٦٩_٠٢

فرع تعز : هـ / ٢٦٥٩٥٥ — ٠٤

فرع الحديدة : هـ/ ٢٣٨٨٣٢ — ٠٣

فرع حضرموت : هـ / ٣٨٤٠٥٢ — ٠٥

فرع إب : هـ / ٤٠١١٩٠_٠٤

موضـــــوع الرســـالة:

اتسمت أوضاع اليمن بالاستقرار النسبي بعد الجلاء العثماني الأول عام (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م) إلا أن ذلك الاستقرار لم يستمر أكثر من تسع سنوات حتى عادت الاضطرابات مجدداً، نتيجةً للتنافس الذي نشب فيما بين أبناء الإمام القاسم على السلطة بعد وفاة أخيهم المؤيد بن القاسم عام (١٠٥٤هـ/١٦٤٤م) فظهر بذلك أول شرخٍ على كيان الدولة القاسمية الناشئة، حيث استعرت الحروب فيما بين المتنافسين شمال صنعاء واليمن الأعلى، لكن المتوكل إسماعيل تمكن من استعادة الاستقرار وذلك بعد أن أقرَّ الأمراء على ولاياتهم فالتفوا حوله حتى تمكن من انتزاع السلطة من يد أخيه أحمد أبوطالب ، فبلغ بالدولة أوسع مدى بتعاون أولئك الأمراء ــ أولاد أخوته ــ لكن صاحب ذلك التوسع تسلطهم على ولاياتهم ومن ثم تشكيلهم مراكز قوى كان من شأنها إضعاف مركزية الدولة وهيبتها ، بل إنهم تحالفوا على الإطاحة بعمهم المتوكل حين حاول قمع سلطتهم أو الحد منها لولا وفاته التي حالت دون ذلك ، فاستمر التنافس فيما بينهم مجدداً لكنهم تركوا السلطة للمهدي أحمد ابن الحسن بعد حروب شديدة وبمقابل توسيع نفوذهم في الولايات ، فتطور ذلك النفوذ حتى حاولوا الاستقلال بالولايات استعداداً للوثوب على السلطة في عهد المؤيد محمد بن المتوكل، وشبت حروب التنافس فيما بينهم فاضطربت البلاد وعمتها الفوضى والظلم والفساد .

لقد كان لكل تلك المجريات دوراً بارزاً في صقل شخصية الإمام المهـدي محمـد بـن أحمـد (١٠٩٧ــ ١١٣٠هـ/ ١٦٨٦ــ ١٧١٨م) وتحديد نوعية المنهجية التي سلكها في تسيير دفة الحكم ، وذلك لمشاهدته ومشاركته لتلك المجريات منذ طفولته فقد نشأ في حجر والده أحمد بن الحسن القائد الأعلى لجيش المتوكل إسماعيل الذي تم توحيد اليمن على يديه، وشاركه ولده محمد هذا فـي معظـم تحركاته العسكرية ، ثم تقلَّد إمارة المعافر منذ منتصف الثلاثينات من عمره فصار أحد مراكز القوى ، بل وأصبح من أكثرهم نشاطاً وأقواهم عزماً ، حتى تمكن من الاستحواذ على السلطة بعد أن استغرق ثمان سنوات لقمع منافسيه وتثبيت حكمه وضم المناطق الشرقية الجنوبية إلى حاضـرة الدولـة المركزيـة فاستعاد بذلك مركزية الدولة وهيبتها. ومع ذلك فقد حرص على تعزيز سلطته فلم يقتصر على مد نفوذه إلى أقصى حدود اليمن بل تجاوز ذلك إلى خارجها، حيث كان دائم التواصل مع أشراف مكة والحجـاز،

وبما أنه لم يتمكن من مد نفوذه الفعلي عليهم لكنه أبرز دوره الفعال في عزل أو تولية حكامها ، في حين مد نفوذه الفعلي على ميناء زيلع في الصومال مسيطراً بذلك على منفذ البحر الأحمر من الجهتين ومواكباً الانتعاش التجاري الأوربي ، كما كان له اتصالات مع الدول الإسلامية والأوربية وإن كانت مختلفة الأهداف لكنها كانت في غاية الأهمية ، من حيث تحسين العلاقات السياسية والتجارية والحضارية التي نعمت بها اليمن آنذاك .

كما أن جهوده لم تقتصر على الناحية السياسية والعسكرية وإن كان يهدف من ورائها إلى إثبات حقه في السلطة، وقمع مناوئيه بإظهار القوة والبأس والشدة ، والمحافظة على استقرار الأوضاع إلا أن نشاطاته شملت معظم النواحي ، حيث ظهرت على الصعيد العمراني في اهتمامه ببناء المدن وتجديد الحصون وتغيير حاضرة حكمه ، وكذا ظهرت على الجانب الفكري والإداري فاهتم بالقضاء وشجَّع العلماء والمتعلمين وأدخل بعض التنظيمات على الوزارة والجيش ، كما أهتم بإيرادات الدولة وسك العملة وحاول استخراج الفضة ، فكان بذلك أول إمام يحاول التجديد ومواكبة عصر النهضة الحديثة ، بل يمكن اعتبار حكمه بمثابة محاولة جادة للخروج من العزلة التي فرضتها الإمامة الزيدية ، وعلى ذلك يمكن اعتبار هذا الإمام أول من أظهر ملامح الدولة الحديثة القابلة للتطور والنمو لولا تقدمه في العمر ووقوعه في عدة أخطاء أدت إلى تخلخل نظامه، وسمحت للمعارضة في استعادة نشاطها وتكتلها وتطورها حتى تمكنت من الإطاحة بحكمه، فعادت مراكز القوى إلى ممارسة تسلطها وتنافسها على السلطة ففقدت الدولة مركزيتها واستقلت بعض القبائل بالحكم في بلادها وتقوقعت الإمامة في صنعاء وما حولها .

كان هذا عرضاً موجزاً لأهم النقاط التي تناولها البحث والتي تكشف عن أوضاع اليمن خلال تلك الفترة الهامة من تاريخه الحديث التي تعتبر محاولة للتجديد وكسر حاجز العزلة إضافة إلى أنها محاولة لاستعادة مركزية الدولة وهيبتها والمحافظة على وحدتها التي تجزأت بعد وفاة الإمام المهدي ، وقد اعتمدتُ في دراستها على المخطوطات وبخاصة المعاصرة للأحداث منها ، نظراً لأهميتها وخلو الساحة العلمية من دراسة هذه الفترة ـــ حسب علمي ـــ ، لذلك فلا شك أن هذه الدراسة سوف تكون بداية لبذل جهود أكثر في هذا المضمار .

المقـــدمـــة:

إن رغبة الباحث في الكشف عن الحقائق التاريخية وتوضيح ما أُبهم منهـا قـد دفعته إلى دراسة فترة هامة من تاريخ اليمن الحديث التي امتدت نحو ثلث قرن ، مثلت المرحلة الانتقالية بين القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديـين ، تلـك المرحلـة الحافلة بالتحولات السياسية والحضارية لليمنيين الذين تصدر لحكمهم خلالهـا الإمـام المهدي محمد بن أحمد بـن الحـسن بـن الإمـام القاسـم المعـروف بــ"صـاحب المواهب"(*)(١٠٩٧ــ١١٣٠هــ / ١٦٨٦ــ ١٧١٨م) الذي لـم تكـن سـيطرته علـى السُلطة بالأمر السهل الهين ؛ نظراً لتسلط أمراء بيت القاسم بالولايات وتـشكيلهم مـا يسمى بمراكز القوى ، وصراعهم على السُلطة ، الذي ظهر منذ عهد الإمـام المتوكـل إسماعيل (ت:١٠٨٧هــ / ١٦٧٦م) حينما ثبّت أولاد إخوته على الولايات كشرط أساس لتوليه السلطة وانتزاعها من يد أخيه أحمد أبوطالــب ، وهــذا مــا جعلهــم يـستبدون بولاياتهم، ويستحوذون على مواردها استعداداً للوصول إلى السُلطة التــي ظهــرت أول محاولة لهم في أخر عهد المتوكل حين حاول تقليص سلطتهم والحد من نفوذهم ، ليأتي المهدي أحمد فيمنحهم الزيادات في ولاياتهم مما ساعدهم على التوسع والطمــوح إلــى المزيد من الامتيازات ، والانطلاق إلى الاستقلال بالولايات في عهد المؤيد بن المتوكـل مما أدى إلى اضطراب الأوضاع وضعف الدولة وفقدان مركزيتهــا وأصــبحت دويــلات مستقلة ، ولم يتمكن المؤيد الصغير من استعادة مركزيتها لتحاشيه استخدام القوة وميله إلى عدم سفك الدماء الذي لم تتم استعادة مركزيتها إلا به على يد الإمـام محمـد بــن المهدي أحمد فكانت فترة حكمه محاولة جادة لقمع تسلط مراكز القوى ، وإعادة هيبــة الدولة المركزية ، وقد تمكن من ذلك بعد حروب طويلة أســفرت عــن توحيـد الــيمن والسيطرة على جميع مقاليد السلطة ، ثم السعي إلى مواكبة عصر التجديـد بمحاولــة السيطرة على الحرمين الشريفين منافساً بذلك الدولة العثمانية التي كانت سـيدة العــالم

(*) لقد تلقب بالناصر ثم بالهادي ثم بالمهدي . وعُرف بصاحب المواهب نسبةً إلى المدينة التي شيدها شرقي مدينة ذمار ، واتخذها مقراً لحكمه في مطلع الثلث الثاني من فترة حكمه كما سيتضح فيما بعد .

آنذاك ، وبما أنه أخفق في مسعاه لكنه كان يساهم إلى حدٍ ما في تولية أو عزل أشرافها ، في حين تفوق في السيطرة على جزيرة زيلع الواقعة في خليج عدن على الساحل الصومالي (على بعد ٧٩ميلاً من باب المندب)، والتحكم في مدخل البحر الأحمر من الجهتين لتأمين السفن الواردة إلى موانئ اليمن ــ بما فيها المخا ــ فانتعشت على إثرها تجارة العبور ، وازدهرت تجارة البُن التي كانت اليمن تتميز بإنتاجه ، إضافة إلى استخدام زيلع كمحطة تزويد للسفن التجارية ومركز عسكري لتأمينها من القرصنة ، كما استخدمها كمركز لتجارة الرقيق والعاج من أفريقيا منافساً بذلك التجار الأوربيين والعمانيين ، وبذلك استعادت اليمن مركزها الاستراتيجي الهام . وقد ظهرت نتائج ذلك التطور في العمران من خلال بناء المدن وتجديد الحصون ، وكذا ظهر على بعض الأنظمة التي استحدثها في جهاز الحكم مقلداً الأنظمة العثمانية والأوربية كتكوين جيش نظامي من العبيد(السودان) وذلك على غرار جيش الإنكشارية في الدولة العثمانية ، محاولاً الاستغناء عن الجيوش التي كان يجمعها من القبائل عند الحاجة ، الأمر الذي قلَّص من أهمية تلك القبائل فوقفت مدافعة عن مركزها ، في نفس الوقت الذي رأته الزيدية خروجاً على مبادئ الإمامة فاعتبرت الإمام ملكاً وليس إماماً شرعياً جامعاً لشروطها ــ رغم كثرة المبررات التي عملها لإثبات شرعيته(*) ــ ، وهذا ما استغله الطامحون إلى السُلطة ليُطنبوا بمفاسد هذا الحكم ويحاولوا الإطاحة به ، فعادت الاضطرابات مجدداً، وأشعلت الحروب على السلطة واستمرت نحو نصف عقد أسفرت عن تنازل الإمام المهدي عن الحكم وتقسيم اليمن فيما بين أمراء الأسرة الحاكمة ، فنشأت بذلك مراكز قوى جديدة تسلطت على حكم الولايات ، وضعفت الدولة المركزية وفقدت هيبتها ، وانفصلت المناطق الجنوبية عنها ، وانتشرت المظالم ، وعادت الإمامة إلى الانكماش والعزلة .

ورغم النشاط السياسي والحضاري الذي حفلت به هذه الفترة إلا أنها لم تحظ باهتمام من قبل المؤرخين أو الباحثين المعاصرين والمحدثين ، سوى ما نجده عنها

(*) سيتضح أن تلك الإنجازات وغيرها كانت لها عدة أهداف غير ما ذكر أعلاه .

بشكل مقتضب أو شذرات متناثرة أغلبها ما يزال في بطون المخطوطات المتفرقة في المكتبات العامة والخاصة داخل البلاد وخارجها، والتي تنتظر الدراسة والتحقيق والنشر. كما أن تلك الشذرات لا تشكل في معظمها تاريخاً شاملاً لجميع الجوانب ، باستثناء حوليات المؤرخ محسن بن حسن أبوطالب (ت:١١٧٠هـ/١٧٥٦م) المعاصر لهذه الفترة وإن أرَّخ لسنوات سابقة ولاحقة إلا أنه كان أكثر المؤرخين إفادةً في هذا المجال ــ رغم عقم أسلوبه ــ ، وذلك في كتابيه "طيب أهل الكساء" الذي أرَّخ فيه أحداث قرن ونصف تقريباً من عام(١٠٠١ــ ١١٦١هـ/١٥٩٣ــ ١٧٤٨م) ، ويبدو أن المؤرخ عبدالله بن محمد الحبشي قد عثر على نسخة من هذا الكتاب فقام بنشره عام ١٩٩٠م ، مبتدءاً برصد أحداث عام (١٠٥٤هـ/١٦٤٤م) إلى نهايته . أما كتابه الآخر المسمى "السحر المبين" فقد رصد فيه الأحداث من عام(١٠٩٢ ــ ١١٣٠هـ/ ١٦٨١ــ ١٧١٨م)، وقد تصدت لتحقيقه الباحثة إيمان مانع ونالت بدراسته درجة الماجستير ، حينها كنت قد أكملت أربعة فصول معتمداً على المخطوطة التي بقلم المؤلف كغيرها من المخطوطات المتاحة . أما ما ورد في هذه الفترة من كتابات المؤرخين المحدثين فكان أكثرها إجادة ما كتبه أستاذي ــ المشرف على الرسالة ــ الدكتور حسين بن عبدالله العمري في كتابه "تاريخ اليمن الحديث والمعاصر من المتوكل إسماعيل إلى المتوكل يحيى" وبما أن كتابته عن موضوع الدراسة لم تتجاوز ثلاثين صفحة إلا أنها أفادتني كثيراً في وضع الخطوط العريضة لهذه الرسالة .

وليس بخاف تلك الصعوبات والمعوقات التي يواجهها الباحث في دراسة موضوع كهذا الذي بين أيدينا. ومما تجدر الإشارة إليه أن أستاذي الدكتور "سيد مصطفى سالم" كان قد نبهني إلى صعوبة هذا الموضوع من جوانب كثيرة علمية وعملية ، ومع ذلك فلم يبخل عليَّ بتوجيهاته السديدة التي لم استغن عنها طيلة البحث ، وفعلاً فقد اصطدمتُ بتلك الصعوبات منذ البداية نظراً لارتكاز البحث على المخطوطات بصورة أساسية وخاصةً المعاصرة للأحداث منها، لذلك فقد كانت أولى الصعوبات تتمثل في كيفية العثور على المخطوطات ، وقد استغرقت لإنجاز هذه المهمة الكثير من الجهد والوقت والمال

نظراً لندرة بعضها ، حيث تنقَّل بين بعض مدن وقرى الجمهورية سعياً وراء تحصيلها حتى توفر لديه "خمس وعشرون" مخطوطة ، بعضها مدمجةً في أقراص «CD-R» ، وكان هناك مخطوطتان تتعلقان بالبحث مباشرة لكن لا وجود لهما سوى في المتحف البريطاني وهما : (بلوغ الأمنية في السيرة المتوكلية ــ القاسم بن الحسين ــ للحسين الروسي(ت: بعد ١١٦١هـ/ ١٧٤٨م) برقم(٣٨٥٧)، والروض الزاهر شرح نزهة البصائر للقاضي زيد أبوالرجال(ت : ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م) برقم(٣٨٤٧)، وقد أخذ ذلك الكثير من الوقت والجهد في سبيل الحصول عليهما لكنه لم يحصل على الأولى للتكلفة الباهضة التي طُلبت لتصويرها بينما حصل على الأخيرة بواسطة الأستاذ عبدالله يحيى السريحي .

ثم واجه الباحث مشكلة استمداد المادة التاريخية من تلك المخطوطات التي تمثل أسلوب الكتابة المُتبع آنذاك، الذي يتصف برداءة الخط وعدم الاعجام وركاكة اللغة وعدم ترقيم الصفحات وحشو الكتاب بالعديد من الموضوعات المختلفة العشوائية مع عدم وضع العناوين، وهذا كله يؤدي إلى صعوبة قراءتها وتناثر المعلومات التاريخية بين تلك الاستطرادات ، ولعل أفضل مثال على ذلك ما لمسه الباحث في مخطوط (الروض الزاهر) سالفة الذكر التي هي عبارة عن شرح أرجوزة الشاعر محمد بن حسين المرهبي(ت:١١١٣هـ/١٧٠١م) الذي عبّر فيها عن سيرة الإمام ومنجزاته خلال العقد الأول من حكمه، وقام بشرحها القاضي زيد أبوالرجال الذي يبدو أنه استعرض ثقافته الواسعة خلال هذا الشرح ، حيث ملأها بالاستطرادات في مختلف العلوم وعند أبسط المناسبات ؛ فعلى سبيل المثال تعرض لذكر خيول الإمام عند ذلك أطلق العنان لقلمه فاستطرد في ذكر الخيول عبر التاريخ وأورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في الخيل ثم الأشعار والحِكم التي تصفُ أفضلها وسلالاتها ومن أهتم بها ، وهكذا حتى يستغرق خمس صفحات أو أكثر ــ حسب الموضوع ــ وفوق ذلك كانت الكتابة رديئة والحروف غير منقوطة ، أضف إلى ذلك ضعف التصوير وعدم ترتيب

الصفحات ، وهذا ما جعل الباحث يعكف عليها نحو تسعة أشهر حتى تمكن من ترتيبها وترقيمها وفهرستها ، ومن ثمَّ جمع منها ما يخص البحث .

وقد اعتمد الباحث بصورة أساسية على المخطوطات المعاصرة للأحداث التي امتازت باختلاف وجهة نظر مؤلفيها ما بين مؤيد للسُلطة أو معارض أو معتدل أو ملتمس العذر للجميع. وهذه الميزة ساعدته على استنطاقها ومحاولة عرض ذلك الماضي ومعرفته على حقيقته كما كان لا كما نريد ، وهذا ما جعله يُركز على قراءة الروايات المختلفة لمرات عديدة، ويخضعها للتحليل والمقارنة والنقد مع التوخي للحيطة والحذر حتى يتمكن من تثبيت الحقيقة . ورغم صعوبة التعامل مع المخطوطات لكنها ذات فوائد كبيرة لا غنىً عنها في مختلف المجالات فقد تعلّم منها إلى جانب المادة التاريخية الصبر وقوة التحمل والشعور بالمتعة حال قراءتها وفك رموزها .

ولابد هنا من التنويه إلى أن معظم تلك المخطوطات لم تؤرخ إلى نهاية الفترة ، حيث اقتصر أغلبها على كتابة أحداث النصف الأول من فترة الدراسة وبنسب متفاوتة مثل مخطوط "بهجة الزمن" للمؤرخ الكبير يحيى بن الحسين الذي تابع رصد الأحداث بالتفصيل وحللها بشفافية منذ خروج العثمانيين من اليمن حتى انقطاعه عن الكتابة ووفاته في الربع الأول من عام (١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م) فلم يمهله القدر إلا لكتابة السنوات الثلاث الأولى من حكم صاحب المواهب ، أما الفقيه أحمد محمد الضبوي (ت:١١١٦هـ /١٧٠٤م) فلم يؤرخ في كتابه "عقد الجواهر" إلا إلى عام (١١٠٣هـ /١٦٩٢م) بصورة مقتضبة معبراً عن وجهة نظر السُلطة الحاكمة ، ثم يأتي "علي بن عبدالرحمن البهكلي"(ت:١١١٤هـ) الذي شهد أحداث المخلاف السليماني وصعدة فتصدر لكتابتها لخمسة أعوام (١١٠١ ــ ١١٠٥هـ /١٦٩٠ــ١٦٩٤م) في كتابه "العقد المفصل" ، وكذا "الداعي الحسن بن صلاح المؤيدي" (ت:١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م) الذي دعا من مدينة "فللة" بصعدة معارضاً للإمام المهدي محمد في بداية عهده ، وكان ساخطاً على حكم آل القاسم ، ثم مال إلى العزلة ورصد الأحداث حتى عام (١١١٠هـ/ ١٦٩٨م) في كتابه المسمى "الدامغة الكبرى" فكانت معلوماته قيِّمة ومؤرخة باليوم

والشهر مع شيء من التحليل والنقد . ويبدو أن أحد المجهولين قد واصل جهود الداعي هذا في مخطوط ملحق بالجزء الثالث من كتاب "اللآلئ المضيئة للشرفي" ، وهو عبارة عن ملخص لتراجم آل القاسم فقد استعان في البداية على كتاب الداعي ثم واصل الكتابة إلى عام (١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م) وأفاد بأنه بدأ تدوين الأحداث في عام (١١٢٤هـ/١٧١٢م) فصار بهذا أحد المواصلين في الكتابة إلى نهاية فترة موضوع الدراسة ، ومثله ابن عامر(ت:١١٣٥هـ /١٧٢٧م) في كتابه "بغية المريد" وإن كان تدوينه بهدف التعرف على أفراد أسرتهم التي تلتقي مع آل القاسم عند جدهم الرشيد لكنه رفد البحث بمعلومات قيمة ، وكان أبوطالب في حولياته سالفة الذكر ثالث أولئك المستمرين في الكتابة إلى آخر فترة الدراسة .

ولا نغفل أيضا دور المخطوطات التي دُونت بعد فترة الدراسة مثل: "نفحات العنبر" لإبراهيم بن عبدالله الحوثي(ت:١٢٢٣هـ /١٨٠٨م) الذي عاصر بعض معاصري الأحداث، وكذلك الحسن بن عبدالرحمن الكوكباني(ت:١٢٦٥هـ /١٨٤٩م) في كتابه "المواهب السنية" وإن كان يُشيد بآل شرف الدين لكنه أفاد البحث في جوانب عديدة خاصةً في النظام المتبع آنذاك في إدارة الولايات ، وكذا علي بن صلاح الكوكباني(ت:١١٩١هـ /١٧٧٧م) في كتابه "المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره ، والنبذة من تاريخ العترة" وهو عبارة عن تراجم مختصرة للأئمة وأعمالهم منذ الهادي يحيى بن الحسين إلى نهاية عهد المهدي محمد صاحب المواهب .

وكان للمؤلفات الأخرى فائدة ومساهمة كبيرة في رفد البحث من جوانبه المختلفة وهي كثيرة مرفقة بقائمة المصادر والمراجع كمؤلفات شيخ العلوم القاضي العلامة محمد ابن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٦م)، ومؤلفات المؤرخ محمد بن محمد زبارة (ت: ١٣٨٠هـ /١٩٦٠م)، وكذا مؤلفات أستاذي الدكتور حسين بن عبدالله العمري وغيرهم . كما أننا لا ننس دور المراجع العربية والأجنبية التي ساعدت الباحث إلى حد كبير خاصة في فصل العلاقات الخارجية مثل "خلاصة الأثر" للمحبي (ت: ١١١١هـ/١٦٩٩م) و"سلك الدرر في معرفة أعيان القرن الثاني عشر" للمرادي ، و"أمراء مكة

في العهد العثماني" لإسماعيل حقي جارشلي ، وكذا كتاب "رحلة إلى العربية السعيدة " الذي كتبه "جان دي لاروك" عن البعثة الفرنسية التي زارت الإمام إلى المواهب عام (١١٢٤هـ / ١٧١٢م) ثم قدَّمه كتقرير لوزير الخارجية الفرنسي ، وقد ترجمه مؤخراً الأستاذ صالح محمد علي وصدر عن المركز الثقافي في أبوظبي ، ١٩٩٩م .

كما أن صعوبة الموضوع وحداثته وتناثر معلوماته قد قاد الباحث إلى الاطلاع على مراجع التخصصات الأخرى كالأدبيات وغيرها فدخل في متاهة كبيرة لكنها كانت مفيدة إذ ساعدته على جمع معلومات مهمة مثل : ديوان أحمد بن أحمد الآنسي (الزنمة) (ت:١١١٧هـ /١٧٠٥م) ، وكذا نهل من بعض قصائد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير(ت:١١٨٢هـ /١٧٦٨م) التي كانت تُعبر عن الوضع الراهن وتشير إلى بعض الأنظمة المتبعة آنذاك .

ونظراً لكون الموضوع جديداً في ذاته فقد كان الباحث مضطراً للوقوف على أهم الأحداث السياسية وتطورها لكنه حَرِص على تفسيرها وتحليلها مع ربطها بالعوامل التي أثرت في مسيرتها أو تأثرت بها ، الأمر الذي آمل منه أن يُسهم في توضيح هذه الأحداث وإن كان يضطر الباحث في بعض الأحيان مع تداخلها وتشابهها إلى تكرار جزء منها منبها القارئ إلى ذلك بوضع ألفاظ التنبيه مثل : ـ كما سيأتي ـ أو كما تقدم ـ أو كما سبقت الإشارة إليه ـ وغيرها من العلامات التي لا مفر منها ، وكان قد وجب عليَّ عرض تلك الأحداث وذلك قبل أن أقوم أو يقوم غيري في تناولها إذا كنت قد قصرت في دراستها هنا .

وكما رأينا فان كثرة الصعوبات قد جعلت الباحث في حيرة من أمره حال ترتيب البحث إلا أنه استقر مؤخراً في ترتيبه على مراحل حسب التسلسل الزمني ، سوى الفصل الثاني الذي يعتبر امتدادا للأول ، وكذا الفصل الخامس ، المخصص للعلاقات الخارجية . فاشتملت الدراسة على تمهيد وخمسة فصول ، وقد خُصِصَ التمهيد لدراسة أوضاع اليمن عقب خروج العثمانيين موضحا عوامل انسحابهم مع العوامل التي أهلت الأئمة الزيدية بزعامة الأسرة القاسمية لحكم اليمن المستقل ثم حاول الباحث عرض

المستجدات التي طرأت على حكمهم ابتداءً من تكوين مراكز القوى – التي تكونت من أمراء الأسرة الحاكمة الطموحين – وتطورها حتى أصبحت قوة تشكل خطراً كبيراً على مركزية الدولة وتطالب بالسلطة ولو بحد السيف ، فصارت من أهم المعوقات التي واجهها المهدي محمد خلال حكمه الطويل كما أنها أثرت في تحديد المنهجية التي أتبعها لتسيير دفة الحكم .

وفي الفصل الأول الذي سُمي بـ"مرحلة الوصول إلى السلطة وتثبيت الحكم" (١٠٩٧ – ١١٠٥هـ /١٦٨٦–١٦٩٤م) فقد بدأ الباحث في القسم الأول منه بترجمة محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم – حاكم فترة الدراسة – ثم شمل توضيحاً لجوانبه الشخصية والبيئية المحيطة به ودوره القيادي والإداري حتى استقلَّ بالسلطة ، وذلك لما لها من تأثير مباشر وغير مباشر على نوع المنهج الذي سلكه أثناء حكمه ، ثم قام في القسم الثاني من هذا الفصل بتتبع الوسائل التي استخدمها الإمام لتثبيت حكمه والذي تم بواسطتها قمع منافسيه وإخضاع مراكز القوى حتى تم له السيطرة الفعلية على السلطة بدون منافس .

أما الفصل الثاني فقد خصصه الباحث لتتبع سياسة الإمام في المناطق الشرقية والجنوبية مبتدءاً بتعريف الجذور التاريخية لعلاقة المشرق بالدولة القاسمية منذ نشأتها التي آلت إلى انضوائهم تحت قيادتها في عهد المتوكل إسماعيل ، ومن ثمَّ محاولة توضيح عوامل عصيان المشرق وانفصالهم عن الدولة المركزية التي ظهرت ملامحه في آخر عهد المتوكل نفسه ، وانفصلوا في عهد ولده المؤيد الصغير ، ليظهر دور الإمام المهدي محمد في استعادة السيطرة عليهم ونوع السياسة التي انتهجها لحكمهم . كما تبلور دور القبيلة في شكل تكتل سياسي مع أوضد الإمام ليتضح جليا في تقوية حكمه وفي تقويضه ، واتضحت الجذور التاريخية للرابطة الحميمة بين أبناء اليمن الواحد رغم شدة تعنت الحاكم وظلمه أحياناً .

ووُسِمَ الفصل الثالث بـ" مرحلة الاستقرار وتنظيم الحكم" (١١٠٥–١١٢٤هـ / ١٦٩٤–١٧١٢م) فتم خلاله عرض مميزات وعوامل الاستقرار التي ظهرت معالمها في

التوسع العمراني وتغيير الألقاب وما صاحبها من محاولة التوسع خارج اليمن نظراً للهدوء النسبي الذي ساد المرحلة ماعدا فتنة المحطوري التي تم دراستها هنا ، غير أن هذه الفترة حملت بذور الانفجار التي تتبعناها ابتداءً من تنكر الإمام لمشائخ قبائل حاشد وبكيل وهم محور ارتكاز الدولة القائمة مما يتعثر استقرار الوضع للإمام القائم إلا بموالاتهم . ثم خُصِّصَ الجزء الثاني من هذا الفصل لدراسة النظام الإداري والمالي للدولة ومستجدات الإمام التي استحدثها في نظام الوزارة والقضاء والولايات ومدى تأثير تلك المستجدات ــ سلباً أو إيجاباً ــ على سلطته ، ثم تم استعراض النظام المالي من حيث مصادر موارد الدولة وبنود نفقاتها التي اقتصرت على العمران والتجهيزات الحربية والأعراس والإكراميات .

وكانت نهاية أحداث فترة الدراسة في الفصل الرابع لـ"مرحلة عودة الاضطرابات ونهاية الحكم"(١١٢٤ــ١١٣٠هـ/١٧١٢ــ ١٧١٨م) مبتدءاً بتجميع أعضاء حركة المعارضة وعوامل اندفاعهم وأهداف كلاً منهم ، ثم العمل الموحد وإعلان الحرب ضد الإمام الذي أسفر عن تنازله عن الحكم ، وتنصيب الداعي المنصور الحسين بن القاسم ابن المؤيد الشهاري وتقسيم البلاد فيما بين أمراء آل القاسم وتشكيل مراكز قوى جديدة تنافست فيما بينها على السلطة ، ثم تطور إلى صراع شديد فيما بينهم أسفر عن تقهقر وانكماش الداعي المنصور الشهاري وتفوق المتوكل القاسم بن الحسين في الاستحواذ على السلطة ، رغم استمرار محاولات المهدي المخلوع في استعادتها حتى وفاته ، لتتضح شدة طموحات الأمراء إلى السلطة وعدم التزامهم بمبادئ وشروط الإمامة الزيدية ، فكانت السلطة حكراً لمن يمتلك القوة والمال والحنكة السياسية لا لمن تتوفر فيه شروطها.

ثم خُصِّصَ الفصل الخامس "لعلاقات الإمام المهدي محمد الخارجية" التي امتازت بالانتعاش السياسي والاقتصادي ، فتم تقسيمه إلى ثلاثة محاور : تم في المحور الأول معالجة علاقته مع أقطار الجوار وهم : حكام الحجاز ــ أشراف مكة ــ والعمانيون ، ثم القرن الأفريقي . وفي المحور الثاني تم معالجة العلاقة مع الإمبراطوريات الإسلامية ــ

المغول في الهند ــ والعثمانيون ــ والصفويون في إيران ــ . كما تطرق المحور الأخير إلى معالجة العلاقات الأوربية التي تمثلت مع دولها العظمى آنذاك : إنجلترا وهولندا وفرنسا .

ثم رُفد البحث بنتائج لعلها تكون قيمة ، وكذا ببعض الوثائق والمراسيم وجداول أمراء الأسرة الحاكمة، وكذا جداول حُكام وأمراء ورؤوسا عرب وغيرهم كانوا معاصرين للمهدي محمد ، ثم خرائط تبين أوضاع اليمن في عهده ومناطق نفوذه . وقائمة المصادر والمراجع ، والفهرس .

وهنا لا يسع الباحث إلا أن يتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أستاذه المشرف الدكتور حسين بن عبدالله العمري الذي كان له الفضل الأول بعد الله تعالى في إنجاز هذه الرسالة وذلك لما غمرني به من الاهتمام والتوجيه والإرشاد فضلاً على تحمله مشقة مراجعة مختلف الفصول ، ورغم مشاغله الجمة إلا أنه حرص كل الحرص على تخصيص وقت لمقابلتي ومتابعتي وتزويدي بتوجيهاته العلمية السديدة . وكذلك معلمي الأستاذ الدكتور "سيد مصطفى سالم" الذي لم يبخل عليَّ بتوجيهاته السديدة .

وأشكر كل من مد لي يد العون والمساعدة وأخص بالذكر منهم والدي العزيز ، واخوتي ناصر وعبدالله وزيد وسعد ، وابن أخي المهندس همدان ، وكذلك زوجتي وأولادي ، والوالد المهندس محمد حسن الشرفي له جزيل الشكر ، وكذا الأستاذ عبدالله يحيى السريحي وأخيه عبدالرحمن ، والقاضي عبدالله بن يحيى الأكوع وأخيه الأستاذ عبدالخالق الأكوع ، والأخ صالح يحيى الصوملي ــ مدير عام مديرية شهارة ــ والأخ قاسم حسين الحظا ــ عضو مجلس النواب ــ .

وأتقدم بالشكر الجزيل للوالد الأستاذ القاضي علي بن أحمد أبوالرجال ــ رئيس المركز الوطني للوثائق ــ وكذا إدارة مكتبة كلية الآداب ممثلة بمديرها الأستاذ عبده القدسي والأستاذ علي عبدالهادي، ولا يفوتني شكر الأستاذ عبدالسلام الوجيه مدير مكتبة الإمام زيد بن علي .

كما أشكر إدارة مجموعة الجيل الجديد الذين أخذوا على عاتقهم طبع رسالتي بكل احترام وأخص مديرها العام / محمد عبدالله الآنسي ، وكذلك الأخ/ أبو حسان الأذرعي مدير التحقيق والنشر والطباعة في المجموعة.

وأخيراً أشكر الأساتذة عضوي المناقشة على قبولهما مناقشتي وتحملهما أعباء السفر ، وكذا على ما أتحفاني به من الإرشادات والملاحظات العلمية ، وهما الأستاذ الدكتور/ صالح علي باصرة معالي- وزير التعليم العالي ، والأستاذ الدكتور/ محمد عدنان البخيت – رئيس لجنة تاريخ بلاد الشام. كما أتمنى أن أكون قد وفقت في هذه الرسالة وأن أكون قد ساهمت بها في إخراج ونشر تراثنا ورفدت بها المكتبة اليمنية والتاريخ العربي.

والله من وراء القصد ،،،،

صنعاء في : ١/٤/١٤٢٧هـ

الموافق : ٢٩/٤/٢٠٠٦م

التمهيد :

نبذة عن اليمن المستقل تحت حكم الدولة القاسمية :

١- أوضاع اليمن عقب انسحاب العثمانيين :

في القرن العاشر الهجري مطلع القرن السادس عشر الميلادي طرأت أحداث عالمية غيَّرتْ مجرى التاريخ بشتى مناحيه حتى جعلت من هذا القرن بدايةً لتدوين التاريخ الحديث[١]. وكان وصول البرتغاليين إلى مصادر التجارة في الهند وتحويل طريقها إلى رأس الرجاء الصالح من أعظم تلك الأحداث أثراً على اليمن إذ حرمها من الإيرادات التي كانت تجنيها من وراء التجارة البرية والبحرية ، وأفقدها دور الوسيط التجاري نظراً لموقعها الإستراتيجي الهام ، بالإضافة إلى تكدس منتجاتها المحلية . مما أدى إلى ضعف وتصدع كيان الدولة الطاهرية (السنّيّة)[*] ــ القائمة آنذاك ــ وظهور الحركات الانفصالية وانهيار نظامها وسقوط ما تبقى منها تحت سيطرة الحكم العثماني، بعد أن كانت قد بلغت أوج ازدهارها في عهد الملك الظافر "عامر بن عبدالوهاب(٨٩٤ ــ ٩٢٣هـ /١٤٨٩ ــ١٥١٧م)" الذي قلص حكم الأئمة الزيدية[**]، واعتقل دعاتهم

---

(١) سالم (د. سيد مصطفى) : الفتح العثماني الأول لليمن ، القاهرة ، ط ٤ ،١٩٩٢م ، ص٢٥.

(*) الدولة الطاهرية: نسبةً إلى مؤسسيها بني طاهر المنحدر نسبهم إلى أسرة يمنية حميرية رغم أن مؤرخهم ــ ابن الديبع ــ ينسبهم إلى بني أمية . وكانت مساكنهم في "جُبَن" من "رداع" من أعمال البيضاء حالياً . وقد تأسست هذه الدولة على أنقاض الدولة الرسولية عام (٨٥٨هـ/ ١٤٥١م) وبما أنها حكمت معظم أجزاء اليمن، لكنها لم يتجاوز عمرها ثلاثة وستين سنة حتى سقطت بمقتل سلطانها عامر بن عبدالوهاب تحت نيران المماليك إثر معركة دارت بينهم خارج أبواب صنعاء في (٢٣ربيع الأخر ٩٢٣هـ/ ١٥مايو١٥١٧م). (ابن الديبع: (عبدالرحمن بن علي): الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد، (تحقيق: د. يوسف شلحد) . الجرافي:(عبدالله عبدالكريم)، المقتطف من تاريخ اليمن، ط٢، ص ١٣٩؛ العمري: (أ.د.حسين عبدالله) ، دولة بنوطاهر، الموسوعة اليمنية ، صنعاء ، مؤسسة العفيف، ط٢، ٣/ ١٩٣٠ ــ ١٩٣٣).

(**) الزيدية : هي فرقة من فرق الشيعة تنسب إلى مؤسسها زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه(ت: ١٢٢هـ/ ٧٤١م)، وتعتبر أعدل الفرق الشيعية، وأقربها إلى أهل السنة من حيث الاعتدال في المعتقدات والمبادئ والآراء. فلا تعترف بعصمة الأئمة ونظرية الإمام المستور ولا تؤمن بالتقية وتنكر زواج المتعة . كما أنها تقول بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل. وقد دخلت اليمن عبر الإمام الهادي يحيى بن الحسين أحد أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي قدم من جبل الرس قرب المدينة المنورة إلى صعدة عام (٢٨٤هـ/ ٨٩٨م) بدعوة من زعمائها الذين اتخذوه إماماً، فتلقب بالهادي إلى الحق، وكان عالماً محققاً وسياسياً بارعاً، إذ تمكن من تأسيس حكم الأئمة الزيدية في اليمن، الذي استمر أحد عشر قرناً بين قوة وضعف وشد وجزر . وكان له ولفقهه شأن عظيم في تاريخ اليمن. فقد نُسبت إلى فقهه فرقة الهادوية .أنظر : (الأندلسي : ابن حزم)، الفصل في الملل والنحل ، ٤ ٧٦ ــ ٧٨ ؛ الهاروني (يحيى بن الحسين): الإفادة في تاريخ الأئمة الزيدية، (تحقيق: محمد عزان)، ص ٦١ ، ١٢٨؛ الذهبي: (د. محمد حسين)، التفسير والمفسرون ، ٢/ ٢٦٩؛ العمري : (أ. د . حسين=

وسيطر على معاقلهم الممتدة من صنعاء إلى صعدة(*) شمالاً(١)، فامتدَّ نفوذ الدولة "على معظم أرجاء اليمن" (٢) ولو إلى حين .

ففي أثناء محاولة الدولة الطاهرية صد الوجود البرتغالي بمساعدة المماليك في مصر(٣) ، استعادت الإمامة الزيدية نشاطها بزعامة الإمام يحيى شرف الدين(**)، الذي دعا إلى نفسه بالإمامة من المنطقة الشمالية الغربية عام(٩١٢هـ/ ١٥٠٧م) واستعان بالمماليك الذين أجابوه، وتمكنوا من تقويض الدولة الطاهرية وحصرها في عدن ، واستولوا على جزء كبير من اليمن امتد من زبيد ــ على ساحل البحر الأحمر ــ في الغرب إلى صنعاء شرقاً وشمالاً(٤) ، في حين ارتكز نفوذ الإمام شرف الدين على شمال صنعاء وغربها ؛ وبذلك صار اليمن مقسماً بين ثلاث قوى متطاحنة استمر الصراع فيما بينها اثنين وعشرين عاماً حتى جاءت الحملة العثمانية بقيادة سليمان باشا الخادم عام (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) ، فقضت على ما تبقى من الدولة الطاهرية في عدن ، وعلى قوة المماليك الجراكسة في زبيد(٥) ، ثم تمكن العثمانيون بعد ذلك ــ بعقد ونصف ــ من مد سيطرتهم على معظم أجزاء اليمن . لكنها سرعان ما اصطدمت بالمقاومة المحلية بزعامة الأئمة الزيدية .

=عبدالله)، دولة الأئمة الزيدية لأولى، الموسوعة اليمنية ، ١٥١٦/٢ ــ ١٥٢١. ٣٠٥٥/٤ ــ ٣٠٥٦ ؛ (د . علي محمد زيد): الزيدية (مذهب)، الموسوعة اليمنية ، ١٥٤٥/٢ ــ ١٥٥٠) .

(*) صعدة : مدينة تاريخية عريقة ، تبعد عن صنعاء نحو (٢٤٠) كم شمالاً . وهي أم قرى قبائل خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . وكان يطلق عليها مؤرخوا العصور الإسلامية والحديثة اسم بلاد الشام ــ كما سنرى ذلك خلال البحث ــ . (معجم الحجري. تحقيق :إسماعيل الأكوع٢/٤٦٧).

(١) الشوكاني : البدر الطالع ،(تحقيق : أ . د . حسين العمري)، دار الفكر، ص٣١٩.

(٢) العمري : دولة بنو طاهر ، الموسوعة اليمنية ، ٣ /١٩٣١ .

(٣) النهروالي: (قطب الدين)، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص١٩؛ سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٩٢ .

(**) المتوكل على الله يحيى شرف الدين بن شمس الدين : يتصل نسبه إلى الإمام الهادي يحيى بن الحسين : (٨٧٧ ــ ٩٦٥هـ/ ١٤٧٣ــ ١٥٥٨م) . (الشوكاني: البدر الطالع، زبارة : (محمد بن محمد)، نيل الحسنيين بأنساب من باليمن من بيوت الحسنين ، ص١٧٣ ــ ١٧٤).

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص٣٦٩؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، (تحقيق : د. سعيد عبدالفتاح عاشور) ، ٢/ ٦٥٠ ــ ٦٥١ ؛ سالم : نفس المرجع ، ص ١٠٧ــ ١٠٨.

(٥) النهروالي : البرق اليماني ، ص٨٠ ــ ٨٥ ؛ سالم : نفسه ، ص١٦١ــ ١٦٥.

وعلى الرغم من استمرار السيطرة العثمانية على اليمن نحو قرن تقريباً إلا أنها كانت فترة عصيبة لم يعرف اليمن خلالها الهدوء والاستقرار نتيجةً للثورات التي كانت تندلع بين الحين والآخر ضد الوجود العثماني تتزعمها رئاسات محلية ، أو بزعامة الأئمة الزيدية الطامحين للاستقلال بالحكم تحت شعار "نظرية النهوض" الذي يُجيز الخروج على الحاكم الظالم مصبوغاً بالشعور الوطني، وربما المذهبي أحياناً، مستغلين ضعف معظم الولاة وفسادهم وسوء إدارتهم وأطماعهم إضافة إلى ما جُبل عليه اليمنيون من المهارات القتالية التي فرضتها عليهم بيئتهم الصعبة، مع ما صاحب ذلك من اضطراب القوات العثمانية المتواجدة في اليمن، ونظرتها إلى اليمن باعتباره منفى للجنود والأمراء العُصاة والفاسدين لبعده عن العاصمة استانبول، كل ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى استمرار القلاقل والاضطرابات التي أسفرت عن انهيار نفوذ العثمانيين وانسحابهم من اليمن عام (١٠٠٤هـ / ١٦٣٥م)[1].

لقد تفوقت الإمامة الزيدية على غيرها من القوى المحلية الأخرى في زعامة المقاومة اليمنية ضد العثمانيين في اليمن ، ونمى نفوذها خلال ذلك الصراع الطويل مع العثمانيين بقيادة المطهر بن شرف الدين[*] أولاً ، ثم بالإمام القاسم بن محمد[**] وأبنائه فيما بعد ، كما أن تلك الحروب قد أكسبت زعماء الزيدية ، شعبية واسعة تمكنوا بواسطتها من توحيد المقاومة بضم الزعامات الصغيرة تحت قيادتهم ، وبهذا أصبحوا

---

(١) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر : ص ٢٢ ؛ سالم : الفتح العثماني : ٤٠٥ ــ ٤١١.

(*) المطهر بن الإمام المتوكل يحيى شرف الدين: (ت: ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م)، كان شخصية قيادية وسياسية قوية ، ورغم جدارته في تسيير دفة الحكم إلا أنه لم يُعترف به كإمام شرعي ! لعله بسبب التشوه الذي حصل في قدمه، انظر : ما كتبه عنه حفيده عيسى بن لطف الله بن المطهر في كتاب سماه : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح .

(**) القاسم بن محمد بن علي بن الرشيد: (٩٦٧ ــ ١٠٢٩هـ/ ١٥٦٩ ــ ١٦٢٠م) يتصل نسبه إلى الهادي يحيى بن الحسين سالف الذكر، وقد تفرغ في بداية عمره لتحصيل العلم حتى صار من أبرز علماء عصره وله مؤلفات عديدة. وكان سياسياً بارعاً وإدارياً ناجحاً، وقد استفاد من مشاركته للإمام الناصر الحسن بن علي بن داود في حروبه ضد الأتراك والتي آلت إلى أسره، فتنقل القاسم بعدها بين المناطق الشمالية والجنوبية تمهيداً لدعوته التي أعلنها وهو في مشارف الأربعين من عمره. وله أخبار كثيرة تصدى لجمعها معاصره وكاتب سيرته المؤرخ مطهر الجرموزي في كتاب سماه "الدرة المضيئة في السيرة القاسمية" كما تصدى للكتابة عنه العديد من الباحثين. (الشوكاني : البدر الطالع : ٥٦٦ ــ ٥٦٩ ؛ الحبسي: تتمة الإفادة في تاريخ الأئمة السادة،(خ): ص٨٦؛ الحبشي : مصادر الفكر العربي: ٤٣٩؛ العمري: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر: ص ٢٣ ــ ٢٤٩).

مؤهلين لتولي حكم اليمن بعد الانسحاب العثماني الذي كان بمثابة مرحلة إرهاصات لقيام الدولة الزيدية بزعامة الأسرة القاسمية التي امتد حكم أبناءها حتى قيام ثورة (٢٦أيلول "سبتمبر" ١٩٦٢م) ، فكانت بذلك أطول من حكم من مختلف فروع الأسر والبيوت الهاشمية اليمنية في تاريخ الدولة الزيدية الطويل"[١].

وتنسب هذه الدولة إلى مؤسسها الإمام القاسم بن محمد، الذي تزعم قيادة الثورة اليمنية ضد العثمانيين على أربع مراحل متقطعة ـ حسب إشارة مؤلف سيرته ـ ابتداءً منذ إعلان دعوته متلقباً بالمنصور في (صفر ١٠٠٦هـ / سبتمبر ١٥٩٧م) ، وبما أنه لاذ بالفرار ـ من معقله في شهارة[*]، ولجأ إلى جبل برط[**] إثر فشله في هذه المرحلة التي استمرت أربع سنوات ، إلا أنه نجح في المراحل الأخرى ، نظراً لقوة عزيمته وإصراره ومقدرته الفائقة في توحيد جبهات المقاومة تحت زعامته، فتمكن من هزيمة العثمانيين في عدة معارك وسيطر على المناطق الشمالية من صعدة إلى صنعاء إلى الحيمة [***] ، ثم كُلَّل نجاحه هذا بتوقيع معاهدة صلح لمدة عشر سنوات ، وإقرار الإمام القاسم على تلك البلاد التي تمت سيطرته عليها مقابل اعترافه بالسيادة العثمانية على اليمن وذلك في (جماد الأول ١٠٢٨هـ / أيار ١٦١٩م) [٢].

---

(١) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ٢٣.

(*) شهارة : يسكنها قبائل الأهنوم، وتبعد عن صنعاء بنحو (١٨٠كم) إلى الشمال الغربي منها، وتتكون من أربعة جبال شامخة يمثل كل جبل منها عزلة، إضافةإلى الجبل الغربي، وعلى أعلى قمم تلك الجبال تقع مدينة شهارة التاريخية الحصينة التي كانت منبعاً لطالبي السلطة منذ أسعد الكامل في تاريخ ما قبل الإسلام، ثم ذوالشرفين الذي أتخذها معقلاً لصد هجمات الصليحيين في القرن الخامس الهجري، كما جعلها القاسم مركزاً لحركاته الحربية ضد العثمانيين وكذا ولده المؤيد محمد، ومازالت محتفظة برونقها التاريخي والتراثي والعلمي إلى اليوم يرتادها الطلاب والسياح معاً وهي مركز بلاد الأهنوم . (مفرح أحمد الربعي: سيرة الأميرين الشريفين القاسم ومحمد ابني جعفر بن القاسم العياني، (تحقيق : أ . رضوان السيد ، د. عبدالغني عبدالعاطي) ، ص١٥٢ ـ ١٥٤؛ معجم الحجري : ١/٩٥ ـ ٩٩) .

(**) برط : جبل مشهور يقع شمال شرق صنعاء ويبعد عنها بنحو (١٢٠) كم تقريبا ويشكل مديرية من مديريات محافظة الجوف، وهو جبل واسع يشتمل على رقعة زراعية واسعة من بلاد همدان ثم من بكيل . وتسكنه قبائل دُهمة بن شاكر .(معجم الحجري : ١/ ١٠٧ ـ ١١٥؛ معجم المقحفي: ١/ ١٥٥ـ ١٥٦) .

(***) الحيمة: بلاد واسعة تبعد عن صنعاء بنحو (٤٠) كم غرباً وتنقسم إلى مديريتين داخلية وخارجية من أعمال صنعاء. (معجم الحجري ١/٢٥٤ـ ٣٠٢ ؛ المقحفي : نفسه ، ١/ ٥٥٠) .

(٢) غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، ٨٠١/٢ ؛ الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره ، (خ): ورقة ٥٨ أ ؛ سالم : الفتح العثماني الأول لليمن، ص٣٨٥ .

وبعد وفاة الإمام القاسم في عام (١٠٢٩هـ) تم مبايعة ولده الأكبر محمد لتولي قيادة الزعامة الزيدية ، فتلقب بالمؤيد ، وكان على درجة كبيرة من العلم والمعرفة والدراية ، إضافة إلى أن التجارب قد صقلته ، لأنه كان حينها كهلاً في نفس عمر والده "حين دعا لنفسه" [١]. لذلك فقد أسرع في طلب إقرار الصلح السالف ليستغل فترة الهدنة في تكريس جهده لتوطيد حكمه داخل مناطق نفوذه ، ثم التوسع شمالاً حتى نجران ، ومن ثمَّ العمل على جمع الأموال والعتاد استعداداً للوثوب على العثمانيين في أقرب فرصة ممكنة[٢] . فلم تمض ثمان سنوات من حكمه حتى تلمس مبررات نقض الصلح ليعلن الحرب ضد العثمانيين، في (محرم ١٠٣٦هـ) ، لتبدأ المرحلة الخامسة من الثورة التي أسفرت عن انسحاب العثمانيين من اليمن في(جمادي الأول ١٠٤٥هـ)[٣] أي بعد تسع سنوات من الحرب، لتكون اليمن أول ولاية عربية تخرج عن الحكم العثماني فحكمتها الأسرة القاسمية نحو قرنين ونصف حتى عاد العثمانيون مرة ثانيةً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر [٤].

٢- المؤيد بن القاسم وبناء الدولة القاسمية :

لا شك أن صفات الإمام المؤيد العلمية والخلقية[٥] قد أهلته لأن يكون سياسياً ناجحاً وإدارياً ماهراً ، إذ تمكن في البداية من توحيد القوى المحلية المناهضة للحكم العثماني تحت قيادته ، وفي الوقت نفسه عمل على استقطاب الأمراء المساندين للعثمانيين إلى جانبه وذلك بأن ثبَّتهم على ولاياتهم السابقة وضَمِنَ لهم مكانتهم الرفيعة مكتفياً منهم بالتبعية الاسمية للإمامة وعاملهم بالود والتسامح مما جعلهم يلتفون حوله

(١) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ٣٤ .

(٢) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ .

(٣) سالم : الفتح العثماني ، ص ٤٠٤ .

(٤) العمري : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٥) ابن الوزير: طبق الحلوى، ص ٩٨؛ الكبسي : اللطائف السنية ، تحقيق أبو حسان الأذرعي – الجيل الجديد صنعاء ، ص٣٣٦-٣٣٧، الشوكاني: البدر الطالع، (تحقيق: العمري) ، ٧٥٤ ــ ٧٥٦ ؛ الواسعي : فرجة الهموم والحزن من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٨ ؛ البسام: (حياة)، الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم ، ص ٥٤ .

بقناعة مظهرين إخلاصهم في إدارة ولاياتهم ، وهذا ما وجدناه واضحاً في معاملته للأمير عبدالرب [*] والأمير سنبل[**] اللذان دخلا تحت طاعته عام (١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م) فأقرهما على إمارتيهما و أحسن إليهما[١] . ولعل هذه المعاملة كانت من أهم دوافع إعلان الأمير عبدالقادر الخنفري[***] أمير "عدن" تبعيته ومساندته للإمام في العام الثاني، وكذا أمير الشِّحر [٢]، وأشراف أبي عريش [٣]، لذلك تمكن من الاستقلال عن الحكم العثماني خلال ستة عشر سنة من توليه القيادة دون أن يتأثر كثيراً بالفراغ الإداري الذي تركه العثمانيون بعد انسحابهم.

وبما أن المؤيد قد وزع ولايات معظم اليمن على أخوته وأعتمد عليهم في إدارتها مانحاً لهم الصلاحيات الواسعة ، لكنه كان يتابعهم من شهارة ـ حاضرة الدولة ـ ، مستمراً في مراسلتهم وحثهم على التواضع والعدل بين الناس ويوصيهم الرفق بالرعية[٤] . وفي الوقت نفسه كان لا يتغاضى عنهم ، فإذا بدر من أحد عماله ما يُغيضه

(*) الأمير عبدالرب بن علي بن شمس الدين بن شرف الدين : كان أميراً من جهة الأتراك على كوكبان الواقعة شمال غرب صنعاء ، فانحاز إلى الإمام، وقُتل هو ووالده وهما محاصرين للأتراك في تعز عام(١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م) . (يحيى بن الحسين : غاية الأماني ، ٨٢٣/٢ ؛ أمة الملك الثور : بناء الدولة القاسمية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٤م، ص٢٤٤ حاشية).

(**) سنبل بن عبدالله : كان أحد القادة الأتراك وأميرا على إمارة ذمار، فانضم إلى الإمام المؤيد وبرز دوره في حرب الأتراك . وبعد الاستقلال ضم إليه الإمام ولاية وصاب واستمر والياً حتى وفاته . (يحيى بن الحسين : غاية الأماني ، ٢/ ٨٢٤ ؛ أمة الملك الثور : بناء الدولة القاسمية ، ص٣٣٧ حاشية) .

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ، ٢/ ٨٢٣ ـــ ٨٢٤ .

(***) الأمير عبدالقادر الخنفري اليافعي: (ت: ١٠٤٩هـ) كان أميراً على أبين وخنفر . وفي عام (١٠٣٧هـ) تمكن من الاستيلاء على لحج وعدن من أيدي العثمانيين، وسيتضح دوره مع الإمام في الفصل الثاني .

(٢) الشرفي : اللآلئ المضيئة ، (خ) : ٣/ ص ٥١١ ، ٦٢٨ ؛ الجرموزي : الجوهرة المنيرة، (تحقيق : أمة الملك الثور) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٤م، ص٦٢ .

والشحر : على ساحل حضرموت ، وتعد من أهم المدن التجارية . (معجم الحجري: المجموع ، ٢/ ٤٤٧ ؛ المقحفي: ١/ ٨٥٢ ؛ وعن حضرموت والمناطق الشرقية والجنوبية انظر: ما سيأتي في الفصل الثاني).

(٣) الجرموزي : الجوهرة المنيرة ، ص٣٧، ٦٠ .

و أبي عريش : مدينة تاريخية كانت مركزاً لإدارة ولاية المخلاف السليماني الممتدة على سهل تهامة من حلي ابن يعقوب شمالاً إلى حرض جنوباً، ويتزعمهم الأشراف الخواجيون المنحدرين من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب(كرم الله وجهه) . (زبارة: نيل الحسنين، ص ١٣٤، ١٦٨؛ انظر: الملحق (١٤) شكل رقم أ).

(٤) ابن الوزير: طبق الحلوى، ص٥١ ـــ ٥٢؛ الكبسي: اللطائف السنية، طبعة الجيل؛ البسام: الإمام المؤيد، ١٤٢ـــ ١٤٣.

يقول : يا عُمَرَاه [1] مشيراً إلى عدالة وحزم الخليفة عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ، ومن مظاهر عدل المؤيد وعدم تغاضيه عن المظالم أنه عزل أخاه الحسين (ت : ١٠٥٠هـ) عن الولاية عام (١٠٤٣هـ) بسبب شكوى وصلته من أهل الحيمة تشير بأنه فرض عليهم تسليم فطرة العيد نقداً وليس عيناً، وأنه يحتجب عن الناس، حينها أمر الإمام المؤيد بإخراج الصاع النبوي ، وضم تلك الولاية إلى ولاية أخيه الحسن(٩٩٦ ـ ١٠٤٨هـ / ١٥٨٨ ـ ١٦٣٨م) وأمر أخاه الحسين بمواصلة تعليمه والتفرغ للدراسة [2] .

يتضح من خلال هذا العرض السريع لإدارة المؤيد أنه حاول تطبيق مبادئ الخلافة الإسلامية الراشدة في حكمه ، فهل نجح في ذلك ؟ وكيف كان موقفه من طموحات أمراء الأسرة ؟

الواقع أن المؤيد بن القاسم تمكن من تثبيت أركان الدولة ونشر الأمن والاستقرار في أرجائها وذلك بواسطة سياسته الحكيمة التي اتسمت بالزهد والتقشف والعدل والتسامح والحزم والعزم والحرص على أموال بيت المال ، فبنى دولة زيدية تمتد من نجران شمالاً إلى عدن جنوباً[3] ومن جزيرة كمران غرباً إلى حضرموت شرقاً. وإن كانت بعض أطرافها لم تدخل تحت سيطرتها لكنها كانت تُدين له بالولاء والطاعة الاسمية بواسطة تلك المراسلة السلمية التي كان يستخدمها مع زعمائها المحليين[4] . إذاً فلا مبالغة إن أُطلق عليه "المؤسس الفعلي لحكم الأسرة القاسمية الزيدية في اليمن"[5] . لكنه لم يتمتع بالاستقرار في حكم هذا القطر الشاسع مستقلاً عن العثمانيين أكثر من ثلاث سنوات حتى تفاجأ بوفاة أخيه الحسن في (٣شوال ١٠٤٨هـ) الذي كان

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر، (خ) : ١ / ق ٦٤ أ .

(٢) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

(٣) الشوكاني : البدر الطالع ، ص ٧٥٥ ؛ الجرافي : المقتطف ، ص ٢١٣.

(٤) الشرفي: اللآلي المضيئة ، (خ): ٣/ ٥٦٨ ؛ يحي بن الحسين: بهجة الزمن،(تحقيق: الحبشي): ص ٤٨.

(٥) البسام : الإمام المؤيد محمد بن القاسم . ص ٥٤ .

يمثل ساعده الأيمن والقائد الأعلى لجيشه[١] ، فظهرت بوفاته خسارة المؤيد وأول بادرة لطموحات الأمراء من أبناء الأسرة القاسمية .

لقد اعتقد الأميران محمد (ت: ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م) وأحمد ــ المهدي فيما بعد ــ ابني الحسن أن عمهما الإمام المؤيد سيوليهما منصب إدارة البلاد وقيادة الجيش بدلاً عن والدهما المتوفى ، لذلك ترك محمد بن الحسن "صَعدة" ــ مقر إمارته ــ واتجه مسرعاً إلى "ضُوران"[*] مقر حكم والده الراحل ، ثم نصَّب نفسه والياً عليها وساعده في ذلك أخوه أحمد ، وأخذ يمارس سلطته فقرَّب أتباع والده ، وأمر بفتح الدواوين وضبط الجند [٢]، وغير ذلك من التنظيمات الإدارية التي أكسبتهما شهرة بين أعيان وأفراد الولاية ، وحظيا بمحبتهم وإخلاصهم ، لدرجة أنهم لم ينصاعوا لتوجيهات الحسين بن القاسم الذي كان الإمام المؤيد قد كلفه بإدارة تلك الولاية مع ولايته السابقة[٣]. الأمر الذي جعل الحسين يحسُّ بالإهانة ، وحمله على الإضراب عن العمل ، لكن الإمام المؤيد أحسَّ بخطورة الموقف وخاف من اتساع هذا الطموح حتى يصل إلى المطالبة بالإمامة ، لذلك أصدر توجيهات صارمة تقضي بتولية أخيه الحسين ولاية أخيه الحسن ، ومنع ولدا الحسن عن ممارسة السلطة إلا بتوجيهات عمهما الحسين [٤] .

يبدو أن محمد بن الحسن كان إدارياً بارعاً حيث انصاع للتوجيهات فسحب أتباعه إلى ذمار[**] في بداية عام(١٠٤٩هـ)[٥] ، واستعطف عمه الحسين في منحه ولاية

---

(١) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص٢١٧ ؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ٣٥ .

(*) ضوران : مدينة تقع في السفح الشمالي من جبل آنس الواقع جنوب غرب صنعاء على مسافة (٦٠كم) وشمال غرب ذمار ، وقد اختطها مع حصنها الدامغ الأمير الحسن بن القاسم واتخذها حاضرة إمارته ، ثم اتخذها من بعده أخيه إسماعيل وجعلها حاضرة دولته . (معجم الحجري : ٢١/١ ، ٥٥٤/٢ ؛ معجم المقحفي : ١/ ٩ ، ٩٥٠) .

(٢) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص ٦١ ؛ البسام : الإمام المؤيد محمد بن القاسم ، ص ٤٩ ، ١٤٥ .

(٣) ابن الوزير: طبق الحلوى، ص٦١ ــ ٦٢ ؛ ابن عامر: بغية المريد (خ): ص ٣٣٨؛ الكبسي: اللطائف السنية ، الجيل الجديد — صنعاء ، ص٣٣٩؛ الجرافي: المقتطف، ص ٢٢٢؛ البسام : الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم، ص ٤٩.

(٤) البسام : الإمام المؤيد محمد بن القاسم ، ص ٤٩ ــ ٥٠ .

(**) ذمار: مدينة تاريخية وأثرية مشهورة تقع جنوب صنعاء وتبعد عنها بنحو (١٠٠) كم . (الحجري : ١/ ٣٤١ ؛ معجم المقحفي: ٦٤٩/١) .

(٥) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص ٦٧ .

بعض المناطق لتسد نفقات أتباعه فأجابه إلى طلبه[1] ، لذلك استمر ينظم إدارته ويقوي سلطته بهدوء . أما أحمد بن الحسن فقد منحه عمه الحسين ولاية "وصاب"[*] لكنه استحقرها مقارنةً بالبلاد التي كانت تحت يد والده ، لذلك أعلن عصيانه مطالباً بولاية والده ، فجمع أتباعه في آخر شهر شعبان (١٠٤٩هـ) وهجم بهم على "عُتُمة"[**] ونهبها وطرد واليها ـ ولعله أراد توسيع إمارته شرقاً لخصوبة تلك المنطقة ـ ، حينها أمر الإمام المؤيد أخاه الحسين ومحمد بن الحسن بسرعة تلافي هذا العصيان وإخماده ، فاصطدما معه في معركة كبيرة أسفرت عن هزيمة أحمد بن الحسن والقبض عليه بعد مقتل الكثير من أصحابه[2]. وبعد تأديبه أمره الإمام المؤيد بالإقامة في صنعاء ومواصلة تعليمه، مبرراً موقفه من عدم توليته بصغر سنه وبأنه مازال في حال طلب العلم [3]، أما بعض المصادر فقد أشارت بأن الإمام أجاب على من توسط تولية أحمد بن الحسن ولاية والده بأن الولاية ليست من ضمن ممتلكات والده حتى يرثها عنه [4] .

مهما كانت مبررات المؤيد في عدم توريث الولايات للأبناء إلا أنه تمكن من الصمود أمام طموح الأمراء فحافظ بهذا الإجراء على وحدة الدولة المركزية التي لم يتمكن من أتى بعده من المحافظة عليها مثله ، أضف إلى ذلك أنه تصدى لتسلط الأمراء على الرعية ، فقد عزل أخاه إسماعيل ـ المتوكل فيما بعد ـ عن ولاية "ضوران" و"ريمة"[***] مما أثار غضب الأخير وعزم على الهجرة إلى مكة والاستقرار بها لولا وفاة أخاه المؤيد في (رجب ١٠٥٤هـ/ سبتمبر ١٦٤٤م) فحالت بينه وبين الهجرة[5].

---

(١) البسام : المرجع السابق ، ص ٥١ .

(*) وصاب : مخلاف واسع من أعمال ذمار ، ويقع في جنوبها الغربي . (معجم الحجري ٧٦٧/٢ ؛ معجم المقحفي ٢/ ١٨٧٣) .

(**) عُتمة : منطقة واسعة تقع جنوب غرب ذمار وتبعد عنها بنحو (٥٢) كم . (معجم الحجري : ٥٧٦/٢ ؛ معجم المقحفي : ١٠١٤/٢) .

(٢) الشرقي : اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣ / ٦٥٢ ؛ الحبشي : يوميات صنعاء، ص ٤٩، ابن الوزير : المصدر السابق ، ص ٦٩ ـ ٧٠ ؛ ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص ٣٣٨ ؛ الكبسي : اللطائف السنية ، الجيل الجديد ، ص٣٤٤.

(٣) الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره ، (خ) : ص ١١٨.

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ١/ ق ٢٥ب؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص ٦٩ .

(***) ريمة : يقصد بها ريمة الأشابط وهي بلاد واسعة وخصبة تقع جنوب غرب صنعاء على بُعد (١٤٠) كم تقريباً. (معجم الحجري : ٣٧٧/١ ؛ معجم المقحفي: ١/ ٧٢٣) .

(٥) الأكوع : هجر العلم ومعاقله ، ٢/ ١٠٧٨ .

خلاصة القول : أن الإمام المؤيد تمكن بسياسته الحكيمة وحُسن إدارته أن يحكم اليمن كاملاً وتصدى لطموحات أمراء الأسرة ، كما أنه أبان عن دوره العلمي وشغفه به فله عدة مؤلفات ، وكذا باستقطابه للعلماء وتحفيزه للمتعلمين وموافاتهم بالنفقات ، وإحياء مدارس العلم [1] . أما المنشآت العمرانية فقد قام بشق قناة للمياه بطول (١٢كم) تقريباً تمتد من سفح جبل شهارة إلى قرية وادي "أقر"[*] ، وحفر فيها أبار يدوية ووسع المسجد والسوق وبنا فيها دوراً للدولة ــ لأنه كان يقضي فيها فصل الشتاء لاعتدال درجة حرارتها بالنسبة لشدة برد شهارة خلال هذا الموسم ــ ، كما وسع الطريق المؤدية إلى مدينة شهارة ، ووسع الفرع المؤدي إلى شهارة الفائش وجعلها للجمال والخيل[٢] . وأنشأ أخوه الحسين بركة كبيرة ــ خزان ماء ــ في مدينة شهارة مازالت تستخدم حتى الآن ، وبنا سمسرة ــ خان ــ في سوق آخر . وكذلك أخوه الحسن قام ببعض الإصلاحات في تهامة والموانئ اليمنية وبعض الجزر مثل جزيرة كَمران وفَرَسَان وزَيْلَع ، وكذا قام باختطاط مدينة ضوران آنس ــ سالفة الذكر ــ وزودها بجميع المرافق وجعلها مقراً لحكم ولايته[٣] . أما أخوه أحمد المعروف بـ"أبي طالب" (ت : ١٠٦٦هـ) فقد شيّد جامع الروضة[*] وأوقف عليه الأوقاف الجزيلة التي تضمن دوام المحافظة عليه فما يزال محتفظاً برونقه وجماله حتى الآن[٤]. إضافة إلى ذلك فإن الإمام المؤيد حوّل كل المنشآت التي كانت بأيدي العثمانيين إلى بيت المال على عكس أخيه إسماعيل الذي جعلها ملكاً لبعض الأمراء فيما بعد[٥] .

---

(١) الجرموزي : الجوهرة المنيرة ، ص ٣٦٨ ، ٤٠٧ ، ٧٥٣ .

(*) تسمى اليوم بالقابعي ، وتقع أسفل جبل شهارة من جهة الجنوب ، وتطل على وادي وعار الخصيب .

(٢) الشرفي : اللآلئ المضيئة ، (خ) : ٣/ ٤٣٦ ــ ٤٣٧ .

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، ٢/ ٨٣٤ ؛ الجرموزي : الجوهرة المنيرة ، (تحقيق : د . أمة الملك الثور) ، ١/ ٧٣٦ ــ ٧٣٩ .

(*) الروضة : بلدة خصبة تابعة لبني الحارث ، تبعد عن صنعاء بنحو (١٠) كم شمالاً وكانت متنزه للأئمة وهي اليوم أحد أحياء صنعاء. (انظر معجم الحجري : ١/ ٣٧٣) .

(٤) انظر: صلاح بن عيسى : ذيل روح الروح ،(خ): ق٢٣ ؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٤٠ ؛ الغالبي : (سلوى) ، المتوكل عى الله إسماعيل ، ص ١٥٦

(٥) الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد (خ) : ص ١٢٠ .

٣- ازدهار دولة المتوكل إسماعيل وظهور مراكز القوى :

لم تنعم البلاد الهدوء والاستقرار أكثر من عشر سنوات ـ بعد طول صراع تم خلاله انسحاب القوات العثمانية من اليمن ـ حتى اشتعل أول صراع على السلطة تمحور فيما بين أمراء الأسرة القاسمية كاد أن يعصف بالبيت الحاكم لولا تداركه بعد شهرين من الصراع الذي سقط فيه الكثير من الضحايا. وقد اندلع هذا الصراع إثر وفاة الإمام المؤيد آخر شهر رجب(١٠٥٤هـ)[١] ، حيث قام مستشاروه وعلماء حضرته بمبايعة أخيه أحمد أبي طالب ـ الذي كان مقيماً لدى أخيه الإمام من بعد انسحاب العثمانيين وحضر وفاته[٢] . وبالرغم من حيازته على شروط الإمامة [**] إضافة إلى كبر سنه وسابقيته في نضاله مع والده ثم مع أخيه المؤيد إلا أن أخيهما إسماعيل أعلن إمامته من ضوران ـ مقر ولايته ـ بمساندة العلماء والقواد الذين التفوا حوله بعد وصوله من تعز[*] العام السابق استعداداً لهذا الأمر[٣] . ولعل الإمام المؤيد قد أدرك طموح أخيه إسماعيل مبكراً خاصة بعد استيلائه على البلاد المجاورة لولايته ضوران[٤]. وهذا تفسيرٌ كافٍ للخلاف الذي وقع بينهما والذي أدى إلى عزل إسماعيل عن الولاية قبل وفاة الإمام ببضعة أيام .

وبما أن كلا الأخوين قد حازا شروط الإمامة إلا أنهما أظهرا طموحاتهما للوصول إلى السُلطة وذلك بتمسك كل منهما بدعوته مهما كان الثمن ، رافضين مساعي الصلح التي قام بها العلماء والأعيان ، حيث استمر أبوطالب في إرسال أتباعه ليمدّوا نفوذه ،

---

(١) الشرفي : ذيل اللآلئ المضيئة،(خ) : ٣/ ٦٥٨؛ صلاح بن عيسى: ذيل روح الروح،(خ): ٢٨؛ الكوكباني: المختصر المستفاد من تاريخ العماد (خ) : ١١٩؛ الكبسي: اللطائف السنية، الجيل الجديد ، ص ٣٥٣ – ٣٥٧.

(٢) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ٣٥٦ .

(**) شروط الإمامة عند زيدية اليمن هي : أربعة عشر شرطاً، وتنقسم إلى نوعين هما : خلقية واكتسابية ، أما الخلقية فهي : أن يكون مكلفاً، ذكراً، حراً، علوياً ، فاطمياً،[أي من نسل علي بن أبي طالب من زوجته فاطمة ابنة الرسول الكريم(ﷺ)]، سليم الحواس والأطراف. والإكتسابية هي: أن يكون مجتهداً، عدلاً، سخياً، يضع الحقوق في مواضعها، مُدبّراً، أكثر رأيه الإصابة، مقداماً حيث يجوز السلامة، لم يتقدمه مجاب.(أبو الرجال: الروض الزاهر(خ) : ١/ ق٤ ب ؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث ، ص ٢٢حاشية رقم٢) .

(*) تعز : مدينة مشهورة واسعة تقع جنوب صنعاء على بُعد (٢٦٠) كم . (معجم الحجري: ١/١٤٥ ؛ معجم المقحفي: ١/٢٣١) .

(٣) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ٣٨؛ الكبسي : اللطائف السنية ، الجيل الجديد ، ص ٣٥٣ – ٣٥٧.

(٤) الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٣ .

فسيطر على المناطق الشمالية حتى صنعاء التي دخلها نحو أربعة آلاف مقاتل بقيادة ولده محمد ، لتقرير الأمن فيها والحفاظ عليها[١]، ثم وصلت بيعته إلى ذمار[٢]، وكاد أن يسيطر على السلطة تماماً لولا أنه أمسك يده عن العطاء ، ورفض تثبيت أولاد اخوته على ولاياتهم [٣]، وكذا لم يمنحهم زيادة على الولايات التي كانت لهم في عهد أخيه المؤيد[٤]. ولعله أراد أن يحذو حذو أخيه المؤيد ، وهذا ما أضعف من شأنه فتخلى عنه القوّاد والأمراء حين أدركوا عدم ضمان مصالحهم .

أما أخوه إسماعيل فقد كان أكثر المتنافسين طموحاً وأشدهم دهاءً وحنكة إذ عمل على ضم ابن أخيه الأمير محمد بن الحسن إلى جانبه ، الذي كان داعيا إلى نفسه بالإمامة أيضاً ومن أخطر المنافسين ، لأن بيده قيادة الجيش وإدارة اليمن الأسفل كله والذي يعتبر من أهم مصادر التمويل في اليمن[٥] . وكذا عمل مرسوماً التزم فيه بعدم تغيير الولاة من ولاياتهم[٦]، بل وزاد لبعضهم عليها، حيث منح الأمير محمد بن الحسين ابن الإمام القاسم(ت: ١٠٦٧هـ /١٦٥٧م) بلاد حفاش وملحان وحراز[*] ــ غرب صنعاء ــ وكانت ولايته على بلاد البستان فقط[٧] . ثم منح قواد وجنود أخيه أحمد الموكلين بحفظ صنعاء مرتبات ستة أشهر مقدماً لغرض تفريقهم . لذلك مال القواد والأمراء إلى مناصرته ، بعد ذلك طلب من أخيه أبي طالب الاجتماع للمناظرة العلمية[٨]

---

(١) الشرفي : ذيل اللآلئ المضيئة ، (خ) : ٣ / ٦٥٩ .

(٢) الجرموزي : تحفة الأسماع والأبصار، (تحقيق :عبدالحكيم الهجري)، مؤسسة الإمام زيد، ٢٠٠٢م، ٢٢٩/١ .

(٣) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) ، ٣٥٦؛ الوزير ، طبق الحلوى ، ص٩٩ .

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ): ١/٧٥أ .

(٥) الشرفي : ذيل اللآلئ المضيئة،٣/ ص٦٥٩؛صلاح بن عيسى:ذيل روح الروح، (خ):٢٨؛ابن عامر:بغية المريد،٢١٨ الكوكباني: المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره ، (خ) : ص ١١٩؛ الكبسي : اللطائف السنية ، الجيل الجديد ص٣٥٤-٣٥٧ ؛ الجرافي : المقتطف ، ص ٢٢٥ .

(٦) الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد ، (خ): ص ١٢١ .

(*) حفاش وملحان : جبلان يقعان إلى الغرب من المحويت ، وجنوبهما تقع جبال حراز التابعة لصنعاء ، وكلها جبال خصبة. (معجم المقحفي : ٤٨٢/١ ، ٤٤١ ، ١٦٣٥/٢) .

(٧) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص ١٠١.

(٨) الجرموزي: تحفة الأسماع والإبصار، ١/ ٢٢٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٣؛ صلاح : ذيل روح الروح،(خ): ص ٢١.

ــ باعتبارها الحل الحاسم للمتنافسين على الإمامة في المذهب الزيدي ــ والتي تتم في مجمع من العلماء الذين يحكمون في أخرها للأَعلمْ والأَجْدرَ بأمر الإمامة[1].

لقد أجاب أبوطالب دعوة أخيه إسماعيل للمناظرة بشرط رفع الحصار عن مدينة عمران[*]، وخرج في ٢٧ رمضان من شهارة ــ مقر دعوته ــ لغرض المناظرة ، لكنه عرَّج إلى ثلا[**] للتمركز فيها وذلك لعدم تنفيذ شرطه المذكور ، لكن جنود المتوكل أحاطت به من جميع الجوانب فوقعت بينهما معركة كبيرة أضعفت مركزه ، مما اضطره إلى تسليم نفسه بواسطة أمير كوكبان[***] ــ الناصر بن عبدالرب (ت : ١٠٩٧هـ) الذي سار به وبجميع أصحابه إلى المتوكل إسماعيل المتمركز في ضوران ، ورغم أنه استقبله استقبالا رسمياً لكنه لم تتم المناظرة بينهما حسب الاتفاق المذكور أنفاً ، بل تم الصلح بينهما بتنازل أبي طالب عن دعوته وتوليته صعدة وبلادها التي استقربها حتى وفاته عام (١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م)[2] ــ كما سيأتي ــ . ومن هنا صارت السُلطة حكراً لمن يملك القوة وتتوفر فيه الحنكة السياسية من أمراء الأسرة القاسمية ــ غرس قاعدتها المتوكل ــ دون النظر إلى شروط الإمامة المنصوص عليها في المذهب الزيدي، وبذلك ظهر تنافس أمراء الأسرة الحاكمة على السلطة مجرداً بعد أن كان مخفياً تحت الشعور بالوطنية ومحاربة الظلم والفساد في عهد الأتراك[3] .

أشارت المصادر إلى أن المتوكل إسماعيل تمكن من الاستقلال بالسلطة ومد نفوذه حتى شمل مخاليف اليمن كلها من نجران وعسير شمالاً إلى عدن جنوباً ومن ظفار

---

(١) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٤٠ .

(*) عمران: مدينة همدانية تاريخية أثرية واسعة تقع شمال صنعاء وتبعد عنها بنحو(٧٠)كم.(معجم الحجري: ٦١١/٢ ؛معجم المقحفي:٢/ ١١١٨).

(**) ثلا : مدينة تاريخية أثرية تنسب إلى ثلا بن لُباخة من حمير الأصغر ، تقع شمال غرب صنعاء وتبعد عنها بنحو (٤٥) كم. (معجم الحجري : ١٦٦/١).

(***) كوكبان : حصن مشهور يطل على شبام المذكورة من جهتها الغربية ، ويبعد عن صنعاء بنحو (٤٥)كم في شمالها الغربي. (معجم الحجري : ٦٦٨/٢) .

(٢) الجرموزي : نفس المصدر ، ١/ ٢٤٣ ــ ٢٤٥؛ ابن عامر: بغية المريد، (خ): ص٣٥٧ ؛ صلاح: ذيل روح الروح، (خ): ق ٢٨ ؛ الجنداري: الجامع الوجيز، (خ): ق١٤٥؛ العمري: نفس المرجع ، ص٤٠ .

(٣) البردوني : (عبدالله) اليمن الجمهوري ، ط٤، ١٩٩٤م ، ص٢٩.

حضرموت شرقاً إلى مواني وجزر البحر الأحمر غرباً(١)، كما نعمت البلاد بالأمن والاستقرار في معظم عهده(٢)، فصاحبها ازدهار في الحركة الأدبية والفكرية لم تشهدها اليمن خلال عهود سابقيه(٣)، مصحوبةً بعلاقات خارجية جيدة(٤) . لكننا إذا ما تتبعنا سياسته في الحكم لوجدنا أن ذلك الازدهار والاستقرار قد حمل بين طياته بذور انهيار الأوضاع التي انفجرت في آخر عهده كنتيجة طبيعية لأخطاءٍ عديدة ارتكبها خلال حكمه الطويل، والتي بدأها بتثبيت الولاة على ولاياتهم الذي كان شرطاً في اعتلائه السلطة، وكان عليه أن يعالج هذا الخطأ ولو بنقل الولاة من ولاية إلى أخرى تفادياً للخطر الذي يشكله الوالي حال استقراره في ولايته، وذلك باستحواذه على إيرادات ولايته فينفقها في تقوية نفسه بتكوين جيش واستمالة القبائل وكسبهم إلى جانبه، فيشكل بذلك ما يسمى بمركز قوى يهدد مركزية الدولة، ويحاول السيطرة على الحكم متى سنحت له الفرصة . ولعل المتوكل قد تنبه إلى ذلك الخطأ لكنه لم يتمكن من تغيير الوالي المشبوه في أمره نظراً للاتفاقية التي أبرمها في بداية دعوته والتي ألزمته عدم تغيير الولاة (٥). وهذا ما لمسناه من اضطراب أحوال صعدة بين الحين والآخر ، فاتهم الإمام المتوكل إسماعيل أخاه أحمد بأنه يساند تلك الحركات التمردية (٦)، ورغم سرعة وصول الأخير إلى أخيه الإمام لدفع التهمة عن نفسه إلا أن الإمام كان يهم بتغييره لولا الاتفاقية المبرمة سابقاً وعدم رضوخ الأمير محمد بن الحسين لإمر الإمام الذي قضى بتوليته ولاية صعدة عام (١٠٦١هـ/ ١٦٥١م) وذلك عندما قارنها بولايته الهادئة والمطيعة ، مما جعل الإمام

---

(١) الأكوع : هجر العلم ومعاقله ، ٢ / ١٠٧٨ ؛ ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ٣٩٨ ــ ٣٩٩ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٢/ ١١٤ أ .

(٣) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٦٠ .

(٤) أمة الغفور الأمير : التطورات السياسية في اليمن آخر القرن السابع عشر الميلادي ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، ٢٠٠٤م ، ص٦٩ ــ ٧١ .

(٥) الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد ، (خ): ص١٢١ .

(٦) كان العلامة إبراهيم بن محمد المؤيدي (ت : ١٠٨٢هـ) يتزعم تلك الحركات حيث كان يدعو إلى نفسه بالإمامة بين الحين والآخر ويسانده الشيخ يحيى روكان أحد زعماء قبائل خولان صعدة، ولهما أحداث كثيرة مع المتوكل راجع : (الجرموزي : تحفة الأسماع والأبصار ، ٢/ ٥٩٩؛ الجنداري : الجامع الوجيز ،(خ) : ق١٤٦ ــ ١٤٧ ؛ الجرافي : المقتطف ، ص٢٢٦ ؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٤٠ ــ ٤٧) .

يتراجع عن قرار تغيير أخيه معللاً ذلك بخوفه من حصول الوحشة والقطيعة فيما بينهما[1].

ورغم ظهور النتائج العكسية لتثبيت الولاة منذ الربع الأول من حكم المتوكل إلا أن ما يثير الاستغراب هو عدم التفاته لتصحيح هذا الخطأ إلا بعد أن اقترف خطأً آخراً يكمن في توريث الولاية لأبناء الأمير الراحل ابتداءً من توريث علي بن أحمد[*] ولاية صعدة بعد وفاة والده أحمد أبوطالب عام(١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م)[2] مما زاد في خطر استفحال مراكز القوى .

وعندما أراد المتوكل تصحيح الخطأ الأول أو الحد منه على أقل تقدير كان الولاة قد أحكموا قبضتهم على الولايات واستبدوا بها واعتبروها ملكاً لهم ؛ فعلى سبيل المثال كان قد أقر محمد بن الحسن على ولاية اليمن الأسفل الذي أحكم قبضته عليها ، وسيطر على جميع شؤونها حتى دُعي بـ "ملك اليمن" [3]، وعندما أراد المتوكل إرسال عاملٍ على "العدين"[*] بعد وفاة العامل السابق عام(١٠٧٢هـ/ ١٦٦٢م) منعه محمد بن الحسن "ونبهه على أن البلاد بلادي فيها عاملي"[4]، ثم أن الإمام استعطف محمد بن الحسن "بأن يسمح له بالعدين فلم يرُ بدّاً من عدم الإسعاد"[5]. ولعل المتوكل لم ييأس فقد حاول معالجة ذلك التسلط تدريجياً حيث كان يرسل بعض العمال لحكم جزء من الولاية إلى جانب عمال أولاد اخوته لكن كان ذلك يؤدي إلى اضطراب الأوضاع وتوتر العلاقات فيما بينه وبين أولاد اخوته . ففي عام (١٠٧٤هـ/ ١٦٦٤م) وقعت معركة فيما بين عامل محمد بن الحسن وعامل المتوكل في تعز ، وبما أنها لم تسفر عن

---

(١) الشرفي: ذيل اللآلي المضيئة،(خ): ٣/ ٦٦٢ ؛ الجرموزي: تحفة الأسماع والأبصار، ص ٥٩٩ـ ٦٠١.

(*) علي بن أحمد ابن الإمام القاسم: (١٠٤٠ ـ ١١٢١هـ /١٦٣١ـ١٧٠٩م) كان سياسياً بارعاً وقد شكل أخطر مراكز القوى كما سيأتي معنا. (زبارة : نشر العرف ، ١٦٨/٢؛ انظر : ما سيأتي ، ص ١٢٩وما بعدها).

(٢) الشرفي : نفس المصدر (خ) : ٣/ ٦٦٣ ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص١٤٤ ـ ١٤٥؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء، ص ٥٩ ؛ ابن عامر : بغية المريد، (خ) : ٣٧١ ـ ٣٧٢ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز ،(خ): ق ١٤٩ب.

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ١/ ق ٢٣٤ ب .

(*) العدين : سلسلة جبلية خصبة وواسعة وهي من أعمال إب وتطل عليها من الشمال الغربي. (معجم الحجري : ٢/ ٥٩٠ ؛ معجم المقحفي : ٢/ ١٠٢٩) .

(٤) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص ١٧٨ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ) : ق ١٥١ب .

(٥) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص١٨١.

أضرار كثيرة سوى مقتل أحد الجنود[1] ، لكنها ــ كما يبدو ــ أسفرت عن توتر العلاقة بين المتوكل ومحمد بن الحسن استمرت حتى وفاة الأخير في(٨ ربيع أول ١٠٧٩هـ/١٥/٨/١٦٦٨م)[2]، فكانت الفرصة السانحة لتولية المتوكل معظم ولاياته ، حيث أشار إلى أحمد بن الحسن بأن يُثبّت أولاد محمد بن الحسن على بلادهم التي كانوا عليها في عهد والدهم وباقي الولاية له النصف وللمتوكل النصف [3]، فولىً أولاده على النصف الخاص به حيث جعل ولده علي(ت: ١٠٩٦هـ/١٦٨٥م) والياً على جبلة[*] وتعز بما فيها المخا[**] [4] .

لقد كان المتوكل جاداً في تقليص مراكز القوى والحد من نفوذهم لكنه سلك في ذلك خطأً يبدو أنه كان أكبر من الخطأ السابق لدرجة أنه صار من أهم العوامل التي زادت من اضطراب الوضع في أخر حكمه ؛ ويكمن ذلك الخطأ في تولية أولاده بعض الولايات بدلاً من أولاد اخوته ــ بغض النظر عن الكفاءة والقدرة ــ ، وهذا ما جعلهم يفقدون الثقة بعمهم الإمام وأحسوا باستبداده بالسلطة دونهم واستغنائه بأولاده عنهم ، لذلك جدوا في جمع الأموال والأنصار استعداداً للدفاع عن ولاياتهم ومصالحهم ، وبالتالي التطلع إلى السلطة متى سنحت لهم الفرصة ، وقد اتضح ذلك جلياً حال مرض الإمام عام (١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م)[5] حيث أظهروا استعدادهم للسطو على السلطة، بل إن بعضاً منهم لم ينتظر الفرصة أو يراعي حرمة القرابة فهذا علي بن أحمد ــ أمير صعدة ــ عندما بدأ المتوكل في تقليص نفوذه في ولايته بتولية ولده الحسن بعضاً منها منذ عام(١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م)[6]، بحجة أن علي بن أحمد عجز عن قمع الفساد فيها ، لكن

---

(١) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص١٩٣ ؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٩١ .

(٢) أبوطالب: طيب أهل الكساء، ص١١٠؛ الشوكاني : البدر الطالع ، (تحقيق : العمري) ، ص ٦٧٥ ــ ٦٧٧.

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ١/ ق ٢٦١ب .

(*) جبلة : مدينة أثرية تاريخية مشهورة من أعمال إب وتبعد عنها بنحو (٧) كم. (معجم المقحفي: ١/ ٢٨٥) .

(**) المخا : ميناء مشهور على ساحل البحر الأحمر غربي تعز . (معجم الحجري: ٢/٦٩٤).

(٤) الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره ، (خ) : ق١٢١ .

(٥) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٢/ ق ٦٥ب ــ ٦٧ أ ؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص١٣٧؛ الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ): ق ١٥٦ب .

(٦) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص٣٧٢ ؛ زبارة : نشر العرف ، ١/٤٥٦ .

الأخير تصدى لحملة الحسن وشتت جمعها حتى صارت مع أميرها مثاراً لانتقادات أحد العلماء على ضعف سياسة المتوكل في الحكم[*]، كما كانت سبباً في تقوية نفوذ علي بن أحمد حيث قام بتسوية خلافاته مع قبائل البلاد ومنحهم بعض الامتيازات وصنائعهم[1]، حتى إذا ما ضمن طاعتهم وموالاتهم له وجنَّد الجنود وجمع الأموال ، أعلن العصيان على عمه في (جماد الأول ١٠٨٧هـ/ يوليو ١٦٧٦م)، حيث شن الحرب على الحسن ابن الإمام حتى طرده من صعدة ليستقر في أبي عريش [2]، ومن ثمَّ دعا إلى نفسه بالإمامة، مبرراً دعوته بعجز الإمام عن ضبط شؤون الدولة نظراً لشيخوخته وشدة مرضه[3]، مع تغلب أولاده عليه واستبدادهم [4] ! في حين حظيت دعوته بمساندة وتأييد كبار الأمراء في الدولة بدليل أن الأمير أحمد بن الحسن – قائد جيش الإمام والرجل الثاني في الدولة – كان يتثاقل في تنفيذ أمر الإمام الذي الزمه بالسير لإخماد عصيان علي بن أحمد ، متعللاً للإمام ببعض الأعذار وأنه سوف يراسل علي بن أحمد ويقنعه بالطريقة السلمية ، بل اقترح على الإمام بترك تلك الأقطار البعيدة[5]، لكن المتوكل صمم على تنفيذ الأمر ، حينها قام أحمد بن الحسن بضرب معسكره خارج "الغراس"[*] معلناً

(*) كان العلامة الحسن بن أحمد الجلال (ت : ١٠٨٤هـ) من أبرز علماء عصره الورعين ويتمتع بهيبة عند الأمراء والولاة ، وقد علّق على هزيمة الحسن لصغر سنه مستشهداً بأبيات الوزير المهلبي(ت: ٣٥٢هـ /٩٦٣م) التالية:

طفل يرقُّ الماء في ... وجناته ويرق عوده
ويكاد من شبه العذارى ... فيه أن تبدو نهوده
أناطوا بمنطق خصره ... سيفاً ومنطقه يؤده
جعلوه قائد عسكر ... ضاع الرعيل ومن يقوده

(ابن المؤيد: طبقات الزيدية، ٢٨٧/١؛ زبارة : نشر العرف : ١/ ٤٥٧؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر : ص٥٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، دار صادر ١٢٦/١).

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ٣٧٢ – ٣٧٣ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٢/ ق ١٠٩أ – ١١٠أ ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص١٤٥– ١٤٦؛ ابن عامر : نفس المصدر، ص٣٧٣ .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٢/ ق ١١٠ب –١١١ب ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص١٤٦؛ ابن عامر: نفس المصدر ، ص٣٧٣ ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣٢٢؛ الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ): ق ١٥٧أ ؛ الجرافي : المقتطف ، ص٢٣٤.

(٤) ابن عامر : نفس المصدر ، ص٣٧٣ .

(٥) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣٢٣ .

(*) الغراس: بلدة في منطقة بني الحارث تقع أسفل حصن ذي مرمر الحميري الأثري وتبعد عن صنعاء بمسافة (٣٠) كم في الشمال الشرقي منها (معجم الحجري : ٦٢٢/٢ ؛ معجم المقحفي : ١١٦٩/٢) .

الاستنفار لغزو صعدة مطالباً الإمام بإمداده بالأموال ــ الذي لم ير بداً من تلبية طلبه بعد عدة رسائل جرت بينهما[١]، لكن اتضح أن كل ذلك الاستعداد كان لتطييب خاطر الإمام[٢] الذي فهم ذلك الأمر على ما يبدو فمات كمداً في(٥ جماد الثاني ١٠٨٧هـ/ ١٤/ ٨/ ١٦٧٦م)[٣] قبل أن يتحرك ذلك الجيش لإخماد علي بن أحمد . ومما يدلنا على فهم الإمام المتوكل لمؤامرات أولاد أخوته ضده وعجزه عن قمعهم أنه أوصى ولده محمداً بأن لا يعارض أحمد بن الحسن إذا دعا إلى نفسه ، لإدراكه صعوبة التصدي للأمراء[٤]، ما دام الجيش والمال قد صارا تحت تصرف أحمد بن الحسن .

أما على الصعيد المالي فقد كان المتوكل بحكم تعليمه العالي يصدر قرارات وفتاوي تخدم سياسته المالية وإثراء الخزينة التي كان يحتاج إليها في توسيع دولته ، حتى صارت بعض تلك الفتاوى مثاراً لاعتراضات العلماء والفقهاء[٥]، وهو ما يظهر من تلك الفتوى التي قضت بتحويل أراضي اليمن الأسفل من أراضي عشرية إلى خراجية فاستغلها العمال أبشع الاستغلال لاستنزاف أموال تلك المناطق فصارت عرضة لمظالمهم ومفاسدهم المتنوعة[٦]، في حين تركت أثرها السيئ لمن أتى بعده من الحكام . غير أن الأمام المتوكل لم يتمتع بتلك الأموال التي جمعها نظراً لاستئثار الولاة بها ، حيث نجده في عام (١٠٨٤هـ/ ١٦٧٣م) يتخذ سياسة التقشف فقلل من مقررات الفقهاء والأمراء مما أثار سخطهم عليه ، حتى أن أحد الأمراء انتقد على المتوكل جمعه للأموال ويشير إلى أن هذا الجمع لا مصلحة فيه ، وهنا أمير آخر يشير على الإمام بالتنازل عن السلطة

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ٣٧٣ ــ ٣٧٧

(٢) الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ) : ق ١٥٧ أ .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٢/ ق ١١٣ب؛ الجنداري : الجامع الوجيز ،(خ): ق ١٥٧أ . ب.

(٤) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص٤٣٦ ؛ يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٢/ ق ١٦٦ ب.

(٥) أبوطالب: طيب الكساء، ص٨٢؛ الجنداري: الجامع الوجيز(خ): ق ١٤٧ أ؛ الأكوع : هجر العلم : ٣/١٢٢١.

(٦) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٢/ ١٨٦أ، ب . وعن تحويل الأراضي إلى خراجية وأثرها انظر : الفصل الثالث من هذا البحث ، ص ٢٣٨ وما بعدها.

وذلك بقوله: "إذا قد عجزت عن أمور المسلمين تركت الناس ينظرون فيمن يصلح لهم"(١)! .

ومما يؤخذ على المتوكل في ظل التقدم الفكري والتسامح المذهبي طغيان معتنقي مذهب الجارودية (*) على أجهزة الحكم مما جعل الدولة تتسم بالطابع المذهبي المتطرف والمغالاة في الشعائر والمعتقدات الدينية – التي ظهرت بعد السيطرة الفعلية على حضرموت واستقرار الدولة – حيث أظهر شعار "يوم الغدير"(**) عام(١٠٧٢هـ/ ١٦٦٢م)(٢)، وبعد خمسة أعوام قام عامل صنعاء بطمس أسماء الخلفاء الراشدين المنحوتة على محراب الجامع الكبير (٣) . غير أن الكارثة الكبرى تكمن في قيام بعض علماء الجارودية عام (١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م) بتحريف مؤلف الإمام زيد بن علي – مؤسس المذهب الزيدي سالف الذكر – حيث انتزعوا منه أراءه الموافقة لأراء أهل السنة ونسخوه مبتوراً ، إضافة إلى شتمهم للصحابة علناً(٤).

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٢/ ق ٥٧ ب .

(*) مذهب الجارودية نسبةً إلى مؤسسها أبي الجارود زياد بن أبي زياد ، وهي إحدى فرق الشيعة التي انحرفت عن مذهب الزيدية لزعمها أن النبي ﷺ نصّ على الإمامة في علي بن أبي طالب بالوصف دون الاسم وصرّحت بكفر الصحابة لتركهم بيعة علي ولهم أفكار ومعتقدات تخالف العقل ولا يسع المقام لذكرها . (انظر : ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٧٦ – ٧٧ ، ١٣٧؛ عبدالقاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص٢٢ – ٢٣) ، الزيدية : نشأتها ومعتقداتها للقاضي / إسماعيل الأكوع ، منشورات الجيل الجديد – صنعاء.

(**) يوم الغدير: نسبة إلى "غدير خم" وهو موضع يقع بين مكة والمدينة والذي وقف فيه الرسول ﷺ يوم الأحد(١٨ذي الحجة ١٠هـ) حال عودته من حجة الوداع فخطب في أصحابه خطبة عظيمة ذكر فيها أشياء كثيرة من ضمنها فضل علي بن أبي طالب ﷺ فاتخذ الشيعة الإثناء عشرية من هذا الحديث مناسبة عظيمة، وقد قيل أن أول من سن الاحتفال بها معز الدولة بن بويه، ولم تظهر في اليمن إلا عندما أحياها أحمد بن الحسن، باستحسان المتوكل، لكنهم غالوا في عروض الاحتفال بها، حيث كانوا يخرجون إلى خارج المدينة أو القرية مرددين الأهازيج والرقصات الشعبية وضرب النار وتقليد الخطبة مظهرين الزينة ثم يعودون آخر النهار.(طيب الكساء، ص٨٨ ؛ الشوكاني : در السحابة (تحقيق : أ.د. العمري) ط١، ص٢٠٨ ح ، ٢٢٥–٢٢٦)، وقد تلاشت هذه الظاهرة بعد ثورة عام(١٩٦٢م).

(٢) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٨٨ ؛ وذكره يحيى بن الحسين ضمن أحداث عام ١٠٧٣ هـ، انظر : بهجة الزمن ، (خ) : ١ / ق ٢٠٠ب – ٢٠١أ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص ١١٩ .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ١/ ق ٢٢٨ ب ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص ١٢٦.

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، ١/ ق ٢٥٣ب – ٢٥٤أ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص ١٦١ ، ١٦٤ .

٤- المهدي أحمد وتوسّع نفوذ مراكز القوى :

بعد وفاة المتوكل إسماعيل ـ آخر أولاد الإمام القاسم مؤسس الأسرة القاسمية ـ أستغل أمراء مراكز القوى بزعامة أحفاد القاسم ـ أبناء الجيل الثاني الفرصةـ متطلعين للسلطة ؛ حيث قام أربعة من هؤلاء بطلب الإمامة من مقرات ولاياتهم ، فأعلن أحمد بن الحسن ـ قائد الجيش ـ دعوته من الغراس متلقباً بالمهدي لدين الله ، بعد حصوله على موافقة العلماء والأعيان إثر اجتماعهم المنعقد يوم الأحد (٧/ جماد الآخر ١٠٨٧هـ)[١] ، بينما عارضه أخوه الحسين[*] من رداع متلقباً بالواثق ، وفي الوقت نفسه دعا القاسم بن المؤيد[**] من شهارة متلقباً بالمنصور [٢] .

في حين كان علي بن أحمد أمير صعدة مستمراً في دعوته التي أعلنها سابقاً معارضاً لعمه المتوكل قبل وفاته ، ولعله حاول مدّ نفوذه في ولاية القاسم بن المؤيد ، لكنه وجد نفسه بين داعيين في منطقة نفوذه هما: محمد بن علي الغرباني(ت: ١١٢٦هـ) في برط، وأحمد بن إبراهيم المؤيدي(ت: ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م)[٣]، ورغم ضعفهما لعدم امتلاكهما القوة والمال ـ لكونهما من خارج الأسرة القاسمية الحاكمة ـ إلا أنهما قد أضعفا من نفوذه في ولايته وسببا في اضطرابها [٤] ، مما أخلّ بتماسك قواته التي كان يعتمد عليها في مد سيطرته ؛ الأمر الذي جعله يتنازل عن دعوته ويبايع

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٢/ ق١٢٠أ ـ ١٢٢أ .

(*) الحسين بن الحسن بن الإمام القاسم:(١٠٤١ـ ١١٢١هـ / ١٦٣١ـ١٧١٠م) كان عالما وقيادياً بارعاً كما سيتضح ذلك خلال الفصل الأول، وقد تولى لعمه المتوكل إمارة المنطقة الشرقية الممتدة من ظفار الحبوظي إلى ذمار، ومركز إدارته مدينة "رداع" الواقعة شرقي ذمار بمسافة (٥٣) كم . (زبارة : نشر العرف ، ٥٤٦/١ ـ ٥٥٢ ؛ معجم الحجري : ٣٥٩/١ ؛ معجم المقحفي : ٦٨١/١) .

(**) القاسم بن المؤيد محمد بن الإمام القاسم : (١٠٤٢ ـ ١١٢٧هـ/ ١٦٣٢ ـ ١٧١٥م) يعد من أبرز علماء آل القاسم والمؤمل في نيل الإمامة ومن أهم مراكز القوى الخطيرة وستتضح أدواره السياسية والإدارية خلال التمهيد والفصل الأول . (ابن المؤيد : طبقات الزيدية الكبرى ، ٨٦٩/٢ ؛ زبارة : نشر العرف ،٣٣٠/٢ ـ ٣٣٤).

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن،(خ) : ٢/ ق ١٢٥أ؛ مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ، (خ): ٦٧٢/٣ ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣٢٩ ، أبوطالب : طيب الكساء ، ص١٥٤؛ الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره ، (خ) : ص ١٢١؛ الجنداري : الجامع الوجيز (خ) : ق ١٥٧ب .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ): ١٢٨/٢أ ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣٣٠؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص ١٥٤؛ الجنداري : الجامع الوجيز (خ) : ق ١٥٧ب .

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٢/ ق١٢٥ أ ، ١٢٧ب .

أحمد بن الحسن بواسطة أخيه القاسم[1]، فأجازه المهدي عنها بتوسيع ولايته في "رازح"[*] فأرسل ولده حاكما عليها[2] . وقد كانت من ضمن ولاية الحسن بن المتوكل، ولعل هذا ما أثار سخط الأخير على المهدي أحمد إضافة إلى ما سبق إليه من توجيهاته التي تقضي بإعادة مراكب المجزبي[*] إلى أولاده ، لذلك تراجع الحسن عن مساندة المهدي واعتزا إلى القاسم بن المؤيد[3] .

ويبدو أن معظم أمراء مراكز القوى كانوا في طور التكوين لمراكزهم ولم يكونوا قد تمكنوا من الحصول على الإمكانيات التي تؤهلهم لخوض غمار التنافس لكنهم وجدوا في اضطراب الوضع الفرصة السانحة لتوسيع ولاياتهم وتقوية نفوذهم ، فعلى سبيل المثال قام علي بن المتوكل بالاستيلاء على جنوب ولاية تعز وأرسل ببيعته للمهدي أحمد الذي أقره على ذلك [4]. في حين لاقى المهدي صعوبات كثيرة في سبيل استيلائه على السلطة رغم كثرة المال والعتاد الحائز عليهما، ــ والذي حرص على تنميتهما على مدى خمسة وثلاثين عاماً منذ بداية توليه الإمارة عام (١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م) ــ ، حيث استمر يراسل المنافسين أكثر من ستة أشهر باذلاً لهم الأموال والزيادة في الولايات وبعض الامتيازات الأخرى ؛ لكنه لم يتمكن من كسبهم إلى جانبه بسهولة ، فهذا أخوه الحسين رغم تراجعه عن الدعوة والتزامه للوساطة بالانحياز إلا أنه لم يبايع أخاه أحمد، واستمر في شن المؤامرات الخفية ضد أخيه الذي اضطر للتقدم نحوه لقمعه إلا أن

---

(١) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص ١٥٩ .

(*) رازح : بلدة من أعمال صعدة تبعد عنها بنحو(٩٥) كم غرباً، وتسكنها قبائل خولان بن عمرو من قضاعة . (انظر معجم الحجري : ١/٣٥٥. معجم المقحفي : ١/٦٦٢).

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ) : ٢/ ق ١٢٩أ؛ البهكلي:(عبدالرحمن) ، خلاصة العسجد ،(تحقيق : ميشيل توشيرير وعدنان درويش) المعهد الفرنسي للدراسات العربية.

(*) النقيب سعيد المجزبي :(ت: ١٠٨٦هـ = ١٦٧٥م) كان من موالي الشيخ ابن مجزب أحد مشائخ قبائل صعدة ، فوهبه للأمير الحسن ابن الإمام القاسم أثناء ولايته عليها في عهد والده ، وترقى إلى أن صار عاملاً لبندر اللحية والضحي، فاستمر عاملاً نحو أربعين سنة ، حتى عزله الإمام المتوكل بولده الحسن وصادرأمواله عام(١٠٨٤هـ).أنظر (يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٢/ ق ٤٢ب ــ ٤٣ ب ، ٩٠ ب ــ ٩١ أ)

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، (خ): ٢/ ق١٣٠ أ ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣٣٢ ؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص ١٥٦؛ الجنداري : الجامع الوجيز، (خ) : ق ١٥٨أ .

(٤) ابن عامر : بغية المريد ، (خ): ص٤٢٩ .

الحسين خاف فجمع الوساطة ولقيه في منطقة "بينون" بثوبان من ذمار في(ربيع الأول ١٠٩١هـ/ إبريل ١٦٨٠م) وتمكن من استعطافه حتى سامحه وأعاده على ولايته ، وقد علّلتْ بعض المصادر أن المهدي أراد زيارة الآثار الحميرية في تلك البلاد وليس بقصد تأديب أخيه [١] .

وعلى كلٍ فإن القاسم بن المؤيد كان أشدّ أولئك المنافسين خطراً على المهدي إذ أصرّ على تمسكه بدعوته كونه حائزاً على درجة الاجتهاد حسب شروط الإمامة ، التي مُنيت بالفشل أمام قوات ومغريات المهدي أحمد بن الحسن ، الذي خرج من الغراس في بداية شهر(ذي القعدة ١٠٨٧هـ/ يناير ١٦٧٧م) متوجها لإخضاع منافسه الذي امتد نفوذه إلى ذيبين[*] وعمران[٢] ، فأعلن الحرب ضد الداعي التي استمرت أكثر من شهرين ، ووقعت بين أتباعهما معارك ضارية في أماكن متعددة مثل معركة سوق الصلبة [**]، ومعركة الغولة[***] ، ومعارك شهارة ، فسقط خلالها مئات القتلى والجرحى ، وهُدّمت قرى عديدة وأُتلفت مزارع كثيرة . ثم أسفرت عن هزيمة القاسم ومبايعته للمهدي في شهر(صفر ١٠٨٨هـ/ إبريل ١٦٧٧م) وذلك مقابل منحه ولاية شهارة والشرف وحجة[****]،وتسديد مديونية الحرب التي بلغت نحو مائة ألف قرش [٣].

ويبدو أن المهدي أحمد قد اغتنم فرصة وصوله إلى شمال شهارة وتمكنه من إخضاع منافسه ليواصل جولته في تلك المناطق والولايات لتأكيد سيطرته عليها، واستعادت هيبة الدولة التي أضعفتها تلك الحروب ، فلم يصل الغراس ـ حاضرة حكمه

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٢/ ق ١٢٦ب ، ١٧٦أ ، ٣/٥ أ ؛ ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص١٧٢، ٢٤٢ ؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ٦٩.

(*) ذيبين : مدينة أثرية مشهورة تقع شمال شرق صنعاء وتبعد عنها بنحو (٧٠) كم ، (معجم الحجري : ٣٥١/١ ، معجم المقحفي : ٦٥٧/١) .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٢/ ق ١٢٩ب ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣٣١.

(**) سوق الصلبة : حصن وسوق يقع في بلاد لاعة جنوب مدينة حجة . (معجم المقحفي: ٩١٥/١).

(***) الغولة : قرية جبلية تبعد عن صنعاء بنحو (٧٠) كم شمالاً ، وتسمى غولة عجيب نسبةً إلى بني عجيب . (معجم المقحفي : ١١٨٩/٢) .

(****) حجة : مدينة شمال غرب صنعاء وتبعد عنها بنحو (١٣٠) كم ، وتتبعها بلاد الشرف الجبلية الواسعة والواقعة في شمالها الغربي. (معجم الحجري: ١/ ٢٤٢، ٤٥٠/٢؛ معجم المقحفي: ٤٢٣/١، ٨٦٠) .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٢ / ق ١٥٨أ ، ١٨٣أ ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص ٣٣٦ ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص١٥٩ — ١٦٩.

ـ إلا في مستهل الشهر الأخير من سنة (١٠٨٨هـ / ينـاير ١٦٧٨م) [١] أي بعـد أن استغرق عاماً كاملاً لتثبيت حكمه في المناطق الشمالية ، حيث توجه من شـهارة فـي بداية شهر ربيع الأول من نفس العام قاصداً ولاية صعدة التي دخلها في منتصف ذلـك الشهر [٢] ، بعد مروره بمنازل قبائل العصيمات[*] وسفيان[**] مستمداً طـاعتهم بالبـذل والعطاء ، وملزماً لهم بحراسة الطرقات وتأمين القوافل التي كانت تتعـرض للنهـب ـ بين الحين والآخر ـ لكنهم اشترطوا لتنفيذ ذلك موافاتهم بـالمقررات والجوامـك "وإلا فليس عليهم درك"[٣]. وبما أن المهدي كان قد فوض إدارة صعدة وبلادها للأمير علـي بن أحمد إلا أن الأخير لم يتمكن من تدبير أمورها وبسط سلطته عليهـا حيـث شـكى للمهدي امتناع قبائلها من تسليم الواجبات لكنهم برروا امتناعهم بما لديهم من المراسيم التي منحها لهم علي بن أحمد نفسه ، والتي تفيد بإسقاطها عنهم مقابل مـساندتهم لـه ضد عمّه المتوكل ، كما أنهم هددوا بعزله وتولية غيره إذا لم يـفِ بتلـك المراسـيم ! حينها أعرض المهدي عن الأمير ، فلم يحاول التدخل في إصلاح الوضع ، ولعلـه قـد أعجبه ذلك الاضطراب لكي لا يتمكن من استعادة قوة مركزه ويعـود للمنافـسة مـرة أخرى. وهذا ما لمسناه من تشفي أولاد المتوكل بالأمير عندما حاول انتزاع الواجبـات بالقوة من أهل رازح الذين صدوه بالحرب وقتلوا بعض أصحابه[٤]، ولا يستبعد أن ذلـك كان بمساندتهم لأنه انتزعها من يد أخيهم الحسن كما أسلفنا .

كان من المتوقع أن يهنأ المهدي بالاستقرار والهدوء بعد تلك الجولة الطويلة التي تمكن خلالها من استعادة هيبة الدولة بواسطة سياسة الترغيب والترهيب التي انتهجها ، إضافة إلى ما يتمتع به من المهابة والشجاعة وقوة العزم حتى أطلق عليه لقـب(سـيل الليل)، منذ توليه القيادة العليا لجيش عمه المتوكل ، غير أن الواقع اثبت عكس ذلك فقد

---

(١) يحي بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٢ / ق ١٩٩أ .

(٢) يحي بن الحسين:نفسه،(خ): ٢/ ق ١٨٤أ؛ ابن الوزير: طبق الحديث، ص ٣٥٠؛ أبوطالب: نفسه، ص١٦٩.

(*) العصيمات : من قبائل حاشد وينقسمون إلى عصيمات السفلى وعصيمات العليا (معجم الحجري : ١/٢٢٠ ، ٢/٦٠٥) .

(**) سفيان : قبيلة تنسب إلى بكيل (١٥٠) كم شمالاً عن صنعاء ، كما أنها لا تقل أهمية عن جارتها السابقة . (معجم الحجري : ٢/٤٢٤) .

(٣) يحي بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٢/ ق ١٨٣ب .

(٤) يحي بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٢/ ق ١٨٤ب ـ ١٨٥أ ، ١٩٨ب ـ ١٩٩أ .

وقفت طموحات أمراء الولايات ــ مراكز القوى ــ حائلاً أمام تحقيق الأمن والاستقرار حيث تركزت سياستهم على توسيع نفوذهم وتنمية خزائنهم . فمن جهة كانوا يطلبون من المهدي تخويلهم حكم البلاد المجاورة لولاياتهم بحجة أنها لا تغطي نفقاتهم ، وفي نفس الوقت كانوا يعمدون إلى توسيع ولاياتهم على حساب الولايات المجاورة وبالتالي يدخلون في تنافس مع بعضهم فتكون الغلبة للأقوى ، فعلى سبيل المثال : بلاد "يريم"(*) التي وثب عليها كل من الحسين بن الحسن و علي بن المتوكل و الحسين بن المتوكل ، واستولى كل منهم على جزء منها ، فلم يبق لواليها يحيى بن الحسين بن المؤيد(ت : ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م) إلا القليل من إيراداتها مما جعله يعتذر عن ولايتها ولم يعد إليها إلا بعد أن شرط على المهدي عدم التدخل في شؤونها. ومن جهة ثانية كان كل منهم يفتح داراً لسك العملة المغشوشة في ولايته وذلك لتحقيق الثراء السريع، إضافة إلى حط أيديهم على رعاياهم وجورهم في ابتزاز أموالهم تحت مبررات مختلفة، مع إهمال في إدارة الولاية، كما صار الحال مع محمد بن أحمد بن القاسم(ت : ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) أمير عمران وخمر(**) الذي مدَّ يده إلى حجة [١].

في حين لم يتمكن المهدي من قمعهم وكبح جماحهم وتصحيح الوضع ، رغم مراسلاته المتكررة يطلب منهم المثول بين يديه للبث في حلول مناسبة لكنهم كانوا يتعللون بأعذار واهية ، بل إن ولده محمد ــ إمام فترة الدراسة ــ وأخيه الحسين بن الحسن قد أجابوا عليه "إنهم يخطبون له ويمضون سِكّته ، لكنه يترك لهم بلادهم وحالهم"[٢]. ولعل المهدي قد لجأ إلى تضارب الولايات فيما بين الأقارب كأحد الحلول المناسبة للحد من التسلط وإضعافهم ، كما فعل في تولية عبدالله بن أحمد بن القاسم

(*) يريم : مدينة آهلة وسهل خصيب يحيط بها وهي من أعمال محافظة إب وتقع في شمالها . (معجم الحجري : ٢/ ٧٧٩ ؛ معجم المقحفي: ٢/ ١٩٠٦).

(**) خمر : نسبة إلى خمر بن دومان بن بكيل وهي مدينة بظاهر همدان من أعمال عمران وتبعد عن صنعاء بنحو (٨٠) كم شمالاً وتقطنها قبائل حاشد. (الهمداني: الإكليل : ١٠/ ١٢٩؛ معجم الحجري : ١/ ٣١٠) .

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ): ٢/ ق ١٨٦ب ، ١٨٧ب ،٢٠١أ ، ٢١٧ أ.

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٢/ ق ٢١٧ب .

إمارة حجة المتسلط عليها أخوه محمد صاحب عمران[1]، غير أن هذا الإجراء أدى إلى زيادة العداوة فيما بين أبناء البيت الواحد، وهذا كله أدى إلى اضطراب الأوضاع فانتشر الظلم ، وأعلنت قبائل المشرق العصيان[2]، كما لجأت قبائل المناطق الشمالية إلى نهب القوافل التجارية بين الحين والآخر في سفيان وبرط والعصيمات ، الأمر الذي جعل المهدي يقود بنفسه حملة تأديبية فتقدم إلى سفيان في منتصف شهر (ربيع الأول ١٠٩٢هـ/ إبريل ١٦٨١م) وشن عليهم حروباً شديدة ، واستمر في تتبعهم بالقتل والنهب والتشريد أكثر من شهرين حتى تمكن من إخضاعهم ، لكنه توفى بعد عودته من تلك الغزوة بنحو شهر في ليلة الأربعاء ٢٣ جماد الثاني من نفس العام [3]، متأثراً بجراح إثر رصاصة أصابته في فخذه أثناء تلك الحرب [4] .

وعلى ذلك يتضح أن المهدي أحمد لم يذق حلاوة الاستقرار والرخاء طيلة فترة حكمه القصيرة التي لم تتجاوز خمس سنوات والتي كانت معظمها مضطربة نتيجة طموحات أمراء آل القاسم التوسعية وتنافسهم على السلطة، فكانت فترة حكمه بمثابة محاولة استعادة هيبة الدولة المركزية والحفاظ عليها من التفكك، لذلك لم يظهر على حكمه الكثير من المجريات سوى قضيتان هما : محاولة إخراج اليهود من اليمن ، وتحريم تعاطي التتن ـ التبغ ـ ومنع زراعته وكسر آلاته[5]، وبما أنهما قضيتان دينيتان في الظاهر كان مرجعهما إلى العلماء إلا أنه أقحم نفسه فيهما حتى وصف بعض المؤرخين عهده بالتصلب الديني[6]، لكن يبدو أنه قصد من ورائهما إثبات حقه الشرعي في استحقاق الإمامة فأثارهما كدليل يستدل به على مقدرته العلمية رداً لمن يشك في علمه ويلهج بعدم بلوغه درجة الاجتهاد ، وربما نجح في نيل هدفه نظراً للنقاش والجدل

(١) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، (خ): ٢/ ق ٢٠٢ أ ـ ٢٠٣ب .

(٢) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص ١٧٧ .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ١٣ أ ـ ١٧ أ .

(٤) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص١٧٩ .

(٥) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن : ٢/ ١٨٨ أ، ٢٠٦ أ ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣٥٢، ٣٥٦ ؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء، ص١٧١ ، ١٧٣.

(٦) البهكلي : خلاصة العسجد ، ص٤٠ .

الذي دار حولهما فيما بين العلماء على مختلف مذاهبهم[1]، إلا أن نتائج محاولة التنفيذ كانت عكسية على اقتصاد الدولة بوجه عام ، وعلى اليهود والتجار وبعض الأهالي بوجه خاص ، فعلى مستوى الدولة فقد حُرمت خزينتها من الإيرادات التي كانت تجنيها من الجزية التي تدفعها اليهود ، ومن واجبات مزارع التتن ورسوم ضرائب المتاجرة به، ولعله حاول تغطية العجز بتقرير زيادة إيرادات بعض الولايات فظلموا أهلها[2]. وأما على مستوى الفرد والجماعة فقد أدى تجميع اليهود من المناطق الواقعة بين شهارة وبين سمارة[*] وترحيلهم إلى موزع ــ قريب المخا ــ عام (١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م) إلى افتقار تلك المناطق السابقة للخدمات التي كانت حكراً على اليهود مثل الحدادة والنجارة والصياغة فتضرر المجتمع ، وبالتالي تضرر اليهود لكساد حرفهم وصناعاتهم نظراً لتجمعهم في منطقة واحدة فهلك أكثرهم من شدة الفقر ، ثم تضرر أهل موزع لحجز اليهود مساحة كبيرة من أراضيهم التي كانت تُستَغلَ في الرعي والزراعة[3]، وكذا تضرر التجار من الخسائر التي خسروها جراء مصادرة التتن وحرقه والغرامات التأديبية التي دفعوها ، ثم تضرر الأفراد من غلاء أسعار التتن وبيعه بالخفية[4].

ومما يُذكرُ للمهدي أحمد من المنجزات العمرانية إعادة بناء وتشييد وعمارة وتحصين حصن ذي مرمر وجعله حاضرة دولته ، بعد أن هدَّمه عمه المؤيد ونقل أبوابه وأخشابه إلى شهارة عام (١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م)[5]، وكذا قام بتجديد وتحصين باب المندب لصد هجمات القراصنة العمانيين والبرتغاليين التي كانت تتكرر بين الحين والآخر[6]. وأيضاً قام بتحويل كنيسة اليهود بصنعاء إلى المسجد المعروف الآن بمسجد

---

(١) العمري : تاريخ اليمن الحديث والعاصر ، ص٦٧ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٢/ ق ٢٣٢ب ، ٣/ ق ٢ ب ــ ٣ أ، ٤ ب ، ٥ أ.

(*) سمارة: نقيل مرتفع صعب المرتقى، وكانت تسمى قديماً نقيل صيد وفي أعلاه قلعة قديمة جددت في العهد العثماني الأول ، وتقع ما بين يريم وإب وتتبع ناحية المخادر . (معجم الحجري : ٤٣١/٢ ؛ معجم المقحفي : ٨٠٩/١) .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ٢ ب ــ ٣ أ .

(٤) يحيى بن الحسين : نفسه ، (خ) : ٢/ ق ٢١٠ أ ، ٢٣٢ ب .

(٥) صلاح بن عيسى : ذيل روح الروح ، (خ) : ص ٢٧؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٨٧ ، ١٤٧؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٦٦؛ الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد (خ): ص ١١٨.

(٦) يحيى بن الحسين : المصدر السابق ، (خ) : ٢/ ق ٢٢٣أ ،٢٢٦أ ، ٢٢٩ أ ، ٢٣٤ب .

الجلاء[1]. كما اشتهر باقتنائه للجواري اللاتي بالغ المؤرخ يحيى بن الحسين في عددهن وزينتهن فذكر أنه اقتنى(٧٠٠) جارية، وكان يلبسهن أغلى الثياب والمجوهرات[2].

٥- المؤيد الصغير واستقلال مراكز القوى عن الدولة المركزية :

ذكر أبوطالب بأن العلماء والأمراء الذين حضروا وفاة المهدي أحمد فزعوا إلى مبايعة الأمير محمد بن المتوكل[3]، فتلقب بالمؤيد "تيمناً بعمه المؤيد محمد بن القاسم ، فأطلق عليه لقب المؤيد (الصغير) للتمييز بين الاثنين"[4]، وقد قيل أنهم بايعوه بتوصية من الإمام الراحل[5]، بل إنهم حملوه على قبول السُلطة[6]، لما يتصف به من العلم والزهد والورع والفضل بإجماع المؤرخين ، حتى "شبهه أحدهم بأنه في (بيت القاسم) كعمر بن عبدالعزيز في (بني أمية)"[7]. لكنه وجد نفسه بين كثير من المنافسين من أمراء آل القاسم وغيرهم ، إلا أن خمسة منهم كانوا قد أعدوا أنفسهم وصار لهم شأنٌ خطير ويعتبرون من أقوى مراكز القوى ، كما أن ثلاثة منهم من ذوي الدعوات السابقة، لكن جميعهم خاض غمار التنافس وكل منهم دعا إلى نفسه بالإمامة من مركز إمارته وذلك على النحو التالي[8] :

١- *القاسم بن المؤيد من شهارة .*

٢- *علي بن أحمد من صعدة .*

٣- *الحسين بن الحسن من رداع .*

---

(١) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣٦١ ؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص١٧٦.

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٣/ ق ١٧ أ .

(٣) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص١٨٠ .

(٤) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ٧٢ .

(٥) أبوطالب: المصدر السابق، ص١٨٠ ــ ١٨١؛ الكوكباني: المختصر المستفاد من تاريخ العماد(خ): ١٢٣.

(٦) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن ، ٣/ ١٨أ ؛ أبوالرجال: الروض الزاهر شرح نزهة البصائر(خ): ١/ ق٧٣ ب .

(٧) العمري : المرجع السابق ، ص٧٢ .

(٨) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٣/ ق ١٨ أ ، ب؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص ١٨٠ ــ ١٨١، والسحر المبين،(خ): ق ٣ أ ــ ٥ ب ؛ الكوكباني: المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره ، (خ) : ص ١٢٣.

٤- *علي بن المتوكل من إب*[*] .

٥- *محمد بن المهدي أحمد من المنصورة* [**].

٦- *الحسن بن المتوكل من اللحية*[***] .

٧- الحسين بن عبدالقادر ..... ابن شرف الدين من كوكبان .

ورغم كثرة هؤلاء الدعاة إلا أن قريبهم المؤرخ يحيى بن الحسين قد أفصح أن الكل قاصر عن درجة الإمامة وما دعواهم تلك إلا للملك والرئاسة ليس إلا ! وعلى ذلك نرى أن منهم المُجدّ في دعوته ومنهم المساوم للحفاظ على ولايته أو لطلب المزيد من الامتيازات أو على الأقل حتى تتضح الشخصية المناسبة التي تلبي مصالحهم، لذلك نجد ولدي المتوكل عندما شاهدا الإقبال نحو أخيهما انضويا تحت قيادته ظاهرياً وحذا حذوهما أمير كوكبان ، أما الحسين بن الحسن بن القاسم فقد كان مجداً في دعوته ويرى أنه أهلٌ لها ، ورغم افتقاره إلى الإمكانيات المادية اللازمة للنهوض بالدعوة وعدم توفر الكثير من المناصرين إلا أنه لم يبايع المؤيد حال اجتماعهما في ذمار لهذا الغرض ، وأوكل مهمة البيعة إلى القاسم أمير شهارة[1]، الذي كان يتحد معه في نفس الإشكالية، وكذا علي بن أحمد ــ أمير صعدة ــ غير أن الأخيرين أدركا بأن السبيل في تحقيق المزيد من الإمكانيات ــ التي تساعدهما في تحقيق طموحاتهما ــ تكمن في شخص المؤيد الذي لا يحب استخدام القوة في ردع المخالفين، لذلك نجدهما يبايعان المؤيد عقب اجتماع عُقد في خمر في منتصف شهر (رمضان ١٠٩٢هـ/ سبتمبر ١٦٨١م) وقد تمت البيعة بعد مساومة طويلة بذل لهما خلالها الذهب الأحمر ، وضم إلى

(*) إب : مدينة كبيرة ، تقع جنوب صنعاء على مسافة (١٤٠) كم ، يطلق عليها اللواء الأخضر لخصوبتها وخضرتها طوال العام. (معجم الحجري : ٣١/١ ؛ معجم المقحفي : ١/١٠) .

(**) المنصورة : قرية حصينة تقع في أعلا قمة جبل الصلو من بلاد المعافر (الحجرية) الواقعة جنوب تعز وهي من أعمالها وتابعة لها، وبها آثار ونقوش وسدود وقلاع حميرية ، وقد جدد عمارتها طغتكين بن أيوب(ت:٥٩٣هـ/ ١١٩٧م) وجعلها مقراً لحكمه، لكنها تعرضت للخراب أثناء الحروب التي نشبت فيما بين السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري وخاله، ثم جدد عمارتها وتحصيناتها الأمير محمد المذكور، لكنه غادرها بعد استيلائه على السلطة عام(١٠٩٨هـ /١٦٨٧م) كما سيتضح لاحقاً. (أبوالرجال : الروض الزاهر (خ):١/ ق٣ ب؛ الأكوع : هجر العلم، ٢١٤٢/٤؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث ، ص٨٣ ؛ معجم المقحفي : ٢ /١٦٥٦) .

(***) اللحية : مدينة على ساحل البحر الأحمر تبعد عن الحديدة بمسافة (١٢٠) كم شمالاً ، وكانت تمثل أهم الموانئ اليمنية سابقاً خلال فترة حكم الإمام المهدي ، (معجم المقحفي : ١٣٧٠/٢) .

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٣/ ق ٢١ أ ، ٢٢ ب.

ولاية القاسم بلاد عِذر(*) وظُليمة (**) وبقية ولاية الشَّرف ، وبلاد بيت الفقيه وزبيد (***)، كما منح علي بن أحمد إيرادات جبل صَبِر في تَعز ، غير أن محمد بن المهدي أحمد كان قد سبقهم في السيطرة على المناطق الثلاث الأخيرة ، ولم يبايع المؤيد إلا بعد مماطلة طويلة وشروط مجحفة ـ سيتم بسطها لاحقاً ـ . وخلا ل ذلك اشتعلت الحروب فيما بين ولاة اليمن الأسفل من آل القاسم ، وأعلنت قبائل يافع تمردها ومن ثمَّ استقلالها عن الدولة المركزية [1] .

ولم يبق للمؤيد الصغير أي سلطة أكثر من ذكر اسمه في الخطبة حتى البلاد التي كانت تحت نفوذه كان قد وزع معظم إيراداتها بين الولاة ، لدرجة أنه كان يحتاج للأموال فلا يجد من يموله فيضطر للاستدانة من التجار[2] ، لذلك عمَّت الفوضى البلاد مع ما صاحبها من القحط والغلاء، واستقل الولاة بولاياتهم فضاعت هيبة الدولة، وتمزقت أطرافها حيث انفصلت قبائل المشرق عنها، وكذا استولى شريف مكة ـ أحمد بن زيد ـ على صبيا(****)، وانقسم اليمن الواحد إلى خمس عشرة دولة[3] ! ـ حسب إفادة مؤرخهم المعاصر للحدث ـ ، وفتح كل منهم دار سك للنقود المغشوشة، واشتدت وطأتهم على الرعية ، وشنوا الحروب على بعضهم البعض كل يحاول توسيع نفوذه، فتضررت بذلك جميع الفئات .

ولقد حاول المؤيد الصغير استعادة المشرق لكنه فشل ، وفي نفس الوقت حاول إصلاح الوضع والتخفيف من شدة تسلط الولاة بطريقة سلمية فكان يراسلهم ويعضهم

(*) عذر : قبيلة حاشدية تقطن مديرية قفلة عذر التابعة والواقعة شمال صنعاء على بعد (١٥٠) كم تقريباً .(معجم الحجري : ٢/ ٥٩٥) .

(**) ظُليمة : مديرية حاشدية ملاصقة لأختها القفلة ، ومركزها حبور . (معجم الحجري : ٥٦٨/٢) .

(***) بيت الفقيه وزبيد : بلدتان تبعدان عن الساحل بحوالي ١٥كم من أراضي تهامة جنوب الحديدة بحوالي (٥٠) كم ، ويقعان جنوبها (معجم الحجري : ١/ ٣٩٠ ، ٢/ ٦٣٦).

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٣/ ٢٤ أ ـ ٢٩ ب .

(٢) الشوكاني : البدر الطالع، (تحقيق : العمري) ، ص ٦٥٥ .

(****) صبيا : من مدن تهامة شمال جازان ، وكانت خلال هذه الفترة من ضمن ولاية الأمير الحسن بن المتوكل إسماعيل الذي كان أميراً على اللحية وأبي عريش .(يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ) : ٣/ ق ٥٠ ب) .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ) : ٣/ ق ٥٠ ب ، ١١٦ب ؛ انظر : الملحق رقم١٤ شكل (ب).

ويأمرهم بإغلاق دور سك النقود ويوصيهم بالعدل في الرعية[١]، لكنهم استهتروا به وأمنوا سطوته[٢]، وكنّوه بـ"أبو عافية" لعدم إضراره بهم[٣]، خاصة أخاه علي الذي دخل معه في خلاف شديد، عزم المؤيد لذلك بالتنحي عن الإمامة لولا تدخل القدر بوفاة أخيه في (٣رمضان ١٠٩٦هـ /٣ أغسطس ١٦٨٥م)[٤]. ثم إن المؤيد حاول إصلاح الوضع بالقوة فأرسل أخاه زيداً لعزل ابن أخيه الحسين بن علي بن المتوكل وتوليّه مدينة جبلة بدلاً عنه ، غير أن الأخير عمل مكيدة لعمه زيد أعاقته عن التولية ، فتوفى المؤيد قبل أن يرى ذلك التغيير وذلك يوم الخميس(١جمادي الأخر ١٠٩٧هـ/٢٤إبريل ١٦٨٦م)[٥] ، وقد قيل إنه توفى مسموماً بتدبير من أحد أقاربه[٦]، دون أن تتميز فترة حكمه التي دامت خمس سنوات بأي شيء يستحق الذكر ، سوى أنه اختطً مدينة معبر[*] وجعلها مركزاً لحكمه ، وهكذا اتسم حكمه بانهيار الأوضاع وتمزق الدولة وانفصال يافع عنها وعودة القبائل الشمالية لنهب القوافل المارة من بلادهم ، وصراع مراكز القوى فيما بينهم ــ كما سيأتي بسطه في الفصل التالي .

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر، (خ): ١/ ق٧٦ أ ــ ب .

(٢) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٤٠٩ .

(٣) الشوكاني : البدر الطالع ، ص٦٥٥ ؛ العمري ، تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٧٢ .

(٤) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص ١٩٣ـــ ١٩٦ ؛ الشوكاني : المصدر السابق ، ص ٤٤١ ــ ٤٤٣.

(٥) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١١٩ب ، ١٢٣ أ .

(٦) الداعي : (الحسن بن صلاح المؤيدي)، الدامغة الكبرى، (خ): ٢/ ص١٧١؛ ابن عامر : بغية المريد، (خ): ص٤١٧؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء، ص ١٩٩؛ والسحر المبين، (خ) : ق ١٥ أ.

(*) معبر : مدينة تبعد عن صنعاء بنحو (٧٠) كم جنوباً ، وهي من أعمال ذمار. (معجم الحجري : ١/ ٢٨ ، معجم المقحفي : ٢/ ١٥٧١).

الفصل الأول

مرحلة الوصول إلى السلطة وتثبيت الحكم

(١٠٩٧ـ ١١٠٥هـ/ ١٦٨٦ـ ١٦٩٤م)

أولاً : وصول الإمام محمد بن أحمد بن الحسن إلى سدة الحكم :

١- المولد والنشأة :

من البديهي ونحن بصدد دراسة تاريخ اليمن في ظل حكم الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم أن نتعرض بشيء من التعريف لجوانبه الشخصية ، والبيئة التي نشأ فيها، والوضع الذي عايشه لكونه من أخطر وأقوى شخصيات عصره ، وحتى يتضح ما أبهم من سياسته التي نهجها في تدبير شؤون الحكم .

لقد سبقت الإشارة إلى محمد بن المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم في أكثر من موضع في التمهيد ، فهو من أبناء الجيل الثالث أي ابن حفيد الإمام القاسم مؤسس الدولة القاسمية في اليمن(١٠٠٦ــ ١٠٢٩هـ / ١٥٩٨ــ ١٦٢٠م) ، الذي استمر حكم اليمن في عقبه حتى قيام الثورة اليمنية في ٢٦سبتمبر١٩٦٢م[١]. وقد أطلق المؤرخ أبوطالب على محمد بن أحمد لقب "ذي الدعوات الثلاث"[٢] مستنداً إلى الألقاب التي أتخذها خلال حكمه الطويل وهي : الناصر والهادي والمهدي ، ولكل منها مناسبة ــ كما سيتبين لاحقاً ــ ، ثم اشتهر باسم المهدي صاحب المواهب نسبةً إلى مدينته التي شيدها شرق مدينة ذمار وأتخذها مقراً لحكمه، وإن غلب عليه لقب الناصر في المرحلة الأولى من حكمه .

وقد اتفقت المراجع على أن مولده كان في فجر يوم الثلاثاء(٧ جماد الآخر ١٠٤٧هـ /٢٦/١٠/١٦٣٧م)[٣] ، وهو أكبر أولاد أبيه ــ المهدي أحمد ــ ، البالغ عددهم خمسة عشر ولداً[٤]، والذي أنّجبه وهو ما يزال في الثامنة عشر من عمره .

---

(١) العمري : اليمن الحديث والمعاصر : ص ٢٣.

(٢) أبوطالب : طيب الكساء : ص ٢٠٣ .

(٣) أبو طالب : السحر المبين(خ) : ق ١٥ب ؛ الشوكاني : البدر الطالع ،(تحقيق: العمري) : ص٦١٥ ؛ زبارة : نشر العرف : ٢/٤٠٢؛ الجنداري : الجامع الوجيز (خ) : ق ١٤٣ أ.

(٤) أورد صاحب بغية المريد أسمائهم جميعاً غير أنه لم يترجم إلا لعشرة منهم فقط . (ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٢٤٦ ــ ٢٨٤ ؛ انظر : الملحق:(١٣) جدول رقم : (٣) .

وأمه هي : حورية بنت الحسن بن أحمد بن حميد الدين بن المطهر بن الإمام شرف الدين[1].

ومما لا شك فيه أنه حظي بعناية خاصة منذ ولادته ، حيث توفرت له جميع وسائل العيش والترف ، فوالده أمير ابن أمير ووالدته أيضا من أسرة عريقة في الإمارة والسيادة ، ولعل هذا هو المقصود من تلك العبارة المبالغ فيها التي أوردها شارح سيرته ، حين وصف نشأته ــ في حجر والده ــ بأنها أكرم نشأة "لم يعرف له صبوة في غير المعالي ، ولا فارقه في سفر ولا حضر حتى بلغ مبلغ الكملاء ، وانتظم في سلك السادة الفضلاء ، والأعيان النبلاء"[2].

أما عن صفاته العلمية فبالرغم أنه عاش وترعرع في بيت الإمارة المشهورة بالطابع العلمي، إلاَ أن المصادر التاريخية ــ المتاحة ــ أغفلت ذكر حياته العلمية ، وأنواع العلوم التي أخذها، والمشائخ الذين أخذ عنهم ، وإن كان هناك رواية تشير إلى أنه تتلمذ على يد شيخ العلوم العلامة "الحسن بن أحمد الجلال" (ت: ١٠٨٤هـ /١٦٧٣م) وهو ما روي عن المؤرخ "لطف الله جحاف" (ت: ١٢٤٣هـ /١٨٢٨م)[3] بأنه رأى في "حواشي نسخة من كتاب تحفة الأخوان للقاضي العلامة أحمد محمد قاطن"(ت : ١١٩٩هـ /١٧٨٥م) منظومة شعرية نُسبت إلى الإمام "قالها في شيخه" المذكور مطلعها :

إذا جالت الأفكار في مدح خير من	أفاد عُلوم الآل قُلنا لها أهْلا
أميرُ سرايا العِلم والفضل الذي	غَدا مثلاً لم يَلق يوماً له مِثْلا

[و] منها :

هو الحسن السامي الجلال بن أحمد	المفيض على ذي الخلق من عقله عقلا

حتى قال :

(١) الضبوي : عقد الجواهر (خ): ق ١ب ؛ ابن عامر: بغية المريد (خ): ص٢٨٩ ؛ زبارة: نشر العرف:١/٥٥١ .

(٢) أبو الرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر(خ) :١/ ق ١٢ أ.

(٣) زبارة : نشر العرف : ٢/ ٤٠٨ .

فخــذها لتلميــذ روى مــدح شــيخه ... وشرّف أفكــاراً تجلــت بمــا أمــلا

وهناك مقطوعة شعرية أخرى مكونة من أربعة أبيات ، تدل على أنه كــان يقــرض الشعر ، ورغم اختلاف المؤرخين في نسبتها إليه ، إلاَّ أننا نميل إلى رأي من قال : "إن لم يكن هو قائلها ، فلا يبعد أنه موجه معناها المعبر عن حقيقة شخصيته ، فنظمت كما هي"[1]:ـ

فيمــــا اقتحامُــــك للهُمــــو ... م تَجُــوبُ فــي ظُلَــم الغَياهــبْ

أوَ مَــــا تــــرى هــــذي البقــــا ... عَ الخُــضْرَ قــد مُلئــت مــضارب

وجِيَادُنــــــا فيهــــــا كَمُــــــوْ ... ج البَحــــر مُــــضْطَرِب الجوانــــب

ورِماحُنــــا فــــي عِثْيــــرٍ[2] ... كــالبرقِ يَلمــع فــي الــسّحائبْ[3]

وقيل أيضاً أنه صاغ بيتاً من الشعر وأقترح على الشاعر الأديب أحمد بــن أحمــد الآنسي المعروف بالزنمة(ت : ١١١٩هــ /١٧٠٧م) تضمينه، فضمنه بـــ(٥٩) بيتــاً والبيت المنسوب إليه هو:

المجدُ في سُــهب الرمــاح الــذُّبل[4] ... يطلعــــــن في ليل العُجاج الأليــل[5]

أما بعض معاصريه فقد نسبه إلى "الجهل وعدم الإطــلاع"[6]. غيــر أن الــبعض الآخر منهم بالغ في وصفه بالعلم ، كما ذكره الآنسي المذكور في قــصيدة لــه طويلــة بقوله :

فمــا العلــم إلا مــا رواه لــسانه ... ولا الحلم إلاّ ما يمــنّ بــه عطفــا [7]

---

(١) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر : ص٨٨ .

(٢) عثير : بكسر العين ، الغبار .(ابن منظور: لسان العرب ، ط١، ٤/٥٣٩ ، باب عثر).

(٣) زبارة : المرجع السابق : ٢/٣٢٧ .

(٤) الذبل : المجتمع ، والتذبيل التعظيم . (تاج العروس ، ١/ ٧٠٤٩) .

(٥) الآنسي (أحمد بن أحمد) : العلم المفرد من إنشاء المثنى أحمد بن أحمد ، (خ) : ص٥٨.

(٦) ابن عامر : بغية المريد وانس الفريد (خ) : ص٢٥٧ .

(٧) الآنسي : العلم المفرد من انشاء المثنى أحمد بن أحمد ، (خ) : ص٤٤ .

وكذا الأديب الشاعر محمد حسين المرهبي(ت: ١١١٤هـ /١٧٠٢م) فقد وصفه بأنه حجة صادعة ومجدد لما أندرس من الدين وذلك في قوله :ـ

الحجة الساطعة المُنيرة الصالح السيرة والسريرة
مجدد الدين على رأس المائة جمعا لما تقوله كل فئة[١]

ومهما تضاربت مصادر معاصريه فالواقع أنه أخذ قصداً من العلوم والمعارف ، كغيره من أبناء الأسرة الحاكمة ، إلا أنه كرَّس جهده في الجانب العسكري والسياسي ، وهذا ما صرفه عن مواصلة تعليمه ليبلغ درجة الاجتهاد[٢] ـ أحد شروط الإمامة المنصوص عليها في المذهب الزيدي- وهذه كانت إحدى الثغرات التي كان يستخدمها منافسوه ومناوئوه لإثارة القلاقل ضده ، والتشهير بعدم استحقاقه للإمامة ، كما صارت سبباً للكثير من المتاعب والمشاكل التي عانى منها كثيراً ، وظهر تأثيرها في مسار حكمه ، ولقد استخدم شتى الطرق والوسائل لسد هذه الثغرة والتخلص منها، ومما لاشك فيه أنها كانت أهم الأسباب التي جعلته يتحلى بالكثير من الصفات العلمية التي أشاد بها المؤرخون حيث كان يتزيّا بزي العلماء والزهاد، ويحب مجالستهم ويتشبه بهم ويكرمهم ويُدنيهم منه ، ويهابهم أيضا ويعترف بفضلهم[٣] ـ وسوف نلمس ذلك فيما بعد ـ.

إضافة إلى ذلك فقد قام بتأليف كتاب سمّاه "الشمس المنيرة لتنوير البصيرة"[٤] الذي وصفه العلامة شيخ الإسلام الشوكاني موضحا وساخراً فأشار بأنه "في مجلد لطيف وقفت عليه، وفيه نقل مسائل من مؤلفات جد أبيه الإمام القاسم بن محمد، ولكنها

---

(١) المرهبي : نزهة البصائر في سيرة الإمام الناصر، (خ) : ١/ ق ١٢ أ، ب .

(٢) انظر : شروط الإمامة ، ص ٢٨ .

(٣) الشوكاني : البدر الطالع ، ص٦١٥ ؛ الداعي : الدامغة الكبرى (خ) : ٢/ ٢٠٣؛ أبو طالب : طيب أهل الكساء ، ص٢٩١، الحوثي : نفحات العنبر (خ) : ٢/ ق ١٦ب؛ الكبسي : اللطائف السنية، طبعة الجيل الجديد ، ص ٣٩٠.

(٤) الحبشي : حكام اليمن المؤلفون المجتهدون، بيروت، دار القرآن الكريم، ط١ ، ١٩٧٩م ، ص٢٦١. وذكر أن نسخة من مخطوطة الكتاب تقع في ٦٦ورقة محفوظة بمكتبة الامبروزيانا برقم١١٠(B) .

غير مرتبه ولا منقولة على أسلوب، بل لا يدري المطلع على ذلك الكتاب ما موضوعه، ولا ما غرض مؤلفه، وسبب ذلك كون مؤلفه ليس من العلماء"[1]!

وكيفما كان الغرض من تأليف الكتاب إلاّ أن الإمام ساهم في النهضة العلمية، كما أنه اقتنى مكتبة كبيرة ، جمع فيها "نفائس الكتب"[2]؛ كان من ضمنها مصحف الإمام شرف الدين التي أهداها للأمير "محمد بن الحسين بن عبدالقادر"(ت :١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م) "وهي: مصحف عظيمة مكتوبة جميعها بالذهب محجوب كل حرف منها بالمداد الأسود وبقلم كالشعر فترى الكلمة ثلاث كلمات وهو مصحف قد تداولته الآباء من لدى الإمام المطهر المظلل بالغمامة[*] أهداها له ملك الروم"[3].

٢- الجوانب الشخصية :

لاشك أن الأحداث والظروف التي عايشها محمد بن المهدي أحمد بن الحسن منذ نعومة أظفاره بدايةً من خروج والده على الإمام المؤيد حين هرب والده إلى يافع وتركه مع حامية حصن "ذي مرمر" عام(١٠٥٢هـ /١٦٤٢م) ــ وهو لا يتجاوز السادة من عمره ، أمر حينها المؤيد بهدم الحصن المذكور[4]. ثم ما واكبه من ازدهار دولة المتوكل وتوسعاتها في المشرق بقيادة والده ــ الذي كان لا يفارقه في سفر ولا حضر ــ إضافة إلى بداية تكوين مراكز القوى بعد وفاة المؤيد بن القاسم وما آل إليه الوضع من شدة تنافس الأمراء على السلطة، وشن المؤامرات ضد بعضهم؛ كل هذه المجريات وغيرها أثرت في تكوين سلوكياته النفسية، إذ أكسبته الشدة والبطش والعظمة، وحب الوصول إلى غايته مهما كانت الوسيلة، فجعلت منه شخصية قوية قيادية "طموحة غير

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع، ص٦١٦.

(٢) الحوثي: نفحات العنبر،(خ): ٢/ ق ١٦ب .

(*) المتوكل على الله المطهر بن يحيى، من ذرية الإمام الهادي يحيى بن الحسين:(٦١٩ــ ٦٩٧هــ /١٢٢٢ــ١٢٩٧م)، دعا لنفسه بالإمامة عام(٦٧٦هــ/ ١٢٧٧م) في خولان العالية وكانت إمامته ضعيفة لشدة سطوة الرسوليين . (إبراهيم بن القاسم: طبقات الزيدية الكبرى،(تحقيق : عبدالسلام الوجيه)،٢/ ١١٣٧؛الجرافي: المقتطف، ١٩٢).

(٣) الكوكباني : (الحسن بن عبد الرحمن)، المواهب السنية ،(خ) : ٢/ ص ٧٠.

(٤) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٨٧ ، ١٤٧؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٦٦.

عادية فيمن سبقه من بيت القاسم، بل ومن جاء بعده. فالشجاعة والإقدام اللتان تحلى بهما والده المهدي أحمد (سيل الليل) ارتبطت عند الناصر بالمكر والدهاء"[1]، وقد اتفق المؤرخون بأن الشجاعة كانت سمته العليا وسوف تتضح جليا من خلال عرض معتركاته السياسية والحربية التي خاضها ضد منافسيه والخارجين عليه ، وقد أشاد بها الحسن الداعي ـ أحد مناوئيه ـ في دامغته[2] بقوله : ـ

وناصر الدين ذي الفتح المبين ... ومن قاد العساكر من الخيل والخول
محمد أمير المؤمنين له ... عزم يصول به ماض على عجل
لا يرهب الموت بالأسياف إن لمعت ... ولا يكل عن العاليات ولا يمل
تخافه الروم وهو الآن في يمن ... يروه فتحاً لبيت الله بالرسل
اسمع به ثم مدّ الطرف فيه تجد ... ملأ المسامع والأفواه والمقل
حقاً هو الأسد العادي فعد به ... فإنه سيد السادات عن كمل

أما عن كرمه وعطاياه فقد ذكر المؤرخون أنه بلغ ذروةً عاليةً لم يبلغها أحد من أئمة اليمن ـ قبله أو بعده ـ (فكان ينفق نفقات من لا يخشى الفقر)، وشواهد ذلك كثيرة جداً ـ سوف نتعرض لها خلال البحث ـ لكن نود عرض مثال واحد كشاهد على كثرة عطائه لمن ثبت عنده ولاءه من الأمراء والقواد. ففي عام (١١٠٠هـ /١٦٨٩م)، منح الأمير أحمد بن عبد الرب "أربعة عشر ألف قرش قبضها في ليلة واحدة"[3] وهذا مبلغ باهظ لا أعتقد أن يحوزه أي شخص مهما بلغت درجته، وكان ذلك المبلغ مقابل فك المذكور للحصار الذي ضربه عليه عمه الحسين بن الحسن الآتي ذكره. أما كرمه على الوافدين عليه من خارج اليمن فهي كثيرة أيضا حتى صار يضرب بها المثل، مما جعل اليمن أملاً للوافدين عليه من مختلف الأقطار لنيل عطاياه كما سنلاحظ ذلك في موضعه مثل: كرمه وهداياه للوفد الفرنسي الذي استضافه في المواهب بتاريخ (١٤/٢/١٧١٢م)

(١) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٨٧.
(٢) الداعي (الحسن بن صلاح) : الدامغة الكبرى ،(خ) : ٢/ ص١٧٢.
(٣) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) : ٢/ ص٦.

ومكث لديه أكثر من ثلاثة أسابيع لاستطبابه إثر قروح أصابته فـي رأسه وذراعـه[1].

ويبدو أن لصفة الكرم هذه بُعداً سياسياً كبيراً لدى الإمام، حقق من خلالها شهرة وسمعة طيبة، كما أكسبته هيبةً بين الدول المجاورة وخاصةً السلطنة العثمانيـة ـ فـي بدايـة ضعفها ـ ، باعتبارها حامية الحرمين الشريفين، وانه يروم ذكر اسمه على منابرهـا، مما جعلها تعمل له ألف حساب، وتسعى لكسب ودّه لتأمن شره، وهذا يتضح من خـلال عتاب والي مصر، لوالي "جدة " حين أرسل الأخير أخاه بسفارة وهدية إلى الإمام لغرض كسب وده من جهة، ومن جهة أخرى لاستطلاع مدى قوته وخطره عليهم[2].

ورغم أن الكرم من أفضل الصفات، ويُعدّ أحد شروط الإمامة، إلا إنها تحولت إلى مثلبة من مثالبه، لأنه مع جزالة عطائه كان يحتاج دائما للمـزيد مـن الإيـرادات، فيضطر إلى استنـزاف أموال الناس، وظلمهم بفرض الغرامات المتعددة والمصادرات، فكان يأخذ "المال من حله وغير حله"[3]، وقد علّق عليه أحد مؤرخي عصره في صـفة كرمه للوفد الصفوي[4] بقوله : "ولو أنها وفدت هذه الأعاجم إلى غير ذلك الإنسان من الملوك لأكدوا، ولعجز عن نفقتهم فكيف المكافأة بما أهدوا، لكن صادفوا من بيت مالـه في لسانه، وكلما في أيدي الناس فيحكم فيه بسلطانه، فأدرَّ عليهم الأرزاق بـلا كيـف، وأكره رعاياه بالتسليم لإكرام الضيف"[5].

وهناك ظاهرة أخرى صاحبت جوده وسخائه، وهي الأبهة والعظمة الملوكية، التي كان يظهرها على حاشيته وعساكره ومن يلوذ به، ويتضح ذلك جلياً في موكبـه الـذي كان يخرج به لأداء صلاة الجمعة خارج المدينة[6]، وكذا في أنواع المهرجانات التي كان يقيمها في حفلات زواجه، إضافة إلى فخامة مراسيم استقبال الوفود العربية والأجنبيـة، لدرجة إنه كان يأمر بتزيين العبيد والخيل والطريق، وكل محل يصل إليه الوفـد، ففـي

---

(١) جان دي لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص١٣٧.

(٢) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٣٠٥ ــ ٣٠٦ ، وعن والي جدة انظر : الفصل الخامس، ص ٣٥٠-٣٥١

(٣) الشوكاني : البدر الطالع ، ص٦١٥.

(٤) سيتم مناقشة الوفد الصفوي وهدف زيارته للإمام في الفصل الخامس من هذا البحث ، ص ٣٥٧ وما بعدها .

(٥) أبو طالب : السحر المبين،(خ) : ق ٤٥ أ.

(٦) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص١٤١ ؛ الكوكباني : المواهب السنية ،(خ):٢/ ص١٣.

مراسيم استقبال الوفد الصفوي "أمر المهدي بأن يُزيِّنْ كل محل يصل إليه الوفد، حتى وصل إلى المواهب، وقد صَّفت الأجناد من المواهب إلى قريب ذمار، ثم صفّت بعد ذلك الخيل إلى ميدان الدار، وقد فرش جميعه بالمفارش الرومية، وعند رأس كل حصان عبد من العبيد حتى وصلوا إلى الديوان"[1].

ورغم هذه العظمة التي وصلت إلى درجة البذخ والترف ، على رجال دولته إلا أنه كان يتزهد في مجلسه وملبسه فكان لا "يلبس الحرير ولا رفيع الثياب، وكان يسمى صاحب السجدة لأنه كان إذا خرج من موكبه، ورأى ما بين يديه من الأجناد المالية للفضاء ترجّل عن جواده، وسجد شُكراً لله وتواضعاً، ومرّغ وجهه بالأرض"[2]، ويزيد ذلك وضوحاً ما أورده كاتب الرحلة إلى العربية السعيدة مما أخبره به أعضاء الوفد الفرنسي ـ المذكور سابقا ـ من وصف قصر وأثاث الإمام وملبسه أيضا، حيث قال : "ولهذا فهم [أي الوفد] أنه على الرغم من هذا القصر كان فسيحاً وواسعاً، على وفق عادات البلاد، فإنه ليس هناك ما هو أكثر بساطة وأقل عناية من فنه المعماري، أو أكثر عادية من أثاثه. ويستطيع المرء الحكم على بقيته من حجرة الملك، حيث لا يوجد أي شي غير الأريكة سابقة الذكر وقماش قطني مطبوع يمتد حول الغرفة، ولا يرتفع أكثر من خمسة أو ستة أقدام، ويبدأ من كلا جانبي الأريكة، التي يعتقد أنها مزينة بما فيها الكفاية ومجهزة بالسجاد والوسائد البعيدة عن أي فخامة. ويعطي شخص الملك هذا الإيحاء بالبساطة، إذ لم يسبق لهم أن شاهدوه في لباس آخر غير رداء أخضر أو أصفر اللون من دون أي شكل من أشكال الزينة، لا يرتدي الجوارب بل النعال الخفيفة على الطريقة التركية. والشيء الوحيد الذي يميزه نوع من الحجاب المتخذ من الحرير الأبيض المثبت بعمامته والذي يغطي رأسه، ويتدنى للأسفل ويُعقد تحت ذقنه"[3]. وهذا ما أثار لدى الكاتب بعض التساؤلات للاستغراب حيث قال: "لا أدري ما إذا كان في هذه

---

(١) الكوكباني : المواهب السنية، (خ) : ٢ / ص١٤.

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ، ص٦١٥ .

(٣) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة، ص١٣٩ ـ ١٤٠.

البساطة العظيمة الملاحظة في قصر الملك وشخصه القدير قليل من التصنع، أو أنه مبدأ من مبادئ الدين الإسلامي"؟ ![1] .

وهناك صفة أخرى أثّرت في مجرى حكمه وسياسته الداخلية والتي تكمن في ولعه بكثرة الأعراس، التي بلغت عشرة أعراس ـ كما سيتضح لاحقاً ـ إضافة إلى احتفاظه بعدد كثير من النساء في قصره ومن جنسيات مختلفة، والذي بالغ الرحالة الفرنسي في عددهن حيث أشار إلى أنه يتراوح ما بين (٦٠٠ ـ ٧٠٠)[2] امرأة ! بينما أشار غيره إلى أنهن لا يتجاوزن (٣٠٠)[3] ، ولعل الراجح ما ذكره الأخير .

أما حبه للتجديد والتميز عن غيره فقد بانت واضحة على شؤون الإدارة ولعله أول من أظهر الختم على المراسيم والأوامر التي كان يصدرها الشيء الذي لم يظهر على وثائق من سبقه من الأئمة ولا على وثائق من لحقه منهم، ولعله أراد بذلك تقليد الدولة العثمانية في الهيكل الإداري[4].

ومهما يكن من أمر فخلاصة القول إن الإمام المهدي محمد كان شخصية فريدة من نوعها، يحمل في طياته المتناقضات في آنٍ واحد، فيستخدم مع الشجاعة المكر والدهاء، ويستخدم شدة البطش مع العفو والتسامح، ويحمل الجود والسخاء مع الحرمان لمن ناوأه، ويعمل بحزم وعزم مع التساهل لبعضهم، وهذه كانت الشخصية المناسبة لمواجهة طموح الأمراء، وكبح جماحهم وتقليص سطوهم على الولايات، وهي الثمار التي اجتناها من البذور التي زرعها الإمام المتوكل على الله إسماعيل، منذ أجاز توريث الولايات للأولاد دون النظر في القدرة والكفاءة مما حوّل هدف مطلب الإمامة من مبدأ ديني يقتضي الرئاسة العامة لمراعاة مصلحة الرعية، إلى مطلب دنيوي لتحقيق المصلحة الشخصية، وهذا ما غرس الشك في قلب الإمام المهدي محمد بن أحمد وجعله يعيش في قلق دائم، وشكٍ مستمر حتى في أقرب الناس إليه، لدرجة أن

---

(١) لاروك : المصدر السابق ، ص١٤٠ .

(٢) الصايدي(د. أحمد قايد): اليمن في عيون الأجانب، مجلة دراسات يمنية،العدد٦٠-٦١، يناير- يونيو ٩١م، ص٩٦.

(٣) Playfair , (A) : Ahistory of Arabia Felix , Bombay .١٨٥٩ . P١١٣ .

(٤) سالم : وثائق يمنية ، ص ٨٥ ؛ وانظر : الملحق وثيقة رقم (١) ، (٢) .

بعض أولاده ماتوا وهم مكبلون بالقيود في سجونه المتفرقة، فما بالنا بأخوته وأولاد عمومته وغيرهم، ورغم ذلك إلا إنهم كانوا دائماً يلهجون بمثالبه وبعدم استحقاقه للإمامة ويتحينوا الفرصة للانقضاض عليه، وهذا ما جعله يستعين على تسيير دفة الحكم ــ إضافة إلى ما ذُكر ــ بالمنجمين والمشعوذين، فنتج عن ذلك تغيير لقبه من الناصر إلى الهادي ثم استقر على لقب المهدي، ولكل لقب مدلول سياسي خاص به وأحداث ميزته عن غيره، وفترة زمنية محددة ــ كما سوف يتضح ذلك جليا خلال الدراسة ــ .

وأخيراً ولكي تكتمل شخصية الإمام نود أن نعرض بعض ملامح صفاته البدنية والتي لم نعثر على قليل منها إلا في نهاية عمره مما نقله إلينا كاتب الرحلة إلى العربية السعيدة عن وصف الرحالة بقولهم : "كان الإمام رجلاً عجوزاً، يبلغ من العمر سبعاً وثمانين سنة(*)، حسن البنية، مقبول المحيا، تميل بشرته إلى السُمرة" (١) .

٣- مشاركته العسكرية والإدارية :

كانت حياة الأمير محمد بن أحمد مليئة بالإحداث والمغامرات منذ نعومة أظفاره، فهو لم يعرف الاستقرار والميل إلى الدعة والراحة، ــ كأقرانه من أبناء أمراء آل القاسم ــ ولعل سبب ذلك كونه أكبر أولاد الأمير أحمد بن الحسن القائد الأعلى لجيش الإمام المتوكل على الله إسماعيل، الذي شهدت دولته توسعا كبيرا لم يبلغها أحد من الأئمة قبله، وذلك بزعامة هذا القائد الكبير، الذي أبرز قيادته العسكرية منذ نهاية العقد الثاني من عمره، وبما أن ولده محمداً هذا كان لا يفارقه في سفر ولا حضر ، فإن ذلك قد أكسبه الشجاعة وولّد عنده حب المغامرة والطموح .

ويبدو أن دور محمد بن أحمد القيادي قد بدا واضحاً منذ أواخر العقد الثاني من عمره، وذلك عندما أرسله والده على رأس حملة لإخضاع تمرد بعض قبائل الحجرية، الذين أعلنوا العصيان إثر شدة الظلم الذي نالهم حال جمع معونة الحرب ضد يافع عام(١٠٦٦هـ /١٦٥٦م)(٢)، ولعل نجاحه في هذه المهمة كانت سببا لأن يجعله الإمام

(*) يبدو أن عمره حال زيارة الوفد الفرنسي عام ١٧١٢م كان ٧٥سنة ، وذلك نظراً إلى تاريخ مولده سالف الذكر .

(١) لاروك : العربية السعيدة، ص١٣٥ .

(٢) قاسم غالب وآخرون : ابن الأمير وعصره ، ص٧٣ .

المتوكل إسماعيل أميراً على تلك الحملة المكونة من (٣٠٠٠) فارس التي أرسلها من" رداع" لرفد والده أحمد حال فتح حضرموت عام(١٠٦٩هـ /١٦٥٩م)[١]. ثم جعله والده قائداً لحامية "الوهط"[*] بلحج، عندما تقدم إلى "عدن" لصد هجوم الإفرنج عليها عام(١٠٧٢هـ/ ١٦٦٢م)[٢] .

ولا يستبعد أنه استمر أميرا على تلك المناطق التي تمت السيطرة عليها مؤخراً في لحج ، حتى توفى إسماعيل بن محمد بن الحسن ــ أمير العدين ــ في بداية عام (١٠٨٠هـ /١٦٦٩م)، دون وريث يخلفه عليها، فكانت الفرصة المناسبة ليتقدم أحمد ابن الحسن إلى عمه المتوكل يطلب منه منح ولايتها لولده محمد هذا، إلاّ أن الأخير اعتبرها الغنيمة الدسمة والباردة له، وذلك لما سبق عليها من المشادة فيما بينه وبين محمد بن الحسن المتوفى قبل ولده المذكور بتسعة أشهر، لذلك رفض الطلب بشدة إلاّ أنه عوضه عنها ــ في نفس العام ــ بإمارة "بلاد المعافر" من أعمال الحجرية جنوب تعز[٣].

تولّى محمد بن أحمد "المعافر" وهو في ريعان الشباب لم يتجاوز حينها الثالثة والثلاثين من عمره وكله طاقة ونشاط يطمح إلى ما هو أكثر من ذلك، لذلك لم يستقر في ولايته تلك بل تجاوزت أنشطته إلى خارجها، ففي عام توليته بَلَغَهُ هجوم الإفرنج على ميناء المخا، فلم يتوانَ عن الإغارة عليهم وصدهم عن الميناء، غير أن شارح سيرته قد بالغ في وصف هذه الإغارة ، وأشار بأنه بلغ شأناً عظيماً بواسطتها لدى الإمام المتوكل حيث "دعى له وأثنى عليه، ونوّه بذكره وما زلنا نسمعه يقول لخاصته هذه الغارة من الولد عز الإسلام محمد بن أحمد حفظه الله"[٤].

(١) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر. ص٤٩ .

(*) الوهط : بلدة واقعة بين عدن والحوطة بجوار الوادي الكبير في شمال بنر أحمد .(معجم المقحفي: ٢/١٨٩٠) .

(٢) الجرموزي : تحفة الأسماع والأبصار.(تحقيق : د . عبد الحكيم الهجري). ٢/ ٩٥٤.

(٣) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص١١٥. ١١٧؛ ابن الوزير : طبق الحلوى . ص٢٥٤؛ الحبشي : يوميات صنعاء، ص١٧٩ ؛ أبو الرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر.(خ) : ١/ ق ٣ أ .

(٤) أبو الرجال : الروض الزاهر (خ) : ١/ ق ٣ أ.

وعلى ما يبدو أن حُبّ القيادة والحركة العسكرية السريعة قد صارتا غريـزة في نفس محمد بن أحمد ــ أمير المعافر ــ ، فكان لا يسمع بأي تمرد من القبائل إثر ظلم العمال، إلاَ هبَ للمشاركة في إخضاعهم ، ففي عام(١٠٨٣هـ /١٦٧٢م)، قام أهل "جبل صبر" ــ في تعز ــ بالتمرد على الدولة لعدم استماع الإمام لشكواهم من ظلم عاملهم الشيخ راجح الأمر الذي أدى إلى تحالفهم مع أهل الحجرية، فرفضوا تسليم الواجبات وألغوا "حي على خير العمل" من الأذان، وقتلوا ثلاثة من الجنود، غير أن الإمام المتوكل أرسل حملة بقيادة أمير المنصورة وصالح عقبات، فتمكنت من قمعهم بسرعة وأخذ الكثير منهم أسرى[١]. وفي عام (١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م) قام الأمير محمد برفد والده بجيش "المنصورة" لصد هجوم العمانيين على المخا، فتمكنا من هزيمتهم وطردهم من السواحل اليمنية[٢] .

ورغم حركاته الكثيرة إلا أنه لم يُهمل شأن ولايته، فقد قام بدور يُلفت النظر، حيث بدأ بتكوين جيش خاص به، ثم قام بترميم وتجديد حصن المنصورة وجرَ إليه المدافع، وجعله مركزاً لحكم ولايته، ثم ضبط نظام إدارته لدرجة أنه كان لا يسمح بخروج أي فرد من البوابة إلا بتصريح منه[٣]. ونتيجةً لهذه التحصينات والتجهيزات "يُقال إن المتوكل على الله لما بلغه عمارتها قطع بوقوعها أعني ملكه لليمن"[٤]؛ وبهذا ارتفع شأنه، وأصبح يضاهي والده لدى المتوكل .

ومما لاشك فيه أن هذه التجهيزات كانت استعدادا منه لتحقيق جزء من طموحه الكائن في توسيع ولايته، وقد رأينا مدى حبه للحركة، وإقحام نفسه للمشاركة في عمليات عسكرية خارج ولايته، فإذا ما استقرت الأوضاع في سائر البلاد، رأيناه يختلق لنفسه مبررات للهجوم على بعض قبائل ولايته، ففي عام(١٠٨٥هـ/١٦٧٤م)أرسل

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن،(خ) : ٢/ ق ٢٦ ب ــ ٢٧أ ؛ أبو طالب: طيب الكساء ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩.

(٢) أبو طالب : طيب الكساء ، ص١٣٥ــ ١٣٦ ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣٠٦ ــ ٣٠٧ ؛ وانظر ما سيأتي في الفصل الخامس من هذا البحث ، ص ٣٤١ وما بعدها.

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٢٧/٢ أ ، ١١١/٣ أ .

(٤) أبو طالب : طيب الكساء ، ص١٢٩ .

بعض عساكره وعبيده للاحتطاب من أملاك الأهالي دون استئذانهم ، الأمر الذي أغضبهم وأدى إلى اندلاع حرب بينهم، أسفرت عن مقتل بعض العبيد[١]. وفي أواخر شهر محرم من العام التالي قاد حملة ضد قبائل الزريقة فتكتلت ضده قبائل الحجرية ووقعت بينهم حروب شديدة استمرت نحو أربعة أيام سقط خلالها عدة قتلى من الطرفين ونُهبت الكثير من مواشيهم ، لكنه كاد أن يُهزم لولا وصول المدد من الإمام المتوكل[٢].

ثم اتضح دوره الخطير خلال صراع التنافس على السلطة الذي نشب فيما بين والده وابن عم أبيه الداعي القاسم بن المؤيد ــ بعد وفاة المتوكل إسماعيل عام(١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م) ــ وهنا نلاحظه يفضل المصلحة الشخصية على طاعة والده، وذلك بإرسال بيعته لمنافس والده والتي وصلت في وقت كان الداعي القاسم وأصحابه قد ضاقوا ذرعا من شدة الحرب والحصار المضروب عليهم من المهدي أحمد، فلما وصلت بيعة المذكور استعاد الداعي نشاطه، وأمر بإيقاد النيران إعلانا للبشارة، مما أدى إلى امتداد الحرب بينهما حتى استنفد الداعي قواه، ورضخ لمبايعة المهدي أحمد بالشروط المذكورة سابقاً، وقد اعتبر المهدي بيعة ولده لمنافسه عقوقاً وخروجا عن الطاعة، فقام بإرسال حملة بقيادة ولده علي لانتزاع الولاية من أخيه وتأديبه، غير أن القائد توفى حال وصوله "يفرس"[*] شمال غرب المنصورة فكان ذلك من حسن حظ أميرها[٣] .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن بيعته لمنافس والده كانت لإبعاد سياسية الهدف منها تنفيذ نزعته التوسعية ، ولعله رأى صعوبة تحقيقها في ظل شخصية والده القوية، وهذا ما شرع فيه فعلا، حيث قام بالسيطرة على منطقة "موزع"[٤] ــ الخصيبة والواقعة جنوب

---

(١) يحيى بن الحسين : المصدر السابق ، (خ) : ٢ / ق ٦٩ب ؛ ابن الوزير : المصدر السابق ، ص٣١١ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ) : ٢ / ق ٨٦ أ ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣١٥ ــ ٣١٦ .

(*) يفرس : مدينة مشهورة جنوب غرب تعز بمسافة (٢٣) كم، وفيها قبر الولي أحمد بن علوان آتي الذكر. (معجم المقحفي: ٢/١٩١٩).

(٣) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن (خ): ٢/ ق١٧٧ أ،١٨٦ أ؛ ابن الوزير: طبق الحلوى، ص٣٤٥،٣٥١؛ أبوطالب: طيب الكساء، ص ١٦٨؛ ابن عامر: بغية المريد،(خ): ص١٧٢؛ مجهول: ملحق اللآلي المضيئة (خ):٣/ ٦٧٢.

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٢/ ق ١٧٥أ ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٣٠٨ .

شرق المخا[1] ـ وقد ضمها إلى ولايته إثر بيعته للداعي القاسم بن المؤيد ، لكن سرعان ما خاب أمله عندما سمع بإخفاق دعوة الأخير[2]، ثم خاف بادرة والده ، فندم على فعلته وأخذ بالحزم في تحصيل الوساطة[3] وسار إلى والده فوافاه في "الغراس" حال عودته إليها من المناطق الشمالية في(ذي الحجة ١٠٨٨هـ /١٦٧٨/١/٢٤م) ، فأستمر في استعطاف والده حتى عفى عنه وأقره على ولايته والتوسعات التي قام بها . ثم جعله وسيطا للمصالحة فيما بينه وبين أخيه الحسين بن الحسن الذي وقع في نفس المشكلة[4].

أما بعد وفاة والده الإمام المهدي أحمد في(١٠٩٢/٦/٢٢هـ /١٦٨١/٧/٨م) فقد رأينا كيف خاض غمار التنافس على السُلطة ـ مع أقرانه من آل القاسم[5] ـ فدعا دعوته وتلقب بالناصر ، لكنه لاحظ فيما يبدو أن هناك قصوراً في استعداداته المالية والعسكرية التي تساعده على مواصلة دعوته، لذلك عمد إلى الاستمرار في المنصورة مكتفياً بإرسال وزيره "عبدالله المحرابي"(ت: قبل ١١٣٠هـ/١٧١٧م)[6] إلى صنعاء ليخبره بما يدور هناك من مستجدات فيما بين المتنافسين، وعن الشخص الذي سيتم اتفاقهم على مبايعته وشروط بيعتهم؛ فلمّا عرف ميل العامة والخاصة نحو "المؤيد الصغير" رأى أنه الشخصية المناسبة لتحقيق ما يربو إليه من استكمال تجهيزاته، لذلك كانت دعوته كمناورة سياسية للحصول على الكثير من الامتيازات ، فرأيناه يشترط الشروط المجحفة مقابل مبايعته للمؤيد ، ثم يتعلل حتى أنه لم يبايع إلا بعد إرسال حملة بقيادة الحسين بن محمد بن أحمد أبوطالب لقمعه وإجباره على البيعة، الذي وصل بها إلى "الجند" في تعز فدارت المفاوضات بينهما على التسليم والمبايعة للمؤيد في

---

(١) معجم الحجري : ٧٢٤/٢ . معجم المقحفي : ٢/ ١٦٨٣.

(٢) ابن عامر : المصدر السابق (خ) : ص ١٧٢.

(٣) كان الأمير قاسم بن أحمد بن الإمام القاسم(ت : ١٠٩٣هـ، ١٦٨٢م) من ضمن هذه الوساطة التي سعت بالصلح فيما بين المهدي أحمد بن الحسن وولده هذا . (أنظر أبوطالب : السحر المبين(خ) : ق٧ أ، ب).

(٤) ابن عامر: بغية المريد،(خ): ص١٧٢، ٢٤٢؛ العمري: تاريخ اليمن الحديث، ص٦٩؛ انظر: التمهيد، ص٣٨-٣٩.

(٥) انظر : التمهيد "المؤيد الصغير واستقلال مراكز القوى عن الدولة المركزية" ص ٤٤

(٦) زبارة : نشر العرف . ٢/ ١٤٠ ـ ١٤١

شهر(صفر ١٠٩٣هـ / فبراير ١٦٨٢م)[١] ولكن بشروط أهمها: منحه ربع إيرادات ميناء المخا وكذا ضم بعض البلاد إلى ولايته مثل بيت الفقيه وزبيد وعدن فأستحوذ بذلك على أفضل البلاد ذات الموارد الجيدة[٢]، وصار من أقوى أمراء مراكز القوى .

ومما لاشك فيه أنه أدرك قصور إمكانياته حينما عجز عن إخماد تمرد قبائل الحجرية الذي ظهر بقيادة "الرجبي" الصوفي في نهاية العام المذكور[٣]، عندما حاصروه في المنصورة وكادوا أن يفتكوا به لولا استنجاده بالمؤيد الذي أنجده بحملة عسكرية بقيادة الأمير أحمد بن المؤيد الكبير وابن أخيه "فوصلا وفرجا عنه بعد حرب ألجئت الرجبي إلى الهرب"[٤]. وقد أفصحت المصادر أن أسباب التمرد كان نتيجةً لرد فعل الأهالي لما نالهم من الظلم والتعسف منه ومن عُماله، الأمر الذي جعل المؤيد يؤكد على قائد تلك الحملة بضرورة النظر في المظالم بعد تمام إخضاعهم ، غير أن صاحب المنصورة دبّر مكيدة ضد هذا القائد وجيشه لصرفه عن تحقيق الهدف الثاني للحملة، وذلك بأن أوعز إلى العامة بمهاجمتهم فاشتبكوا معهم في موقعة "المرازب" أسفرت عن عودة الحملة إلى الإمام دون النظر في المظالم المذكورة[٥].

بعد ذلك سعى جاهداً لتلافي ذلك القصور بل وتعزيز تموين قواته وموارده مستخدماً لذلك وسائلاً شتى، لعل أهمها زيادة فرض المجابي على كاهل الأهالي، وتوسيع ولايته بمد نفوذه للسيطرة على المناطق المجاورة لولايته ذات الموارد الكثيرة، فتحالف مع اخوته لتحقيق ذلك[٦]، غير أن هذه الخطوة كانت مغامرة خطيرة حيث اصطدم بأميرين كانا أكثر منه طموحاً ويعتبران أنفسهما أجدر من المؤيد، وهما : عمه الحسين بن الحسن أمير المنطقة الشرقية إلى "رداع"، وعلي بن المتوكل أمير العدين

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ٤١أ ــ ٤٢أ ، ٤٤ب، وفي (ق: ٤٧أ) مرسوم بيعته للمؤيد ؛ الحبشي: يوميات صنعاء ، ص٣٨٤ ــ ٣٨٦ ؛ أبوطالب : السحر المبين . (خ) : ق ٦ب .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣ / ٣٨أ . ب ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٣٧٩ .

(٣) أبو طالب : السحر المبين (خ) : ق٦ ب؛ وطيب الكساء ، ص١٨٤ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز (خ): ق ١٦٠أ ، وأوردها يحيى بن الحسين ضمن أحداث عام (١٠٩٤هـ/١٦٨٣م) ،٣/٧٠ب ــ ٧٧ب ، ولعله الصحيح .

(٤) الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ) : ق ١٦٠ أ .

(٥) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق٧أ .

(٦) يحيى بن الحسين : المصدر السابق ،(خ): ٣/ ٨٤ ب .

والمخا وتعز، ورغم ذلك إلاَ أنه أقحم نفسه في الصراع معهما، ففي نهاية عام(١٠٩٢هـ /١٦٨١م)أرسل حملة عسكرية بقيادة أحد أولاده للسيطرة على "تعز" وكان بها علي بن المتوكل فلما سمع بقدومهم جهز حملة لصدهم فالتقى الفريقان في"جبل صبر" ودارت بينهما معركة أسفرت عن هزيمة ابن صاحب المنصورة وفراره وأسر بعض قادة وجنود الحملة[١] .

ولم يكتف بإرسال الحملات العسكرية لضم أطراف بلاد أقرانه من الأمراء، بل عمل على تدبير المكائد ضدهم، حيث قام في نفس العام بمراسلة السلطان معوضة بن عفيف[*] يغريه ويحرضه بالتمرد على عمه الحسين بن الحسن، كما حرضهم في العام التالي بغزو قعطبة نكايةً بعلي بن المتوكل[٢]، فكان هذا التحريض بمثابة التصريح لإعلان يافع العصيان ومن ثمَّ الانفصال عن الدولة المركزية منتهزين فرصة خلافات أمراء آل القاسم فيما بينهم للتخلص من مظالمهم[٣]ــ كما سيبسط خلال الفصل التالي ــ . وبما أن أقرانه كانوا يعاملونه بالمثل أيضاً إلا أنه صمم على مواصلة جهوده لتوسيع ولايته في مناطق نفوذهم، ففي عام(١٠٩٤هـ/ ١٦٨٤م) أخضع بلاد "شِمير" غرب مدينة تعز[٤]. وفي سنة(١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥م) استولى على "جبل المقاطرة"[٥]، ثم عقد حلفا مع عمه لغزو يافع ولعله دسَّ إلى المؤيد من يقنعه بأن يكلفه بغزو يافع فتم له ذلك وأرسل حملة عليهم بقيادة ولده عبدالله [٦] ، الأمر الذي أزعج علي بن المتوكل فاتهم أخيه المؤيد بأنه يساند أمير المنصورة بطريقة غير مباشرة، وأن هذه الحملة تعتبر خرقا للمواثيق والقواعد التي أبرمت مع يافع بإقرار المؤيد نفسه، فتوترت بسببها

---

(١) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص ٤١٩؛ يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) :٣/٢١ب ــ ٢٢ أ ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٣٧٤ ؛ بنت الأمير : التطورات السياسية ، ص٥٦٥ .

(*) السلطان معوضة بن محمد بن عفيف (ت: آخر عام ١١٠٤هــ / ١٦٩٢م) ، كان ذا شخصية قيادية قوية تولى زعامة قبائل يافع سياسياً ، وسوف تتضح أدواره خلال الفصل الثاني .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ٢٤ب ، ٢٧ب ، ٤٤ب ؛ أبو طالب : طيب الكساء ، ص١٨٢.

(٣) أبو طالب : طيب الكساء ، ص١٨٢ ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص ٣٨٤ .

(٤) أبوالرجال : الروض الزاهر ، ١/ ق ٢٨ب .

(٥) يحيى بن الحسين : المصدر السابق ،(خ) : ٣/ ق ١٠٠ أ؛ الحبشي : نفس المرجع ، ص٤٢٨ .

(٦) العمري : تاريخ اليمن الحديث ، ص٧٤ .

العلاقة فيما بين الأخوين كادت أن تؤدي إلى تنازل المؤيد عن السُلطة كما سبق ذكره[1].

وبوفاة علي بن المتوكل في(٣/٩/١٠٩٦هـ / ٣/٨/١٦٨٥م) انزاحت تلك العقبة التي كانت تعرقل صاحب المنصورة حيث انطلق بعد ذلك للاستيلاء على مناطق المتوفى منطقة تلو الأخرى، رغم الاتفاقية التي أبرمها مع ولد المتوفى تقضي بالمحافظة على ولاية والده[2]، إلاّ أن هذه الاتفاقية كانت من ضمن أساليبه التي كان يستخدمها لتحقيق أهدافه، فلم ينته العام حتى سيطر على "بيت الفقيه"و"زبيد" بقيادة ولده عبدالله[3]، ثم استولى على "المخا "وتعز" في بداية العام التالي[4]، وبذلك حصر ولاية الحسين بن علي في "جبلة " التي استولى عليها في بداية دعوته ـ كما سيأتي بسطه ـ . ثم توجه نحو "يافع" فاستعاد السيطرة على" أبين " و"جُحاف" وكان قد منحهما ليافع، نكايةً بالأمير علي ابن المتوكل لأنها من ضمن ولايته، ولعل موقف يافع كان ضعيفا فلم تفعل حينها شيئا سوى إرسال كتاب استنكار واحتجاج إلى الإمام المؤيد الذي أعرض عنه بل أرسل إلى صاحب المنصورة بالإمدادات وبحملة عسكرية للمحافظة على تلك المناطق المسترجعة[5]، غير أن عمله هذا كان سببا في توتر علاقاته مع يافع والتي ذاق مرارتها فيما بعد .

ومن خلال ما سبق يمكن القول إن صاحب المنصورة آتى بما عجز غيره الإتيان به وفاق أقرانه سواءً من جهة توسعاته في الولاية أو من جهة الاستعدادات العسكرية والمالية والإدارية واستطاع استغلال شخصية المؤيد، فامتدت سيطرته على معظم المناطق الجنوبية والغربية ذات الموارد الزراعية والتجارية، بما فيها الشريط الساحلي من عدن جنوبا إلى بيت الفقيه شمالا، ومن هذه المناطق الشاسعة استطاع جمع الأموال الكثيرة إضافة إلى ما كان يتقاضاه من المعونات التي كان يجمعها المؤيد ويرسلها إليه ليتمكن من إخضاع يافع . والمهم انه"جمع من آلات الحرب والأسلحة المنتخبة والخيل

---

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ١٩٥ ــ ١٩٦.

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/١٠٧أ ، ١٠٨أ .

(٣) أبو طالب : المصدر السابق ، ص ١٩٨ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز ، ق١٦٠ أ .

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ): ٣/ ق ١٢٧ب ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٤٤٦.

(٥) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ) : ٣/ ق ١١٧ أ ، ب .

المسومة مالا تقوم بوصفه عبارة ولا يفي به حصر، ولقد رأيناه جمع من الخيل العتاق ما لم يجتمع قبله لملك من الملوك كثرةً ونجابةً"[١]، وذلك استعدادا لمرحلة قادمة .

٤- تنافس أمراء بيت القاسم على السُلطة وتفوقه في أخذ البيعة :

لقد اشتدّ الاضطراب وعمّ الفساد جميع ولايات اليمن التي اقتسمت فيما بين أمراء آل القاسم منذ عهد المتوكل إسماعيل التي تحولت إلى مراكز قوى، ثم تأثلت وأصبح اليمن كإمارات مستقلة في عهد ولده المؤيد وصار كل والٍ يأمر ويظلم كيف شاء في ولايته، ومن ثمّ يتطلع للاستيلاء على ولاية غيره وهذا بدوره أدخلهم في صراع فيما بينهم ، ولم يعد حينئذ للإمام المؤيد الصغير أي امتثال لأمر أو نهي سوى ذكر اسمه في الخطبة، وحتى العملة استقلّ كل منهم بدار سك للنقود في إمارته[٢]، ومن الغريب والعجيب أن يصل بهم الطمع والاستهتار إلى تسابقهم في بسط أيديهم على البلاد التي كانت تحت يد المؤيد وذلك أثناء المرض الذي ألمّ به قبل وفاته، ومع أن إيراداتها كانت لا تغطي نفقاته إلا أن أخاه الحسين استولى على صنعاء وبلادها ، بينما استولى أخوه الحسن على حراز ، كما استولى أخوه يوسف على "ضوران" و"آنس" ، وكذا استولى أخوه زيد على "ريمة" و"بُرع" ونواحيها، ثم استحوذ أمير المنصورة على تعز والمخا[٣]، فأي أُخوة هذه وأي قرابة ؟ !

لذلك كانت وفاة المؤيد في(٣/٦/١٠٩٧هـ /٢٦/٤/١٦٨٦م) بمثابة إشارة بدء الانطلاق للمتسابقين بالنسبة لتنافس الأمراء وتهافتهم لاعتلاء السلطة ، وهنا نود الإشارة إلى أن المتنافسين لم يخضعوا لشروط الإمامة ـ الأربعة عشر ـ المنصوص عليها في المذهب الزيدي، كما أنهم لم يحتكموا إلى لجنة المناظرة ـ المقابلة ـ التي تعقد فيما بين المتنافسين يخضعون خلالها لمناقشة العلماء الذين يحكمون بالإمامة

---

(١) أبو الرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ١/ ق ٢٨ب .

(٢) انظر : ما سبق ، ص ٤٥ وما بعدها .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣/ ١١٩أ .

للأعلم والأفضل فيهما، ولكن نلاحظ هنا تحول واضح في طريقة نيل الإمامة من الانتخاب طبقا للشروط إلى نيلها بالقوة والمال والمكر والدهاء[1]، وإن اعتذر بعض مؤرخي الإمامة عن هذا الخروج وأشاروا بتحّول الإمامة إلى مُلك في هذه الفترة [2]!!

وقبل أن ننتقل إلى مشهد الصراع الدامي نود محاولة رسم خارطة سياسية للبلاد، تُبيِّن مراكز القوى الفاعلة فيها من بيت القاسم وغيرهم ـ إقتداءً بالمؤرخين السابقين[3] ـ وذلك ليتضح دور كل منهم وكذلك تتضح التقسيمات الإدارية في عهد الأئمة وهي على النحو التالي:ـ

أولا :ـ المناطق الخاضعة لأولاد وأحفاد الحسن بن الإمام القاسم وأولاد أخيه الحسين :

١ . محمد بن أحمد بن الحسن حاز على أكثر المناطق الجنوبية والغربية من ـ تعز ولحج وعدن إلى" المخا" و "زبيد" و"بيت الفقيه" وكان مركز ولايته المنصورة .

٢ . وكان أخوه إسحاق في" حبيش" و"ذي السفال" و"ذي أشرق" .

٣ . واستحوذ أخوهم إبراهيم على ولاية" ذمار" بعد انتزاعها من الحسين بن المتوكل .

٤ . وإمارة محسن على" الغراس" "همدان" و"بني الحارث" و"بني حشيش" و"الجوف".

٥ . واستحوذ عبدالله بن يحيى بن محمد بن الحسن على "العدين" وما حولها .

٦ . إمارة الحسين بن الحسن في" رداع" وما حولها بعد انفصال المشرق .

٧ . وإمارة محمد بن الحسين بن القاسم وأولاده على البستان والحيمة غرب صنعاء

ثانيا :ـ المناطق الخاضعة لأولاد المتوكل إسماعيل :

١ . الحسين بن المتوكل على" صنعاء" وبلادها وامتدت إلى حراز وبعض تهامة .

٢ . القاسم بن المتوكل على" ثلا" وما حولها .

---

(١) راجع التمهيد ، ص٢٧ وما بعدها.

(٢) لكبسي : اللطائف السنية ، طبعة الجيل الجديد ، ص٣٩٠-٣٩١ ؛ المؤيدي (مجد الدين) : التحف شرح الزلف ، ص ٢٤٧ .

(٣) لعمري: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، ص ٧٧ ؛ ابن عامر: بغية المريد(خ) : صفحات كثيرة منها ؛ انظر : الملحق (١٤) خارطة شكل (ب).

٣ . وأخيهما الحسن على" اللحية" إلى" أبي عريش" .

٤ . أما أخيهم زيد فعلى" ريمة" و"يريم" و"بُرع" .

٥ . وكان أخوهم يوسف على" ضوران آنس" .

٦ . الحسين بن علي بن المتوكل على ما بقي له من ولاية" إب" و"جبلة" .

ثالثا :. البلاد الخاضعة لأولاد أحمد أبو طالب :

١ . علي بن أحمد: على" صعدة" إلى" نجران" .

٢ . الحسين بن محمد بن أحمد على سفيان و خمر وعمران إلى " حجة" .

رابعا :. المناطق الخاضعة لأولاد المؤيد بن القاسم :

١ . القاسم بن المؤيد على" شهارة" وما حولها إلى" الشرفين" وبعض مناطق حجة .

٢ . أحمد بن المؤيد على" وادعة" وما حولها .

خامسا :. المناطق الخاضعة لغير آل القاسم وهي :

١ . "كوكبان" وما حولها إلى "الطور" تحت إمرة الحسين بن عبدالقادر بن عبد الرب ابن علي بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين .

سادسا :ـ المناطق المنفصلة عن الدولة المركزية خلال حكم المؤيد بن المتوكل :

١ . انفصال" يافع" تحت زعامة " آل عفيف" و"آل هرهرة" عام(١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م) وكانت من بلاد الحسين بن الحسن .

٢ . انفصال" صبيا" تحت إمرة الشريف طالب بن محمد بتكليف من والي" مكة" الشريف أحمد بن زيد، وكانت من ضمن ولاية الحسن بن المتوكل .

ومن تلك الولايات اشتعلت نيران التنافس على السلطة بعد وفاة المؤيد ، فكان "أول نابح في خامس"[(١)] جماد الثاني من العام المذكور، ثم تتابعت الدعوات، وهنا نود التوقف قليلا ونحاول وضع تصوراً آخراً لهذه الفوضى العارمة ــ التي تقوم باسم الدين وباسم الدفاع عن مذهب آل بيت رسول الله ــ وذلك لنتمكن من فهم أطماع تلك الفئة، وردودها العكسية على الساحة من جميع الجوانب، وهل حُسم الصراع لصالح الشخص

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) :٣/١٢٠ب .

الحائز على الشروط المتفق عليها في المذهب؛ أم لصالح الشخص الذي يتوفر لديه المال والسلاح والدهاء؟

وهنا يتضح انقسام أمراء الأسرة الحاكمة ـ آل القاسم ـ فيما بينهم إلى قسمين: الأول داعي لنفسه والثاني متوقف ، ثم زاحمهم أمراء من خارج الأسرة ليصبحوا ثلاثة أقسام وهم على النحو التالي :

القسم الأول : خمسة دعاة من آل القاسم وهم :

١. يوسف بن المتوكل من ضوران وتلقب بالمنصور .

٢. الحسين بن محمد بن أحمد أبو طالب من عمران وتلقب بالمتوكل .

٣. محمد بن أحمد بن الحسن من المنصورة وتلقب بالناصر .

٤. علي بن أحمد بن القاسم من صعدة وتلقب بالمتوكل ـ تجديدا لدعوته السابقة.

٥. الحسن بن المتوكل إسماعيل من اللحية .

القسم الثاني : ثلاثة دعاة من غير آل القاسم وهم :

١ . الحسين بن عبدالقادر من مركز ولايته "كوكبان " وتلقب بالمتوكل .

٢ . علي بن حسين الشامي من مسور خولان صنعاء وتلقب بالناصر .

٣ . أحمد بن إبراهيم المؤيدي الملقب ابن حورية .

القسم الثالث : المتوقفين عن الدعوة وهما :

١ . القاسم بن المؤيد محمد بن القاسم ، أمير شهارة .

٢ . الحسين بن الحسن بن القاسم ، أمير رداع .

وهذان الأخيران كانا من أشدّ أمراء آل القاسم خطراً ومن ذوي التجارب السابقة في هذا المجال[١]، وكانا في موقف المترقبين ومن ذوي البصيرة اللذين استفادا من تجاربهم السابقة، ورغم توقفهما إلا أنهما لم يخفيا محاولتيهما الدبلوماسية لنيلها، كما اتضح ذلك في محاولات القاسم بن المؤيد منذ مرض المؤيد الصغير غير أنه لم يوفق[٢].

---

(١) انظر : التمهيد ، ص٣٨ وما بعدها.

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣/ ق ١١٨ب ـ ١١٩أ ، ١٢٣ب ، ١٣١أ.

وكما لاحظنا سابقاً فقد صاحب اختلاف الدعاة فيما بينهم اختلاف هدف كل منهم، فمنهم من كان يطمح بالإمامة فعلا ويرى أنه أهلاً لها وأنه حائزٌ على جميع الشروط كالعلامة علي بن حسين الشامي[*]، الذي كان ساخطاً على حكم آل القاسم ويرى أنهم لا يستحقونها وندد بمظالمهم[1]، ومنهم من يقصد بها المساومة لغرض إبقائه على ما تحت يده من الولاية، كالحسين بن عبدالقادر ، كما أن منهم من يقصد بها المساومة لغرض الحصول على المزيد من البلاد، كالحسين بن محمد أبوطالب، الذي كان يريد إثبات يده على ما بقي من بلاد حجة والتي كانت تحت بني جحاف، ومنهم من كان يريد السُلطة بأي وجهٍ كان كصاحب المنصورة .

وكيفما كان الأمر فإن الفوضى والاضطرابات عمّت البلاد واستمر التنافس نحو ثلاثة أشهر استخدموا خلالها كل ما هو ممكن لإظهار أنفسهم كجمعهم الأنصار والمال والسطو على الآخرين وغير ذلك، وأبان كل منهم عن قدراته السياسية والحربية .

أما محمد بن أحمد ــ أمير المنصورة ــ فقد أعلن دعوته في العشر الأولى من شهر(جمادى الآخرة ١٠٩٧هـ/ إبريل ١٦٨٦م) متلقباً بالناصر[2]، وكانت أول خطواته هي توزيع رسائل دعوته إلى الأمراء والمؤثرين في السُلطة ، وكان غالبا ما يشفع رسالته ببعض المال لكسب بيعة الأمير الأكثر تأثيراً على البقية كما فعل مع الحسين بن المتوكل حيث أرسل إليه "محمد كاني التركي واصحبه بدراهم ... كثيرة ، قيل سبعة آلاف درهم ، ويطلب منه الإجابة"[3]، ثم عمد إلى القبض على من يشك في ولائهم من مشائخ الحجرية وأودعهم السجن، وبالمقابل بالغ في الكرم لمن يطمئن إلى ولائهم

(*) علي بن حسين الشامي: (١٠٣٣ ــ ١١٢٠هـ / ١٦٢٣ ــ ١٧٠٨م) كان من مشاهير علماء عصره ، وقد دعا لنفسه لكنه تنازل للناصر فولاه منصب قاضي القضاة .... انظر : ما سيأتي : ص٢٣٩.

(١) يحيى بن الحسين : نفس المصدر (خ) : ٣/١٢٥ب .

(٢) اختلف معاصروه في تحديد يوم إعلان دعوته واتفقوا في الشهر، والراجح أنها في خامس الشهر وما بعده ، استناداً إلى راصد أحداث الفترة يحيى ابن الحسين حيث أشار بأن أول نابح نبح بالإمامة في خامس الشهر، وأنه تسلم دعوة المذكور يوم عاشر الشهر.(يحيى بن الحسين : بهجة الزمن(خ):٣/ ق ١٢٧ب ؛ أبوالرجال: الروض الزاهر(خ) :١/١٩١أ ؛ الضبوي : عقد الجواهر (خ): ق ٢أ ؛ ابن عامر : بغية المريد(خ): ص ٢٤٨؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص ١٩٨ ، ٢٠٣).

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن،(خ) . ٣/ ق ١٢٧ ب.

كصهره ابن مغلس وغيره . بعد ذلك جمع جموعه وأخذ في الاستعداد للتقدم على الأمراء الذين لم يجيبوا دعوته[1] .

وقد تزامن مع تلك الترتيبات تقدم أصحاب الأمير الحسين بن علي بن المتوكل لهدم بيت الشيخ أحمد بن راجح ــ عامل تعز ــ بسبب موالاته للناصر، فكانت هذه الحادثة بمثابة الفرصة السانحة للناصر للتقدم على جبلة والاستيلاء على أقرب مراكز الخطر ويكون عبرةً للآخرين . فما أن وصله ذلك الخبر حتى أمر أخويه إسحاق وإبراهيم وكذا ابن عم والده عبدالله بن يحيى بالسيطرة على جبلة والقبض على أميرها الحسين بن علي ، وبما أن الناصر أمدَّهم بخمسة آلاف مقاتل بقيادة ولده عبدالله ، إلا أنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليها والقبض على أميرها إلا في يوم الخميس(٢٩رجب ١٠٩٧هـ /٢٠/ ٦/ ١٦٨٦م) . أي بعد حروب وحصار دام نحو شهر كان الحسين خلالها يستمد العون من أعمامهِ غير أنهم مشغولين بأنفسهم فلم يصله الإمداد إلا بعد فوات الأوان[2] .

والآن علينا أن نسأل كيف كان وضع أمراء مراكز القوى المتنافسين وغيرهم حال هجوم الناصر على الحسين بن علي ؟ وكيف كان موقفهم من ذلك ؟

كان التنافس الفعال فيما بين أمراء آل القاسم، وذلك لما بأيديهم من الإمارات والإمكانيات، أما غيرهم فقد مالوا إلى العزلة لعدم توفر الإمكانيات مثل : العلامة علي ابن الحسين الشامي فلم يتمكن من جمع الأنصار حوله لعدم توفر المال لديه ، كما أفصح عن ذلك الناصر محمد في الكتاب الذي أرسله إلى الداعي المذكور إجابةً على رسالة دعوته ، وفحواه بأنه الأولى والأحق بالإمامة إلا أنه يعتذر عن إجابته، وذلك لعدم وجود المناصرين[3]، لذلك مال إلى العزلة في "خولان" . ومثله العلامة أحمد بن إبراهيم المؤيدي الذي خرج من صنعاء بدعوته وانكمش بها في إحدى القرى الشمالية . وكان الموقف المغاير مع أمير كوكبان الحسين بن عبدالقادر نظراً لكونه أحد مراكز

(١) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ،(خ) : ٣/ ق ١٣٠أ ، ب .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٣٠ أ ، ١٣١أ ، ١٣٢أ ــ ١٣٣ب ،١٣٥أ.

(٣) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص٢٠٣ .

القوى ، لذلك فقد قام بمحاولات جمة إلا أنه لاذ بالفرار أمام سطوة الناصر — كما سيأتي معنا -.

أما آل القاسم فكان كل واحد منهم يُرهب جاره وينوي الهجوم عليه ويكتب إليه بالتهديد والوعيد إذا لم يدخل تحت طاعته كما فعل الحسين بن محمد أبوطالب والحسين ابن عبدا لقادر مع أمير ثلا القاسم بن المتوكل، وبما أنهما عقدا اجتماعاً لغرض موالاة أحدهما إلا أنه لم يسفر عن شئ سوى التزام كلّ منهما بالتوقف عن مهاجمة الآخر. أما يوسف فقد كتب إلى الحسين بن عبدالقادر يوضح أحقيته في الإمامة ويحتم عليه موالاته. وكان لأمير صعدة دور بارز حيث أعلن التقدم على المناطق الجنوبية لتثبيت دعوته، لكنه مني بالفشل لاختلافه مع قبائل خولان الذين هم "عمدته"، وكذا لامتناع أهل نجران من توريد واجبا تهم إليه لهذه الأسباب لزم عليه الميل إلى الهدوء واستصلاح قبائله[1].

في حين نلاحظ تبادل الرسائل فيما بين الأمراء المتوقفين عن الدعوة يحثون بعضهم على ضرورة الاجتماع وتقرير الأوضاع ، وقد عمد الحسين بن المتوكل إلى مراسلة القاسم بن المؤيد أمير شهارة يحثه على الاجتماع فأناب الأخير أخاه أحمد ، ومن ثمَّ تم عقد اجتماع في صنعاء برئاسة المذكورين حضره بعض العلماء والأمراء ، وقد أسفر على الاتفاق بتقليد القاسم بن المؤيد منصب الإمامة ، والاتحاد لغزو الناصر، ثم أرسل الحسين بن المتوكل رسائله إلى المتنافسين يحثهم على نبذ الخلافات ومبايعة المذكور. ولكنهم لم يهتموا بذلك ولم تجتمع لهم كلمة، ولقد استمر الحسين بن المتوكل في مراسلة القاسم بن المؤيد كان أخرها إرسال القضاة إليه ليظهر دعوته ويتحالفوا ضد الناصر غير أن القاسم تعلل وطلب تأجيل الموعد إلى نصف شهر شعبان[2]، ولعله كان يقصد بهذا الموعد الانتظار حتى تنتهي أزمة "جبلة" . غير أن سيطرة الناصر عليها واستمرار زحف جنوده نحو "ذمار" قد أفشل محاولتهم تلك ،

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٢٨ب .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٣١ب، ١٣٤ب، ١٣٥ب .

وخافوا سطوته مما جعلهم يتسابقون إلى مبايعته، فـ "وردت الموالاة له من أكثر آل الإمام بالإشارات والكنى ، ودخل الكل تحت أمره قسرا"[(١)]، وقد صوَّر ذلك الموقف أحد أدباء عصره بقوله :

أرى الناصر المنصور لمَا ... أعدَّ لحرب جبلة كل ماضٍ
أقام على الملوك بكل قطر ... قيامات بقائمة بياضٍ[(٢)]

ومن هنا يأس كل منهم فقام الحسين بن المتوكل مع يحيى بن محمد بن الحسين بإرسال البيعة والموالاة في ٣ شعبان ، وتبعه أخوه قاسم ، ثم أخوهما الحسن ، وكذا صاحب عمران أرسل بيعته في الخامس من رمضان ، وبعد يومين أرسل يوسف بيعته ، وكذا أمير صعدة ـ علي بن أحمد ـ خلع نفسه وبايع الناصر ، وهكذا "سلَّم الدعاة جميعا لصاحب المنصورة وخلعوا أنفسهم اضطرارا من غير قتال ، خشية من الوقوع فيما وقع لصاحب جبلة"[(٣)].وإن تأخر القاسم-أمير شهارة ـ عن البيعة التي لم تصل إلا في نصف شهر شوال بعد أن منحه الناصر زيادة على ولايته مع ربع إيرادات المخا[(٤)].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الناصر لم يستخدم القوة العسكرية فقط في الوصول إلى السلطة فقد استخدم إلى جانب ذلك سياسته السلمية بالإغراء والمساومة كما رأينا في بيعة القاسم صاحب شهارة، وكذا أرسل بالأموال لاستمالة بعض الشخصيات المهمة ، وفوق ذلك فقد كان يعمل على صبغة سُلطته الصبغة الشرعية من ذكر المبشرات والتنبؤات والكرامات التي يقصد من ورائها إثبات أحقيته في السُّلطة [(٥)] .

---

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٢٠٤ .

(٢) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ١٧أ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ) : ق١٦٠ ب .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ١٣٨ أ ـ ب ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٤٦٣ ـ ٤٦٤ .

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/١٤٠أ ، ب ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٤٦٥ .

(٥) الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ١٢ب ـ ١٤ أ؛ أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ) : ١/ ق١٢ ب ـ ١٥أ ، ٤/ ق ٢٢٠أ ؛ زبارة : نشر العرف ، ٢/١٢٠ .

٥- انقلاب الأمراء على الإمام الناصر وحصاره في المنصورة :

لقد تسلّم الناصر محمد ـ المهدي فيما بعد ـ زمام السلطة وهو كهل يبلغ من العمر خمسين عاما، غير أنه كان ذا شخصية قوية وطموحة يحب الاستقلالية والتسلط في الحكم ، ولا يسمح بمشاركة أحد سواه ، وفي الوقت نفسه كانت اليمن في وضع لا يحسد عليه من الاضطرابات والتصدعات داخل الدولة المركزية باستقلال مراكز القوى وشدة ظلمهم لرعيتهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى سطو بعضهم على بعض وإحاكة المؤامرات ضد بعضهم البعض، التي وصلت إلى أن الوالد كان لا يأمن مكر وكيد ولده والعكس كذلك ، ولنا أن نتصور كيف كان وضع الأهالي في هذا الجو المظلم؟!

كان على الإمام الناصر محمد معالجة هذه الاضطرابات ، ووضع الحلول المناسبة لهذه الظاهرة التي وضع بذورها المتوكل إسماعيل؛ بتثبيته الولاة على ولاياتهم كشرط أساس لنجاح البيعة ، ومن ثمّ تطورت إلى أن صارت مراكز قوى تهدد مركزية الحكم بين الحين والأخر ، فنتج عن ذلك ضعف السلطة وتمرد قبائل المشرق وانفصالها عن الدولة الأم . وهنا يجب متابعة موقف مراكز القوى حين حاول الإمام الناصر تقليص نفوذهم !

أدرك الإمام الناصر أن موالاة الأمراء كانت ـ تُقيةً ـ خوفا من بطشه بهم كما بطش بالحسين بن علي سابقا ، ولعجزهم عن مقاومته ، وأنهم مازالوا متربصين به ، وأدرك أيضا أن استقلاليته في الحكم تتعارض مع تسلطهم على الولايات ، وربما أنه استفاد من أخطاء الإمام المؤيد بن المتوكل فعمل جاهداً على إصلاحها ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وهم ما زالوا محتفظين بقواتهم ومتسلطين على إماراتهم ؟ كما أن بقاءهم عليها كان شرطاً في صحة مبايعته!!

وعلى ذلك يلاحظ أن إعلان الإمام الحرب لقمع يافع ـ بعد وصول آخر بيعة له في منتصف شهر شوال عام(١٠٩٧هـ /١٦٨٦/٨/٤م) ـ كانت خطوة يهدف من ورائها ضرب عصفورين بحجر .

فمن جهة كانت بمثابة امتحان للأمراء ليعرف مدى مصداقيتهم لموالاته، بإرسالهم الإمدادات إليه ورفده لإنجاز المهمة، وكذا لاستنفاد قوتهم المالية والعسكرية ليسهل عليه قنصهم فيما بعد. ومن جهة أخرى فإن قبائل يافع قد تطاولت على الدولة كثيراً، من بعد انفصالها عام(١٠٩٤هـ /١٦٨٣م) ، وتحولت من موقع دفاع إلى منطلق هجوم على مناطق سيطرة الإمامة ، إضافة إلى محاولة التدخل في شؤون الأمراء ، حين أرسلوا إلى الحسين بن علي بن المتوكل حال حصاره في" جبلة" يعرضون عليه مساعداتهم ضد الإمام[١]، لذلك وجب عليه إخضاعهم وتأديبهم .

في حين كان أمراء آل القاسم قد اقتنعوا بانفصال يافع عن الدولة المركزية، فلما وصلت كتب الإمام يأمرهم فيها بالتجهيز كانت كالصاعقة عليهم لما فيها من المشقة والتكليف، لميلهم إلى الدعة والراحة والتنافس على الولايات إضافة إلى أنهم مازالوا غير مقتنعين بإمامة الناصر ويتربصون به الدوائر منتظرين الاجتماع به لتطييب خواطرهم بمنحهم شيء من العطايا والامتيازات ـ كما ألفوا ذلك في عهود سابقيه ـ غير أنه فاجئهم بإعلان الحرب على يافع، لهذا وذاك فإنهم تثاقلوا في إرسال الإمدادات، وتعللوا بأن الهجوم على بلاد يافع يحتاج إلى تكلفة كبيرة جداً وهذا وقت غلاء وقحط لا يحتمل التجهيز فيه، فمنهم من ضرب موعداً إلى بعد عيد الأضحى وحصد الثمار، ومنهم من بعث بقليل من الجنود مؤخرا ـ كما فعل أمير كوكبان الحسين بن عبدالقادر[٢] ـ ومنهم من وقف مؤملاً إجهاز يافع على الإمام ليستريحوا منه، لأنه وقف أمام تحقيق طموحاتهم وتوسعاتهم في الولايات .

ولمَّا علِم الإمام بموقفهم هذا في الوقت الذي جمعت يافع حشودها وضربت الحصار على ولده إسماعيل في" قعطبة" ، أسرع في تلافي اكتساح يافع للبلاد فسدَّ هذه الثغرة باستدعاء ولده المذكور بعد عقد صلح مع يافع يقضي بانسحابه وجيشه من المدينة في أول شهر(ذي الحجة ١٠٩٧هـ / ١٨/١٠/ ١٦٨٦م) لكن صادف انسحاب

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن،(خ) : ٣/ ق ١٣١ب .

(٢) الضبوي : عقد الجواهر (خ) : ق ١٠ ب ؛ يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ) : ٣/ ق ١٣١ ب.

إسماعيل وصول المدد بقيادة أخيه عبدالله، وعمه إسحاق وعبدالله بن يحيى، ودخلوا المدينة بعد خروج يافع منها[1].

لقد كان تراخي الأمراء عن إمداد الإمام ، بمثابة الفرصة السانحة لتقليص نفوذهم ومن ثمَ استبدالهم بأمراء تحت طوعه، حيث بدأ يرسل العمال إلى بعض أطراف ولايات مراكز القوى فأرسل الشيخ ابن مذيور الحيمي[*] والياً على "الحيمة" وهي من ضمن ولاية الحسين بن المتوكل، وحوّل إمارة" بعدان"[**] من عبدالله بن يحيى إلى عمه الحسين بن الحسن، وأمر ولده إسماعيل بالتقدم إلى البلاد العليا، وتولية "جبلة" بدلاً عن أخيه عبدالله، كذا أرسل ولده محسن إلى" ذي أشرق" وهي من ولاية أخيه إسحاق...[2].

وبهذه الإجراءات تضررت مصالحهم وأخترق بها النظام المتبع في عهد أسلافه، وكانت المراسلات تدور بين يوسف بن المتوكل والأمراء، معددين مثالب الناصر ومظالمه باحثين عن وسيلة يتم عبرها تنحيته واختيار شخصية يستطيعون من خلالها تنفيذ مآربهم، غير أنهم لم يستطيعوا عمل أي شيء لتغلب "هذا الرجل للأمر المحال"[3]، ولأن قيادة الجيش بيد ولده عبدالله إلاّ أنهم دسوا إليه من يُحسّن له نبذ طاعة والده والانتماء إلى يوسف، واستمرت المراسلات فيما بينهم سِراً، حتى أرسل الناصر بالتهديد والوعيد لولده عبدالله، صحبة رسوله الذي أرسله إلى والده يستمد منه مصاريف الجيش، فأجاب الإمام بقوله :"المصروف قد صرنا في جمعه، ولكن عبدالله لا بدَّ من مؤاخذته، وسأصنع به واصنع، وافعل من النكال ما يراه افضع"، فلما بلغ ولده عبدالله ذلك "قال: هذا من تكليف ما لا يطاق، وكيف وهو يريد استفتاح جبال يافع، فما مراده إلا إلقاؤهم إلى التهلكة ، مع عدم الرعاية والوفاء"[4]، وكان عبدالله شخصية

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر ،(خ) : ١/ ق ٢٤أ، ب ؛ يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ): ٣/ ق ١٤١أ ــ ١٤٢أ ؛ الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ٩ ب .

(*) ابن مذيور زعيم قبائل الحيمة ولم أجد له ترجمة ، ولكن ما زال هناك بقية من هذه الأسرة تتزعم قبائل المنطقة.

(**) بعدان:مخلاف مشهور من أعمال إب من الجهة الشرقية.(معجم الحجري : ١/١٢٤؛ معجم المقحفي : ١/١٨١).

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٤٠أ ــ ١٤٥أ .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٤٦ب.

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن،(خ) : ٣/ ق ١٤٧أ.

قيادية قوية، وفي ريعان الشباب، فأتفق مع مرافقيه من الأمراء على مساندة يوسف والتوجه لحرب والده في المنصورة ـ وما أشبه الليلة بالبارحة، ومثل ما تُدين تُدان، ففي عام(١٠٨٧هـ /١٦٧٦م) ساند صاحب المنصورة معارض والده ـ [1]. وما أن وصلت بيعة عبدالله وزملائه إلى يوسف حتى أعلن الأخير دعوته، وأقرهم على ولاياتهم، وزادهم عليها أيضا، وبهذا تحالفت قيادة الناصر، المكونة من ولده عبدالله وأخيه إسحاق وعبدالله بن يحيى بن محمد مع أولاد المتوكل، وتم الاتفاق فيما بينهم على حرب الناصر وخلعه، وتنصيب يوسف بن المتوكل، الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره[2].

ومن هنا عادت الصراعات والتهافت على الولايات من جديد، وأضطرب الوضع غاية الاضطراب، لدرجة يصعب معها وضع تصور شامل للضعف التي وصلت إليه البلاد، إلاَ أنه سوف يتضح من خلال توزيع أدوار ومشاركات مراكز القوى التي نحاول إجمالها فيما يلي :

أ- المستمرون على ولائهم للناصر بالاسم دون مساندته بالمال أو السلاح وهم : عمه الحسين بن الحسن صاحب رداع، والحسن بن المتوكل صاحب اللحية وأبي عريش، والقاسم بن المؤيد صاحب شهارة ـ وأخيه أحمد أمير قبائل وادعة في الشمال،وهؤلاء وقفوا يراقبوا الأحداث، محافظين على ولاياتهم دون تدخل منهم.

ب- علي بن أحمد استقل بدعوته في صعدة .

ج - التحالف ويتكون من قيادة جيش الناصر، وبقية مراكز القوى، وانضمت إليهم يافع ، والكل تحت زعامة الداعي المنصور يوسف بن المتوكل .

أعلن التحالف خلع الناصر والزحف عليه في مستهل شهر(محرم ١٠٩٨هـ/ نوفمبر/ ١٦٨٦م)، مبررين انقلابهم هذا بأنه كثير التردد في ولاياته ، متضارب في أقواله وأفعاله ، معامل للكثير من الأمراء بالعزل والسجن والمصادرات، معطٍ لمن لا

(١) انظر : بيعة محمد بن المهدي لمنافس والده فيما تقدم، ص ٦١ .

(٢) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن (خ): ٣/ ق ١٤٧ب، ١٤٩أ ؛ المحبي: خلاصة الأثر ٣/ ٣٩٧ .

يستحــق العطاء، كما أنه زجَّ بالــدولة في حــرب لا مصلحة لها ضد قبائل يافع، مــع أنهم قد دانوا بالطاعة، وتسليم الواجبــات[1]، ورغــم هــذه الإشــاعات، إلاَّ أن بعــض معاصريه قد أشادوا بتصرفه هذا مع الأمراء ، بعزلهم عن ولاياتهم، وتأديبهم بالــسجن والمصادرة، وذلك لتخبطهم "في أعمال أوجب الحال منعهم من التصرف في الــبلاد"[2] و"لأن الناصر هذا شديد الغيرة لدين الله، قد عزل كثيراً منهم، وشرد بهم، وكلما [ولىَّ] واحداً منهم، وبلغه عنه شيء عزله، وولى بلاده غيره، فأرادوا تقويم عملهم وإصــلاح شأنهم، بقيام يوسف"[3].

وكانت أولى خطوات قيادة التحالف قبل الزحــف علــى الناصــر، أن اســتعادوا ولاياتهم، التي عزلهم الناصر عنها، حيث قام عبدالله بن الناصر بضرب الحصار علــى أخيه إسماعيل في "جبلة"، وانتزع عبدالله بن يحيى ولاية "بعدان" من عمالة الحسين بن الحسن، إثر معركة شديدة وقعت بينهم، كاد أن ينهزم فيها عبــدالله بــن يحيــى لــولا استنجاده بعبدالله بن الناصر وعلي بن الحسين بن محمد بن الحسن، فاســتولوا علــى معسكر الحسين بن الحسن، وقتلوا الكثير منهم وأسروا الأكثر كان الأمير القاســم بــن الحسين بن الحسن من ضمن الأسرى [4].

وفي الوقت نفسه التقى إسحاق بن المهدي أحمد في معركة ضــد المحــسن بــن الناصر في "ذي أشرق" قُتل من أصحاب إسحاق "طائفة كثيرة"[5]، وأسفرت عن هزيمة أصحاب الناصر وأسر بعضهم ، كان المحسن أحدهم، إلاَّ أنهم أطلقوا سراحه[6]. وما أن عاد إلى والده حتى جهَّزه بحملة أخرى، وعضده بأخيه الحسن فتقدما إلى "الجنــد" فــي آخر شهر صفر، واشتبكا مع إسحاق في معركة ضارية، كاد أن ينهزم فيها الأخير ولاذ مع أتباعه إلى المنازل، لكن رفده عبدالله بن الناصر بحملة قادها علي بن حــسين بــن

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣/ ق ١٤٦أ ، ب .

(٢) ابن عامر : بغية المريد ، (خ): ص ٢٤٨ .

(٣) الداعي : الدامغة الكبرى ،(خ) : ٢/ ص ١٨٤.

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣/ ق ١٤٨أ ؛ الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ١٦ أ .

(٥) الضبوي : نفس المصدر ،(خ) : ق ١٦ أ .

(٦) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، ٣/ ق ١٤٧ب ؛ أبو الرجال : الروض الزاهر ،(خ) : ١/ ق ٤٢أ .

المهدي أحمد، فتغير بواسطتها موازين المعركة، إذ أسفرت عن سقوط أكثر من مائتي قتيل من الجانبين، وهزيمة جيش الناصر، وأسر بعضهم، كان منهم ولديه الحسن والمحسن[1]، وفي رواية أخرى أسر الحسن، وجُرح المحسن في قدمه وعاد إلى والده[2].

وما أن سمع إسماعيل – المُحاصر في "جبلة" – بهذه الهزيمة حتى أيقن من عدم وصول الإمدادات إليه، خاصةً وأن التحالف قد أحاط به من كل جانب، مما جعله يميل إلى الخوض في التسليم بشرط عودته إلى والده ، فخرج إلى يد أخيه عبدالله الذي أطلق سراحه . غير أنه حال انسحابه أراد دخول " تعز"، فمنعوه منها، لانتمائهم إلى يوسف، وتبعه الحسين بن علي، وعبدالله بن يحيى، فالتقوا خارجها في معركة، أسفرت عن قتل ثلاثة من أصحابه، انسحب إثرها إلى "الدمنة"، بداية(ربيع الأول ١٠٩٨هـ/ ١٥/١/١٦٨٧م)[3]، ومن ثمّ دخلت البلاد تحت طاعة يوسف ولم تبق إلاّ المنصورة .

وفي آخر الشهر نفسه تقدم التحالف – بقيادة إسحاق – لحرب إسماعيل في "الدمنة"، فدارت بينهم معركة شديدة في سوق السبت – تحت "المنصورة"– لكن الناصر أسرع برفد ولده، مما أدى إلى القتل الذريع في التحالف وهزيمتهم، ثم ارتفع إسماعيل للتحصّن في أم قريش – بالقرب من المنصورة – ، فأرادوا اللحاق به لكنه هزمهم، وقَتَل من فرسانهم أكثر من ثلاثين نفراً، عند ذلك استنجدوا بعبدالله بن الناصر– وبما أنه كان مُعرساً في "جبلة"– لكنه أسرع في نجدتهم، وشددوا الحصار على إسماعيل، حتى اضطر إلى التسليم، وخرج أسيراً إلى يد أخيه عبدالله، الذي بعث به إلى الداعي يوسف بن المتوكل في "ضوران"[4]، حيث أحسن استقباله وأكرمه، ثم أطلقه وسأله الوساطة فيما بينه وبين والده الناصر، وفي طريق عودته قابل أخاه عبدالله في" الدمنة" فعرّفه موجب الانقلاب، وسأله الاعتذار من والده والوساطة في حصوله على "التقرير

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣/ ق ١٤٩ أ ، ب.

(٢) أبو الرجال : الروض الزاهر ،١٠/ ق ٤٢ ب ؛ الضبوي : عقد الجواهر ، ق ١٦ ب .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٤٩أ – ب ؛ الحبشي : يوميات صنعاء، ص ٤٧٣ .

(٤) الضبوي : عقد الجواهر، ق١٧ ب ؛ يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٥١أ ، ١٥٢أ، ب ، ١٥٥ب.

من أبيه والتسكين"[1]، ومن هنا يتضح ضعف التحالف، وقصورهم عن مواصلة زحفهم، بعد أن تحقق هدفهم بتقسيم البلاد فيما بينهم، وربما أن عبدالله أظهر الندم فيما فرط فيه من جهة والده، وكذا خاف بادرته إذا تغلّب عليهم .

وكما يبدو فإن الناصر أدرك ملامح ضعف جبهة التحالف، لذلك لم يلتفت إلى ما وصل به ولده إسماعيل من الوساطة في الصلح، بل عزم على حربهم وصدهم، حينئذ تقدمت جموع التحالف على المنصورة ــ في عشرين ربيع الثاني[2] ــ وأحاطوها بالمقاتلين من جميع الجوانب، وشددوا في محاصرته حتى منعوا الداخل والخارج عليه، وأصبح حاله كما عبّر عنه ــ مضمناً ــ الشاعر المعاصر للأحداث الفقيه سعيد بن صالح السمحي(ت: ١١٢٢هـ/١٧١٠م) بقوله :

يقول وقد ضاق الخناق محمـدٌ وحلّ به دَاعي الرّدى والحَوادثُ
أخٌ وابن صُلب وابن عَـمّ تحالفوا فـما تتقي مِنهُم رِمَاحٌ عوَا بثُ
(ولو كـان رُمحـاً واحـداً لاتّقيْـتُهُ ولكنّه رُمحٌ وثَانٍ وثَالـثُ) [3]

وفي بداية الحصار أُغلقت أمام الناصر جميع المسالك، حيث انضم الكثير من جنوده إلى التحالف ولم يبق معه إلا نحو سبعين شخصاً، وسيطر التحالف على جميع المنافذ[4]، حتى نفدت عليه المؤن ــ ولم يُنفق إلا مما كان مدخراً لديه ــ وأرسل للاستنجاد بشريف مكة أحمد بن زيد[5] فلم يجدي ، ثم استنجد بقبائل يافع مقابل أن يجعل لهم ولاية على "لحج" و"عدن" فلم يستجيبوا، وردوا عليه بأن غايتهم حفظ أطراف بلادهم، ولن يتدخلوا بينهم ــ رغم أنهم مع التحالف ــ[6]. ورغم هذه الشدة، وطول فترة الحصار، التي استمرت نحو (٦٠يوما)، إلا أنه لم يستسلم، بل استخدم خلالها جميع الوسائل، الحربية والسياسية، لكونه محارب داهية مجرب .

---

(١) أبو طالب : طيب أهل الكساء ، ص٢٠٥ .
(٢) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، (خ) : ٣/ ق ١٥٤أ .
(٣) الحوثي: نفحات العنبر(خ): ٢/ ق ٢١أب؛ زبارة : نشر العرف،١/ ٧٤٠؛ العمري: تاريخ اليمن الحديث، ص٨٥.
(٤) أبو الرجال : الروض الزاهر (خ) : ١/ ق ٤٦أ، ب ــ ٤٧أ .
٥) الشريف أحمد بن زيد : سيأتي ترجمته ودوره في الفصل الخامس .
(٦) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٥٣ب ، ١٥٤ب .

فمن جهة استخدم المناورات السياسية، حيث أرسل إلى التحالف يطلب منهم المهلة لمدة شهر فرفضوا، وفي نهاية ربيع الثاني أرسل إليهم الحسن بن مطهر الجرموزي، للسعي في الصلح فلم يجدي، وكذا أرسل إلى الأمراء المحايدين يريد منهم التدخل، وأنه طالب للشريعة، وسرعة عقد اجتماع للمناظرة وتقديم الأرجح، وأن الأمور التي احتجوا بها عليه قابلة للنقاش والتعديل،غير أنهم رفضوا أيضا[١]. ومن جهة ثانية استمال قبائل الحجرية واستخدم الرشوة لجنود التحالف حتى بث الفرقة والشقاق فيما بينهم، فمنهم من ترك المعسكر وعاد إلى بلاده، ومنهم من هرب إلى زيد بن المتوكل الباسط على المخا، ومنهم من انضم إلى الناصر مثل النقيب الفرحة البرطي وجماعته[٢].

ومن جهة ثالثة استمر في مهاجمتهم ومحاربتهم، بل عمل على إرسال السرايا لشن الهجوم المفاجئ، وتخطف أطراف معسكرهم، فقد قيل بأنها وقعت فيما بينهم "نحو خمس وعشرين معركة"[٣] تبادلا خلالها النصر والهزيمة . وقد أورد صاحب بهجة الزمن بعضاً منها، نود ذكرها مختصرة لما فيها من الترتيب، فيسهل من خلالها معرفة التكتيكات العسكرية للطرفين، وحجم خسائرهم البشرية والمادية، وغير ذلك . فحينما أراد حسين بن علي وإسحاق اقتحام المنصورة في عشرين ربيع الآخر ، تلقاهم محسن ابن الناصر ثم خرج والده بنفسه لرفده فوقعت بينهم معركة ضارية أسفرت عن مقتل أكثر من عشرين من الجانبين وعودة الناصر إلى قلعته. وعندما استقر الحسين بن علي حول المنصورة محاولاً خراب سورها وثب عليه أصحاب الناصر فوقعت بينهم معركة ضارية قُتل خلالها نحو خمسين رجلاً من الجانبين، عند ذلك تضرر الناصر من شدة الحصار ونفاد الماء، فقام أصحابه بالهجوم على سرية الديلمي الموكلة بحفظ أحد المنافذ وتمكنوا من هزيمة السرية والقبض على أميرها والسيطرة على ذلك المنفذ، وبذلك وجد لنفسه منفذاً يجلب عبره المدد، وصاحب ذلك هطول أمطار ملأت مناهل المنصورة فتخففت عليه الشدة من جهتين . وقد بدا ذلك واضحا في تحول موقف الناصر من

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٥٤ب ، ١٥٥ب ، ١٥٦أ.

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ): ٣/ ١٥٧أ ؛ أبو الرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ١/ ق ٦٠ أ.

(٣) أبو الرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ١/ ق ٤٤ب .

الدفاع إلى الهجوم، ففي(١٢جماد الثاني) هجم أصحاب الناصر على محطة الحسين بن علي وكادوا يستولون عليه لولا غارة عبدالله بن يحيى التي أدت إلى توازن المعركة فقتل نحو أربعة وعشرين رجلاً من الجانبين. وفي آخر الشهر نفسه هجم أصحاب الناصر على محطة سعيد قاضي فوقعت بينهم معركة أسفرت عن انسحاب أصحاب الناصر إلى الدملؤة وعقد هدنة لمدة ثلاثة أيام(١).

وفي خلال ذلك انضمت قبائل الزريقة إلى الناصر ، وكذا انسحب النقيب الفرحة البرطي مع جماعته من معسكر الحسين بن علي، وانضموا إلى الناصر . عند ذلك استنجد التحالف بيوسف الذي أرسل ــ بدوره ــ إلى أخيه الحسين بن المتوكل، فاتجدهم بحملة مقدارها(٤٠٠) مقاتل، بقيادة الشيخ صلاح بن خليل الهمداني ، والتي صارت أحد أسباب هزيمتهم . كما أن أصحاب الناصر هجموا على محطة الحسين بن علي بعد انتهاء الهدنة المذكورة، أي في يوم الاثنين الثاني من جماد الثاني فوقع بينهم حرب عاد كل منهم إلى محله، وفي اليوم التالي، هجم الناصر على محطة ولده عبدالله وأخيه إسحاق، فوقعت بينهم معركة استمرت من الصباح إلى الليل، وعاد كل منهم إلى محله بعد أن سقط الكثير من القتلى والجرحى(٢).

في حين لم يقف التحالف مكتوف الأيدي أمام هجمات الناصر المستمرة، بل عملوا على اقتحام القلعة فاقتربوا منها وصبوا عليها نيران بنادقهم التي كانت تصل بعض رصاصها إلى حجرة الدار دليل على شدة قربهم من المنصورة، وقد أصابوا إحدى الجواري برصاصة فسقطت ميتة داخل الحجرة . ورغم ذلك إلاَّ أنهم أحسوا بالضعف بعد الكبرياء، لذلك تتابع إرسالهم إلى يوسف يستمدوا منه الإمداد والإغارة، وهو بدوره لا يملك شيء لتقسيم البلاد فيما بين الأمراء، بل أرسل إلى أخيه الحسين، الذي حاول جمع الإمداد، لكن دون جدوى فكل أمير مشغول بنفسه، واختلفوا فيما بينهم، فضعفت شوكتهم للغاية(٣).

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٥٤أ، ب، ١٥٥أ ، ١٥٦أ ، ب .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن . (خ) : ٣/ ق ١٥٧أ ـــ ١٥٨أ .

(٣) يحيى بن الحسين : نفسه ، ق ١٥٨أ .

أما الناصر فقد كانت آخر خططه أن أرسل بما بقي في خزانته من نقود،لاستمالة مشائخ الحجرية، وأباح لهم نهب معسكر التحالف، ثم ضربوا موعدا للهجوم على معسكر ولده عبدالله، فكان يوم الخميس(١٩جمادي الآخرة) "وخرج جمعهم إلى قريب المنصورة من ناحية بين الجبال لا يشعر بهم أهل المحطة، وكتب إلى الناصر بذلك، فخرج صاحب المنصورة منها لمفاتحة الحرب إلى محطة ولده عبدالله وصنوه إسحاق، فشرع الحرب فانكسر لهم والذي معه القليل من عسكره، ثم تبعوهم إلى قريب المنصورة، فلما حصل ذلك وهم في آخر الحرب، إذ أقبلت عليهم القبائل من كل فج عميق، وأحاطوا بهم ــ من خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ــ وحالوا ما بينهم وبين محطتهم، ووقع الحرب والضرب، فقُتل كثير من أصحابهم، ولم يفلت منهم إلا من هرب أو واجه، وأسروا ولده عبدالله وصنوه إسحاق، وأسروا منهم واقبلوا على محطتهم انتهبوها، فلما شعر بذلك أهل المحطة الأخرى ــ وهم حسين بن علي بن المتوكل و عبدالله بن يحيى بن محمد بن الحسن ــ لم يكن همهم إلا الارتحال، وحملوا ما خف من الأثقال، حتى بلغوا إلى بلاد الأحمدي وجبل سامع، على مسافة يوم"[(١)]، وهناك تم القبض عليهما وإرسالهما إلى الإمام بعد تأمينهما، حيث ضمهما إلى جانب الأميرين السابقين وشدد عليهم في السجن ــ لكونهم سبب تلك الحروب ــ أما بقية الأمراء، والجنود، فقال لهم :ــ "أيا ما كنا نحب لكم قتل بعضكم لبعض، وفي بقاكم لكم الخير، لولا طاوعتم هواكم، واصلت أحلامكم، فاليوم يغفر الله ... ، وواصلهم وأعطاهم، وقال : من أحب البقاء، أخذ ما يعتاده، أو نظمه إلى أحد الأمراء من الأولاد، ومن أحب أن يعزم عزم"[(٢)]، وقيل إنه لما رأى تجمعهم وكثرتهم، خشي من وثبتهم عليه، فمنحهم المصاريف، وأذن لبعضهم بالعودة إلى بلادهم، والبعض الآخر أرسلهم لتسكين الأوضاع

(١) يحيى بن الحسين : نفسه ، (خ) : ٣ / ق ١٥٩أ ؛ وأورد قريب منها الضبوي : عقد الجواهر(خ): ق ١٨ب.
(٢) الضبوي : نفس المصدر، ق ١٩أ .

في أنحاء البلاد، ولفرض بعض العقوبات على القبائل التي ساندت التحالف ، مثل تأديب قبائل الأحمدي واليوسفي(*) بالأموال وخراب بيوت زعمائهم[1].

مما يلاحظ هنا أن انتصار الناصر على التحالف لم يكن وليد الصدفة أو بسبب هطول الأمطار واستغلال فرصة سقوطها، كما عزاه إلى ذلك بعض المؤرخين[2]، أو أنه كرامة من كراماته كما تحدَّث به أحد كُتاب سيرته[3]، وإنما كان لعدة عوامل ترجع إلى طرفي النزاع يمكن تلخيصها كالتالي :

قوة شخصية الناصر القيادية والعسكرية وحنكته السياسية .

فبالرغم من شدة الحصار المضروب عليه، وفشل محاولة خروجه من المنصورة، وقلّة جنوده ونفاد الماء، وعدم نجدة من استنجد بهم، ودخول البلاد جميعها تحت طاعة يوسف، رغم ذلك كله إلا أنه لم ييأس ولم يصاب بالإحباط ، فكان يستمر في التخطيط والتنفيذ، ويتوقع أسوأ الاحتمالات، وكلّما فشلت محاولة استبدلها بأخرى لذلك وقف ضدهم بعزيمة راسخة مدافعا عن السلطة باستماتة يفضل الهلاك دونها، فلا نستغرب ما قيل عنه : "أنه شحن البارود المحلة، وعزم إن غُلب بتحريق نفسه وأهله"[4]، ولا نستغرب أيضا أنه كان يُسلّط عليهم الجواري[5] ليقمن بدور الاستخبارات العسكرية، حيث كان يرسلهن إلى معسكرهم فيأتينه بجميع المعلومات عنهم، ويكشفن له نقاط ضعفهم، مما كان يسهل عليه تخطفهم جماعة تلو الأخرى .

(*) الأحمدي واليوسفي: من قبائل الحجرية تتبع الأولى ناحية المقاطرة والثانية ناحية القبيطة وهما إلى الجنوب والجنوب الغربي من تعز .(معجم الحجري: ٢٣/٢؛ معجم المقحفي : ٢/ ١٢٤٥، ١٦٠٦).

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣ / ١٦٠ب، ١٦٢أ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز ،(خ): ق ١٦١أ؛ أبوطالب : السحر المبين ، ق ١٨ب ؛ أبو الرجال : الروض الزاهر (خ) : ١/ ق ٦٤أ، ب .

(٢) الجرافي : المقتطف ، ص٢٣٩؛ أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ١٨أ؛

Serjeant , R . B . and Ronald Lewcock , Sana'a An Arabian Islamic City ,London, P ٨٣ .

(٣) الضبوي : عقد الجواهر ، (خ) : ق ١٣ب .

(٤) أبوطالب : السحر المبين ،(خ) : ق ١٨ أ .

(٥) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٥٩ أ.

وأما مناورته التي تقضي بأنه نادى بالصلح ــ حين اشتدَّ الحصار عليه ونفد الماء ــ فطلب الجمال لحمل أثقاله والخروج من المنصورة، ولكنه أضرب عن ذلك بسبب هطول الأمطار[١]، فنعتقد أن طلب الجمال كان صحيحا على أساس أنه كان ينوي السفر إلى اللحية أو إلى شريف مكة فيستعيد نشاطه من هناك ، ثم يكرُّ على التحالف[٢]. ولكننا نستبعد أن إضرابه عن الصلح كان بسبب هطول الأمطار، وذلك لأن زمن الحصار في فصل الصيف وهو موسم سقوط الأمطار على البلاد، لذلك نرى أن السبب يكمن في أنه استطاع السيطرة على أحد المنافذ وذلك بانقضاضه على سرية الديلمي ــ سابقة الذكر ــ التي كانت موكلة بحفظ هذا المنفذ، لمنع الداخل إلى المنصورة والخارج منها، وقد تزامن ذلك مع وصول الجمال لديه، فاستطاع من خلاله إرسال بعض أمرائه بالأموال لاستمالة مشائخ الحجرية، فانضم إليه الشيخ صالح الحريبي(*) الذي "فعل في إعانته كل ممكن، وكان يحمل الفطير على ظهره"[٣]، ثم استمال البقية بعطائه الجزيل مما حوّل عداءهم له إلى فدائيين معه، كما أشار إلى ذلك المرهبي بقوله:

فقيض الله له أنصارا   من العداء اقسرهم اقسارا[٤]

وكذلك لا ننسى مغريات وعطايا الإمام لأمراء وجنود التحالف ودورها في تخذيلهم وتبديد جمعهم .

العوامل المتعلقة بالتحالف (مراكز القوى) :

أ- بالنسبة لأولاد المتوكل فلم يكن مخلصا مع يوسف سوى أخيه الحسين، حيث كرّس كل طاقته وبذل قصارى جهده في جمع المقاتلين والمؤن وإرسالها إلى

(١) أبوطالب : السحر المبين، (خ) : ق ١٨ أ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣/ ق ١٥٣ ب .

(*) الشيخ صالح بن علي الحريبي : (ت : ١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م) كان من أبرز زعماء قبائل الحجرية وإن نسبه أحد المؤرخين إلى يافع، وقد اشتهر بحنكته الإدارية والسياسية، ويبد أنه صار أقرب المقربين إلى الإمام بسبب تعاونه هذا، فتولى عدة مناصب حتى صار كبيراً للوزراء، وأثبت دوره الكبير في تشييد دولة المهدي وازدهارها . وكذلك في الإطاحة بها كما سنلاحظ خلال هذا البحث.(أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٤١٥؛ زبارة : نشر العرف ، ١/٧٧١ ــ ٧٧٨ ؛ بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني، ص١٤٥) .

(٣) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٤١٥ .

(٤) أبو الرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ١/ ق٦٠ أ .

المُحاصرين، وفتح مخازن صنعاء التي كانت مليئة بالمعدات والأسلحة، فصرف كل ذلك ولم يبق منها شيئاً، وزاد على ذلك حتى فقد جزء من ولايته . أما يوسف الداعي فلم يبق في يده شيء لأنه قسّم البلاد فيما بين الأمراء، مكتفيا منهم بذكر اسمه في الخطبة. وكان أخوهما زيد من أهم عوامل انهيار التحالف، لأنه قام بالسيطرة على المخا والمناطق التهامية مناصراً أخيه يوسف في الظاهر، وفي الباطن اهتم بجمع الأموال وتكوين جيش لنفسه، فأستقطب الساخطين من جيش التحالف، وأجزل لهم العطاء، حتى اجتمع لديه منهم الكثير، وبذلك ضعف الجيش المُحَاصِر للمنصورة[١]. ومثله أخوه الحسن الذي سيطر على مساقط حراز وهي من ولاية أخيه الحسين ، ولم يشارك في الحرب .

ب ـ أما مواقف بقية أمراء التحالف فقد شرحها المؤرخ المعاصر للأحداث بقوله : "صاروا مع أنفسهم في بلادهم، وإنما غاية مرامهم في الإجابة تارة لهذا وتارة لهذا لأجل لا يحصل عليهم خلل من الجانبين بل من قوي منهم فهم معه فلذلك لم يرفعوا رأسا في معونة يوسف بعسكر مع كثرة مطالبته لهم وإنما صاروا يواعدونه مواعيد عرقوب، وهم في خلال ذلك مكاتبون إلى صاحب المنصورة وإنهم معه ولا يتأتى منهم إلى جنابه ما يخشى ولاما يدفعه وصاروا يأكلون محصول البلاد ويجمعون الخزائن منها والزاد، ويوسف صاحب ضوران وصنوه لم يبق معهم ما يخزن ولاما يجمع بل بلغوا في نفقاتهم إلى العدم والنفاد"[٢].

العوامل المتعلقة بأمراء الجيش المُحاصر للمنصورة :

أ ـ عدم وضع التخطيط السليم لتوزيع الجيش على المنصورة، حيث تم تشتيت القوة وتجزئتها بتوزيعها على أماكن متباعدة عن بعضها من دون ترتيب، مما أدى إلى

---

(١) الضبوي : عقد الجواهر ،(خ) : ق ١٧أ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣/ ق ١٦١ب .

صعوبة التحامها وتكتلها، فكان يسهل على الناصر تخطفهم بالهجوم المفاجئ والاشتباك معهم في حرب عصابات[1].

ب ــ عدم عقد اجتماع للقواد لمناقشة القصور ووضع الحلول المناسبة لتلافيها، ووضع خطة لهجوم مشترك، بل استقل كل برأيه فتخاذلوا وتما كروا، ومن ثمّ دب الخلاف فيما بينهم .

ج ــ اعتمدوا على كثرتهم واستهتروا بخصمهم وقلته، وظنوا بجمعهم أنه في متناول أيديهم، فداخلهم الخيلاء والكبرياء وتعالى بعضهم على بعض خاصةً بعد أن راوغهم بالتسليم وطلب منهم الجمال للخروج من المنصورة، لذلك مالوا إلى الدعة والراحة وعكفوا على اللهو والحفلات في المعسكر كما ذكر ذلك أحد شارحي سيرته[2].

د ــ انتشار الأمراض بين صفوف الجنود، لسكونهم في بطون الأودية الموبوءة بسبب حرارة الصيف المرتفعة وهطول الأمطار، مما أدى إلى وفاة عدد منهم، وضعف البقية وأصابهم الضجر والإحباط.

هـ ــ قلة الإمدادات من الداعي والأمراء أدت إلى عجزهم عن دفع مستحقات الجنود، ومن ثمَّ أدى إلى تذمرهم، وتفرقهم وتشتتهم ــ كما رأينا آنفاً ــ .

وأخيراً نود لفت النظر إلى أهم النتائج المترتبة على حصار المنصورة وهي كالتالي :

١. عودة الاضطرابات والفوضى في البلاد بعد أن سادها شيءٌ من الهدوء النسبي نحو شهرين ونصف منذ شهر رمضان إلى ذي الحجة من عام(١٠٩٧هـ). فاستمرت الحرب بعدها تسعة اشهر .
٢. استيلاء قبائل يافع على لحج مستغلةً حروب آل القاسم فيما بينهم لتقوية نفوذها حتى أصبحت شوكة في خاصرة الدولة.
٣. استهلاك خزائن الدولة ومدخراتها في نفقات الحرب حتى إنهم "فتحوا خزائن صنعاء من القصر [والتي] لها من زمن الأتراك وغيرهم من آل القاسم وأخذوا ما

(١) ابن عامر : بغية المريد، (خ) : ص ٢٤٨ ؛ يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، ٣/ ق ١٥٩أ.
(٢) الضبوي : عقد الجواهر ، (خ) : ق ١٣ب .

فيها من السلاح المجهول والآلات التي تبهر العقول من البنادق البالغة والسيوف والخناجر والدروع والخوذ والآلات والصناديق وعجائب يطول شرحها"[1].

٤. إهلاك كاهل الأهالي بالضرائب ومعونات الحرب و"مصادرة أموالهم بالقروض الذي لا تقضى"[2]، وفرض ما يسمى "واجبات المستقبل"[3] أي دفع زكاة الأعوام القادمة، كل هذا ألبسهم ثوب الفقر المدقع إضافة إلى ما نتج عنه من الخوف والرعب وعدم الاستقرار .

٥. اضطراب قيمة سعر العملة لكثرة دور ضرب السكة وكثرة غشها، حيث بلغ صرف القرش إلى خمسة وثلاثين حرف[*]، بعد أن كان صرفه في عهد المؤيد الصغير ستة حروف إلى ستة حروف ونصف، وصاحب ذلك ارتفاع الأسعار حتى وصل قيمة القدح القمح إلى خمسين حرف[4] .

وأخيراً فأن هذه الأوضاع أنهكت أهل البلاد وخاصةً أهالي صنعاء وجنوبها – ميدان الصراع – هذا من جهة. ومن جهة أخرى ارتفع شأن الناصر، وذاع صيته وهابه الأمير والمأمور، وخضع له الجميع. كما جعلت الحكم لصاحب القوة، ومن جهة ثالثة وسَّعت لدى الناصر مدارك الشك، وجعلته أكثر حذراً وحيطةً حتى من أقرب الناس إليه، كما عمّقت في نفسه حب الانتقام، والبطش الشديد دون رحمة، وكذا التشبث بمبدأ التسلط والاستقلالية في الحكم . وهذا ما جعله يتتبع خصومه بعزم وحزم، حتى ظفر بهم وزجهم في السجون ووحد البلاد تحت سيطرته كما سنلاحظ ذلك خلال هذه الصفحات.

---

(١) الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ١١ب .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣ / ق ١٦٤ب.

(٣) الضبوي : نفس المصدر ، (خ) : ق ١٢أ .

(*) الحرف: عملة محلية كانت تضرب من النحاس والفضة وتستخدم كتجزئة للدولار النمساوي (ماريا تريزا) المعروف في حينها بالقرش الفرنصي(الفرنسي) أو الريال الحجر . انظر : ما سيأتي من هذا البحث ، ص٢٥١.

(٤) الضبوي : نفسه ، (خ) : ق١١ أ .

ثانياً : تثبيت الحكم وإخضاع مراكز القوى (تتبع منافسيه) :

لقد أثبت الناصر كفاءته وجدارته ومهارته السياسية والعسكرية حين انتصر على التحالف وزج بقادته في السجون، واستولى على ما بحوزتهم من العدة والعتاد والجنود، واستطاع بذلك إنقاذ عرشه من السقوط ، بل واستبد بالسلطة، وذاعت أخباره في جميع البلاد، مما أدى إلى رضوخ بقيتهم لحكمه قسرا، حيث وردت إليه التهاني من المحب والمبغض والأمير والمأمور، وقدَّموا له مواثيق الولاء والطاعة، خوفا من بطشه بهم . ورغم ذلك إلا أنه لم يثق بموالاتهم تلك، وظن أنه لن يتمكن من الاستقلال بالسلطة إلا بعد التخلص من أمراء الولايات وكان يشعر بأنهم ليسوا شركاءه في السلطة فقط بل ومنافسيه عليها، لذلك عمل على التخلص منهم بشتى الوسائل المختلفة، وقد رسم خطته بأن بدأ بإخضاع المناطق الجنوبية والوسطى، ثم الشمالية، وذلك بقنص ولاتها واستبدالهم بولاة آخرين تحت طوعه، وقد تتبعهم واحداً بعد الآخر حتى انتهى إلى ولاية أبي عريش ــ أخر حدود اليمن من الجهة الشمالية ــ، إضافة إلى أن هناك بعض العوامل جعلته أكثر تصميما على تنفيذ خطته تلك، والتي ظهرت جلية من خلال تلك الترتيبات والتجهيزات التي قام بها مدة الثلاثة أشهر التي مكثها في المنصورة بعد انتصاره على التحالف، مثل : تعيين الأمراء الموثوق بهم على الولايات، وتثبيت الأوضاع وتوزيع جنود التحالف المنضمين إليه بعد القبض على زعمائهم ، فأرسل جزءاً منهم لتأديب القبائل التي ساندت التحالف ــ كما أسلفنا ــ وكذا ضم الجزء الآخر منهم تحت قيادة ولديه المحسن ويحيى، وأمر الأول بالتقدم لاسترجاع تهامة من تحت زيد بن المتوكل، والثاني بالنهوض لتصفية جيوب التحالف في المناطق الشمالية وتوليته جبلة، غير أنهما اخفقا في تحقيق مهمتيهما. وخلال ذلك ظهرت بعض العوامل التي جعلته يترك المنصورة ويتقدم لتتبع خصومه، والتي سيتم محاولة إيجازها على النحو التالي:

١. تكتل معظم أمراء التحالف في المنطقة الشمالية، وما زالوا يستجمعوا شتات قواهم لمحاولة الكرة عليه مرة أخرى، حيث قام الأمير الحسين بن عبد القادر بجمع قواته وعتاده والتقدم بهم إلى سد مشورة في رأس العدين، وكذا قام الحسين بن المتوكل

وأخوه يوسف بتجهيز حملة بقيادة فرحان، فتقدم إلى "إب" واستولى عليها، مما جعل حامية نقيل سمارة تنضم إليهم بدون قتال، وصادف حينها فرار عبدالله بن يحيى من سجن المنصورة، فاستعاد نشاطه مع التحالف وسيطر على "جبلة" بعد أن تمكن من القبض على يحيى بن الناصر وأرسل به إلى يوسف بن المتوكل[1].

٢. عدم توفر القادة العسكريين ذوي الكفاءة لدى الناصر ، والذي يعول عليهم في المهمات الصعبة، حيث اعتمد في البداية على من بقي لديه من أولاده الصغار، ففشل ولده المحسن في استعادة تهامة من يد زيد بن المتوكل، وعاد إلى والده ـ يجر أذيال الهزيمةـ بعد أن تخلى الجنود عنه في"تعز"، وكذا هُزم ولده يحيى في "جبلة" وأخذوه أسيرا إلى يوسف، وقيل إن الجنود حسّنوا له الانضمام إلى يوسف وضمنوا له مقابل ذلك عمالة تهامة، وبعد هذا الحادث "خاف [الناصر] من تداعي الفساد ... فعلم أنه لا يسد أحد مسدَّه" [2].

٣. تخاذل الجنود وميلهم إلى صاحبهم يوسف وقد رأينا كيف كانوا من أهم عوامل هزيمة المحسن، ووراء هزيمة يحيى وانضمامه إلى يوسف .

٤. عدم صلاحية المنصورة لتكون حاضرة الدولة، لصغر مساحتها أمام التوسع العمراني لبناء منازل الحاشية والقواد وثكنات الجيش وغيرها من المقومات اللازمة للدولة. وتلبيةً لطلب أهالي الحجرية الذين شكوا إليه شدة الضرر الذي لحقهم من معرة جيش التحالف حال الحصار، وطلبوا منه مغادرة بلادهم خوفا من وثوب التحالف عليه مرة أخرى فيصيبهم ما أصابهم في المرة السابقة، وكان مقابل ذلك تعهدهم بأن ينخرطوا في الجيش ويكونوا من أتباعه[3].

٥. لعل أخبار زيد الجملولي ـ آتي الذكر ـ ومحاولته في وضع الأسحار على أرباع المنصورة كان له دور في زعزعة الناصر وخروجه منها، رغم تمكنهم من القبض على رسول الجملولي وإحباط مهمته .

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن،(خ) : ٣ / ق ١٦٢أ ـ ١٦٤أ ؛ الضبوي : عقد الجواهر،(خ) : ق ١٩ب .

(٢) أبو الرجال : الروض الزاهر ، (خ): ١/ ق ٦٧ب .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣ / ق ١٦٧ب ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص ٤٨٦ .

لهذا وذاك فقد قام بتجنيد القبائل وبذل لهم الأموال، حتى اجتمع حوله جنود كثيرة ، ــ معظمهم من الحجرية ــ، ثم أخذ جميع أثقاله، وغادر المنصورة في بداية شهر (شوال ١٠٩٨هـ /١٠/ ٨/١٦٨٧م)(١) ، وتحرك "في موكب مهيب"(٢)، متوجها للقضاء على خصومه في معاقلهم، تنفيذاً لخطته التي وضعها بعد انتصاره ، لرد صاعهم بصاعين، كما عبَّر عن ذلك بقوله "نقصدهم ونحوزهم كما حازونا وضاررونا" (٣).

وفي أثناء سيره كان يعمد إلى عمل بعض المناورات المثيرة للذعر والخوف في نفوس مناوئيه، فاستعمل الحزم والعزم وشدة البطش، مع التظاهر بالعدل والزهد والتقرب من العامة والخاصة، وهذا يدل على قوة شكيمته وعزيمته ومدى قدرته على الإقناع والسيطرة على مقاليد الأمور .

فأول ما فتح به تحركه أن عرج على مزار الشيخ "أحمد بن علوان"(*) في "يفرس" فوقف على مقامه بعض الوقت، أدى خلاله صلاة الاستخارة وأكثر من الدعاء ببركات الشيخ، و تظاهر بالخشوع والزهد، ووزع الصدقات والهبات على الحاضرين من رواد المزار وغيرهم (٤) .

ومما يلاحظ أن الهدف من ذلك هو استمالة العامة، ومن هم بين يديه من الجند وضمان ولائهم له، لأنهم من تلك البلاد، ولهم في الشيخ اعتقاد كبير، ولعلمه أنهم لم ينضموا تحت قيادته إلاّ طمعا لما يبذله لهم من الأموال، وسرعان ما ينفضوا من حوله إذا نفد ما بيده، لذلك قصد المزار ليتمكن من السيطرة عليهم سيطرة عقائدية، ويصبغ

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٦٥أ ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٤٨٤ ؛ أبو الرجال : الروض الزاهر .(خ) : ١/ ق ٦٨ أ ؛ أبوطالب : طيب الكساء، ص٢٠٨؛ الجرافي : المقتطف ، ص٢٤٠؛ الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره .(خ): ص١٢٧؛ (وذكره ابن عامر في عام ١٠٩٩هـ ، بغية المريد ، (خ): ص ٢٥٠ .

(٢) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ٨٩ ؛ وانظر خارطة سيره في: الملحق(١٤)، شكل رقم (ج).

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، (خ) : ٣/ ق ١٦٠أ

(*) أحمد بن علوان: "أحد الأولياء الصالحين في اليمن. ولد أوائل القرن السابع الهجري. كان فصيحاً، وأديباً وإماماً صوفياً . ترك العديد من المؤلفات أهمها:(التوحيد الأعظم)،(ديوان الفتوح)، (المهرجان)،(البحر المشكل) ...توفي في ٢٠ رجب ٦٦٥هـ / ١٧مارس١٢٦٧م في (يفرس) في بني حبشي من بلاد الحجرية. وقبره يزار ، عليه قبة كبيرة. . (عبدالكريم قاسم سعيد : الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف، ط٢، ٣/ ٢١١٣ ــ ٢١١٧) .

(٤) أبو الرجال : الروض الزاهر . (خ) : ١/ ق ٦٨ أ ؛ الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ١٩ب .

سلطته الصبغة الدينية . وما أن وصل إلى "تعز" حتى قام بمصادرة واليها الشيخ" راجح الكينعي" واستولى على أمواله ومنقولاته [1] .

وحين وصل "المحرس"[*] أمر بضرب أعناق بعض الأشخاص مبرراً عمله بأنهم "لصوص طال فجورهم"[2]، فكان هذا بمثابة إنذار لمن يقف في طريقه من الخصوم .

ثم واصل زحفه حتى دخل "جبلة" يوم الثلاثاء(١٨/١٠/١٠٩٨هـ / ٢٦/٨/١٦٨٧م) بعد معركة أسفرت عن هزيمة التحالف وفرار القائدين عبدالله بن يحيى وفرحان إلى "ضوران" . ومنها أرسل بالتهديد والوعيد إلى أولاد المتوكل، وأن لا خيار لهم سوى التسليم أو السيف، فكانت نتيجة ذلك أن تمكن الخوف من يوسف، فأطلق سراح أولاد الناصر من السجن، وشدد الحراسة على نفسه، أما بقية الأمراء فإنهم أعلنوا الطاعة والولاء للناصر بدون قيد أو شرط، حيث دخل المحسن بن المهدي إلى صنعاء واقنع الحسين بن المتوكل بالانضمام قبل وصوله إليهم، فتم ذلك وتتابعت بقية المناطق إلى حدود "صعدة"[3] .

أما الناصر فقد استمر في سيره لإخضاع مناوئيه وتصفية المناطق منهم حيث انتقل إلى"إب" وسلك عقبة بعدان واستقر بها قليلاً حتى تمكن من استمالة مشايخها آل الجماعي بأن تزوج منهم، ثم واصل سيره إلى "يريم" وفيها ألقى القبض على ولد أخيه علي بن الحسين وأرسل به إلى سجن المنصورة[4] ، وجنّد رجالها وضمهم إلى جيشه[5].

بعد ذلك توجه إلى "ذمار" ودخلها يوم الجمعة (٢٠/١١/١٠٩٨هـ ٢٦/٩/١٦٨٧م) وعسكر في الشمال الغربي منها، ثم قام بعمل بعض الترتيبات

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ) :٣/ ق ١٦٥ب .

(*) المحرس: عقبة (نقيل) مشهور يقع ما بين إبّ وتعز، فوق بلدة السياني وأعلى وادي لخلان بالقرب من جبلة . (معجم الحجري : ٢/ ٦٩٠؛ زبارة : نشر العرف، ٢/ ٤٠٤).

(٢) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٢٠٩ .

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، (خ) : ٣/ ق ١٦٥أ ، ١٦٦أ ، ١٦٧أ.

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٦٦ب ، ١٦٧ب .

(٥) أبوطالب : طيب الكساء، ص٢٠٩ .

العسكرية، أهمها إرسال حملة صغيرة لحرب يوسف في "ضوران" كاستطلاع أمام زحفه الكبير، ولجس النبض لمدى مقاومته، وكذا أرسل إلى قبائل بني الحارث وهمدان يأمرهم بالتقدم على يوسف من جهة الشمال، لكن يوسف أدرك ضعفه وتفرق أتباعه من حوله فأرسل بتنازله وموالاته للناصر، قبل وصول الحملة المذكورة إليه[1]، وبذلك كان آخر من أعلن الطاعة من أمراء المناطق الوسطى . ثم عمل الإمام عدة خطوات أهمها:

١- التنكيل بالفقيه الجملولي ثم ضرب عنقه وأثر ذلك على الأمراء :

كان الفقيه زيد بن علي الجملولي ــ العلامة المتبحر في علم الفلك والنجوم ــ صهرا وصديقا وكاتبا للأمير حسين بن المتوكل والي صنعاء، بل ويمثل ذراعه الأيمن، فكان له الدور الكبير في تدبير شؤون الإمارة، ويبدو أنها صدرت منه بعض المخالفات، حملت المؤيد على إبعاده عن مرافقة أخيه والزمه بالإقامة في حضرته[2]، فلم يدم به المقام إلا قليلا حتى توفى المؤيد، فعاد للخدمة لدى صاحبه، ثم استدعاه الناصر قبيل حصار المنصورة، إلا أن الحسين عمل كل ممكن لمنع وصوله إلى الناصر[3].

وفي أثناء حصار التحالف للمنصورة كرّس الجملولي كل جهده لدعم التحالف فظهر ظلمه في صنعاء حيث شاطر التجار أموالهم بالقرض الذي لا يقضى، وطلب المعونات للحرب، والتعجيل بالزكاة، كما طلب منهم القروش للضربة، وغير ذلك من المظالم حتى صاروا يجأرون بالدعاء عليه لعدم وجود من ينصفهم، وفوق ذلك حمل الحسين بن المتوكل على الإرسال بالأموال إلى يافع ليساندوهم بالرجال لحرب الناصر . وبعد هزيمة التحالف أرسل من يضع الأسحار تحت أرباع المنصورة ومنزله ــ كما مر ذكره ــ . وحين دخل الناصر جبلة، اشتدً خوف الجملولي، فلم يجد أي حيلة للخلاص، سوى أنه همَّ بالسفر إلى بلاده ــ شهارة ــ لكن منعه الحسين بن المتوكل، وسمح له

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٦٨ب .
(٢) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٠٩ ــ ٢١٠.
(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣/ ق ١٦٤ب .

بإرسال بعض ممتلكاته، ثم أراد الحج ، ولما لم يتم مراده لجأ إلى يوسف في "ضوران"[1].

ولقد اختلفت المصادر حول التُهم المنسوبة إلى الجملولي، والمبررة لقتله، فمنها ما ذُكِر أعلاه من المظالم، والتسلط على مخدومه بواسطة تلك الأسحار والشعوذة[2]، والأهم من ذلك أنهم اتهموه بدس السم بين الدواء للمؤيد فكان به وفاته، وذلك بسبب عزله عن مرافقة أخيه كما ذكرنا، وكذا قيل أنه "كان يرى في الفلك انه يقتله محمد فاتهم أنه المؤيد"[3]، غير أن أحد المصادر أشار إلى أنَّ منفذي عملية سمِّ المؤيد هم "بعض قرابته وأولاد أخيه علي"[4]، كما أن مصادر معاصريه أشادت بغزارة علم الجملولي واستبعدت أن يصدر منه مثل هذا، إلا أن الرجل بلغ مرتبة قيادية كبيرة فحسده أقرانه ونسبوا إليه تلك الموبقات التي أدت إلى حتفه[5].

وقد تواترت رواية الكيفية التي تقدم بها الجملولي إلى الناصر وبأنه نظر في النجوم أو أمر أحد المنجمين أن ينظر له الوقت المناسب للدخول على الإمام، فاخبره إذا قابله في نجم (سعد السعود وهو ميقات سقوط المطر على اليمن) فسوف ينال الوزارة، فإذا صدَّقنا هذه الرواية فربما أن هذا التفاؤل كان آخر محاولة قام بها الجملولي، أو أن الإمام أرسل إليه من يطمعه بالوزارة، فصار طعماً لسيفه، وهذا ما أثار قريحة الأديب المؤرخ عبدالله بن علي الوزير (ت: ١١٤٧هـ /١٧٣٤م)، موريا باسم السياف الذي كان اسمه (سعداً) بنجم(سعد الذابح الذي يأتي في شدة البرد)، فقال :

من بعد ما عَاينتُ زيداً لم أر ... قول المنجم غيرَ زور فاضِح
مسراه في سَعْد السّعود فَلِمْ غَدا ... من شؤمه في كفّ سعد الذَّابح ؟ [6]

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣/ ق ١٦٤ب ،١٦٥ب ـــ ١٦٦أ.

(٢) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ٣/ ص٤٣٠ ؛ الكبسي : اللطائف السنية ، الجيل الجديد ، ص ٣٨٨-٣٨٩.

(٣) الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره ، (خ) : ص١٢٧.

(٤) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص١٧٢ .

(٥) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٢٠ أ ؛ طيب الكساء ، ص٢١٠ ـــ ٢١١.

(٦) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢١١؛ الجرافي : المقتطف، ص٢٤٠؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، ص٨٩ ـــ ٩٠؛ الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره (خ): ص١٢٧.

ويهمنا هنا تلك الطريقة البشعة التي استخدمها الإمام للتنكيل به وقتله، والتي تدلُّ على انتهازيته وتلذذه بشدة البطش والانتقام، والتي أوردها مع مبررات الإمام لارتكابها المؤرخ المعاصر للحدث، بقوله:"وزيد الجملولي سار إلى حضرة الناصر بذمار قيل بطلب منه وقيل من نفسه، فلما وصل إلى الناصر أمر بضرب عنقه، بعد أن طيف به في سكك ذمار والمرفع خلفه، وقال الناصر:إنه السبب في هذه الحروب والفتن التي جرت والخلاف عليه، وهذه الضرائب[تعدد ضرب العملة]،وأن كافة الناس يشكون ظلمه فيهم"(١).

وإلى جانب الجملولي ضرب عنق أحد فقهاء قرية "المحرس" الذي وصل إليه يندد بمظالمه التي ارتكبها حال مروره من تلك القرية، إلا أن الإمام برر قتله للفقيه بحجة أنه "من بغضاء الآل"(٢).

ولم يقف الإمام عند قتل الجملولي والتنكيل به بل أمر بخراب منزله الذي في ذمار "ونهب جميع ما حواه"(٣)، وما أن وصل الخبر إلى مسامع القاسم بن المؤيد أمير شهارة، حتى أمر بنهب دار الجملولي التي في سيران الغربي "فوجدوا أشياء كثيرة من الذهب والقروش فطبع عليها"(٤) وكانت الغنيمة الدسمة .

مما لا شك فيه أن هدف الناصر من هذا الفتك هو نشر الذعر في نفوس الأمراء الذين تظاهروا بموالاته، ليزدادوا بذلك خضوعا، وبمثابة رسالة تهديد ووعيد لمن في نفسه منهم نزعة للمقاومة، وأنه ليس كسلفه يميل إلى المصالحة تجنبا لسفك الدماء، إضافة إلى معرفته بمنزلة الجملولي لدى الحسين بن المتوكل، فأراد بذلك إهانته والتحرش به ليتمكن من معرفة رد فعله، ومن ثم يتم القبض عليه بطريقة شرعية.

٢ ـ فرار بعض الأمراء واستسلام بعضهم :

كانت نتائج إعدام الجملولي إيجابية بالنسبة للناصر، فقد وفَّرت عليه تكلفة ومشقة التقدم نحو صنعاء وغيرها لاتخاذ الموقف الحاسم مع بقية أمراء التحالف، فقد ظهر موقف الحسين بن المتوكل جليا من مقتل صهره، حيث اشتد غضبه وخوفه معاً، ففي

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ) : ٣/ ق ١٦٨ب ــ ١٦٩أ ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٤٨٧ .
(٢) أبو طالب : طيب الكساء ، ص٢١١
(٣) ابن عامر : بغية المريد ،(خ): ص٤٣١ .
(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٧١أ ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٤٩٠ .

نفس الوقت الذي غضب فيه لمقتله، أشتدّ خوفه من بطش الإمام، وظن أن الدور عليه لا محالة، وحين سمع بقرار عزله عن ولاية صنعاء ــ بإسماعيل بن الناصر ــ ازداد رعبه، فلم ير للنجاة مخرج غير الفرار، مما جعله يغادرها في(١٠٩٨/١١/٢٣هـ / ١٦٨٧/٩/٢٩م)[١] فاراً بنفسه إلى صعدة، للاستنجاد بأميرها علي بن أحمد، ثم تبعه أمير كوكبان الحسين بن عبدالقادر، وبعض أخوته[٢]، وكذا أمير العدين عبدالله بن يحيى بن محمد بن الحسن، وغيرهم من الشخصيات التي شاركت في حصار المنصورة، كمحمد بن حسين المرهبي وأحمد بن أحمد الآنسي وغيرهما.

وأثناء إقامة الفارين لدى علي بن أحمد لم يألوا جهدا في تحفيزه على التقدم لحرب الناصر، إلا أنه نصحهم بترك الشقاق والسعي في الصلاح، وبعد عدة أيام أرسل بتجديد بيعته للناصر[٣]، وقيل إنه عاتبهم بسبب تسرعهم في ترك ولاياتهم ووصولهم إليه، وكان الواجب عليهم مراوغة الناصر بإظهار الموالاة له والطاعة، وفي الباطن يراسلوه سراً ليتم التنسيق فيما بينهم، ويتحينوا الوقت المناسب للوثوب جميعا عليه، أما وهم في هذا الوضع فما عليهم إلا التمهل ومراوغة الناصر حتى يتخلص من الموالين له، وهم عمه الحسين بن الحسن، والحسن بن المتوكل، والقاسم بن المؤيد، وبذلك سوف يضعف قواه بنفسه، ومن ثمَّ يسهل الوثوب عليه، لكنهم لم يستحسنوا خطته تلك، واشتدّ خوفهم من غدر الناصر بهم، مما جعلهم يلوذون بالفرار إلى "مكة المكرمة"[٤].

ورغم تخلص الإمام من أولئك الفارين إلا أنه طمع في معاقبتهم، فعمل على إعادتهم بطريقة غير مباشرة، فما أن استقروا في مكة حتى تخطفهم، بواسطة مكائد وزيره الحيمي التي أدت إلى تنكر أشراف مكة للأمراء ، مما ألجأهم إلى العودة واحداً بعد الآخر ، فتمكن الإمام من القبض على عبدالله بن يحيى بن محمد، فور وصوله

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٦٩أ ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٤٨٧ .

(٢) الحوثي: نفحات العنبر(خ):١/ ق ٩٢ب؛ الكوكباني: المواهب السنية (خ): ١١/٢؛ الداعي: الدامغة (خ):١٧٦/٢.

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) :٣/ ق ١٧١ب ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٤٩٠ــ ٤٩٣ .

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢١٦ ــ ٢١٧؛ الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص١٧٥.

ساحل البحر، في شهر(شوال ١١٠٢هـ / يونيو ١٦٩١م)، وزجَّ به في سجن صنعاء، فمات كمدا بعد أيام قليلة من وصوله[1]، وأما الحسين بن عبد القادر، فقد وصل إلى عند علي ابن أحمد وهو محاصرٌ لصنعاء في شهر رمضان من نفس العام، فعينه أميرا على ولايته السابقة ــ كوكبان ــ ، غير أن الناصر تمكن من القبض عليه بعد فرار علي بن أحمد بثلاثة أيام، فنقله من سجن إلى آخر حتى قضى نحبه في سجن حدة في(١٢/٤/ ١١١٢هـ /٢٥/٩/١٧٠٠م)[2]، وأما الحسين بن المتوكل، فقد استقر لدى الشريف أحمد بن غالب[*] في أبي عريش، ويبدو أنه لاذ به، ومكث لديه إلى شهر (رجب ١١٠٤هـ/ مارس ١٦٩٣م) ثم انتقل إلى صعدة ، ولعله آنف المقام لدى أميرها ــ علي ابن أحمد ــ ، لذلك آثر التنقل بين قرى المنطقة الشمالية مستجيرا بقبائل عذر والعصيمات، ثم أرسل إلى الناصر يستمد منه الأمان والإذن بالسكن في شهارة، فأسعده إلى ذلك، واستقر بها حتى وفاته في عام(١١١٢هـ/١٧٠٠م)[3] وقيل عام(١١١٥هـ)[4].

وتكمن النتيجة الثانية لمقتل الجملولي في شدة خوف يوسف، حيث مثُل بين يدي الناصر طوعا لأمره، "فتوجه إلى ذمار على رأس حملة قوامها ثلاثة آلاف محارب، حتى يشعر خصمه بأنه لم يكن في مركز ضعف حين قبل الدعوة لمقابلته"[5]، حتى أن الناصر داخله الخوف من ذلك العدد، مما جعله يرسل إليه يأمره بتوزيعهم خطاطاً[**] على القرى المجاورة ريثما يتم اللقاء، الذي كان عاصفا، انتهى بتخلي الداعي يوسف عن دعوته على كره منه ورضوخه بالإقامة الجبرية في صنعاء، فوصل إليها في (٢٩/

---

(١) الداعي : الدامغة الكبرى ،(خ) : ٢/ ص١٧٩؛ أبوالرجال : الروض الزاهر ،(خ) : ٣/ ق ١٦٠ب .

(٢) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) :٢/ ص١٧٨؛ الحوثي : نفحات العنبر (خ) : ١/ ق ٩٢أ ؛ الشوكاني : البدر الطالع ، ص٢٣٤؛ الأكوع : هجر العلم ، ٤/ ١٨٧٨؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٥٦٢.

(*) الشريف أحمد بن غالب : (ت : ١١١١هـ/ ١٧٠٠م) سيتردد ذكره كثيراً وله ترجمة كاملة في الفصل الخامس .

(٣) الداعي : الدامغة الكبرى، ص١٧٨؛ ابن عامر : بغية المريد، (خ): ص٤٣٢ ؛ زبارة : نشر العرف، ٥٤١/١ .

(٤) أبوطالب : طيب الكساء، ص٣٠٨.

(٥) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٩٠ .

(**) الخطاط : هو ضيافة العساكر لدى الأهالي رغما عنهم ، وكان يستخدم كنوع من أنواع العقوبات المفروضة على القبيلة المتمردة ، فكان من أسوأها تشدد وظلم العساكر على الأهالي واستغلالهم البشع .

١١/ ١٠٩٨هـ/ ٥/١٠/١٦٨٧م) صحبة أميرها الجديد إسماعيل بن الناصر[١]. وما أن أستقر حتى قام بمحاولة فاشلة سوف تبسط في موضعها .

وبهذه النتائج تخلص الناصر من جميع أمراء التحالف، إضافة إلى إعلان الأمراء المحايدين وغيرهم الولاء والطاعة، فلم يبق له أي منافس يذكر، لذلك عزف عن التقدم إلى صنعاء، وتوجه نحو يافع، وأمر بعمارة وترميم وتجديد "حصن هران" ليتخذه مقـراً مؤقتا ريثما يرتب أوضاع الدولة، ويصلح ما أفسده التحالف، فقام بتعيين الأمراء الجدد على الولايات الشاغرة، وفرض العقوبات على غاشـي العملـة، وألغـى عملـة أولاد المتوكل، ثم أصدر عملة جديدة، مما أدى إلى انخفاض الأسعار فانتفع الناس بها[٢].

ويبدو أن الناصر كان يود التقدم إلى صنعاء للاستقرار بها والتأكـد مـن صـحة موالاة الأمراء المحايدين، ولكن تعدي يافع على أطراف البلاد وهجومهم علـى حاميـة "لحج" وقتلهم تسعين من عسكر الحامية تقريبا، كل تلك الأحداث جعلته يعزف عن التقدم نحو الشمال ويصوب سهامه نحو يافع[٣]، وهذا منحه فرصة لاختبـار صـحة مـوالاة الأمراء والتماس المبرر الشرعي لتقليص نفوذهم، أو عزلهم واستبدالهم، وحين أعلـن الحرب على يافع أرسل المقدمات ثم طلب من الأمراء المدد بالمال والرجال، فمن تثاقـل منهم أمر بتقليص ولايته، كما فعل مع قاسم بن المتوكل أمير ثلا، والحسين بن محمد بن أحمد أبوطالب أمير عمران، غير أن الجميع حافظوا على ما تبقى من ولاياتهم وأرسلوا المال والرجال رغما عنهم[٤]، فتواردت إليه جموع هائلة من كل مكان، والـذي بـدوره جمعهم تحت قيادة عمه الحسين بن الحسن أمير رداع، اسـتعدادا لقمـع قبائـل يـافع والسيطرة عليها[٥] .

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ) :٣/ ق ١٦٩ب ؛ أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢٠ب .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣ / ق ١٧٠ أ ، ب ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص٤٩٠ .

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، (خ) : ٣/ ق ١٧٠أ ؛ الحبشي : نفس المرجع ، ص٤٨٩ .

(٤) يحيى بن الحسين : نفسه ،(خ) : ٣/ ق ١٧٣أ ــ ١٧٤أ .

(٥) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢١أ، ب ؛ العابد : تهذيب الزيادة في تاريخ الأئمة السادة (خ): ص١٩٥ــ١٩٦.

٣ـ فشل انقلاب عمه الحسين بن الحسن والقبض عليه:

حين اجتمعت تلك الحشود المذكورة لدى الناصر، قام بتوزيعهم للزحف على يافع من ثلاث جهات[١] ـ كما سوف يبسط في فصل تالٍ ـ ، وجعل عمه الحسين[*] على رأس أحد تلك الحملات المكونة من ألف وخمس مئة مقاتل[٢]، لكونه أكبر آل القاسم سنا وأكثرهم تجربةً، ولكي ينتقم من يافع لانفصالهم عن ولايته سابقا، ثم أمره بالزحف عليهم من جهة الشمال الشرقي. ولكن يبدو أن التعامل الودي بينهما كان شكليا فقط ، أما في الباطن فكان كل منهما يَنْصِبُ شباك الكيد للأخر، ويتحين الفرصة للنيل من غريمه، وذلك لما قد جرى بينهما من التنافس، ولاعتقاد الحسين أنه الأولى والأحق بالإمامة من ولد أخيه، إلا أنه لم يمتلك مقوماتها المذكورة أنفا، كما أن الناصر قرر التخلص من أمراء مراكز القوى المنافسين له في الحكم واستبدالهم بوجوه جديدة تحت طوعه . وعلى كلٍ يلاحظ هنا عدم اقتناع الحسين بن الحسن بفكرة الزحف على يافع لاستعادتها تحت سيطرة الإمامة بحجة أنها قد تأثلت وأصبحت قوية وتحتاج في استعادتها إلى ترتيبات وتجهيزات كثيرة، كما يبدو أنه كان حريصاً على الوفاء بتلك الاتفاقية التي أبرمها مع يافع سابقا بأن يكون عامل بلادهم واحداً منهم مقابل اعترافهم بالسُلطة المركزية[٣]، ورغم ذلك إلا أنه شرع في تنفيذ أمر الناصر على مضض، فتقدم بالحملة إلى "الزهراء" وهنا توقف عن مواصلة السير، مما أقلق الناصر وجعله يكرر

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ) : ٢ / ق ٧٨ب ؛ الضبوي : عقد الجواهر ،(خ): ق ٢٠ب .

(*) لقد سبقت الإشارة في مواضع مختلفة من هذا البحث إلى شخصية الحسين ودوره القيادي والسياسي وطموحه لنيل الإمامة، لإحساسه بكمال شروطها فيه، ولكونه يمثل أحد مراكز القوى الخطيرة، وقد سعى لنيلها بطريقة غير مباشرة في عهد أخيه المهدي أحمد، ثم عارض المؤيد، غير إنه اخفق مسعاه. وقد رأينا كيف كانت متابعته للناصر ـ ابن أخيه ـ بعد بطشه بصاحب جبلة في بداية دعوته، ثم التزم الحياد أثناء تحالف الأمراء وحصار المنصورة، وحين دخل الناصر جبلة أرسل الحسين موالاته وتظاهر مع المتظاهرين بالخضوع والطاعة للناصر، نتيجة لقلة ما عنده من المال والرجال . وسيتم هنا تتبع دوره حتى وفاته . (انظر: ما سبق ص ٣٧ وما بعدها ، ثم ٦٧وما بعدها) .

(٢) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ٣٠٢.

(٣) بن سبعة (نصر صالح) : من ينابيع تاريخنا اليمني، ط١، ١٩٩٤م، ص١٤٤.

الرسل إلى عمه يلزمه بسرعة التقدم لاكتساح "البيضاء"[*]، غير أن عمه تعلل بأن المراسلة مستمرة فيما بينه وبين الرصاص، وهو مفتاح يافع، وبأنهم أعلنوا الولاء والطاعة، وهم على وشك الوصول إليه لتقديم ذلك[1] .

حينئذ لم يقتنع الناصر بمبررات عمه واتهمه بالتآمر عليه والتربص به، وعدم الامتثال للأمر لذلك اتخذها فرصة للتصرف نحوه بما يقلل من شأنه، حيث أصدر مرسوما يقضي بعزله عن إمارة الجند واستبدله بالأمير يحيى بن محمد بن الحسين ـــ صغير السن ـــ ، وبهذا أثار غضب عمه الذي اعتبر عزله إهانة في حقه، مما جعله يحسم أموره مع أمراء الحملة وأفرادها الكثيرين الذين تعهدوا له بالسمع والطاعة[2]، إضافة إلى أنه لم ينس طموحه السابق باعتقاده أنه الأولى بالإمامة، وكان يزعم أنه متابع للإمام ولم تصدر منه بيعة صريحة، كما ظن أن ولد أخيه مثل المؤيد سوف يتركه يعمل ما يشاء دون اعتراض[3]، فلما أحسَّ منه الأمر الجازم، واجتماع تلك الأسباب المذكورة أعلن دعوته، ثم عاد إلى "رداع"، وتبعه أمراء وأفراد الحملة، وتركوا القائد الجديد وشأنه، ولكن سرعان ما دبَّ الخلاف فيما بين الداعي ومسانديه بعد وصولهم "رداع"، وذلك لإعراض الحسين عن اقتراحهم الذي يشير بالتقدم على الإمام لحربه وخلعه، وفضَّل الميل إلى الهدوء ومعالجة النزاع سلميا، والتراخي عن الدعوة، وهذا ما جعلهم ينفضوا من حوله عائدين إلى بلادهم، فلم يبق بجانبه إلا خلاصته من أهل ولايته، وقيل إن الإمام أعلن بتأمينهم وعدم معاقبتهم[4].

أما الناصر فقد أتخذ من هذا الحادث المبرر الشرعي للتخلص من عمه هذا. والذي لم يتحقق له ذلك إلا بعد فترة استمرت بين شد وجذب نحو عام تقريبا بعد أن مرّت بثلاث محاولات استخدم فيها شتى الوسائل الحربية والسياسية على النحو التالي:

(*) البيضاء : مدينة ومحافظة أثرية تاريخية مشهورة ، تبعد عن صنعاء بنحو (٢٠٠) كم في الجنوب الشرقي . (معجم الحجري: ١/١٣٤؛ معجم المقحفي: ١/٢١٠) .

(١) ابن عامر : بغية المريد،(خ): ص٣٠٢ ؛ الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ٢١ أ .

(٢) الضبوي : عقد الجواهر ، ق ٢١أ .

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر،(خ) : ٢/ ق ٩٨ أ .

أبوالرجال : نفس المصدر ، (خ) : ٢/ ق ٧٨ ب .

المحاولة الأولى : قام الناصر باستدعاء بقية الحملات المهاجمة ليافع من الجهات الأخرى، وما أن وصل إليه أخوه المحسن بحملته المرابطة في "الشعيب"، حتى زوده بالقبائل التي كان قد جمعها من المناطق المجاورة لذمار، وأمرهم بالتقدم لحرب عمه، الذي كان مستعداً للمقاومة، فلم يتم للحملة الدخول إلى رداع إلاّ بعد إبرام اتفاقية مع عمه تنص على الالتزام بعدم إشعال الحرب مقابل تنازل الحسين عن دعوته، ووصوله إلى الإمام في أي وقت يراه . وفي خلال تبادل الرسائل فيما بينهما أرسل الناصر خادمه "المسمى رباح بحملة من التوابع الخواص قدر مئة نفر بأنهم في الظاهر لتمام الإصلاح وفي الباطن يقبضوا عليه كيف [ما] أمكن"[1]، إلاّ أن أخبار رباح سبقته إلى الحسين بن الحسن مما جعله ينسل من داره إلى "حصن عصره" من بلاد" قيفة" شمال شرق رداع، مستنجداً بأهل البلاد، فاجتمعوا حوله وشنوا الحرب على جند الناصر وقتلوا الكثير منهم وحاصروا البقية، حتى أنهم لم يتمكنوا من الخروج إلاّ بأمان من الحسين، وعادوا يجرون أذيال الهزيمة إلى الناصر، الذي تغاضى عن عمه مكتفيا منه بالتخلي عن دعوته ومتابعته في الظاهر، وهناك رواية تفيد أن الحسين ضرب الحصار على الناصر حتى استنجد بوالي كوكبان الذي أسرع في نجدته وفك الحصار عنه ثم حلّ الخلاف فيما بينهما[2]، إلاّ أن شارح سيرته أشار بأن الحسين اعتذر عن فعلته وخضع للإمام واستمد منه العفو، فقابله بالصفح عن مقدرة "وأدركته عليه الشفقة وعطفته عليه عواطف الحلم والاحتمال"[3] مبقياً له على ولايته .

المحاولة الثانية : لم يخيم الهدوء على الإمام طويلا، ويبدو أن تغاضيه وسكونه تلك الشهور القليلة كان يهدف منها تأمين عمه الحسين، حتى إذا ما أمِن فاجئه بهجوم خاطف، ففي شهر(شعبان ١٠٩٩هـ / مايو ١٦٨٨م)[4]، أرسل أخاه المحسن على

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٣٠٤ .

(٢) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) : ٢/ ص٧ .

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ) : ٢/ ق ٧٩ أ ــ ٨٠ ب .

(٤) أرخ صاحب بغية المريد الحادث في شهر شعبان سنة ١١٠٠هـ ، وأدرجه أبوطالب ضمن أحداث عام ١٠٩٨هـ ولعل الأرجح ما أثبتناه ، كما في سيرته ، انظر : (الضبوي : عقد الجواهر ،(خ) : ق ٢١ب؛ أبوطالب : السحر المبين ،(خ) : ق ٢١ب) .

رأس قوة قوامها ثلاثمائة فارس، وثلاثة الآلف من المشاة، فكان الهجوم على سوق الأربعاء والقبائل آمنة في السوق، ورغم عدم تصريح المصادر التي بين أيدينا عن أحداثها إلاَّ أنها كما يبدو كانت جسيمة جداً، وخسائر فادحة في الأموال والأرواح، كما توحي إليه العبارة التالية: "فخرجت القبائل هاربة إلى جهاتها"[١]، وهذا من شدة الذعر والهول، وربما أنها الحادثة التي تركت أثرها السيئ على نفوس تلك القبائل يتوارثونها إلى عصرنا الحاضر، وذلك بتشاؤمهم عن ذكر يوم الأربعاء، ومن شدة التشاؤم حاولوا تغيير اسم هذا اليوم باسم يوم "البِرك"، بل ويدعون على من ذكر يوم الأربعاء بقولهم "على قرنك وقرن أبوك". ومما يؤكد ذلك إشادة أحد شارحي سيرته لهذا الهجوم الكاسح على قبائل قيفة لخيانتهم "وتباطنهم مع عمه بالخديعة له"[٢] لذلك أشاد بالدمار والخراب الذي خلفه ذلك الهجوم على تلك القرى والحصون، وذلك في قوله: "والآن قد صارت تلك المعاقل داثرة، قد عفت منها الديار، واحتوى عليها الأدبار، ومنيت بالذل والتبار"[٣].

ورغم ذعر القبائل وفرارهم في البداية إلاَّ أنهم سرعان ما أخذوا أسلحتهم وتجمعوا حول الحسين، وصدوا ذلك الهجوم في أخر النهار، حتى أسفرت المعركة عن هزيمة جيش الإمام وإصابة أميرها بطعنة رمح في رجله، تم على إثرها تراجعهم إلى "الجميمة" ــ قريب ذمار ــ، بعد قتل واسر بعضا منهم وفرار آخرين[٤].

لكن الإمام حين سمع بهذه الهزيمة، قام بتجهيز حملة كبيرة قوامها ستة آلاف مقاتل تقريبا، وجعلهم تحت قيادة أولاده ومن لديه من الأمراء لرفد المنهزمين، وأمرهم بالهجوم على رداع من جميع الجهات، وفي نفس الوقت أرسل الأموال لاستمالة مشائخ قيفة، لذلك لم يثبت الحسين أمامهم سوى لحظات حتى تراجع منهزما إلى رداع، بعد تخلي قبائل قيفة عنه، حينها أرسل إلى أمراء الجيش يخبرهم أنه مستمر في الطاعة

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٣٠٦.

(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ) : ٢/ ق ٩٣ أ.

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ) : ٢/ ق ٩٣ أ.

(٤) ابن عامر : بغية المريد، (خ) : ص٣٠٦.

وليس هناك مبرر شرعي لحربه، وطلب منهم التوقف عن الزحف، مقابل مثوله بين يدي الإمام والبحث معه في تسكين هذه الحروب، وبعد اجتماعه بأمراء الحملة، تم الاتفاق بينه وبينهم على أن يتم وصوله إلى الإمام لمقابلته ولكن بشروط منها : انسحاب الجيش إلى "الجميمة"، وتأمينه هو وأصحابه ومن يلوذ به، وأن يمكث لدى الإمام ثلاثة أيام إن تم إصلاح شأنهما وإلاَّ تركوه وشأنه دون اعتراض(١).

وحين سمع الإمام بهذا الاتفاق قبل وصول الرسل إليه غضب غضبا شديدا، واعتقد أن عمه تمكن من مخادعة أمراء الحملة واستمالهم إليه(٢)، لذلك لم يجد بداً من قبول الأمر الواقع والترحيب بعمه، الذي وصل إلى ذمار "في سلخ شهر رمضان عام ١٠٩٩هـ"(٣)، على رأس حاشية مكونة من سبعين فارسا ومائة من المشاة تقريبا، فبالغ في استقباله وأكرمه غاية الكرم، وفي اليوم التالي: عقد اجتماعا حضره كبار الأعيان ورجال الدولة، وبعد مناقشات طويلة جرت بينهما، آل الأمر إلى مبايعة الحسين للناصر بشرط بقائه على ولايته، وانسحاب الجيش منها، وتم الاجتماع بإزالة كل أسباب الشحناء (٤).

المحاولة الثالثة : كانت مغايرة لسابقتيها، فقد أدرك الناصر فشله الذريع في التخلص من عمه باستعمال القوة والعنف، وذلك لما يتمتع به الأخير من المكانة السياسية والعقائدية أوساط المجتمع، وما يمتلكه من المهارة العسكرية، لذلك لجأ في اقتناصه إلى أسلوب المكر والخداع، حيث استمر بضعة أشهر يراسله بالمودة والاحترام، حتى تمكن من كسب وده، وجعله يتناسى كل المكائد الصادرة منه منذ عهد المؤيد، ومن ثم استطاع قبضه بسهولة في ليلة الثلاثاء(١٠/١/ ١١٠٠هـ /٣ /١١/١٦٨٨م) . وقد أوردت بعض المصادر المبررات التي حملت الناصر على القبض عليه، والتي عولتها على أنه كان يراسل يافع، يحرضهم بإثارة القلاقل وشن الهجوم على أطراف البلاد، وقد

---

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٣٠٧.

(٢) ابن عامر : بغية المريد ، ص٣٠٩ .

(٣) الضبوي : عقد الجواهر ،(خ) : ق ٢١ب ؛ وأثبته ابن عامر في عام(١١٠٠هـ)، انظر: بغية المريد، ص٣٠٥ .

(٤) ابن عامر : نفس المصدر ، (خ) : ص٣٠٩ .

حصل الإمام على بعض تلك الرسائل، كما أنه لن يستتب له الأمر إلا بعد قطع ذاك الشاغل[1].

كما اتفقت المصادر في عرض الوسيلة التي استخدمها الناصر للقبض على عمه، والتي تكمن في استدعائه لعقد اجتماع مستعجل، إلا أن بعضها[2] لم تذكر غرض هذا الاجتماع، وبعضها[3] أشارت إلى أن الإمام دسَّ إلى عمه من يوهمه أنه الأحق بالإمامة وأنه الأجدر بتولي هذا المنصب وأن الناصر يميل في التنازل له، ولمَّا علم ثبات تلك الأوهام في عقله أرسل إليه يطلب منه الاجتماع ليعلن تنازله لعمه على الملأ. ورغم إيراد هذه الرواية من أحد معاصريه إلاَّ أننا نستبعد انجراف الحسين ورائها، لِمَا عُرف عن شخصيته السياسية الحكيمة، غير أن هناك احتمال آخر يجعلنا نميل إلى تلك الرواية والذي يكمن في شدة طموح الحسين لتولي السُلطة هي التي دفعته للسعي وراء تلك الأوهام الواضحة .

والمهم أن الحسين جمع أصحابه، الذين استمالهم الناصر ببعض المال، ثم خرج يحث السير تلبيةً للطلب، وفي الطريق وصله كتاب من الإمام يطلب منه بان يقضي ليلته في "سامة" الواقعة قريبا من ذمار، ويدخل المدينة في الصباح ليكون مراسيم الاستقبال حافلا بما يليق به، ومَنَحَهُ بعض المال ليتمكن من الإنفاق على أصحابه تلك الليلة، وفي الوقت نفسه أرسل إلى شيخ سامة ببعض المال وأمره أن يعتذر للحسين لعجزه عن ضيافة أصحابه ويقترح عليه توزيعهم خطاطاً على الأهالي، ويبيت لديه هو وخاصته فقط، ويحذره من أن يفلت من يده، وأمره بسرعة إبلاغه حال تمام ذلك، وكان الإمام قد جهز ولده محسن والأمير سلمان على رأس قوة استطاعوا بواسطتها السيطرة على الوضع والهجوم على الحسين وهو نائم، فتم القبض عليه وإرساله مغلولاً[4] إلى سجن

---

(١) الضبوي : عقد الجواهر ، (خ) : ق ٢١ب ؛ أبو الرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ٢/ ق ٩٧ب .

(٢) الضبوي : نفس المصدر والورقة ؛ ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص ٣١٠ ؛ الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره ،(خ) : ص ١٢٧ .

(٣) أبو طالب : السحر المبين (خ) : ١/ ق ١٢٣أ ؛ وطيب الكساء ، ص٢٢٠ ؛ العابد : تهذيب الزيادة (خ) : ص١٦٠؛ الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ) : ق ١٦١ب .

(٤) الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره ، (خ): ص١٢٧؛ زبارة : نشر العرف ، ٣٧٥/٣ .

"كوكبان" ، للحط من شأنه لمكانته السياسية بينهم لكونهم أخواله، "وزيادة في الامتحان"[1]، ثم نقله في شهر(رجب ١١٠٢هـ/ مارس ١٦٩١م) إلى سجن صنعاء، وضيّق عليه أشد تضييق، حتى أنه منع عنه الزيارات بالكلية لمدة سبع سنوات[2]. على عكس رواية المرهبي الذي بالغ في تبرير موقف الإمام لدرجة أنه جعل السجن من ضمن كرم الإمام وحُسن تدبيره، وذلك في قوله :

وحين أعياه وجود الرخصة   في أمره دبر فيه القصة
ثم اقتضت قواعد السياسة   إكرامه في القصر لا احتباسه[3]

ولم يكتف الناصر بذلك فقط، بل عمد إلى التنكيل بأصحابه وتوزيعهم في السجون، ثم صادر جميع أملاك عمه وانتقل إلى قلعة رداع يرافقه خمسون ألفاً من أتباعه، وجعلها حاضرة دولته بعض الوقت حتى يتم له إخضاع يافع منها، وحين دخلها في شهر (جماد ١١٠٠هـ / مارس ١٦٨٩م)[4] ، جمع أولاد عمه ومحارمه وأرسلهم للإقامة في صنعاء. ولم تأخذه الشفقة بعمه إلا بعد أن تأكد من أن الشيخوخة قد تمكنت من القضاء على طموحه، فأطلقه من السجن عام(١١١٢هـ /١٧٠١م) ومنحه عائدات بلاد"حُفاش وملحان"، وأمره بالإقامة مع أولاده في صنعاء، فمال إلى الهدوء والاستقرار حتى وافاه أجله بها في يوم الجمعة(١٠ /٥/ ١١٢١هـ/ ١٧٠٩/٧/١٧م)[5].

لقد كان لهذه الحادثة أثرٌ بالغٌ في نفوس أمراء آل القاسم، حيث استسلموا وفقدوا الآمال التي كانت تسارهم، ولم يتوقعوا أن يبلغ به البطش بعمه إلى تلك الدرجة وذلك لشدة القرابة التي بينهما فهو ليس عمه فقط بل وخاله أيضا[6]، فلم يراعي تلك القرابة . لكنه تخلص بواسطتها من آخر أمير في المناطق الوسطى والجنوبية، وأعلن عن التقدم نحو المناطق الشمالية، فأثار رعبهم وجعلهم يتسابقون بالوفادة عليه وتجديد بيعتهم

(١) العابد : تهذيب الزيادة لتاريخ الأئمة السادة ،(خ) : ص١٦١ .
(٢) ابن عامر : بغية المريد ، (خ): ص٣١٠.
(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ) : ٢/ ق ٩٧ب .
(٤) أبوالرجال : الروض الزاهر ،(خ) : ٢/ ق ١٠٨أ ـــ ب .
(٥) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ٣١٨ .
(٦) زبارة : نشر العرف ، ٥٥١/١ . خاله لأنه أخو أمه من جهة الأم وعمه لأنه أخو أبيه من جهة الأب.

وموالاتهم له رغم تجديدهم لذلك إثر مقتل الجملولي، حيث وصل إليه الحسين بن محمد ابن أحمد أبو طالب أمير عمران، الذي كان شديد الطموح للإمامة فقد انتصب للإمامة مرة بعد أخرى، والآن لم يكتف بإرسال الموالاة والبيعة السابقة بل تقدم إليه بنفسه، ورغم الحشود التي جمعها من حاشد وبكيل لمرافقته إلا أنه كان شديد الخوف من الناصر الذي بالغ في إكرامه ثم جدد له الولاية على بلاده، وكذا القاسم بن المتوكل أمير "ثلا" الذي وفد إليه راجياً وملتمساً إعادته على ولايته التي عزله عنها سابقا فتم له ما أراد[1]. وهذا أمير صعدة علي بن أحمد يرتعد خوفاً من إعلان تقدمه على صعدة مما دفعه للإسراع بإرسال تجديد موالاته للمرة الثالثة[2].

٤ ـ آخر محاولات يوسف والبطش بقبائل خولان :

لقد خفف الناصر الحكم على يوسف بن المتوكل حين أمره بالإقامة الجبرية في صنعاء الذي رضخ له على مضض فدخلها في(٢٩ ذي القعدة ١٠٩٨هـ)، بعد مقتل الجملولي ـ كما مر معنا ـ إلا أن يوسف لم يحس بقيمة تلك المنَّة التي منحها له الناصر، ويميل إلى الهدوء والاستقرار، فلم يستقر به المقام حتى بدأ يستعرض بنفسه أواسط أعيان وأفراد المدينة وظهرت عليه ملامح نزوته وتجديد طموحه لنيل الإمامة، وتجاهل أنه تحت المراقبة وأن حركاته تصل إلى الإمام أولاً بأول، فما هي إلا أيام قليلة حتى ورد إليه مرسوما من الناصر، يقضي بمنعه من التقدم في المحراب لإمامة المصلين يوم الجمعة لأن حصار المنصورة وما جرى خلاله من الحروب والقتل والديون كان بسببه، ثم أمره بالذهاب إلى شهارة والإقامة بها. فامتثل يوسف للأولى، وتأخر للصلاة في مؤخرة الجامع، وراجع الإمام وتوسل إليه لأعذاره من السفر إلى شهارة، وتعلل بعدم معرفته بها وليس لديه تكاليف السفر، كما أن لديه في صنعاء وصايا من أخيه يريد تنفيذها[3]. ورغم قبول أعذار يوسف والسماح له بالإقامة في صنعاء إلا أنه

(١) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٢٢٢ ؛ والسحر المبين ، (خ) : ق ٢٣ ب.

(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر ،(خ) : ٢/ ق ٩٩ أ ؛ الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق٢٢ .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣ / ق١٧٣ ب .

لم يتوقف عن مزاولة نشاطه، بل واصل جهوده ولكن بصورة سرية للغاية، مستغلا ظروف انشغال الإمام بالقبض على عمه ومحاولة إخضاع المشرق، فاستطاع أن يجمع حوله بعض آل القاسم والأعيان، الذين حرمهم الناصر من مزاولة النفوذ الذي كانوا يتمتعون به في دولة المؤيد بن المتوكل[1]. وانضمت إليه قبائل خولان[*] الذين أرادوا النكاية بالناصر لأنه صادر وسجن رئيسهم القاضي أحمد بن عبدالله بن عامر، بتهمة أنه السبب في رفض قبائل خولان التعاون مع الإمام في حرب المشرق[2].

لهذا فقد اتخذ يوسف من حادثة سجن ومصادرة الحسين بن الحسن نقطة الانطلاق للتنديد بسوء سياسة الناصر، وفساد حكمه، فكانت المبرر الشرعي لإعلان دعوته، وخروجه من صنعاء بمن رافقه من الأمراء موجهاً ركابه نحو الجنوب الشرقي صوب منازل قبيلة خولان، الذين سبق التزامهم بمناصرته حسب الاتفاقيات التي أُبرمت فيما بينهم عبر القاضي عامر الهبل[3]، إلا أنهم سرعان ما نكثوا حال وصوله إليهم، وذلك لسماعهم بعدول الناصر عن حرب يافع وتوجيه تلك الجيوش نحوهم، فأبانوا ليوسف عجزهم عن الوقوف أمام تلك الجحافل، وأشاروا عليه باللجوء إلى برط .

ولقد أطلق يوسف لسانه في توبيخهم وتقريعهم، ولكنه لم يجد بداً من قبول الأمر الواقع والخروج من بلادهم ـ لا يبغي غير النجاة مخرجا ـ متوجهاً نحو برط، إلا أنه اخفق في ذلك، حيث تم العثور عليه مختفياً مع أصحابه في غار بمنطقة "صرف" الواقعة شمال شرق صنعاء والتي تبعد عنها بنحو (٢٠كم)، وتم القبض عليهم وتوثيقهم بالحديد، وإيصالهم إلى صنعاء في(٢٩رمضان ١١٠٠هـ /١٦/٧/١٦٨٩م)[**] [4]،

---

(١) الحوثي : نفحات العنبر ،(خ) : ١/ ق ٢٤ أ ؛ زبارة ، نشر العرف ، ١/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

(*) خولان : اسم مشترك لعدد من القبائل والمدن والمناطق اليمنية، والمقصود بها هنا قبائل خولان العالية، المنحدرة من سلالة حميرية، وتحتل مساحة شاسعة من البلاد بدايةً من شرق صنعاء إلى حدود مأرب.(معجم الحجري: ١/ ٣١٣. معجم المقحفي : ١/ ٥٨٧) .

(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ) : ٢/ ١١٠أ .

(٣) أبو طالب : طيب أهل الكساء ، ص٢٢٣.

(**) لعل صاحب الطبقات كان واهماً حين أرخ الحادث في سنة ١١٠١هـ ولعل الأرجح ما ذكرناه ، كما في بقية المصادر . انظر : (أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) :٢/ ق ١٠٨أ ؛ أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢٤أ ؛ وطيب الكساء ، ص٢٢٣ ؛ العابد : تهذيب الزيادة ،(خ) : ص١٦١ ؛ زبارة : نشر العرف ، ٥٧٥/١) .

(٤) ابن المؤيد : طبقات الزيدية الكبرى ، ٣/ ١٢٧٩.

ومنها تم إرسالهم إلى "رداع" حاضرة المهدي آنذاك، فدخلوها "عقب صلاة الجمعة على حال غير مليح"[1].

وهنا نقف برهة مع سياسة المهدي والطرق التي كان يسلكها في سبيل الحصول على المبرر الشرعي لمعاقبة مناوئيه، رغم مقدرته على اتخاذ الطريقة التي تناسبه، ولكن حين علم بالقبض على يوسف وجماعته، قام باستدعاء علماء وقضاة اليمن على مختلف مذاهبهم، ثم عقد اجتماعاً، تم فيه مناقشة مشكلة عصيان ومعارضة يوسف، وتقرير العقوبة المستحقة لذلك، والذين أصدروا فتواهم بأنه خارج عن السُلطة "وأن أدبه القتل على شروط البغي"[2]، ثم أمرهم بكتابة فتواهم وإمضائهم عليها ففعلوا ذلك جميعهم ماعدا العلامة "علي بن أحمد السماوي"[*] فإنه اعتذر عن الموافقة، وكان يميل الإمام إلى ضرب أعناق يوسف وأعوانه، فحين وصلوا إليه بعد صلاة الجمعة والمجلس غائص بأعيان الدولة وغيرهم، قام الإمام بتوبيخهم وتأنيبهم، ثم استدعى السياف، وأبرز تلك الفتوى، وقرأها على رؤوس الأشهاد، وأمر الحكام أن يتكلموا بما أفتوا، وهو مصمم على تنفيذ الفتوى، لولى قيام العلامة السماوي، بتوبيخ المفتين وأبطل فتواهم، فكان سببا في عدول الإمام عن قتلهم إلا أنه أمر بسجنهم في غرفة ومنع عنهم الطعام والماء حتى زال عنه الغضب[3]، ثم استدعاهم وهددهم بالقتل بل ضرب أعناق عامر الهبل وبعض أعيان خولان، ثم أمر بتوزيع البقية في السجون المتفرقة فأودع يوسف في حصن حب من جبل "بعدان" المطل على مدينة إب، والحسين بن علي بن المتوكل وإبراهيم بن المؤيد الصغير في ترسخان المخا، و أحمد بن المؤيد الصغير في حصن

---

(١) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٢٤ب (أراد بحال غير مليح : حال مزرية) .

(٢) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٤٥٦ .

(*) القاضي العلامة علي بن أحمد السماوي الرداعي:(١٠٣١ـ١١١٧هـ/١٦٢٢ـ ١٧٠٦م) كان من أشهر علماء عصره مع زهد وورع مما أكسبه هيبة دينية وعقائدية بين الأمير والمأمور، وقد تولى القضاء في عهد المتوكل إسماعيل واستمر حتى عزله المهدي محمد عام ١١٠٤هـ، الذي كان يهابه كثيراً، فقد تصدى القاضي لكثير من تهورا ته كما سيمر معنا، وقد بلغ من التوفيق أن توفى وهو ساجد في صلاة المغرب آخر ليلة من شهر رمضان، فشيع جثمانه جمع غفير من الناس حتى اشترك في تشييعه نحو ألف من اليهود، وصلوا عليه صلاة الغائب في مكة والمدينة المنورة .(ابن المؤيد : الطبقات ، ٢/ ٧٠٦ ؛ ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٢٨٧ ؛ الحوثي: نفحات العنبر، (خ) : ٢/٧٣أ ؛ زبارة : ملحق البدر الطالع ، ص١٥٧ ؛ نشر العرف ، ٢/ ١٧١) .

(٣) ابن عامر : نفس المصدر ، ص ٤٥٨ ؛ الحوثي : نفحات العنبر،(خ) : ٣/ ق ٧٩ب ـــ ٨٠أ .

القاهرة بتعز[١]، و القاضي أحمد بن ناصر بن عبد الحق المخلافي في صيرة عـدن[٢]، وبذلك تخلص الإمام من الشخصيات المناوئة له من أبناء وأحفاد المتوكل ومن تابعهم.

ولكن نلاحظ هنا ظهور نزوات الإمام وحبه للانتقـام وإنـزال أبـشع العقوبـات بالمنهزمين، فلم يكتف بضرب أعناق أعيان قبائل خولان و الحيمة المذكورين بل سـلَّط على بلادهم تلك الجيوش التي كانت متوجهة لحرب يافع، فوجهها نحو خولان والحيمة، الذين انتشروا كالجراد فقتلوا منهم قتلاً ذريعاً، ثم قطعوا أعنابهم وأشجارهم .

وهدموا منازلهم وشردوا نساءهم وأولادهـم وغنمـوا أمـوالهم وأثـاثهم وجميـع ممتلكاتهم[٣]. وقد تجرد لوصف هذا العقاب ــ على جهة الإشادة والفخر بشدة فتك الإمام وبطشه ــ الشاعر المرهبي بقوله[٤]:

فاجتاحهم في جمعه اليمانـية ... بنكبـة لم تبـق فيهم باقيـة
أتت على الأنفس والأمـوال ... ولـم يطـل تمنـع الطـيال
صبحهـم منـه عذاب مستقر ... حل بهم في يوم نحس مستمر

ومبالغةً في إذلالهم وتحقيرهم فقد أمَّر عليهم قائد الحملة الأمير محمد فرحان أحد موالي المتوكل إسماعيل[٥]، ثم جنَّد منهم السرايا للمشاركة في حرب يافع بالقوة رغـم امتناعهم السابق .

وهنا سؤال يطرح نفسه ويكمن في أن يوسف هو الـذي اقتـرف ذنـب التمـرد والعصيان وهو المستفيد في حالة نجاحه واستيلائه على السُلطة، فلماذا تركه حياً بعـد القبض عليه، وضرب أعناق زعماء خولان ؟ وإذا كانوا مستحقين للقتل فما هو الـذنب الذي اقترفه المواطنون العاديون والأطفال والنساء حتى يُنزل بهم ذلـك العقـاب وهـذا البلاء؟

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ): ٢ / ق ١١٠ب .
(٢) الحوثي : المصدر السابق ، (خ) : ١/ ق ٢٣ب ؛ زبارة : نشر العرف ،١/ ٢٩٧ .
(٣) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٢٥ب ؛ ابن المؤيد : الطبقات ، ٣/ ١٢٧٩ ؛ الشرفي : ملحق اللآلئ ،(خ) :٣/ ٦٧٤ ؛ الداعي : الدامغة الكبرى (خ) : ٢/ ص١٧٥؛ الأكوع : هجر العلم ،٣/ ١٢٥٤؛ الجنداري : الجامع الوجيز (خ) : ق ١٦١ب ؛ العابد : تهذيب الزيادة (خ) : ص١٦٢ .
(٤) أبوالرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ٢/ ق ١١٠أ .
(٥) أبوالرجال : الروض الزاهر ،(خ) : ٢/ ق١٢١ ب .

ومن خلال ما سبق يتضح أن الإجابة تكمن في عدة احتمالات منها :

١. ربما أن الإمام كان عازماً على ضرب أعناقهم جميعا فمنعه عن التنفيذ تدخل العلامة السماوي الذي كان يهابه ويخاف منه، وذلك لما يتمتع به من المكانة العلمية والدينية والمهابة بين الخاصة والعامة، داخل اليمن وخارجها ـ حسب إشارة المراجع إلى ذلك[1] ـ، فإذا لم ينته بنهيه فربما يؤلب عليه مريديه ومحبيه، وبالتالي يفسد عليه الحكم، لذلك كان يسعى لكسب وده دائما.

٢. تعاطف الإمام نسبياً مع أبناء عمومته وإنزال العقاب الأشد بالآخرين فلم يسبق أنه ضرب عنق أحد منهم رغم خروجهم المتكرر حتى خلعوه من الحكم .

٣. إن العقاب الصارم الذي أنزله على القبائل كان للعظة والعبرة للقبائل الأخرى للتخلي عن مساندة من يقوم بالمعارضة من آل القاسم ضد حكمه.

٤. إن هذه الطريقة كانت أحد أساليبه لضرب قبيلة بأخرى وتكريمه القبائل الموالية له بإباحته لهم ما نهبوه وما سلبوه من القبائل المعادية .

والخلاصة إنه استطاع بذلك التخلص من يوسف بطريقة شرعية[*]، فتحقق له الخلاص من آخر شخصية طموحة من أبناء المتوكل التي كانت مصدر قلق وزعزعة لاستقرار حكمه، وبذلك أتيحت له الفرصة لنصب شراكه واقتناص الشخصيات المتبقية من آل القاسم .

٥ ـ البطش بقبائل همدان ونفيهم إلى الهند :

يتزعم قبائل همدان[**] الحاشدية مشائخ ذو خليل، المنحدرين من أسرة سبئية عريقة، وكانت مع غيرها من القبائل المحيطة بصنعاء شمالاً ـ همدان وبني الحارث

---

(١) ابن المؤيد : الطبقات ، ٢/ ٧٠٦ ؛ ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٢٨٧ ؛ الحوثي : نفحات العنبر، (خ) : ٢/٧٣ أ ؛ زبارة : ملحق البدر الطالع ، ص١٥٧ ؛ نشر العرف ، ٢/ ١٧١ .

(*) لبث يوسف في السجن نحو(١٧) سنة، ثم كان له مشاركة في خلع الإمام آخر حكمه كما سوف نلاحظ في الفصل الرابع، ومات بعمران عام(١١٤٠هـ/١٧٢٧م) منابذاً للمنصور الحسين بن القاسم.(زبارة: نشر العرف٣/٣٧٤).

(**) ليس المراد هنا همدان الكبرى التي تمتد من صنعاء إلى نجران، وإنما المقصود بها همدان الصغرى والتي هي من أعمال صنعاء وتبعد عنها بحوالي(٢٠) كم شمالاً وهم من جشم ووادعة وبنو مكرم .(معجم الحجري : ٢/٧٥٩) .

وبني حشيش وأرحب ـ من ضمن إمارة أحمد بن الحسن، منذ أواخر عهد المؤيد بن القاسم، وقد برز دور قبائل همدان ـ بزعامة ذو خليل ـ إلى جانب الدولة القاسمية، منذ عهد المتوكل إسماعيل[1]، كما كانوا يمثلون الذراع الأيمن للقائد أحمد بن الحسن، فكان يوكل إليهم بالمهمات الصعبة، كما كان لهم السبق في تثبيت حكمه وإخماد ثورة مُعارِضَهُ الداعي القاسم بن المؤيد[2]. وبعد توليه السُلطة أمَّر عليهم ولده المحسن .

ويهمنا هنا تتبع مواقف مشائخ ذو خليل منذ بداية دعوة المهدي محمد بن أحمد ـ موضوع الدراسة ـ وذلك لكي يتضح بعض أسباب بطشه بهم، فقد رأينا مسبقا أنهم أعلنوا الولاء والطاعة له منذ بداية دعوته، ورأينا أيضاً التزامهم الحيادية في بداية انقلاب الأمراء وحصار المنصورة، وما كانت مشاركتهم مؤخراً بقيادة الشيخ صلاح بن خليل إلا مجاملة للأمير الحسين بن المتوكل، حين أكثر في الاستنجاد بهم وأجزل لهم العطاء . ورغم وصولهم إلى المنصورة أثناء الحصار إلاَّ أنهم كانوا غير مجدين في حصارهم، بل نعتقد أنهم صاروا من ضمن أسباب هزيمة التحالف، لميلهم إلى الإمام لأنهم من خاصة والده[3]، وما أن عادوا بلادهم حتى أعلنوا تجديد الولاء والطاعة له، بل مارسوا بعض الضغوط على أمير صنعاء المذكور، حتى أرغموه على سرعة إعلان تجديد الطاعة والخطبة للناصر، وكما يبدو أن الإمام حفظ الجمالة[4] لهمدان، إلاَّ أنه ربما أهمل شأن الشيخ صلاح بن خليل المذكور آنفا أو أنه اعتقله مع الأعيان والأمراء المشاركين في الانقلاب، الأمر الذي لم تفصح عنه المصادر المتاحة، لكنها أشادت بذكر شخصية جديدة على الساحة السياسية، وهو الشيخ جابر بن علي خليل .

ولقد رأينا اهتمام الإمام بهذا الشيخ إذ جعله قائداً للجيش الذي جمعه من المنطقة الشمالية وأرسله للانضمام تحت لواء عمه الحسين بن الحسن، والتقدم لحرب يافع في

(١) أبوطالب : طيب أهل الكساء، ص١١٣ ؛ معجم المقحفي : ١/ ٥٨٠ .

(٢) بنت الأمير : التطورات السياسية في اليمن في بداية القرن السابع عشر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب، ٢٠٠٤م، ص١٦٥ ، ٢٨٨ـ ٢٨٩ ؛ أبوطالب : طيب الكساء، ص١٥٨.

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٥٧أ .

(٤) تعبير خاص بأهل اليمن معناه : رد الجميل.

بداية عام (١٠٩٩هـ / ١٦٨٨م) إلا أن ثمة أسباب غامضة ـ لم تفصح عنها المراجع المتاحة ـ والتي حملت الشيخ جابر على الوقوف إلى جانب الحسين حال تمرده السالف على الإمام وعودته بتلك الجيوش من البيضاء داعياً إلى نفسه .

وبعد أن تمكن الإمام من القبض على عمه وزجه في السجن في (١٠/١/١١٠٠هـ /٣/١١/١٦٨٨م) التفت نحو أعوانه ووزعهم في السجون، فكان حظ ابن خليل سجن "صيرة عدن" وهناك نلاحظ غموض آخر في سياسة الإمام، فلم يدم غضبه على ابن خليل سوى بضعة أشهر حتى أطلقه من السجن، ويبدو أنه تزعم قبائل همدان حين سلَّطها الإمام مع غيرها من القبائل لإنزال العقوبات البشعة على قبائل خولان سالفة الذكر، والذي تم إخماده خلال شهر شوال من نفس العام .

ولا ندري كيف عادت العلاقة الودية بينهما بعد ذلك الحادث!؟

المهم أن آخر علاقة ودية بينهما كانت في(ربيع الثاني ١١٠١هـ / يناير ١٦٩٠م)، وذلك حين عمد الإمام إلى ترقية ابن خليل إلى منصب أمير الحملة التي أرسلها لرفد الحملة التي هُزمت في البيضاء[1]، وقد بالغ في إكرام المذكور ووسع في صلاحياته، وخرج بذلك على نظام أئمة آل القاسم في تخويل القيادة لأحد الأمراء من الأسرة، فكان ذلك غاية الاستهتار والاستهانة بهم، بل وزاد في إهانتهم بأن جعلهم أفراداً عاديين ضمن تلك الحملة المكونة من نحو ثلاثين ألف مقاتل تقريباً[2]، وانتزع منهم جميع الصلاحيات وأسندها للمذكور، ثم أمره باستئصال يافع وإبادتهم دون رحمة، وقيل بأنه هدده بالقتل إن تهاون في ذلك[3].

توجه ابن خليل على رأس تلك الجيوش، لتنفيذ أمر الإمام، فاجتاح البيضاء، وقتل مالا يحصى عدده من قبائل المشرق الذين تجمعوا فيها عن بكرة أبيهم ـ حتى نساءهم ـ استعدادا منهم لصد ذلك الهجوم، غير أن الجيش هزمهم وفرَّ من بقي منهم للتحصّن على "جبل العر" فتبعهم الجيش وكاد أن يكتسح الجبل لولا خيانة بعض قياداته ـ سيتم

---

(١) الضيوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ٢٤ب .

(٢) أبو الرجال : الروض الزاهر، (خ) :٢/ ق ١٢٣أ .

(٣) أبوطالب : السحر المبين ،(خ) : ق ٢٦أ .

بسطها في الفصل الثاني ـ لكنه تمكن من محاصرتهم والتضييق عليهم في الجبل حتى أذعنوا بالطاعة والاستسلام والخضوع للأوامر الإمامية. فكتبوا اتفاقية تفيد على التزام ابن عفيف بالسمع والطاعة للوالي الذي يتم تعيينه عليهم من جهة الإمام، ويتم توريد واجباتهم إلى الدولة، وان تخفق رايات الإمام في بلادهم، وكذا يتم وصول ابن عفيف وغيره من أعيانهم إلى الإمام بعد شهرين (أي بعد شهر رمضان)[١] ، وعلى ذلك لم يبق لابن خليل وغيره من الأمراء أي مسوغ لاكتساح يافع وإبادتهم، خاصةً بعد أن تم تنفيذ تلك البنود أمامهم، وتبعها وصول هدايا ابن عفيف إلى الإمام حسب الموعد، فأبدى الإمام رفضه لها ثم قبلها مؤخراً[٢].

ورغم نجاح ابن خليل في مهمته تلك إلا إنها كانت السبب المباشر لغضب الإمام عليه والمسوغ الشرعي لتتبعه حتى أنزل أبشع العقوبات به وبقبيلته، فحين بلغ الإمام تلك الاتفاقية، قطع التمويل على الجيش، وأرسل يشتم ويتوعد ويهدد ابن خليل وغيره من الأمراء وأقسم ليقتلنّه[٣]، ثم أرسل ولده المحسن على رأس حملة للقبض على بعض الأمراء وإرسالهم إليه، والذي فشل في تلك المهمة لوصوله بعد تفرقهم كل إلى بلاده، وكان من وصل إليه منهم أمر بنهبه وسجنه[٤].

أدرك ابن خليل أنه لن يفلح في تهدئة غضب الإمام، وإذا وصل إليه فإنه مقتول لا محالة، خاصة بعد أن بلغه ذلك التهديد والوعيد، إضافة إلى ما سبق قبل خروجه بالحملة، خاصةً وأن أعداءه قد أوهموا الإمام أنه تحالف مع ابن العفيف على العصيان[٥]، لذلك أسرع في تلافي نفسه بالسفر من جهة الجوف والعودة إلى بلاده[٦]، دون التعريج من الطريق المعتادة .

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر ،(خ) : ٢/ ق ١٢٦أ ؛ أبوطالب : السحر المبين،(خ) : ق٢٥ ب ؛ الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ٢٥ب .

(٢) الضبوي : نفس المصدر ، ق ٢٥ب.

(٣) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ص٦٧٤ ؛ Serjeant , R. B . and Ronald Lewcock , Sana'a An Arabian Islamic City , P ٨٣ .

(٤) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ص٦٧٤؛ أبو الرجال : الروض الزاهر ، (خ) :٢/ ق ١٢٦ب .

(٥) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٢٩ .

(٦) Serjeant , R . B . Lewcock . R : Sana'a , P ٨٣ .

وحين علم الإمام بذلك أرسل إلى ولده إسماعيل أمير صنعاء ـ حينذاك ـ يأمره بسرعة الزحف على ابن خليل وإيصاله على أي وجه كان . ويبدو أن إسماعيل كان ذا رصانة لا يحب التهور حيث اجتمع بابن خليل الذي شرح له موقفه وأبدى الطاعة، وأنه ممتثل لجميع الأوامر ما عدا وصوله إلى الإمام، فاقتنع إسماعيل بذلك وحاول إقناع والده، الذي لم يقتنع، بل كرر الرسل إليه، ولكن إسماعيل قام بخطوة أخرى لسد تلك الفجوة، وذلك بأن جمع زعماء وأعيان القبائل المجاورة ـ بني الحارث وبني حشيش وغيرهم ـ واخبرهم بتصميم والده وبأنه أقسم ليخربن ديار ابن خليل، وطلب منهم الزحف على المذكور، ولكن القبائل التزمت بالتفاوض مع ابن خليل وحل الأزمة سلمياً، حيث أرغموا ابن خليل على هدم بعض منزله تبريراً لقسم الإمام، وإرسال ولده خليل إلى سجن صنعاء كرهينة، وأن يحضر صلاة الجمعة في صنعاء[1]، كل ذلك أدلة تثبت صحة طاعته وانقياده، ورغم هذه التنازلات إلا أن الإمام لم يقتنع بها، بل أمر ولده المذكور وأخاه طالب بن المهدي بالزحف على ابن خليل[2] بدون مراجعة أو تمهل، وأتهم ولده بالمصانعة والمجاملة.

وخلال ذلك انطلقت الإشاعات ضد ابن خليل لتصبح مبررات شرعية للقضاء عليه، واستخدم لتنفيذ هدفه، الدعاية الدينية، ففي بداية الأزمة كانت تهمته بأنه السبب في هزيمة الجيش، وأنه أخذ الرشوة من ابن عفيف، التي منها جارية أهداها له أثناء الحصار[3]، وحين تعمق الخلاف انطلقت الألسن بأنه تعاطف مع ابن عفيف لاتفاقهما في المذهب الإسماعيلي الباطني، وتوالت عليه الدعايات حتى أباحوا دماء قبائل همدان ونساءهم وأموالهم وجعلوا كل ذلك غنيمة لمن يتقدم عليهم، بل جعلوا محاربتهم واجباً دينياً وجهاداً في سبيل الله [4].

(١) الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ٢٦أ ؛ أبوطالب : السحر المبين،(خ) : ق ٢٦أ.

(٢) الضبوي : عقد الجواهر ، (خ) : ق ٢٦أ .

(٣) الضبوي : عقد الجواهر ، (خ) : ق ٢٥أ .

(٤) الداعي : الدامغة الكبرى (خ) : ٢/ ص ١٧٥ـ ١٧٦ ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٢٨ـ ٢٢٩.

وهنا أدرك ابن خليل أنه لا مفر من التصدي لهذا التعنت الواضح ووجوب الدفاع عن النفس والعرض أو الموت دونهما ، فاخذ ولده من صنعاء، وعمد إلى الاستنجاد بالقبائل المجاورة، وبعد أن عرفوا موقفه وعدم قبول الإمام لوساطتهم التي اعتبروها كالإهانة لهم، اظهروا الشهامة العربية والقَبَليَةَ، وتناسوا الخلافات القبلية والمناطقية، وقاموا جميعا لدفع الظلم والجبروت الذي أبداه الإمام، وهذا ما أثار الاستغراب لدى الشاعر المرهبي معبراً عنه على جهة التسلية للإمام بقوله[1]:

فالتزمت بنصرهِ همدانُ ... والشر من أربابه معان

وإن من دسائس الشيطان ... رضا بني الحارث عن همدان

أنساهم الضغائن القديمة ... كي يقعوا في الورطة العظيمة

فاتفقوا على السداد في الخطى ... وكادت البلاد أن تقرمطا

ولكن هناك رواية تشير إلى أن ابن خليل كان يهدف من وراء عصيانه الإطاحة بالإمام وتنصيب أخيه المحسن بن المهدي إماماً، وذلك للعلاقة الودية التي بينهما[2]، وهذا لا يستبعد نظراً لتعنت الإمام الذي حمل ابن خليل على أن يبحث له عن وسيلة يتم بواسطتها إنقاذ روحه وتبرير عصيانه، وكذا لدحض الإشاعة التي كانت تستخدم ضده، وأيضاً للتنديد بظلم الإمام، لكي يكسب بذلك تعاطف القبائل، فيسهل عليه الإطاحة بالإمام وتثبيت الشخص البديل.

والجدير بالذكر هنا أن القبائل المذكورة رفضت الانقياد لأميرها طالب بن المهدي حين أمرهم بالاستعداد للتقدم على ابن خليل، تنفيذاً لأوامر أخيه الإمام[3]، بل ظهرت من بينهم قيادات كانت أكثر تعطشاً للانتقام مثل الشيخ جابر الجدري (الأشرم) أحد مشائخ بني الحارث، الذي بادر بالحرب قبل ابن خليل، وذلك حين علم بتلك الاستعدادات، التي يقوم بها طالب وغيره من آل القاسم، فباغتهم بالهجوم، وهم في الروضة، مما جعلهم يلوذون بالفرار إلى "الغراس"، فنهب أموالهم، ثم توجه نحو صنعاء، فاجتاح "الجراف"

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر،(خ) : ٢/ ق ١٢٧ب .

(٢) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٢٦ب ؛ وطيب الكساء ، ص٢٣٣.

(٣) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٢٦ب .

وأرسل إلى ابن خليل الذي وافاه في(٤ شوال ١١٠١هـ/١٠/٧/١٦٩٠م) فنهبوا تلك المناطق[١]، ثم تقدموا نحو صنعاء، وكان إسماعيل وجنده في باب شعوب، فأشتد خوفه منهم وعاد مسرعاً إلى صنعاء لتعزيز ترتيبها، حينها تداعت القبائل وضربت الحصار عليها، فتمركزت في منازل بئر العزب والسائلة وغيرها من المنازل المجاورة للمدينة، وأطلقوا النار على كل من أراد الدخول أو الخروج[٢]، وتوالت المناوشات بينهم وبين إسماعيل الذي كان ينهزم في معظمها رغم استدعائه لقبائل سنحان وبني بهلول وغيرهم من أهالي جنوب صنعاء، الذين منوا بالهزيمة حال وصولهم بئر العزب. وهذا ما أقلق الإمام الناصر فقام بحشد جميع الحاضرين لديه من الأمراء والجنود وغيرهم، حتى قيل إنه ضم إليهم شريف مكة أحمد بن غالب الذي وصل إليه تلك الأيام للاستنجاد به ضد منافسه من جهة الأتراك[٣] ـ كما سوف يبسط لاحقاً ـ، وكذا أمر ولاته أن يثب كلاً بأهل ولايته، فاجتمعت الجيوش الجرارة، عند ذلك لم تستطع قبائل ابن خليل ـ المكونة من الأربع القبائل المذكورة ـ التصدي لتلك الجموع ، فانهزموا أمامها ولاذوا بالفرار، بعد حصار دام نحو (٢٥) ليلة[٤]، وفي اليوم التالي تم القبض على جابر الجدري، وأتوا به إلى إسماعيل فأمر بضربه بالنعال حتى أغشي عليه، ثم أوثق إلى جانبه عشرة من المشائخ وأرسل بهم مكبلين إلى والده، الذي أمر بضرب عنق الجدري وثلاثة من المشائخ[*]، وأمر أن تداس جثثهم بالخيل[٥]، ثم أودع البقية في السجن[٦].

وأما جابر خليل وأخيه حسين فقد تم القبض عليهما في "وادعة"[**]، التي كانت من ضمن ولاية القاسم بن المؤيد ـ أمير شهارة ـ، فسأل الإمام الشفعة فيهما، وأن

---

(١) الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ٢٦ب .

(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢٦ب .

(٣) البهكلي : العقد المفصل بالعجائب والغرائب في دولة الشريف أحمد بن غالب، (خ) : ق ٢ب .

(٤) الداعي : الدامغة الكبرى ،(خ) : ٢/ ص ١٧٥ .

(*) كان الشيخ عبدالله بن صلاح والشيخ محمد دغيش ، والزارعي شيخ هزم أرحب من ضمن الذين ضُربت أعناقهم. (الضبوي : عقد الجواهر ، (خ) : ق ٢٧ب ـ ٢٨ب ؛ طيب الكساء ، ص٢٣٥).

(٥) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٢٧ أ ؛ وطيب الكساء ، ص ٢٣٥ .

(٦) الضبوي : المصدر السابق ، (خ) : ق ٢٨ ب .

(**) وادعة: هي اسم مشترك بين عدد من القرى والعزل والمناطق اليمنية، والمقصود بها هنا وادعة حاشد التي تعتبر القسم التاسع منه، وتقع على بعد (١٢٠ كم) تقريبا شمال صنعاء (معجم الحجري : ٢/ ٧٦١. معجم المقحفي : ٢/ ١٨٤٤) .

يخوله أمر عقوبتهما، فأجابه الإمام إلى ذلك في البداية، وأوهمه أنه من ذوي المكانة الرفيعة لديه، وبعد أيام أرسل بعض الجند للإتيان بهما من سجن القاسم[1] ـــ وبدون معرفته بذلك ـــ، فلما وصلا إلى صنعاء في(٢٢ذي القعدة) أمر بضرب أعناقهما بعد أن طيف بهما في شوارع المدينة على جهة التعزير، وأمر السياف أن يأتيه برأسيهما للتأكد من صحة قتلهما[2].

ويأتي بعد ذلك دور الانتقام البشع من تلك القبائل المساندة لابن خليل باستباحة بلادهم وفرض الغرامات المالية عليهم، أما قبيلة همدان فكان العقاب النازل عليها مختلفا عن غيرها، حيث أنزل عليهم جميع أنواع العقوبات من هدم منازلهم ـ وخاصةً حصونهم الأثرية ـ واستباح أموالهم، واستصفى ضياعهم، وأهدر دماءهم، وسبى نساءهم وأولادهم ، وبعد أن أنزل بهم كل ذلك أمر بجمع من بقي منهم وخاصةً فقهاءهم ونفاهم إلى الهند[3] ، وكان من ضمنهم خليل بن جابر خليل، الذي استطاع التخلص من المركب حال وصولهم ميناء "الشحر" بحضرموت، وأتجه للاستنجاد بيافع ، الذين جهزوه على رأس حملة لمساندة ابن شعفل فتمكن بواسطتها من هزيمة جيش الإمام وقتل الكثير من جنوده وأمرائه [4] .

ورغم تلك العقوبات الجسيمة إلا أن الكثير من معاصريه أشادوا بالناصر وضربوا به المثل واعتبروا ذلك منجزا كبيرا، وفخرا عظيما، ونصراً للدين الحنيف، ويجدر بنا هنا أن نستشهد ببعض الأبيات من قصيدة لأحد المعاصرين للأحداث[5]، وذلك لما تحمله من معان كثيرة تعبر عن واقع الحال والتعصب المذهبي السائد في تلك الفترة:

فخار للجنود الناصرية	بما صنعته في الفئة الشقية
أراد الباطنية أن يقوموا	لهدم الدين بالبدع الخفية

(١) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٢٧ أ ؛ العابد : تهذيب الزيادة ، (خ) : ص١٦٤.
(٢) الضبوي : المصدر السابق، (خ) : ق ٢٨ ب ـ ٢٩ أ .
(٣) الداعي: الدامغة،٢/ ص١٧٥؛ الضبوي: نفس المصدر، ق ٢٨أـ٢٩أ؛ أبوالرجال: الروض الزاهر(خ) :٢/ ١٢٩أ.
(٤) أبوطالب : السحر المبين ،(خ) : ق ٢٧أ – ب .
(٥) الداعي : الدامغة الكبرى ،(خ) : ٢/ ص ١٧٦.

ويطفـوا نـور ربهـم بجهـل	وما يخفـون مـن كتـب رديئـة
وظنـوا أنهـم خـصوا بنـصر	علـى أهـل العلـوم الفاطميـة
وحطوا حول صـنعاء دون شـهر	ورعـوا أهلهـا بالباطنيـة
وجاءوا بـالجيوش إلـى حماهـا	وأبـدوا عنـدها الفـتن العميَّـة
وعـاثوا فـي نواحيهـا بجهـل	وحطـوا فـي مـساجدها الأذيـة
فعـاجلهم محمـد نـا بجـيش	أجش كمثـل سـيل فـي عـشية
وأوسـع فـيهم قـتلاً وأسـراً	وسـبياً ثـم طـوقهم بليَّـة
أبـاح بلادهـم وسـبى نـساهم	لمـا أبـدوه مـن خبـث الطويـة
وملَّـك بعـض أراضـيهم أناسـاً	بغـوا فـيهم بأفعـال دنيـة
وأصـبح جـابرٌ فـيهم خلـيلاً	لحفرتـه وكـان لهـم [بليـة][1]
يـرون بقولـه إن قـال قـولاً	ويـروون الأمـور الفلـسفية
فقـادوه إلـى صـنعاء أسـيراً	وحـزوا رأسـه بـين البريَّـة
كـذا الجـدري والرؤسـاء مـنهم	تنـاولهم بأسـياف قويـة
فحـسب الناصـر الملـك المعـلا	إصـابة سـهمه قلـب الرميـة
وفتكتـه بهـم عجـلاً بحـدٍ	ونفـيهم عـن الفـرق العليَّـة
كمـا فتكـت مواضـيه بقـوم	وكلهـم مـن الفـرق اللغويـة
كأهل الجبـر مـن قـوم تـسموا	جميعـاً فـي الـورى بالـشافعية

والخلاصة أن هذه الحادثة مثل حادثة بطشه بقبائل خولان السالفة، كـان الهـدف منها إظهار القوة وشدة البطش، للعظة والعبرة لمن في نفسه أثر النزعـة للمقاومـة، وهدم حصونهم المنيعة خوفا من لجوء أحد المعارضين إليها فيتكـرر العـصيان، ولـم تختلف عنها سوى في نقطتين هما :

الأولى :ــ ظهور تعنت الإمام الصريح على ابن خليل دون مبرر يستدعي ذلك وقد رأينا كيف أن المراجع أثبتت نجاح ابن خليل في مهمته، حيث تمكن من إخضاع يـافع،

(١) كلمة غير واضحة في المخطوط لعلها بلية.

لذلك لم يكن هناك مبررات لذلك التعنت، ولكن هناك عدة احتمالات يمكن أن تكون حلولاً جزئية لتلك التساؤلات التي تثار لمعرفة مبررات ذلك التعنت منها:

أ ـ إحساس الإمام بالعظمة وأنه ليس فوق يده يد خاصة بعد أن استطاع البطش بمناوئيه من الأمراء، وإذلال من تبقى منهم على ولاياتهم، وان ابن خليل ليس بأفضل وأقوى من أبناء عمومته الذين أخضعهم وأذلهم، حتى يمتنع من الوصول إليه، لذلك أخذته العزة .

ب ـ علم الإمام السابق بخصوبة أراضي بلاد همدان ومواردها الغنية لذلك تعمد للتعنت على ابن خليل ليأخذه بالأسباب، حتى يتسنى له مصادرة أموالهم وامتلاك أراضيهم، أو بمعنى آخر ملَّكها أُناساً تحت طوعه يأخذ منهم ما يريده دون اعتراض منهم أو ممانعة، ونعتقد أن هذا أقرب للحقيقة، كما نوه بذلك الداعي في قصيدته المذكورة ، وكذا لاحتياجه دائما إلى المال .

الثانية :ـ أنه استخدم فيهم ـ إضافة إلى هدم المنازل ومصادرة الأموال وسبي الذرية ـ النفي الجماعي إلى الهند والصين، وهذه الطريقة كانت أول من استخدمها من آل القاسم ـ على حد علمنا ـ. وكان ذكياً جداً حال استخدامها،لأنه لم يجرؤ على ذلك إلاَّ بعد استخراج فتوى شرعية من العلماء[1] ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الإمام سرعان ما استعطف قبائل همدان وذو خليل أنفسهم واستعادهم للخدمة لديه رغم كل تلك المبررات التي اختلقها للتنكيل بهم ومعاقبتهم ـ كما سوف نلاحظ ذلك في فصل لاحق .

٦ ـ اختطاف الأمير القاسم بن المؤيد ومصادرة أمواله:

لم يتوان الإمام الناصر في بسط شباكه لقنص القاسم بن المؤيد أمير شهارة والشرفين وبعض بلاد حجة خاصةً وأن وفاة الحسين بن محمد أبوطالب ـ أمير عمران ـ في بداية عام(١١٠١هـ / ١٦٨٩م) قد سهلت هذه المهمة[2]. ويبدو أن القاسم قد أهّل نفسه لمنصب الإمامة خاصةً بعد أن قام عمه المتوكل بتقليص نفوذ أولاد أخيه

(١) الضبوي : عقد الجواهر (خ) : ق ٢٨ أ .

(٢) الشوكاني : البدر الطالع : ١/ ٦١٩ ؛ أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق٢٥ أ ؛ طيب الكساء : ٢٢٧ .

المؤيد وذلك بتولية ولده أحمد لولاية شهارة وما حولها عام (١٠٨٢هـ) (١) ، لذلك فلا يستبعد أن القاسم قام بزيارات ميدانية لعرض نفسه بين القبائل مما أكسبه مكانة دينية وسياسية وعقائدية في المنطقة الشمالية ، وهذا ما أثبتته تجربة دعوته الأولى منافساً للمهدي أحمد، التي انتشرت في المناطق الشمالية بسرعة فائقة، مما أثار خوف المهدي وجعله يتقدم بنفسه لإخضاعه عسكرياً، لكن القاسم لم يتنازل إلا بعد إذعان المهدي لشروطه التي تكمن في توليته شهارة وبلادها وتسديد مديونية الحرب (٢)، وهذا ما جعله يستعيد نشاطه بسرعة ليعلن دعوته للمرة الثانية معارضاً بها المؤيد الصغير، غير أن هذه المرة لم يستخدم فيها الحرب لميل الأخير إلى الحل السلمي تجنباً لسفك الدماء، إضافة إلى ميل الرأي العام والخاص نحو المؤيد، لذلك أجتمع به مع غيره من الطامحين في مدينة خمر، وتمت البيعة للمؤيد بعد أن بذل الأموال والزيادة في الولايات ، فتوسعت بواسطتها ولاية القاسم وعظم ملكه، الأمر الذي جعله يحاول الوثوب على السلطة منذ مَرَضَ المؤيد الذي توفى فيه، ورغم إخفاق محاولاته المتكررة إلا أنه لم يبايع الإمام الناصر إلا بعد أن حصل منه على امتيازات عديدة فكان آخر الأمراء المبايعين(٣).

وإذا ما تتبعنا موقفه من تحالف الأمراء وانقلابهم على الإمام الناصر على حسب ما كتبه راصد الأحداث حينذاك ـــ المؤرخ يحيى بن الحسين ـــ لوجدناه يلعب دوراً خطيراً لصالح نفسه، وعمل له خط رجعة لدى طرفي النزاع ليضمن بقاءه على ولايته ويحافظ على مكانته لدى المتفوق منهما في حالة فشل مسعاه للاستحواذ بها لنفسه، فمن جهة الناصر فإنه كان يتظاهر باستمرار موالاته، إلا انه لم ينجده بإرسال جيش أو مال، وكذا لم يحاول الهجوم على التحالف من الشمال، وكما يبدو أن الناصر عرف منه ذلك التلاعب إلا أنه تغاضى عنه لعدم وجود البديل، ولعدم انضمامه صراحةً إلى التحالف، فتعامل معه أثناء حصاره بأنه موالٍ . ومن جهة التحالف كان يشير إلى أنه معهم ويحرضهم ضد الناصر إلا أنه لم يساندهم بالمال والرجال، رغم تكرر رسائل

---

(١) ابن الوزير : طبق الحلوى : ٢٧٩ ـــ ٢٨٠.

(٢) انظر : فصل التمهيد ، ص٣٩ وما بعدها.

(٣) انظر : ما سبق من هذا الفصل ، ص٧٣ وما بعدها.

الحسين بن المتوكل إليه يطلب منه المدد فكان يتعلل ويوعُد بأنه سوف يرسل وانه في حال الإعداد لذلك . أما من جهة نفسه : فقد رأى بأنه الأولى بالإمامة، وقد ظهر ذلك منه حين سمع بتشديد الحصار على المنصورة، وأتهم على وشك القبض على الإمام، حين ذلك أظهر مكنونه واستنكر من اعتراف الناس بإمامة يوسف ودخول البلاد تحت طاعته متعللاً بحداثة سنه، فكثَّف نشاطه ولعله عمل كل ممكن لتحقيق الاقتراح الذي طرحه أمير صعدة ــ علي بن أحمد ــ حين أشار بضرورة الاجتماع مع أمير رداع ــ الحسين بن الحسن ــ ويتنازل عن دعوته ويُسَلّموا جميعاً للقاسم ويكونوا يدا واحدة، عند ذلك كتب القاسم إلى الناصر رسالة تأسيًا له وينصحه فيها بالصبر والتحمل، ويقترح عليه بالدعوة إلى عقد اجتماع للنظر فيما يُسَكِّن ثائرة الفتنة، فأسعده الناصر بالموافقة على شرط أن يتم الاجتماع في مكان متوسط، وأنه طالب للشريعة، وأن الأمور التي احتجوا بها عليه قابلة للنقاش، ويبدو أن القاسم استبشر بذلك فحث أمراء التحالف على الاجتماع، وعرض عليهم موافقة الناصر، كل ذلك ليتم التفاوض فيما بينهم، فتجتمع أراء جميع الأطراف على تنصيبه للإمامة، على حسب تنسيقه السابق مع الأمراء، ولكونه المؤهل لذلك، وأنظار الأعيان شاخصة إليه، غير أن الأمراء أفشلوا مسعاه، برفضهم للاجتماع، لظنهم أن الناصر صار في متناول أيديهم [1].

وبعد انتصار الإمام على التحالف أرسل بالبشرى إلى القاسم وأخيه أحمد فأظهرا الاستبشار، فقام أخوه أحمد ــ أمير وادعة ــ بإرسال رسالة إلى أمير عمران الحسين بن محمد أبوطالب يخبره فيها بسرعة الدخول في طاعة الناصر و إلاَّ فهو متقدم لحربه[2]، وهذه الحركة كرسالة إلى الناصر تُعبّر عن استمرارهما في الموالاة، فيحصلا بواسطتها على مكانة خاصة لديه .

وحينما استقر الإمام في ذمار وصوَّب سهامه نحو يافع لإخضاعها، أسرع القاسم في إرسال حملة بقيادة أحد أولاده لمساندته، مما جعل الإمام يكافئه برفع يد القاسم بن

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٥٠ب ــ ١٥٥ ب.
(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٥٩ ب .

المتوكل من "السودة"(*) وضمها إلى ولايته، وكذا منحه إيرادات بلاد عفـار[١]. وهكـذا استمرت الموادعة والمسالمة فيما بينهم إلى بداية عام(١١٠٠هـ/١٦٨٩م)، حيث أظهر الناصر بعض حقده المدفون منذ حصار المنصورة، وذلك حين أعـرض عـن اسـتقبال الأمير أحمد بن المؤيد، الذي وصل لزيارته، وربما لتهنئته بمناسبة نجاحه في القـبض على عمه الحسين في العام نفسه، لكن الإمام احتجب عنه وامتنع عن مقابلته، وأمـره بالنزول إلى ذمار فتوفى بها بعد ثلاثة أيام من وصوله متأثراً بجفوة الناصر[٢].

من خلال ما سبق يتضح أن التعامل بينهما كان سطحياً، وأنَّ كـلاً منهمـا يـود التخلص من قرينه،إلا أن القاسم لم يملك القدرة على ذلك، أما الناصر فلعله تأخر عـن الإطاحة به تلك المدة نظرا للحاجة الداعية إليه، ولانـشغاله عنـه بتـصفية المنـاطق الجنوبية والوسطى، وبعد أن تم له ذلك لم تبق إلا المنطقة الشمالية ــ الـشرقية منهـا والغربية ــ، فوصل الدور أخيراً على القاسم السابق ذكره. وكما هي عادة الإمام إذا أراد الإيقاع بمن يريد فإنه يختلق المبررات، ليصبغ عمله بصبغة شرعية أمام الـرأي العـام والخاص، ومن المحتمل أنه احتفظ بعدة هفوات على القاسم كان أهمها :

١. الإهمال الذي عُرف به القاسم بن المؤيد، فبالرغم من شـهرته العلميـة وكفاءتـه السياسية إلا أنه كان يهمل شئون إدارة ولايته ويترك إدارتها إلى حاشـيته وأولاده ومن يلوذ به من الفقهاء والأمراء ومشايخ القبائـل، دون متـابعتهم ومحاسـبتهم، فكانوا يتسلطون على الرعية وينزلون بهم أنواع المظالم، فصار بذلك موضع انتقاد بعض معاصريه، حيث انتقده الشاعر سعيد السمحي(ت: ١١٢٢هـ/١٧١٠م) ــ أيام لجوئه عنده ــ حين رأى تسلط الفقيه حسن شملة على القاسم وبعض المظالم التي صدرت منه، فصاغ بيتين من الشعر مورياً بالشملة التي هي العباءة ولقب الفقيـه فقال :

(*) السودة : تسمى سودة شظب وهي مديرية من مديريات محافظة عمران ، تقع شمال غرب صنعاء وتبعد عنها بنحـو (١٣٠) كـم . (معجم الحجري: ٢/٤٣٤) .

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٧٣ أ .

(٢) ابن عامر : بغية المريد،(خ): ص١٦٩ .

شـــــمِّر عزيمـــــة ماجــــــد وأحفـــظ بهـــا الأقطـــار جملـــه
أو فاطّرحهـــــا وأعتــــــزل وأقنــــع مــــن الــــدنيا بــــشمله[1]

كما تعرض لانتقاد العلامة يحيى بن الحسين، عندما سمح للجنود بالإقامـــة فـــي منازل أهالي خمر حين وصل إليها عام ١٠٩٧هـــ ـــ كما ذكرنا ــ ، وكذا انتقده على تلك المظالم التي تقع من جراء فرض العقوبات المالية دون التحقق مـــن المـــشكو بـــه والمناظرة بينهما[٢]. في حين اتفق المؤرخون أن سبب عزله يكمن في تراخيـــه وعـــدم تحليه بالعزم والحزم في تدبير إدارته، إلا أنهم لم يفصحوا عن نوع الأشـــياء الـــصادرة منه، والتي كانت سبباً مباشراً في القبض عليه[٣]، ماعدا صاحب الدامغة الذي أشار إلى إهماله طريق العمشية[*][٤]، ولعلها من أقوى مبررات الإمام لقتـــصه نظـــراً لأهميتهـــا خاصةً وأن والده المهدي أحمد دفع حياته في سبيل تأمين تلك الطريق[٥].

٢. تراخي القاسم في تعزيز قوة الشريف أحمد بن غالب حال تجهيز الإمام له لاستعادة ولاية مكة فقد أصدر الأمر إلى أمراء المنطقة الشمالية بتجهيز كل واحد منهم ألـــف جندي للمشاركة مع الشريف[٦]، ولم تشر المراجع إلى تجهيز القاسم للمذكورين .

والواقع أن الإمام المهدي كان مصمماً على التخلص من القاسم سواءً أكانت هنـــاك مبررات أم لم تكن وذلك لعدة أسباب منها :

١ – خوف الإمام الشديد من طموح القاسم للإمامة لكونه أكبر آل القاسم سناً وللمكانـــة العلمية التي يتمتع بها، وميل الأعيان إليه، كما أشار إلى ذلك الـــشاعر المرهبـــي منوهاً بمبررات القبض على القاسم في قوله[٧]:–

(١) الحوثي : نفحات العنبر ، (خ) : ٢/ ق ٢٠ب ؛ زبارة : نشر العرف. ١/ ٧٣٩ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣ / ق ١٢٤ب.

(٣) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ١٧٤؛ الحوثي : نفحات العنبر،(خ) : ٢/ ق٨٥ أ ؛ البهكلي: العقد المفصل (خ) : ق ٣أ ؛ الداعي : الدامغة الكبرى (خ): ٢/ ص١٧٠ ؛ أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ) : ٣/ ق١٧١ ب .

(*) العمشية : بلده إلى الشمال من صنعاء ، ومنها طريق القوافل التي تربط الشام بميناء اللحية. (معجم الحجري : ٢٤٠٢) .

(٤) الداعي : نفس المصدر ، (خ) : ٢/ ص ١٧٠.

(٥) أبوطالب : طيب الكساء، ص١٧٨

(٦) البهكلي : العقد المفصل ، (خ) : ق٢ ب .

(٧) أبو الرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ٣/ ق ١٧١ب .

وذاك أن سـيد الأئمـة — وناصـر الحـق عظـيم الهمـة
عـاب علـى كبيـرهم أشـياء — ضـمنها الرسـالة الرقطـاء[1]
دلت على ضـعفٍ وفـرطِ لـين — مـع علـو كعبـهِ فـي الـدين
وكونـه المرشـح المؤمـلَ — وعـالم الآل بإجمـاع المـلا
وأن علماً لـم يـصاحبه العمـل — فإنه والجهل فـي أسـوأ محـل

٢- شعور الإمام بان القاسم ما زال يشاركه في الحكم وذلك حين طلب الشفعة لابـن خليل ــ سالف الذكر ــ لذلك أحسّ بأنه لن يتمكن من الاستقلالية حتى يتم له أخذه .

لهذا وذاك فقد رغب في التخلص منه بطريقة سلمية وبدون إثارة الناس وخوض الحروب، وربما أنه استفاد من التجربة التي سلكها في القبض على عمه ــ الحسين بن الحسن ــ ، لذلك عمل على اختطاف القاسم من مركزه المنيع، حيث أرسل أخاه طالـب ابن المهدي (ت : ١١٠٦هـ /١٦٩٥م) للضيافة في شهارة وفـي البـاطن لولايتهـا، وأصحبه بالأموال الكثيرة وأمره أن يجزل العطاء للقاسم وللأعيان والمشايخ ومن يلـوذ به، ويؤمنه حتى إذا ما أمِن أرسل إليه[2]، وكما يبدو فإن القاسم اطمئن إلى الـضيف ! ولم تساوره الشكوك حول مقصد الزيارة، وأتضح أنه لم يستفد من الدرس الـذي وقـع لصديقه وابن عمه "الحسين بن الحسن" فترك الحيطة والحذر، حينها كتب طالـب إلـى أخيه الإمام بذلك، فلم تمضِ سوى أيام قليلة حتى وصل الأمير سلمان مع بعض العساكر ودخلوا المدينة ليلاً، وأيقظ القاسم من نومه وصافحه، ثم قال : "إن هذه الكف مـأمورة بأن لا تفارق هذه الكف إلا في المواهب"[3]، وقد بالغ بعض المؤرخين في صفة تـشديد سلمان على القاسم حتى قيل إنه لم يمهله حتى يمسح وجهه بيده[4]، ثم أركبه على بغلة

---

(١) الرقطاء : ما يلمع فيه السواد والبياض، وهي من أسماء الفتنة لتلونها، وقيل المظلمة التي تعم، وقيل اسم دويبة من أخبث العُظاة إذا وقعت على طعام سمته وهي الأفعى.(أنظر: لسان العرب).

(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢٧ ب .

(٣) زبارة : نشر العرف : ٢/ ٣٣٣ ، لعل قلم الكاتب قد زلّ عندما ذكر المواهب هنا لأن الإمام كان حال هذا الحدث في رداع ولم يبني المواهب إلا في عام ١١١١هـ .

(٤) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٢٣٦

وأوصله إلى سجن صنعاء، في شهر(صفر ١١٠٢هـ/١٦٩٠م)[١] ، فمكث فيه نحو(١٣) سنة، ولم يتم إطلاقه إلا في عام (١١١٥هـ/١٧٠٣م) وأمره بالإقامة الجبرية فيها، في منزل شراه له، وأهداه جارية، ومنحه إيرادات بلاد الروس ــ إحدى نواحي صنعاء ــ وأكرمه بما يستحقه[٢]، فمال إلى الاستقرار حتى توفّى بها في(٦/٧/ ١١٢٧هـ/٩/٦/١٧١٥م)[٣] بعد أن رأى ملامح دولة ولده المنصور الحسين آتي الذكر.

وبعد ذلك أمر أخاه طالباً بمصادرة جميع أموال القاسم، وإرسالها إليه، و أيضا ألقى القبض على أصحابه ومناصريه من أهالي شهارة وأرسل بهم تحت الحفظ إليه، فنكّل بهم ووزعهم في السجون "وجرعهم كؤوس البؤس"[٤] إضافة إلى نفي بعضهم من البلاد .

٧ ـ فرار أمير اللّحية والاستحواذ على أمواله :

في نفس الوقت الذي تمت فيه إجراءات اختطاف القاسم بن المؤيد، كان الإمام يعمل الإجراءات اللازمة للتخلص من الأمير الحسن بن المتوكل، أمير تهامة ــ من أبي عريش إلى بيت الفقيه وزبيد بما فيها بلدة اللحية التي جعلها مركزاً لإمارته[٥]، ولقد تعرضنا للكثير من أدواره السياسية والإدارية منذ أن أرسله والده المتوكل على رأس حملة لتقليص نفوذ علي بن أحمد عام(١٠٧٩هـ/١٦٦٩م)[٦] ، وما رافق ذلك من أحداث إلى أن تم استقرار الناصر على الحكم، فاتضح من خلال ذلك أنه كان قياديا بارعا لا يقل شأناً عن أقرانه من أمراء مراكز القوى، كما اتضح أنه كان أكثر أبناء المتوكل إخلاصاً للناصر وإن دعا إلى نفسه بعد وفاة أخيه المؤيد ثم شايع أخاه يوسف إلا أنه بايع الناصر بعد سيطرة الأخير على جبلة ثم عاد إلى ولايته، ومن ثمَّ استمر على طاعته

(١) ابن المؤيد : طبقات الزيدية ، ٢/ ٨٦٩ ؛ البهكلي : العقد المفصل، (خ) : ق ٣ أ .

(٢) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص١٧٤ .

(٣) ابن المؤيد : نفس المصدر ،٨٦٩/٢ ؛ الحوثي : نفحات العنبر،(خ) : ٢/ ٨٥ أ ؛ الأكوع : هجر العلم، ٢/ ١٠٨٨.

(٤) أبوالرحال : الروض الزاهر ، (خ) : ٣/ ق ١٧٢أ .

(٥) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٤٢٧ .

(٦) انظر : التمهيد ، ص٣٣ وما بعدها.

أثناء حصار التحالف للناصر في المنصورة، وإن لم يسانده لكنه حاول ضم أطراف ولاية أخيه الحسين إلى ولايته، ثم أرسل تجديد بيعته للناصر بعد فشل التحالف، وفي بداية عام(١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م) تقدم لزيارة الناصر لكن الأخير أمره بالعودة من قريب ذمار إلى ولايته على أن يوافيه بالمال والجنود لحرب يافع فامتثل للأمر، واستمر على طاعته حتى أنه لم يتدخل حين أوقع الإمام بعمه الحسين وبيوسف بن المتوكل(١)، ورغم كل ذلك إلا أن الناصر صمم على قنصه مستخدماً ثلاث خطوات يمكن إيجازها على النحو التالي:

تكمن الخطوة الأولى : في مطالبة الإمام المتزايدة للأموال التي استمر في طلبها حتى عجز الحسن عن تحصيلها، ورغم تكلفه ما لا يطاق(٢) إلا أنه استمر في إرسال الأموال والهدايا إلى الإمام حتى قبيل فراره بأيام قليلة، ولعل هدف الإمام من تكرار طلب الأموال يكمن في إضعاف الحسن مادياً حتى يسهل عليه اقتناصه متى أراد، أو ليختبر مدى مصداقيته وإخلاصه، أو لشدة احتياج الإمام للأموال لتغطية نفقات الحروب التي يشنها على المنافسين وحروبه في يافع، أو لتلك الاحتمالات مجتمعة .

وتكمن الخطوة الثانية : في التحرش به وتقليص ولايته، وقد أتضح ذلك حين قام الإمام عام(١١٠٠هـ / ١٦٨٩م) بتكليف أمير كوكبان أحمد بن الناصر بن عبد الرب بالتوجه إلى بيت الفقيه لتفقد بعض أمورها، وهي من ولاية الحسن، وهذا التدخل يعتبر نوعاً من تقليص نفوذه، غير أن الأمير المذكور لم يوفق، لاستدعاء الناصر له قبل وصوله المنطقة، بسبب انقلاب عمه المذكور(٣)، إضافة إلى إنه وهب بعض أراضي وعقارات الدولة لقبائل تهامة، كما فعل ذلك مع قبائل بني صليل(*) وتمليكهم وادي سردد المشهور بموارده الزراعية الكثيرة(٤)، غير أن المصادر لم تفصح عن موقف الحسن من ذلك، ولكن ظهر مدى قوة تحمل الحسن للمشقة الصعبة ومدى إخلاصه في نهاية شهر

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن،(خ) : ٣/ ق ١٧٣ب ؛ ابن عامر : بغية المريد،(خ): ص ٤١٨ ؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٤٥٧ ؛ وانظر : ما تقدم من هذا الفصل .

(٢) ابن عامر : نفس المصدر ، (خ) : ص ٤١٨ .

(٣) الكوكباني : المواهب السنية ،(خ) : ٢/ ص ٦ .

(*) بني صليل بطن من قبيلة علك يسكنون بلاد باجل بتهامة . (معجم المقحفي : ٩١٨/١) .

(٤) أبوطالب : السحر المبين . (خ) : ١/ ق ٣٠ ب .

(ذي الحجة ١١٠١هـ/٢/١٠/١٦٩٠م)، وذلك حين أرسل الإمام الشريف أحمد بن غالب على رأس حملة كبيرة لغرض استعادة ولاية مكة، وفي الواقع أميراً على ولاية أبي عريش، ثم أمر الحسن أن يعزز تلك الحملة بألف فارس وبما تحتاج إليه من التموينات العسكرية اللازمة ، ورغم تنفيذ الحسن لتلك التوجيهات حال وصول الشريف إليه، إلا أن الأخير طالت إقامته لدى الحسن نحو شهرين، حتى ضاق ذرعاً منه لكثرة النفقات التي صرفها على الشريف وجيشه، ولعل التطويل في الإقامة كان بإيعاز من الإمام لغرض الضغط على الحسن، وخلال ذلك أمر الإمام بتوقيف السفن ومنعها من نقل الحجاج والتجارة[1]، مما زاد في قلق الحسن وحيرته في التصرف نحو هذه المشكلة، ورغم كل تلك المضايقات إلا أنه تحملها ولم يصدر منه أي تصرف يوحي بالعصيان وعدم الطاعة .

الخطوة الثالثة : إرسال حملة للقبض عليه، وذلك بعد أن أرسل الحسن بهدية إلى الإمام، لعله يكسب بها رضاه فيطلق السفن ويخفف عليه تلك الضغوط ، وحين عاد الرسول من عند الإمام أخبره أنه أرسل حملة كبيرة بقيادة علي بن الحسين بن المهدي، وهي في طريقها للقبض عليه[2]، حينها أدرك الحسن أن الدهر قلب له ظهر المجن، ولا مفر له من إحدى ثلاث : إما المقاومة حتى الموت، أو تسليم نفسه والصبر على مرارة السجن، أو الفرار، ولم يسعه إلا أن جَمَعَ أهله وأمواله وركب السفينة ليلاً في (١/٣/١١٠١هـ /١٢/١٢/١٦٨٩م) تاركاً ولايته والبلاد للإمام ، فوصل جدة، ومنها واصل رحلته إلى مكة المكرمة ، ليلحق بالأمراء الذين فروا في العام الذي قبله ، وقد أبدى أحد معاصريه استغرابه من فراره إلى حضرة من جهز الجيوش لحربهم بالأمس "وكأن عقله ذهب عنه أو غاب وهكذا الأقدار تُذهِب عند نزولها عقول ذوي الألباب"[3]، ولعل تجهيزاته السالفة ضد الأشراف قد دفعتهم للتآمر عليه، إضافة إلى مكيدة الإمام ووزيره

(١) البهكلي : العقد المفصل ، (خ) : ق ٣ أ ؛ الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص ١٧٦ .
(٢) أبو الرجال : الروض الزاهر، (خ) : ٣/ ق ١٧٢ب ــ ١٧٣ أ .
(٣) البهكلي : العقد المفصل ، (خ) : ق ٣ ب .

حسين الحيمي حيث كتبوا إلى أشراف مكة يخبروهم "بقبض الصرّ (*)المعتاد من الحسن"[1]، لهذا لقي منهم أنواع الإهانات، وكادوا يبطشون به لولا أنه استنقذ نفسه وأهله، بما بذله من الرشوة، ثم قفل راجعاً إلى بلاده بعد مضي خمسة أشهر، وحين سمع الشريف أحمد بن غالب وصوله منعه من دخول ميناء "جازان"، فصام رمضان في البحر، وبعد تلك الشدة قرر الذهاب إلى الإمام والنزول على حكمه، الذي أشفق عليه حين سمع بحاله وأمر أن يسكن ذمار بدون أن يجتمع به[2]. وهناك رواية أخرى تشير إلى أن الإمام أرسل للقبض عليه مع أصحابه حال سماعه بنزوله على الساحل، وأمر بإيداعه سجن ذمار، وبعد مدة أطلقه، وأمره بالاستقرار بها مع أهله[3]، فمال إلى العزلة ولم يمارس أي نشاط يذكر حتى وفاته في (٢٨/٤/١١٠٨هـ /٢٣/١١/١٦٩٢م)[4].

أما تلك الحملة التي توجهت إليه فقد قام أميرها بنهب ما بقي من أثقال الحسن وأمتعته، ثم أمر بالقبض على مرافقيه وأتباعه وأرسلهم إلى الإمام الذي قام بتوزيعهم في السجون[5]، وبعد مرور أيام أسند ولاية الحسن إلى الشريف أحمد بن غالب فوقعت بينه وبين الإمام أحداث كثيرة سوف نتعرض لها فيما بعد .

وكانت نتائج فرار الحسن هي النتائج نفسها التي تحققت من القبض على القاسم ابن المؤيد، حيث حصل الإمام على أموا لهما وأسند ولايتيهما إلى أمراء يثق بهما، ومن جهة ثانية صارتا من أسباب خروج علي بن أحمد بدعوته واكتساحه للمنطقة الشمالية حتى حط على أسوار صنعاء وذلك لشدة ذعره وخوفه من بطش الإمام، وهذا ما سوف نناقشه خلال هذه الصفحات .

(*) الصرّ أو الصرة : هي أموال وهدايا كان الإمام أو السلطان يرسلها صحبة أمير الحج إلى أشراف مكة ، وذلك مقابل خدمة الحجاج وتأمين الطرقات ، وكان يشفعها ببعض الصدقات يوزعها الشريف على فقراء مكة حسب نظره ، كما سيتضح خلال الفصل الخامس من هذا البحث.

(١) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٣١ أ ؛ وطيب الكساء ، ص٢٤٦ .

(٢) البهكلي : العقد المفصل ، (خ) : ق٣ ب ـــ ٤ أ.

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ٣/ ق ١٦٠أ– ب .

(٤) زبارة : نشر العرف : ٤٦٢/١ .

(٥) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٣/ ق ١٧٣ أ .

٨ ـ إخضاع علي بن أحمد أمير صعدة :

يعتبر الأمير علي بن أحمد بن الإمام القاسم آخر أمراء الجيل الثالث، وكان يفوق أقرانه علمياً وسياسياً وعسكرياً، وأشدهم مكراً ودهاءً وطلباً للسلطة، وأسبقهم تجربةً في مجال الإمارة، فقد عينه المتوكل أميراً لولاية صعدة خلفاً لوالده المتوفَّى عام (١٠٦٦هـ /١٦٥٦م) وهو صغير السن لم يتجاوز حينها السابعة عشرة من عمره[١]، لذلك فقد برز طموحه مبكراً ، حيث حرص على جمع الأموال وتكوين الجيوش، وتمكن من تنمية قدراته العسكرية والمالية والسياسية حتى صار من أكبر مراكز القوى، فكان أول من أظهر التصدع في كيان الدولة القاسمية، وهي في مظاهر تقدمها، عندما أعلن دعوته في آخر حكم عمه المتوكل وتلقب بالمنصور، التي كانت بمثابة الضربة القاصمة لعمه وتسببت في وفاته على ما يبدو. لكنه تراجع عن دعوته وسالم المهدي أحمد الذي أقطعه زيادة على ولايته، وكذلك ساوم المؤيد بن المتوكل على المزيد من الولاية والإيرادات حتى قوي شأنه[٢]، فأعلن دعوته الثانية متلقباً بالمتوكل، ومنافساً للناصر غير أنه اضطر للمبايعة نظراً لعدم نجاحه في التنسيق مع آل القاسم، ولسيطرة الناصر على جبلة وزحفه على بقية المناطق[٣].

لكنه سرعان ما تراجع عن موالاته معلنا دعوته للمرة الثالثة رافضاً الانضمام إلى التحالف، فأرسل دعوته إلى الناصر طالباً منه الإجابة وذلك حال شدة الحصار المضروب عليه في(٢٠/٤/ ١٠٩٨هـ /٤/٣/١٦٨٧م)[٤] ، ثم عزم على التقدم لتثبيت دعوته خارج ولايته جنوباً لولا أن اعترضته بعض الظروف منعته عن ذلك، كان أهمها المرض الذي ألمَّ به، واختلال الوضع في ولايته إثر القتال الذي نشب فيما بين قبائل سحار في صعدة، ثم أعقب ذلك وصول الأمراء الفارين من بطش الناصر إليه[٥]،الذي كان أكبر

(١) ابن المؤيد : طبقات الزيدية : ٢/ ٧٠٣ .
(٢) انظر : التمهيد ، ص ٣٢ وما بعدها .
(٣) انظر : ما سبق من هذا الفصل ، ص ٧٣.
(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٥٣ ب ــ ١٥٤ أ .
(٥) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، (خ) : ٣/ ق ١٦٧أ ، ١٧١ب ؛ الحبشي : يوميات صنعاء ، ص ٤٩٠ .

العوائق التي أحبطت طموحه لدرجة أنه أفرط في تأنيبهم وتوبيخهم لتسرعهم في الفرار، وكان عليهم أن يراوغوا الناصر، ويوهموه بالطاعة، ثم يضبطوا البلاد ويرسلوا إليه وينتظروا الفرصة السانحة التي تمكنهم من الهجوم الجماعي على الناصر[1]، ولعل فرارهم كان سببا في تجديد موالاته للناصر خاصةً عندما سمع بالاستعدادات للتقدم عليه من "حصن هران" في شهر(جماد ١١٠٠هـ/ مارس ١٦٨٩م) مما جعله يبالغ في موالاته حتى إنه "دعاه الإمام الظاهر وأمر بالخطبة له على جميع المنابر"[2]، ثم أرسل حملة بقيادة أحد أولاده لمساندة الإمام في حرب يافع، كدليل إثبات ذلك الولاء، مما جعل الولاة يواصلون فرارهم إلى مكة.

- *دعوة علي بن أحمد الرابعة واكتساحه للمنطقة الشمالية :*

يبدو أن تلك الموالاة كانت تُقية من علي بن أحمد لعجزه عن مقاومة الإمام نظراً لضعف إمكانياته واختلال أوضاعه، لذلك كانت بمثابة مناورة سياسية، ليبعد أنظار الإمام عنه، حتى يتسنى له البحث عن موارد تمويل سريعة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليتمكن من إصلاح وضع ولايته وتجميع وتعبئة قبائلها، ومن جهة ثالثة ليتم التنسيق مع أمراء وأعيان الولايات الأخرى، خاصةً الذين شملهم بطش الناصر مثل قبائل أرحب وهمدان وبني الحارث وغيرهم . وكان علي بن أحمد على يقين من لفت أنظار الإمام إليه والبطش به خاصةً بعد البطش بالقاسم بن المؤيد والحسن بن المتوكل، لذلك عمل إجراءاته السريعة وأعلن دعوته الرابعة في آخرْ شهر (جماد الثاني ١١٠٢هـ/ ٢٨مارس١٦٩١م)[3] ، ــ متلقباً بالمتوكل ــ ثم اكتسح المنطقة الشمالية حتى حطَّ على أسوار صنعاء، غير أن هناك عدة عوامل جعلت علي بن أحمد يبدأ بالهجوم قبل أن تتقدم جيوش الناصر عليه، ولعل أهمها:

(١) انظر : ما سبق ، ص ٩٦.

(٢) الداعي : الدامغة الكبرى ،(خ) : ٢/ ص١٩٥.

(٣) البهكلي : العقد المفصل، (خ) : ق ٤أ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ) : ٣/ ص ٦٧٤.

١ــ ترامي أخبار تجهيزات الإمام للقبض عليه، وهذا ما أثبته تقدم طالب بن المهدي من شهارة إلى "سوق الهجر"(*) الواقع شمالها، لغرض جمع الجنود ومعونات الحرب، ومراسلاته إلى مشائخ صعدة محاولاً استمالتهم إليه وإبعادهم عن علي بن أحمد تمهيداً لقنصه[١].

٢ــ القبض على القاسم بن المؤيد وفرار الحسن بن المتوكل، اللذين يشكلان عقبة أمام تقدمه جنوبا وغربا، لما يملكانه من الرجال والمال، وهما جناحي الإمام اللذان قصّهما بنفسه، وبذلك لاحت الفرصة لعلي بن أحمد التي كان يتوقعها وينتظرها معاً، لكي يتمكن من تنفيذ خطته التي أبداها للأمراء خلال لبثهم لديه[٢].

٣ــ التفات الإمام إلى حرب يافع وخروجه بنفسه إلى جُبن لرفد الجيش، بعد أن طلب أمراء المنطقة الشمالية وغيرهم مع قبائلهم لمساندته، وبذلك خلت المناطق من عمال وأعيان الإمام، إضافة إلى سماعه بهزيمة الجيش ومقتل الأمراء في "ردفان"[٣].

لهذا وذاك فقد انتهز علي بن أحمد الفرصة وحشد قبائل ولايته المشهورة بالبأس والقوة، فاجتمع عنده منهم "جيوش واسعة"[٤]، وقادهم بنفسه لتثبيت دعوته والإطاحة بالإمام الناصر تنفيذاً لخطته المذكورة، فتقدم بجيوشه لضرب أبوطالب قبل أن يتوجه هو لضربه، فوافاه في "سوق الهجر" يجمع الجيوش والعدة استعدادا لذلك، فوقعت بينهما معركة جسيمة أسفرت عن هزيمة طالب وأخذه أسيراً، ثم عَبِث أصحاب علي بن أحمد بتلك المنطقة وأهلها، حيث قتلوا الرجال وعبثوا بالنساء ونهبوا السوق والمنازل،

(*) سوق الهجر : أحد أسواق منطقة شهارة ويقع في أسفل عزلة ذري شمالاً، ويمتاز بموقع استراتيجي هام. تحيط به الجبال من ثلاث جهات ويطل على وادي أنهر، ويتمتع بشهرة كبيرة من قبل الإسلام. فكان محطاً للتجار وعلى طريق القوافل المارة من الموانئ إلى صعدة والجوف ومارب والعكس، وقيل أنه كان يستمر فيه السوق ثلاثة أيام في الأسبوع. وكان يحيط به سور وبه منارات تضيء للمتسوقين القادمين من أعالي الجبال، ومثّل أدواراً هامة في عهد الأئمة، وبه مآثر كثيرة لعل أهمها جامع القطيب الذي يبلغ ارتفاعه أكثر من أربع طوابق.(الهمداني: صفة جزيرة العرب، (تحقيق : محمد الأكوع) ص٢٤٨؛ الشرفي : اللآلي المضيئة (خ) : ٣/ ص ٦٧٤، مشاهدات الباحث) .

(١) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٢٨ أ ــ ب .

(٢) أبوطالب : طيب الكساء . ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ٣/ ق ١٥٢ب .

(٤) بن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ٣٧٨

وهدموا مبانيها[١]، وأضرموا النيران فيها، ورغم محاولة إعادة إعمار السوق إلا أنهم لم يبلغوا ربع العمائر التي هُدمت ومازال آثار ذلك الخراب والحريق ماثلاً إلى اليوم فهناك أكوام من الأحجار الجاهزة تكفي لبناء مدينة كاملة ، وقد نعاه أبوطالب بقوله: "وكان الهجر محط رحال التجار، وقبلها لا تلمّ به الأخطار، وبهذه الواقعة كان سقوطه إلى الآن، ودخوله في خبر كان وضعف أهله وتفرقوا، فغربوا في البلاد وشرقوا، فهو الآن رسوم بالية وأطلال خالية، إلا مالا يعرج عليه مع الظمان والكفال، والآياس من رجوعه وعدم الاحتفال"[٢]. ولعل هذه الحادثة تدل على شدة أطماع علي بن أحمد وظلمه وحبه للانتقام، وهذا لا يليق بمن يبحث عن الرئاسة لتحقيق العدالة، وقد التمس بعض المؤرخين له العذر، بأنه وقع ذلك بدون إرادته "ولا ظن أن ذلك يقع ولم يبق له قدرة على من معه من الجنود ولا قبول شفاعة في رد شيء"[٣]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ضعف شخصيته وعدم صلاحيته للقيادة، وإنما هدفه إثارة الفوضى والقلاقل وزعزعة الأمن، والنهب والسلب، دون تحقيق العدل ورفع الظلم كما يزعمون .

وكانت معركة الهجر هي المقاومة الوحيدة التي حاولت التصدي لزحف علي بن أحمد والتي نتيجتها كانت لصالحه، حيث ارتفع شأنه، ودخلت تلك البلاد تحت طاعته، فواصل سيره دون أي مقاومة تذكر، بل وفي خلال سيره كان يوزع عماله على البلاد التي يمر منها والمجاورة لها من مختلف الجهات، حتى ضرب الحصار على صنعاء، الذي استمر أكثر من أربعة عشر يوماً[٤]،وكاد أن يستولي عليها لولى ظهور بعض العوامل التي ألجأته إلى الفرار والعودة إلى صعدة،في ليلة الأحد(٦/٩/١١٠٢هـ ٢/٦/١٦٩١م)[٥].

(١) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص ١٧٧ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ص٦٧٤ .

(٢) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق٢٩ أ .

(٣) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص١٧٧ ؛ ونفس العبارة في ملحق اللآلئ ،(خ) : ٣/ ص ٦٧٤ .

(٤) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص٣٧٩ .

(٥) الضبوي : عقد الجواهر ، (خ) : ق ٣٣ أ – ب.

ومما يثير التساؤل والاستغراب هنا خطوات علي بن أحمد السريعة حيث اخترق أراضي قبائل حاشد وبكيل القويتين بسرعة فائقة ، وقطع تلك المسافة الطويلة التي تربوا على مائتي كم، بدون مقاومة تذكر حتى حطّ على أسوار صنعاء، فيا ترى كيف استطاع أن يعبر تلك الأراضي ويضم أهلها إلى جانبه ؟ بل ما هو الأسلوب الذي استخدمه حتى أقنعهم بالدخول تحت طاعته ؟

من المؤكد أنه وضع خطة جيدة، كما أنه استفاد من تجاربه السابقة ومن الدروس والأحداث التي وقعت لأقرانه من آل القاسم، لذلك فقد قام بتعبئة جيشه أولاً، ثم تمت المراسلة بينه وبين عُقّال حاشد وبكيل، وقيل إنه أجزل لهم العطاء، ووعدهم بإعفائهم من جميع المطالب المالية المفروضة عليهم، ويمنحهم الامتيازات المختلفة، إضافة إلى الفوائد التي يحصلون عليها إثر بطشهم ونهبهم للقرى والمدن التي يمرون بها[1]، وعلى ذلك أُبرمت فيما بينهم العهود والاتفاقيات، وتحولوا إلى جانبه. وبهذا ضمن المنطقة الشمالية، وربما أن عطاياه وصلت إلى داخل صنعاء والمنطقة الوسطى، إضافة إلى تلك العوامل المذكورة التي هيأت له فرصة التحرك في الوقت المناسب، مما جعله يحقق نجاحاً جيداً، حيث شمل نفوذه المنطقة الشمالية والغربية، وتقدم ولده نحو المنطقة الجنوبية، كل ذلك خلال فترة وجيزة لا تتجاوز سبعين يوماً ، حتى مال أهل صنعاء إليه ــ ما عدا رتبة القصر[2] ــ وكاد ينجح في الاستيلاء عليها لولا فراره المفاجئ الذي أفسد عليه خطته وضيَّع كل جهوده في لحظة، ولكن هناك بعض العوامل تبرر ذلك الفرار ، والتي نحاول إيجازها على النحو التالي :

١ــ تجهيزات الإمام الكثيفة ، حيث أرسل أخاه المحسن بن المهدي على رأس حملة للحفاظ على صنعاء، وواليا عليها، ثم رفده بولده المحسن بأهل جبلة وسنحان وبعض المناطق الوسطى، ثم رفدهم بولده إسماعيل على رأس حملة تضم قبائل خولان العالية والسلطان منصر الرصاص وغيرهم[3].

---

(١) الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ٣١ب .

(٢) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص١٧٧؛ مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة (خ) : ٣/ ص٦٧٤ .

(٣) الضبوي : المصدر السابق (خ) : ق ٣٢أ، ٣٣ أ .

٢- تأثير أموال الإمام التي أرسلها لاستمالة قبائل حاشد وبكيل ، مما جعلهم يميلـون عن علي بن أحمد ويخذلونه ، مع قلة أهل بلاده وخاصته لأنه كان قـد وزعهـم على الولايات التي تمت سيطرته عليها ، ولم يبق لديه منهم إلا نحو ألف مقاتـل بقيادة ابن روكان[١].

٣- شدة وطأة قبائل علي بن أحمد على الأهالي المحيطين بصنعاء، حيـث اسـتعملوا فيهم القتل والنهب والسلب كما فعلوا في الروضة، مما جعـل القبائـل تتحـالف ضدهم، فقطعوا عنهم المدد[٢]، ومن ثمَّ تجردوا لقتالهم قبل وصول غارات الإمام، حيث هزموا حملة الحسين بن علي بن أحمد فـي زراجـة ـ نـواحي ذمـار ـ وأجبروهم على التراجع إلى حدة[٣]. وبذلك أصبح علي بن أحمد بين شقي الرحى. فما أن وصلت جيوش الناصر إلى "سعوان"ـ شمال شـرق صنعاءـ حتـى لاذ بالفرار.

٤- اتساع النفقات حتى نفد ما بيده وما صاحب ذلك من غلاء الأسعار[٤].

٥- إخفاقه في استمالة المحسن بن المهدي الموكل بحفظ صنعاء[٥].

كل هذه الأسباب وغيرها وضعت علي بن أحمد في مأزق شديد، وجعلته في حيرةٍ من أمره، وظن أنه مقتول أو مقبوض، فبحث مع ولده وخاصته على حل مناسب لهـذه الإشكالية، فرأوا أن النجاة أكبر مغنم، وبما أنهم لاذوا بالفرار ليلاً لكنهم تعرضوا للقتـل والسلب والنهب فتبدد جمعهم، وقد حاول أهالي ذيفان القبض عليهم على سبيل الضيافة

---

(١) ابن عامر : بغية المريد . (خ) : ص٣٧٩ .

(٢) مجهول: ملحق اللآلي(خ): ٣/٦٧٤؛ الضبوي: عقد الجواهر(خ): ق٣٢ ب؛ الداعي: الدامغة (خ): ٢/١٧٧.

(٣) الضبوي : نفس المصدر (خ) : ٣٢ب ـ ٣٣ أ .

(٤) الداعي : الدامغة الكبرى (خ) : ٢/ ص١٧٧؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٢٤١ .

(٥) أبوالرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ٣/ ق ١٥٨أ .

لكنهم اشتبكوا معهم وقتلوا منهم عدة أشخاص، ثم سلكوا طريق غير معتادة حتى وصلوا إلى صعدة في أول (رمضان ١١٠٢هـ/ يونيو ١٦٩١م)[١] .

- تأديب علي بن أحمد والسماح له بالعودة إلى ولايته :

وعلى الفور أصدر الإمام توجيهاته إلى أمراء الجيش بسرعة مطاردة فلول علي ابن أحمد واللحاق به، وجهزهم بحوالي "اثني عشر ألف" مقاتل[٢]، مع المدافع وجميع العدة والعتاد[٣]، وأمرهم أيضاً بتقرير الوضع وقمع وتأديب الذين ساعدوه وساندوه على العبور من بلادهم دون التعرض له، فأنزلوا بهم أنواع العقوبات، كالسجن والمصادرة والنفي إلى اليمن الأسفل، مثل : الإمام العلامة محمد بن علي بن خالد الذي تم القبض عليه وإرساله إلى الإمام الذي زجه في سجن رداع، ثم نقله بعد مدة إلى سجن ذمار، وكذا اعتقلوا العلامة يحيى بن إبراهيم جحاف(ت:١١٠٣هـ /١٦٩٢م)[٤]لإصداره فتوى جواز قيام إمامين في قطر واحد[٥] ، وفعل الإمام عكس ذلك مع أهالي همدان الذين حاولوا القبض على علي بن أحمد، فقد جاد لهم بالرضى[٦]، وجعلهم أمراء في الجيش المتقدم على صعدة، حيث أرسل إسماعيل زبيبة عاملاً على خولان[٧].

وقد استغرقوا في إخضاع البلاد التي أفسدها علي بن أحمد مدة لا تقل عن سبعة أشهر، كان المذكور خلالها في حرب مستمرة ضد الشريف أحمد بن غالب الذي زحف عليه من جهة تهامة واستولى على رازح، ورغم ذلك إلا أنه خرج من صعدة محاولاً التصدي لجيش الإمام فوقعت بينهم معركة ضارية في حُباشة بالعمشية من سفيان، أسفرت عن هزيمة أتباع علي بن أحمد وتراجعهم إلى صعدة بعد قتل وأسر الكثير منهم، فتبعتهم أجناد الناصر من جهة الجنوب وأحمد بن غالب من جهة الغرب، عند ذلك لاذ

---

(١) الضبوي : عقد الجواهر (خ) : ق ٣٣ أ – ب .

(٢) الحوثي : نفحات العنبر، (خ) : ٢/ ق ٥٨ أ .

(٣) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٢٩ ب .

(٤) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٣٨٠ ــ ٣٨١، ٣٨٤ .

(٥) الأكوع : هجر العلم ، ١/ ٤٢١ أ .

(٦) أبوطالب : السحر المبين، (خ) : ق ٢٩ب .

(٧) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣/ ص٦٧٥ .

علي بن أحمد بالفرار نحو الشمال يريد مكة، إلا أن قبائل الشيخ قحطان رفضوا عبوره من بلادهم[1]، حينها لم يجد بداً من اللجوء إلى قلعة "أم ليلى"[*] [2] للاحتماء بها ويراقب ما يؤول إليه هذا المأزق ، ومن ثمَّ يتسنى له عمل خطه أخرى .

وبعد ذلك دخل جيش الإمام صعدة يوم الخميس(١٤/٤/١١٠٣هـ/ ٣/١/١٦٩٢م)، وأخرجوا طالب بن المهدي من السجن "وأبرزوا له ولاية من أخيه الناصر في صعدة والشام"[3]، وقيل إن أهلها لاذوا به خوفاً من نهب الجيش للمدينة، فكتب إلى الأمراء يخبرهم بالواقع ويطلب منهم عدم التعرض للمدينة، فأسعدوه وعسكروا خارجها[4]. على عكس بقية المصادر التي أفصحت عن المظالم التي أرتكبها الجيش حال دخولهم المدينة مثل : مصادرة أهلها وسكون منازلهم وأخذ جواريهم[5].

وبذلك تمت للإمام السيطرة على اليمن من أقصاه إلى أدناه، وكان علي بن أحمد آخر الأمراء والأقران خضوعاً، وآخر مراكز القوى انضماماً إلى الدولة المركزية، وبذلك أشار الشاعر سعيد السمحي إلى قوة الناصر وهيمنته وفرار علي بن أحمد والحسن بن المتوكل مورياً في قوله :

لله در الناصر الملك الذي ... قهر الملوك وقادهم للحين
لم يقم حسن على ساق له ... وعليّ لم يثبت على ساقين [6]

(١) الداعي : الدامغة الكبرى، (خ) : ٢/ ص١٧٧ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣/ ص٦٧٥ .

(*)حصن أم ليلى:من أقوى حصون بلاد صعدة ويقع إلى الشمال الغربي منها، في وادي يسنم من بلاد بني جماعة.(معجم الحجري: ٢/ ٤٧٤ـ٤٧٥)

(٢) أبوطالب : طيب أهل الكساء، ص ٢٤٤ .

(٣) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص١٧٨ .

(٤) الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ٣٣ب .

(٥) الداعي: الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص١٧٨ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة،(خ) : ٣/ ص٦٧٥ ؛ ابن عامر : بغية المريد (خ): ص٣٨٤ .

(٦) زبارة: نشر العرف،١/ ٣٩٣؛ أبوطالب: السحر المبين(خ):١/ ق ٣٠ب؛ الحوثي: نفحات العنبر(خ): ٢/ ق ٢٢أ.

ورغم نجاح الجيش في إخضاع البلاد وإدانة أهلها بالطاعة للإمام إلا أن الأوضاع لم تستقر أكثر من شهر حتى بدأت الفوضى والقلاقل والاضطرابات مجدداً، وتحالفت قبائل صعدة ضد الجيش حتى تمكنوا من دحرهم، بعد حرب وحصار دام عشرة أشهر تقريباً ، وإذا أمعنا البحث والتقصي عن سبب نفور الأهالي وتحالفهم ضد جيش الإمام لوجدناه يكمن في عدة أخطاء وقع فيها الأمراء والقواد أهمها :

١. تقاعسهم في صعدة وعدم تتبعهم لعلي بن أحمد ذي المكر والدهاء .
٢. غطرستهم وحماقتهم وعدم محاولتهم استمالة الأعيان والأهالي .
٣. وقوعهم في خلاف خفي دب فيما بينهم .

وهذه الأخطاء ارتبطت ببعضها فكانت سبباً في توحيد عدة قوى، كانت متناحرة فيما بينها، فشكلت منها قوة واحدة، حاربت الجيش وطردتهم من صعدة، وفشل تثبيت حكم الإمام فيها . ولكي يتضح ذلك جلياً يتحتم علينا عرض مواقف كل الأطراف وتصرفاتهم، فحين استقر رحل الجيش في المدينة قاموا بطلب أعيان البلاد بعد أن أعطوهم الأمان[١]، وقيل إنهم وصلوا إليهم بدون طلب لبذل الطاعة[٢]، حينها لم يحاولوا تأليف قلوبهم وإكرامهم ليأمنوا شرهم ومكرهم، بل قاموا بتكبيلهم جميعاً بالحديد وهم أكثر من مائة شخص وأشفعوهم بحريم الداعي علي بن أحمد وحريم أولاده وأطفالهم وجواريهم وساقوهم إلى صنعاء، صحبة المحسن بن الناصر[٣]، ثم قاموا بفرض العقوبات المالية الجائرة على أهل البلاد، وصادروا الكثير منهم وسكنوا بيوتهم وعبثوا بها، حيث كانوا يطلقون العيارات النارية من بنادقهم داخل حجرة الدار فتحدث فيها فجوات وتشوهات كبيرة[٤]،"وعاملوهم معاملة لا تليق بأتباع الأئمة ولا بالسلاطين

(١) الداعي : الدامغة الكبرى،(خ) : ٢/ ص١٧٨ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ) : ٣/ ٦٧٥.
(٢) أبوطالب: السحر المبين : ق ٣٠ب ؛ أبوالرجال: الروض الزاهر: ١٨٢/٣ب؛ الضبوي: عقد الجواهر، ق ٣٤أ.
(٣) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص ١٧٨ .
(٤) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٣٨٦ .

الظلمة"[1]، وهذه الانتهاكات أثارت حفائظ المواطنين مما جعلهم يتناسون خلافاتهم الداخلية ويوحدون صفوفهم لقتالهم .

وفي الوقت نفسه لم يقف علي بن أحمد مكتوف اليدين فقد أسرع في استغلال تلك المواقف لصالحه، وما إن استقرَّ ركابه في حصن أم ليلى حتى قام بترويج تلك المظالم، ووزع أولاده بين القبائل لتحريضهم على القيام لدفع الظلم النازل على الناس ، وكان ينتقل أيضا من قبيلة إلى أخرى للعمل على تعبئتهم ، وبذلك قامت القبائل وطردت عمال الإمام من بلادهم، فاشتبكوا مع إسماعيل زبيبة وقتلوا خمسة من أصحابه وسلبوه وطردوه من بلاد خولان، وكذا أهل رازح قاموا بطرد أميرهم يوسف بن أحمد بن محمد ابن عامر ، ثم التفوا حول صعدة من جميع الجهات تحت قيادة علي بن أحمد وأولاده ، فالتقوا مع جيش الإمام في معركة الشقات (الشبكة) حول المدينة يوم السبت (١٤/ ٥/ ١١٠٣هـ /١/٢/١٦٩٢م) التي أسفرت عن ضحايا جمة تنيف على(٥٠٠) فرد من الجيش و(٥٠) فرد من أهالي البلاد ، ثم تراجع الجيش إلى المدينة وانحصروا فيها[2].

لقد أدرك الإمام الخطأ الذي أرتكبه الأمراء، وحاول تلافيه، فأمر بإكرام أعيان صعدة وإطلاقهم، حين علم وصولهم صنعاء مكبلين[3]، الأمر الذي أسهم في تخفيف حدّة الحصار فيما يبدو، حيث انسحبت قبيلة سحار من مركزها، فتخاذل أولاد علي بن أحمد ولاذوا بالفرار إلى ساقين ، وحصل بذلك "النفس لأجناد الناصر أياما ووعدوا فيها بالصلح من الناصر لأهل الشام"[4]، مما أثار خوف علي بن أحمد، فأسرع في تحريض القبائل مجدداً ، وحثهم على العودة إلى مراكزهم ، وجمع الجموع الكثيرة ووجههم لتعزيز الحصار .

أما الإمام فقد أزعجه هزيمة الجيش في الشبكة وانحصارهم في المدينة، فأرسل ولده المحسن على رأس حملة مكونة من حوالي عشرة آلاف جندي ، لتعزيزهم وفك

---

(١) الداعي : المصدر السابق ، (خ) : ٢/ ص ١٧٨؛ ونفس العبارة وردت في : مجهول : ملحق اللآلي(خ): ٣/ ص٦٧٥ ؛ وقريب منها في : السحر المبين ،(خ) : ق ٣٠ب ؛ وكذا ابن عامر : نفس المصدر ،(خ) : ص٣٨٥ .

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ص٦٧٥ ؛ الداعي : المصدر السابق ، (خ) : ٢/ ص ١٧٨.

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر. (خ) : ٣/ ق ١٨٣أ .

(٤) الداعي : الدامغة الكبرى ،(خ) : ٢ / ص١٧٨.

الحصار عنهم وإخضاع التمرد، ولكن الحملة فشلت في مهمتها وزادت المحصورين مشقة فوق مشقتهم، ونعتقد أن ذلك الفشل كان لحنكة علي بن أحمد، فحين قاربت الحملة من الوصول أمر القبائل بالارتفاع وفتح الطريق للحملة، حتى إذا ما دخلت المدينة أعاد الحصار عليهم جميعاً، وكان هذا أكبر خطأ أقترفه المحسن، فلو كان عسكر خارجها لأتاح الفرصة للمحصورين وخرجوا من المدينة إليه وتعاونوا جميعا في إخضاع علي بن أحمد وقبائله، ولكنه أسرع بالدخول فكانت النتيجة وخيمة على الإمام وجيشه، وربما أنها كانت سببا في الخلاف الذي نشب فيما بينهم[1].

وقد استمرت المناوشات فيما بينهم أياماً كثيرة لم يتوصلوا فيها إلى حل حاسم سوى عقد هدنة لمدة شهرين، على أساس أن يحصلوا خلالها على صلح من الإمام يقضي بتسديد جميع تكاليف الحرب تعويضاً لعلي بن أحمد، وأن يطلق جميع أهله وأولاده، غير أن الإمام رفض الصلح بتاتاً[2]، ولعله كان معتمداً في رفضه على تلك الجيوش والتجهيزات الكثيرة التي أرسلها ومازال يزودها بالإمدادات اللازمة.

وكما يبدو أن الخلاف دب بصورة خفيه فيما بين أمراء الناصر وهم أخوه المحسن وولداه إسماعيل والمحسن ، وليس بعيداً أن يكون منبع الخلاف من جهة علي بن أحمد الداهية، وإلا أصبح من السهل عليهم استمالة زعماء القبائل خاصة بعد انسحاب قبائل سحار من مراكزها وهي أصل المدينة، وكان عليهم أن يلتمسوا نقاط ضعف علي بن أحمد الكثيرة، والعمل على حربه وتبديد جموعه ولكنهم وقفوا مكتوفي الأيدي، وقد أتضح ذلك الخلاف جلياً عندما بلغهم رفض الإمام للصلح، حينها لم يقوموا بعمل خطة يتم بها خلاصهم جميعاً، أو انسحابهم بصورة تحفظ لهم كرامتهم وحياتهم معاً، بل عمد كل منهم إلى الفرار بنفسه في ليلة الأربعاء (٥/٢/١١٠٤هـ /١٥/١٠/١٦٩٢م)، دون النظر إلى الآخرين، وهذا ما جعل القبائل تتتبع فلولهم وتعمل فيهم القتل والنهب والسلب ، وسقط الكثير منهم قتلى ، كان من ضمنهم الأمير إسماعيل بن الإمام الناصر الذي

(١) أبو الرجال : الروض الزاهر (خ) : ٣/ ق ١٨٣ب .

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ) : ٣/ ص٦٧٦ .

حزوا رأسه وحملوه إلى صعدة ، ولم ينج منهم إلا من طرد جواده، وعادوا إلى صنعاء على أسوأ حال، ثم إلى حضرة الناصر إلى رداع [١] .

ورغم تلك التضحيات الجسيمة التي قدمها الناصر إلا أنه "وعلى غير عادته قد سمح برجوع علي بن أحمد إلى مركز ولايته"[٢]، فدخلها يوم الخميس (٦/٢/١١٠٤هـ ـ ١٦/١٠/١٦٩٢م) إلا أنه كان شديد الحذر، فلم يمكث بها إلا قدر ثمانية أيام، عمل خلالها على طلب أهل الشام للحضور، ثم قاموا جميعاً بجولة استطلاعية لمشاهدة الخراب والدمار الذي تركه أولاد الناصر وجنده في المدينة، وذلك ليتضامنوا معه على قطع علاقتهم بالناصر وعدم الرضوخ لحكمه[٣]، ثم التفت لمعاتبة العلماء وزجهم في السجن لاستقرارهم فيها مع أمراء الناصر حال وجودهم وعدم استنكارهم على أعمالهم، وبعد ذلك انتقل إلى ساقين ومنه إلى حيدان، ويبدو أن الهدف من تنقلاته تلك هو تعزيز علاقته مع القبائل والتودد إليهم وتأسيتهم عمَّا فقدوه من الرجال والمال خلال الحروب التي خاضوها إلى جانبه، إضافة إلى أنه أراد استمالتهم للقيام معه والتصدي للشريف الذي كان يتخطف أطراف البلاد من جهة الغرب، وقد ابدوا رضاهم عنه في الأولى، و رفضوا مساعدته في الثانية "ورجحوا له عدم التعرض للشريف والصبر على ما يحصل منه خوفا أن يقطع الطريق أو يحصل في ما بينهم ما لا يرضونه مع النزول عليه"[٤]، وكذلك امتنعوا عن توريد واجبا تهم إليه[٥]، تعويضاً لما نالهم من الخسائر التي

---

(١) الدعي : الدامغة الكبرى ،(خ) : ٢/ ص١٧٩؛ مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ،(خ) : ٣/ ص ٦٧٦ .

(٢) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، ص٩٢ .

(٣) ابن عامر : بغية المريد، (خ) : ص٣٨٦ ــ ٣٨٧ .

(٤) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ص ١٧٩، ١٨٣.

(٥) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٣١ ب .

خسروها في تلك الحروب، وبذلك فقد مكانته السياسية وضعف شأنه وانتهى نفوذه الفعلي وصار الحكم بيد القبائل[1].

وكان علي بن أحمد أكثر أمراء مراكز القوى مقاومةً، حيث استمرت الحرب بينهما عاماً وثمانية أشهر، كانت الخسائر جسيمة جداً، ورغم ذلك إلا أنه لم يتم خضوعه إلا شكلياً، وذلك بتوقف الحروب النارية فقط، واستمرت الحرب الباردة، فكان يشن كل منهم سهام الكيد والمؤامرات ضد الآخر، وخاصة من جهة علي بن أحمد، الذي كان يعلن الولاء والطاعة حال شدة الضغط عليه، ومن جهة أخرى كان يعمل كلما في وسعه لإثارة القلاقل والفوضى في حكم الإمام، وفي إفساد عماله والتحرش بهم، إضافة إلى أن الإمام كان يستخدم الحرب الاقتصادية فيمنع وصول البضائع والمواد الغذائية إليه من جهة تهامة، ويُسلط عليه ولاة المناطق المجاورة له، كما سلط عليه الشريف أحمد ابن غالب لتخطف أطراف بلاده ــ كما رأينا ــ وكان يهمُ بالتجهيز عليه أحيانا فتصادفه إشكاليات أخرى تجعله يصرف نظره عن صاحب صعدة واستمرت العلاقة بينهما على ذلك المنوال بين شد وجزر حتى وفاة علي بن أحمد في (جماد الأول ١١٢١هـ/ يوليو ١٧٠٩م).

والخلاصة أن الإمام تمكن من القضاء على مراكز القوى وضمها جميعا إلى الدولة المركزية، وحكمها بيد من حديد، بعد أن كانت شبه إمارات مستقلة في عهد المؤيد الذي لم يبق له من الحكم إلا ذكر اسمه في الخطبة، والحكم الفعلي لأمراء مراكز القوى، غير أن تحقيق ذلك لم يكن سهلا هينا، حيث استهلك لتنفيذ تلك المهمة مدة طويلة تزيد على سبع سنوات وهو في حالة استنفار، حتى تم له جمع السُلطة في يده دون مشارك، واستطاع أن يعزل ويولي من يريد بدون أي شرط يملى عليه .

---

(١) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/١٩٥ .

ورغم كل الحروب الجسيمة التي خاضها ضد منافسيه إلا أنه لم يهمـل شـؤون تنظيم الحكم ، واستطاع أن يحكم اليمن بكامل حدوده من المخلاف السليماني شمالا إلى عدن جنوبا ومن البحر الأحمر غربا إلى ظفار شرقا، وكذا استطاع مد نفوذه إلى خـارج اليمن فسيطر على ميناء "زيلع" في الساحل الصومالي وجدد عمارتها وتمكن بذلك مـن التحكم في مضيق باب المندب من الجهتين، كما أنه حاول مد نفوذه على ولاية الحجـاز ومنازعة الإمبراطورية العثمانية عليها، وإن استمر مع يافع في صراع إلا أنه حكمهـا تارة بالعنف وتارة أخرى بالسلم ــ وهذا ما سنحاول مناقشته خلال الفصل التالي .

الفصـــل الثانــي
سياسة المهدي في بلاد المشرق
(يافع وحضرموت)

أولاً : أوضاع المشرق قبل حكم المهدي محمد :

١- *دخول المشرق تحت حكم الأئمة وعوامل الانفصال :*

أطلق مؤرخو العصر الحديث اسم المشرق على المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من اليمن والتي تمتد من البيضاء إلى "ظفار" حضرموت شرقا ومن "قعطبة" إلى عدن جنوباً [١].

تلك المناطق التي قاومت الحكم العثماني الأول حتى حظيت بالاستقلال عام (١٠٣٨هـ / ١٦٢٨م)، أي قبل استقلال المناطق الشمالية بسبع سنوات ، لكن كان استقلالها تحت زعامات محلية متعددة غير مستعدة للتضحية والتوحد تحت قيادة زعامة واحدة ، فحكم حضرموت[*] سلاطين آل كثير[٢] ، وحكم يافع[**] سلاطين آل عفيف وآل هرهرة ، بينما حكم أبين ولحج وعدن الأمير عبدالقادر بن محمد الخنفري اليافعي (ت: ١٠٤٩هـ/١٦٣٩م)[٣]، واستقل آل شعفل[***] بحكم خرفة حالمين وجبل حرير ، في حين استقل آل الرصاص[****] بحكم البيضاء،.........................

(١) انظر : الملحق (١٤) خارطة ، شكل (د) .

(*) حضرموت : اختلفت روايات سبب تسمية هذه الرقعة الشاسعة من الأرض، والأرجح أن تسميتها جاءت نسبةً إلى حضرموت بن قحطان بن عابد بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، (الويسي: اليمن الكبرى ؛ معجم الحجري: ١/ ٢٦٣؛ معجم المقحفي: ١/ ٤٧٨).

(٢) آل كثير: يعود نسبهم إلى كثير بن ظنة بن عبدالله بن حرام بن عمر بن سبأ الأكبر، من نسل قحطان، وقد بدأ نشاطهم السياسي في تريم، منذ منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.(هاشم: الدولة الكثيرية:٢) .

(**) يافع : قبيلة مشهورة تعرف قديماً باسم (سرو حمير) نسبة إلى يافع بن قادل بن زيد بن باغتة بن شرحبيل بن الحارث ذي رعين الأكبر. وتقع منازلها فيما بين الضالع ولحج، تلك المنطقة الجبلية التي ترتفع عن سطح البحر بحوالي(٢٢٠٠) قدم. وكانت قبائلها تشتهر بالشدة والبطش وقوة العزيمة، وهي التي تزعمت ثورة المشرق ضد الأئمة، وكانت تنقسم إلى قسمين يافع العليا بزعامة آل هرهرة ومقر حكمهم الموسطة، ويافع السفلى بزعامة آل عفيف ومقر حكمهم القارة، وكان كل قسم منها ينقسم إلى خمسة مكاتب وكل مكتب يضم عدد من الفخائذ. وكلا الزعيمين من أسر ذات زعامة دينية مثقفة. (الويسي: اليمن الكبرى:٣٢؛ معجم الحجري:٧٧٣/٤؛ معجم المقحفي: ١٠٨٩/٢، ١٨١٨، ١٨٩٤؛ شهاب : يافع في عهد سلطان آل عفيف وهرهرة :٢١؛ بن سبعة : من ينابيع تاريخنا :١٤٣).

(٣) انظر : ترجمة الأمير عبدالقادر في التمهيد ، ص ٢٣ .

(***) آل شعفل : من قبائل يافع أشتهر منهم الأمير قاسم بن شعفل وولده أحمد ، وتقع بلادهم المذكورة بالضالع جنوب غرب قعطبة وهي عبارة عن سلسلة جبلية شاهقة الارتفاع، وفيها جبل جُحاف أعلى قمة جبلية في اليمن بعد جبل النبي شعيب، وجبل حرير في منطقة الحصين ، وكان مقرهم قرية خرفة المذكورة ، إحدى قرى الأشراف ، وكانوا كثيري الغارات على طرق التجارة البرية التي تمتد من عدن إلى صنعاء وتمر عبر بلادهم كما سوف نلمس ذلك خلال هذا الفصل . (معجم المقحفي : ١/ ٢٩١، ٤٥١، ٥٦٦، ٨٧٠).

(****) آل الرصاص : ينسبون إلى الرصاص بن الحارث بن عبدالرحمن بن زياد بن أبي حامد من جُهَيْنة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحارف من قضاعة (معجم الحجري: ٣٦٦/٢. معجم المقحفي : ٢١٠/١، ٦٩٠).

أما العوالق(*) فكانت تحت زعامة السلطان منصر العولقي، والواحدي(**) بزعامة الأمير عبدالواحد، وكان للجميع زعامة دينية وروحية سُنيّة على المذهب الشافعي متمثلة في زعماء أسرة باعلوي المتمركزين في مدينة عينات ــ أسفل وادي حضرموت ــ والذي ينحدر نسبهم من سلالة علوية فاطمية من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) [1].

وبما أن نفوذ الأئمة الزيدية لم يمتد إلى تلك المناطق منذ تأسيس دولتهم في صعدة شمال اليمن أخر القرن الثالث الهجري العاشر الميلادي إلا أن الإمام المؤيد محمد بن القاسم قد أهتم بنشر ظل الدولة الزيدية القاسمية فيها ولأول مرة عبر تاريخهم الطويل ، حيث بدأ يراسل زعماء تلك المناطق منذ بداية حكمه ، ويتلطف إليهم ويحثهم على جهاد العثمانيين ، ويُعرّفهم مبادئ المذهب الزيدي ويحببهم إليه ، حتى أقنعهم بالدخول تحت طاعته الاسمية ، وسادت بينه وبينهم علاقات ودية حميمة ، حتى أن أبناء يافع ساندوه لحرب الأتراك وأرسلوا له "غالبية ما اغتنموه من السلاح من خزائن عدن"[2]، وكذا الأمير عبدالقادر مدّه بالمدافع عام(١٠٣٩هـ /١٦٢٩م) .

غير أن تلك العلاقة توترت بعض الشيء في عهد الأمير الحسين بن عبد القادر، وذلك حينما هرب الأمير أحمد بن الحسن إلى عدن إثر تمرده الثاني على عمه المؤيد عام(١٠٥٢هـ /١٦٤٢م)، فتلقاه أميرها الحسين بالرحب والسعة وجعله نائبه حال غيابه ، مما أثار الشك لدى المؤيد بأن الأمير هو من دفع أحمد إلى التمرد ، فأرسل إليه

(*) العوالق : نسبةً إلى القبيلة التي تنقسم إلى العوالق العليا والسفلى، وتحوى على أرض واسعة تقع فيما بين بيحان شمالاً إلى ساحل البحر والفضلي جنوباً ومن البيضاء ودثينة غرباً إلى حضرموت والواحدي شرقاً، وكانت تسمى قديما(سرو مذحج)، ومن أهم مدنها الساحلية ميناء أحور، والداخلية نصاب .(صلاح البكري : حضرموت وعدن إمارات الجنوب العربي، ص٢٧٧؛ لقمان (حمزة علي): تاريخ القبائل اليمنية ، ص ٢٧٩، الويسي : اليمن الكبرى ، ص٣٠؛ معجم المقحفي : ٢/ ١١٣٨).

(**) الواحدي : نسبة إلى مؤسسها عبد الواحد القُريشي، وتقع هذه المقاطعة غربي حضرموت على جانبي وادي ميفعة وتسيطر على ميناء بلحاف، وحبان والروضة وميفعة في الداخل. (البكري : معجم حضرموت ، ص ٣١٦ ؛ معجم المقحفي: ٢/ ١٨٤٢).

(١) زبارة : نيل الحسنيين بأنساب من اليمن من بيوت عترة الحسنين ، ص١٢٥؛ هاشم : تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٨٩، ١٠١، ١١٦.

(٢) بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني ، ص١٣٩ .

يطلب منه طرد أحمد و إلاّ سوف يعلن الحرب عليه، الأمر الذي جعل الأمير حسين في موقف حرج ، فقد قيل إنه أغلظ في معاملة أحمد بن الحسن حتى تركه ولجأ إلى يافع ، وقيل إن الأمير أقنعه بالعودة إلى عمه فتظاهر بالموافقة ، فما أن خرج من عدن حتى توجه نحو يافع ، واستنجد بهم ، فأكرموه بل وزوجوه ومنعوا عنه رغم تكرار رسائل المؤيد في طلب استرجاعه، ولم يتم عودته حتى أرسل لهم بالهدايا، وسفارة الحسن بن أحمد الحيمي(ت:١٠٧١هـ/ ١٦٦١م) الذي نجح في إقناعه وعاد إلى عمه المؤيد عام (١٠٥٣هـ /١٦٤٣م)[(١)].

وما أن استقر المتوكل إسماعيل على كرسي الإمامة بعد وفاة أخيه المؤيد محمد ابن القاسم عام (١٠٥٤هـ /١٦٤٤م)، وانتزاعه السُلطة من أخيه أحمد بالقوة ــ كما سبق ذكره ــ ، حتى شرع في تنفيذ سياسته التوسعية، رغبةً في بسط سيطرته ونفوذه على كافة أرجاء اليمن وولعه بنشر المذهب الزيدي، وللحصول على موارد مالية جديدة لرفد خزينة دولته الفتية ، ويبدو أن أحمد بن الحسن كان من أهم المحرضين لعمه للتوسع في المناطق الجنوبية والشرقية ، وذلك لإطّلاعه على موارد عدن الوفيرة ومعرفته بنقاط ضعف الأمير الحسين بن عبد القادر مع ما في نفسه عليه، منذ أيام مكوثه بها[(٢)]، فتهيئة الظروف لينطلق أحمد بن الحسن في العام التالي من حكم عمه المتوكل لبسط السيطرة الإمامية على عدن ولحج وأبين .

وقد وجد المتوكل في عدم تجاوب الأمير الحسين بن عبد القادر في قضية الأمير الممباسي[(*)] المبرر الشرعي لإرسال أحمد بن الحسن على رأس حملة مكونة من ثلاثة

(١) الجرموزي : الجوهرة المنيرة، ق ٣١٢ب ؛ الجنداري : الجامع الوجيز،(خ) : ق ١٤٤ب ؛ الكبسي : اللطائف السنية ، طبعة مكتبة الجيل الجديد – صنعاء ، ص ٣٤٤ ؛ بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني، ص١٤٠ــ ١٤١؛ ابن المؤيد : طبقات الزيدية الكبرى ، (تحقيق : الوجيه) ، ٢٩١/١؛ البسام : الإمام المؤيد ، طبعة مكتبة الجيل الجديد صنعاء ، ص٥٣.

(٢) القعيطي : يافع صفحات من التاريخ اليمني ، صنعاء ، ص١٣٣؛ العبدلي : هدية الزمن ، ص١٢٧.

(*) الأمير المباسي المسلم كان أميرا على إمارة مومباسا الواقعة على ساحل كينيا الشرقي وقد تكاتف ضده المسيحيون عام(١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م) فطلب النجدة من الأمير الحسن بن القاسم إلا أنه كان مشغولاً عنه بطرد العثمانيين من تهامة، ويبدو أن ضغط المسيحيين أشتد عليه مما اضطره إلى مغادرة إمارته واللجوء إلى الأمير عبدالقادر في عدن عام (١٠٤٦هـ) ومكث لديه. وبعد عامين أدى فريضة الحج فتوفي بالقنفذة أثناء عودته من الحج، فقام الأمير الحسين بن عبد القادر بمصادرة أمواله وقتل بعض مناصريه وسجن البقية، وقد طالبه المؤيد محمد بن القاسم=

آلاف مقاتل ، فتمكن من سحق قوات الحسين بن عبدالقادر وأجبرته على الفرار إلى يافع ، غير أن محمد بن الحسن أبدى تعاطفه مع الأمير حيث أكرمه وجعله حاكماً على أبين وقرر له إيرادات لحج وعدن وكان ذلك بعد أن تمكنت قوات الإمام من الاستيلاء على تلك المناطق عام(١٠٥٥هـ /١٦٤٥م)(١) .

ويبدو أن هذا النصر الساحق الذي أحرزه المتوكل وولدا أخيه قد زاد من حماسهم وشجعهم على مواصلة توسيع نفوذ دولتهم الفتية ، إضافة إلى تلك الغنائم الكثيرة التي غنموها إثر هزيمة الأمير المذكور ، وكذا زيادة موارد الدولة من خراج ميناء عدن ، وهذا ما ساعدهم على تنمية قدراتهم الحربية والعسكرية ، وبالتالي تطلعهم إلى اجتياح بقية المناطق الشرقية في أقرب فرصة ممكنة، التي لم تأت إلا في عام (١٠٦١هـ /١٦٥٠م)، بعد التماسهم مبرر شرعي واهٍ جداً، تم بواسطته ضرب قبائل الشعيب(*) والسيطرة عليهم، والذي يكمن في امتناع أهالي الشعيب من تلبية طلب محمد بن الحسن، حين طالبهم بتسديد مقررات مالية كانوا يدفعونها في عهد المؤيد بن القاسم، وانقطعوا عن دفعها منذ وفاة والد المذكور عام(١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م)(٢).

وفي عام (١٠٦٤هـ /١٦٥٣م) تجدد الخلاف على سلطة حضرموت فيما بين أمراء الأسرة الكثيرية فقام جعفر بن عبد الله بطرد عمه بدر بن عمر من ولاية ظفار ، قيل بإيعاز من أخيه السلطان بدر بن عبدالله ، فاستنجد بدر بن عمر بالإمام المتوكل إسماعيل الذي اعتبرها إهانة له وأتخذها فرصة لبسط سيطرته على تلك الجهات (٣)، تحت شعار إرجاع حق بدر بن عمر الموالي له، لذلك جهز الجيوش الجرارة وسحق كل من حاول الوقوف أمامه واستمر الزحف حوالي خمس سنوات، واجهت خلالها الجيوش الإمامية صعوبات كثيرة مثل : شراسة المقاومة المحلية، وانعدام الطعام والشراب ،

=بإطلاق المساجين وإعادة ثروته، غير أن الفرصة كانت غير مواتية لشن الحرب عليه لانشغاله بإخماد تمرد أحمد بن الحسن الأول والثاني . (الغالبي: المتوكل إسماعيل، ص ٧٣ــ ٧٦ح ؛ الغوري (إبراهيم حلمي): أطلس العالم ، حلب ، دار الشرق العربي ، ٢٠٠٣م ، ص٦٠).

(١) الجرافي: المقتطف : ٢٢٦؛ العمري: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، ص٤٨؛ الغالبي: نفس المرجع ، ص٧٧.

(*) الشعيب: أخدود جبلي في الجنوب الغربي من الضالع. قيل إنه سُمّي نسبةً إلى شعيب بن يافع بن السرو .(معجم المقحفي : ١/ ٨٧٠).

(٢) الغالبي : المتوكل إسماعيل ، ص٧٩ ؛ الأمير : التطورات السياسية في اليمن ، ص٢٦.

(٣) الحداد : التاريخ العام ،٤/ ١٤٢، وعن أمراء الأسرة الكثيرية انظر : الملحق جدول رقم (٨).

طول المسافة الكبيرة، غير أنها تجاوزتها، وتمكنت من إخضاع بلاد الرصاص ويافع والعوالق والعمودي[*]، وكل المناطق حتى تمت السيطرة على حضرموت عام (١٠٧٠هـ / إبريل ١٦٦٠م) وتم تنصيب السلطان بدر بن عمر حاكماً عليها من جهة الإمام . وأرسل بالسلطان بدر بن عبد الله إلى الإمام فمنحه العفو والأمان[١] .

وبما أن أحمد بن الحسن قد استخدم في إخضاعهم الشدة ، والعقوبات البالغة، من خراب المنازل ، ومصادرة الأموال ، حتى أنه عمد إلى مصادرة أسلحة يافع عام(١٠٦٦هـ /١٦٥٥م)[٢] ، لكي يضمن عدم مقاومتهم. لكن المتوكل إسماعيل عاملهم بعكس ذلك، حيث حرص على كسب ودهم، بأن جعل مشائخهم حكاماً على مقاطعاتهم، وأجرى عليهم المرتبات وبالغ في إكرامهم، كما فعل مع آل كثير ــ سلاطين حضرموت ــ وغيرهم ، وبذلك استطاع أن يمد نفوذ الدولة القاسمية إلى أقصى امتداد لها، ووحّد اليمن ، وفرض هيبة الدولة المركزية إلى حين[٣].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المتوكل لم ينعم بحكم اليمن الموحد كثيراً، حيث ظهرت الاضطرابات والنزعات الاستقلالية مبكراً، فلم تمض عشر سنوات من الاستقرار ، حتى فقد السيطرة الفعلية على بعض المناطق، والأطراف البعيدة عن مركز الدولة مثل : ظفار حضرموت. كما يلاحظ أن قبائل يافع راجعت حسابها خلال تلك السنوات التي سادها الاستقرار، حيث قامت بتصفية الخلافات فيما بينها، ودعت إلى توحيد صفوفها سياسيا، بقيادة السلطان معوضة بن محمد بن عفيف، ودينيا بقيادة أحد أولاد علي آل هرهرة [٤]، ومن ثمَّ بدأت تعمل على نيل استقلالها عن حكم الأئمة، والذي يرجع إلى عدة عوامل منها :

(*) آل العمودي : عشيرة حضرمية كبيرة كانت لها الرئاسة الدينية والزمنية على وادي دوعن.(معجم المقحفي : ٢/ ١١٢٤).

(١) أبو طالب : طيب أهل الكساء ، ص ٣٨ ــ٨٢ ؛ الجرافي : المقتطف ، ص٢٢٥ ــ ٢٣١ ؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث ، ص٤٨ ــ ٥٣ ؛ الغالبي : المتوكل إسماعيل ، ص٩٦ ــ ١١٠.

(٢) أبو طالب : نفس المصدر ، ص ٦٤ ؛ شهاب : يافع في عهد آل عفيف وآل هرهرة ، ص ٣٩.

(٣) بنت الأمير : التطورات السياسية ، ص ٤٦ ــ ٤٧ .

(٤) بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني، ص١٤٣ .

١. سياسة الولاة التعسفية ، وشدة وطأتهم على الأهالي منذ بداية إخضاعهم ، حيث عمد أحمد بن الحسن إلى خراب منازلهم ومشاطرة أموالهم ومصادرة أسلحتهم ــ كما سبق ذكره ــ . وكانت سياسة واليهم الأمير الحسين بن الحسن أشدّ ظلماً وتعسفاً، فقد حطَّ من شأن زعمائهم ، واشتدَّت وطأته عليهم وبدأت القبائل تُعبِّر عن تذمرها ابتداءً من عام (١٠٨٤هـ /١٦٧٢م) حين أعلن العولقي العصيان، بسبب طعام عساكر المذكور ، فقد أشار يحيى بن الحسين إلى ذلك بقوله : "وحصل في بلاد العولقي في المشرق ما حصل من قبل السَبار[*] في بلادهم ، والاستقلال بأمرهم وخلافهم"[١]، إضافة إلى عدم التفات الإمام المتوكل إلى شكوى المشائخ من جور عماله، ففي عام(١٠٨٧هـ /١٦٧٥م) وصل العولقي إلى الإمام شاكياً من جور الحسين بن الحسن، وأنه عزله عن بلاده ، فبقي لدى المتوكل حتى توفى الأخير ، ولم يرجع إلى بلاده إلا في عهد أحمد بن الحسن بعد أن أقره على عمله[٢]، لذلك فقد كانوا يتحينوا فرصة ضعف الدولة ليعلنوا تمردهم، والتخلص من هذه المظالم .

٢. سياسة التعصب المذهبي ، فقد عمد الولاة إلى المغالاة والعنف في نشر المذهب الزيدي ، بل وحاولوا تطبيق مبادئه الفرعية بالقوة ، حيث نودي بأن تزاد عبارة : (حي على خير العمل) في الأذان تطبيقا للمذهب الزيدي[٣]، وبالمقابل عمدوا إلى الحطّ من المذهب السني حيث أمروا بوقف راتب السقاف[**] [٤]، ومنعوا أيضاً الترضية عن الشيخين[٥]، وصادروا أملاك وأوقاف ونذور منصب عينات الحبيب

(*) السَبار: السَبْرُ: في اللغة استخراج كنه الشيء، وفي لهجة أهل صنعاء "السبار" فعل الشيء، ومنها "السبارات" أي: إعداد الطعام، ولعل المقصود بها هنا رفض الأهالي إعداد الطعام للعساكر،أو دفع مبلغ من المال مقابل ذلك. (أ.د. العمري : مئة عام من تاريخ اليمن الحديث ، ص١٣٧: هامش رقم : ١).

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٢/ ق٥٧ أ.

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المصدر (خ) : ٢/ ق ١٠٨ أ،١٤٣ب.

(٣) با مطرف: المختصر في تاريخ حضرموت العام : ٨٣ ؛ هاشم : تاريخ الدولة الكثيرية: ١٠٠؛ العمري: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر: ٥٣ .

(**) راتب السقاف : نوع من الأدعية والأذكار والتراتيل تقرأ بعد الصلاة وفي المناسبات الدينية .

(٤) با وزير : صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٧٠ ــ ١٧١ ؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث ، ص ٥٣ ؛ هاشم : تاريخ الدولة الكثيرية ، ص١٠٠ .

(٥) المحبي (محمد أمين) : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ١/ ٤١٢.

أبوبكر بن سالم وأسرته، الذين يتمتعون بمكانة روحية كبيرة بين أهل المشرق قاطبةً ، ويدينون لهم بالطاعة والولاء ، ولعل هذه السياسة التعصبية كانت سبباً في تحويل الصراع من صراع على السُلطة إلى صراع مذهبي بين الزيدية والشافعية[1]، وهذا ما نلمسه من كتابات الطرفين .

٣. سياسة الإمام المالية ، التي أثقلت كاهل المواطنين ، فكان المتوكل "يحرص على أن يرفد هؤلاء الولاة أموالاً إلى خزينة الدولة بما عليهم من مقررات مالية ، بغض النظر عن كيفية جمع تلك المقررات ، ومقدرة الأهالي على دفعها أم لا؟"[2]، ولا يستبعد أن المشرق قد فُرض عليه من تلك الزيادات في المطالب التي فرضها المتوكل على اليمن الأسفل ــ من غير الزكاة والفطرة ــ مثل: مطلبة التبن[*] ومطلبة الصلاة و مطلبة الرياح[**]، ومطلبة البارود والرصاص ، ومطلبة سفرة الوالي ، ومطلبة دار الضرب ، ومطلبة ضيفة العيد من المعونة [3].

٤. ظهور التصدعات على كيان الدولة المركزية، وذلك بظهور مراكز القوى الذي نشأ في بداية عهد المتوكل، حين أقر أولاد اخوته على ولايات آبائهم، مما جعل أمراء الأسرة يتنافسون فيما بينهم على الولايات وتوسيعها، ولم يستطع السيطرة عليهم وكبح جماحهم، وقد ظهر ذلك في آخر سنوات حكمه، بل وطمع بعضهم في الوصول إلى السلطة ــ حينما حاول تقليص نفوذهم كما رأينا سابقاً ــ حيث عمد علي بن أحمد أمير صعدة إلى إعلان نفسه إماماً في بداية عام(١٠٨٧هـ/١٦٧٦م)، وهذا

---

(١) بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني ، ص١٤٢ .

(٢) بنت الأمير : التطورات السياسية في القرن السابع عشر ، ص٥٨ ــ ٥٩ .

(*) التبن : بقايا قصب سنابل القمح والشعير، كان يستخدم أعلافاً للحيوانات ، ويمزج بالطين المعد لملاجة الغرف من الداخل .

(**) الرياح : ربما تكون الرباح بمعنى القرود ، وربما تكون الرياح بمعنى الطبول وآلة العزف المحلية . فإن كانت بمعنى القرود فهذا الطلب مقابل مكافحة القرود وصدها من الهجوم على المزارع والعبث بها وهو الأرجح لأن القرود كانت منتشرة حينذاك . وإن كانت بمعنى الطبول ، فهذا الطلب مقابل أجر المُزين الذي يقوم بالضرب عليها(قرعها) في مناسبات الأعياد والأعراس وحين يخرج حاكم المدينة للنزهة من بعد شروق الشمس إلى أذان الظهر، وهذه كانت عادة حكام وأئمة اليمن في جميع الولايات والمدن .

(٣) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن(خ):٢/ق٦٩ أ؛ أبو طالب: طيب الكساء:١٣٨؛ ابن الوزير: طبق الحلوى : ٣١١.

بدوره أضعف كيان وهيبة الدولة المركزية ، مما شجع قبائل المشرق على الاستهانة بالدولة والتمرد عليها، ومحاولةً انفصالها عن السُلطة المركزية .

وعلى كل حال لم يخيم الهدوء والاستقرار طويلاً على اليمن الموحد، فسرعان ما ظهرت الاضطرابات والنزعات الاستقلالية ، ففي عام (١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م)، أعلنت ظفار[*] العصيان ، فخرج عاملها إلى ميناء الشحر جنوبا، ومن هنا استولى آل كثير على ظفار وأعلنوا الطاعة الاسمية للإمام[١]، وقيل إنهم قتلوا عمال الإمام واستندوا إلى العثمانيين[٢] . وكذا أهل حضرموت طردوا عمال الإمام وقتلوا منهم بضعة أفراد ، ومنعوا دخول عمال الحسين بن الحسن بلادهم ، وهنا حاول المتوكل معالجة هذا الخلل، فاسند ولاية حضرموت إلى السلطان علي بن بدر بن عمر الكثيري ـ آتي الذكر ـ واكتفى منهم بالطاعة الاسمية [٣] .

أما في عام(١٠٨٦هـ /١٦٧٥م) فقد حاولت [قبائل] المشرق إثارة الاضطرابات وخاصة قبائل العولقي وذلك حين سمعوا بتوجه الجيش لصد الهجوم العماني على عدن[٤]، غير أن أحمد بن الحسن كان متيقضاً ، فأرسل حملة تمكنت من ردهم في جبل الفضلي[**][٥].

ثم تضاعف التنافس على السُلطة بعد وفاة المتوكل حتى وصل إلى الصدام المسلح بين المتنافسين، حينها تطلعت [قبائل] المشرق لاستغلال ذلك الفراغ الذي تركه المتوكل،حيث شنت الهياثم[***] هجوماً على حامية حصن دثينة[****]، فقتلوا بعض

(*) ظفار : اسم مشترك بين عدة مدن. والمقصود هنا ظفار الحبوظي ، الواقع على ساحل حضرموت داخل حدود دولة عُمان حالياً .(معجم الحجري: ٣/ ٥٦٤).

(١) أبوطالب : طيب أهل الكساء، ص١١٧.

(٢) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٢٦١ .

(٣) ابن الوزير : نفس المصدر، ص١١٧ ؛ بنت الأمير : التطورات السياسية ، ص٦٥ .

(٤) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن(خ): ٢/ ق ١٠٧أ؛ أبو طالب: طيب الكساء : ١٤٥؛ ابن الوزير: نفسه ، ص٣٢٠.

(**) جبل الفضلي: نسبة إلى آل الفضلي، وهم سلاطين أبين .(المقحفي : المعجم ، ٢/ ١٢١٧).

(٥) أبو طالب : نفس المصدر، ص١٤٥ .

(***) آل الهيثمي: من مشائخ بلاد الحواشب في لحج ، ديارهم في نواحي المسيمير ونواحي جول مدرم والدريجة. (معجم المقحفي : ٢/ ١٨٣٦).

(****) دثينة: منطقة تشمل أراضي مديريتي (مودية) و(لودر) من أعمال (أبين). (معجم الحجري: ٣٢٧/١ ـ ٣٢٨ ؛ المقحفي: المعجم،١/ ٦٠٢).

أفرادها ، واستولوا عليها[1]. ويبدو أن ذلك كان انتقاما من الدولة لحجزها السلطان الهيثمي، الذي أطلقه أحمد بن الحسن قبل الحادث بأيام قليلة[2] .

ولعل تغافل المهدي أحمد بن الحسن عن قمع العصيان الذي أعلنته قبائل يافع في آخر سنة (١٠٩١هـ/١٦٨٠م)[3] كان إيذاناً وتمهيداً لتطاولهم ، ومسانداً لهم في إعلان الاستقلال ومحاربة السلطة المركزية .

٢- انفصال المشرق عن الدولة وجهود المؤيد في استعادتها :

وبوفاة المهدي أحمد بن الحسن عام (١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م)انتقض عقد الدولة المركزية ، فاشتد التنافس فيما بين الأمراء على السلطة ، وزاد الوضع سوءاً شخصية المؤيد الزاهدة والضعيفة ، التي تميل إلى الاستكانة والهدوء ، وتحاشي سفك الدماء ، في وقت كان يحتاج إلى الشدة والبطش مع الحزم والعزم، مما أدى إلى توسيع الخلاف فيما بين الأمراء ، واشتد طمعهم على توسيع ولاياتهم للوصول إلى السلطة ، حتى استعانوا بيافع لضرب بعضهم البعض . ومن هنا وجدت قبائل المشرق فرصتها للانتقام لما أصابهم من جور وإهانة منذ بداية سيطرة الإمام المتوكل-كما سبق ذكره-.

فبينما كان المؤيد يساوم أمراء المنطقة الشمالية على مبايعته، والاعتراف به إماماً، إذ بلغ الصراع أوجه فيما بين أمراء المنطقة الجنوبية والشرقية، كل يريد توسيع ولايته على حساب الآخر، فاحتدم الصراع على "أبين" فيما بين الحسين بن الحسن وولد أخيه محمد بن المهدي أحمد، وفي تعز صراع آخر فيما بين الأخير وعلي بن المتوكل[4] .

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٢/ ق ١٦١أ ؛ ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص٣٤١ .

(٢) أبو طالب : طيب الكساء، ص١٦٥.

(٣) أبو طالب : نفس المصدر ، ص١٧٨.

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن،(خ) : ٣/ ق ١٩أ،٢١ ب ،٢٢ب ؛ انظر : الفصل الأول ، ص ٦٣ ــ ٦٤.

عند ذلك استغلت قبائل المشرق تلك الحروب لتعلن مساوئ ذلك الحكم وتعمل على نيل الاستقلال، حيث أبرمت فيما بينها تحالفاً(*) يهدف إلى شن الحرب ضد عُمال الأئمة وطردهم من المشرق ، وزاد في تقوية عزيمتهم كتاب محمد بن المهدي أحمد ــ إمام فترة الدراسة ــ ، الذي منح السلطان معوضة بن عفيف الولاية على بلادهم مقابل أن يطردوا حاكمها ويسجنوا عمه الحسين(١).

وفي منتصف شهر رمضان من نفس العام انفجرت ثورة المشرق بقيادة ابن العفيف والعولقي والهيثمي تعبيرا عن سخطهم فأعلنوا استقلالهم، وشنوا الحرب على حاكمهم صلاح مسمار الأهنومي، وتمكنوا من هزيمته ، في معركة ضارية قُتِل خلالها الكثير من أصحابه، فانسحب مضطراً من مدينة "القارة" ــ مقر إمارته ــ إلى مدينة مسجد النور للتحصن بها(٢) .

ولما علم الحسين بن الحسن بذلك أرسل حملة بقيادة ولده إسماعيل لإنقاذ الموقف، لكن القبائل تمكنت من ضرب الحصار على الجميع في مسجد النور، ثم تقدم الحسين بن الحسن إلى "الحلقة"(**)محاولاً رفع الحصار عنهم فلم يوفق، ثم استنجد بالإمام المؤيد والأمراء، غير أنهم تثاقلوا في النجدة، ولما طال الحصار وبَانَ عجز الحسين في إنقاذهم لكثرة القبائل المحيطة بهم، اضطر إلى مساومة الشيخ صالح بن هرهرة ــ الذي كان مرابطاً عنده ــ، على إخراجهم مقابل ترك بلادهم ورفع يد الحسين

(*) تذكر بعض المراجع أن تحالف قبائل المشرق فيما بينها، بدأ بتحالف ابن هرهرة سلطان يافع العليا مع ابن عفيف سلطان يافع السفلى، فكان للانتصار الذي حققه الحليفان دور كبير في تشجيع بقية القبائل للانضمام إلى التحالف، فتوسع ذلك الحلف ليشمل صالح بن منصور العولقي، وقاسم بن شعفل أمير خرفة حالمين، والسلطان أحمد بن علي الرصاص، وآل فضل، ثم توجهت جميع تلك القبائل بزعامة سلاطينها لحرب الأئمة، التي استمرت بين شد وجذب منذ عام (١٠٩٢هـ) حتى تمكنوا من الاستقلال عنهم بعد عام(١١٤٥هـ) كما سيتضح خلال هذا الفصل. (الحداد : تاريخ اليمن العام، ٤/ ١٣٤ ــ ١٣٥؛ القعيطي: يافع، ص١٦٢ــ ١٦٣؛ بن سبعة : من ينابيع تاريخنا، ص١٤٣؛ العبدلي: هدية الزمن، الجيل الجديد ، ص١٣٢ ؛ يحيى بن الحسين: بهجة الزمن (خ):٣/٣١أ ، ب).

(١) ابن عامر : بغية المريد، (خ): ص٢٩٧؛ يحيى بن الحسين: نفس المصدر (خ) : ٣/ ق ٢٧ ب.

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المصدر (خ) : ٣/ ٢٤ب ، ٢٦ أ ، ٢٧أ .

(**) الحلقة: قرية في جبل المفلحي من مديرية يافع وأعمال لحج. (معجم المقحفي: ١/ ٤٩٢).

منها. وعلى ذلك تم رفع الحصار وخرجوا إلى الحلقة يرافقهم الشيخ بن هرهرة خوفاً من هجوم القبائل عليهم[1] .

وعلى ما يبدو أن نشوة انتصار قبائل المشرق وكثرة الغنائم قد شجعهم على تأكيد التحالف لانتزاع ماتبقى من بلادهم حيث "قالوا: نقصد حسين بن حسن ونخرجه من حدود بلادنا، والحلقة هي حد بلاد يافع ، فتعاقدوا جميعاً على القتال كالمعاقدة الأولى ، وقالوا : نحمل عليهم للقتال بأجمعنا، ولا نبالي بالبنادق، وأن من سقط منا ندعسه بأرجلنا، ونلاحمهم بالسلاح، ويروح من راح، فقصدوهم على هذه الإشارة والنية"[2]. ووثبوا على أصحاب الحسين وهم في الحلقة منتظرين المدد، فوقعت بينهما معركة جسيمة، وعلى رغم القتلى الكثيرة التي سقطت من يافع إلا أنهم تمكنوا من تعزيز قواتهم وشددوا الضرب والحصار عليهم وقتلوا الكثير منهم حتى عجز البقية عن المقاومة "ولم يبق لهم طاقة على مقاتلتهم، لكثرة جمعهم وعدم وصول مدد الحسين بن الحسن تعينهم، فلما[يئس أميرهم] عن القدرة عليهم خاطب في الخروج عنهم وطلب الأمان، فبذل الشيخ العفيف، وهو يومئذ رأسهم والمتبوع فيهم. وخرج من الحلقة مكسوراً مهضوماً في الليل خشيةً من قبائل الرصاص"[3].

وفي الوقت نفسه كانت الإمدادات قد وصلت إلى الزهراء بقيادة الحسين بن المتوكل، غير أن قبائل الرصاص شنت عليهم الحرب، فمنعتهم عن التقدم إلى الحسين ابن الحسن وإنقاذه، وصادف أيضاً احتراق مخزن البارود، فانفجر حصن الزهراء مما أسفر عن مقتل أربعمائة جندي، وجرح مثلهم، من ضمنهم قائد الحملة الحسين بن المتوكل[4].

وبذلك تم انسحاب الحسين بن الحسن ومن بقي لديه إلى رداع، واستقلت قبائل المشرق عن حكم الأئمة[5]، في (شوال ١٠٩٢هـ/ ديسمبر ١٦٨١م). واستولوا على

---

(١) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن(خ) : ٣/ ق ٢٨ب،٢٩ب ؛ ابن عامر : بغية المريد (خ): ص٢٩٦ ــ ٢٩٧، غير انه لم يحدد تاريخ الحادث .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق٣١ أ .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق٣١ أ ــ ب .

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق٣١ ب ــ ٣٢ ب .

(٥) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٣٠١ ؛ يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ٣٣أ .

جميع ما تركه عُمال الحسين، من المنقولات والعقارات وغيرها، حتى زوجة مسمار التي كانت من يافع تزوجها السلطان بن عفيف[١] ، نكايةً بالمذكور .

بعد ذلك تحول موقف المشرق كليةً من المقاومة لنيل الاستقلال إلى الهجوم على مناطق نفوذ الدولة، وأصبحت شوكة في ظهر الأئمة تقلق منامهم وتكدر أحلامهم، فلم تمض إلا أيام قليلة حتى هجم ابن شعفل على مدينة قعطبة في شهر ذي القعدة عام(١٠٩٢هـ/ يناير ١٦٨٢م)، فنهبها "وأخذ ما في أسواقها، وقال : قد هو أولى بنهبها لأنها في حدود بلاده، وهو يخشى من غزو يافع إليها، فيستأثروا بها عليه وأصحابه، وأن الدولة قد صارت مفترقة"[٢].

وفي الوقت نفسه شنت قبائل الصبيحة[*] والحواشب[**] هجوماً على لحج فنهبوا "أطرافها وأخافوا طرقها"[٣]، وأظهر صاحب المنصورة فشله في التصدي لهم ولا بن شعفل وقبائل الجحافل الذين غزوا على طريق الدمنة ونهبوها.

ولقد استمرت غزوات قبائل المشرق على أطراف البلاد الإمامية فانتشر النهب والسلب، وانقطعت طرق التجارة؛ كل ذلك وأمراء الأسرة القاسمية منشغلين بشن الحروب فيما بينهم وإحاكة المؤامرات ضد بعضهم البعض، بل والاستعانة بتلك القبائل لضرب بعضهم، ففي شهر صفر عام (١٠٩٣هـ / فبراير ١٦٨٢م)، أرسل المؤيد حملة لإخضاع صاحب المنصورة، فتحالف الأخير مع ابن شعفل لصدها. وفي الوقت نفسه أرسل إلى قبائل يافع يأمرهم بنهب قعطبة، كنوع من التعاون معه ليصرف علي بن المتوكل عن التعاون مع تلك الحملة وللنكاية به أيضا، فشنوا الهجوم عليها وعبثوا بها[٤] .

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣ ق٩٤ ب .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣ / ق ٣٣ أ ، ب .

(*) الصبيحة : من أصابح المعافر . تمتد بلادهم على الساحل من باب المندب حتى رأس عمران في غربي وادي لحج. (معجم المقحفي : ١/ ٨٩٧).

(**) الحواشب : قبيلة منازلها أعلى وادي تبن في مناطق المسيمير والراحة والحرور والدريجة وجول مدرم والملاح . (معجم المقحفي : ١/ ٥٢٥).

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣ ق ٣٦ ب.

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المصدر (خ) : ٣/ ق ٤٢ب ، ٤٤ ب .

في حين لم يلتفت المؤيد نحو المشرق إلا بعد حصوله على بيعة صاحب المنصورة محمد بن المهدي في (صفر ١٠٩٣هـ/ فبراير ١٦٨٢م) ، وبعد إلحاح شديد من الحسين بن الحسن بدأ المؤيد يجمع الأمراء والعلماء والأعيان واستشارهم في تجهيز حملة لإخضاع المشرق، واستعادته تحت السلطة المركزية، غير أن بعضهم أشاروا بعدم وجود المبرر الشرعي لغزوهم لكونهم منتمون للدولة وقائمون بما عليهم كتسليم الواجبات وحماية الطرقات، وما تمردهم وعصيانهم إلا بسبب شدة الجور الواقع عليهم من الولاة وعدم الإنصاف للشكاة، فمال المؤيد إلى ذلك الرأي، وسلك سياسة المراسلة، نظراً لميله إلى الاستقرار، وحبه لحقن الدماء، حيث أرسل إلى الشيخ الرصاص يستميله، فأجاب عليه بأنه تحت الطاعة، بشرط رفع الولاة من بلاده وبقائها تحت يده وهو مستعد بإصلاح شؤونها وتأمين الطرقات وتوريد الواجبات إلى خزينة الدولة [١] .

وخلال ذلك قام علي بن بدر بن عمر الكثيري بالاستيلاء على ميناء الشحر وطرد عامل صاحب المنصورة ، وتبعه العولقي باستيلائه على ميناء أحور، ثم قامت القبائل بنهب أبين وقطعوا طريق عدن، عند ذلك أرسل صاحب المنصورة حملة، بقيادة ولده الحسن لتأديبهم، وأرسل بالبلاغ إلى الإمام المؤيد، الذي عزم على تجهيز حملة كبيرة لإخضاع يافع واستعادتها، فأمر جميع الأمراء والولاة بالاستعداد وجمع التجهيزات اللازمة لذلك . فاجتمع الكثير من الأمراء في ضوران، وخلال ذلك حصل بينه وبين صاحب المنصورة اختلاف، مما جعله يأمر بتوقيف التجهيزات لحين إشعار آخر [٢].

أما يافع فقد أجابوا على المؤيد بأنهم سوف يوردون الواجبات بشرط بقائهم على بلادهم وأن لا يتولاهم الحسين بن الحسن، ومع ذلك فقد جدوا في أخذ الحيطة والحذر ، وعملوا على تحصين جبل العر، فحفروا فيه خنادق وبنوا فيه القلاع والمتاريس الحربية وحفروا أخاديد وشحنوها بالبارود، ليتم تفجيرها حال دخول جيش الإمام ، وصاروا

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ٥٣ ب ، ٥٥ ب .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المصدر (خ) : ٣/ ق ٥٧ ب — ٥٩ أ .

مستعدين بالمال والرجال، إضافة إلى أنهم راسلوا السلطات العثمانية للاستعانة بها في التغلب على جميع اليمن [1].

وفي مستهل عام(١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م)، اجتمعت السرايا والكتائب بقوادها وأمرائها من جميع أنحاء اليمن، فبلغ عددهم حوالي " أثنى عشر ألفاً أو يزيدون" [2]، استعدادا للتقدم على المشرق، واستعادة إخضاعهم، وحال تجمعهم في ضوران؛ قام المؤيد بتعبئتهم، وأمّر عليهم الحسين بن المهدي أحمد، ثم ودّعهم وحين وصولهم إلى الزهراء[*] في شهر صفر، تقدم إليهم الرصاص معلناً الطاعة ومبدياً استعداده في مساندتهم، عندئذ أرسلوا إلى ابن العفيف لعله يعود تحت الطاعة بدون قتال ــ حسب توجيهات الإمام ــ ، لكنه رفض ذلك ، وقد قيل إن صاحب المنصورة شجعه على المقاومة وتحالف معه ضدهم[3]. مع ما سبق من استعداد قبائل المشرق ــ كالعولقي والهيثمي والحوشبي والحميقاني وابن شعفل وبلاد دثينة ــ الذين اجتمعوا في جبل العر "حتى كانوا فوق عشرين ألفاً"[4] . ولم تصل الحملة التي عسكرت في أسفل ذلك الجبل (بداية شهر ربيع الأول) إلا بعد أن أمعنت القبائل في تحصينه[5] ، لذلك منيت الحملة بهزيمة ساحقة وسقط الكثير من أفرادها قتلى[6]، كان من ضمنهم الأمير أحمد بن محمد ابن الحسين الملقب بــ(حجر) وسبعين من أصحابه[7]، ولاذ البقية بالفرار، حينها خرجت القبائل من متاريسها لمطاردة فلول المنهزمين، وتتبعوهم بالقتل والسلب ونهبوا المعسكر والسوق[8]، ومن استطاع النجاة تحصن في حصن جوهر ــ جنوب الزهراء ــ، غير أن القبائل أحاطت بالحصن، وشنت عليهم الحرب، حتى تم الصلح بينهم، على أن

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ٥٩ أ ــ ب .

(٢) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص ٢٧٨ .

(*) الزهراء : من قرى ذي ناعم الواقعة شمال غرب البيضاء . (معجم الحجري : ١/ ١٣٥؛ معجم المقحفي: ١/ ٧٤٧) .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن(خ) : ٣ / ق ٦٣ أ ؛ ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص ٢٧٩ .

(٤) ابن عامر : نفس المصدر (خ) : ص٢٧٩ .

(٥) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، (خ) ٣/ ق ٦٤ أ .

(٦) أبو طالب : طيب الكساء ، ص١٨٩ .

(٧) يحيى بن الحسين : نفس المصدر (خ) : ٣/ ق ٦٥ أ .

(٨) ابن عامر : بغية المريد (خ): ص٢٧٩ ــ ٢٨٠ .

يخرجوا من الحصن بدون السلاح، غير أن الحسين بن المهدي رفض تسليم السلاح، ودفع عوضاً عنه أربعة عشر ألف قرش مقابل الأمان، فخرجوا بسلاحهم ترافقهم قبائل المشرق لحمايتهم إلى أن وصلوا الزهراء[1]، ومنها عادوا إلى رداع .

لقد أفقدت تلك الهزيمة الفاضحة هيبة الدولة، أو بالأصح ما بقي لها من الهيبة، ففتحت المجال أمام القبائل الأخرى لإعلان العصيان والفتك بالعمال، حيث تعقب ذلك خلاف وعصيان قبائل الحجرية، ثم تتابع العصيان في العدين وقيفة وشمير وشرعب "وخالف جميع اليمن الأسفل"[2]، وكل ذلك نتيجة حتمية لأطماع أمراء الأسرة الحاكمة وانتشار التنافس فيما بينهم .

كما كان لتلك الهزيمة وقعاً كبيراً في نفس المؤيد "ومثار شعور أمراء بيت القاسم بالخيبة والهزيمة"[3]، إلا أن المؤيد لم يستطع فعل أي شيء لعدم انضباط الأمراء لتوجيهاته، وفراغ الخزينة من الأموال، لذلك أصدر توجيهاته إلى أمراء المناطق المجاورة للمشرق بالتيقظ وتعزيز التحصينات خوفاً من هجوم قبائل المشرق عليهم، فمكث الحسين بن الحسن في رداع خائفاً من هجومهم على ولايته، و كذلك علي بن المتوكل في قعطبة، أما صاحب المنصورة محمد بن المهدي، فقد كان مشغولاً بإخماد عصيان منطقة الحجرية [4].

يبدو أن ذلك الانتصار الذي أحرزته قبائل المشرق قد وسّع طموحها الذي بدا واضحا من مضمون تلك الرسالة التي أرسلها الشيخ علي بن هرهرة إلى الأمير علي بن المتوكل يخبره فيها بأنه قادم إليهم يصحبه "من الجيش المنصوري ستين ألف"[5] لغرض الإصلاح بين صاحب المنصورة وأهل ولايته، ولعل هذا ما أثار الخوف والذعر في نفس علي بن المتوكل مما جعله يرسل بالأموال لاستمالة ابن العفيف، وغيره من

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ٦٦ أ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المصدر (خ) : ٣/ ق٧٢ ب .

(٣) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، ص٧٤ .

(٤) انظر : ما سبق ، ص ٦٢-٦٥.

(٥) ابن عامر : بغية المريد، (خ) : ص٤٢٠.

مشائخ المشرق، فتمكن بواسطتها من انتزاع موافقتهم على إبرام اتفاقية فيما بينهم، فأبرمت في شهر شعبان وكان من أهم بنودها الاستقلال بحكم بلادهم، والتنازل لهم عن بعض المواضع زيادة على بلادهم[1]، وذلك مقابل أن يسلموا الواجبات للمؤيد، وأن يذكروا اسمه في الخطبة والسكة، وإصلاح الطرق وسكون الفتن، ثم أرسلوا بالاتفاقية إلى المؤيد للمصادقة عليها[2]. وحذا حذوه صاحب المنصورة وصاحب رداع فيما يبدو[3].

ومن هنا انتهت علاقة المؤيد العدائية مع أهل المشرق، وبدأ أهل يافع بإرسال الزكاة والفطرة إلى المؤيد مباشرة بدون وساطة العمال[4]، على حسب الاتفاقية السالفة.

ويبدو أن ارتباطهم المباشر بالمؤيد قد أغضب الحسين بن الحسن، لأنها كانت من ولايته، فجعل يكرر الرسائل إلى المؤيد يعاتبه لعدم التجهيز على يافع، ثم هدده إن لم يفعل فسوف يتحالف مع ولد أخيه (صاحب المنصورة) ، وكانت إجابات المؤيد توحي بالمماطلة لالتزامه بتلك الاتفاقية المذكورة . لذلك تحول ميدان الصراع من السُلطة الرسمية إلى الولاة الطامحين، بقيادة محمد بن المهدي أمير المنصورة ، وهو إمام فترة الدراسة ، وقد اتضح دوره جلياً منذ البداية .

٣- موقف محمد بن أحمد من المشرق خلال عهد المؤيد:

لقد رأينا خلال الأسطر السابقة أن أمير المنصورة كان السبب الثاني لتجدد عصيان المشرق واستقلالهم، بعد جور وظلم عمه الحسين فيهم، وقد مر معنا مراسلته إلى يافع يأمرهم بإعلان الحرب على حاكمهم والقبض على عمه وزجه في السجن، وجعل لهم مقابل ذلك الولاية على بلادهم . ثم تحالف معهم، وأوعز إليهم بأن ينهبوا قعطبة، للنكاية بعلي بن المتوكل، وحال التجهيز عليهم بقيادة أخيه الحسين بن المهدي،

(١) أبوطالب : طيب الكساء، ص١٩٤، نقلاً من رسالة علي بن المتوكل إلى أخيه المؤيد .
(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٨١أ،١٨٣أ،١٨٤أ .
(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص١٩٤، نقلاً من رسالة علي بن المتوكل إلى أخيه المؤيد.
(٤) يحيى بن الحسين : نفس المصدر (خ) : ٣/ ق ١٨٧أ ، ١٩٢أ .

أرسل بدوره ولده الحسن إلى مساقط يافع لمساعدتهم ضد تلك الحملة، فكان من ضمن أسباب هزيمة الجيش، وتفوق يافع، ولم يقف عند ذلك بل منحهم ولاية في جُحاف وبعض مناطق من أبين وغيرها من المناطق .

وأخيرا جاء الوقت الذي تحولت فيه تلك الصداقة والعلاقة الحميمة إلى عداوة والدخول معهم في صدام وصراع عنيف يثور تارةً ويهدأ أخرى . ليحصد بذلك تلك الأشواك التي زرعها منذ بداية عهد المؤيد .

وهنا سؤال يطرح نفسه : ما هو السر أو السبب الذي عكَّر صفو تلك العلاقة ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال هناك ملاحظة يبدو أن لها دوراً كبيراً في تحويل تلك العلاقة، والتي تكمن في منح المؤيد لصاحب المنصورة بلاد يافع في آخر عام (١٠٩٤هـ / ١٦٨٢م)، وذلك لضمان هدوءه ولكفه عن إثارة القلاقل والفوضى، وهذه لها أبعاد سياسية أخرى، وللإجابة على هذا السؤال يجب علينا أن نتتبع خطواته السياسية، من بعد عقد الصلح أو الاتفاقية فيما بين يافع والمؤيد بواسطة علي بن المتوكل في شهر شعبان من العام نفسه، فكان مشغولاً حينها بإخضاع تمرد بلاد الحجرية، وبلاد شمير، وغيرها من مناطق ولاياته ـ كما سبق ذكره .

وحين فرغ منهم التفت نحو إخضاع الأمير قاسم بن شعفل الحالمي وبلاده، الذي كان يدفعه للهجوم على قعطبة ونهبها نكاية بعلي بن المتوكل ، غير أنه تطاولت يده فيما بعد، وصار يُغيرُ على طريق عدن، وينهب القوافل المارة إلى صنعاء، ومن هنا كانت المطاردة لهذا الأمير فأرسل عليه في عام(١٠٩٤هـ/١٦٨٣م) حملة بقيادة أحد أولاده لإخضاعه، إلا أنه لاذ بالفرار إلى الجبال، غير أن أحد المصادر أشار إلى أن هذا الولد عاد منتصراً يجر الأسرى المحملين برؤوس القتلى[١].

وفي شهر (ربيع الأول ١٠٩٦هـ/ فبراير ١٦٨٥م) أعاد صاحب المنصورة الكرة على ابن شعفل، فوقعت بينهما معركة هُزم إثرها الأخير، ولاذ بالفرار إلى جبل حرير،

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر (خ) : ١/ ق ٢٨ ب .

فتتبعه ولده عبدالله وأقتحم الجبل، فاضطر الأمير أن يلوذ بالفرار إلى يافع مستنجداً ، وهم في الصلح المذكور، فتغير المؤيد من صاحب المنصورة[١].

حينها قامت يافع بالنفير وأحاطت بالجبل من كل جانب ، فوقعت بينهما معركة جسيمة سقط خلالها الكثير من القتلى، خاصة من يافع، الذين بلغوا حوالي سبعمائة قتيل، نظراً لتحصن عبدالله وأصحابه في البيوت، فكان القتل في يافع "مثل القتل الذي وقع منهم في الحرب السابق، جاءت رمية من غير رام، و إلا فان صاحب المنصورة غير قاصد بذلك الانتقام بالثأر"[٢]، ورغم ذلك إلا أنهم صمدوا، وتمكنوا من ضرب الحصار على عبدالله، حتى أجبروه على إبرام الصلح، والانسحاب من الجبل، في حين كان والده يكرر الرسل إلى المؤيد يطلب سرعة الإمداد، الذي أبدى موافقته بعد سماعه بالانتصار، إلا أنه واجه لوماً شديداً من أخيه علي بن المتوكل لأنه أعتبر ذلك خرقاً للاتفاقية المبرمة أنفاً[٣]، ولعل ذلك كان سبباً في إحجام المؤيد عن إرسال المدد .

مما سبق يتضح أن صاحب المنصورة دخل في معركة غير مقصودة، ولم تكن متوقعة، لأن هدفه يكمن في تأديب ابن شعفل، الذي يعتبر من ضمن ولايته ، لذلك نعتقد أن يافع عكَّرت صفو العلاقة الودية التي كانت بينهما فتحولت إلى علاقة عدائية دائمة بدايةً من نجدتهم لابن شعفل .

وعلى كل حال فقد اتسم الوضع بعد تلك الحادثة بالهدوء النسبي، إلا أن يافع مازالت مقهورة على قتلاها الذين سقطوا في معركة حرير، لذلك كانت تسعى لإيجاد فرصة للأخذ بالثأر، والانتقام من صاحب المنصورة ، وربما زاد من حماسهم وصول بعض الشخصيات الناقمة، والساخطة من حكم الأسرة القاسمية، كان منهم محمد بن علي الغرباني (ت : ١١٢٦هـ / ١٧١٤م)، ذلك الطامح إلى الإمامة منذ عهد المتوكل إسماعيل، فعملوا على تحريضهم وتشجيعهم لإثارة الفوضى والقلاقل في وجه الدولة[٤].

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٠١ب ــ ١٠٢أ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٠٣أ .

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ١٩٣ ــ ١٩٦

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المصدر (خ) : ٣/ ق ١١١ب .

ففي شهر (محرم ١٠٩٧هـ/ ديسمبر ١٦٨٥م)، اتخذت قبائل يافع من وفاة حاكم لحج فرصة للاستيلاء على لحج وأبين بحجة أن معهم ولاية عليها سابقة من أمير المنصورة، وكان الغرباني المذكور أمير المتقدمين على جُحاف، غير أن صاحب المنصورة أرسل عليهم حملة استطاعت طردهم من تلك المناطق[١]. وفي نفس الوقت كان يكرر الرسائل يحث المؤيد على النجدة والإمداد، الذي قام بدوره بإصدار التوجيهات إلى أمراء الولايات بسرعة جمع المقاتلين والمؤن لتجهيز حملة كبيرة لإخضاع المشرق، غير أن الأمراء كانوا مشغولين بالصراع فيما بينهم، لتوسيع ولاياتهم وسطو بعضهم على بعض، لذلك أشار عليه بعض الأعيان بإرسال بعض العساكر لحفظ البلاد التي استعادها أمير المنصورة فقط . فوافق الإمام على ذلك، وأرسل بعض السرايا فوصل بعضها إلى قعطبة، وبعضها الآخر دخلت جبل حرير وعززت ترتيبها هناك. وهذا ما أفزع يافع وأثار الخلاف فيما بينهم، فمن جهة كان البعض يريد الصلح والتفاهم، والبعض الآخر يريد المقاومة، ومن جهة أخرى أرسلوا للاستنجاد بالدولة العثمانية [٢]. غير أن مرض المؤيد ووفاته قد أوقف تحركات الطرفين .

ثانياً : محاولة المهدي محمد استعادة المشرق :

لقد رأينا كيف تمكن الأمير محمد بن المهدي ـ حاكم المنصورة ـ من الاستيلاء على السلطة بحد السيف متلقباً بالناصر بعد وفاة المؤيد بن المتوكل، لذلك كان هدفه الثاني يكمن في مد سيطرته الفعلية على المشرق (يافع وأحلافها) وذلك لعدة أسباب منها :ـ

١- أنه كان طموحاً جداً وقد بلغ في تحقيقه إلى استيلائه على ميناء "زيلع" في الصومال وإحكام السيطرة على باب المندب من الجهتين، كما حاول مد نفوذه إلى الحجاز ليذكر اسمه على منابر الحرمين الشريفين ومنافسة الدولة العثمانية في هذه المكانة الدينية العظيمة .

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق١١٤ ب ، ١١٦ب.

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق١١٧ أ ـ ١١٨ب .

٢ـ كانت يافع وصمة عار بالنسبة للإمام ومصدر انتقاد من جهة أمراء أسرته ومنافسيه فكيف يحاول إخضاع البلاد التي خارج اليمن ؟ وهو لم يستطع إخضاع البلاد القريبة منه ! وبالتالي كان يحاول إثبات جدارته، وتحقيق ما عجز غيره عن تحقيقه .

٣ـ تعاظم قوة يافع وتطاولها على حدود الإمامة حتى أصبحت شوكة تخز في خاصرة الدولة بغزواتها المتكررة بين الحين والآخر والإغارة على قعطبة والبيضاء وإب ، لذلك كانت مصدر قلق للدولة، وإثارة للفوضى والقلاقل .

لهذا وذاك فقد كان يجرد عليهم الجنود والكتائب التي كانت كالبحار المتلاطمة وينفق عليهم النفقات الواسعة التي أشاد بها مؤرخوا عصره، وأحيانا أخرى كان يلجأ إلى وسائل الترغيب والاستمالة، بمنح المشائخ المقررات والهبات والمناصب وغيرها، إضافة إلى استخدام المصاهرة، وكذا استخدام وسيلة (فرق تسد) ، وغير ذلك من الوسائل التي سوف نحاول مناقشتها خلال هذه الأسطر .

أ- فشل سياسة العنف في المشرق :

لم يتمتع أمير المنصورة بذلك النجاح الذي حققه في إخضاع ابن شعفل وتضييق الخناق على يافع وغيرهم ، فحروب التنافس على السلطة التي أعقبت وفاة المؤيد قد أنهكت قوى الدولة وأفقدتها هيبتها ، الأمر الذي استغلته قبائل المشرق ، حيث حاولت يافع تخطف أطراف البلاد والسطو على المناطق التي تمت سيطرته عليها سابقاً، بينما حاول ابن شعفل السيطرة على" لحج" لإيجاد منفذ لمزاولة نشاطهم في ميناء "عدن" الذي حرمهم الإمام من مزاولة نشاطهم فيه ، كنوع من العقوبات الاقتصادية التي فرضها عليهم حتى يدينوا له بالولاء والطاعة[1] ، وكذلك حاولوا التدخل فيما بين المتنافسين، حيث أرسلوا إلى الحسين بن علي بن المتوكل ــ أمير إب ــ يعرضون عليه مساعداتهم حال انحصاره في "جبلة"، غير أن جيش الناصر سرعان ما حسم الموقف ، بالسيطرة

(١) يحيى بن الحسين ، بهجة الزمن، (خ) : ٣/ ق ٥٨ أ .

على جبلة وإرسال أميرها أسيراً إلى المنصورة . ومن هنا أذعنت بقية المناطق بالطاعة والولاء لصاحب المنصورة خوفاً من سطوته ـ كما تقدم ـ [1].

وما أن تسلّم الناصر موالاة الأمراء في(شوال ١٠٩٧هـ / أغسطس ١٦٨٦م) حتى أعلن الاستنفار لتأديب المشرق، فأصدر توجيهاته إلى الأمراء لجمع الجنود والعدة والعتاد، ثم أرسل حملة بقيادة ولده يحيى إلى لحج، وأخرى بقيادة ولده إسماعيل إلى "قعطبة" لغرض تعزيز القوة المرابطة هناك، ريثما تأتي التعزيزات من الأمراء "معتقدا من آل القاسم النجدة والنصرة"[2].

وهنا نلاحظ مقاومة المشرق السياسية والعسكرية معاً، فمن جهة تقدموا لحرب إسماعيل في قعطبة، ورغم كثرة القتلى الذين سقطوا منهم في المعركة إلا أنهم تمكنوا من ضرب الحصار على إسماعيل وقواته في المدينة، حتى ضاق ذرعاً من شدة ضغطهم فأضطر إلى عقد صلح معهم، تكمن أهم بنوده في إخلاء المدينة من جميع الأطراف، وعودة كلٍ منهم إلى بلاده ، غير أن يافع دخلت المدينة بعد انسحاب إسماعيل منها وعملت فيها النهب والسلب والقتل، وهدم المنازل التي وقع منها الرمي، وعادت إلى بلادها. وشنوا الحرب أيضاً على يحيى بن الناصر في لحج، وسقط الكثير منهم قتلى[3]. ومن جهة أخرى أرسلوا إلى يوسف بن المتوكل ـ أحد منافسي الإمام ـ ، رسالة أخبروه فيها بأنهم تحت الطاعة وليس هناك مبرر شرعي لشن الحرب عليهم، ويبدو أن هذه الرسالة كانت من أهم الركائز التي استند عليها يوسف في التنديد بفساد حكم الناصر وجعلته يتحالف مع الأمراء، ثم أعلن دعوته وحاولوا جميعا الإطاحة بالإمام فعاد الصراع على السلطة مجدداً ليستمر عاماً كاملاً[4].

ويبدو أن دور يافع الإزدواجي قد أتضح جلياً خلال الحصار الذي ضربه التحالف على الناصر، فكانت تسعى إلى تحقيق مصلحتها والاستفادة من طرفي النزاع، حيث

---

(١) انظر : الفصل الأول ، ص ٦٩.

(٢) الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ٨ ب .

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٤١أ .

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٤٣ب ؛ انظر : الفصل الأول ، ص٧٤ وما بعدها .

نجدها في الوقت الذي تحالفت فيه مع يوسف تقوم بعقد صلح مع الناصر، وحين اشتد الحصار عليه طلب منهم المساعدة مقابل أن يجعل لهم ولاية على لحج وعدن، غير أنهم ابدوا اعتذارهم، وأجابوا عليه بأنهم ملتزمون بالحياد وهدفهم حفظ بلادهم فقط، لكنهم قاموا في الوقت نفسه بمضايقة الناصر وتخطفوا أطراف البلاد لصالحهم [١].

وبعد انتصار الإمام على مناوئيه في منتصف عام (١٠٩٨هـ/١٦٨٧م) عقد مع يافع هدنة[٢] ، وذلك ليتمكن من مطاردة مناوئيه، ولعل هذه الهدنة قد أثارت الذعر في نفوس الأمراء مما دفع بالحسين بن المتوكل إلى إرسال الأموال إلى يافع لعرقلة حركة الإمام، ولعل تلك الأموال قد أثارت حقدهم ضد الإمام نظراً لتمكنه من حصرهم في بلادهم، ومنعهم من الوصول إلى مدينة عدن وممارسة نشاطهم التجاري فيها، ومن هنا نبذ أهل يافع الهدنة وقاموا بتخطف أطراف البلاد حتى نجحوا في المهمة الموكلة إليهم، حين قاموا بالهجوم على لحج وقتلوا أكثر من مئة فرد من أفراد حاميتها، واستولوا عليها بحجة أن معهم ولاية عليها من جهة يوسف . فكانوا سببا في إحجام الناصر عن التقدم نحو المناطق الشمالية وتحويل قواته نحوهم [٣].

ففي شهر (ذي القعدة ١٠٩٨هـ/ سبتمبر ١٦٨٧م) كان الناصر معسكرا في هران شمال ذمار على وشك الانطلاق للاستقرار في صنعاء، ولكن أخبار استيلاء يافع على لحج ، غيَّر برنامج سيره وأدرك أنه لن يستطيع الاستقرار في الحكم إلا بعد أن يتمكن من إخضاعهم والسيطرة عليهم، وكاد أن يتفجر من شدة الغضب، وعقد اجتماعا طارئاً لمناقشة الترتيبات التي يتم اتخاذها لإخضاع المشرق، ولما حاول الأعيان إقناعه بتأجيل ذلك بسبب أوضاع الدولة السيئة التي أنهكتها الحروب الداخلية، زاد ذلك من غضبه وفض الاجتماع وأمر بالنفير ، وركب على جواده وأظهر بأنه "سيهجم بنفسه على ابن العفيف"[٤]، لكن تلطَّف به العلماء "وقالوا : بعض مقادمتك [قوادك] يكفيك هذا

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر، (خ) : ١/ ق ٣٢أ، ب.

(٢) الداعي : الدامغة الكبرى (خ) : ٢/ ص ١٧٥.

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٤٤أ ، ١٧٠أ.

(٤) أبو طالب : طيب الكساء ، ص٢١٣.

ويغني"[1]، حتى استطاعوا إقناعه بالتمهل قليلاً . ورغم ذلك إلا أنه أرسل بعض المقدمات حتى تجتمع الجيوش الكثيفة ، حيث أرسل بعض السرايا عن طريق لحج وأخرى عن طريق قعطبة، مما أخاف يافع وجعلها تنسحب من لحج ، ثم أرسلت بالبيعة للإمام وأعلنت الولاء والطاعة [2]، غير أن الإمام لم يلتفت إلى موالاتهم تلك واستمر في إصدار توجيهاته إلى الولاة بسرعة إرسال الجنود والتمويلات العسكرية، ومن تأخر منهم كان يُقَلِّص من ولايته إن لم يعزله عنها. لذلك أجتمع عنده جنود كثيرة بالأمر القاهر . وكلما وصل إليه مجموعة أو سرية منهم كان يرسلهم إلى رداع ، ويأمرهم بالانضمام تحت قيادة عمه الحسين بن الحسن[3] .

وعلى ما يبدو أن خطة الناصر كانت تهدف إلى اكتساح يافع من ثلاث جهات، فأرسل حملتين صغيرتين، كانت الأولى بقيادة أخيه المحسن بن المهدي أحمد وأمره بالزحف على يافع عن طريق قعطبة، والثانية بقيادة علي بن يحيى بن المؤيد وأمره بالهجوم على يافع من جهة لحج وأبين، والحملة الثالثة وهي الأكبر بقيادة عمه الحسين وأمره بالزحف من جهة رداع [4] .

لقد انطلقت الحملة الأولى من قعطبة وتمركزت في جبل حرير من بلاد ابن شعفل، أما الحسين بن الحسن فقد اقتحم الزهراء[5]، وعسكر فيها ـــ بعد فرار قبائل الرصّاص منهاـــ، وهنا انتاب الناصر القلق وأخذ يكرر الرسل إلى عمه يأمره بسرعة الهجوم على البيضاء، وكان الحسين يتعلل بأن المراسلة مستمرة بينه وبين يافع بواسطة الرصاص، وأنهم على وشك الوصول إليه لتقديم الطاعة[6]. لكن الناصر صمم على اكتساح يافع بالقوة وفرض الأدب عليهم واستخراج الواجبات منهم[7]،"وأخذ ما قد أخذوه على

---

(١) أبو طالب : نفس المصدر والصفحة .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٧٠أ .

(٣) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢١ أ ــ ب ؛ العابد : تهذيب الزيادة (خ) : ١٩٣ ــ ١٩٤

(٤) الضبوي : عقد الجواهر (خ) : ق ٢٠ب .

(٥) ابن عامر: بغية المريد (خ): ٣٠٢؛ أبوالرجال: الروض الزاهر (خ):٢/ ق ٧٧أ، وأشار أبوطالب أنه وصل إلى الحلقة (السحر المبين: ق ٢١ب).

(٦) ابن عامر : المصدر السابق . ص٣٠٢

(٧) الضبوي : نفس المصدر (خ) : ق ٢١أ.

الناس، وما جرى منهم سابقاً من العناد"[1]، وقد سبقت الإشارة إلى عدم قناعة الحسين بغزو يافع نظراً لعدم توفر الإمكانيات اللازمة لذلك، كما ظن أن الجيش غير مؤهل للانتصار، ولكن الإمام كان مصمماً على الزحف، لذلك لاحت الفرصة للحسين بالاتفاق مع الجيش الكثيف، ومع يافع لإعلان إمامته وعاد إلى رداع[2]، مما جعل الناصر يعقد صلحاً مع يافع ويلتفت لإخماد تمرد عمه، ومن هنا فشلت تلك الحملة، واختل نظام تلك الجنود المرابطة في جبل الشعيب ولحج[3]، واستدعاهم الناصر إليه .

يبدو أن قبائل يافع وأحلافهم أدركوا أن لا طاقة لهم إلى مقاومة جيوش الناصر وقد رأينا فشل مسعاهم في إقناع الإمام بعدم الزحف عليهم ، وقدموا له فروض الطاعة. وفشلوا كذلك في الاستنجاد بشريف مكة ، حيث كرروا الرسائل والرسل إليه يحثونه بالزحف على اليمن من جهة تهامة، وهم يساندوه من جهتهم ، وسهلوا له العملية[4]. لهذا فلا يستبعد أن دعوة الحسين بن الحسن كانت من ضمن مساعيهم الناجحة، وأنهم أطمعوه بمساندتهم له، وربما أنهم أبرموا معه الاتفاق الذي أشار إليه أحد المراجع حيث قال : "وتم الاتفاق مع الإمام الحسين بن الحسن الذي كان في رداع حينها على إخماد نار الفتنة المشتعلة في كافة الجوانب البري منه والبحري، وتم الاتفاق على توحيد الصف والرأي والمشورة ، حيث وافق الطرفان على توحيد السلطة شريطة أن يكون العامل الذي يمثل الدولة الموحدة في يافع واحداً من أبنائها وأعيانها ،... ، ومن ضمن الاتفاق أيضاً أن لا يحق للإمام القائم على المذهب الزيدي التدخل في شؤون يافع الدينية بل يكون إمامهم على المذهب الشافعي السني وعلى أن لا يكون العشر مأوى بيت مال للإمام"[5]. ورغم أن هذا الاتفاق يوحي بأنه تم إبرامه في عهد أحمد بن الحسن أوفي عهد خَلَفِه إلا أن الأرجح أنه أبرم خلال هذه الحادثة، وذلك لأن ثورة يافع واستقلالها

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٧٣ب .

(٢) انظر : فيما سبق "فشل انقلاب عمه الحسين بن الحسن" ، ص٩٩ وما بعدها .

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٢/ ق ٧٨ ب.

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٧٠ ب.

(٥) بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني، ص١٤٤ .

عام (١٠٩٢هـ /١٦٨٦م) كان نتيجة طبيعية لمظالم الحاكم مسمار وكثرة المطالب ونهج سياسة الإجبار على إتباع المذهب الزيدي إضافة إلى ضعف الدولة المركزية الناتج عن تنافس أمراء الأسرة ـ كما سبق ذكره ـ . كما أن الحسين بن الحسن كان يسعى بكل جده وجهده لاستعادة يافع بالقوة، حتى أنه تحالف في عهد المؤيد مع ابن أخيه هذا الذي كان يعتبر من ألد أعدائه، وكذا أشار المرجع بأن الاتفاق مع الإمام الحسين ولم يقل مع الأمير ، والواقع أنه لم يعلن إمامته الأولى إلا بعد وفاة أخيه المهدي أحمد عام(١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م) كما سبق ذكره .

وعلى ما يبدو أن قبائل المشرق استغلت ذلك الخصام الذي نشب فيما بين الناصر وعمه الحسين الذي استمر طوال عام (١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م) ، حيث كانت قبائل المشرق تقوم بإعمال النهب والسلب وقطع الطرق التجارية، ويستندون إلى عمه الحسين وخاصةً الحواشب [١]، لذلك قام الإمام بعد التخلص من عمه بحشد الجيوش ، حتى بلغوا خمسين ألف مقاتل وأرسلهم عن طريق قعطبة، ثم تقدم بنفسه للإشراف عليهم إلى رداع ، وكاد أن يطيح بالمشرق هذه المرة غير أن يوسف بن المتوكل أدرك فرصة غياب الجيش وانشغال الإمام بالمشرق، ليعلن إمامته مرة أخرى وناصرته قبائل الحيمة وخولان . لذلك اضطر الناصر إلى عقد هدنة مع قبائل المشرق [٢]، ووجه ذلك الجيش لقمع تمرد يوسف ، الذي كان سبباً في إخفاق تلك الحملة وغوثاً لأهل المشرق من معرة ذلك الجيش، الذي صار وبالاً على أهالي خولان والحيمة كما سبق بسطه[٣].

٢- خضوع المشرق المؤقت :

في شهر (ربيع الثاني ١١٠١هـ/ يناير ١٦٩٠م) أرسل الإمام المهدي محمد حملة كبيرة بقيادة الشيخ جابر خليل ـ سالف الذكر ـ تم بواسطتها اعتراف أهل المشرق بالإمام ونزولهم على حكمه، وهذه العبارة تحمل الكثير من الدلالات سنحاول مناقشتها خلال الأسطر التالية :

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٢/ ق ٩٧ أ، ب.

(٢) أبو الرجال : الروض الزاهر (خ) : ٢/ ق ١٠٨ أ، ب ـ ١١٠ أ، ب .

(٣) انظر : الفصل الأول ، ص ١٠٦ وما بعدها .

يتضح أن أهم دواعي إرسال هذه الحملة يكمن في أن قبائل المصعبين(*) هجموا على جندي من حرس الإمام الخاص، وأصابوه بجروح، ونهبوا متاعه، أثناء مروره من بلادهم حينما أرسله الإمام إلى قبائل ذُهمة في مهمة لم يفصح المصدر عن نوعها، وبهذا الاعتداء انتقض الصلح المبرم سابقاً وأثار غضب الإمام، مما جعله يصدر توجيهاته إلى أمير خولان العالية يأمره بالتقدم لقمع وتأديب قبائل المصعبين، ثم رفده بالأمير سعيد قاضي، ولعل نجاحهما في هذه المهمة قد شجع الإمام بأن يأمرهما بمواصلة الزحف على قبائل الرصاص المجاورة لتلك القبيلة، فتمكنا من اكتساح الزهراء، عند ذلك تكاتبت قبائل المشرق جميعاً واندفعوا إلى البيضاء لصد ذلك الجيش، فوقعت بينهما معركة أسفرت عن هزيمة الجيش، ولما وصل الخبر إلى الإمام جمع الجيوش والمدد من كل مكان حتى بلغ نحو ثلاثين ألف مقاتل(١)، وأمَّر عليهم الشيخ جابر بن علي خليل وأسنده بالباشا علي(**)، وأهمل شأن أمراء آل القاسم، وجعلهم من ضمن أفراد الحملة العاديين، وأسند جميع الصلاحيات للمذكور وأمره بإبادة المشرق قاطبةً، وهدده بالقتل إن تهاون في ذلك (٢) .

لقد نجحت الحملة في اكتساح البيضاء، وهزمت قبائل المشرق الذين كانوا قد تجمعوا فيها عن بكرة أبيهم "حتى النساء"(٣) استعداداً لصد تلك الحملة التي تمكنت من إبادة الكثير من أمرائهم كان على رأسهم الأميرة نور بنت معوضة بن عفيف(***) التي كانت تقاتل معهم ويعدونها صاحبة الحل والعقد فيهم . ومن ثمَّ لاذ البقية بالفرار

(*) المصعبين : قبيلة من مراد منازلها في أعلي بيحان متصلة ببلاد الجوف وهي من أعمال شبوة. (أبوالرجال : المصدر السابق (خ) : ٢/ ق ١٢١ب ؛ معجم المقحفي : ٢٠/ ١٥٤٦) .

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٢/ ق ١٢٣أ.

(**) الباشا علي : قيل إنه أحد الخارجين على الوالي العثماني في الحساء شرق الجزيرة العربية ، ففر للاستنجاد بالإمام على خصمه المذكور. (الضبوي : عقد الجواهر (خ) : ق ٢٤ أ).

(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢٦أ ؛ راجع : الفصل الأول : "البطش بقبائل همدان" ، ص ١١٠ وما بعدها.

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ): ٢/ ق ١٢٢ب ؛ أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢٥ب ؛ بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني ، ص١٤٤.

(***) نور بنت معوضة بن محمد بن عفيف: هي الشخصية التي يبني عليها أهل يافع أساطير بطولاتهم الوطنية، وقد قيل إنها أعدت لهذه المعركة منذ عدة سنوات لكنها قُتلت فيها، ولعل حسن صالح شهاب قد التبس عليه الأمر حين أشار بأنها زوجة معوضة، ولعل الأرجح أنها ابنته على حسب ما أشارت إليه مصادر المعاصرين للحدث . (شهاب : يافع في عهد سلطان آل عفيف وهرهرة ، ص٤٤؛ أبوالرجال : المصدر السابق (خ) : ٢/ ق ١٠٤ب ؛ الضبوي : عقد الجواهر (خ) : ق ٢٥ب ؛ أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢٥ب).

والجيوش تعمل فيهم القتل والأسر حتى وصلوا إلى جبل "العر" وتحصنوا به ، ثم تبعتهم الجيوش وأحاطت بالجبل . ويبدو أن قبائل عنس ــ التي تُمثل إحدى كتائب تلك الحملة ــ استطاعت اقتحام الجبل وكادت أن تستأصل قبائل المشرق لولا المؤامرة التي حدثت في صفوف الجيش أدت إلى هزيمتهم وتراجعهم إلى أسفل الجبل فتمركزت يافع، وقد اختلفت المراجع في تحليل سبب تلك الهزيمة، فمنهم من أشار إلى أنها بسبب الأحقاد والثارات التي كانت فيما بين قبائل خولان وبين قبائل عنس من العام السابق، فأظهرت خولان الهزيمة حتى لا تفوز عنس بالجمالة[1]، ومنهم من عوّل السبب على غيرة ابن خليل من عنس أن تفوز بالجمالة دونه[2]، كما أشار آخر إلى أن ابن خليل أخذ الرشوة من ابن العفيف فاظهر الهزيمة والتراجع[3]، ومهما قيل فإن ذلك التراجع قد أتاح الفرصة لقبائل المشرق لتعزيز تحصيناتها الدفاعية، لذلك عجز الجيش عن اكتساحهم مرةً أخرى، لكنه تمكن من فرض الحصار عليهم .

ولما ضاق الفريقان من طول فترة الحصار التي استمرت شهراً كاملاً ابتداءً من أول شهر (رجب ١١٠١هـ/ إبريل ١٦٩٠م)[4] ، سعى الطرفان للمفاوضة "واستطاع ابن العفيف كسب ود كبير همدان "[5] حتى وافقه على عقد صلح من أهم بنوده التالي :

١. أن ينزل ابن العفيف وحلفاؤه على حكم الإمام وأن يصلوا إليه بعد شهرين ــ أي بعد شهر رمضان ــ لتقديم الولاء والطاعة [6].
٢. أن تخفق الأعلام الإمامية على رؤوس جبالهم .
٣. أن يولي عليهم الإمام من أراد وأنهم ممتثلون لولايته [7].
٤. التزم ابن العفيف وحلفاؤه بإقامة الخطبة للإمام وتسليم واجبا تهم إليه [8].

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٢/ ق ١٢٣أ .
(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢٥ب .
(٣) الضبوي : عقد الجواهر (خ) : ق ٢٥أ .
(٤) الضبوي : نفسه (خ) : ق ٢٥ أ.
(٥) Sergeant , R . B . Lwecock . R : Sana'a , P ٨٣.
(٦) أبوطالب : السحر المبين(خ) : ق ٢٥ب ؛ الضبوي : عقد الجواهر (خ) : ق ٢٥ب ؛ أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٢/ ق ١٢٦أ.
(٧) الضبوي : نفس المصدر (خ): ق ٢٥ب.
(٨) الداعي : الدامغة الكبرى (خ) : ٢/ ص١٧٥.

٥. أن يكفل ابن خليل على الإمام بأن لا ينادي ابن العفيف وغيره بـ"يا كافر"[١].

ورغم تلك البنود إلا أن الجيش استمر في مهمته ولم يرفع الحصار إلا بعد أن عبّرت قبائل المشرق عن صدق نواياها، وذلك بأن حملوا رايات الإمام ووزعوها على نواحي بلادهم، ثم وصلت وفودهم إلى الإمام حسب الموعد المذكور، محملةً بالهدايا والهبات ، ورغم إعراض الإمام عنهم في البداية، لعدم تحقيق هدفه الذي يكمن في إبادتهم وإخضاعهم بالقوة، إلا أنه أخذ هداياهم مؤخرا وأبدى رضاه عنهم ظاهراً[٢]. وعلى الرغم من إشارة بعض المراجع إلى فشل ابن خليل في مهمته[٣]، إلا أن الراجح عكس ذلك نظراً لما سبق ذكره ، وإنما يلاحظ هنا شدة تعنت الإمام وعنجهيته على ابن خليل، الذي قدم كل ممكن لرفع تعنت الإمام ثم استعان بالقبائل لكنهم عجزوا جميعا أمام جبروت الإمام لذلك أعلنت تمردها احتجاجاً على ذلك التعنت وتضامناً مع ابن خليل ، لكن الإمام تمكن من قمعهم وقَتَلَ زعماءهم وصادر أموالهم ونفى بقية أهلهم إلى الهند كما سبق ذكره[٤] ، وعلى صعيد آخر فقد أدى تعنته ذاك إلى خروج المشرق عن الطاعة مجدداً وعجزه عن قمعهم وإخضاعهم فيما بعد .

٣- خروج الإمام إلى جُبن لرفد الجيش :

لم يدم خضوع المشرق أكثر من بضعة أشهر فهجمات الأمير ابن شعفل المتكررة على القوافل المارة عبر بلاده قد ضايقت المهدي كثيراً ، وربما أن الأمير لم يدخل في الصلح المذكور، لذلك قام الإمام في شهر (ربيع الأول١١٠٣هـ/ ديسمبر ١٦٩١م)[٥] ، بإرسال حملة كبيرة بقيادة الأمير علي بن يحيى بن المؤيد والأمير سعيد قاضي وغيرهما من خاصة الإمام، الذي خرج بنفسه إلى جُبن لرفدهم ولحماية ظهورهم خوفاً من هجوم

---

(١) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢٦أ.

(٢) الضبوي : عقد الجواهر (خ) : ق ٢٦أ.

(٣) الجرافي : المقتطف، ص٢٤١ ؛ بعكر : الرجل الذي يعرفه الحرم والهرم، ط ١٩٩٧م، ص٢٦ .

(٤) انظر : ما سبق ، ص ١١٠ وما بعدها .

(٥) أبوالرجال : المصدر السابق(خ): ٣/ ق ١٤٣ب ؛ أبوطالب: السحر المبين (خ): ق ٢٧ب ، ولعل الأصح عام ١١٠٢هـ ، كونه تاريخ تمرد علي بن أحمد وتقدمه نحو صنعاء لاغتنامه فرصة غياب الإمام وانشغاله بحرب ابن شعفل . انظر ما سبق ، ص ١٣٠.

قبائل الرصاص ويافع عليهم من خلفهم . وقد تمكنت الحملة من هزيمة ابن شعفل ومطاردة فلوله المنهزمة في وادي تيم[*]، ولكن بينما كان الأمراء منتظرين عودة الأفراد المطاردين لفلول ابن شعفل، إذ وصلت نجدة ابن العفيف، بقيادة خليل بن جابر خليل، الذي استنجد بيافع لينتقم لمقتل والده، وأقاربه الذين نكل بهم الإمام ــ كما ذكر سابقاً ــ فصادفوا الأمراء منفردين بحوالي(٤٠جندي) من المرافقين، فكانوا الغنيمة الباردة حيث أبادوهم عن آخرهم مع قواد الحملة[١]، وكانت هزيمة فاضحة، وإن عزاها أحد مؤلفي سيرته إلى الخلاف الذي دبَّ فيما بين صفوف الأمراء[٢].

ولما ولجت أخبار الهزيمة إلى مسامع الإمام عاد من جُبن وتغاضى عن المشرق والتفت لإخماد تمرد علي بن أحمد أمير صعدة[٣]،الذي كان قد ضرب الحصار على صنعاء، ومن هنا بدأ الإمام يستميل المشرق حيث استعان بالسلطان منصر بن حسين الرصاص لقمع تمرد أمير صعدة [٤]، فكان ذلك بمثابة نتيجة خروج الإمام إلى جبن .

٤- تراجع الإمام من الزهراء :

أورد شارح سيرته سببين دعيا الإمام إلى إرسال حملة لإخضاع المشرق وخروجه لرفدها إلى الزهراء، فالأول يكمن في هجوم معوضة بن عفيف على لحج ، والثاني تحفيز السلطان أحمد بن علي الرصاص للإمام والتزامه بمساندة الإمام في تسهيل المهمة[٥]. ولعل تحفيز الرصاص كان بسبب الخلافات التي كانت تحدث أحياناً فيما بينه وبين ابن عفيف على المناطق الحدودية، والأرجح أنها كانت بمثابة طُعمٍ استدرج بواسطتها قوات الإمام فسهل ليافع الانقضاض عليها انتقاماً لمقتل السلطان معوضة كما سنرى .

(*) وادي تيم : منازل بطن من حُجُر رعين ، من حمير وبه سميت (سيلة تيم) أحد وديان جبل الحبيلين في ردفان والذي يسقي المنحدرات الجنوبية من جبل حالمين وكذا المنحدرات الشرقية لجبال ردفان، وشرقا إلى وادي بنا.(معجم المقحفي : ١/ ٢٤٨).

(١) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٢٨ أ .

(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٣/ ق ١٤٦ب.

(٣) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٢٨أ ــ ب .

(٤) الضبوي : عقد الجواهر (خ) : ق ٣٣أ .

(٥) أبوالرجال : المصدر السابق (خ) : ٤/ ق ١٨٩أ.

وربما أن السبب الثالث يكمن في قصيدة الآنسي الحماسية التي أثارت حفائظ الإمام ، كقوله :

أنت المفوض في الأمور على الورى ... فانهض بجندك للجهاد وعجّلِ
فارفعْ وضعْ وافعل ودعْ ... واسطعْ وصِلْ واقطعْ وواصل واعدلِ
ما الشرق عندكَ إن هممتَ بمبعد ... فاعزم عليه بهمةٍ وتوكلِ

ومنها :

يا حبذا جيشاً يكون زعيمه ... هادي الأنام العابد المتبتلِ
تمشي ملائكة الإله أمامه ... وتحفه طوعاً حفاة الأرجلِ

ومهما كانت الأسباب فإن السلطان معوضة بن عفيف قام في آخر عام (١١٠٤هـ / ١٦٩٢م) بشن الهجوم على قلعة "الطرية(*)" ونهبها ثم هجم على لحج ، مستغلاً انشغال الإمام بتجهيز قواته استعداداً لإعادة الكرة على علي بن أحمد أمير صعدة، والأخذ بثأر ولده إسماعيل، غير أن عامل المنطقة تصدى لهجوم معوضة وتمكن من دحره بمساعدة الفضلي، وذلك بعد أن أصيب معوضة بجرح كان سبباً في وفاته وهو في طريق عودته إلى بلاده، حينها تداعت قبائل المشرق للكرة مرة أخرى والانتقام للسلطان معوضة، ومن هنا كتب الرصاص إلى الإمام يحثه على انتهاز الفرصة للهجوم على يافع من جهة بلاده ، والتزم بمساندة القوات الإمامية وتسهيل المهمة[1]. ورغم شك الإمام في نوايا الرصاص وتردده في المجازفة بجيشه[2] إلا أنه أصدر توجيهاته إلى قواد تلك الحملة المجهزة إلى صعدة بالتوجه إلى البيضاء، وأرسل قبلهم السلطان منصر ابن حسين الرصاص(**) مصحوباً بالأموال ليستميل بها أصحابه. ثم تبعهم الإمام بالإمداد

(*) الطرية : قرية في منطقة خُطيب من أعمال شبوة ، في شمال شرق مُوديَّة من أعمال أبين . (معجم المقحفي : ١/ ٩٥٨) .

(١) أبو الرجال : الروض الزاهر،(خ) : ٤/ ق ١٩٤ب.

(٢) Al - Hiyed : Relations Between The Yaman and South Arabia During The Zaydi Imamate Of Al al - Qasim : ١٦٢٦- ١٧٣٢ ,p١٣٩.

(**) ذكر الدكتور عبدالله الحييد أن المُرسَلَ لهذه المهمة هو السلطان منصر العولقي ، ولعل الأصح ما أثبتناه استناداً إلى مؤلف سيرته . قارن : (أبو الرجال : المصدر السابق ،(خ) : ٤/ ق ١٩٤ب ، Al - Hiyed : Relations Between The Yaman and South Arabia During The Zaydi Imamate Of Al al - Qasim , p١٣٩ .

إلى الزهراء، ولما ضرب خيامه بها اتضح أن الرصاص غدر به وأخلفه الوعد، حيث قطع طريق الإمداد على الجنود الذين في "البيضاء" "وذي كراش" و"النجد" وتجمعت القبائل لحربهم من كل صوب ، لذلك قوض الإمام أطنابه عائداً إلى مقر حكمه، معتذراً بأن الوزير منع عنه الإمداد(١) .

وبما أن هذه الرواية فيها الكثير من المبالغات، فيستحسن أن نثبت رواية أحد مناوئيه، حيث أشار بأن وفاة السلطان معوضة كانت سبباً في خروج الإمام "من رداع بجميع جنوده وحاشيته وخيله ورجله قاصداً لبلاد يافع وحربهم ،...، فوصل إلى الزهراء، وقدَّم جنوداً إلى البيضاء، فحملت عليه يافع حملة واحدة، وقتلوا من أصحابه قتلاً ذريعاً، وقَتَل منهم أيضاً الكثير ، ثم حاصروا من في البيضاء من الجنود الناصرية، وسارت الغارات على الناصر من كل جهة من جهاتهم، ثم لم تزل الحرب قائمة إلى شهر ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة [ابتداءً من شهر شعبان]، وانكسر الناصر عن مركزه ، وهرب من الزهراء راجعاً إلى رداع، وقد حصل في أجناده تعب كثير، ونهبت خزائنه، وحصل قتل واسع لا يمكن حصره وكذلك من يافع"(٢).

وهناك مؤرخ آخر يُعلّق على هزيمة الناصر وتراجعه بقوله:"عمل الإرجاف فيه والقعاقع، وتجسَّد في باله غير الواقع ، فخيال أكم المشرق قد توجهت معهم لحربه، وتمكن الرعب لا لشيء في قلبه ، وتلاعبت به السوداء لعب الأيام بمثله، واستفرغ القالي له سهام المكر في مثله ، فترك ما كان جلبه في الزهراء وركب ظهر الغبراء إلى الخضراء ، وتريث المحسن بعده قليلاً فأحرق بعض الخيام والسوق، ولحق به غير مشوق ، فكان ما خلفه الغنيمة الباردة للمشرق،...، ولما استقر برداع وأفاق من ذلك الصداع نكس رأسه من الحياء ، وعمل للداء العيا ، فأظهر أن لخالد وبكر ، ووزيره الحيمي(*) سعاية في المكر ، فسترها بالبطش به ، والاحتوى على ذخائره وماله"(٣).

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر،(خ) : ٤/ ق ١٩٤ب ــ ١٩٦ب.

(٢) الداعي : الدامغة الكبرى، (خ):٢ / ص١٨٣ .

(*) القاضي الحسين بن أحمد الحيمي:(ت : ١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م)انظر دوره في الفصل التالي: ص ٢٢٣ وما بعدها.

(٣) أبوطالب : السحر المبين(خ) : ق ٣١ ب .

ورغم تلك الهزيمة إلا أن شارح سيرته أشار إلى نتيجة هذه الحملة بأنها كانت سبباً في استعادة قلعة أبين من يافع وطردهم منها. ثم حاول أن يلتمس له العذر ، فأشار بأن العلماء حثوه بالعودة نظراً للمصلحة العامة[1]، والراجح أن سبب عودته المفاجئة يكمن في شدة شكه من أعيان دولته وظنه أنهم يأتمرون به في مقر حكمه وخاف من بطشهم به من خلفه فقرر العودة إلى الخضراء والبطش بالوزير كما أشارت إليه رواية أبي طالب السالفة .

لا شك أن الإمام تعرض لانتقادات لاذعة جراء عودته من الزهراء على صفة المنهزم لذلك لا يستبعد أنه أراد استعادة بعض ما فقده من الهيبة والتعبير عن قوته وشدة حزمه، حيث أرسل حملة بقيادة ولديه المحسن ويوسف، وذلك لقمع عصيان أصحاب ابن شعفل الذين أعلنوا التمرد انتقاماً لزعيمهم قاسم بن شعفل الذي تعرض لسجن الإمام وأراد قتله، ورغم نجاح ولديه في قمع هذا التمرد إلا أنه أطلق ابن شعفل من السجن، وذلك تجنبا لتمرد قبائل المشرق، وإن كان أطلقه بعد ضمانة الوزير ابن راجح بعدم تمرده مرة أخرى[2].

٥- هزائم جند الإمام في المعسال وبني أرض :

مما يبدو أن الانتصار الذي حققه ولداه قد شجعه على إرسال حملة إلى المعسال[*] عام(١١٠٦هـ /١٦٩٥م)، غير أنها منيت بهزيمة ساحقة، وقُتل الكثير من جنودها[3]، ولعلها تلك المقتلة التي أشار إليها صاحب الدامغة بأنها وقعت في الزهراء في شهر رجب عام(١١٠٧هـ/ فبراير ١٦٩٦م) ووصفها بأنها شنيعة "فقتلوا منهم قتلاً كثيراً، ونهبوا السوق وخزائن الدولة، وقتلوا من الأمراء ومثلوا بجماعة من الزيدية"[4]. وإذا

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ١٩٧ أ ـــ ب.

(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ٢٠٨أ،٢٠٩أ.

(*) المعسال: هي قرية من قرى السُّوادِيَّة من أعمال البيضاء وتبعد عنها بحوالي ٢كم شرقاً، وتعتبر من أهم القرى الأثرية والتاريخية، ويوجد في أعلاها قلعة منحوتة في الصخر. وكانت ميداناً للصراع فيما بين المهدي وأهل المشرق كما سوف نلاحظ خلال البحث ، وهي اليوم أطلالاً وخرائب. (معجم المقحفي : ١/٨٢٥، ٢/١٥٧٧).

(٣) أبوطالب : السحر المبين، (خ) : ق ٣٣أ .

(٤) الداعي : الدامغة الكبرى ،(خ):٢ / ص١٨٦ .

صحت هذه الرواية، فقد عولها شارح سيرته إلى الخلاف الذي دبَّ فيما بين أمراء الحملة، فلما استدعى الإمام بعضهم لتأديبهم، اغتنم الرصاص الفرصة وهجم على البقية[1] .

ونعتقد أن الإمام أراد الانتقام فأرسل في عام(١١٠٨هـ/١٦٩٧م)، نحو مائتي فارس لغزو بني أرض[*] غير أنهم منوا بالهزيمة . فتأثرت نفسية الإمام، غير أن القاسم بن الحسين بن المهدي أحمد جمع بعض الفرسان وغزا بهم ليلاً دون علم الإمام وأخذ بالثأر ، وعاد محملاً بالغنائم، فأبدى الإمام سروره بذلك[٢]، وكان هذا الموقف أول بروز لهذا الأمير الذي صار إماماً فيما بعد .

ولقد أورد شارح سيرته رواية تدل على ترابط قبائل يافع وأحلافها، وأنها كانت تنتهز فرص ضعف الحاميات العسكرية في الأطراف فتُغير عليها وتنهبها، حيث أشار بان أفراد حامية لحج تمردوا على أميرهم الذي عجز عن ضبطهم، فأصدر الإمام إلى أمير قعطبة يأمره بالتوجه إلى لحج ، لتأديب المتمردين، حينها استغلت قبائل المشرق غياب جند قعطبة، وتمرد جند لحج، فانقسموا إلى فريقين: هجم الفريق الأول على قعطبة وجاراتها حتى وصلوا إلى العذارب ، ولم تأت غارة أميري إب وتعز إلا بعد عودة المهاجمين إلى بلادهم، بينما هجم الفريق الثاني بقيادة قحطان بن معوضة بن عفيف على لحج ونهبوها، بعد أن تمكنوا من قتل وأسر الكثير من جنود حامية الإمام، غير أنهم تراجعوا أمام قلعة "دار حمادي[**]"[٣].

ولعل تلك الحملة الكبيرة ــ المجهزة بجميع التجهيزات الحربية والمالية ــ التي أرسلها الإمام عام (١١٠٩هـ/ ١٦٩٨م)، كان يهدف من ورائها إخماد عزيمة أولئك المتمردين، والانتقام منهم وإخضاعهم، غير أن قبائل المشرق تجمعت لقتالهم في المعسال، فدارت بينهم معركة شرسة، أبان كل منهم عن قوته وشجاعته، فسقط خلالها

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ٢٠٩ب.

(*) بني أرض : من قبائل سرو مذحج في شمال البيضاء . وهي المسماه (بنير).(معجم المقحفي : ١/ ١٩، ٥١).

(٢) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٦١ .

(**) قلعة حمادي : من قرى الأشراف في ردفان.(معجم المقحفي : ١/ ٤٩٧).

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ٢٤٤ب.

الكثير من القتلى من الطرفين، لكنها أسفرت عن تراجع جنود الإمام بعد أن "تغيرت رائحة الهواء من نتن أشلاء الجميع بالجيفة"[1].

٦ ـ محاولة استعادة المشرق سلمياً :

يلاحظ من خلال الأحداث المذكورة آنفاً أن الإمام كان يحاول استمالة قبائل المشرق، خاصةً بعد حملة ابن خليل، فلم يرسل بعدها أي حملة إلا كرد فعل لتعدي القبائل على المناطق المجاورة، أو لهجومهم على القوافل المارة من بلادهم، وكان لذلك بُعد سياسي، لعله يكمن في إدراكه لكثرة المؤامرات التي تحاك ضده من قبل الأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم، حتى أمراء الحملات التي كان يرسلها، كل هؤلاء مثّلوا أهم عوامل الهزائم المتوالية عليه، إضافة إلى قوة شكيمة قبائل المشرق وترابطهم وتحصيناتهم في الجبال الشاهقة، وحسن تدبيرهم في اختيار موقع المعارك .

وعلى كل فقد ظهرت بادرة الإمام السلمية حينما استعان بالشيخ منصر الرصاص لإخضاع تمرد علي بن أحمد أمير صعدة كما ذكرنا. ورغم إشارة شارح السيرة إلى أن الرصاص غدر بالإمام، وكان سبباً في هزيمة الجيش وعودة الإمام مهزوماً من الزهراء، إلا أن الإمام حاول استمالته مرةً أخرى وبذل من أجل ذلك أموالاً طائلة، وقد علل شارح سيرته بأن الرصاص هو الذي أتى إلى الإمام تائباً من فعلته المذكورة[2]. ولم تتضح العلاقة الودية فيما بينهما إلاّ حينما تزوج الإمام بابنة السلطان أحمد بن علي الرصاص في شهر (ذي القعدة ١١٠٨هـ/ مايو ١٦٠٧م)[3]، الذي أشاد به معاصروه، واعتبروه من أفضل أعماله، نظراً لطول تلك الفتنة، وأشادوا أيضاً بتلك الهدايا والهبات

(١) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٣٥أ، ونفس الرواية للمؤلف في طيب الكساء، ص٢٦٣ .
(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ٢٣٨ أ .
(٣) الداعي : الدامغة الكبرى (خ) : ٢/ ص١٨٦ .

الكثيرة التي أنفقها الإمام احتفاءً بهذه المناسبة[1]، وكان من ثمارها أنها "حقنت الدماء، وسكنت الدهماء، وذهب الخوف والفزع، ولاح نجم السعادة وطلع"[2].

وقد سلك الإمام عدة طرق سلمية للسيطرة على المشرق، سوف تتضح من خلال رواية شارح سيرته ــ المبالغ فيها ــ حيث قال:"إن يافع بعد موت سلطانهم معوضة اختلفت آراؤهم، وافترقت كلمتهم، وكانوا نصبوا قحطان بن معوضة بعد أبيه، وهو في سن الشباب لا يعرف قبيلاً من دبيراً ، وما برح الخليفة ــ عليه السلام ــ يسوس أهل الحل فيهم والعقد، تارة بالإحسان، وآونة بالسيف والسنان، وحينا بالإرعاد والإبراق، حتى استمال السلطان حيدرة الفضلي، والأمير ابن شعفل، ونصَّب رجلاً يعرف بالحجيني، من القبائل المجاورة لبلاد الفضلي، وأعطاهم العطايا، وبذل لهم مالا يؤملون من الأموال، وأركبهم جياد الخيل العتاق، فتركوا قحطان وهرهرة وراءهم ظهريا، ففتَّ فعله ــ عليه السلام ــ من عضديهما وعرفا أنهما لا تقوم لهما قائمة، بعد ميل من ذكرناه عنهم إلى الخليفة ــ عليه السلام ــ، فطلبوا منه ــ عليه السلام ــ أن يأذن لهم بالوصول إلى حضرة ولده سيف الإسلام المحسن ابن أمير المؤمنين إلى قعطبة، ليكون توبتهم على يده، فأذن ــ عليه السلام ــ بذلك وعفى وتحف، ورفَّع عنهم حران الخوف وكفً، وأعطاهم من الأموال ما لم يدخل تحت حصر، وألزموا طاعته على حسبما اقترحه عليهم. وقد أشار الشيخ [محمد المرهبي ناظم سيرته] إلى معنى ما ذكرناه بقوله :

ألزموا رضى الإمام الهادي ... ونظمهم في جملة الأجناد
وهاهمُ في ظله الظليل ... نواهلاً في فضله الجزيل
على متون خيله النجيبة ... وفي الرود الغصة القشيبة
مروبين كارعين في النعم ... مرددين في البلاد للخدم
وواجب عليهم مؤكدا ... شكر الإمام اتهموا أو انجدوا
ويسلكوا فيما يراد منهم ... ليصرفوا سخط الإمام عنهم[3]

(١) أبوطالب : السحر المبين،(خ) : ق ٣٤ أ .
(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ٢٣٨ أ ــ ب .
(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ٢٤٢ أ .

وقد أشار ابن سبعة اليافعي إلى سياسة الإمام هذه بقوله :" وطلب الإمام (وهو المهدي) الصلح من أهل يافع ثم تصالح معهم وحالفهم وعينً منهم الكثير في وظائف رئيسية .."[1] ، وبذلك دخلت المشرق في الطاعة بعد مشقة وتنازلات كثيرة .

اتضح مما سبق أن الإمام استخدم وسائل عدة استطاع عبرها كسب ولاء قبائل المشرق، ونيل اعترافهم الاسمي بالدولة المركزية، ومن أهم تلك الوسائل :

١. الإغراء بالمال، ومنحهم العطايا الجزيلة من الهدايا والهبات والإعفاءات، وخير دليل على ذلك تلك القافلة التي أرسلها إلى قحطان بن معوضة على جهة أنها صداق لكريمته، والمكونة من "حمولة عشرين جمل ذهب وفضة وحلي ولؤلؤ ومرجان وكساء وسلاح وبنادق وخناجر مذهبة"[2]، وبمثل هذه العطايا سوف تخضع له الملوك ناهيك عن مشائخ القبائل .

٢. المصاهرة (الزواج السياسي)، والتي تعتبر من أهم الوسائل التي يستخدمها الملوك والعظماء عبر العصور، وذلك لما تحمله من معاني التأليف والتقارب فيما بين الطرفين، إضافة إلى تلك العطايا التي كان يبذلها لنيل القُرب . وقد أفرط الإمام في كثرة زواجه من رؤساء القبائل والعشائر خاصة من المشرق، حيث تزوج منهم خمس زوجات ــ حسب علمنا ــ، كانت الأولى ابنة السلطان أحمد علي الرصاص، والثانية ابنة السلطان صالح هرهرة في شهر (رجب ١١٠٩هـ/ فبراير ١٦٩٩م)[3]، والثالثة كريمة السلطان قحطان بن معوضة[4]، والرابعة كريمة صالح الرصاص أيضا التي زُفّت إليه بعد معركة وقعت بينهما عام (١١١٤هـ / ١٧٠٢م)[5] ، والخامسة صاهر السلطان صالح بن منصور العولقي، غير أن

---

(١) بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني، ص١٤٥ .

(٢) العبدلي : هدية الزمن، ص١٣٣ .

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ٢٤٢ب.

(٤) قيل إنها ابنة السلطان قحطان والراجح ما أثبتناه أعلاه لأن أبوالرجال يذكر أن وفاة السلطان معوضة في عام ١١٠٥هـ وولده قحطان مازال في سن الشباب الطائش، وذكر العبدلي أنها كريمته غير أنه ذكرها في السطر الثاني أنها ابنته، ولعل الأخير خطأ مطبعي . (أبوالرجال : نفس المصدر (خ) : ٤/ ق ٢٤٢أ؛ العبدلي: هدية الزمن ، طبعة الجيل الجديد ، ص١٣٣.

(٥) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٤٥ب ؛ وطيب الكساء ، ص٣٠١ .

المصادر التي بين أيدينا[1] لم تفصح عن زمن هذه المصاهرة الأخيرة ، ولا عن العريس هل هو الإمام أو أحد أولاده أومن أقاربه؟

٣. إشراكهم في الحكم، بوضعهم في المناصب الرئيسية في الدولة، كحكام وولاة وعمال ولايات حيث "عيَّن حاكما على عدن ولحج وأبين الشيخ علي عبد أحمد بن غرامة"[2] وكذلك آل مغلس كانوا عُمالاً على بعض المناطق مثل ريمة وغيرها، وكان يمنحهم امتيازات خاصة ويربطهم به مباشرة دون تدخل العمال أو المسئولين في الأعمال الموكلة إليهم، وهذا ما أفصح به ذلك المرسوم الإمامي الذي ينصُ على أن "غرامة بن محمد اليافعي" قد صار منه وإليه وأنه مستمر في عمله وأنه مرتبط به مباشرة "وليس عليه اعتراض من كل عامل بمحروس عدن بل عمله منا وإلينا ومن تعداه أو تعرضه أو ناقض أعماله ناله الأدب"[3]، وقد قيل إن الشيخ صالح بن علي الحريبي من يافع[4]، وهو الرجل الذي شغل عدة مناصب منها: حاكماً لميناء عدن ثم حاكماً لميناء المخا ثم تولى أعمال المنطقة الجنوبية والتهامية وأخيراً صار كبيراً للوزراء .

٤. تأليب القبائل ضد بعضها البعض، والاستعانة بهذه لضرب تلك، وهذا ما لمسناه حينما استعان بالفضلي لصد هجوم معوضة بن عفيف فأصيب الأخير بجرح كان سبباً في وفاته، ورأينا أيضاً تدخل الإمام في تنصيب أحد الأفراد شيخا للقبائل المجاورة للفضلي، وأعطاهم العطاء الواسع وبذل لهم "مالا يؤملون من الأموال"[5]، كل ذلك ليقفوا حائلاً أمام هجمات ابن العفيف من جهة، ومن جهة أخرى ليأمن شرهم .

(١) العبدلي : هدية الزمن ، طبعة الجيل الجديد – صنعاء ، ص١٣٤، القعيطي : يافع ، ص١٦٥.

(٢) بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني، ص١٤٥.

(٣) الملحق : وثيقة رقم (١) .

(٤) بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني ، ص ١٤٥

(٥) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ٢٤٢أ.

ورغم كل تلك الوسائل وغيرها التي استخدمها الإمام إلا أنه لم يتمكن من المحافظة على ولائهم له واستمرار هدوئهم، ومن المحتمل أن ذلك يعود إلى شخصيته الازدواجية، وتناقضه في القرارات والمراسيم التي كان يصدرها، ولعل قرار التعيين المذكور آنفاً خير دليل على ذلك، حيث ورد فيه بعد أن أقر "غرامة بن أحمد" على عمله وربطه به مباشرة، زاد فيه "ولا سماع لكل خط سابقاً أو لاحقا عن هذا فليثق بذلك وبالله الثقة"[1]. ومن المؤكد أن سياسته استمرت على تلك الطريقة فكلما استمال إحدى الزعامات إلى جانبه تمردت الأخرى !

لذلك لم ينعم بالهدوء المستمر حيث كان التمرد يندلع بين الحين والآخر، ففي عام (١١١٤هـ /١٧٠٢م)، قام أصحاب الإمام بإعانة السلطان أحمد بن عبدالله الفضلي بالمدافع والجنود لكي يستولي على قلعة الطرية، فلما تمكنوا من السيطرة عليها رفضوا تسليمها للفضلي[2]، بل تصدروا له بالإساءة والإهانة، لذلك ندم على تعاونه معهم، فاجتمع بالرصاص وابن عفيف، وحالفهما على حرب الإمام، وطرد عماله من أبين[3]. ومن المرجح أن الهجوم الذي شنه السلطان قحطان بن معوضة بن عفيف على عدن في نفس العام، والذي أسفر عن نهبها ومقتل عاملها[4] كان أحد نتائج ذلك التحالف، إضافة إلى إيعاز وتشجيع علي بن أحمد ـ أمير صعدة ـ [5]. مما جعل الإمام يرسل حملة كبيرة بقيادة أخيه المحسن، ورغم أنها لم تصل عدن إلا بعد فرار ابن عفيف، وعودته إلى بلاده، إلا أنها حققت هدفين هما: استعادة المنطقة وإقرار الأمن فيها، ونجاحه في المؤامرة التي أطاحت بالعبدلي أحد المسببين للتمرد[6].

وكما يبدو أن عودة ابن عفيف إلى بلاده سالماً قد أزعجت الإمام مما جعله يرسل حملة تأديبية ضخمة بقيادة ولديه عبدالرحمن وإبراهيم، وضم إليهما بعض الأمراء

(١) انظر : الوثيقة في الملحق رقم (١).

(٢) شهاب : يافع في عهد سلطان آل عفيف وهرهرة ، ص٤٩ .

(٣) العبدلي : هدية الزمن، طبعة الجيل الجديد – صنعاء ، ص١٣٤ .

(٤) العبدلي : نفس المرجع والصفحة ؛ أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٤٦ب.

(٥) Al - Hiyed : Relations Between The Yaman and South Arabia : ١٦٢٦- ١٧٣٢ ,p١٤٦.

(٦) أبوطالب : السحر المبين(خ) : ق ٤٦ب.

العثمانيين، ولكن رغم التقنيات الحربية الحديثة التي حظيت بها الحملة إلا أنهـا منيـت بهزيمة ساحقة، وعادت فلولها إلى "قعطبة" تاركين كل عدتهم وعتادهم غنيمة للقبائل[(١)].

ومما يثير الدهشة هنا تلك الرواية التي تشير إلى أن ابن العفيف أرسل في عـام (١١١٥هـ / ١٧٠٣م) رسالة إلى الإمام يعتذر فيها عن كل أعماله التمردية طالباً منه العفو والصفح، ومبدياً استعداده بإعادة كل المنهوبات التي نهبها إثر هزيمة تلك الحملة، ولما قبل الإمام اعتذاره أراد التعبير عن إخلاصه فأرسل (١٥٠٠) مقاتل من أصـحابه، وذلك لمساندة الإمام في قمع تمرد الداعي محمد بن علي الغرباني والشيخ صـالح بـن هادي حبيش السفياني ـ آتي الذكر ـ . ولكن هذا الخضوع والولاء المفاجئ لـم يعـم جميع قبائل المشرق ففي الوقت ذاته قام السلطان صـالح هرهـرة والـسلطان أحمـد الرصاص وقبائل بني أرض بالهجوم على قلعة "جُبن" لكنهم منوا أيضاً بهزيمة سـاحقة أمام حاميتها فكانت خسائرهم فادحة في الرجال والمال [(٢)]، لزم على إثرهـا الـسلطان صالح هرهرة السكون أسفاً حتى توفى عام (١١١٦هـ/ ١٧٠٤م) .

ومما يلاحظ أن ذلك الهدوء والإخلاص لم يستمران طويلاً ففي عام(١١١٧هـ / ١٧٠٥م) قام السلطان ناصر بن صالح هرهرة بالهجوم على قلعة "الرعارع" في لحـج وهدَّمها ثم ضرب الحصار على قلعة "حُمادي" حتى تمكن من طرد حاميتها الإمامية، وفي العام نفسه شن ابن عفيف هجوماً على قلعة الطرية، وأرغم جنود الإمام على الخـروج منها[(٣)]، وقد برر أحد المراجع ذلك الهجوم بأنه رد فعل لمطالبة الإمام لهم بتوريد خراج عدن مستغلين فرصة انشغاله عنهم بقمع تمرد قبائل همدان[(٤)] .

٧ ـ تحول ميدان الصراع إلى حضرموت :

لقد رأينا في بداية الفصل تمرد حضرموت ومحاولة استقلالهم عن الدولـة عـام (١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م)، مما جعل عاملها عثمان زيد يعتذر عـن ولايتهـا وعـاد إلـى

(١) أبوطالب : نفس المصدر (خ) : ق ٤٨ أ.

(٢) Al - Hiyed : Relations Between The Yaman and South Arabia , p١٤٧ .

(٣) العبدلي : هدية الزمن، ص١٣٥ ؛ Al - Hiyed : pp ١٤٧ - ١٤٨.

(٤) بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني، ص١٤٥، ولعله يقصد همدان قبائل ابن حبيش كما سيأتي بسطه في الفصل التالي ، أما همدان الصغرى فقد تم قمعهم في عام (١١٠٠هـ) كما مر معنا .

المتوكل إسماعيل في العام الثاني، وهذا ما جعل المتوكل يجدُّ في البحث لإيجاد حل حاسم لهذا التمرد واستعادة هيبة الدولة فيها، غير أن التصدعات التي بدأ ظهورها ببروز مراكز القوى أعاقته عن ذلك . لذا فقد اضطر إلى إصدار أمر ولايتها إلى السلطان علي ابن بدر الكثيري(*)، الذي كان مقيماً لديه، فأرسله صحبة اثنين من الفقهاء كمستشارين[1]. وبذلك منحهم الحكم الذاتي، واكتفى منهم بذكر اسمه في الخطبة، وبرر موقفه هذا ببعدها عن الدولة وقلة عائداتها التي لا تغطي النفقات المصروفة عليها[2].

ومن المؤكد أن السلطان علي بن بدر حافظ على ولائه الاسمي للأئمة، حتى وفاته عام (١١٠٧هـ /١٦٩٦م)، بدليل أنه بذل قصارى جهده في إخضاع والي الشحر السلطان حسن بن عبدالله الكثيري حينما خرج عن طاعة الإمام واستقل بشؤون ولايته، محاولاً حل مشاكل المنطقة بعيداً عن الآخرين، فتمكن السلطان علي من قمعه وطرده من ولايته "وشتت شمله"[3]، ورغم ذلك الإخلاص للأئمة إلا أنه لم يقبل التدخل المباشر في شؤون ولايته، حيث نجده يرفض تسليم ولاية الشحر للوالي الذي أرسله الإمام المهدي في بداية عهده عام (١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م) "وقال: البلاد بلادنا وزلجه[4] بالمصروف طريق الجوف، فخرج وعاد خائبا مما ولاه، ولم يحصل له ما كان يهواه، إلا أنه خطب للناصر وأرسل بهدية قدر أربع من الخيل"[5].

وعلى ما يبدو أن السلطان المذكور نجح في إدارة ولايته، وتمكن من ضبط الأمور وحافظ على الاستقرار والهدوء في الولاية . فكان يوفق بين ولائه للأئمة وبين نزعته المحلية أو نزعة قبائله، ففي نفس الوقت الذي كان يحافظ فيه على ولائه، كان يعمل

(*) علي بن بدر بن عمر الكثيري: (ت: ١١٠٧هـ/١٦٩٥م) لم تفصح المراجع التي بين يدي الباحث عن زمن وفادته إلى الإمام ولاعن سببها، ويحتمل أنه وفد عام ١٠٨٠هـ لطلب الولاية من الإمام. وهناك احتمال آخر أنه بقي لدى الإمام منذ تولي والده لحضرموت عام ١٠٦٠هـ. وربما كان وجوده بمثابة رهينة . والمهم هنا أنه تمكن من الحصول على الولاية وتوفق في الموازنة بين موالاة الأئمة وإرضاء الرعية كما نلاحظ ذلك من خلال إدارته . (هاشم : تاريخ الدولة الكثيرية ، ص١١٣؛ الأمير : التطورات السياسية في القرن السابع عشر ، ص٦٥).

(١) هاشم : تاريخ الدولة الكثيرية ، ص١١٣.

(٢) الأمير : التطورات السياسية في القرن السابع عشر ، ص٦٥ .

(٣) هاشم : تاريخ الدولة الكثيرية ، ص١١٥.

(٤) أعادة خائباً مع بعض النقود.

(٥) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن، (خ) : ٣ / ق ١٤٠ ب.

على استرضاء قبائله بتقليص نفوذ الأئمة، وذلك بعدم العمل بآراء مستشاريه اللذين من جهة الإمام، وأمر أيضاً بإعادة راتب الفقيه السيد الحداد الذي منعه المتوكل سابقاً. وبهذا التوازن تمكن من المحافظة على الاستقرار وإن اتهمه أحد المؤرخين بالعجز أو الفشل[1] ، إلا أن نجاحه السياسي والإداري كان واضحاً بدليل انفجار الأوضاع بعد وفاته ببضعة أعوام .

ولقد رأينا انقسام بيت السلطان عمر بن بدر الطويرق الكثيري – في عهد المتوكل – إلى قسمين، تمثل الأول في بيت عبدالله بن عمر الذين حاولوا الوصول إلى السلطة بواسطة الزعامات المحلية، والثاني تمثل بالسلطان بدر بن عمر الذي ارتبط بالأئمة في سبيل الوصول إلى السلطة[2]، فتم تنصيبه من جهة الإمام المتوكل إسماعيل عام(١٠٧٠هـ)، واستمرت السلطة في عقبه حتى طغت سلطة قبائل يافع على حضرموت "وبقى أثرها الاسمي في آل علي بن عبدالله "[3]، بعد عام(١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م) .

وبعد أربعين سنة من حكم آل بدر بن عمر على حضرموت، عاد الصراع على السلطة ثانيةً، وفي هذه المرة حدث العكس تماماً، حيث تولى سلطة حضرموت السلطان بدر بن محمد المردوف عام(١١٠٧هـ/ ١٦٩٦م) لكنه كان ذا شخصية ضعيفة، لذلك سعى عمر بن جعفر بن عبدالله أحد أولاد عمومته المذكورين إلى منافسته، والذي كان ناقماً على يافع لتسلطهم على بلاده، ومن هنا لجأ ابن المردوف إلى يافع للمحافظة على سلطته، بينما التجأ عمر بن جعفر إلى الإمام المهدي محمد والمشايعين للأئمة في حضرموت وغيرهم للوصول إلى السلطة[4].

وكانت هناك عدة عوامل متداخلة، كالتعصب المذهبي والطائفي والمصالح وغيرها تجمعت لتتخذ من تنافس أمراء السلطة سبباً لإشعال الحروب، التي آلت إلى سيطرة قبائل يافع على حضرموت. وكما يبدو أن ظروف يافع الجبلية الوعرة قليلة المحاصيل

(١) هاشم : تاريخ الدولة الكثيرية ، ص١١٤– ١١٥ .

(٢) انظر : الملحق رقم (١٣) جدول رقم (٨) .

(٣) هاشم : تاريخ الدولة الكثيرية ، ص١٢١– ١٢٢.

(٤) هاشم : نفس المرجع ، ص١١٨، ١٢٤ .

كانت تجبر السكان على البحث عن أراضٍ جديدة تكون أكثر رخاءً واستقراراً، ولمَّا عجزوا عن السيطرة على عدن ولحج، لتصدي قوات الإمام، فقد توجهوا نحو الشرق، ووجدوا من المناوشات التي تحدث فيما بين معتنقي الزيدية الحضارم وبين بني مالك ـ المقيمين شرق يافع ـ السبب الخفي في زيارة السلطان عمر بن صالح هرهرة لمنصب عينات عام (١١١٣هـ/ ١٧٠٢م)ـ المرجع الديني للمشرق والذي يرى في الوجود الزيدي في حضرموت مساساً في زعامته الدينيةـ لذا فقد كان "لهذه الزيارة الهامة أثرها الجليل في زيادة الدعاية اليافعية وتهافت السلاطين المتناحرين على جلب عسكر من يافع لتعزيز مبادئهم والفتك بخصومهم"[١]. إلا أن السلطان عمر بن جعفر فشل في ذلك، نظراً لقلة ما بيده من النفقات، ولميل مناصب عينات عنه لعلمهم أنه من مناصري الأئمة[٢].

لقد أسفرت تلك الزيارة عن تحسين العلاقة فيما بين بدر بن محمد والسلطان ناصر بن صالح هرهرة بواسطة منصب عينات، حيث أمده في عام(١١١٦هـ/ ١٧٠٤م) بستة آلاف مقاتل، قادهم أخوه السلطان عمر بن صالح وتمكن بواسطتهم من استعادة سلطة بدر بن محمد بالقوة، إثر معركة شرسة هُزم فيها عمر بن جعفر وحلفائه، ولاذوا بالفرار[٣]. فاستحوذت يافع على السلطة فيما بقي بدر بن محمد "حاكماً صورياً"[٤]، ولم يستطع عمل أي شيء لكبح جماح يافع، فعمَّت الفوضى وانتشر الذعر والخوف والنهب والسلب أرجاء البلاد[٥].

أما عمر بن جعفر فقد وصل إلى الإمام مستنجداً، فجمع له المساجين من رجال حاشد وبكيل وغيرهم من الساخطين على حكمه والمعارضين له وأرسلهم صحبته، فتمكنوا من هزيمة يافع ونصبوه والياً على ميناء الشحر عام (١١١٨هـ / ١٧٠٦م).

---

(١) هاشم : تاريخ الدولة الكثيرية ، ص١١٨ .

(٢) هاشم : نفس المرجع ، ص١٢٥ .

(٣) شهاب : يافع في عهد سلطان آل عفيف، ص٥٠ ؛ العيدلي : هدية الزمن ، طبعة الجيل الجديد – صنعاء . ص١٣٥.

(٤) شهاب : المرجع السابق ، ص٥٠ .

(٥) هاشم : نفس المرجع ، ص١٢٠؛ شهاب : نفس المرجع ، ص٥٠ .

لكنه سرعان ما استغنى عن خدماتهم، وعجز عن موافاتهم بمستحقاتهم، وأمرهم بالعودة من حيث أتوا . فما أن تحركوا من عنده حتى أغارت عليه يافع، فعاد للاستنجاد بالإمام ثانيةً، لكن الإمام انشغل عنه بالمؤامرات التي كانت تحاك ضده[1].

ويبدو أن نجدة الإمام لعمر بن جعفر لم تسفر عنها أي نتيجة سوى زيادة عنف يافع وترسيخ أقدامهم، حيث قاموا بتتبع من بقي من أصحاب الأئمة وطردوهم منها، بعد أن كانوا قد تأهلوا وحازوا على بعض الأطيان والملكيات [2]. إضافة إلى تتابع هجرات يافع الاستيطانية، فاستبدوا بحكم حضرموت واقتسموا البلاد بين عشائرهم [3].

أما في عام (١١١٩هـ /١٧٠٧م)[4] فقد بلغ الخصام أوجه فيما بين آل كثير فتوسط بينهم منصب عينات، والسلطان عمر هرهرة على أن يتولى عمر بن جعفر ظفار "ومن أراد من بقية آل عبدالله الصعود معه فليصعد ومن أراد البقاء بحضرموت فله كيلة يتناولها من الدولة كالعادة السابقة"[5]، وقد قبل السلطان عمر بن جعفر الصلح مضطراً إلا أنه استعان بالواحدي والعولقي وعاد يريد الهجوم على حضرموت "ولما وصلوا هنن سعى السيد حسين بن عمر العطاس في الصلح وتم على أن يافع عسكر السلطان وأن يخففوا عنه من مصاريفهم وعادت الأحزاب كل إلى أرضه"[6].

ورغم ذلك إلا أن هناك رواية تشير إلى أن عمر بن جعفر أقام لدى الإمام المهدي منذ استنجاده المرة الثانية حتى انتهت دولته، فجهزه المتوكل القاسم بن الحسين عام (١١٢٩هـ/ ١٧١٧م) على رأس حملة مكونة من حوالي (٤٠٠مقاتل) من قبائل دُهمة، الذين استطاعوا التغلب على حضرموت، وإعادة عمر إلى السلطة، فلما تم له ذلك ثقلت عليه نفقاتهم، فاعتذر لهم وأمرهم بالعودة، وفي طريقهم اجتمعت عليهم قبائل يافع وأبادتهم عن آخرهم، ولم يستطع عمر الدفاع عنهم فمات بغصته[7]. ولكن هناك رواية

(١) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٥٦ أ.

(٢) أبوطالب : نفس المصدر والورقة .

(٣) با مطرف : المختصر في تاريخ حضرموت العام ، ص ٨٧ .

(٤) العمري : تاريخ اليمن الحديث ، ص٨١ .

(٥) هاشم : تاريخ الدولة الكثيرية ، ص١٢٩.

(٦) هاشم : نفسه ، ص١٣٠ .

(٧) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٩١ .

أخرى تشير إلى أن عمر هاجم قبائل يافع في حضرموت وحصرهم في تريم عام (١١٣٠هـ/ ١٧١٨م)، واستمر في محاصرتهم من شهر ربيع الأول إلى جماد الأول حتى ضاق من محاصرته لهم وأشار بمن يتوسط في الصلح . بعدها أنف الإقامة في حضرموت فانتقل إلى مسقط من أرض عُمان واستقر بها حتى وافاه الحِمام في العام نفسه [١] .

٨ـ عودة الصراع ونجاح النفوذ الاسمي :

في خلال الخمس السنوات التي تلت عام(١١١٤هـ/١٧٠٢م) كانت العلاقة فيما بين الإمام وقبائل المشرق قد سادها نوع من الوئام، فانتشر الهدوء والاستقرار النسبي في تلك المناطق، وتحول خلالها الصراع ــ كما رأينا ــ إلى حضرموت، بعدها ظهرت المفاجئة في تحالف قبائل المشرق كلها[٢]، بقيادة السلطان عمر بن صالح هرهرة حيث جمع منهم حوالي عشرين ألف مقاتل، وهجم بهم على مدينة "إب" في (١٢ربيع الآخر ١١٢٠هـ /٣٠/٦/١٧٠٨م) [٣].

وقد ذهب المؤرخون إلى أن هناك سببين رئيسيين حملا السلطان ابن هرهرة لشن ذلك الهجوم المباغت على المدينة هما :

١. أن وزير الإمام ــ الفقيه محسن الحبيشي ــ كان يحيل بين رسائل السلطان ابن هرهرة وبين وصولها إلى الإمام، بل ويقابل رسل السلطان "بالكلام السارف "[٤]، لذلك أراد ابن هرهرة النكاية به في داره وذخائره التي كانت في مدينة "إب"، إلا أنهم لم يتمكنوا في نهبها لدفاع الحراس عنها[٥]. ورغم عدم إفصاح المراجع ــالتي بين أيدي الباحث ــ عن فحوى تلك الرسائل، إلا أنه يعتقد أنها تحمل مطالبة الإمام بتسليم مقرراته ومستحقاته، أو عتاب عن سبب تأخيرها، أو عدم موافاته بها .

---

(١) هاشم : المرجع السابق ، ص١٣١ــ ١٣٣.

(٢) تكوّن التحالف من قبائل يافع العليا والسفلى وقبائل الرصاص والحواشب ودثينة والهيانم والحميقاني ومراد وبيحان والمصعبين .(ابن عامر : بغية المريد،(خ) : ص٤٢١، Serjeant,R.B. Lwecock .R: Sana'a , P ٨٣) .

(٣) ابن عامر : نفس المصدر (خ) : ص٤٢١.

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٢٢.

(٥) ابن عامر : المصدر السابق (خ) : ص٤٢٤.

٢. إنهم أرادوا بذلك صرف نظر الإمام عن الدفاع عن حضرموت [١]، وهذا سبب بديهي جداً وكما رأينا فان الإمام رفد عمر بن جعفر بجيش من المساجين فاستحوذ بهم على ميناء الشحر عام(١١١٨هـ/ ١٧٠٦م)، فكان ذلك على ما يبدو سبباً كافياً لعودة عمر بن صالح هرهرة من حضرموت العام الثاني[٢]، وحشده لقبائل المشرق.

وكيفما كانت الأسباب والدوافع فإن ما يلفت النظر هنا تلك المقدرة والكفاءة القيادية التي امتاز بها السلطان عمر بن صالح وأحلافه، بدايةً من مقدرته على جمع تلك الأعداد الهائلة من قبائل شتى، وضمهم جميعاً تحت قيادته، ثم ما امتاز به من حسن التخطيط، حيث نوه بأنه متوجه للهجوم على قعطبة، فلما اقترب منها وضع بعض المقاتلين حولها ليشغلوا حاميتها عن ضربهم من الخلف، أو لكي لا يقطعوا طريق عودتهم، ولا يستبعد بأنه أرسل قبله العيون لكشف نقاط ضعف حاميات الإمام، واستمالة من يقدرون على استمالته من قيادات الإمام، وإلا كيف يستطيع أن يعبر تلك المسافة التي قطعها خلال خمسة أيام دون أن تقابله أية مقاومة تذكر من حاميات الإمام حتى هجم على المدينة ؟ ! وفي نفس الوقت كشفت هذه الغزوة عن مدى ضعف قوات الإمام وحامياته وتقاعسهم وإهمالهم .

وعلى أية حال فقد استطاع السلطان عمر وجموعه اقتحام المدينة، من النوافذ والفتحات الموجودة في سورها الضعيف المهمل، فعبثوا بها وبأهلها وذبحوا كل من وجدوه، ولم يُفرّقوا بين رجل وامرأة أو بين مسلم ويهودي[٣]، وسيطروا على ثلثي المدينة، ونهبوا المنازل والسوق والجوامع وخانات البانيان ــ التجار الهنود ــ ، وحملوا المنهوبات على ظهور ألف جمل من غير الحمير وما حملوه على ظهورهم، وأتلفوا واحرقوا ما لم يستطيعوا حمله، واستمر عبثهم بالمدينة من نهار يوم السبت ١٢ربيع ثاني من العام المذكور إلى صباح يوم الاثنين [٤].

---

(١) الحداد : التاريخ العام لليمن ، ١٤٤/٤حاشية ؛ القعيطي : يافع ، ص١٦٨.

(٢) شهاب : يافع في عهد سلطان آل عفيف وهرهرة ، ص٥١.

(٣) (Serjeant , R . B . Lwecock . R : Sana'a , P٨٣ .

(٤) ابن عامر : بغية المريد ، ص ٤٢٢ ــ ٤٢٣ .

ومن المؤكد بأنهم عملوا على تأمين ظهورهم حال عودتهم، ففريق منهم كان يسوق المنهوبات وفريق آخر كان يقف على الجبال والطريق لحراستهم، ونستدل على ذلك بأن الإمام أرسل حملة سريعة كثيرة التكلفة لصدهم، بقيادة يحيى بن علي بن المتوكل إسماعيل فما أن وصلوا أسفل جبل العذارب[1] (*)، حتى هجموا عليهم أهل المشرق المتمركزين على قمة الجبل بالبنادق والصخور[2]، فكانت تلك الحملة غنيمة باردة لهم[3]، فعادوا بلادهم محملين بالمنهوبات من المدينة، بالإضافة إلى الغنائم التي غنموها من تلك الحملة المهزومة، بعد أن قتلوا معظم قوادها وأفرادها ومثلوا بهم، وحزوا رؤوسهم، وعلقوها على الأشجار، كان من ضمنهم قائد الحملة ابن أخت الإمام والآخر ابن أخيه، لذلك فقد علّق عليها أحد معاصري الأحداث بقوله : "وكانت قضية شنيعة وحادثة صارت القلوب من أجلها وجيعة"[4].

وبقدر ما كانت مصدر أحزان ومأساة ومذلة لآل القاسم، كانت مصدر فخر واعتزاز لأهل المشرق، وصاروا يتغنون بها في أهازيجهم الشعبية، وقد ورد في هذه المناسبة عن شاعرهم البكري قوله[5] :

تعز خذناها وخذنا قعطبة ... وإب والراحة ونجد الجاح

ويوم خذناها وخذنا ما بها ... وأنتم بها وأمسى السمر مياح

لقد أثارت تلك الهزيمة حفيظة المهدي، حتى أن أباطالب عبَّر عن شدة غضبه وكثرة تجهيزاته بقوله : "وكاد أن يرجم يافعاً بقلعة المواهب"[6]، وهذا ما جعله يطلب المقاتلين من كل أنحاء البلاد.

---

(١) زبارة : نشر العرف ، ١/ ٧٧٣.

(*) اختلفت المصادر المتاحة في تحديد مكان المقتلة التي وقعت للأمراء المذكورين، فمنهم من يشير إلى مسيل الواقع بجانب جبل يسرخ حول العذارب ، وآخر يشير إلى جبل يراخ الواقع في الحيفي الأعلى من مديرية الحشاء من أعمال تعز ، وثالث يشير إلى جبل العذارب فقط .(أبوطالب : السحر المبين ، ق ٦٠أ؛ الكوكباني : المواهب السنية (خ) : ٢/ ص١٧؛ زبارة : نشر العرف، ٣٥١/٣؛ معجم المقحفي : ٢/ ١٩٠٣).

(٢) الكوكباني : المصدر السابق (خ) : ٢/ ص١٨.

(٣) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٦٠أ.

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٢٢، والسحر المبين (خ) : ق ٦٠أ.

(٥) العبدلي : هدية الزمن ، ص١٣٦؛ الحداد : اليمن العام ، ٤/ ص ١٤٤ح.

(٦) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٦٠ب.

ويبدو هنا أن المهدي استخدم طريقة جديدة في حشد المقاتلين تمثلت في أسلوب المستنجد الضعيف حيث لجأ إلى استنجاد القبائل بواسطة ذبح الأبقار والأغنام لديهم المسماه بالعقاير، وهذا غاية في إثارة حفائظهم واندفاعهم للنجدة مهما كانت العوائق والموانع، وقد توحي استخدامه لهذه الطريقة معانٍ كثيرة تكمن بعضها في شدة رغبة الإمام للانتقام، لهول تلك الهزيمة في نفسه، ومن جهة أخرى توحي بضعف سلطته على تلك القبائل المستنجد بها، وأنهم لن يعيروه أي اهتمام إذا طلبهم حسب العادة، ومن جهة ثالثة أنهم لم يكونوا على وفاق معه لكثرة سوابقه معهم .

لذا فقد اضطر إلى إرسال "الحسين بن علي إلى بلاد حاشد وبكيل ومعه من البقر شيء كثير لإثارة حفائظهم، وتعاقدهم على أخذ الثأر من يافع على تلافظهم، وطلب إليه من كل قبيلة جيل، وجعل كل الحث لحاشد وبكيل"[(١)].

ولما توارد المقاتلون إلى حضرة الإمام من كل مكان حتى من أقصى المنطقة الشمالية، مثل قبائل "وائلة وشاكر"[(٢)] و" سحار ويام وعمار وخولان"[(٣)]كان عدد الجميع "قدر عشرة آلاف"[(٤)] مقاتل، فقام الإمام بتجهيزهم بأحدث التجهيزات واصحبهم بالوزيرين الحريبي والحبيشي، وأرسلهم من طريق رداع بقيادة النقيب صالح بن هادي حبيش السفياني أكبر مشائخ بكيل، والنقيب ناصر جزيلان البرطي[(٥)].

وما إن وصل ذلك الجيش إلى منطقة المعسال، حتى تجمعت لملاقاته قبائل يافع وأحلافها جميعاً "حتى النساء"[(٦)] بقيادة السلطان عمر بن صالح هرهرة، فوقعت بين الفريقين معركة شديدة قتل في بدايتها حوالي ألف نفر من يافع، وأصيب السلطان بجرح في أحد فخذيه، وكاد النصر أن يكون حليف الجيش لولا حدوث بعض العوامل غيرت مسار الحدث، وحولت النصر إلى هزيمة، فانسحب الجيش، وكرت يافع على المنهزمين،

(١) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٦٠ب .
(٢) زبارة : نشر العرف، ١/ ٧٧٣ .
(٣) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٦٠ب .
(٤) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٤٢٥ .
(٥) ابن عامر : نفسه (خ): ص٤٢٥ ؛ أبوطالب : السحر المبين (خ): ق ٦١ أ ؛ زبارة: نشر العرف ، ١/ ٧٧٣ .
(٦) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٦١أ.

وقتلوا من عجز عن الفرار، وغنموا عدتهم وعتادهم ونهبوا سوقهم[١]، وعاد الجيش منهزماً إلى رداع، ومن ثمَّ سافر ابن جزيلان وأصاحبه عن طريق الجوف إلى بلاده برط، وعاد ابن حبيش وبقية الحملة إلى حضرة الإمام .

ورغم ما كانت تتمتع به هذه الحملة من مميزات كثيرة تؤهلها لاكتساح المشرق مثل: كفاءة قياداتها وأفرادها وتجهيزاتها الضخمة والإمدادات التي وافاهم بها الإمام "حتى صارت الآكام، وافتقرت بكاثرها إلى ولاة وحكام"[٢]، رغم كل ذلك إلا أنهم لم يستعيدوا يافع، بل منوا بالهزيمة الساحقة[٣]، وقد عول بعض معاصري[٤] الحدث سبب الهزيمة هذه المرة إلى الإمام والوزيرين، وذلك بتفضيلهم ابن حبيش في العطاء، وإهمالهم شأن ابن جزيلان، مما أثار حقد الأخير عليهم، فانسحب مع أصحابه أثناء وطيس المعركة، وأظهر الهزيمة فانهزم الجيش بهزيمته، وذلك نكاية بهم، وقيل إنه أخذ الرشوة من ابن هرهرة مقابل ذلك، وأرجعها أيضاً إلى التعصب المذهبي حيث قال :"وكان الفقيه المذكور [أي الوزير الحبيشي] لا يحب استئصال المشرق لاتحاد المذهب بينهم"[٥] .

والواقع أن ما ذكره المؤرخون حول هذه الهزيمة يبدو وجيهاً إلى حد ما، إضافة إلى بعض الأسباب الخفية التي توحي بها رواياتهم، مثل المؤامرات التي كانت تحاك ضد الإمام من جهة الوزيرين، وعصبيتهما الطائفية والمذهبية، كما أن هناك سبباً آخر يعود إلى التخطيط الحربي الذي سلكته القبائل، فيتضح من الروايات أن يافع اختارت موقع المعركة، فمن المحتمل حينما سمعوا بتجهيزات الإمام عليهم أنهم تجمعوا في المنطقة المذكورة وعملوا ترتيباتهم، وحينما بدأت المعركة أظهروا التراجع حتى توغلت قوات

---

(١) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٦٢ أ ؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ص ٧٧٤ .

(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٦١ أ .

(٣) Serjeant , R . B . Lwecock . R : Sana'a , P ٨٣ .

(٤) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٤٢٥ ؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء، ص٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٥) أبوطالب : السحر المبين، (خ) : ق٦١ أ ؛ طيب الكساء ، ص٣٢٣.

الإمام في مطاردتهم، وكان هناك مجموعةً أخرى عطفت على الجنود من خلفهم فكانت الهزيمة الساحقة .

وعلى كل حال فإن الإمام أصيب بخيبة أمل وحث في تتبع الشخصيات التي كانت سبباً في الهزيمة، والتفت بعدها لصد المتآمرين ضده داخل البلاط، ولجأ إلى استمالة يافع، وحالفهم مرة أخرى "وانحسمت المادة بين يافع والإمام الناصر من الحروب ووفدت عليه بعد وأعطاهم وأحسن إليهم"[1] . وقد أكد هذه العبارة أحد اليافعيين في قوله : "وفي عام ١١٢٢هـ[١٧١٠م]عاد الصلح مع الإمام بواسطة الشيخ علي عبد أحمد بن غرامة وقيل (علي بن أحمد بن غرامة) وذلك بموافقة السلطان قحطان وابن الشيخ علي بن هرهرة على أن يكون الأمر على النواحي الجنوبية بيد أصحابها وأن يكون العامل ممثلاً للإمام وكهمزة وصل لا غير، وأن تبقى رتبة متواضعة من قبله في لحج وتعتبر كرمز للدولة الموحدة وكاعتراف من قبل أهل يافع بالإمام كملك فخري، ولكن دون أي سلطة عليهم، وأن تكون الكلمة الصائبة منه مسموعة من قبلهم وخلافها مرفوض"[2]، وأيضا هناك وثيقة تؤكد مسالمة الإمام لابن هرهرة، وبما أن الباحث قد تعثر في قراءة تاريخها نظراً للخدش الذي طرأ عليها[3]، إلا أنه يرجح أن تاريخ صدورها كان بعد عام (١١٢٠هـ/ ١٧٠٩م)، وهي عبارة عن مرسوم إمامي يعترف فيه بأحقية السلطان عمر بن صالح هرهرة وأخوته بني هرهرة في التصرف بـ" زكاة يافع ومعاشره ونذوره وكل حق من حقوق الله يجري في الجهة اليافعية وكل ما هو لهم من كسوات وعادات وحوالات ومصاريف بمحله يجري إليهم، وعليهم بتقوى الله في

---

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٤٢٥ .

(٢) بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني، ص١٤٦ .

(٣) يبدو أن الوثيقة قد عبثت بها أيدي الزمن حتى ظهر عليها بعض السواد الذي حال دون توضيح التاريخ وبما أن بعض المراجع قد أثبتت تاريخها في عام(١٠٩٢هـ) إلا أن هناك استدلالات عدة ترجح ما ذكرناه أعلاه منها أن الإمام كان لا يزال أميراً للمنصورة في تاريخ (١٠٩٢هـ) وأنها صادرة من مدينة المواهب التي لم يتخذها الإمام مقراً لحكمه إلا في عام(١١١١هـ)، وأخيراً أن الوثيقة باسم السلطان عمر بن صالح هرهرة الذي لم يتولى السُلطة إلا بعد وفاة أخيه السلطان ناصر عام(١١١٩هـ) . انظر : الوثيقة في الملحق رقم (٢) .

السر والإعلان"[1] ، وهذا مقابل اعتراف السلطان بطاعة الإمام، وعلى هذا تم الوفاق فيما بين المشرق والإمام المهدي على حسب المصالح المشتركة بينهما .

والخلاصة أن المشرق والجنوب قد دخلا تحت طاعة الأئمة اسمياً في عهد المؤيد ابن القاسم وكان ذلك لأول مرة في تاريخ أئمة اليمن، وبما أن المتوكل إسماعيل قد تمكن من إخضاعه للسيطرة الفعلية ووحد جميع أجزاء اليمن لفترة قصيرة إلا أن تلك المناطق سرعان ما أعلنت عصيانها وانفصلت عن حكم الأئمة، ولعل ذلك كان نتيجة طبيعية لشدة الجور الذي نالهم من العمال ولمحاولة نشر المذهب الزيدي بالقوة، إضافة إلى بُعد المناطق عن حاضرة الدولة وقلة مواردها، وطبيعة يافع الجبلية التي تميل دائما إلى الاستقلال، مع ما صاحب ذلك من ضعف واضطراب دولة الأئمة الناتج عن تنافسهم وتناحرهم على الولاية، ولكن حاول المهدي محمد استعادة السيطرة عليهم مستخدماً الوسائل العسكرية أحياناً، والوسائل الدبلوماسية أحياناً أخرى، ظهر من خلالها دور القبيلة الذي برز في شكل تكتل سياسي مع أو ضد الإمام فتقاوم الظلم والتعسف وترضخ لمصالحها، الأمر الذي كان يغير من سياسة الإمام معهم حتى مرّت بأربع مراحل إن جاز لنا تشخيصها، حيث ابتدأت بحروب عنيفة، ثم استقرت الأمور عبر المصاهرات والإكراميات والمشاركة في الوظائف فامتازت بهدوء نسبي، لكن اضطرب الوضع حين أحست القبيلة بتقليص مصالحها، حتى إذا ما استعادت مصالحها تم الوفاق والاعتراف الاسمي بالإمامة إلى نهاية الحكم. فاستطاع الإمام بواسطة سياسته تلك المحافظة على وحدة الدولة المركزية وسيادتها على عكس من جاء بعده من الأئمة الذين تخلّوا عن تلك المناطق بسرعة فانفصلت لحج ثم عدن عن الدولة بعد وفاته بعشر سنوات[2] ، مما جعلها لقمة سائغة ابتلعها الاستعمار البريطاني بسهولة عام ١٢٥٤هـ = ١٨٣٩م.

---

(١) انظر: الملحق رقم(٢).

(٢) Bury , G . Wyman : Arabia Infelix Or The Turks In Yamen , p١٣ .

الفصل الثالث

مرحلة الاستقرار وتنظيم الحكم

(١١٠٥ـ١١٢٤هـ / ١٦٩٤ـ١٧١٢م)

أولاً : مميزات الفترة وأحداثها :

تشير هذه الفترة إلى تحول الإمام عن سياسة العنف ـ نسبياً ـ وميله إلى الاستقرار واستخدام السياسة السلمية، والبحث عن المستجدات، فأتخذ الأسلوب الديني شعاراً له في بناء دولته، وتنظيم الحكم، محاولاً تكريس جهوده في التوسع خارج اليمن ـ في الحجاز وإفريقيا ـ، والتوسع الداخلي في العمران ـ من بنا المدن وتجديد الحصون ـ، ومحاولة التنقيب عن المعادن .

١- الألقاب وعلاقتها بتدبير شؤون الحكم :

قبل الدخول في دراسة أهم أحداث ومميزات هذه المرحلة نود استعراض المنهجية التي استند إليها حاكم الوقت لتسيير دفة الحكم، والتي يصعب علينا تحديدها لاختلافه عن سابقيه من الأئمة، نظراً للوضع الذي انتصب فيه للإمامة وطول فترة حكمه وكثرة أعدائه وشخصيته الفذة والمتقلبة المزاج أحياناً كثيرة، كل تلك العوامل وغيرها صار لها مردود عكسي على سياسته الداخلية، ورغم تلك الصعوبات إلا أننا سوف نحاول رسم خطوطٍ عريضةٍ لتحديد تلك السياسة المتقلبة وذلك استنادا إلى تلك الألقاب التي أتخذها خلال فترات حكمه وأهم الأعمال التي اتسم بها كل لقب من ألقابه الثلاثة (الناصر ، الهادي ، المهدي) .

ومن الجدير بيانه هنا أن تلك الألقاب لم تطلق على الإمام عشوائياً كما يشير البعض بأنها جزء من تخبطه، بل كان لكل لقب هدف محدد، وكان له أيضا مبررات ودلالات ومبشرات يحاول بواسطتها إثبات أهليته للسُلطة على الآخرين، وكان يساعده في ذلك بعض مروجي سيرته لغرض التقرب منه، أو للتشفع بذلك ليأمنوا بطشه، فأسندوا عملهم إلى علم "الجفر" الذي يُخْبِر بالأحداث المُقبلة إلى قيام الساعة بزعمهم، كما أشاروا إلى أن الإمام مذكور في جميع السِيَرْ ، بل إن التُبَّع اليماني الملك "أسعد

الكامل"[*] قد أخبر به وبدولته، وغير ذلك من الخرافات والأساطير البعيدة عن الحقيقة، كما سوف يتضح على النحو التالي :

ففي لقب (الناصر لدين الله) دلالة واضحة تدل على القوة والجأش والحزم والعزم والقدرة على مواصلة القتال والحرب، وقد تلقب بهذا اللقب منذ دعوته الأولى بعد وفاة والده معارضاً للمؤيد الصغير . واستند في اختياره على رواية اختلقها بعض معاصريه وجعلوها من أهم المبشرات لإمامته، وفحواها أن والده المهدي أحمد بن الحسن رأى في منامه أنه مجتمع بآل القاسم فدخل عليه شخصان بصورة حسنة فظنهما جبرائيل وعزرائيل جاء الأول مبشراً والثاني لقبض روحه، فقال لهما من سيكون الإمام بعدي فأجابا بهذا البيت الشعري :

القائم الناصر الخوات من شهدت   له الملائك بالعليا من الدرج

فأشار إلى محمد بن المتوكل فأعادا البيت ثم أشار إلى ولده الحسين فأعادا البيت وأشار إلى ولده محمد فقالا نعم هذا[1]. ورغم أنهم أثبتوا عدم صحة تلك الرواية فيما بعد[2]، إلا أنها كانت بمثابة محاولة لإثبات حقه في السُلطة وإقناع مناوئيه بذلك .

وهذا لا يهمنا فليس جديداً علينا لأن تاريخ الأئمة مليء بمثل هذه الروايات والتنبؤات الدعائية والاستعطافية، والمهم هنا تلك السياسة التي استخدمها خلال فترة هذا اللقب، والتي اتسمت بالشدة والبطش والحروب المتواصلة ــ غالباً ــ لتثبيت حكمه، حتى تمكن من إخضاع خصومه والإيقاع بهم والاستحواذ على السُلطة بالسيف. والتي استمرت ثمان سنوات تقريباً . توصل من خلالها إلى التخلص من أمراء مراكز القوى المستبدين بالولايات واستبدالهم بأمراء تحت طوعه. وقد تم عرض أحداثها في مرحلة تثبيت الحكم .

(*) هو (أبي كرب أسعد بن ملكي كرب يُها...)، حكم اليمن في آخر القرن الرابع الميلادي وأوائل القرن الخامس . وهو من ملوك حمير المشهورين، وقد بلغت الدولة أوج ازدهارها في عهده، فشملت توسعاته الجزيرة العربية والهند وغيرها، واسمه ما زال عالقاً في أذهان اليمانيين إلى اليوم وينسبون إليه كل قديم فجمعت شخصيته بين الشهرة التاريخية والميثولوجيا الملحمية.(د. يوسف محمد عبدالله : الموسوعة اليمنية ، ط١، ١٠٤/١).

(١) الضبوي : عقد الجواهر، (خ) : ق ١٢ب؛ أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ): ٤/ ق ٢٢٠أ ؛ زبارة : نشر العرف . ١٢٠/٢هامش رقم (١).

(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٦٣ب.

بعد ذلك عدل عن سياسة العنف ـ بعض الشيء ـ ومال إلى السياسة السلمية وأتخذ لقب (الهادي لدين الله) ثم (المهدي المنتظر)، وقد تداخلت العوامل المؤثرة في كلا اللقبين وكذلك السياسة التي استند عليها ومميزات وسمات كل منهما .

فإذا انتقلنا إلى لقب الهادي فسنجد اختلاف المؤرخين [1] في تحديد العام الذي تلقب فيه الإمام بالهادي، والراجح ما أشار به شارح سيرته، وأحد أقرانه من معاصري الأحداث بأنه تلقب في يوم الجمعة (٢٣رجب ١١٠٥هـ / ١٩مارس ١٦٩٤م)، وأصدر التعاميم بذلك الصدد إلى جميع ولاة اليمن [2]. وقد قيل إنه استند في ذلك على رؤيا دينيه رآها أحد فقهاء صنعاء في الليلة المذكورة فكانت أحد أسباب تغيير اللقب[3]، ورغم ذلك إلا أن أحد معاصريه انتقد الإمام في هذا التغيير وأشار بأنها "من جملة التخبط في الأمور التي يعرفها اللبيب ويتظاهر بالذم لها كل أديب"[4] .

ومهما قيل فالذي يهمنا هنا هو معرفة العوامل التي حملت الإمام على تغيير اللقب الذي تم بواسطته تحول واضح في مجرى سياسته والتي من أهمها التالي :

١. لعله أحسَّ بالعظمة بعد أن استقر في الخضراء وتمكن من بسط سلطته على جميع البلاد ولم يبق سوى بعض القلاقل في يافع ليست ذات أهمية، لذلك "أعتبر أن لقب الناصر قد حقق غايته"[5] فأوجب على نفسه أن يتخذ له لقبا يليق بمقامه[6]، وصاحبه اهتمامه ببناء الدولة وتوسعها. والتفريج على منافسيه الذين سبق له اعتقالهم .

---

(١) أشار أبوطالب ومن استمد منه إلى أن الإمام الناصر غيّر لقبه إلى الهادي عام ١١٠٧هـ. (أبوطالب: السحر المبين ،(خ) : ق ٣٣أ ؛ العابد : تهذيب الزيادة (خ): ص١٧٠؛ الجنداري : الجامع الوجيز (خ): ق ١٦٣ب).

(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ٢٢٨أ . وأشار راصد أحداث الشام بأنه وصلهم بلاغ لقب الهادي في شهر شعبان ١١٠٥هـ ، وإلى مثله أشار راصد أحداث المخلاف السليماني. (الداعي: الدامغة الكبرى (خ): ٢/ ص١٨٤؛ البهكلي: العقد المفصل،

(٣) أبوالرجال : نفس المصدر : ٤/ ق ٢٢٠ب.

(٤) الداعي : المصدر السابق : ٢/ ص١٨٤.

(٥) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٩٣.

(٦) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ):٤/ ق ٢٢٥ب.

٢. انتقادات العلماء اللاذعة التي كانوا يوجهونها للإمام بسبب سياسة العنف التي استخدمها في إخضاع منافسيه، سواءً من ناحية تسليط القبائل على بعضها، أو من ناحية إنهاك كاهل الأهالي وظلمهم بالزيادات المالية التي كان يفرضها عليهم تحت شعار معونة الجهاد وغيرها، لينفقها في الحروب وسفك دماء الأبرياء، كما أشار إلى ذلك العلامة صالح بن مهدي المقبلي(*) في رسالته الموجهة إلى الإمام والتي كشف بها عن عجزه في السياسة المالية والإدارية والحربية، والتعريض بتلك الدماء التي سفكت في حرب صعدة وحرب يافع دون وجه شرعي، إلا أن يُذكر اسمه في الخطبة[١]. لذلك فمن المؤكد أن الإمام كرَّس جهده لاسترضاء هؤلاء العلماء وحاول امتصاص تذمرهم، والتَفَت إلى كسب ودهم بهذا اللقب الذي تبعه بالحفاوة بهم والتودد إليهم، ويبدو أنه أظهر رغبته في التعليم فجمع أمهات الكتب وألَّف كتابه المذكور سابقاً[٢]، لكي يسدّ تلك السلبية التي طالما وجهوا سهامهم إليه منها .

٣. لعله أدرك أن تركيزه على الحرب كان على حساب الإهمال في الجانب الإداري فتقلصت هيبته في الولايات، لدرجة أن قبائل حاشد وبكيل صاروا يتخطفون القوافل المارة من بلادهم، لغياب العمال والجنود من البلاد وانشغالهم بحرب الجنوب والمشرق. لذلك جدد الدعوة وأظهر العزم والقوة واستكثر من جمع الجنود[٣]لاستعادة هيبة الدولة .

٤. أدرك أيضا أن فترة الحرب سوف تطول أكثر وأكثر فكلما توجه لإخضاع يافع استغل المتربصون به في الشمال الفرصة وأثاروا القلاقل والفوضى، وخاصةً علي بن أحمد

(*) العلامة المجتهد صالح بن مهدي بن علي المقبلي الثلائي: (١٠٤٧ــ ١١٠٨هــ ١٦٣٧ــ ١٦٩٦م) كان من أبرز علماء عصره وقد دعا إلى الاجتهاد ونبذ التقليد، لكنه صادف معارضة شديدة من علماء صنعاء رحل على إثرها إلى مكة المكرمة عام (١٠٨٠هــ)، ثم دخل مع علماء مكة في نفس الإشكالية فاقموه بالزندقة ، لذلك فضّل العودة إلى اليمن عام (١٠٨٤هــ) ، وله عدة مؤلفات منها (العلم الشامخ) و (الأرواح النوافخ) مطبوع في مكتبة الجيل الجديد – صنعاء ، و (الأبحاث المسددة) ، مطبوع في مكتبة الجيل الجديد – صنعاء ، وكلاهما بتحقيق وليد الربيعي . (يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٢/ ق ٥٠أ ؛ الشوكاني : البدر الطالع (تحقيق : العمري)، ص٢٩٩ ــ ٣٠٢ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز (خ) : ق١٦٥ ب ؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٧٨١ــ ٧٨٧ ؛ العمري : يمانيات في التاريخ والثقافة والسياسة ، ١/ ٨٣ ــ ٨٦) .

(١) انظر : نص رسالة المقبلي في الملحق رقم(٤) .

(٢) انظر : الفصل الأول ، ص ٥٢.

(٣) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ١٨٤.

ـ أمير صعدة ـ، والعكس صحيح، إضافة إلى تسرب الملل فيما بين صفوف الأمراء والأفراد، لذلك مال إلى انتهاج السياسة السلمية بالمصالحات والهبات والمصاهرة وغيرها .

لهذا وذاك فمهما قيل من الانتقاد حول هذا اللقب، أو ما استند عليه من مبشرات وكرامات وغيرها لتبرير شرعيته، إلا أننا نميل إلى أنه كان يهدف من ورائه تحقيق أغراض عديدة غيَّرت من مسار حكمه حيث اتسمت فترة لقب الهادي ـ رغم قصرها ـ بسمات بانت جلية في أغلب المجالات، ففي المجال السياسي حاول الميل إلى الاستقرار، فعمل في مصالحة المشرق وأجزل لهم العطاء وصاهرهم ـ كما رأينا سابقا ـ واستمالهم بشتى الطرق حتى تمكن من ضمهم تحت نفوذ الدولة المركزية . واستخدم نفس الطريقة مع علي بن أحمد أمير صعدة فامتازت الفترة بالهدوء .

ثم بعد ذلك عمل على توسيع حدود الدولة، فسيطر على ميناء زيلع وحاول مد سيطرته على الحجاز والحرمين الشريفين، كما سيأتي بسطه في فصل لاحق .

وفي مجال العمران اهتم بتجديد الحصون الأثرية وبناء الحصون والقلاع والمدن كالخضراء والمواهب . ثم حاول التنقيب عن المعادن فاستخرج معدن الفضة، ورغم ما قيل عن هذا المعدن من الركَة وعدم الاستفادة منه، إلا أن الإمام أمر بتصديره إلى مدينة " سنار" السودانية، واشترى بثمنه عدداً من الرقيق، كوَّن بهم جيشاً خاصاً به محاولاً الاستغناء عن الجيش الشعبي المكون من القبائل . وبذلك حاول الظهور بمظهر الدولة الحديثة .

كذا حاول التظاهر بمظهر الناسك العابد العادل فأمر بضرب عنق الوزير حسن الآنسي حين وصل إليه أهل المخا شاكين مظالم المذكور فيهم أثناء عمالته عليهم. ثم حاول التقرب من العلماء والقضاة فعينهم في المناصب العلمية وقام بتجديد بعض المساجد مثل مسجد الحيمي بصنعاء القديمة ـ كما سيأتي بسطه كلا في محله ـ .

أما لقب (المهدي المنتظر) فقد قيل إنه تلقب به في عام(١١٠٩هـ/ ١٦٩٧م)[١]، ووصل التعميم بذلك إلى صعدة في شهر (صفر ١١١٠هـ / أغسطس ١٦٩٨م)[٢]، وقد بالغ شعراء الحضرة في الإشادة بهذه المناسبة، وتشبيهه بالمهدي المنتظر وأن هذه خصائص من الله تعالى له وأن تعدد ألقابه تشبهاً بتعدد أسماء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أشار إلى ذلك الأديب أحمد الآنسي في قوله[٣]:

وأنت كخير الرسل خير خليفة ... وقد زادك الرحمن عزاً وتمكينا
وإن يكن الاسم المسمى فلم نجد ... لأوصافه في الذوق معنىً وتحسينا
كما أن طه أحمد ومحمد ... وسماه رب العرش طه وياسين

ويلاحظ أن القصائد والمبشرات التي قيلت حال لقبه الهادي قد أوحت بلقب المهدي حيث أشار أحد المصادر الذي كان تاريخ تأليفه عام(١١٠٦هـ/١٦٩٤م) إلى قول الشاعر [٤]:

وقال قم يا أمير المؤمنين ... فقد أصبحت هاديها ومهديها

وهذا يدل على أن الإمام كان يسيرُ في سياسته حسب الخطط التي كان يرسمها له المنجمون وغيرهم من المقربين . فكان هذا "آخر الألقاب التي حملها للعقدين التاليين"[٥]. الذي لم يبد فيه أي جديد؛ فهو امتداد للقبه السابق، اللهم إنه كان يقصد به لفت نظر الشاه الصفوي وتعزيز العلاقات الخارجية بشكل عام، حيث وصلت الوفود إليه من معظم الأقطار طمعا في عطاياه الواسعة، كما أنه أرسل الهدايا إلى الشاة الصفوي وإلى ملك الهند أيضا ــ كما سيأتي ــ [٦]. ولا يستبعد أن لقب المهدي كان بإيعاز من بعض حاشيته المعتنقين لمذهب الإمامية لغرض توطيد العلاقة بينه وبين الدولة الصفوية، وعلى ذلك فمن المحتمل أن نزوته الطائفية المتصلبة قد ظهرت في هذه

(١) أبوطالب : السحر المبين (خ): ق ٣٥ ب .
(٢) الداعي : الدامغة الكبرى (خ) : ٢ / ص ١٩٢ .
(٣) الآنسي : العلم المفرد من إنشاد المثنى أحمد بن أحمد (خ): ص٧٩؛ أبوطالب : طيب أهل الكساء، ص٢٦٤.
(٤) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ): ٤/ ق ٢٢٠ب.
(٥) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٩٤.
(٦) أبوطالب : السحر المبين (خ): ق ٣٦ب ، وانظر : ما سيأتي في فصل العلاقات الخارجية ، ص ٣٤٧ وما بعدها.

المناسبة، وذلك حينما عزم على هدم المدرسة العامرية التي بناها السلطان عامر ابن عبدالوهاب في رداع عام(٩١٠هـ /١٥٠٤م)، وذلك بحجة أنها من مآثر كفار التأويل الذين لا قُربة لهم ــ بزعمه ــ وكاد أن يهدمها لولا تصدي العلامة القاضي علي بن أحمد السماوي وتحذيره من عواقب هدمها، فتراجع عن عزمه مكتفياً بخراب بعض شرفاتها تحلةً لقسمه الذي كان قد أقسم به [١].

٢- محاولة التوسع وامتداد حدود الدولة في زيلع :

لم يقف طموح الإمام عند سيطرته على جميع الولايات بل تجاوز أكثر من ذلك ! فمن جهة زاحم الدولة العثمانية في ولاياتها، حيث حاول مد نفوذه إلى الحجاز بغية السيطرة على الحرمين الشريفين ــ مكة والمدينة ــ ، وكان طامعاً في ذكر اسمه على منابرها، وقد استخدم لذلك وسائل عديدة منها : أنه أجزل العطاء لإشرافها أو دعم أحدهم على الأخر أو محاولة مصاهرتهم ــ وغير ذلك مما سيتضح في فصل العلاقات الخارجية ــ ومن جهة أخرى مد نفوذه الفعلي "على جزيرة (زيلع) الواقعة في بحر العرب في الجنوب الغربي لعدن، على ساحل الصومال"[٢] وتبعد عن جيبوتي بنحو (٤٠كم) جنوباً[٣]، وكانت تتبعها ممتلكات تبلغ من الاتساع مسيرة (٤٣) يوما مشيا على الأقدام، تسمى (بلاد عدال)[٤]، ثم حاول التوغل إلى مدينة "أوسة" في الحبشة[٥].

وقد تمت السيطرة على زيلع في عام (١١٠٧هـ /١٦٩٥م) بواسطة حملة أرسلها بقياد إبراهيم باشا ــ أحد أمراء الأتراك المتخلفين في اليمن ــ وجعله أميرها[٦]، فأحاطها بسور "وبنا قلعة وداراً للحكومة ومسجداً وأماكن لحاميتها التي زودت بأربعة

---

(١) الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص٣٣٧ ــ ٣٣٨ .

(٢) العمري : تاريخ اليمن الحديث و المعاصر ، ص٩٣ .

(٣) الأكوع : هجر العلم ومعاقله ، ٣/ ١٧٦٨ حاشية .

(٤) الجمل (د. شوقي عطاء الله): سياسة مصر في البحر الأحمر ، القاهرة ، المكتبة العربية ، ١٩٧٤م، ص ١٥٩.

(٥) أبوطالب : السحر المبين . (خ) : ق ٧٠ أ .

(٦) أبوطالب : السحر المبين .(خ) : ق٣٣ أ ، وطيب الكساء ، ص٢٥٤ .

مدافع، وصارت بندراً، يقصده التجار، ومركزاً لجلب الرقيق"[1] لاستخدام بعضهم في الجيش والمتاجرة بالبعض الأخر . ومهما قيل من دوافع الاستيلاء عليها إلا أنها تعتبر من أعظم منجزاته، فقد ساهم بذلك في رفع مستوى اليمن سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، إضافة إلى أنه حاول التوغل في أراضي الحبشة غرب زيلع خلال الأيام الأخيرة من فترة الاستقرار ، وذلك لعدة أهداف سوف يتم مناقشة أهمها في فصل العلاقات الخارجية.

وبما أنه تمكن من إقرار الوضع ونجح في التوسعات الخارجية إلا أنه تخلل المرحلة بعض الأحداث الجسيمة كان أهمها فتنة الساحر المحطوري وشيخه السودي ، وتمرد قبائل حاشد وبكيل . والتي سوف نحاول مناقشتها خلال الأسطر التالية :

٣- فتنة المحطوري :

تزامنا مع عظمة ملوكية الإمام المهدي بدخوله مدينته الجديدة ـ المواهب ـ التي شيَّدها شرق مدينة ذمار، اندلعت حركة الساحر المحطوري من جبل "مدوم" الواقع شمال غرب حجة، واستمرت أربعة أشهر كادت أن تعصف بالمهدي ودولته .

لقد كان العلامة الساحر إبراهيم بن علي المحطوري المتصل نسبه بالإمام القاسم بن علي العياني ـ أحد الطامحين لتولي السُلطة فانتصب داعيا للإمامة في(١٢رجب ١١١١هـ/ ٢يناير١٧٠٠م) وتلقب بالمنصور[2]، ورغم ما نسبوه إليه من السحر ـ ربما لمعارضته إمام الأسرة القاسمية[3] ـ، إلا أن أحد أحفاده أفاد بأن جده هذا "كان ثائراً ضد سطوة وطغيان عقال ومشايخ حاشد وبكيل"[4] مع العلم أن سطوة المذكورين لم تحصل إلا بعد القضاء على حركته ـ كما سيتضح هنا.

المهم أن دعوته تلك لم تكن وليدة يومها فقد سبق أن مهَّد لها، ومن المؤكد أنه وضع الخطط العسكرية والسياسية اللازمة لنجاحها، حيث بدأ نشاطه منذ سنين عديدة

(١) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٩٣ .

(٢) الواسعي : فرجة الهموم والحزن من تاريخ اليمن، ط٢، ص٢٣٠؛ ابن عامر: بغية المريد (خ): ص٢٥١؛ أبوطالب: السحر المبين (خ): ق ٣٧ب ؛ الكوكباني: المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره (خ): ص١٣٥.

(٣) الحداد : تاريخ اليمن السياسي ، ص٢٢٣.

(٤) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ٩٧حاشية .

وذلك باتخاذه التصوف والزهد شعارا، واستمر يتنقل من قرية إلى أخرى لوعظ النـــاس وعمل الرقي والتمائم، وذلك لهدف الترويج لحركته، وقد ساعده على ذلك براعته[1] في السحر وعلم الطلاسم حتى افتتن به العوام وذاع صيته، الأمر الذي أثار اهتمـــام أميـــر المنطقة وبالتالي أسرع في القبض عليه وزج به في السجن، لكنه تمكن مـــن اســـتمالة السجان حتى أطلقه بعد مكوثه لديه يوماً وليلة[2]، فكان سببا مباشرا فـــي ذهابـــه إلـــى سوق الشرف حيث تجتمع الأنصار، والاستعجال في إعلان الـــدعوة، ولا يـــستبعد أنـــه استغل فرصة مرض المهدي وانشغال حاشيته ببناء مدينة المواهب المذكورة سابقاً .

ونظراً لترتيبات المحطوري السابقة من المراسلة وغيرها فقد وصلت إليه الأنصار من أكثر البلاد حال إعلان دعوته، وقد زاد من التفاف "المجاذيب"[*] حوله ذلك الـــشعار الديني الذي يكمن في نطق مجاذيبه بلفظ الجلالة[3]، وتحريم تعاطي التـــتن (التنبـــاك)، وحمل اليهود والبانيان[**] على الدخول في الإسلام، إضافة إلى ما أشاعه المحطـــوري عن نفسه وأصحابه[4] من أن الرصاص والسلاح لا تخترق أجسام مناصريه[5] وأتباعـــه إلا من كان مريض القلب، وهذا ما أثار الرعب في قلوب العامة والخاصـــة، وتناقلتهـــا الألسن بسرعة فائقة "حتى قيل إن سلطان الروم كتب إلى نائبه بمصر يسأله عن هـــذا القائم باليمن الذي لا يعمل في أصحابه السلاح ولا الرصاص"[6]، إلا أن الواقـــع أثبـــت خلاف ذلك .

---

(١) العمري : نفسه . ص ٩٦ ــ ٩٧ .

(٢) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٢٧٢.

(*) المجاذيب : جمع مجذوب وهو اسم أطلقه معاصرو المحطوري على أتباعه ومؤيديه لأنه جذبهم حوله وشدَّ انتباههم إليه بواسطة الأسحار والطلاسم الكثيرة التي عملها لخداعهم، فقد قيل : إنه كان يكتب الأوفاق (الحرز أو التميمة) ويمحوها في ماء ويسقيها الثيران، ثم يأمر بذبحها فإذا ما أكلت لحومها الطير والناس أصيبوا بالرعب منه وتفانوا في محبته، وكذا كان يكتب الأوفاق ويغرسها في عمائم أصحابه فتمنع أجسامهم من تأثير الرصاص والسيوف . غير أن الواقع أثبت عدم صحة تلك الخزعبلات . (ابن عامر : بغية المريد ، ٢٥٣ ؛ مجهول : ملحق اللآلي ، ٣/ ٦٧٧ ؛ أبوطالب : السحر المبين ، ق ٣٧ ب ؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٤١) .

(٣) الشوكاني : البدر الطالع ، (تحقيق : أ.د. العمري)، ص٦١٦.

(**) البانيان: هم الهنود الذين كانوا يأتون إلى اليمن لمزاولة التجارة وبعض الصناعات الحرفية وسيأتي مناقشة أدوارهم خلال هذا الفصل .

(٤) العمري : تاريخ اليمن الحديث ، ص٩٧.

(٥) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٣٧ أ ؛ ابن عامر : بغية المريد (خ): ص٢٥٢.

(٦) الشوكاني : نفس المرجع ، ص٦١٦.

وهنا نلاحظ انضمام بعض الأمراء من غير الأسرة القاسمية إلى جيش المحطوري وهرعوا إليه من مناطق شتى، وذلك ربما لرغبتهم في الإطاحة بحكم تلك الأسرة المستبدة منذ أكثر من قرن مضى دون أن تتيح لهم الفرصة في المشاركة بل كانت تتتبعهم بالنفي والتشريد وتقليص أدوارهم، وفي نفس الوقت نلاحظ ترابط أمراء الأسرة القاسمية وتناسيهم الخلافات التي بينهم، وذلك في سبيل إخماد هذه المعارضة التي ليست من نفس الأسرة، والدليل على ذلك يكمن في وصول زيد بن نهشل من شهارة إلى المحطوري فولاه الأخير قيادة حملة وأمره بالعودة إلى شهارة والسيطرة عليها وعلى غربان و الأهنوم ووادعة[1]، إلا أن الحسن بن القاسم بن المؤيد قد اتخذ جميع الترتيبات اللازمة للدفاع عنها[2]، رغم عدائه للمهدي ــ كما سبق ذكره ــ .

وما أن وصلت تلك الأتباع إلى المحطوري حتى أسرع في توزيعهم للسيطرة على الجهات المختلفة، حيث أسند قيادة الجيش المقيم في المنطقة إلى إسماعيل المداني وكلفه بتتبع أصحاب الإمام فقام بأعمال النهب والتشريد والقتل كان من ضمنهم العلامة "الحسين بن الناصر المهلا" وولده، والشيخ "عبدالقادر المحبشي" وولده أيضاً[3]، وكذا قام المحطوري بإرسال حملة بقيادة الهائم إلى "حجة" فسيطروا عليها وأكثروا فيها الفساد والنهب فصالحهم بنو نصار على مال كثير، وأرسل حملة أخرى بقيادة الظاعني إلى "السودة" و"حبور"[*] فنهبوا كل ما مروا به، وثالثة إلى "كحلان عفار"، ورابعة بقيادة الرغافي إلى صنعاء فكانت نهايتها في "ثلا" غرب صنعاء[4]، وخامسة إلى "تهامة" فتمكنت من السيطرة على "اللحية" ونهبها وتشريد البانيان منها[5]، وسادسة نحو أبي عريش إلا أن واليها تمكن من هزيمتهم في خارج مدينة "حرض" [6].

---

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٢٥٢ .

(٢) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٨٢ .

(٣) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٣٧ ب ــ ٣٨ أ.

(*) حبور : تسمى حبور ظليمة ، وهي من منازل قبيلة حاشد تبعد عن صنعاء شمالاً حوالي (١٨٠كم) . (معجم الحجري : ١/ ٢٢٧) .

(٤) ابن عامر : بغية المريد، (خ): ص٢٥٢ ؛ أبوطالب : السحر المبين ، ق ٣٩ أ.

(٥) أبوطالب : طيب الكساء، ص٢٨٢.

(٦) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣/ ص٦٧٧.

وعلى ما يبدو أن الدعايات والإشاعات المذكورة التي سبقت حملات المحطوري كانت تؤثر في تخذيل مقاومة الحاميات الإمامية وذلك إما بالخوف منهم أو التعاطف معهم أو الانجذاب إليهم، لذلك تمكن المجاذيب من اكتساح أكثر المناطق بدون مقاومة تذكر ، وفي الوقت نفسه مُنيت الحملة التي أرسلها المحسن ولد الإمام بالهزيمة في حدود بلاد الشرف، ثم أمدهم بحملة ثانية فتقدموا بعد معارك عنيفة إلى قرية "ضهاي" وسط الشرف وهناك ألوت عليهم المجاذيب وضربوا عليهم الحصار حتى استسلموا، فتم أسرهم جميعاً بما فيهم أميري الحملة يحيى بن علي بن المتوكل وإسماعيل بن الحسين ابن المهدي [1].

ولم تصل أخبار المحطوري وأتباعه إلى مسامع الإمام إلا بعد استفحال أمرهم وامتداد نفوذهم على الكثير من المناطق، فقد تم سيطرتهم على ميناء اللحية غرباً وحرض شمالاً إلى السودة وحبور وخمر وجنوباً إلى الصلبة وثلا . وهذا ما أثار غضب المهدي ودهشته وذهوله، فجهز عليهم حملة قوامها " ثلاثين ألف"[2] مقاتل بقيادة ولده المحسن وضم إليهم بقية أولاده ومن لديه من الأمراء وجميع من بحضرته "الدنيء والعزيز"[3] وأتبعهم بالإمداد والمؤن التي لا تحصى، لكنهم لم يصلوا إلى حول صنعاء إلا بعد أن ضعفت جبهات المحطوري، حيث تمكن أهل خمر من إبادة حملة الظاعني، وكذا أهل ثلا أبادوا حملة الرغافي وأرسلوا به أسيراً مع سبعين فرداً من أصحابه إلى المحسن الذي قابلهم في "ريمة حُميد" جنوب صنعاء فأمر بإعادتهم إلى صنعاء وهناك ضُربت أعناقهم أمام مسجد وهب[4] مع من أضيف إليهم من البلاد الأخرى، فصاروا نحو ثمانين فرداً، وداسوا جثثهم بالخيل[5] .

(١) أبوطالب : السحر المبين، ق ٣٨أ ؛ وطيب الكساء ، ص٢٧٩ ــ ٢٨٠؛ الحوثي: نفحات العنبر(خ):٢/ ق ١١أ.

(٢) أبوطالب : طيب أهل الكساء، ص٢٨٨.

(٣) أبوطالب : السحر المبين، ق ٣٨أ.

(٤) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٣٩ب.

(٥) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص٢٨٢.

وبعد فتك المحسن بالأسرى واصل سيره حتى وصل " عفار" وهناك ضرب معسكره وأرسل حملة بقيادة عمه عبدالله كمقدمة لاستئصال المحطوري، فما أن وصلت إلى "حوصان" من حدود الشرف حتى وثبت عليهم قوات المحطوري وأبادتهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا قائد الحملة ومرافقه لإمعانهما في الهرب، وكانت غنيمة باردة للمحطوري. وكارثة كبيرة بالنسبة للمحسن حتى أشتدَّ خوفه وهمَّ بالرجوع، لكنه ربما خاف عاقبة ذلك، لذلك عمد إلى بذل الأموال للقبائل حتى استمالهم إليه، ثم أسند مهمة حرب المحطوري إلى الشيخ صالح حبيش السفياني وقبائله حاشد وبكيل، الذي تمكن بعد معارك شديدة من اكتساح بلاد الشرف والقبض على والد المحطوري وأخوته، غير أنه لم يتمكن من قبض المذكور لفراره مع بعض أتباعه إلى صعدة في (١٢ شوال ١١١١هـ /١إبريل ١٧٠٠م)[١].

وسرعان ما التفّت قبائل صعدة حول المحطوري لمناصرته إلا أن أميرها علي بن أحمد تدارك أمره وعمل للقبض عليه بطريقة سلمية، وذلك بأن أرسل إلى الشيخ الذي أوى إليه المحطوري يوهمه بأنه موالي ومؤيد للمحطوري وطلبهما للاجتماع فلما وصلا إليه أقام مجلساً لمناقشة المحطوري أبان فيه جهله وبغيه عند ذلك زجَّ به في السجن[٢].

ومن المؤكد أن المحسن أراد مطاردة المحطوري حينما تأكد أنه في صعدة فانتقل بجيوشه الكثيفة من كحلان عفار متوجها شمالاً فدخل حبور يوم الجمعة ٢٢شوال، وهناك اختلفت المراجع فالأول أشار إلى استقراره في حبور لإقرار الوضع فيها[٣]، والآخر أشار إلى أنه واصل زحفه حتى وصل إلى قرية ورور[*] وهناك تلقى خبر مقتل المحطوري فعاد إلى والده[٤].

---

(١) أبوطالب : طيب أهل الكساء ، ص ٢٨٥ـــ٢٨٧.

(٢) الحوثي : نفحات العنبر (خ) : ٢/ ق ١٩١أ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز، ق ١٦٥أ.

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٢٨٨ ـــ ٢٨٩.

(*) قرية ورور : تقع أسفل شوابة التابعة لذيبين وتبعد عن صنعاء حوالي (٧٠كم) شمالا. (معجم المقحفي: ٢/ ١٨٦٤).

(٤) مجهول : مخطوط ملحق باللآلئ المضيئة ، ٣/ ٦٧٧.

ورغم إشارة مراجع آل القاسم[(١)] إلى أن علي بن أحمد لم يضرب عنق المحطوري إلا بحكم شرعي وبعد أن اتضح جنونه إلا أن أحد المعاصرين للحدث أشار بأن قبائل سحار خافوا من مداهمة جيش المهدي للبلاد لذلك أرغموا علي بن أحمد على اختيار أحد أمرين إما أن يقتله أو يرسل به إلى المهدي، فوعدهم بإرساله إلى الإمام، غير أنه أمر بضرب عنقه قبل الموعد بثلاثة أيام، وذلك يوم الأربعاء ٣شهر ذي القعدة حال مرور الحجاج من صعدة، وأمر بإغلاق "باب سويدان ويكون دخولهم من باب المنصورة لينظروه فدخلوا منه ونظروا جثته ورأسه، ولما بلغ أولاد المهدي ذلك وقد كانوا في بلدة وروور لاحقين في أثره رجعوا إلى عند والدهم"[(٢)]، وقيل إن علي بن أحمد أرسل ببشارة مقتل المحطوري إلى المهدي الذي أمر أن تُقرأ على محفل من الناس ليطمئنوا إلى ذلك [(٣)].

لقد كانت هذه الحادثة من أعظم الحوادث في تاريخ اليمن الحديث"[(٤)]، أُزهقت فيها دماء كثيرة بلغ عددهم عشرين ألف قتيل [(٥)]، من غير مقاتيل اليهود والبانيان. أما نفقاتها "فأنافت على سبعين لكاً[(*)] من القروش[(**)]، وإنها التي عطلت الخزائن وثلت العروش، وهذا غير بعيد فأموال اليمن صارت إليه بعد المؤيد"[(٦)]، وفي رواية أخرى لنفس المؤلف أنها بلغت "خمسة عشر لكاً من القروش ، ...، هذا من غير ما أعطي من الخيل والخول والسياق من كل محل، وأما غيره فذكر لي مبلغاً أضعاف أضعاف ذلك، لا يصدق به إلا من عرف الحال، وتحقق همّة ذلك الملك الفعال القوّال، البذّال"[(٧)]. وعلى

---

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ): ص٢٥٤؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٨٨.

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ) : ٣/ ٦٧٧ .

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٨٩؛ الحوثي : نفحات العنبر (خ):٢/ ق ١٩١أ.

(٤) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٩٦.

(٥) ابن عامر: بغية المريد، ص٢٥٤؛ الحوثي: نفحات العنبر(خ):٢/ ق ١٩١أ؛ الواسعي: فرجة الهموم والحزن، ٢٣٠.

(*) اللك: يساوي مئة ألف، وهي(١٠٠،٠٠٠ × ٧٠ = ٧٠٠٠،٠٠٠٠).(الشرفي: اللآلي المضيئة (خ): ٣ / ص٦٥٦) .

(**) القروش : جمع قرش ، وهو الدولار النمساوي المصنوع من الفضة ، كان وحدة التعامل حينذاك، وسيأتي توضيحه فيما بعد .

(٦) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٣٨أ.

(٧) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٢٧٨ .

كل حال فإن قيمة اللك الواحد يساوي عشرة مليون، فإذا اعتمدنا على الرواية الأخيرة فسيكون المبلغ مئة وخمسين مليون قرش، وهذا مبلغ يفوق الخيال !

والجدير ذكره هنا تلك المأساة التي لحقت بأهالي تلك المناطق التي شملتها حركة المحطوري حيث ذاقوا الويلات من الطرفين، فحينما دخلها المجاذيب اعملوا فيها القتل والنهب والتشريد بل وإضرام النيران في بعضها كما فعلوا في حجة وحبور[١]، بينما كانت معرة جيش الإمام شديدة عليهم أيضاً ــ حال مطاردة المجاذيب ــ خاصةً في الشرف حيث نهبوا جميع ما فيه وقتلوا الأطفال واستباحوا النساء، إضافة إلى ما قام به المحسن من المصادرة والسجن لبعض المشتبه فيهم ومن ضمنها أخرب قرية المدائر في حبور[٢]، وبذلك خلت قرى من سكانها ما بين قتيل أو مشرد .

أما كلمة مجذوب فقد تركت أثراً سيئاً على الأهالي لدرجة أنهم اعتبروها عاراً وعيباً لمن يطلق عليه هذه الكلمة، حتى أن أهالي قرية الزبير ــ من عيال سريح من أعمال صنعاء ــ عملوا فيما بينهم وثائق واتفاقيات تقضي بقتل أي شخص يطلق على فرد منهم كلمة مجذوب ويدفعون ديته[٣].

في حين يلاحظ أن أدباء وكُتّاب الأسرة الحاكمة قد أطلقوا العنان لأقلامهم لتمتدح وتفتخر بالإمام حين تمكن من إخماد هذه الفتنة التي عمت البلاد، وجعلوها "من أعظم مناقبه"[٤]، وظهر التعصب الأُسريّ عند بعضهم حيث أشار أحد معاصري الحدث إلى ذلك بقوله "وقد كفى الله شره بسيوف آل القاسم"[٥]، كما تفنن الشعراء في مدح المهدي والتعريض بالمحطوري في قصائد كثيرة [٦].

(١) ابن عامر : نفس المصدر (خ) : ص٢٥٢.

(٢) أبوطالب : نفس المصدر ، ص٢٨٨ــ ٢٨٩؛ العابد : تهذيب الزيادة ،(خ): ص١٨٥.

(٣) Serjeant . R.B, Lewcock , R: SANA'A ; P٨٣ h

(٤) الواسعي : فرجة الهموم والحزن ، ص٢٣٠.

(٥) المؤيد : (إبراهيم بن القاسم)، طبقات الزيدية الكبرى ، (تحقيق : عبد السلام الوجيه): ١/ ٤٠٢.

(٦) الآنسي : العلم المفرد (خ): ص٧٢. أبوطالب: السحر المبين ، ق٤٠ ب؛ زبارة : نشر العرف،١/٤٦ــ٤٨.

وبعد الإطاحة بالمحطوري تحتم على الإمام تتبع كل أتباعه وأعوانه، لذلك أمر قيادة الجيش بالتوجه لضرب الفقيه محمد بن علي السودي(*) الذي نسب إليه السحر والشعوذة وأنه شيخ المحطوري، وهو الذي ضرب له الوفق الثلاثي وحمله على التمرد وساعده عليه، وأنه مستبد بجبل نمرة(**) وله أتباع ويقوم بحركات تشبه حركات المحطوري، إضافة إلى أن عامل المنطقة كان قد جمع بعض القبائل وهجم على السودي، إلا أنه مني بهزيمة ساحقة وأصيب بجراح، لذلك "قال الإمام: وهذا الذي في "جبع" و"تمرة" يعرف خبره"(1)، فأرسل عليه حملة بقيادة أخيه إسحاق الذي اكتسح المنطقة إلا أن السودي لاذ بالفرار وانقطعت أخباره، فعاث الجنود الإمامية في البلاد "وقتلوا من أهلها قتلاً ذريعا بمثله لم يسمع، وأنتهبوا من البقر والغنم ما ضاق به الفضاء"(2).

٤- اضطراب قبائل المنطقة الشمالية وأثرها في ضعف السلطة:

لقد ابتليت الدولة في النصف الثاني من مرحلة الاستقرار النسبي ببعض حركات العصيان في المنطقة الشمالية التي تزعمتها قبائل حاشد وبكيل ابني جشم بن همدان بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وقد تفرع من هذين البطنين قبائل كثيرة(***)، واحتلوا رقعة واسعة امتدت من صنعاء إلى صعدة(3).

(*) الفقيه محمد بن علي السودي : قيل إنه من أسرة متعلمة مشهورة بالسحر وعمل الطلاسم والأوفاق . وقد بدأ ظهوره في جبل نمرة منذ آخر عهد المتوكل إسماعيل فكان يدعو إلى التوحيد في الليل ويزعم أنه نائب عبد الله ويخبر بالغيب وغيره من التمويهات والخرافات الأخرى . فذاع صيته وأشتهر أمره وصار يضاهي مشائخ العلم الكبار . فكانت تأتيه أتباعه بالنذور والتبرك به من أكثر البلاد المجاورة فبنى البنايات الفخمة على الجبل، منها : دار عظيمة مجهزة بمرابط الخيل وثكنات العساكر .(ابن عامر: بغية المريد(خ): ص ٢٥٥؛ أبوطالب : السحر، ق ٤١أ وطيب الكساء ، ص٢٨٩؛ الجنداري : الجامع الوجيز(خ): ق ١٦٥أ؛ نشر العرف ، ١/ ٤٨ — ٥٠).

(**) جبل نمرة : منطقة إلى الغرب من صنعاء من أعمال المحويت .(معجم المقحفي : ٢/١٧٦٣) .

(1) ابن عامر : بغية المريد ، (خ): ص٢٥٥.

(2) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٩٠.

(***) انقسمت بكيل إلى : أرحب ونهم ومرهبة وشاكر. وانقسمت أختها حاشد إلى بطون : صريمي وخارفي وعذري وعصيمي ولكل بطن من هؤلاء فخائذ كثيرة.(معجم الحجري:١/ ١٢٦، ٢١٦؛ العمري: مئة عام من تاريخ اليمن ، ط٢، ص٩٥؛ معجم المقحفي: ١/١٩١، ٣٨٩).

(3) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص٢٤٧.

وامتازت تلك القبائل بقوة الشكيمة والشجاعة، وبرز منهم على سطح الأحداث الشيخ صالح بن حبيش السفياني يتزعم قبائل بكيل، والشيخ ناصر جزيلان البرطي من بكيل أيضاً، والشيخ محمد بن عبدالله الغريبي زعيم العصيمات واستبدل عنه الشيخ علي قاسم الأحمر في نهاية الفترة .

وكان لهؤلاء دور كبير في دعم سُلطة الإمام المركزية وفي تقويضها أيضا، خاصةً قبائل بكيل ــ كما سيتضح ــ من خلال العلاقة فيما بينهم وبين الإمام، والتي كانت تحددها المصالح المتبادلة. نظراً لحاجة الإمام إلى قوة بأسهم التي اكتسبوها من ظروف مناطقهم الجبلية الصعبة والقاحلة، ومن هنا يستخدمهم الإمام كقوة عسكرية لقمع حركات العصيان التي كانت تندلع بين الحين والآخر، أو لتأمين سير القوافل المارة من بلادهم، وكان يكلفهم بمهمة جباية ضرائب الزكاة وغيرها من الرسوم المقررة على الرعية. وفي مقابل خدماتهم هذه كان يمنحهم المكافئات العينية والنقدية، إضافة إلى حصولهم على بعض الامتيازات كإعفائهم من دفع الضرائب، ومشاركتهم في تولي بعض الوظائف الإدارية ــ كما سيمر معنا هنا ــ .

ولكن لماذا كان يتعكر صفو هذه العلاقة ؟

هناك الكثير من العوامل والأسباب التي كانت تُعكر صفو العلاقات فيما بين هذه القبائل والسلطة المركزية، غير أن الأهم منها كلها، تلك التي تكمن في سياسة الإمام المضطربة، وولعه المستمر بإشعال نيران الحروب، بالإيقاع فيما بين القبائل وتسليط بعضها على البعض، فكانت سبباً كافياً لاضطراب المنطقة الشمالية كما أشار إلى ذلك أبوطالب في قوله : "وكان قاعدة الإمام يسالم بكيل طوراً ويباين حاشد، ويحارب هؤلاء بهؤلاء، وتارة يُسلّط حاشد على بكيل، [وما يزال](1) هذا دأبه ! ولا يعجبه غير عدم الاتفاق بينهم"(2)، ولكن كانت نتيجة ذلك ضعف سلطته بل والإطاحة بحكمه ــ كما سنرى .

---

(١) في الأصل " لا يزال " والتصحيح منا .

(٢) أبوطالب : السحر المبين ، ق٥٦ أ، وطيب الكساء ، ص٣١٧ .

ففي نفس الوقت الذي كان الإمام يقلل من شأن قبائل حاشد كان يرفع من شأن قبائل بكيل، وذلك بزعامة الشيخ صالح بن هادي حبيش السفياني، حيث جعله ذراعه الأيمن خاصةً بعد الإيقاع بالشيخ جابر بن خليل وقبائله همدان ـ سالف الذكر ـ . وكانت أول عملية قام بتنفيذها الشيخ بن حبيش ـ على ما يبدو ـ إخماد عصيان أهل ريمة ووصاب عام(١١١٠هـ/ ١٦٩٨م)، فأعجب الإمام به لشدة بطشه بالمذكورين ، إضافة للدور الذي قام به في إخماد تمرد المحطوري ـ سالف الذكر ـ فانزل بأهالي الشرف القتل والنهب والسلب والتشريد . لذلك اعتمد عليه الإمام في مساومة علي بن أحمد ـ أمير صعدة ـ للدخول في الطاعة عام(١١١٣هـ /١٧٠١م)، غير أن الأخير تمكن بدهائه من الإيقاع فيما بين الإمام وبين قائده ـ ابن حبيش ـ وجعل منه حاجزاً فيما بين صعدة وصنعاء ، وذلك لمراوغته لابن حبيش حيث بذل له الأموال الجزيلة وأرسل معه البيعة إلى الإمام وأناط على عاتقه تنفيذ الشروط . وهذا ما أثار غضب الإمام عليه فاستغنى عنه وأمره بالبقاء في بيته ، بعد أن تلقى الإهانة من يوسف ولد الإمام ووزيره الفقيه محسن الحبيشي(١).

لم يكن ابن حبيش بالرجل الضعيف الذي يتغاضى عن تلك الإهانة التي صدرت بحضور الإمام وفي مجلسه، لذلك فقد كانت كبداية لسلسلة من المحاولات لإضعاف سُلطة الإمام والإطاحة به، فلا يستبعد أنه قام فور وصوله بلاده بشحذ الهمم وتجميع القبائل الساخطة لإثارة الفوضى والقلاقل في وجه السُلطة ، فتمكن من التحالف مع الشيخ محمد الغريبي زعيم حاشد ، والشيخ ناصر جزيلان زعيم برط ، ليجد في عبدالله ابن أحمد بن المتوكل إسماعيل الشخصية المناسبة لنيل هدفه المنشود .

فقد قيل إن عبدالله بن أحمد بن المتوكل إسماعيل كان شاعراً فصيحاً(٢)، ولا يستبعد أن الطموح من جهة والقحط الذي عمَّ البلاد من جهة أخرى عام(١١١٥هـ/ ١٧٠٣م)، قد دفعاه إلى الوصول إلى الإمام المهدي وملازمته مدة ، إلا أنه لم "ير من

---

(١) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٤٣ ب ، طيب الكساء : ص٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

(٢) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص٤٤٥؛ زبارة : نشر العرف ، ٩٤/١.

مقامه ما هو أهله"[1]، وقيل أيضاً إن الحاجة وشدة الخطب قذفا به إلى الحريبي ــ حاكم المخا حينذاك ــ، الذي أهمل شأنه هو الآخر فكان سببا في انفجار سخطه على السُلطة ، كما أشار إلى ذلك أبوطالب في قوله : "وكان في الحريبي عجرفة يمّد يده معها ليقبلها الدنيء والشريف ، وما عرف منازل الناس ، ولا رفع التكليف ، فاحترق مزاج عبدالله أنفه، وواجعته تلك الخلائق فوق الصفة"[2].

ويظهر أن عبدالله بن أحمد قد استغل فرصة الخلاف الذي نشب فيما بين المهدي وبين قبائل حاشد وبكيل، وذلك حين غضب المهدي عليهم، وطردهم عن بابه، وزج عقالهم في السجون "وغسل الأماكن بعدهم بالماء"[3]، وكذا خلاف ابن حبيش السالف مع الإمام ، عند ذلك أسرع عبدالله في الوصول إليهم وتمكن بفصاحته وشعره من جمع القبائل في سوق العصيمات واستثار حفائظهم بأن وصف لهم ما عليه الإمام من الاستبداد والتهاون بالناس وتضييع الحقوق، حتى قال : "أنتم العمدة والنصرة وأهل الحل والعقد"[4]، وقيل إنه أنشد شعراً لاستنهاضهم "على قبري حاشد وبكيل"[5]،وعمل كل ممكن حتى شبههم بنسائهم إذا لم يقوموا معه لأخذ حقوقهم بسيوفهم[6] .

وعلى كل فقد تمكن من إقناع تلك القبائل للقيام معه فكانت خطتهم التقدم نحو الغرب، ولعله كان يهدف إلى الهجوم على الحريبي والسيطرة على ميناء المخا ليضمن التمويل المستمر، لكن ما أن قادهم إلى حبور حتى ظهر هدفهم جلياً حينما نهبوا تلك البلاد نهباً ذريعا، وانتهكوا الحرم حتى أن أحد أولاد الحسن بن المتوكل مات "كمداً في ذلك الحال لمّا بالغوا في هتك حرمته"[7]. وقد عملوا كل ذلك دون التفاتهم إلى توجيهات قائدهم عبدالله بن أحمد، لذلك ربما أدرك عجزه عن السيطرة عليهم وأن العواقب

(١) ابن عامر : المصدر السابق ،(خ) : ص٤٤٥.
(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق٥٤ أ.
(٣) أبوطالب : نفس المصدر والورقة .
(٤) ابن عامر : بغية المريد ، ص٤٤٥.
(٥) أبوطالب : نفس المصدر ، ق٥٤ أ.
(٦) ابن عامر : نفس المصدر والصفحة.
(٧) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٥٤ أ.

وخيمة، وأحسَّ بالخوف الشديد من بطش الإمام فلاذ بالفرار إلى صعدة، ومنها إلى مكة المكرمة[1]، ولم يعد بعدها إلى اليمن إلا أنه كان له دور في تأليب الدولة العثمانية على الإمام وتشجيع الحسين بن القاسم بن المؤيد في إعلان دعوته والإطاحة بحكم المهدي كما سوف يبسط في الفصل التالي .

أما القبائل فقد انتثر جمعهم فالشيخ محمد بن عبدالله الغريبي أنكر أفعالهم وعاد مغاضباً مع أصحابه إلى بلادهم، وأما الشيخ صالح حبيش فقد استمر في التنقل بين القرى ونهبها حتى مني بالهزيمة في قرية علمان قرب صنعاء في نهاية عام (١١١٧هـ / ١٧٠٦م)[2].

ويلاحظ هنا أن أهم نتائج هذا التمرد أنه كان بمثابة البشارة الأولى لضعف دولة المهدي وسقوط هيبتها بين قبائل الشمال حيث تتابعت بعدها هجماتهم على القرى لنهبها وإثارة القلاقل والاضطرابات حتى أصبح ذلك "كالسنة القبيحة التي صارت لهم ديدناً"[3].

ورغم أن المهدي أرسل جيشاً كبيراً بقيادة ولده المحسن لقمع هذا التمرد وبخاصة ابن حبيش الذي تمكن من قيادة القبائل إلا أنه وجده في منعة من أمره ولم يتمكن المحسن من قتاله، فمال إلى مصالحته وخراب جزء من داره، وهذا ما أثار غضب المهدي على ولده وزجّ به في السجن حتى مات مكبلاً بالحديد بعد عدة أيام [4].

ولعل تمرد الحسين بن محمد القطابري ــ عامل حراز ــ الذي جهَّزه الإمام بالجنود والأموال لقمع القبائل كان بإيعاز وتشجيع من ابن حبيش، فكانت بمثابة النتيجة الثانية لانتقام ابن حبيش، حيث تحالف القطابري مع حاشد وبكيل حال وصوله حبور، ومن ثم أعلن التمرد[5].

فيا ترى لماذا هذا التحول وما هي أسبابه !؟

(١) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٤٤٦؛ زبارة : نشر العرف ،١/ ٩٤.

(٢) أبوطالب : السحر المبين ،(خ) : ق ٥٤ أ ــ ب.

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣١٣.

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣١١ .

(٥) مجهول : ملحق باللآلي المضيئة (خ):٣/ ٦٧٨ ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣١٣ ــ ٣١٤.

أشار أحد المراجع أن ذلك المال الجزيل الذي منحه الإمام للقطابري ليستعين به على قمع التمرد قد أغراه على أن يأخذ البيعة لنفسه فوزعه بين القبائل لهذا الغرض[1]، وهناك من أشار إلى أن الإمام غضب على القطابري بسبب سماحه لقبائل حاشد وبكيل بالعودة إلى بلادهم بالمنهوبات التي نهبوها من المغرب دون التعرض لهم بالعقاب والقمع لذلك كرر إليه الكتب "يتهدده ويتوعده"[2]، وهذا ما حمله على التمرد ، ونرى أن كلا السببين وجيهان .

وقد تمكن القطابري بمساندة قبيلتي حاشد وبكيل من التغلب على حامية كحلان ونهبها والاستيلاء على حجة، وهزم الحملة التي أرسلها الإمام بقيادة محسن بن محمد الشامي وغنم جميع ما معهم، ثم استولى على الشرف، لكن الإمام أدرك تفاقم الأمور فأسرع إلى تلافيها حيث أرسل بعض أولاده والأمير يحيى بن علي بن المتوكل إسماعيل وأصحبهم بمال كثير وخيل مع رسالة إلى القطابري، أمره فيها أن يختار أحد أمرين إما الوصول إليه معززاً مكرماً أو يأخذ المال والخيل ويرحل بلاده، ولما قابله أولاد الإمام في عمران اضطر أن يختار المال والخيل ووزعه على حاشد وبكيل وعاد إلى بلاده[3] ، وبتلك الأموال استطاع الإمام أن يستصلح القطابري وابن حبيش وابن جزيلان[4] واستعاد استقرار الأوضاع ــ نسبياً ــ .

ولا يستبعد أن خروج القبائل لنهب الشرف وتهامة كانت من أهم العوامل التي دفعت إبراهيم النعمي ــ أحد علماء تهامة ــ لإعلان دعوته منها مستنكراً أفعال القبائل بسبب ضعف سياسة المهدي إلا أنه لم يجد مناصرين أقوياء، فما أن وصلت حملة الإمام حتى استسلم أتباعه ولاذ بالفرار إلى مكان لم يعرف له بعد أي خبر[5]. ومن المحتمل أن هذه الدعوة كانت بإيعاز من علي بن أحمد ــ أمير صعدة ــ وعزالدين القطبي ــ أمير أبي عريش ــ[6] لإثارة الفوضى والقلاقل في وجه المهدي . غير أن تمرد النعمي لم

(١) أبوطالب : نفس المصدر ، ص٣١٣.

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ):٣/ ص٦٧٨.

(٣) مجهول : نفس المصدر والصفحة .

(٤) أبوطالب : السحر المبين ،(خ): ق ٥٥ أ.

(٥) أبوطالب: السحر المبين،(خ):ق٥٥ ب، وطيب الكساء، ص٣١٦ ؛ الجنداري: الجامع الوجيز، ق ١٦٧أ ؛ الأكوع: هجر العلم ، ٨٨٠/٢ .

(٦) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٦٧٧/٣.

يسفر عن أي نتيجة سوى المأساة التي لحقت أهالي البلاد إثر تعرضهم للنهب والقتل من قبل جيش الإمام[١].

ومن المؤكد أن الإمام تمكن خلال حروبه تلك من القبض على بعض الأفراد من حاشد وبكيل، وزج بالكثير منهم في السجون، لذلك نجده يأمر الحريبي بإرسالهم إلى حضرموت لاستعادة سلطة عمر الكثيري في عام (١١١٨هـ / ١٧٠٦م) . لكن ذلك العقاب لم يمنع قبائل حاشد من التحالف وإعلان التمرد في عمران[٢] .

ومما لا شك فيه أن الإمام أدرك قوة ابن حبيش وما يتمتع به من القدرة على جمع قبائل حاشد وبكيل خاصةً بعد أن فشل جيشه في القضاء عليه، لذلك سلك معه طريقة أخرى حيث عمد إلى استصلاحه بالأموال، وكلفه عام (١١١٨هـ /١٧٠٦م) بقيادة الجيش المرسل لحرب قبائل خمر نكايةً بالغريبي الذي شارك بكيل في نهب حبور ـ سالف الذكرـ ، وقد أشار أبوطالب بان هدف الإمام من ذلك تشويه سمعة ابن حبيش بين القبائل لترفض القتال معه مستقبلاً حسب التحالف السابق، وبذلك ينفضّ التحالف ويوقع بينه وبين حلفائه من حاشد، غير أن ابن حبيش خيَّب أمل الإمام حيث تصالح مع أهل خمر وعاد إلى بلاده [٣]. ولعله فهم مقصد الإمام .

ورغم ذلك إلا أن الإمام لم يغضب عليه كعادته بل كلفه العام التالي قيادة الجيش الذي أرسله لإخماد تمرد قبائل عمران وحلفائهم من حاشد، حين أعلنوا العصيان وقبضوا على عاملهم الحسن بن المؤيد، وهنا لاحت الفرصة لابن حبيش للنكاية بأهل عمران والانتقام منهم، لأنهم نهبوا أسلحة وأموال أصحابه حال مرورهم من بلادهم أيام غضب الإمام عليه، لذلك غدر بهم حين استسلموا بعد حصار طويل فأرسل ستة من مشائخهم مكبلين إلى الإمام، الذي لم يتوان في ضرب أعناقهم ،ـ ولعله قصد بذلك

(١) أبوطالب : السحر المبين .(خ): ق٥٥ ب.

(٢) أبوطالب: طيب الكساء ، ص ٣١٦ ، ٣١٨ .

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣١٧ .

تلطيخ سمعة ابن حبيش لأنهم خرجوا في ضمانته ــ، ثم دخل أصحابه المدينة فنهبوها وهدموا سورها، وعاد إلى الإمام فشكره على فعله واجزل له العطاء[١].

لاشك أن قبائل عمران انزعجوا من ذلك الغدر فاستنجدوا بقبائل حاشد التي تحالفت جميعها على العصيان مرة أخرى وأخذ ثأر مشائخها، حينها جهز الإمام جيش كبير بقيادة القاسم بن الحسين واصحبه بابن حبيش وكليهما من أقوى الشخصيات، لذلك فلا يستبعد أن الإمام قصد بهذا الإيقاع فيما بينهما، حيث وقع بينهما خلاف طفيف، ولعل ابن حبيش ندم على غدره بحلفائه حاشد، لذلك عمل في الدس الخفي على القاسم بن الحسين، ولم يشاركه مشاركة فعالة في قمع القبائل ، وقد عولها المؤرخ إلى الضغائن التي بينهما وللقرابة التي بين ابن حبيش وقبائل حاشد ، لذلك كانت السطوة للقاسم حيث وضع يده في جميع الأهالي بالقتل والنهب وخراب البيوت، واستمر في ذلك حتى شمل المنطقة الشمالية رغم مفارقة ابن حبيش له وعوده إلى بلاده حال وصولهما خمر[٢].

ورغم ذلك القمع إلا أن الإمام سرعان ما احتاج لحاشد وبكيل، حيث استنجد بهم لقمع عصيان المشرق الذين تحالفوا واكتسحوا مدينة "إب" ونهبوها عام(١١٢٠هـ / ١٧٠٨م)، ثم أوقعوا بجيش الإمام الذي حاول مطاردتهم[٣]. وهنا يُلاحظ سرعة استجابة قبائل حاشد وبكيل لاستنجاد الإمام على رغم الشدة التي استخدمها القاسم بن الحسين لقمعهم، حيث أمدوه بنحو " عشرة آلاف مقاتل" فأرسلهم بقيادة ابن حبيش وابن جزيلان وكادوا أن يقمعوا قبائل المشرق، لولا سياسة الإمام ووزرائه السيئة حين أوقعوا بين القاندين بتفضيلهم ابن حبيش، مما غاض ابن جزيلان وانسحب من أرض المعركة فعاد الجيش مهزوماً[٤]، فكانت أهم نتائجها تمرد ابن جزيلان وتحوله إلى معول هدم للدولة إذ أغار على كوكبان والطويلة ــ فور عودته من المشرق ــ ، فنهبهما وعاد إلى

---

(١) أبوطالب : نفسه ، ص٣١٨ ـــ ٣٢١ . والسحر المبين، (خ): ق ٥٧ أ ـــ ٥٨ أ .

(٢) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٥٨ ب ــ ٥٩ أ.

(٣) انظر : ما تقدم ، ص ١٨٦ وما بعدها .

(٤) أبوطالب: السحر المبين (خ): ق ٦٢أ ــ ب ، وطيب الكساء، ص٣٢٣ ــ ٣٢٦ ؛ انظر : ماتقدم ، ص١٩٠ وما بعدها.

بلاده[1]. فأراد الإمام الفتك بهم وأعمل الحيلة لذلك لكنه فشل لإشارة القاسم أو أخيه المحسن لهم بالفرار[2].

وبعد عودة ابن حبيش من المشرق عنَّفه الإمام قليلاً إلا أنه لم يتمكن من الفتك به، لوجود المؤامرات فيما بين صفوف وزرائه وحاشيته، مع يقضة ابن حبيش، لذلك أظهر له الود وأكرمه وحالفه على الإيقاع بالوزيرين، ثم كلفه بمساندة القاسم لحرب قبائل حوث وخراب منزل الغريبي، وحوّل له بمبالغ مالية باهضة من القاسم وحرَّضه على قتله[3]، وفي الوقت نفسه أرسل إلى القاسم يأمره بقتل ابن حبيش[4]، فكان كل منهما يعمل الحيلة للتخلص من الآخر، إلا أن القاسم نجح في ذلك وتمكن من قتل ابن حبيش في شهر (رمضان ١١٢١هـ/ ديسمبر ١٧٠٩م) بمساعدة نفر من همدان، وأرسل برأسه إلى الإمام الذي فرح بمقتله إلا أنه خاف على نفسه من قوة القاسم وشدة سطوته، فعمل كل ممكن لإضعاف مكانته[5].

لقد أدى مقتل ابن حبيش إلى زيادة عنف تمرد القبائل على حساب تدهور سلطة الإمام، ومن جهة أخرى ساعد على بروز شخصيات قيادية طموحة صارت أكثر قدرة على إثارة الفوضى والقلاقل في وجه الإمام، فمن جهة تحول حرب القاسم لحاشد إلى صداقة حيث رضخ لهم بالأموال وشملهم بالعطاء خاصةً الشيخ محمد الغريبي ـ الذي أخرب داره سابقاً ـ وذلك ليجعلهم حاجزاً فيما بينه وبين قبائل بكيل الذين التفوا حول الشيخ علي بن هادي حبيش حين استنجد بهم ليأخذ ثأر أخيه من القاسم، وهنا ظهر علي بن قاسم الأحمر الذي غضب على عمه الغريبي لعدم منحه مبلغاً جزيلاً من المال الذي أخذه من القاسم، لذلك لجأ إلى بكيل وعمل لهم الحيلة التي مكنتهم من المرور عبر أراضي العصيمات وشن الحرب على القاسم المتمركز في مدينة خمر ، فاكتسحوا

---

(١) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) : ٢ / ص٢٨ .

(٢) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٣٥ ; والسحر المبين ، ق ٦٨ب.

(٣) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) : ٢/ ص٢٨ .

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٣١ ; العابد : تهذيب الزيادة لتاريخ الأئمة السادة ، (خ) : ص١٩٥ ; زبارة : نشر العرف ، ٧٧٩/١ .

(٥) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٦٧ أ .

المدينة واعملوا فيها القتل والنهب والسلب، وكاد علي بن حبيش أن يقتل القاسم لـولا تجرد ابن جزيلان لحمايته رغم أنه كان من ضمن المهاجمين، وقد علل أبوطالـب ذلـك بقوله "وكان لابن جزيلان كمال الإرب في قتل ابن حبيش لأنه استبد بالأموال، وكلمتـه المقبولة عند الدولة"[1] ، وهذا لا يستبعد ، ولكن الأرجح أن القاسم منح ابن جـزيلان أموالاً جزيلةً ، مما أدى إلى تخاذل قبائل بكيل فيما بينهم ، وعودتهم إلى بلادهم بـدون أخذ الثأر مكتفين بالمنهوبات والعطايا .

رغم نجاح الإمام وابن أخيه النسبي في الإيقاع بين قبيلتي حاشد وبكيل والفتُّ من عضديهما إلا أنه سرعان ما عاد التحالف بينهما عام(١١٢٢هـ/ ١٧١٠م)الـذي كـان هذه المرة بقيادة ابن الأحمر وابن جزيلان، حيث جمعوا قبائلهم وساروا إلـى تهامـة، فنهبوا وادي "مور" وعادوا إلى بلادهم[2].

ويبدو إنهم أعادوا الكرة على تهامة مرة أخرى فأرسل عليهم الإمام جيش كبيـر كان القاسم من ضمن قواده، الذي أرسل بعض الرسائل إلى معسكر القبائل وهـم فـي الطويلة على وشك العودة، مما فرّق جمعهم واتّهم كل منهما الآخر وعادوا سريعاً إلـى بلادهم ، ورغم فشل القاسم في إدراكهم إلا إنه تسلّط على قبائل عيال يزيد بذريعة أنهم سمحوا للقبائل بالمرور عبر بلادهم ولم يصدوهم . ثم تقدم في العام الثاني لقمع قبائـل وادعة الظاهر التي حظيت بمدد ابن جزيلان لكنها لم تقف أمام سـطو القاسـم، الـذي أخرب دورهم وفرض عليهم العقوبات المالية المكثفة[3]. وبذلك تمكن من إخضاع القبائل الشمالية، غير أن الشك كان قد أحدق بالإمام من جهة مصداقية القاسم بن الحسين لذلك زجَ به في السجن بدلاً من أن يكافئه [4].

وفي عام (١١٢٤هـ / ١٧١٢م) وجدت القبائل بغيتها في شخصية الحسين بـن القاسم بن المؤيد، فالتفت حوله لمناصرته فمنحهم الإقطاعيات حيث منح علـي الأحمـر

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٣٣ ـ ٣٣٤ .
(٢) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٦٨ب.
(٣) أبوطالب : نفس المصدر ، ق ٦٩ أ ـ ب ، وطيب الكساء ، ص٣٣٧ .
(٤) Playfair , (A) : Ahistory of Arabia Felix , Bombay . ١٨٥٩ . P١١٣ .

بلاد الشرف[1]، وهزموا جيش الإمام الذي عني بتدريبه منذ بداية عهده، فأحتاج لقبائل حاشد وبكيل واستدعاهم، ورغم ما نالهم منه إلا أنهم تظاهروا بمناصرته في اللحظة الأخيرة، حتى إذا ما رضخ لهم بالأموال عادوا عليه حرباً حتى تمكنوا من الإطاحة به، ثم تسلطوا على الإمام الجديد ، كما سيتضح خلال الفصل التالي .

ثانياً : تنظيم الحكم :

المقصود بتنظيم الحكم تلك النظم المتبعة آنذاك بما فيها المستجدات التي أحدثها الإمام ، وإن لم يكن هناك نظام معين مثل الوزارات المختصة والإدارات المختلفة كما هو سائد الآن ولكن يمكن مناقشة النظم التي اتضحت معالمها الأولية في النظامين الإداري والمالي المتبعة آنذاك وذلك خلال الأسطر التالية :

أ . النظام الإداري :

مما يبدو أن شروط الإمامة قد خولت الإمام جميع الصلاحيات وجعلت منه حاكما مطلقا حرّ التصرف من عزل أو تولية ، لأن "الغالب على رأيه الإصابة"[2]. ومن المؤكد أن الإمام المهدي كان أشد الأئمة حرصاً على التمسك بهذا الشرط فعمل على توطيد الحكم واستبداده بالسُّلطة، وهذا ما أثبته حين استخدم جميع الوسائل للتخلص من أمراء مراكز القوى، الذين استبدوا بولاياتهم ونافسوه في بعض الأحيان للوصول إلى السلطة.

ولكن في نفس الوقت الذي اشتهر فيه بالتسلط والاستبداد نلاحظ ملامح ما يسمى بالهيكل الإداري التقليدي الذي اكتسبه من الأتراك أثناء حكمهم لليمن في أواسط القرن العاشر حتى رحيلهم عن اليمن في عام ١٠٤٥هـ. والذي يندرج تحت مسمى ديوان عام المملكة، ويتكون من الوزارة والولايات والنواحي ـ المديريات ـ . فكان يولي أعمالها أُناسا من خاصته وحاشيته الذين كانوا يطلقون عليهم اسم الديوان، أي بما يسمى بالمجلس الاستشاري تقريباً . وهم الذين التفوا حوله من فئات مختلفة (قضاة وعلماء وفقهاء ومشايخ القبائل وأمراء وعبيد)، فكانوا جميعا أداة لتنفيذ سياسته فقط ،

(١) زبارة : نشر العرف ، ١/ ٥٤ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣ / ٦٨٧ .

(٢) العمري : مئة عام من تاريخ اليمن ، ص٨٠.

ومنهم من يحظى بمكانة عالية ويعول عليهم في كثير من المهمات الصعبة، ومنهم من ينالهم جميع أنواع التنكيل كما سيأتي .

وإذا جاز لنا تسمية حاشية الإمام وخاصته بالمجلس الاستشاري فإنه ليس بالمفهوم الحالي، اللهم إنه مجلس يترأسه الإمام، وليس له مهمة محددة أو جلسات منتظمة، وإنما كان يعقد حال الملمات الكبرى بالدولة. ولكننا نلاحظ أن الإمام كان يرضخ بين الحين والآخر لرأي مستشاريه وإن كان على خلاف ما يريده، وأوضح مثال على ذلك ما رأيناه سابقاً، حين رغب الإمام في إعدام يوسف بن المتوكل ومساعديه حينما عارضه مرة أخرى عام(١١٠٠هـ / ١٦٨٩م) وأثار القلاقل في خولان، لكن العلامة علي بن أحمد السماوي عارضه في تنفيذ حكم الإعدام، ورغم غضب الإمام من معارضته إلا أنه لم يجرؤ على مخالفته رغم قدرته على تنفيذ إرادته[١].

وعلى ما يبدو أن الإمام كان يوفق فيما بين اقتراحات المستشارين المختلفة التي كانت غالباً ما تؤدي إلى المُشادَّة فيما بينهم فكان الإمام يعمل بالاقتراحين معا، وهذا ما نجده في المجلس الذي عقده الإمام للبت في مشكلة الشريف أحمد بن غالب الذي ولاَّه الإمام على "أبي عريش" فتحالف مع علي بن أحمد ضد الإمام عام(١١٠٥هـ / ١٦٩٤م)، فكان اقتراح حسن الآنسي إرسال حملة عسكرية لقمعه، بينما اقترح عبدالله المحرابي إرسال وفداً للتفاوض مع الشريف وحل المشكلة سلمياً. ومن هنا غاص المجلس بالمشادة وكلاً منهما يُسفه رأي صاحبه، لكن الإمام وضع حداً لذلك بأن أرسل المحرابي إلى الشريف للمفاوضة حسب اقتراحه، وفي الوقت نفسه أخذ يستعد لإرسال حملة عسكرية، إلا أن نجاح المحرابي في تلك المهمة قد كفتهم مشقة الحرب[٢]، حيث تمكن من إقناع الشريف بالتسليم والخروج من اليمن ، فأرتحل من أبي عريش في (١٢رجب ١١٠٥هـ / ٣/٨/ ١٦٩٤م) متوجهاً إلى مكة[٣].

---

(١) انظر : الفصل الأول : ص١٠٨.

(٢) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٢٤٩ ــ ٢٥٠ .

(٣) البهكلي : العقد المفصل ، (خ): ق ٣٣ ب.

وكما كان (للمجلس الاستشاري) دور كبير في مساندة سلطة الإمام والمحافظة على استمرارها، كان له نفس الدور في الإطاحة به، وذلك حين عقد مجلساً استشاريا عام(١١٢٦هـ/ ١٧١٤م) للنظر في الخطر الذي يهدد ملكه من الداعي الجديد الحسين بن القاسم الشهاري فأشاروا عليه بإطلاق القاسم بن الحسين من السجن وتوليته قيادة الجيش لردع الداعي فكان سبباً في الإطاحة بحكمه[١] .

وسوف يتضح مجلسه التنفيذي وعلاقته بأعضائه من وزراء وولاة وقضاة وأمراء وغيرهم ومدى تأثير كل منهم على الآخر والمردود العكسي على السلطة من خلال محاولة مناقشة كل ذلك على النحو التالي :

١- الديوان والوزارة :

لم يكن هناك وزارة بالمعنى المفهوم حالياً، وإنما كان هناك وزير بالمفهوم التقليدي الشائع آنذاك، الذي يعتبر أهم أداة من أدوات تنفيذ سياسة الإمام، فليس له مهمة محددة أو عمل مُعين، وتخضع المهام والصلاحيات المخولة إليه حسب شخصية الوزير نفسه من حيث القوة أو الضعف . ولكونه يمثل الرجل الثاني في الدولة فقد اتضح أنه ذو أهمية كبيرة وتناط على عاتقه مهام كثيرة، أهمها الإشراف على العمال وعلى خزينة الدولة من حيث الإيرادات والنفقات، فمن جهة كان يعول على الوزير مهمة استلام الإيرادات الواصلة من الولاة والعمال، وكذا استلام الهدايا العينية أو النقدية من الوفود الخارجية أو صرفها لهم. ومن جهة أخرى كان يعول عليه مهمة الإشراف على النفقات، وأحياناً كان يرافق الحملات العسكرية الموجهة لإخضاع المتمردين والعصاة وذلك للإنفاق عليهم مباشرة. كما كان يشرف على المنشأة العمرانية مثل إشراف الحريبي على بناء مدينة المواهب، وإشراف الحيمي على تجديد وعمارة مسجد القصر بصنعاء ــ كما سوف نلاحظ هذا لاحقاً. وإلى ذلك كان يعول على الوزير مهمة استقبال الوفود وتقديمهم إلى الإمام والعناية بهم وبإقامتهم، كما اتضح ذلك من

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٥٩ ؛ وانظر ما سيأتي في الفصل الرابع ، ص ٢٩١ وما بعدها.

الرحالة الفرنسيين القادمين إلى المواهب . كما أن الوزير كان يمثل الوسيط فيما بين الولاة والإمام وفيما بين المشائخ والعامة وبين الإمام أيضاً فيتصدر الوزير لما يرد من الولايات سواءً أكان تقارير أوشكاوي، ثم يعرضها على الإمام ليعمل فيها رأيه . وهناك مهمة أخرى كان الإمام يعول بها على الوزير والتي تكمن في إهانة الشخص الذي يرغب الإمام في إهانته خلال المجلس، وقد اتضح ذلك في شخص الوزير الحبيشي وإهانته لمن يصل إلى الإمام مثل إهانته للشيخ صالح بن حبيش وتسفيهه لرسائل السلطان عمر بن هرهرة وغيرهما كما سيأتي، حتى أن أباطالب علّق على الحبيشي بقوله : "وربطه كلباً هراراً يختطف الطير"(١).

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو على أي أساس كان يتم اختيار هذا الوزير أو ذاك ؟ وكيف كانت علاقته بالإمام ؟

لقد تداول منصب الوزارة شخصيات من فئات ثلاث هي : (أبناء جلدته وأبنائه ومن العلماء والفقهاء ومن مشائخ القبائل)، أما المعايير التي كان يتم ترشيحهم عبرها، فعلى ما يبدو أنه كان يتوسم فيمن لهم سبق التجربة مثل الحيمي الذي تقلد الوزارة لوالده المهدي أحمد بن الحسن، أو من الذين أباتوا ثباتهم معه في السراء والضراء فكافئهم مثل الشيخ صالح بن علي الحريبي والشيخ أحمد بن راجح، أو أنه لم يجد الشخصية المناسبة فأضطر إلى تولية ولده إبراهيم .

أما عن كيفية علاقتهم بالإمام ودورهم في مساندة دعائم الدولة أو هدمها فعلى ما يبدو أن الإمام كان يطلق لهم كامل الحرية، ما عدا تدخلهم في أمر أو نهي أو تولية أو عزل، فإذا ما كثر حساد الوزير ووشوا به أو كثر شاكوه أو بدر منه ما يُغيَّر خاطر الإمام عليه أو أن الإمام شكَّ في ولائه أنزل به جميع أنواع العقوبات، من التنكيل والمصادرة والسجن والنفي، ويستبدل به غيره .

وهنا ملاحظة هامة تكاد تكون العامل الرئيسي في سقوط دولته والتي تكمن في استعادة بعض من نكّل بهم من الوزراء للعمل في مناصبهم أو في ديوان الإمامة،

---

(١) أبوطالب : السحر المبين ، (خ): ق ٣٩ب.

وهؤلاء عملوا على الانتقام منه بالخفية، وبهذا تحولوا إلى عامل هدم للدولة بدلاً من كونهم عامل بناء .

ومن المحتمل أن الوزارة كانت تحوي عدة وزراء في آن واحد وعلى رأسهم كبير الوزراء، ولكن ليس بمفهوم الدولة اليوم إلا أن مهامهم كانت تختلف من وزير إلى آخر حسب نوع شخصيته ومقدرته، وعلى هذا يمكن تصنيف وزرائه من حيث أدوارهم وتأثيرهم في سير دفة الحكم إلى قسمين هما :

القسم الأول : وزراء ينتابهم الغموض، وهم الذين لم تفصح المراجع التي بين يديّ عن أدوارهم وفترات توليهم عدا بعض الإشارات الطفيفة التي لا تف بالغرض ومن هؤلاء: "أحمد بن هادي العلفي" الذي أشار أبوطالب أنه كان الموكل بحفظ الأمراء المقبوض عليهم عشية انتصاره عليهم في المنصورة ــ كما سبق ذكره ــ، وتساهل عن حفظهم حتى تمكنوا من الفرار فتم عزله لهذا السبب. ومن المؤكد أنه لم يمسه بسوء بل جعله كعضو مهم في ديوان الإمامة حيث نجد له مشاركة في بعض الحملات العسكرية، فكان أحد أفراد الحملة التي اكتسحت صعدة عام(١١٠٣هـ / ١٦٩٢م) فكلفه أميرها بمرافقة الأسرى من أولاد علي بن أحمد وحريمه وغيرهم وساقهم إلى صنعاء، وكذا كان له لمسات في بعض المؤامرات التي كانت تحاك ضد الوزراء والعمال، وقد قيل إنه كان سبباً في امتناع آل الرصاص من زفاف ابنتهم إلى الإمام عام (١١١٣هـ / ١٧٠١م)[١].

أما الوزير "نورالدين بن شرف الدين العلوي" فلم يتضح له أي دور سوى أن الإمام كلفه بالسفر إلى عمه "الحسين بن الحسن" لإقرار الصلح الذي أقترحه الأخير عام(١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م)[٢].

---

(١) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ١٨ب، ٣٠أ، ٣٢ب، وطيب الكساء ، ص٢٠٧، ٢١٢، ٢٢٤.

(٢) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٣٠٩.

وأشارت بعض المراجع إلى أن "يحيى بن أحمد العباسي"[*] تولى الوزارة مدة من الزمن حتى تعرض لتنكيل الإمام وبطشه فمال بعدها إلى العزلة[1]. ومن المؤسف أن تلك المراجع لم تفصح عن سبب التنكيل به ولا عن فترة وزارته، ولعلها كانت تلـك الفتـرة الممتدة ما بين ضرب عنق الوزير حسن الآنسي عام(١١٠٥هـ) وبين وزارة أحمد بن راجح عام(١١٠٧هـ) ـ كما سوف يمر معنا .

القسم الثاني من الوزراء وهم : الذين ظهر دورهم جلياً منذ استقرار الإمام فـي ذمار عام(١٠٩٨هـ /١٦٨٧م)، وذلك حينما برز على الساحة الوزير الحسين بن أحمد الحيمي (١٠٩٨ ـ ١١٠٥هـ) ذو الخبرة السابقة والكفاءة العالية فكان "صاحب دهاء وألمعية ونظر في العواقب"[2]، وقد نعته المؤرخون بذي الوزارتين، والواقـع أنـه ذو الأربع الوزارات، فقد تولى الوزارة للمهدي أحمد بن الحسن ثم لولده هذا المهدي محمد، ثم للمتوكل القاسم بن الحسين وأخيرا لولده المنصور الحسين بن القاسـم. وقـد أبـان إخلاصه وحنكته أثناء تثبيت حكم الإمام المهدي محمد حيث كان المساعد الأول للإمـام فجعله يتمكن من اصطياد منافسيه واحداً بعد الآخر بواسطة أراءه السديدة، وقد مرّ معنا دوره في إخضاع يوسف بن المتوكل، ودوره أيضاً في فرار علي بن أحمد مـن حـول صنعاء، حتى إنّ مكائده كانت سبباً في عودة الحسن بن المتوكل من مكة إلى بين يـدي الإمام ونال عقابه[3]. إضافة إلى أنه رعى حقوق المملكة في جميع الجوانب وذاع صيته حتى أطلقوا عليه لقب "الوزير الأعظم"[4].

(*) يحيى العباسي العلوي (ت: بعد ١١١٠هـ/١٦٩٨م): كان شاعراً أديباً مؤرخاً، له مؤلف سماه نفخ الصور في ذكر الإمام القاسم وأولاده وبعض أولادهم، وهو عبارة عن قصيدة مكونة من (١٩٣) بيتاً، ولعله المقصود بإشارة المؤرخ يحيى بن الحسين بأنه تم تأليفه تلبيةً لرغبة الإمام المهدي أحمد بن الحسن حينما لم تعجبه سيرة الشرفي اللآلئ المضيئة . (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن (خ):٢/ ق ١٩٢ب؛ الحوثي: نفحات العنبر (خ):٣/ ق ٨٨أ؛ زبارة: نشر العرف ٣/٣٠٤ ـ ٣٠٥ ؛ الحبشي: مصادر الفكر الإسلامي، ص٤٤٤).

(١) الحوثي: نفس المصدر (خ):٣/ ق ٨٨أ ؛ زبارة : نفس المرجع ٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ؛ الحبشي: نفسه ، ص٤٤٤.

(٢) الحوثي : نفسه،(خ) :٢/ ق ١٥ب .

(٣) راجع الفصل الأول : ص٩٧، ١٢٨ .

(٤) أبوالرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر،(خ):٤/ ق ١٩٩أ.

وعلى هذا كان يجب على الإمام مراعاة جانب هذه الشخصية الفريدة ومكافئته، لكنه فعل عكس ذلك، حيث اتفقت المصادر المتاحة أن الإمام أصغى إلى وشاية حساده ومنافسيه فعمد إلى التنكيل به ومصادرة أمواله وداره في(١٩/١٠/١١٠٤هـ / ٢٢/٦/١٦٩٣م)على أرجح الأقوال[١] وعزم على ضرب عنقه لولا شفاعة أخيه المحسن ابن المهدي فيه حتى عدل إلى زجه في سجن ثلا ـ مقر إقامته ـ زيادة له في الإهانة[٢]، ثم نقله إلى كمران ومنها إلى سجن بعدان[٣].

ولقد كانت مبررات البطش بالوزير الحيمي أنه أشار على الإمام بقيادة الجيش بنفسه لحرب المشرق فلما وصل إلى الزهراء منع الوزير عنه المدد، فكان سببا في هزيمة الجيش وعودة الإمام منها فبطش به لذلك السبب، لكن أبا طالب أشار بأنها كانت الذريعة التي غطى بها هزيمته[٤]. ولما صادر أمواله انطلقت الإشاعات من حساده بأن أمواله بلغت "نصف كر وذلك خمسون لكاً من القروش"[٥]، أي خمسمائة مليون قرش(ماريا تريزا) كما سيأتي توضيحه، لكن مؤلف سيرته[٦] برر موقف الوزير من ذلك، وأشار بأنه كان يحفظها للإمام لوقت الملمات الكبرى إلا أن حساده أوهموا الإمام بأن الوزير اختصها لنفسه .

ورغم هذه الإهانة والتنكيل إلا أن الإمام أطلقه من السجن بعد سنتين وأعاده إلى الوزارة ! فيا ترى لماذا هذا التناقض ؟

من المحتمل أن الإمام لم يجد الشخصية المناسبة التي تسد الفراغ الذي تركه الحيمي لذلك شمله بالعفو وأعاده إلى منصبه عام(١١٠٧هـ / ١٦٩٦م) ليعمل إلى جانب الوزير الشيخ أحمد بن راجح ـ كما سيأتي ـ، غير أن مؤلف سيرته أشار بأن

---

(١) أبوالرجال : نفس المصدر ،(خ):٤/ ق ١٩٨ب، ١٩٩أ .

(٢) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٥١.

(٣) الحوثي : نفحات العنبر (خ):٢/ ق ١٥ب ؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٥٣٨.

(٤) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٣٢أ ، وانظر ما سبق ، ص ١٧١.

(٥) الحوثي : المصدر السابق (خ) : ٢/ ق ١٥ب ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٥١ .

(٦) أبوالرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر(خ) : ٤/ ق ١٩٩ب.

الإمام اكتشف عدم صحة كل التُهم المنسوبة إلى الحيمي لذلك شمله بالعطف والإحسان وأعاده مرة أخرى إلى الوزارة[1] .

وهنا نتساءل هل الحيمي سوف يعمل بنفس الاندفاع والنشاط اللذين كان يعمل بهما قبل التنكيل به؟

من المؤكد أن الحيمي لم ينس أو يتغافل عمّا أصابه، ويبدو أنه كان يعمل بحذر لتقويض حكم الإمام والإطاحة به، وهذا ما سوف نلاحظه هنا وفي الفصل التالي ، حيث كانت آخر أعماله بأن حفَّز الإمام على إطلاق القاسم بن الحسين من السجن وتوليته قيادة الجيوش لقمع دعوة المنصور الحسين عام(١١٢٦هـ /١٧١٤م)، ثم استأذنه ليكون مراقباً على القاسم ويرصد حركاته[2]، فكان ذلك بمثابة الوداع الأخير . ثم تولى الوزارة للمتوكل القاسم المذكور، وقُتِل وهو وزير لولده المنصور الحسين بن القاسم في شهر (محرم ١١٤٠هـ / أغسطس ١٧٢٧م)[3].

ويأتي بعد الحيمي الوزير حسن الآنسي الذي كان من أكبر أعوان الإمام حيث أثبت إخلاصه منذ أن أقره الإمام حاكماً على عمالة المخا عام(١٠٩٨هـ/ ١٦٩٧م)، فكان يمول الإمام بالأموال الكثيرة والنفائس[4]، وقد قيل إنه كان من أكبر الساعين للتنكيل بالحيمي ولما بلغه ذلك أخذ جميع ذخائره ونفائسه التي جمعها منذ بداية عمالته، وقدّمها هدية للإمام فمنحه بذلك الوزارة[5]. إلا أنه لم يمكث فيها أكثر من بضعة أشهر حتى ضُربت عنقه في شهر(جماد الثاني ١١٠٥هـ/ فبراير ١٦٩٤م)[6] ، فكانت أولى فتكات الإمام بوزرائه .

ولقد اختلفت الروايات في أسباب قتله إلا أن أحد معاصريه جمع بين الروايات المختلفة فأشار إلى أن مقتل الآنسي كان "بعد أن غُرر به وأُرسل به من رداع إلى

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٤/ ق ١٩٩ب ؛ أبوطالب : السحر المبين ،(خ) : ق ٦٥ب.
(٢) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٧٤ب.
(٣) زبارة : نشر العرف ، ١ / ٥٣٨ .
(٤) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٣٢ب.
(٥) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ): ٤/ ق ٢٠٣ أ.
(٦) الداعي: الدامغة الكبرى(خ):٢/ ص٢٠٣؛ وذكر صاحب السحر ق ٣٢ب إنها في العام التالي والراجح ما أثبتناه .

صنعاء، وسمعتُ أكثر الناس يصوب الناصر في قتله، لما حدث منه في المخا من قتل نفوس بغير حق، وأخذ أموال ناس ومصادرة آخرين، ومن الناس من قال : إن الآنسي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وربما ثمَّ دور للناصر في قتله، وعلى الجملة فالخلاف حاصل"[١]. وربما أن في قتله علاقة في تغيير اللقب إلى الهادي فأراد أن يثبت لمنتقدي سياسته أنه عادل ومنصف نظراً لكثرة شاكوه الذين حضروا من المخا فحولهم لمقاضاته لدى الحاكم الشرعي الذي حكم بقتله بموجب البراهين الواردة إليه[٢]، وأيضاً لا ننس دور المتآمرين داخل البلاط فقد قيل إن الوزير أحمد بن هادي العلفي كان مع حسن الجبلي من ضمن الساعين لقتله[٣] .

أما الوزير الشيخ أحمد بن راجح (١١٠٧ـ ١١٠٩هـ/ ١٦٩٦ـ ١٦٩٨م) فقد شهدت البلاد أثناء فترة وزارته الرخاء والاستقرار نسبياً "فجرت الأمور بوزارته على السداد ورجعت القلوب على الوداد"[٤]، وعلى الرغم من أن وزارته كانت بالمشاركة مع الوزير الحيمي إلا أن أباطالب قد بالغ في الإشادة به وأشار بأنه "أزال دسائس الأشرار، ورفع عن الرعايا البغاة والمضار، بالنظر فيما دق وجل، والإطلال على كل عمل، فتلألأ بوزارته وجه الخلافة"[٥]. لكن سرعان ما التفَّت حول عنقه حبال المؤامرات حتى عزله الإمام عام (١١٠٩هـ)[٦]، وجعله ضمن مستشاريه دون أن يصيبه بأذى كسابقيه. واستمر يشارك في بعض الأعمال العسكرية والإدارية الطفيفة حتى وافاه الأجل في تعز عام (١١٢٣هـ/ ١٧١١م)[٧].

ثم اعتلى الوزارة بعده الوزير الخطير الشيخ صالح بن علي الحريبي الذي أمتاز بالدهاء وحُسن السياسة وقد برز دوره مبكراً منذ معاضدته للإمام حال محاصرته في

---

(١) الداعي : الدامغة الكبرى . (خ):٢/ ص٢٠٣ ــ ٢٠٤.

(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر. (خ) :٤/ ١٩٩ب.

(٣) أبوطالب : السحر المبين ، ق٣٣ ب.

(٤) جحاف : تاريخ جحاف ، نقلاً عن : زبارة : نشر العرف . ٢/ ١٦٧.

(٥) أبوطالب : السحر المبين . (خ) : ق ٣٣أ.

(٦) الجنداري : الجامع الوجيز (خ) : ق ١٦٤أ ؛ أبوطالب : نفس المصدر ، ق ٣٥ب.

(٧) أبوطالب : السحر المبين . ق ٤٥ب، ٧٠ب.

المنصورة عام (١٠٩٨هـ)، ثم لزم مرافقة الإمام "ولعب هو وظهيره الفقيه محسن ابن علي الحبيشي المفتي[الوزير] دوراً عظيماً"[١]، وقد تردد ذكره منذ بداية البحث وسوف يستمر إلى نهايته نظراً لكثرة مشاركاته الإيجابية والسلبية، وكان من أهم أعماله خلال وزارته الأولى اختطاط مدينة المواهب ـ حاضرة حكم الإمام ـ والإشراف على بنائها. ويبدو أنه أنِف من الوزارة المشتركة مع المحسن ولد الإمام التي صاحبتها المؤامرات وأدرك عدم فائدتها، لذلك وضع من ينوب عنه في البلاط وأعتذر عن الوزارة حال انتعاش فتنة المحطوري وطلب من الإمام عمالة بيت الفقيه والزيدية، مبرراً طلبه بأنه سوف يموله بالأموال التي تساعده على إخماد الفتنة، فأسعده الإمام إلى ذلك[٢]. ثم منحه بعد أيام ولاية عامة على تهامة بما فيها مينائي المخا وعدن[٣]، فذاع صيته داخل اليمن وخارجها .

يبدو أن الحريبي استمر في موالاته للإمام إلا أنّ تقدّم عُمر الأخير ثم استبداد أولاده بأمور الدولة دون كفاءة كانا كفيلين بأن يحتاط لنفسه، ويعمل على الاستقلال باليمن الأسفل الغني بالموارد، ومن المحتمل أنه بدأ يفكر بذلك حينما لمح تردي الأوضاع، حال زيارته للإمام ـ إثر مرض ألمَّ به ـ عام (١١١٧هـ / ١٧٠٥م)[٤] ، ومنذ ذلك الوقت بدأ في أعمال التخريب على الإمام والتي بدت واضحة في فشل الحملة على المشرق عام(١١٢٠هـ / ١٧٠٨م) ـ كما مر سابقاً ـ، وقد أحسَّ الإمام بذلك فتوترت العلاقة بينهما[٥]، وكاد أن يبطش به، لولا حنكة الحريبي التي مكنته من استعادة ثقة الإمام به، بما ساقه من الهدايا النفيسة للإمام وحاشيته[٦]، حتى تغاضى عنه وأعاده إلى الوزارة بل جعله كبير وزرائه عام (١١٢١هـ / ١٧٠٩م)[٧] ، لكن الحريبي لم

---

(١) زبارة : نشر العرف ،١/ ٧٧١ـ ٧٧٢.
(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٣٥ب ، ٣٩أ ـ ب.
(٣) الكوكباني : المواهب السنية . (خ):٢/ ص ١٠.
(٤) أبوطالب : السحر المبين ، ق٥٥ أ ، وطيب الكساء ، ص ٣١٥.
(٥) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٨٩ .
(٦) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٦٥ب.
(٧) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة، ص١٣٠ ؛ أبوطالب : السحر المبين . ق ٦٦أ. وطيب الكساء ، ص٣٣٠.

يأمن جانب الإمام فعمل كل ممكن للإطاحة به، التي لم تحصل إلا في عــام(١١٢٨هــ/ ١٧١٦م)، ثم تولى الوزارة للمتوكل القاسم بن الحسين حتى وافاه أجله عام(١١٣٥هـ /١٧٢٣م) وهو في منصب الوزارة[(١)]. وقد انطلقت ألسن الخاصة والعامة تندد بمظــالم الحريبي وأنه كان وبالاً على الدولتين[(٢)].

وفي عام(١١١١هـ /١٦٩٩م) قام الإمام بتنصيب "إسحاق بن محمد العبــدي"[(*)] للوزارة، الذي لم يعمل فيها سوى بضعة أيام حتى تمكنت دسائس الحريبي وغيره مــن التنكيل به ونفيه إلى الهند[(٣)].

لذلك انفرد الفقيه محسن بن علي الحبيشي بمنــصب الــوزارة، حــسب توصــية الحريبي فكان سنداً له لدى الإمام ــ كما أسلفنا ــ ويبدو أن مؤرخ الفترة قــد تحامــل عليه ثم حذا حذوه المؤرخون اللاحقون، حيث عرضوا مثالبه فقط واتفقوا علــى فــساد وزارته، وأنه من أهم عوامل سقوط حكم الإمام . فقد قيل إنه تسلَّط على الإمام بواسطة الأسحار والطلاسم التي صنعها له المنجم شرف الدين بن صلاح الكوكبــاني[(٤)] ــ آتــي الذكرــ.

---

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٤١٥.

(٢) محمد بن علي بن داود : العلم المنشور، ضمن مخطوط المواهب السنية :٤١/٢، زبارة : نشر العرف،٥٩٩/١.

(*) إسحاق بن محمد العبدي:(١٠٥٠ ــ ١١١٥هــ/ ١٦٤٠ ــ ١٧٠٣م) كان من أبرز علماء صعدة وشعرائها وله عدة مؤلفات كما اشتهر بالخط الجميل والفصاحة، ولعل طبعه الحاد قد حرمه من الاستقرار وجعله متنقلاً بين الأقطار، حيث انتقل في البداية للعمل في اللحية، ثم رحل إلى مكة ولازم أميرها الشريف أحمد بن غالب، ثم فرَّ إلى اليمن عام ١١٠١هــ ، فمكث العبدي في منزله، وعاد في عام ١١٠٥هــ رجع العبدي إلى الإمام الذي أكرمه ومنحه ولاية المخا. وفي عام ١١١١هــ منحه رتبة الوزارة، فلم يلبث سوى أيام حتى نفاه إلى الهند، بتدبير الحريبي والمرحومي، وقيل إن الإمام غضب عليه لأنه قرأ كتاب علي بن أحمد ــ المبشر بمقتل المحطوري ــ على مشهد من الناس بلفظه دون تغيير وفيه ذكر علي بن أحمد باللقب وذكر الإمام مجرداً عن اللقب، فكان سبباً لنفيه، لكنه بلغ درجة رفيعة لدى ملك الهند ــ محمد أورنك زيب ــ وجمع أموالاً جمة، وكتباً كثيرة، غير ان حُساده وشوا به لدى الملك بأنه يقرض الشعر وهو عمل مستهجن لديه، لذلك غضب عليه فرجع إلى الإمام الذي عطف عليه وولاه القضاء في أبي عريش، فمكث بها حتى وافاه أجله . (الداعي : الدامغة الكبرى (خ) : ٢/ ص١٦٣؛ أبوطالب: السحر المبين (خ) : ق ٤١أ؛ طيب الكساء ، ص٢٨٩؛ الجنداري : الجامع الوجيز(خ): ق١٦٥؛ الحوثي: نفحات العنبر (خ): ٢/ ق ٦٠أ؛ الشوكاني: البدر الطالع: ص١٥٠؛ زبارة : نشر العرف، ١/ ٣١٨) .

(٣) الحوثي : نفحات العنبر (خ) : ٢/ ق ٦٠أ .

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٠٨ .

وإذا ما نظرنا إلى أحداث وزارة الحبيشي لوجدنا أنه كان سبباً في معظم تمـردات القبائل التي كانت تندلع بين الحين والآخر، وقد رأينا أنه كـان الـسبب المباشـر فـي عصيان الشيخ صالح بن هادي حبيش حين تعرض له بالإهانة والتـوبيخ فـي مجلـس الإمام عام(١١١٣هـ/ ١٧٠١م)[١]. كما كان سبباً في غضب الإمام على ولده المحسن الذي كان بمثابة كبير الوزراء وذو شخصية معتدلة، مما جعله يزج به في السجن أيضاً عام (١١١٦هـ/ ١٧٠٤م) فمات كمداً [٢]. والطامة الكبرى أنه كان يتصدر لرسائل ابن هرهرة ويقابلها "بالسفه ويهمل الجوابات عليه"[٣]، فكان السبب في الهجوم الذي شنته يافع على مدينة "إب" والعبث بها، وفوق هذا وذاك كان سبباً في فشل الحملة التي بعثها الإمام لتأديب ابن هرهرة [٤]. إلا أن الإمام بعد كل هذا اكتشف فساده فنكَّل به وأودعـه في السجن[*] عام(١١٢١هـ/ ١٧٠٩م)، وصادر أمواله وذخائره التي بالغ المؤرخـون في وصفها، فقيل إنها بلغت أحمال سبعين جمل، وتشتمل على أنواع النفائس من الذهب والسلاح والجواهر والقماش[٥].

ثم استوزر الإمام ولده إبراهيم بعد التنكيل بالحبيشي، وعضده بـالوزير الحـسين الحيمي ــ سالف الذكر ــ وغيره من أعضاء المجلس، لكن إبراهيم كان أهوجاً وطائشاً لا يحسن التصرف في أمور الدولة، فازداد الوضع سوءً في وزارته، وقد أدرك الإمـام ذلك خلال بضعة أشهر، مما أضطره إلى استعادة الحريبي وتوليته الوزارة مرةً ثانيـةً، فكان في غاية اليقظة والحذر من الإمام، فعمل علـى توزيـع أولاده فـي الولايـات[٦]،

---

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٢٩٧ .

(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ): ق ٥٢أ، ب؛ زبارة: نشر العرف،١/٧٧٢؛ العابد : تهذيب الزيادة (خ): ص١٨٩.

(٣) جحاف : التاريخ الجامع ، نقلاً عن زبارة : نشر العرف ، ١/٧٧٣.

(٤) انظر : ما سبق من هذا البحث ، ص ١٨٦ وما بعدها

(*) سيتضح في الفصل التالي أن الإمام أطلق الحبيشي مضطرا عام(١١٢٨هـ/ ١٧١٦م) وكلفه بالسعي في الصلح فيما بينه وبين ولد أخيه القاسم ابن الحسين ــ قائد الجيش ــ فكان من ضمن المتآمرين على خلعه، ثم صار وزيراً للقاسم المذكور، ثم لولده المنصور من بعده وعمل في فساد حكمهما إلا أن الأخير زجّ به في السجن عام(١١٣٩هـ ١٧٢٧م) وصادر أمواله ، وتوفى بعد عام ١١٤٠هـ. (أبوطالب : طيب الكساء . ص٣٧٤، ٤٤١، ٤٤٣؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٧٧٨، ٢/ ٣٧٦ ــ ٣٧٧).

(٥) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٢٨ ؛ والسحر المبين ، (خ): ق ٦٤ب ؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٧٧٥.

(٦) أبوطالب: السحر المبين، ق ٦٥ب؛ والطيب، ص ٣٣٠؛ جحاف: التاريخ الجامع: نقلاً عن نشر العرف،١/٧٧٦.

واستفرد بالإمام وعمل على خلعه. ويبدو أن الإمام أدرك مراوغة الحريبي ومخادعته، لكنه لم يبطش به بل أوهمه أنه ليس ذا أهمية وأن غيره أفضل منه ويمكن الاستغناء عنه، لذلك استوزر العلامة زين العابدين بن سعيد المنوفي(*)[1] عام(١١٢٤هـ/ ١٧١٢م)، الذي عمل على مضايقة الحريبي[2]، محاولاً استعادة قوة الدولة إلا أن ذلك توافق مع أفول نجمها، وكانت المؤامرات قد أحدقت به من كل جانب، فكانت جدية زين العابدين في المحافظة على استقرار الدولة تذهب سُدى.

٢- الولايات(العمال) :

لقد أشار العلامة الشوكاني إلى أن نظام الولاية الإداري في عهد الأئمة كان مرتكزاً على أربعة أشخاص هم : الوالي ، القاضي ، الرئيس ، الكاتب[3].

وذهب المؤرخون إلى أن الأئمة قلدوا العثمانيين في التقسيم الإداري للولايات في اليمن وهو على النحو التالي : صنعاء ، كوكبان ، طويلة ، مخا ، زبيد ، تعز ، صهلة ، مأرب ، عدن[4].

ولكننا لا نرى ذلك واضحاً في عهد الإمام المهدي محمد ، فمن خلال الفصلين السابقين نستنتج أن ولايات اليمن تنقسم إلى قسمين هما :

ولايات خاضعة اسمياً مثل : حضرموت ، يافع ، صعدة .

وولايات خاضعة فعلياً وهي : تهامة ، أبو عريش ، حجة ، كوكبان ، صنعاء ، عمران ، ذمار، إب ، تعز ، عدن .

(*) زين العابدين بن سعيد بن محمد المنوفي:(ت: ١١٥١هـ /١٧٣٨م) آتى مع والده من المدينة المنورة إلى اليمن فأعجب الإمام المهدي بذكائه وعلمه فولاه الوزارة وبعض الولايات، وقد قام بدور كبير للحفاظ على دولة الإمام المهدي، ثم ولاه القاسم بن الحسين الوزارة عام ١١٣٧هـ، ثم نقله عاملاً على ريمة، لكنه سرعان ما عزله بتدبير من الوزير الحبيشي، ثم نفاه إلى بلاده المدينة المنورة، فاستقر بها وكبَّ على تحصيل العلم حتى وفاته، وتوفى والده في نيف وثلاثين ومئة وألف. (زبارة : نشر العرف: ١/ ٧٢٠ ـ ٧٢٣ ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ١/ ٢٤٣).

(١) ابن عامر: بغية المريد (خ): ص٢٦٠؛ أبوطالب: السحر المبين (خ): ق ٧١أ؛ وطيب الكساء ، ص٣٦٨، ٤٢٥.

(٢) جحاف : التاريخ الجامع نقلاً عن : زبارة : نشر العرف ،١/ ٧٢١.

(٣) الحبشي : دراسات في التراث اليمني ، ط١، ١٩٧٧م، ص٥٩ .

(٤) أباظة : الحكم العثماني في اليمن ، ص٢٦ .

وكانت الولاية الواحدة تضم عدداً غير محدداً من المدن والقرى بل تخضع في حجمها من حيث القلة والكثرة إلى مزاجية الإمام، فنجده أحياناً يُقلِّص من ولاية ويضمها إلى ولاية أخرى، مكافئة لمن يثبت ولاؤه من الولاة وعقاباً لمن يشك في ولائه منهم، وهذا ما لاحظناه سابقا حين اقتطع بلاد كحلان عفار وكحلان الشرف من ولاية ثلا وضمها إلى ولاية شهارة .

أما من حيث الصلاحيات المخولة للوالي (العامل أو الأمير) فقد كانت محدودة جداً، فالوالي عبارة عن أداة لتنفيذ سياسة الإمام في حدود ولايته، فكانت مهمته تنحصر في الحفاظ على استقرار الوضع وقمع المخالفين، ثم جمع الأموال من الأهالي وإرسالها إلى خزينة الإمام بعد أن يقتطع منها حصته، وصرفيات أتباعه ومن يلوذ به. وهناك مهمة أخرى تكاد تشبه الإقطاعي في النظام العثماني حينذاك، والتي تكمن في تكليف العامل بجمع قبائل ولايته وقيادتهم لقمع عصيان في ولاية أخرى أو للمشاركة في إخماد حركات التمرد التي كانت تنفجر بين الحين والآخر، كما سبق أن رأينا مشاركتهم في إخماد ثورة المحطوري وكذا مشاركتهم في حروب إخضاع المشرق .

وفي ما يخص علاقة الإمام مع ولاته فيبدو أنه امتاز عن غيره بشدة الحذر الذي انتهجه خلال تعامله معهم، حيث نجده يخرج عن قاعدة توريث الولايات للأبناء التي سادت في عهود سابقيه، بل كان لا يترك للوالي فرصة الاستقرار في ولايته حتى ينقله من ولاية إلى أخرى، هذا إن كان من ذوي الشخصيات المهمة التي لا غنىً عن خدماتهم ، وإلا فهو محظوظ إن تم عزله دون أن يلحقه شيئاً من التنكيل والمصادرة والسجن كما فعل بالأمير الحسن بن مطهر الجرموزي والي المخا، والأمير الحسين بن زيد جحاف والي عدن عام (١٠٩٨هـ/ ١٦٨٧م) [١]. ويبدو أنه أفرط في عزل الولاة أو نقلهم لدرجة أن أحد المراجع أشار بأنه كان يرسل لولاية كوكبان أكثر من والي في العام الواحد ، فبلغ عددهم ستة عشر والياً منذ عام(١١٠٣هـ/ ١٦٩١م) حتى آخر حكمه، معظمهم كانوا من الأمراء العبيد [٢].

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن،(خ): ٣/ ق ١٤٦ب، ١٥٠أ،١٥٧ب؛ الأكوع : هجر العلم،١/ ٤٢٤ب،٤/ ٢٢٠٧أ.

(٢) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) : ٢/ ص٨ ــ ٩.

إضافة إلى ذلك فقد كان يُقلل من شأن الوالي في ولايته، ويقلّص صلاحيته، حيث نجده يربط أمير جند الولاية وكذا أمين الخزانة به مباشرة ويعززهم بالمراسيم اللازمة لممارسة أعمالهم دون تدخل الوالي باعتباره المسئول المباشر، بل ويحذره من اعتراضه لهما، كما رأينا ذلك سابقاً في وثيقة تعيين متحصل خراج ميناء عدن المؤرخ في شهر(ربيع الأول ١١١٠هـ/ سبتمبر ١٦٩٨م)[(١)] وبذلك صاروا من أقران الوالي وليس تحت إدارته، حتى إن الكوكباني جعلهم ثلاثة ولاة على الولاية في آن واحد[(٢)] .

ولذلك وصفه معاصروه بالشك وعدم الثقة وبالتضارب في أعماله وأقواله، ولكن إذا أمعنا النظر في نتائج توريث الولايات الذي ابتدعه المتوكل، فظهرت خلال حكمه شخصيات طموحة شكلت ما يسمى بمراكز القوى التي أضعفت السُلطة المركزية، بل حاول أحدهم انتزاع الحكم من المتوكل نفسه، ثم قويت هذه القوى في عهد المهدي أحمد ، واستقلت في عهد المؤيد بن المتوكل، وقد ذاق - إمام الفترة - الأمرين من تلك القوى، حتى تمكن من إخضاعها. هذا من جهة . ومن جهة أخرى كانت حفاوته وإكرامه لبعض الولاة سببا في غدرهم به وانقلابهم عليه، وقد رأينا سابقا حين أمدَّ عمه الحسين بن الحسن بالمال والرجال وأمره باسترجاع المشرق تحت ولايته، لكنه انقلب ضده ودعا إلى نفسه، وكذلك أمدَّ الشريف أحمد بن غالب[(*)] بالمال والرجال وولاه على أبي عريش، لكن سرعان ما تحالف مع أمير صعدة ضد الإمام[(٣)] .

---

(١) انظر : نص المرسوم في الملحق ، وثيقة رقم (١) .

(٢) الكوكباني : المواهب السنية (خ): ٢/ ص٩.

(*) الشريف أحمد بن غالب : كان أميراً على مكة المكرمة لكنه لاذ بالفرار لأسباب سيتم ذكرها في الفصل الخامس، والمهم هنا أنه قابل الإمام في شهر رمضان عام ١١٠١هـ. الذي أكرمه وجهزه بجيش كبير ومعدات كثيرة وولاه أبي عريش مؤقتاً حتى يوافيه ببقية التجهيز استعداداً لدخول مكة وضمها تحت سيطرة الإمام ــ وقد وقعت منه مظالم كثيرة في ولايته ــ لكن ثورة أمير صعدة علي بن أحمد سالف الذكر منعت الإمام من تنفيذ مشروعه التوسعي، وأمر الشريف بأن يشن الحرب على صاحب صعدة إلا أن الأخير تمكن من استمالة الشريف وتحالف معه ضد الإمام، فعزله ووجه عليه الجيوش بقيادة عزالدين القطبي فالتقيا في عدة معارك غير حاسمة، فأرسل الإمام عبدالله المحرابي لمصالحة الشريف بمنحه بعض المال وطرده من اليمن. فارتحل عنها في(١٢/٧/١١٠٥هـ/ ٨/٣/١٦٩٤م). جارشلي : أمراء مكة في العهد العثماني ، ص١٢٣ــ١٢٥؛ البهكلي: العقد المفصل، أغلب أوراق المخطوطة؛ الآنسي: العلم المفرد (خ): ق٤٨؛ أبو الرجال : الروض الزاهر (خ): ٢/ ق١٤٢، ٤/ ٢٢٢؛ أبوطالب: السحر المبين ، ق ٣١ب، وطيب الكساء ، ص٢٤٨؛ مجهول: ملحق اللآلي المضيئة (خ): ٣/ ٦٧٤) .

(٣) البهكلي : العقد المفصل ، (خ) : ق ٢٨ب ؛ أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٣١ب.

وكل هذه المجريات كافية لأن تكون مبررات قوية تكشف عن أسباب معاملته لهم بتلك الطريقة.

ولكن إذا كان ذلك أسلوب تعامل الإمام مع ولاته، فكيف كانت تلك الشخصيات التي استطاعت العمل معه ؟ وكيف كان موقفهم منه ؟

لقد أشار بعض معاصريه إلى تنحي أهل المروءات وذوي الرأي السديد عنه والتفّت حوله شخصيات ترضى لنفوسها الإهانة من أهل الأطماع الدنيوية والمغرورين[1]، ومن المؤكد أن مثل هؤلاء قد بذلوا كل ممكن لنيل ثقة الإمام والتمكن من التسلط عليه، ولا يستبعد أنهم استخدموا علم النجوم والفلك للوصول إلى ذلك الغرض، مثل شرف الدين القاسم[**]، الذي ربما توصل إلى قلب مخدومه بواسطة ذلك الكتاب الذي ألفه في هذا الفن وأهداه للإمام عام(١١١١هـ/ ١٦٩٩م)[2] ، وقيل إنه صنع بعض الطلاسم للوزير الحبيشي للتسلط بواسطتها على الإمام[3]، فنال ولاية كوكبان، ثم منحه الولاية العامة على صنعاء والمناطق الشمالية والغربية عام(١١١٥هـ/ ١٧٠٣م)، فشاع عنه الظلم والتعسف، إلا أن الإمام أسرع في معاقبته فنكل به وصادر أمواله ثم زج به في سجن زيلع عام(١١١٧هـ/ ١٧٠٥م) [4]، وبذلك أثبتت الطلاسم المذكورة فشلها .

---

(١) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٣٠ب ؛ وانظر : نص رسالة المقبلي في الملحق وثيقة رقم(٤) .

(**) شرف الدين بن صلاح الكوكباني: (ت: بعد عام ١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م) يتصل نسبه إلى الإمام المتوكل يحيى شرف الدين، وكان مشهوراً بالمهارة في علم الفلك والتنجيم، واسم كتابه المذكور):سهم الغيب في إصابة الضمير بلا ريب ، ومما يبدو أنه كان قد تسلط على الإمام، وتحالف مع وزيره الحبيشي، حتى استبدّ بالولاية واشتدّت وطأته على الناس. ولم يتمكن من ضبط ولايته والمحافظة على الاستقرار فيها، بل عجز عن صد قبائل حاشد وبكيل التي خرجت لنهب القرى والمدن حتى وصلت إلى المحويت، فطلب من المهدي النجدة لقمع تلك القبائل. لذلك غضب عليه المهدي وأرسل ولده إبراهيم على رأس جيش وأصحبه بمرسوم إلى شرف الدين يأمره بالتعاون مع ولده وتمويله بما أراد. فنظر في الرمل فوجد حُمرة ورأسه بين يديه، فخاف على نفسه وهرب إلى وادي ضيان من بلاد همدان، وهناك تم القبض عليه وأُتيَ به إلى إبراهيم الذي قام بمصادرة أمواله ونفائسه، التي منها ستة وثلاثين ألف قرش ومنة مفرشة، ثم أرسله مع مساعده اليهودي الساحر إلى والده الذي أمر بقتل اليهودي وزج بشرف الدين في سجن زيلع ، لكنه عاد ومارس نشاطه في عهد المتوكل القاسم .(أبوطالب: المصدر السابق ، ق٥١ أ . ٥٤ ب ــ ٥٥ أ؛ طيب الكساء، ص ٣١٤ــ٣١٥؛ الحوثي: نفحات العنبر، ٢/ ق٨٠ ب ؛ الكوكباني: المواهب السنية(خ):٢/ ص١٠ــ١٢ ؛ زبارة: نشر العرف،١/ ٧٤٨ــ٧٥٢ ؛ الأكوع : هجر العلم ، ٤/ ١٨٧٦).

(٢) زبارة : نشر العرف ، ١/٧٤٨ ؛ الكوكباني : المواهب السنية ، (خ): ٢/١٠ .

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣١٠ .

(٤) أبوطالب : السحر المبين، ق٥١ أ، ٥٥أ؛ جحاف: التاريخ الجامع، نقلاً عن: زبارة : نشر العرف،١/ ٧٤٨ــ٧٤٩.

وكان الإمام يستخدم أولاده في منصب الولاية فمنهم من امتاز بحسن الإدارة والكفاءة، إلا أن نهايته كانت غير محمودة، فقد زج بولده عبدالله في السجن وشدد عليه، وكانت نهايته مجهولة[١]، وكذا ولده محسن الذي نعته أبوطالب بأنه ألين عريكة، لكنه تعرض للتنكيل والسجن ــ كما ذكرنا ــ واشتهر بعض أولاده بالظلم والفساد والانحلال والسذاجة، فكانوا معول هدم للدولة، مثل عبدالرحمن وإسحاق وإبراهيم الذين لهم مجريات كثيرة سوف نتعرض لشيء منها لاحقاً ــ وقد لمَّح إلى بعضها صاحب كوكبان في أبياته التالية :

والغليظ المشئوم عبدالرحمن ... من ظهرت سيرته في كوكبان
وفي العدين كم تجارى وظلم ... وصدَّ خيرا مستحقاً وحرم
وقل لإسحق ولا تخشى حرج ... من أطلع الأهيف في أعلا درج
ومن أمور الدين لا شك خرج ... وجاء من الأمر باردا ذي حرج [٢]

ولكن هذا لا يعني أن كل ولاته كانوا من الشخصيات الفاسدة، فقد التف حوله بعض الشخصيات القوية والطموحة الذين تمتعوا بقدرات فائقة في الإدارة، إلا أنهم كانوا يتعاملون مع الإمام بكل حرص وحذر وحيطة ويحتاطون لأنفسهم بتلك الشروط التي يضعونها على الإمام في قبول الولاية، والتي من أهمها منحهم الصلاحيات الكاملة والولاية العامة[٣]، ومن المؤكد أنه كان يرضخ لتلك الشروط نظراً لحاجته إليهم أحياناً، ومقابل ولائهم له، وموافاته بالأموال، فصارت الولاية شبيهة بالمساومة التجارية، ولعل هذا النوع من الولاية ينطبق في تولية الشيخ صالح الحريبي ــ سالف الذكر ــ الذي ولاه الإمام تهامة كلها من اللحية إلى عدن بما في ذلك الموانئ التجارية، ومنحه كل الصلاحيات، فكان يعقد المعاهدات والاتفاقيات التجارية فيما بين اليمن وبين الدول الأخرى دون العودة إلى الإمام ــ كما اتضح في معاهدة الصداقة والتجارة بين اليمن

(١) الجنداري : الجامع الوجيز ،(خ) : ق ١٦٤، أبوطالب : نفس المصدر ، ق ٣٤ب .
(٢) محمد بن علي : العلم المنشور ، نقلاً عن : المواهب السنية ، (خ): ٢/ ٤١ .
(٣) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) : ٢/ ص ٣٥ ، أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق٦٩ أ .

وفرنسا عام(١١٢١هـ /١٧٠٩م)[١]. وكان أيضاً يقلّد أعمال مناطق ولايته عُمالاً على نظره دون تدخل الإمام، كما كوّن جيشاً خاصاً به يقدر بثلاثة آلاف جندي، كل ذلك مقابل توريد ثلاثين ألف قرش إلى خزينة الإمام مع بعض الهدايا القيمة، وقد توسعت صلاحياته أكثر من ذلك حتى ظن بعض الزوار أنه ملك تلك الجهات[٢]، أما بعض معاصريه فقد زعموا أن الحريبي يتحين فرصة وفاة الإمام ليعلن استقلاله، بل أشار بأنه استقل فعلاً وحذف ذكر الإمام من الخطبة، ويبدو أن تلك الإشاعة كانت من أهم الأسباب التي أثارت غضب الإمام، فحاول إفساد الولاية على الحريبي، تمهيداً للقضاء عليه[٣]، غير أن الأخير استطاع بحنكته امتصاص ذلك الغضب واستعاد ثقة الإمام به، حتى رفعه إلى منصب رئاسة الوزراء [٤]، ورغم ذلك إلا أنه لازم الحذر وعمل على الإطاحة بالإمام[٥]. وسار على نفس ذلك السلوك أو قريب منه الأمير القاسم بن الحسين، والأمير محمد بن الحسين بن عبدالقادر، وسوف نرى لاحقاً أن هؤلاء الطامحين وغيرهم كانوا سبباً في فساد حكم الإمام والإطاحة به .

ويبدو أن الإمام كان غير مطمئن إلى تلك الولايات العامة والصلاحيات الشاملة، لذلك كان لا يتردد عن زرع الفتن فيما بين ولاته، كما كان يبث العيون بينهم ولا يغفل عنهم وكلما أحسّ بنزعاتهم الاستقلالية أو خطرهم، بعث إليهم من يتحقق من أحوالهم، فكان يكلف لجنة استطلاعية ويصحبها بالجنود، وبثلاثة مراسيم تخضع في تنفيذها إلى وضع الحاكم من حيث القوة والضعف، فإن كان في حالة ضعف أبرزوا له مرسوم ضبطه ومعاقبته، وإن كان في حالة متوسطة أبرزوا له مرسوم الحساب في حاصلات البلاد، وإن كان في موقف قوي أبرزوا له مرسوم تجديد الولاية[٦]، ويبدو أن المرسوم الأخير بمثابة تهدئة الوالي وتأمينه حتى يلتمس طريقة أخرى لقنصه .

---

(١) انظر : المعاهدة في الملحق وثيقة رقم (٣) ، نقلاً عن (لاروك) : رحلة إلى العربية السعيدة . ص٦٤ .

(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٦٧ ، ٩٠.

(٣) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٥٥ أ . ٦٣ب . وطيب الكساء ، ص ٣١٥ ، ٣٢٩ .

(٤) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٦٥ب ؛ لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص١٣٠ .

(٥) أبوطالب : نفس المصدر، ق ٧٦أ، ب .

(٦) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) : ٢/ ص٣٧ .

وإذا كانت هذه سياسة الإمام مع الولاة وموقفهم منها فكيف كانت سياسة الولاة مع الرعية ؟ وما هو موقف الإمام من ذلك ؟

لقد زخرت كتابات معاصري الأحداث بمظالم العمال للمواطنين، ولم نجد أية إشارة تفيد باستخدام أي والٍ الرفق مع رعيته. فكان موضع سخط الرعية لشدة ما يضع على عاتقهم من المطالب والآداب والغرامات، ولقد رسم لنا العلامة صالح المقبلي(ت: ١١٠٨هـ /١٦٩٧م) تلك الصورة المزرية التي كان يظهر فيها فساد الجهاز الإداري، وتلك المأساة التي كان يعانيها المواطن نتيجة ذلك الفساد، وكذا موقف الإمام من معالجة الوضع السيئ بأسوأ منه وذلك من خلال رسالته التي وجهها إلى الإمام والتي منها قوله: "وأنتم اليوم [أي الإمام] ما تزال رسلكم على الولاة تطلبون الأموال فتفرح بذلك الولاة ومشايخ البلاد، ثم يقتسمون ما جمعوا من الحقوق الأصلية والطوارئ يجعلون بعضاً لنفوسهم، وبعضاً للمداراة لكم ولخدمكم من أعلاهم إلى أدناهم، ولا يصير إلى أهل الحقوق شيء إلاَّ من باب المداراة لمن يدارى"[(١)]، وعلى ذلك فقد كانوا يرتكبون أبشع المظالم في الرعية فلا "يقدر أحد الأفراد أن يرفع إليكم مظلمته لأنه يعلم أن غاية إنصافكم أن تطلبوا المشكو وتهتكونه وتنهبون ما جمع، ثم ترسلون آخر يفعل مثل فعله وشراً منه، لأنه قد تبصر وأتعظ بغيره، ثم يكيد شاكي الأول مع كيد الأول، ويصرف همته في كل من يرفع رأسه للشكوى فأيسوا من الإنصاف، لأن الإنصاف: إنما هو أن تؤخذ المظلمة من الظالم وتُردُ إلى المظلوم ولم يكن ذلك، ولا سلم الشاكي أيضاً من الشر، فصارت الشكوى محرمةً عقلاً وشرعاً""[(٢)].

وعلى كل فقد أورد لنا أبوطالب ما يؤكد إشارة المقبلي وذلك في العصيان الذي أعلنه أهالي "ريمة" و"وصاب" على عاملهم ابن مغلس عام(١١١٠هـ /١٦٩٩م)، بعد يأسهم من الإنصاف أو سماع لشكواهم، لكن الإمام سلّط عليهم ابن حبيش وقبائله الذين أخمدوا أنفاسهم وأذاقوهم البؤس بالقتل والتشريد والنهب، حتى إنها "قُطعت أذان

(١) انظر: رسالة المقبلي إلى الإمام في الملحق وثيقة رقم(٤)، نقلاً عن (الأكوع): هجر العلم، ٣/١٥٧٠ــ ١٥٧٥.
(٢) انظر : رسالة المقبلي . الملحق وثيقة رقم(٤).

حرمهم لأجل ما فيها من الأخراص"، وبعد إخماد تمردهم فرض عليهم الإمام الآداب المالية المجحفة، ثم عزل الوالي وولى عليهم صهره الثاني فكان أظلم من ابن عمه الأول[1].

وتكمن أغلب مفاسد الولاة في استخراج الأموال من الأهالي بشتى الوسائل والطرق البشعة مثل : مغالطة المواطنين كما فعل عبدالرحمن بن المهدي محمد أمير كوكبان عام (١١٢٤هـ / ١٧١٢م) ـ حيث استقلّ مبلغ الزكاة الموسومة في كشف الخراص، حينها أمره أن يرش الكشف بالماء ويضع على يمين كل عدد صفراً فالذي كان ثمانية صار ثمانين "وهي الأصل جميعه، فأعجب لهذا الظلم المبين !" [2] .

وكذلك عدم احتساب ما سلمه المواطنون لرسل العامل، ومعاملتهم بالربا، واستحداث مفروضات غير شرعية، ولعل أوضح دليل على ذلك ما حدث فيما بين عامل كوكبان وأهل الشاحذية وحبيش حين أُجري بينهم الحساب في مقررات الجند فكانت المسلمات للرسل تسعة آلاف قرش من أصل عشرة آلاف وكادوا يسلمون المبلغ دون احتساب المسلمات لولا تدخل محمد بن الحسين بن عبدالقادر لشيء في نفسه على العامل[3]. وهذا بلا شك كان صورة من صور الربا الذي أشار إليه الشوكاني بأنه من ضمن الداء الذي أصاب العمال في تعاملهم مع الرعية[4]. والتي سنتعرض لها خلال الأسطر اللاحقة في بند الموارد المالية .

واستحدثوا أيضا مشاركة الأهالي في الحرب (التجنيد الإجباري)، ثم طالبوا بالتعويض المالي[5]، ويبدو أن أول من شرع ذلك أحمد بن غالب حال ولايته على أبي عريش عام(١١٠٣هـ /١٦٩١م)، وذلك حين عجز أهالي صبيا والمخلاف السليماني عن تجنيد خمسة آلاف شخص، فأكرههم على دفع خمسة آلاف حرف ذهباً عوضاً عن

(١) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ١٣٦أ ـــ ب، وطيب الكساء ، ص٢٦٧ .

(٢) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ): ٢/٣٥ ـــ ٣٦.

(٣) الكوكباني : المواهب السنية (خ) : ٢/ ٢٠

(٤) الشوكاني : الدواء العاجل ، نقلا عن : الحبشي : دراسات في التراث اليمني ، ص٥٩ .

(٥) المقبلي : رسالته إلى الإمام للتنديد بحكمه ، وثيقة رقم (٤) نقلا عن : الأكوع : هجر العلم ،١٥٧٢/٣.

المشاركة، واستحسن الإمام ذلك وطلب منه أن يرسل إليه بأربعة آلاف منها والباقي له، ثم ألزم الأهالي بضيافة الجنود حال مرورهم من بلادهم وقرر عليهم خرص المزارع[(١)]، فأي ظلم هذا !!

ولا يستبعد أنهم كانوا يأخذون قدراً من المال كعقوبة على تاركي الصلاة بل وعلى مرتكبي الجرائم الكبرى كالزنا والسرقة والقذف وغير ذلك ، فصار "وقوع الرعايا في هذه المعاصي أحب الأشياء إلى العامل لأنه يفتح عليه باب أخذ الأموال فيتكاثر عنده الحرام ويتوفر له المقبوض"[(٢)].

وكان من أعوان العامل الرئيس وهو الأداة المنفذة لسياسته والمعول عليه في جمع الأموال من الأشخاص التابعين[(٣)]. وغالبا ما يكونون من رؤساء القبائل ومشائخهم، وقد اشتهر الكثير منهم، كالشيخ صالح حبيش السفياني وناصر جزيلان البرطي ومحمد عبدالله الغريبي الحاشدي وابن مغلس سالفي الذكر وقد رأينا كيف كانوا يضعون أيديهم في الأهالي وكيف كانوا يروعونهم! .

أما الكاتب فيكمن دوره في استلام تلك المطالب "المظالم"[(٤)]، وتسجيلها وحفظها، ثم يعمل على التحايل للاستيلاء على معظمها فيما بينه وبين العامل، وتصريف جزء منها رشوة لمن هو أرفع منهم فيغلقون بذلك فمه. ولعل الإمام كان يراقب خطواتهم ويترك لهم العنان، حتى إذا ما امتلأت خزائنهم أطبق عليهم ونكّل بهم واستحوذ على كل خزائنهم، وقد فعل ذلك بالكثير منهم، أمثال هادي العيزري[(*)] ـ كاتب الوزير الحبيشي ـ

(١) البهكلي : العقد المفصل (خ) :/ ق٧ أ ؛ العقيلي : المخلاف السليماني ، ص٣٧٧ .

(٢) الشوكاني : الدواء العاجل ، نقلا عن: الحبشي : دراسات في التراث اليمني ، ص٥٩ .

(٣) الشوكاني : الدواء العاجل ، نقلا عن الحبشي : دراسات في التراث اليمني ، ص٥٩ .

(٤) الشوكاني : الدواء العاجل ، نقلا عن الحبشي : دراسات في التراث اليمني ، ص٦٠.

(*) هادي العيزري : نسبةً إلى جبل العيازرة في بلاد الأهنوم وهو من أسرة مشهورة بالعلم والسياسة، وصاحب الترجمة من الأسرة التي استقرت بضوران منذ عهد المتوكل إسماعيل. وكان من أصحاب وكُتّاب الوزير محسن الحبيشي فنال حظه من المصادرة والتنكيل ومكث في سجن زبيد حتى توفي.(أبوطالب : السحر المبين ، ق ٦٣ب، وطيب الكساء، ص٣٢٧ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ) : ق ١٦٩أ) .

الذي صادره فوجد بحوزته أموالاً كثيرة[١]، فكانت سياسة المهدي شبيهة بعملية التسمين التي يتخذها المزارع في تربية حيواناته لتدر له الأرباح الكثيرة .

٣- القضاء :

من الواضح أن الأئمة أولوا القضاء بعض اهتمام لكونه يمثل إحدى الركائز الهامة التي تستند عليها سلطتهم، لذلك كان الاجتهاد شرط لمن يتولى منصب القضاء، وأجروا له الجراية الواسعة من بيت المال، إضافة إلى أنهم أسندوا إليه الخطابة والتدريس إلى جانب القضاء، وأحياناً أخرى يكلفوا القاضي بتولية الأوقاف ــ كما سنرى ــ "وكانت القاعدة ألا يتدخل [الإمام] في شؤون القضاء والأحكام الشرعية التي هو حاميها فتلك مسؤولية كبير قضاته أو قاضي القضاة"[٢]. وقد أولى الإمام هذه المهمة على عاتق العلامة علي بن حسين الشامي أحد معارضيه، حيث أمره بالإقامة في صنعاء عام (١١٠٣هـ /١٦٩٢م) وولاه "الأوقاف والقضاء بها ويكون قاضيا على القضاة من شاء عزل منهم ومن شاء أبقاه"[٣]، ورغم الصلاحيات المخولة لقاضي القضاة إلا أن التولية والعزل كانت من خصوصيات الإمام وحده، فلم تثبت المراجع المتاحة أن الشامي قام بتولية قاضي أو عزله، ولم يمارس سوى أعمال الوقف و" ترد إليه السؤالات ويرجع إليه في حل المشكلات"[٤]، واستمر كذلك إلى أن وافاه الحمام عام(١١٢٠هـ / ١٧٠٨م)، ويبدو أن أكبر خطوة عملها الشامي أن راجع الإمام في قضية العلامة يوسف بن علي الكوكباني(ت : ١١١٥هـ /١٧٠٣م) الذي كان قد حكم عليه الإمام بالإعدام، فعفى عنه بواسطة مراجعة المذكور[٥]، وقيل بشفاعة من إحدى جواريه[٦] .

(١) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٦٣ب. وطيب الكساء، ص٣٢٧ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ) : ق ١٦٩أ.

(٢) العمري : مئة عام من تاريخ اليمن الحديث ، ص٨١

(٣) الداعي: الدامغة الكبرى .(ج) :٢/٢٠٣ .

(٤) الداعي: الدامغة الكبرى .(ج) :٢/٢٠٣.

(٥) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣١٠ .

(٦) الحوثي : نفحات العنبر ، (خ) : ٣/٩٠ب ؛ الأكوع : هجر العلم ، ٤/ ١٨٧٩ب.

ولعل المهدي لم يكن مهتما بعزل أو نقل أو مصادرة القضاة كما كان يعمل بالعمال ومن المحتمل أنه تركهم كما كانوا عليه في عهد سلفه إلا بعض من ثبت عليهم الميل مع منافسيه فإنه نقلهم إلى الأطراف كما فعل بالقاضي يحيى بن إسماعيل الجباري الذي عمل كل ممكن لمناصرة دعوة يوسف ولما فشل تَشفَّع بقبة المهدي أحمد بن الحسن[(١)]، فعفى عنه الإمام وولاه القضاء في أبي عريش واستمر بها حتى وفاته عام(١١٠٢هـ / ١٦٩١م)[(٢)] وقيل عام(١١٠٤هـ)[(٣)]، ويبدو أن ذلك نوع من العقوبة. وأحياناً كان الإمام يتطرق لعزل من يقف حائلاً أمام ظلمه وتهوره حيث عزل القاضي علي بن أحمد السماوي قاضي ذمار عام(١١٠٤هـ / ١٦٩٣م)، الذي أشتهر بالعدل والورع والمواقف الشجاعة، كما سبق ذكره .

وأحياناً أخرى كان يعزم على البطش بالقضاة ذوي المواقف الصلبة وقد اتضح ذلك في قضيته مع القاضي إسماعيل بن علي بن أحمد المجاهد(ت : قبل ١١٢٦هـ / ١٧١٣م) الذي عزله عن قضاء خولان فذهب إلى بيته "وآلى على نفسه أن لا يواجه الإمام، فعزم الإمام على البطش به فدخل عليه صنوه [أخيه]القاضي حسين بن علي وطلب أن يشفعه في أخيه فشفعه بعد أن أجهد القاضي نفسه في قبول شفاعته"[(٤)].

لكننا لا نهمل احترامه وإجلاله لبعض العلماء بل ويدنيهم منه كالقاضي حسين المجاهد المذكور الذي كان من أهل الرسوخ في العلم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فقربه المهدي منه وجعله حاكم الحضرة[(٥)]، وكان المهدي يأمر برفع الواردات متى استأذنوا للمذكور في الدخول عليه "لأنه كان يأخذ من تلك الواردات بيده ويخرج يقسطها بين المستحقين"[(٦)]. واستمر في منصبه حتى وافاه الأجل في ١٤شوال ١١٢٦هـ /٢٣/ أكتوبر ١٧١٤م) .

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن : (خ) :٣/١٦٩أ .
(٢) حيدرة : مطلع الأقمار. (تحقيق : عبدالله الحوثي)، ص ٧٤ .
(٣) ابن القاسم : طبقات الزيدية الكبرى ،٣/١٢١١؛ الجنداري : الجامع الوجيز (خ) : ١٦٣
(٤) حيدرة : مطلع الأقمار ، ص١١٩ ؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٣٩١ .
(٥) حيدرة : مطلع الأقمار، ص١١٨ ؛ الأكوع : هجر العلم ،٣/١١٩٦ب .
(٦) زبارة : نشر العرف ،١/ ٣٠٩ .

كما أن هناك حقيقة لا نستطيع تجاهلها وتكمن في مهابة الإمام للعلماء، فكان له مواقف كثيرة معهم تدل على عظمتهم ومكانتهم العلمية الرفيعة، وقد مر معنا بعض المواقف معهم كموقفه من العلامة علي بن أحمد السماوي سالف الذكر، وموقفه من العلامة محمد حسن الكبسي (ت: ١١١٦هـ / ١٧٠٤م) قاضي الروضة[(١)] .

وإذا توفيَّ القاضي كان الإمام يرشح أحد أقاربه لتولي منصبه، حيث عيَّن الحسن بن محمد اللاعي المغربي قاضياً على صنعاء بعد وفاة أخيه الحسين عام(١١١٥هـ/ ١٧١٧م)[(٢)] ، وقيل عام (١١١٩هـ/ ١٧١٧م)[(٣)] رغم أن القاضي الجديد كان يُتهم بسوء اعتقاده[(٤)] .

وربما ترك بعض المدن بدون قاضٍ أحياناً أخرى فينصبون أهلها لهم قاضياً من لديهم كما كان عليه القاضي محمد بن أحمد أسحم، متولي القضاء في ذي جبلة بالتراضي بين الناس [(٥)].

ورغم أن المراجع المتاحة تصف قضاة فترة الدراسة بالعلم والعدالة والزهد والورع كالمذكورين إلا أننا نلاحظ أنهم كانوا موضع سخط وانتقاد المصلحين والمثقفين حينذاك، حيث أشار العلامة ابن الأمير(ت : ١١٨٢هـ/١٧٦٩م) في رسالته المذكورة إلى فساد القضاة بقوله : "ثم من المصائب في دين الإسلام هؤلاء الذين ولوا منصب القضاة والأحكام ... فإنه في هذه الأزمنة التساهل في تولية القاصرين ولا سيما إذا كان أبوه قاضيا فإنه يولي ابنه وإن كان من أجهل الجاهلين، والأصح في المذهب أن يكون من المجتهدين، كأنه ميراث فرضه الله من فوق سبع سماوات ! . ثم يفرض لهم من المقررات ما يكفي أمة من ذوي الحاجات من زكاة وغيرها. ثم يقبضون أجوراً واسعة على طيافة شجار، أو رقم علامة أو إحضار، وقد أجمعت الأمة كما نقله جماعة من

(١) الحوثي : نفحات العنبر ، (خ) : ٣/ ق ٣٧ب ، ٣٨أ ؛ زبارة : نشر العرف ، ٣/١٠٨ ــ ١١٠.
(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق٥١ ب، وطيب الكساء ، ص٣٠٩ .
(٣) القاسم : طبقات الزيدية ، ١/ ٣٩٦.
(٤) أبوطالب : السحر المبين . ق٥١ ب .
(٥) الأكوع : هجر العلم ، ٢/١١٦٦ب.

الأئمة أنه يحرم على الحاكم قبض أجرة من المتخاصمين حيث له جراية من بيت المال .... فصاروا بهذا أشر من العامل وأعظم أعوانه على الباطل، لأنهم يحملونه على ظلم الرعية بلسان الحال ويشاركونه في ظلمه بلسان المقال"[١]. ثم يأتي بعده العلامة الشوكاني فيصف القاضي بأنه "عبارة عن رجل جاهل للشرع، إما جهلا بسيطا أو جهلا مركبا، وإن يشتغل بشيء من الفقه فغاية ما يعرفه منه وكيل الخصومة وممارس الحضور في مواقف الخصومات من مسائل تدور في الدعوى والإجابة وطلب اليمين والبينة، وليس له في العلم غير هذا لا يعرف حقاً ولا باطلا، ولا معقولا ولا منقولا، ولا دليلا ولا مدلولا، ولا يعقل شيئا من أمور الشرع فضلاً عن غيرها من أمور العقل"[٢]. ولا يستبعد أن مثل هذه الصفات كانت في قضاة صاحب المواهب، فكانت كفيلة بفساد جهاز القضاء الذي سببه "فساد الإدارة والمحسوبية "[٣].

ب ـ النظام المالي :

يعتبر بيت المال من أهم الركائز التي تستند عليها الدولة في قيامها واستقرارها وأمنها وتوسعها، وقد أولت الشريعة الإسلامية جلَّ اهتمامها وأوجدت لها مصادر مضمونة لتمويلها، فحققت للفرد الأمن المعيشي والعدالة من جهة، ومن جهة أخرى حققت للدولة النمو والاستمرار والتوسع . وخلال هذه الأسطر سيتم عرض أهم الموارد التي أقرها الشرع الإسلامي ومناقشة موقف الإمام من هذه الموارد على النحو لتالي :

١- *الإيرادات* :

من المعروف أن إيرادات الدولة الإسلامية تتحقق من خلال الموارد التي فرضتها الشريعة على الرعية في البنود التالية :

أ- *فريضة الزكاة* : التي هي ركن من أركان الإسلام، وواجب على كل مسلم توريد مقدار محدد من ثروته لخزينة الدولة، بشرط أن تبلغ تلك الثروة النصاب، فان كانت مالاً

(١) غالب وآخرون : ابن الأمير وعصره . ص٢٩٨ـ٢٩٩.

(٢) الشوكاني : الدواء العاجل . نقلا عن : العمري : مئة عام من تاريخ اليمن ، ص٨٢ .

(٣) العمري : نفس المرجع ، ص٨١ .

ساكناً أو معداً للتجارة فعليه(٢,٥%) وإن كانت محصولاً زراعياً سُقي من المطر فعليه(١٠%) وإن كانت بتكلفة المزارع ومشقته فيجب عليه دفع(٥ %) فقط. وكذا حددت الشريعة أيضاً زكاة الأنعام لكل صنف منها نصاب معلوم[١]. كما دخلت ضمن ضريبة الزكاة (الفطرة): والتي تجب على كل نفس مُسلمة بغض النظر عن الجنس والعمر، ومقدارها صاع من قوت البلد يُسلم آخر أيام شهر رمضان [٢].

ب- *الجزية* : وهي مبلغ يفرض على كل نفس غير مسلمة من اليهود والنصارى والبانيان وغيرهم من سكان الدولة الإسلامية، وذلك مقابل حمايتهم ورعاية حقوقهم[٣].

ج- *الخراج* : وهو نوع من الضرائب تفرض على الأراضي الزراعية "التي فتحها المسلمون عنوة فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم فيها بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت مال المسلمين"[٤]، ومقدار الخراج ربع المحصول وقد يصل إلى(٤٠-٥٠%)[٥].

د- *الأوقاف* : وهي الأراضي والعقارات الموقوفة على المنشآت العامة مثل المساجد والمدارس والآبار والمناهل والمباني التي على الطرقات العامة. وتعتبر تلك العقارات من ضمن أملاك الدولة، ولكنه لا يجوز التصرف فيها كالبيع ونحوه، وإنما تستعمل غلاتها وريعها لصالح المنشآت المذكورة [٦].

ولكن هل أقتنع الأئمة بتلك الموارد التي فرضتها الشريعة الإسلامية ؟ أو تجاوزوها؟

---

(١) الشوكاني : السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار ، ٢ / ٩ — ٤١ .

(٢) السيد سابق : فقه السنة ، القاهرة ، دار الفتح للإعلام العربي ، ط٥، ١٩٩٢م، ١ / ٣٨٤ — ٣٨٦ . والصاع يساوي أربع حفنات بكفي الرجل المعتدل الكفين.

(٣) الشوكاني : السيل الجرار ، ٢ / ١٠٠ .

(٤) الشرجبي : الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني ، ص١٠١ .

(٥) الكحلاني (حسن محمد) : النظام الضرائبي وعلاقته بالجوانب الاقتصادية والسياسية في عهد ما قبل الثورة ، مجلة دراسات يمنية ، العدد الثلاثون ، نوفمبر— ديسمبر ١٩٨٧م ، ص ١٣٣.

(٦) الشوكاني : السيل الجرار ٣، ٤٠ — ٤١ .

في الواقع أن الأئمة قد تجاوزوا تلك المفروضات كثيراً خاصةً بعد استقلالهم عن الحكم العثماني الأول، فظهرت طموحاتهم التوسعية، في عهد المتوكل إسماعيل، الذي صار بحاجة ماسة للأموال لينفق على جيوش التوسع، ومن ثمَّ يتمكن من المحافظة على توسعاته التي أحرزها في المنطقة الجنوبية والشرقية، وللتصدي لطموحات أبناء إخوته، لذلك أضاف مفروضات عديدة أهمها : "مطلبة التبن لمن شرم أو لم يشرم، و مطلبة الصلاة لمن صلى أولم يصل[*]، ومنها مطلبة الرياح، ومنها مطلبة البارود والرصاص، ومنها مطلبة سفرة الوالي، ومنها مطلبة دار الضرب، ومنها ضيفة العيدين والمعونة"[1]، ورسوم الأسواق[*]. وكذلك معونة الجهاد التي جعلها مالاً "حقاً مستحقاً وديناً لازماً كالخراج وضريبة السيد على عبده"[2]. ولعله بتلك المفروضات قد احتوى على جميع محاصيل الفلاح، إلا أنها لم تسد احتياجه كما يبدو، لذلك عمد إلى إصدار حكم يقضي بتحويل أراضي المناطق الوسطى من أراضي عشرية إلى أراضي خراجية بحجة أنها كانت تحت سيطرة الأتراك وهم كفار تأويل ــ في نظره ــ وبما أن الزيديين قد تمكنوا من انتزاعها منهم بالقوة فحُكْمَهَا حُكم خيبر[3]. ورغم أن هذا الحكم أثار سخط العامة والخاصة منتقدين على سياسته إلا أن الإمام صمم على تنفيذه، ولا يستبعد أنه صار قاعدة انتهجها خلفاؤه من بعده، كما سنرى ذلك خلال الأسطر التالية .

(*) ضريبة الصلاة : كأنها تلك الرسوم التي كانت تفرض على العامة، وهي جزء يسير من محاصيلهم (التلم العاشر) يؤدونها بعد الحصاد. يقال أنها تسلم للشخص الذي يؤم أهل القرية في الصلاة ويعلمهم بعض التعاليم الدينية الأولية كفرائض وسنن الوضوء والصلاة . وغالباً ما يكون هذا الشخص من سلالة الهاشميين ونادراً ما يكون من القضاة أو الفقهاء . (كما روى ذلك بعض الأباء المعمرين) .

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن .(خ) : ٢/ ق ٦٩أ.

(*) رسوم الأسواق : لقد كُتب في عهد المتوكل إسماعيل قانون للتعامل بواسطته في الأسواق وحدد الأرباح والآداب على المخالفين وفرض رسوم معينة على كل سلعة وعلى أصحاب المهن أيضا وهذه الرسوم تحت اسم (جرم الحرس) وتعطى لشيخ الحراس وشيخ السوق وشيخ الشرطة. وفي عهد المتوكل القاسم بن الحسين، أضافوا إليه بعض المستجدات أهمها رسوم القاري (عربة النفايات)، فأصبحت الرسوم تسمى (قواري وجرم) (واستمر التعامل به إلى عهد الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين(ت:١٣٨٢هـ/١٩٦٢م)، وقد قام بتحقيق ذلك القانون القاضي حسين السياغي وطبعه تحت اسم (قانون صنعاء) عام ١٣٧١هـ .

(٢) غالب وآخرون : ابن الأمير وعصره . ص ٥٦ . ٢٠٣.

(٣) لشرجي : الشرائح الاجتماعية . ص١٢٥

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو : هل اقتنع المهدي محمد بتلك المــوارد الــشرعية وغيرها التي فرضها المتوكل ؟ أم تجاوزها ؟

لقد أشار العلامة الشوكاني بأن المهدي محمد "كان يأخذ المال من الرعايــا بــلا تقدير[1]، وينفقه بلا تقدير... وأخذ المال من حله ومن غير حله!"[2]، وما من شــك أن هذه العبارة تدل على أنه أوجد لنفسه مصادر إيرادات كثيرة متداخلة ومتشعبة بــصورة عشوائية، تحت مسميات عدة، يصعب استعراضها هنا وتتبعها، ولكن لا بد مــن وضــع تصور تقريبي لها لتتضح ملامحها ، وهي كالتالي :

أ – الضرائب الشرعية (الزكاة وفروعها) .

ب – ضرائب ورسوم غير مقيدة بوقت ومقدار محددين كمعونة الجهاد ومقــررات الجند وبدل اشتراك في الحرب ، والضيافة .

ج – العقوبات المالية والمصادرات .

د – عائدات أملاك الدولة .

هـ – رسوم الأسواق والموانئ (المكوس والجمارك) .

و – عائدات ضرب العملة (الإصدار النقدي) .

وهنا لابد أن نستعرض بشكل مقتضب بعض الأساليب التي كانت تتخــذها الــسُلطة لاستخلاص تلك الرسوم من رعاياها. فمما لا يخفى أن اســتخلاص زكــاة المحاصــيل الزراعية كانت تتم عن طريق التخمين والخرص، وذلك بإرســال لجنــة مكونــة مــن المقدّرين ـ الخراص أو الطايفي ـ يرافقه عدد من الكتبة والجنود، وتكمن مهمتهم في طيافة الأراضي الزراعية ورفع كشف تقديري للمحاصيل قبل الحصاد، وفي هذه الطريقة مالا يخفى من الإجحاف والظلم للفلاح، من حيث تحمله نفقات اللجنة وأجــور أفرادهــا والرشاوى التي يضطر دفعها للخراص راجياً تخفيض التقدير، وربما يتعرض المحصول

---

(١) ذكر القاضي الأكوع في كتابه "الأمثال اليمانية" أن خازن بيت المال عرض على الإمام المهدي صاحب المواهب (توفي ١١٣٠هـ) أنه قد وضع أموال الجزية التي يحق للإمام أن يأكل منها في مكان خاص بها منفردة عن أموال الزكاة المحرم عليه أكلها والانتفاع بها فأجابه الأمام أخلط يا فقيه كله حقنا .

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ، (تحقيق : العمري) ، ص٦١٥ .

لآفة زراعية تتلف بعضه أوكله، وهو ملزم بتسديد ما رُسم عليه [1]. ورغم تلك المظالم إلا أن الإمام وعماله بلغوا أكثر من ذلك وقد رأينا حيلة عبدالرحمن بن المهدي محمد لأخذ زكاة كوكبان حيث أشار على المخمن برش الكشف بالماء، ثم أمره أن يضيف نقطة أمام كل عدد فاستوعب بذلك المحصول جميعه. ورأينا أيضا عدم احتساب ما سلمه الفلاح عبر الرسل المبعوثة من جهة العامل [2]. وعلى ذلك يستمر الفلاح مكبل بالديون للدولة، فيضطر إلى بيع أرضه الزراعية أو رهنها لتسديد تلك الديون المتراكمة عليه سواءً للدولة أو لغيرها[3]. وهناك حيلة أخرى يلجأ إليها المتنافسون على السلطة حال الحرب فيما بينهم وهي المطالبة بتسديد زكاة الأعوام المقبلة[4] ـ واجبات المستقبل ـ. ولعلهم أخذوا الزكاة من القليل والكثير دون مراعاة النصاب ـ حسب فتوى المؤيد بن القاسم (ت:١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م)[5] ـ ولا يستبعد أنهم أخذوا نقداً عن الماشية ـ التي لم تبلغ النصاب ـ كما كان في عهد الإمام يحيى حميد الدين (ت: ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م)، حين كانوا يأخذون بقشتين "عن كل رأس ماعز، وعشر بقش عن كل بقرة ، وريالين عن كل رأس من الإبل (غير مستعمل في النقل التجاري)، وريالان ونصف عن كل رأس من الإبل يستعمل في النقل التجاري"[6].

وإذا ما وقفنا على تلك الرسوم غير المقيدة بقدر معلوم وزمان محدد فهي كثيرة، اشتهر منها معونات الجهاد، أي تلك المعونات التي كان يطلبها الإمام حال الحروب التي كان يعلنها ضد المشرق أو الجنوب أو لإخضاع الطموحين من أقرانه، وقد افتتح دولته بطلب المعونة بحجة قتال يافع عام(١٠٩٨هـ / ١٦٨٧م) فكانت أول فرصة للجباة في تعسفهم للرعية، فقد جمع أحدهم "من ريمة والتهائم كرايم الأموال وأدَّعى طيبة نفوس

---

(١) الشرجي: الشرائح الاجتماعية، ص٢١٧؛ الكحلاني : النظام الضرائبي وعلاقته بالجوانب الاقتصادية والسياسية في عهد ما قبل الثورة ، مجلة دراسات يمنية ، العدد الثلاثون ، نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٧م ، ص١٤١ .

(٢) انظر : ما سبق ، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) الشرجي : الشرائح الاجتماعية ، ص٢٢٣ .

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن . (خ) : ٣/ ق ١٦٤ب ؛ الضبوي : عقد الجواهر ،(خ): ق١٢ ب .

(٥) الجرموزي : الجوهرة المنيرة . (تحقيق : أمة الملك الثور) . ص ٤٠٠

(٦) العطار (د . محمد سعيد) : التخلف الاقتصادي في اليمن . ٢٤٠ ـ ٢٤١.

أربابها"[1]. ومنها رسوم العوض عن عدم الاشتراك في الحرب[*]، وقد رأينا أن أحمد ابن غالب أخذ خمسة آلاف ذهبا أحمر من أهالي المخلاف السليماني مقابل إعفائهم من الاشتراك في الحرب ضد علي بن أحمد. ومنها رسوم مقررات الجند، ثم رسوم الضيافة. وقد أنهكت تلك المطالب كاهل المواطنين نظراً لكثرة الحروب التي كان يخوضها الإمام ضد الأطراف المذكورة، وكذا لكثرة الوفود التي كانت تفد إليه من سائر الأقطار المختلفة، ومبالغته في إكرامهم كما أشار إلى ذلك أبوطالب حين أسرف في إكرام وفود الشاة الصفوي عام(١١١٤هـ/١٧٠٢م) وذلك بقوله :"لكن صادفوا من بيت ماله في لسانه وكلما في أيدي الناس حكم عليه بسلطانه، فأدر عليهم الأرزاق بلا كيف، وأكره الرعايا بالتسليم لإكرام الضيف"[2].

ولا يستبعد أنه أفرط في فرض العقوبات المالية ــ الأدب ــ حتى كادت تتحول كل القضايا الدينية والجنائية إلى عقوبات مالية، ولعل أغرب تلك الآداب ما عاقب به الأمير سنبل ــ نائب الشريف أحمد بن غالب على قرية ضمد إحدى قرى المخلاف السليماني ــ وهي أنه سقط صبيٌ في بئر وسَلِمَ من الهلاك "فجعل الوزير يؤدب بالمال جيران تلك البئر حتى أمَ الولد أدبها بمال كثير"[3]، كذلك كان تأديب الخارجين عن الطاعة، والمحاولين التعبير عن شدة الظلم كتأديب أهل ريمة سالفي الذكر وأهالي وادعة وأهالي خمر وغيرهم الكثير وإن كانت لا تصل أكثرها إلى خزينة الإمام المهم أنهم كانوا يبتزون الأهالي .

أما المصادرات فكانت تؤثر إلى حد كبير في إثراء خزينة الإمام وقد ذكرنا الكثير منها، كمصادرة الوزير الحيمي بنصف كر من القروش، ومصادرة الوزير الحبيشي

---

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٢١٤ .

(*) أي أنه كان يفرض مبلغاً عن الذين لا يرغبون في الاشتراك في الحروب التي كان يشنها على أعدائه وقد كانت هذه المطلبة من ضمن رسالة العلامة المقبلي الانتقادية التي وجهها إلى الإمام فأشار إليها مستنكراً على هذه البدعة السيئة بقوله : "ومن غريب أمركم ما علمته العذراء في خدرها من إرسالكم على عامة القبائل تطلبون منهم عسكراً ، ثم تأخذون عوض ذلك دراهم ، وتكرر ذلك حتى صار مطلبة معتادة ليس لها قانون في القدر ، ولا في الوقت" . (وثيقة رقم (٤) ، نقلا عن الأكوع ، هجر العلم : ٣/ ١٥٧١) .

(٢) أبوطالب : السحر المبين . (خ): ١/ ق ٤٥ أ .

(٣) البهكلي : العقد المفصل . (خ) : ق ٢١ ب .

بحمل سبعين جملاً من النفائس والجواهر والقروش، وكـذا مـصادرة شـرف الـدين بـ(٣٦٠٠٠)ألف قرش وغيرهم .

والجديد في ذلك أنه كان يصادر بعض المناطق ويحوّل أراضي أهلها إلى صـوافي خاصة له ولأولاده، كما فعل مع أهالي همدان حيث قتل زعماءهم ونفى الكثير منهم إلى الهند، واصطفى أملاكهم ـ كما سبق ذكره(١)، وكذا مظالم أولاده فـي مزارعـي تلـك الصوافي، كما فعل ولده يوسف في أهل صافية له بحجة حين "أخذ الشطر ظلما مما في أيديهم"(٢).

أما عائدات أملاك الدولة فقد برز منها ما ذكره الحريبي في معاهدة التجارة المبرمة بين الفرنسيين واليمن عام(١١٢١هـ /١٧٠٩م)، حيث أشار في البند السادس منها إلى أنه "عندما يحتاجون[أي الفرنسيين] إلى قوارب من بيت المال، فسوف يدفعون قرشـين عن التحميل وقرشين بالمثل عن التفريغ، وللريمات الصغيرة [أي القوارب] سـيدفعون قرشاً واحداً فقط"(٣)، أضف إلى ذلك أجور القوارب وأجـور الـسماسر ـ الخانـات ـ التابعة لبيت المال. ويدخل تحت هذا المصدر عائدات الأوقاف التي كـانوا يـستحوذون عليها ويحرمون المساجد والمنشئات التي أوقفت من أجلها، وبما أن المراجع المتاحة قد أغفلت عن تعرض الأوقاف للإهمال والسطو في عهد إمام فتـرة الدراسـة ـ حـسب علمنـا ـ إلا أننا نجد القاضي علي بن صالح أبي الرجال (ت: ١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م) يعلّق عن حالة الإهمال التي وصلت إليها مساجد ومنشآت صنعاء وما جاورهـا فـي عهـد المتوكل إسماعيل، وذلك في قصة أدبية لطيفة تحت عنوان "تـزويج مـسجد المـذهب بالمرادية "(٤)، كما أنشأ ابن الأمير رسالة ووجهها إلى ديوان الإمام المهدي عبـاس(ت:

---

(١) انظر : الفصل الأول ، ص١١٨-١١٩.

(٢) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ١/ ق ٤٣ ب .

(٣) انظر : الملحق وثيقة رقم (٣).

(٤) زبارة : نشر العرف ، ٢/ ٢٠٤ .

١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م) مستنكراً فيها استهتارهم بالوقف وسطو الأئمة عليه وتحويله إلى أملاك خاصة لهم[١].

ثم نقف قليلا على تلك العائدات ـ المكوس والضرائب والجمارك ـ التي كانت تجبى من الأسواق والموانئ، والتي أطلق عليها العلامة ابن الأمير اسم مجابي في القرى والبوادي، واسم معشرات في البنادر والسواحل[٢]، ومن المؤكد أنها من أهم مصادر دخل الدولة نظراً لكثرة توافد التجار من جميع أقطار العالم طلباً لسلعة البُن المشهورة التي كانت تحتكرها اليمن حينذاك، وقد أستغل عمال الإمام هذه الفرصة وحرصوا على أن يشرفوا بأنفسهم على الأسواق التي يباع فيها البُن ويراقبوا سعره ووزنه "وذلك من أجل دفع مكوس الملك ،... ويدفع البايع مكوساً بمقدار صول[*] عن كل قرش يتقاضاه"[٣].

أما بالنسبة للبضائع المستوردة فقد أشار ابن الأمير إلى أنه كان يؤخذ(١٠%) على كل صغيرة وكبيرة تدخل الميناء "حتى ما يأكله الآكل ... ثم يؤخذ منه ما يختاره الكاتب والناظر، فتقوم كأنها تركة الأيتام، ويؤخذ منه العشر دائماً، وهو أضعاف ذلك في حقيقة الكلام"[٤]، يضاف إلى ذلك الرسوم التي كانت تؤخذ على كل شخص ينزل إلى الميناء[٥].

وهناك بعض التفاصيل أشار إليها براور عن مقدار الرسوم التي كانت تؤخذ على البضائع المستوردة والمصدرة وتقدر بنسبة(٥%)، وتحسب قيمة البضائع(١١٠%) فتزداد الرسوم إلى (٥,٥%)، ويدفع للكتبة الستة ولمشرفي الملك(١,٥%)، ثم أجرة السمسرة(١%) ورسوم للمدينة تقدر بـ ١ بالألف [٦].

---

(١) غالب وآخرون : ابن الأمير وعصره ، ص٣٤٥ .

(٢) غالب وآخرون : ابن الأمير وعصره ، ص٢٩٢ .

(*) صول : عملة فرنسية قديمة كانت متداولة آنذاك . (لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٧٨ حاشية).

(٣) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٧٧ ــ ٧٨.

(٤) غالب وآخرون : ابن الأمير وعصره ، ص٢٩٣.

(٥) لاروك : المصدر السابق ، ص٦٥ ؛ وانظر : الملحق وثيقة رقم(٣).

(٦) براور : اليمن في أوائل القرن السابع عشر ، ص٨٨ ــ ٨٩ ؛ الخطابي (أروى أحمد) : تجارة البن ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ٢٠٠٤م، ص١٢٠.

ومن المُسلَّم به أن تلك الرسوم كانت كثيرة جداً فقد أشار أحد المراجع إلى إن الحريبي ــ عامل المخا ــ كان يدفع للإمام "ثلاثين ألف قرش يجبيها من الناس على طريقة باشوات تركيا"[1] وبما أن المرجع لم يفصح عن زمن دفع المبلغ هل كان سنوياً أم شهرياً ؟ إلا أن المرجح أنه كان يدفع شهرياً وذلك استناداً إلى رواية أخرى تفيد بأن إيرادات الإمام المهدي محمد كانت "تبلغ ٨٣ ألف ريال قيصري شهرياً"[2].

أما الإصدار النقدي فقد كان لازدهار تجارة البُن دور كبير في وجود عدة عملات أجنبية للتعامل بها في شراء البُن وغيره من السلع اليمنية، إلا أن الدولار النمساوي الفضي[*] طغى على بقية العملات في التعامل به محلياً، ونظراً لارتفاع قيمته الشرائية فقد احتاج الأئمة إلى تجزئته ففتحوا دار ضرب لسك عملة محلية فضية سميت بقشة ــ أو حرف ــ وكان يتراوح صرف القرش منها ما بين حرفين إلى حرفين ونصف في بداية عهد المتوكل إسماعيل[3]، ولعله أتخذ منها مصدراً من مصادر دخل الخزينة من أجل مطالب دار الضرب المذكور سلفاً، وكذا من العوائد التي تحصل من إلغائها وضرب عملة جديدة، فسمح بفتح دور ضرب عديدة، لكنها سرعان ما اضطربت العملة وداخلها الغش والتدهور، ولعل السبب في ذلك ضعف سلطته على أمراء مراكز القوى الذين احتاجوا إلى الأموال لدعم مراكزهم، ولعلهم وجدوا من التحايل في ضرب العملة وسيلة لإدرار الأرباح الوفيرة عليهم، لذلك عمدوا إلى تصغيرها وخلطها بالنحاس والجسد[4]، فتناهت في الصغر وفقدت قيمتها الشرائية، مما أدى إلى غلاء الأسعار واضطراب الدولة المركزية، التي بلغت أقصى اضطرابها في عهد المؤيد بن المتوكل، وقد أشار إلى مدى ضعفها والفئات المستفيدة من التلاعب بها المؤرخ يحيى بن الحسين وذلك في قوله:

---

(١) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٦٧.

(٢) الصايدي : المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن . ص١٨٨

(*) الدولار النمساوي الفضي : عملة نمساوية مصنوع من الفضة وتقل فيه عن ١٠٠% . ويزن ما بين ١٩.٥ ــ ١٩.٦ غرام . واسمه (ماريا تريزا) وأطلق عليه اليمنيون اسم قرش أو ريال فرانصي أو حجر . وقد استمر التعامل به حتى نهاية حكم الأئمة عام ١٩٦٢م.

(٣) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) :٢ /١٠٩ ب ، ٢١٠ ب.

(٤) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق ١٦٤ ب ؛ والجسد : نوع من المعادن الرطبة ذات البريق اللماع .

"والأجر للضرابين(*) محصول كثير معهم من ذلك، وصار القروش يـأتي بهـا التجـار والبانيان تضرب لهم عند المُتقبل لدار الضرب مع ما يحصل معها مـن القـروش مـن الدولة، وصاروا أكثر ممن يبدل القروش ويجعلها بيع وشراء البانيان، والسبب في ذلك أنهم صاروا يضربون البقشة أولاً نحاساً ويغطسونها بالفضة غطساً من أعلا الدارس(**) ويدخل البقشة نحو السدس فضة فقط، ومتى استعملت البقشة ظهر داخلها نحاساً علـى حاله، لأنها إنما صارت تحلى بالفضة، فالقرش يخرج منهـا فـي التحقيـق بخمـسين حرفاً"[1]. وكان كل ردودها العكسية يعود على كاهل التجار والأهالي، الـذين يتكبـدون الخسائر من جراء تلك التغيرات، وما يدفعونه من مطالب الضربة[2]،التي كانوا مرغمين بتسليمها .

ولقد رأينا أن الإمام المهدي محمد قد جعل إصلاح السكة[3]، من أول أعمالـه بعـد انتصاره على منافسيه واستقراره في ذمار عام(١٠٩٨هـ/ ١٦٨٧م)، حيـث فـرض العقوبات المالية على اليهود والبانيان لغشهم العملة، ثم ألغـى عملـة أولاد المتوكـل "وأرجع الضربة إلى الخمس الأولة الكبيرة، وضرب دراهم صغار عن بقـشة صـغيرة، فكان الحرف ثمانية كبار بالخمس الجديدة، وبالصغيرة الحرف قدر أربعين بقشة، وكـان صرف القرش بأربعة حروف من الكبيرة بعد أن قد بلغ صرف القرش بالـصغيرة قـدر خمسة وثلاثين حرفاً. فإذا استمروا عليها ولم ينقصوها انتفع الناس بها، وإن نقـصوها كانت مثل الأولى "[4]، ولعلها تلك الضربة التـي أشـار إليهـا أحـد البـاحثين بأنهـا تزن(٠,١)غرام، فكان الريال يشكل(٤٨) تارة و(٨٠) بقشة تارةً أخرى[5] .

(*) الضرابين : أي العاملين في دار الضرب وهم اليهود لأن معظم الحرف اليدوية كانت تحت أيديهم.

(**) دارس : متخدد (لسان العرب : ٢/٢٨٣) . وهو القالب الذي تُصبُّ فيه العملة لتأخذ شكلها النهائي .

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣/ ق ١٤٥ أ.

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، (خ) : ٣/ ق ١٦٤ ب.

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر ، (خ) : ١/ ق ١٨ أ.

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، (خ) : ٣/ ق ١٦٩ أ ــ ١٧٠ ب.

(٥) بركات (أحمد قائد) : النقد ، الموسوعة اليمنية ، ط٢، ٤/ ٣٠٢٧ ــ ٣٠٤٢ .

ورغم تجاهل المراجع ــ المتاحة ــ عن الإدلاء بالتغييرات التي طرأت على عملة الإمام المهدي محمد بعد هذا التغيير، إلا أنه تم تغيير عملته حين تلقب بالهادي عام(١١٠٥هـ/ ١٦٩٤م)، ثم حين تلقب بالمهدي المنتظر عام(١١٠٩هـ/ ١٦٩٧م) ونقش اسمه عليها[١]، وعلى هذا فقد ظن بعض المؤرخين أن تغيير العملة كان أحد دوافع الإمام لتغيير ألقابه[٢].

وهكذا استمر في عمل المستجدات لإيجاد موارد مالية حتى إن دولته تكاد تكون عبارة عن دولة جمع أموال وفرض جبايات !!!

وأخيراً لا ننس أنه بحث له عن مورد جديد والذي يكمن في محاولته التنقيب عن المعادن، وإن كانت عبر المدلسين والمنجمين إلا أنه استخرج الفضة، ولكنها كانت رديئة وتكلفة استخراجها فاقت قيمتها لذلك أحجم عن الاستمرار في هذا المشروع، وأرسل بتلك الفضة المستخرجة التي لم تجد رواجاً في اليمن إلى سنار بالسودان واشترى بها عدداً كبيراً من العبيد[٣].

٢- *النفقات* :

وكما كان مسرفاً بقهر الناس في جمع الأموال فقد كان مسرفاً أيضاً في إنفاقها ومن المؤكد أنه كان أكثر أئمة آل القاسم ــ إنفاقاً لها، وما دمنا قد تعرضنا لمصادر إيرادات الدولة فلا بد من أن نقف قليلاً على بنود نفقات تلك الأموال الجزيلة التي تركزت في العمران، وفي الجيش والدفاع، وفي كثرة الأعراس وحفلات الزواج، ثم الإكراميات والهبات، والتي تتركز كلها في مظاهر العظمة والأبهة الفارغة والمحافظة على الملك . كما سوف تتضح من خلال مناقشتها على النحو التالي :

١ - *العمران* :

يبدو أنه كان أكثر آل القاسم اهتماما وأشدهم ولعاً بإنشاء المدن والقصور وتجديد الحصون والمساجد. ولعل هذا الاهتمام نابع من مزاجيته المتقلبة ــ كالشك بمن حوله

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٦٣ .

(٢) غالب وآخرون : ابن الأمير وعصره ، ص٣٠٠ ــ ٣٠١ .

(٣) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٣٤ أ ، وطيب الكساء ، ص٢٥٥ .

وسرعة الملل ـ وحبه للفخر والتجديد والظهور بما لم يظهر به غيره، إضافة إلى أنه اعتمد في سياسته على ما رسمه له المنجمون والفلكيون وبعض الفقهاء المبتدعين ـ خاصةً في العمران ـ، حيث أشاروا بان المبشرات التي في الملاحم قد انطبقت على شخصه ! كقول المرهبي [1]:

وأنه المـراد بالملاحـم ممن عنوه بالإمام الفاطمي
أعني مشيد السبعة الحصون ومظهر المكنون من بينون

ولهذا فلا يستبعد أنه اعتمد على هذين البيتين وغيرهما في محاولة استخراج معدن الفضة وبناء وتجديد السبعة الحصون، فانشأ مدينتي الخضراء والمواهب، وبنى حصن مسعدة، كما جدد ورمم حصن المنصورة وحصن هران وحصن براش وحصن بينون وهذه من الحصون الحميرية القديمة. ورغم عدم إشارة المصادر المتاحة إلى حجم النفقات الكثيرة التي صرفها في تشييد تلك المدن والقلاع والقصور وتحصينها إلا أن كثرتها سوف تتضح من خلال استعراض ووصف المنشآت التي تم تشييدها على النحو التالي :

لقد سبقت الإشارة إلى أنه قام بتجديد وترميم حصن "المنصورة"، وجرَّ إليها المدافع ، وجعلها مقر دولته منذ تولى عمالة المعافر عام(١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م)، وصارت مركزاً لقمع أهل الحجرية الذين كانوا كثيري الخروج عليه، ولم يغادرها إلا بعد هزيمة منافسيه وسيطرته على السلطة نهاية عام(١٠٩٨هـ /١٦٨٧م)[2]. لكنه لم يستقر في ذمار حتى أمر بتجديد وتحصين حصن "هران" الواقع شمال مدينة ذمار بمسافة قريبة وهو حصن حميري قديم، جدده الإمام يحيى بن حمزة (ت:٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) وجعله مقر إمامته[3]، ثم اندثر، فقام الإمام المهدي محمد بتجديده وترميمه وأعاده "أحسن مما كان"[4]، واستقر فيه سنتين حتى تمكن من القبض على عمه

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ) : ٤/ ق ٢٣٢ب.
(٢) انظر : الفصل الأول ، ص ٥٩ ـ ٨٩.
(٣) الشوكاني : البدر الطالع ، ص٨٤٩ ؛ بعكر: نظرات في التاريخ العام لليمن ـ ص٢٠٤ .
(٤) أبوالرجال : الروض الزاهر ـ (خ) : ٣/ ق ١٧٥أ .

الحسين بن الحسن ـ أمير رداع ـ سالف الذكر ـ فانتقل إلى حصن رداع، وأمر بعمارة حصن "القانع" [1]، أحد معاقل رداع التي تعرضت للخراب أثناء حربه مع عمه، لكنه جدد عمارته وأطلق عليه اسم "براش" [2].

وفي العشر الآخرة من شهر (ذي الحجة ١١٠٢هـ/ ١٦٩١/٩/١٦م) أمر الإمام باختطاط عاصمته الأولى على أرض سهلية واسعة تقع شمال غرب مدينة رداع وتبعد عنها بنحو ميل، كانت تستخدم لرعي المواشي وتسمى (البتراء) فشيدها الإمام وسماها (الخضراء)[3]، ويبدو أنه تم اختيار هذا الموقع لخصوبته وحصانته، حيث يُشرف على نهرين صغيرين ويطل عليه حصن رداع من الجنوب الشرقي، وحصن القانع من الشمال، وحصن أحزم من الغرب [4]. ويهمنا هنا تلك الأموال الكثيرة التي أنفقها على بنائها[5]، إضافة إلى أنه استخدم السخرة إلى جانب النفقات حيث أمر أهالي البلاد المجاورة بالمشاركة في بنائها واستعان بالولاة وكبار رجال دولته[6]، فبنيت فيها دور كثيرة تنيف على (١٢٠٠ دار)، من غير المساجد المختلفة الأحجام أكبرها مسجد (دار الجامع) المبني بالقرب من داره، ومسجد (التوبة)، ومسجد (المشهد)، وكذا عمر الحمام العظيم وحفر بئراً تحت سور الحصن، وشيد الأسواق وجهزها بالدكاكين والسماسر (الخانات) فأجتمع فيها التجار وأرباب الحرف والصناعات من أقطار مختلفة كالعرب والهنود والأتراك والإفرنج، ثم أحاطها بسور كبير، وزودها بالمدافع والمعدات الحربية ـ الجديدة في عهده ـ فصارت بذلك مدينة مشهورة جذبت إليها الناس من كل مكان حتى استوعبوا معظم أراضيها، وارتفعت أسعار دورها، كما بلغ عدد سكانها إلى نحو

---

(١) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٢٣ب ؛ وطيب الكساء ، ص٢٢٢.

(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٢/ ق ٩٢أ ، ٤/ ق ٢٣٢ ب .

(٣) أبوالرجال : الروض الزاهر ، (خ) :٣ / ق ١٧٥ب ـ ١٧٦أ ؛ ابن عامر ؛ بغية المريد ،(خ) : ص٢٤٩ـ ٢٥٠ ؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٩٢.

(٤) الضبوي : عقد الجواهر ، (خ) : ق ٣٤ أ ؛ أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٣/ ق ١٧٦أ .

(٥) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٤٥.

(٦) الضبوي : المصدر السابق ، ق ٣٤ أ.

عشرة آلاف نسمة [١]. وقد تم بناء كل ذلك خلال ثلاثة أشهر، حيث دخلها في شهر(ربيع الأول عام ١١٠٣هـ/ نوفمبر ١٦٩١م)[٢].

وفي الوقت نفسه شيد جامع "باب المحجري من رداع الغرب"[٣]. واستكمل عمارة مسجد باب القصر بصنعاء وضم إليه مسجد الهادي القديم[٤]، كما وسّع وجدد مسجد الفليحي بصنعاء أيضاً [٥].

وفي عام(١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م)أمر بتجديد وترميم حصن بينون، وأرسل إليه الأيدي العاملة "من كل فج عميق"[٦]، وهو حصن أثري يقع في مخلاف ثوبان من ناحية الحدا شرقي مدينة ذمار[٧].

أما في عام(١١١٠هـ/ ١٦٩٨م) فقد رغب عن عاصمته الخضراء، لعدة أسباب غامضة لم تفصح المراجع عنها سوى ذلك المرض الذي ألـمَّ بـه[٨]، "فتشاءم من الخضراء، فغادرها للاستجمام في (ملاح) خارج رداع، ثم استقر أشهراً في منطقة عمَّر فيها بيوتاً ومعسكراً كانت تعرف بالجميمة، فسماها(السلامة) تفاؤلاً"[٩]. ومنها أمر ولده المحسن ووزيره الحريبي باختطاط مدينة بالقرب من ذمار وبها أبار وذات موقع حصين، فوقع اختيارهم على أكمة كانت مأوى للصوص، تبعد عن ذمار بنحو ثلاثة أميال شرقاً[١٠]. فشيدها وصارت مدينة كبيرة وسمَّاها "مواهب الكريم"[١١].

(١) ابن عامر: بغية المريد (خ): ص٢٥٠؛ أبوالرجال: الروض الزاهر(خ): ٤/ ق ٢٢١ ب ــ ٢٢٢ ب ؛ العمري: تاريخ اليمن الحديث ، ص٩٢.

(٢) أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٣ / ق ١٧٦ أ .

(٣) أبوالرجال : نفسه : ٣/ ق ١٧٥ أ .

(٤) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٣٥ ب.

(٥) معجم الحجري : ٢/ ٥١٥ .

(٦) أبوالرجال : الروض الزاهر، (خ) : ٤/ ق ٢٢٢ أ.

(٧) معجم الحجري : ١/ ١٣٥ .

(٨) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص٢٥٠ ؛ أبوطالب : السحر المبين ، ق ٣٦ أ .

(٩) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٩٥ .

(١٠) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٣٦ أ ؛ ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٢٥٠ .

(١١) الكبسي : اللطائف السنية ، طبعة الجيل الجديد – صنعاء ، ص ٣٩٠ .

وخلال مدة عمارتها تقدم المهدي إلى منطقة خارج سنبان بالقرب من ذمار وهناك بنا له قصراً سماه "صنع الله" (١). فمكث فيه ثلاثة أشهر وبضعة أيام منتظراً إنجاز ما يمكن إنجازه من مدينة المواهب، التي دخلها يوم السبت(١٩رجب ١١١١هـ/ ٩يناير ١٧٠٠م)(٢)، واستقر بها حتى وفاته ودفن في قبته المعروفة باسمه (٣).

ويبدو أن المعماريين قد برعوا في تخطيطها وتنسيقها ابتداءً من سورها الكبير وبواباتها الأربع الضخمة(٤)، وتنظيم بساتينها وأسواقها ومساكنها وقصورها، خاصةً قصر الاستقبال الذي وصفه الرحالة الفرنسي بأنه واسع وفسيح وينقسم إلى جناحين وارتفاعه ثلاثة طوابق وله درج أنيق، ولم يصل وفدهم إلى ساحته إلا بعد عبور خمس بوابات مزودة بالحرس(٥). وكذلك تلك الحصون والقلاع التي بُنيت خارج المدينة وتحيط بها من كل جانب، وقد كان حصن مسعدة آخر تلك الحصون التي بناها بالقرب من المواهب عام(١١٢٣هـ /١٧١١م)(٦) والذي يبدو أنه المعقل السابع المشار إليه في الأرجوزة .

أما قصور أولاده فيتضح أنها كانت كثيرة وفخمة، وقد اشتهر منها دار ولده يوسف التي بناها في ذمار وسماها الدار البيضاء والتي كانت واسعة ومجهزة بذخائر لا تحصى(٧).

إضافة إلى ذلك فإننا لا ننسى مساهمة بعض الولاة في تشييد القلاع والحصون مثل: الشريف أحمد بن غالب الذي شيد قلعة جازان، فاستهلكت أموالاً جزيلة في بناءها وتحصينها إلا أن الإمام أمر بهدمها في(شوال ١١٠٥هـ / مايو ١٦٩٤م)(٨).

---

(١) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق٣٦ ب ؛ وطيب الكساء ، ص٢٦٨ .

(٢) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص٢٥٠ .

(٣) انظر الملحق رقم (١٥) وفيه الصور الفوتوغرافية لمدينة المواهب وقبة المهدي وضريحه في شمالها.

(٤) الأسطى(أكرم): المواهب كانت العاصمة الطبيعية لليمن، صحيفة الثورة، العدد ١٤٢٨٧، الأربعاء ٢٤ديسمبر ٢٠٠٣م، ص٧ .

(٥) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص١٣٥، ١٣٩ .

(٦) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٧١ ب .

(٧) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٧٩ أ ؛ طيب الكساء ، ص٣٧١ ــ ٣٧٢ .

(٨) البهكلي : العقد المفصل(خ): ق ١٩ب،٢٤ أ ،٣٣ب،٣٥ب ؛ مجهول: ملحق اللآلي المضيئة (خ): ٦٧٦/٣ .

وكذلك الأمير عزالدين القطبي الذي خلف المذكور في ولاية أبي عريش فقد قام بتشييد قلعة في وادي خلب وسماها الدامغ وعمل سوقاً كبيرةً استقطب التجار وأصحاب المهن من أقطار مختلفة(١).

ورغم الأموال الكثيرة التي أنفقها لتشييد تلك المدن والقصور والمعاقل إلا أنها اندثرت معظمها قبل وفاته وذلك من جراء الحروب التي خاضها آخر عمره كما سوف يتضح ذلك لاحقاً .

٢- التجهيزات العسكرية والحروب :

من المؤكد أنه استهلك في هذا الجانب أموالاً كثيرة أثرت في خزينة الدولة وذلك لعدة عوامل منها :

١- أنه قام بتكوين جيش(*) منظم وحديث على غرار الجيوش العثمانية والأوروبية بعيداً عن تلك الجيوش القبلية التقليدية غير المنظمة، لذلك قام بشراء العبيد واستيرادهم من السودان، واستكثر منهم، حيث بلغ عددهم عام(١١٠٧هـ /١٦٩٥م) نحو(١٠٠٠فارس) و(٣٠٠٠مشاة)(٢)، ثم بلغوا في عام (١١٢٦هـ/ ١٧١٤م) "ستة عشر كردوساً(**)"(٣)، وقد قام باستقطاب أمراء وأفراد من الجيش العثماني،

---

(١) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣ / ٦٧٨ .

(*) انقسم الجيش في عهده إلى قسمين هما : المتطوعة الذين من أفراد القبائل يتزعمهم مشائخهم ويستدعيهم الإمام حال الحرب، وليس لهم رواتب جارية، بل يعتمدون في نفقاتهم على أفراد قبائلهم الذين لم يشتركوا معهم، وأيضاً على ما غنموه ونهبوه من أرض المعركة، وكانوا يشكلون نصف عدد الجيش الكلي وقد قيل إن المراد بهم تكثير الجيش فقط. أما القسم الثاني فهم المرتزقة وهم المعدون لإخضاع العدو وحماية الثغور، ولهم رواتب جارية ويتبعون الإمام مباشرة، كما أنهم من العبيد الذين اشتراهم الإمام ومن القواد الأتراك الذين تم استقطابهم، وهم ينقسمون إلى قسمين هما: التوابع وهم الجنود العاديين، والمقلَّم وهم من عظماء الجنود وخاصة الإمام والذين يعدهم للمهمات الصعبة. وكان المرتزقة كثيري العصيان والتمرد إذا ما أجزل الإمام لهم العطاء واستعطفهم وقد أشار المرهبي إلى ذلك بقوله:

لكنه لا يستقيم أمرهـــم		ولا يذاد كيدهم ومكرهم
إلا باسبـــاغ العطاء فيهـــم		وجعل قواد عليهم منهم

وهناك الكثير من مواقفهم التمردية . (أبوالرجال : الروض الزاهر (خ) : ٢/ ق ١٢١ب ،٣/ ١٤٩ أ ؛ الداعي : الدامغة الكبرى (خ) : ١٧٠/٢ ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٥٤ــ٢٥٥) .

(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٣٣ ب ــ ٣٤ أ .

(**) الكردوس : الخيل العظيمة ، كردس القائد خيله كراديس : جعلها كتيبة كتيبة . والكتيبة الجمع العظيم . ويتراوح عددها ما بين (١٠٠ــ ١٠٠٠) . الفراهيدي (الخليل بن أحمد) : العين ، باب كردس ٥/ ٤٢٦.

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٥١ .

وضمهم إليه واستفاد من خبراتهم لتدريب جيشه التدريب الجيد، وكذا سلّحهم التسليح الجديد حين ذاك (بنادق، سيوف، رماح ، إضافة إلى نفقات إعاشتهم ومرتباتهم الجارية . أما فرقة الفرسان فقد جلب لهم الخيول من خارج اليمن بواسطة محمد علي فايع[1]، وجهزها بالمعدات الحربية المختلفة والفاخرة، فقد قيل إنه كان يطلي ركاب بعض خيول الأمراء بالذهب، وكان يستعرضها حال استقبال الضيوف فيصُفّ الخيل والجنود من ميدان الدار إلى قريب ذمار، وكلها مجهزة بأفخر المعدات الحربية[2]، وكذلك بنى الإسطبلات التي كان سعة الواحد منها لخمسمائة من الخيل، ويبدو أن أكثرها كانت في المدن التي تقع على الطريق من ذمار إلى المخا[3]. لذلك فقد اتصف جيشه بالشدة وقوة البأس وإن هُزموا فيما بعد على يد قبائل الداعي الحسين بن القاسم بن المؤيد.

٢- انتعاش تجارة البُن وما واكبها من التسليح الجديد لحماية الموانئ البحرية والسواحل من القرصنة حيث قام بتحصين القلاع المطلة على السواحل وزودها ببطاريات المدافع، واستقطب بعض ضباط المدفعية من القوات العثمانية المدربة، وكان ينشر الدوريات العسكرية على السواحل الغربية والجنوبية[4].

٣- نفقات الجيوش التي أرسلها للتوسع خارج اليمن، فتم السيطرة على ميناء زيلع في الصومال، وما واكبها من النفقات لبناء القلاع والحصون في تلك المستعمرة الجديدة حتى صارت محطة تجارية حديثة، ومركزاً لجلب الرقيق والعاج ـ كما سبق ذكره ـ

٤- كثرة الحروب التي خاضها لمحاولة إخضاع المشرق وإخضاع الخارجين عليه التي كانت تندلع بين الحين والآخر . فإذا كانت نفقات حرب إخضاع المحطوري ـ السالفة

(١) جحاف : درر نحور الحور العين (خ) : ق ٦٣ب ؛ زبارة : نشر العرف،١/ ٤٠٧ .

(٢) الكوكباني : المواهب السنية (خ) : ٢/ ٦٣، ١٤.

(٣) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص١٥٠ .

(٤) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٥٦ .

ـ مئة وخمسين مليون قرش فما بالنا بنفقات الحروب التي خاضها ضد المشرق والتي زادت على أربعين غزوة[1]؟!

٥- مكافآت أمراء الجند بالمبالغ الجزيلة، من غير الحوالات التي كان يمنحها لهم من العمال، إضافة إلى الإقطاعيات التي كان يمنحهم إياها، وقد رأينا أنه كافأ الأمير الناصر بن عبد الرب بمبلغ(١٤,٠٠٠ قرش)، وفي عام(١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م)أجزل المهدي العطاء للأمير محمد بن الحسين، وحوّل له بمبلغ (١,٢٠٠قرش) من عامل صنعاء، ثم أقطعه بلاد "الشاحذية وحبيش"[2]، وفي العام التالي توجه ابن حبيش من عند الإمام فـ" حوّل له من أهل صنعاء بما لا تكاد تحصره الأقلام"[3].

٣- الأعـــراس :

لقد أشارت المراجع إلى أن الإمام تزوج بعشر نساء[4]، ولعل ولعه بكثرة الزواج كان من ضمن خطته المرسومة من جهة المنجمين والمقربين، أو أنه كان يحب التفاخر، غير أن مؤلف سيرته يشير بأنه مقتدٍ بالرسول ﷺ لغرض استقطاب الزعماء وهذا لا يستبعد أن أغلب زيجاته كانت تهدف إلى استمالة القبائل سواءً لكف الحرب والدخول في الطاعة أو لمساندته في القضاء على معارضيه والخارجين عليه، كما أشار إلى ذلك مؤلف سيرته ملمحاً في مناسبة زواجه من ابنة الرصاص عام (١١٠٨هـ/ ١٦٩٦م) وذلك في قوله: "وانتظم في سلكها من التواصل أمور مهمة، وتضمنت هذه الوليمة

---

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٢٥٣ .

(٢) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) :٢ / ص ١٩ ــ ٢٠ .

(٣) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق٦٣ أ .

(٤) يبدو أن الإمام كان حريصاً على استقطاب رؤساء القبائل بواسطة المصاهرة، لذلك فقد تزوج باثنتين من بنات الرصاص سلاطين البيضاء، ومن ابنة صالح هرهرة سلطان يافع العليا ومن ابنة معوضة بن عفيف سلطان يافع السفلى، ومن ابنة صالح العولقي سلطان العوالق، ومن ابنة ابن المغلس شيخ المعافر، ومن اليامية نسبةً إلى قبائل يام من نجران، ومن آل الجماعي مشائخ بعدان، وكذا من شابة تركية لعلها ابنة أحد أمراء الأتراك، ولم يتزوج من أسرته سوى زوجته الأولى عام ١٠٦٨هـ وهي ابنة العلامة المؤرخ يحي بن الحسين، وواحدة أخرى هي ابنة محسن بن المتوكل إسماعيل .(أبوالرجال : المصدر السابق،٤/ ق ٢٤٢ أ، ب؛ أبوطالب : السحر المبين، ق ٤٥ب، ٥٦ ب، ٧١ب ؛ وطيب الكساء، ص٧٢ ، ٣٤٨؛ زبارة : نشر العرف، ٣٥٩/٢ ؛ العبدلي: هدية الزمن، ص ١٣٣؛ لاروك : المصدر السابق، ص١٤٨؛ يحي بن الحسين: بهجة الزمن(خ):٣/ق ١٦٧ب). .

المباركة خيري الدنيا والأخرى، ونال المسلمون من يمنها وبركتها حصة كبرى، فبها حقنت الدماء، وسكنت الدهماء، وذهب الخوف والفزع، ولاح نجم السعادة وطلع"(١).

ومايهمنا هنا تلك الأموال الجزيلة التي كان ينفقها في أعراسه سواءً أكان صداقاً للزوجات أو نثريات الحفلات الفخمة التي تليق بكل منهن، وعلى سبيل المثال أرسل صداق ابنة السلطان معوضة بن عفيف "حمولة عشرين جمل ذهب وفضة وحلي ولؤلؤ ومرجان وكساء وسلاح ــ بنادق وخناجر مُذهبة"(٢).

أما الحفلات فقد كانت تقام فيها المهرجانات الفخمة وتقال فيها قصائد التهاني(٣)، وتستمر عدة أيام، حتى صارت موضع انتقاد العلماء، التي اتضحت من خلال رواية أبي طالب لحفلة زواج الإمام من ابنة الرصاص السالفة، فظهر فيها "من نفائس الأنفاس ؛ عُمل للإمام تمثال عفريت من القطن ذهب بأموال، وعزم على الهجرة من أجل ذلك العلامة السماوي(*) في ذلك الحال، فأقبل الإمام عند تمام عمله ينظر جلية من الطاق [النافذة] وشخص الناس برؤوسهم تعجباً عليه، فقبض اليافعي(**) المذكور عنه ذلك على لحيته إنكاراً، وقال: ما هكذا فعل كسرى ودارا، واستشعر الإمام من الناس الإنكار، فأمر الإمام بنهب ذلك العفريت، وقال: ما أمرت به؛ على جهة الاعتذار"(٤).

٤- *الضيافات والهدايا* :

وأخيراً نقف على آخر بنود النفقات والذي يكمن في مراسيم استقبال الوفود الخارجية وضيافتهم وإكرامهم بالهدايا، وقد برز منها الكثير مثل: مراسيم استقبال وفود الشاة الصفوي وقد أمر الإمام بتزيين المدن التي على طريقهم من ميناء المخا إلى عاصمته المواهب، وأمر عماله بإكرامهم، ثم أمر أن تُصَفَّ الأجناد والخيل والعبيد من

---

(١) أبوالرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ٤/ ق ٢٣٨أ .

(٢) العبدلي : هدية الزمن ، ص١٣٣ .

(٣) الآنسي : العلم المفرد من إنشاء المثنى أحمد بن أحمد ،(خ) : ص٨٥، ٩٣ ، ١٠١، ١٤٠؛ أبو طالب : السحر المبين،(خ): ق ٣٤ أ ،٤٦ أ، ٥٦ ب؛ وطيب الكساء، ص٢٥٦،٣٠٢،٣٤٢؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٥٧٨.

(*) هو العلامة علي بن أحمد السماوي وقد سبقت ترجمته.

(**) إبراهيم بن أحمد اليافعي (ت:١١١١هـ/١٧٠٠م): الصنعاني المولد والنشأة والوفاة، وكان أحد أدباء عصره البارزين مع ورع وزهد . (الشوكاني: البدر الطالع ، ص ٢٨ ؛ زبارة : نشر العرف، ١/ ٥).

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٩١ـــ ٢٩٢.

المواهب إلى قريب ذمار، وفَرَشَ الطريق بالمفارش الرومية، وعمل مهرجاناً كبيراً حال وصولهم، ومكثوا في ضيافته أربعة أشهر، وأهداهم سبعين خيلاً مجهزة بعدتها والسيوف المحلاة بالذهب، حتى قيل إنهم لو وفدوا إلى غيره من الملوك لعجز عن إقرائهم فما بالك عن الهدايا التي أهداها لهم[1]. ومثلهم وفود والي جدة العثماني[2]، والوفد الفرنسي[3]، وغيرهم الذين سوف نتعرض لهم خلال فصل العلاقات الخارجية .

وعلى كلٍ فإن الفترة التي امتدت ما بين (١١٠٥ ـ ١١٢٤هـ) قد مثلت أوج ازدهار حكم المهدي محمد إذ امتازت بالهدوء النسبي بعد أن تمكن من قمع منافسيه فلم يظهر خلالها أي معارض يعتد به مما هيأ له جو الاستقرار والذي أستغله في إشباع طموحه الكامن في حبه للسيطرة والتجديد لمواكبة العصر الراهن، فكرَّس جهده في محاولة التوسع خارج اليمن، ورغم فشله في مد نفوذه الفعلي على الحجاز منافساً للدولة العثمانية إلا أنه تمكن من السيطرة على ميناء زيلع في القرن الأفريقي وحصنها وجعلها بندراً تجارياً ومركزاً لجلب العبيد منافساً بذلك بعض دول أوربا ومسيطراً على مدخل البحر الأحمر من الجهتين، كما أنه تفنن في بناء المدن والقصور وتجديد الحصون والقلاع وترميم المساجد، إضافة إلى أنه اهتم بتنظيم شؤون الحكم وحاول التجديد فيه والخروج عن قاعدة الأئمة حيث قلد النظم العثمانية في معظم المجالات مثل الوزارة والولايات إلا أن أكثرها وضوحاً ظهر في محاولته تشكيل جيش نظامي مكوناً من العبيد مقلداً جيش الإنكشارية في الدولة العثمانية، وقد حاول الاستغناء به عن الجيش المكون من قبائل المنطقة الشمالية، وقد ظهرت ملامح استغنائه من ذلك التعنت الذي ظهر منه نحوهم مما افسد علاقته بهم فتحولوا بذلك إلى أهم عامل هدم لدولته الذي أضيف إلى عوامل أخرى مثل سوء إدارته وطول فترة حكمه وتقدمه في العمر وتسلط أولاده وغير ذلك من العوامل التي سوف نلاحظها خلال الفصل التالي .

(١) أبوطالب : السحر المبين(خ) : ق ٤٤أ؛ وطيب الكساء، ص٢٩٨؛ الكوكباني: المواهب السنية (خ):٢ ١٤ـــ ١٦.

(٢) أبوطالب : نفسه ، ق ٤٧ أ ؛ وطيب الكساء ، ص٣٠٥ .

(٣) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ١٣٤، ١٤٨ ـــ ١٤٩؛ الصايدي : اليمن في عيون الغرب ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ٦٠ ـــ٦١ (يناير ـــ يونيو ١٩٩٩م) : ص٩٧ ـــ ٩٨ .

الفصل الرابع

مرحلة الاضطرابات ونهاية الحكم

(١١٢٥ – ١١٣٠هـ / ١٧١٢– ١٧١٨م)

أولاً : عودة المعارضة وتكتلها للإ ـاحة بالإمام المهدي :

١. استعادة نشاط المعارضة وتكتلها :

يبدو من الصعب على أي باحث بمكان أن يتمكن من وضع تصور شامل ودقيق للوضع الذي تم خلاله إثارة القلاقل والفوضى مما أدى إلى الإطاحة بذلك الإمام القوي المخضرم، وذلك بدون معرفة أطراف النزاع والغوص في العوامل والأسباب التي قلبت تلك الموازين والتي من الصعب أيضاً الإلمام بجميعها لتداخلها وتضاربها. ولكن سوف يتم محاولة تتبعها قدر الإمكان ورسم صورة واضحة لتظهر الحقيقة التاريخية واضحة وجلية .

لعلنا لاحظنا أن فترة الاستقرار حملت في طياتها عوامل الاضطراب والانهيار أيضاً، وذلك من خلال تلك المتغيرات التي طرأت على علاقة الإمام بأعضاء جهازه التنفيذي ــ إن جاز لنا استعارة هذا المصطلح الحديث ــ المكون من أولاده ومن جميع الفئات: (سادة ، قضاة ، مشائخ ، عبيد) .

فإذا تتبعنا الشخصيات التي شكلت المعارضة وكانت سبباً مباشراً في الإطاحة به لوجدناها من الشخصيات التي عيَّنها الإمام نفسه لمزاولة أعمال مختلفة في الجهاز الإداري ــ رغم ما اشتهر عنه من الاستبداد في الأمر، والتحري في اختيارهم لتلك المناصب ــ وقد اشتهر منهم على سبيل المثال ولد أخيه القاسم بن الحسين ــ قائد جيشه ــ، وولده يوسف ــ عامل ضوران ــ، ومن نفس فئته محمد بن الحسين بن عبدالقادر ــ أمير حجة ــ، وعز الدين القطبي ــ أمير المخلاف السليماني ــ، أما من القضاة فكان أبرزهم الوزير حسين الحيمي، ومن المشائخ : صالح الحريبي ــ كبير الوزراء[١] ــ، وكذا الشيخ ناصر جزيلان ــ زعيم قبائل برط وذُهمة ــ والشيخ علي هادي حبيش ــ شيخ مشائخ بكيل ــ، والشيخ علي الأحمر ــ زعيم قبائل حاشد ــ ومن العبيد الأمير سلمان الذي كان يمثل ذراع الإمام الأيمن. ولكل واحدٍ من هؤلاء أهداف خاصة تختلف عن الآخر، بل كانوا على خلاف فيما بينهم .

(١) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص١٣٠ .

إذاً ما هي الدوافع والأسباب التي جعلتهم يوحدون صفوفهم ويشكلون جبهة واحدة للإطاحة بالمهدي ؟

وقبل الخوض في تلك العوامل والأسباب الدافعة لتشكيل المعارضة يمكن أن نضع في عين الاعتبار أمرين أولهما: قلة الكتابات المعاصرة للحدث والتي لم يتوفر للباحث منها سوى، "بغية المريد" و"السحر المبين" وثالث لمجهول ملحق "باللآلئ المضيئة"، وكلها تعبر عن وجهة نظر المعارضة، وهذا الانحياز يحمل عدة معان منها : أن مؤلفيها كانوا من ضمن المعارضين والمتضررين من حكم المهدي، كما أنهم دونوا الأحداث بعد نجاح المعارضة. لذا فلا بد من التعامل معها بحذر. وثانيهما : أنه لابد من تتبع المتغيرات التي طرأت على الجهاز الإداري وموقف كل فئة منها ليتم استنباط الحقائق حول تلك العوامل والأسباب .

كما أن هناك صعوبة في تحديد أسباب اتحاد المعارضة، لأن كل قوة منها تختلف عن غيرها في الأسباب التي دفعت بها إلى توحيد الصف المعارض، ومع ذلك فإن هناك أسباباً عامة رئيسية تكاد تندرج في مفهومها تحت السبب السياسي والاقتصادي فهما اللذان كونا العامل المشترك الذي التفت حوله أكثر قوى المعارضة، ويمكن تلخيص تلك الأسباب كالتالي :

١. استبداد الإمام بالحكم وطول فترة حكمه لم تترك فرصة لمعظم أمراء الأسرة من المشاركة في السلطة مما أدى إلى البحث عن وسائل متعددة لإزاحته عن طريقهم.
٢. تمكين أولاده من مزاولة المناصب الكبيرة فاستبدوا بالأمور بدون دراية وكفاءة مما أضر بالقوى المشاركة له في السلطة بل والذين اعتمد عليهم في تثبيت سلطته، ومن هنا كان طبيعياً أن يحسوا بالكبت والغبن فحاولوا التخلص من ذلك الكابوس هذا من جهة، ومن جهة أخرى خلق استبداد أولاده روح التذمر فيما بين صفوف المواطنين .

٣. أسلوب التنكيل والمصادرة والسجن الذي استخدمه الإمام مع من شك في إخلاصهم له من كبار موظفيه، ثم يعيدهم بعد ذلك إلى مناصبهم، مما أدى إلى تكريس جهودهم في الانتقام .

٤. أسلوب الازدواجية الذي استخدمه الإمام في سير دفة الحكم، فعلى سبيل المثال لا الحصر فإنه ولىَّ ولده إبراهيم الوزارة عام (١١٢١هـ /١٧٠٩م) وجعل الحيمي وزيراً إلى جانبه مما خلق التحاسد فيما بينهما، فادى إلى اضطراب الوزارة وظهر فشل إبراهيم وانضمام الحيمي إلى المعارضة[١]. ونفس الأسلوب استخدمه مع الولاة والمشائخ ففشلت الإدارة وانعكست أضرارها على الدولة والمواطن .

٥. السياسة المالية والاقتصادية التي اتسمت بكثرة المطالب والمفروضات التي يتم تقاضيها من المواطن فكانت تزيد أحياناً على محصوله الزراعي ناهيك عن الأسلوب الشديد الذي كان يستخدمه الجباه حال تحصيلها، إضافة إلى اختلاق الخدع والحيل ليصبح المواطن مكبلاً بالديون للدولة، فيضطر إلى بيع أطيانه ويجمع قوت يومه من النهب والسلب وقطع الطرق .

وبغض النظر عن نظرية المذهب في الإمامة والداعي للخروج على الحاكم (الإمام) الظالم فالحقيقة إنه يحمل بين طياته ملامح الاضطراب حيث يبحث الطامحون عن هفوات الإمام القائم ليعلنوا خروجهم عليه تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن المهدي لم يأبه بهذا أو غيره بل مضى في الاستبداد بالأمر وحسم الخلاف بحد السيف ونكّل بجميع معارضيه وزجهم في السجون بعد انتصاره عليهم عام(١٠٩٨هـ/ ١٦٨٧م) وشكّل جهازاً إدارياً تحت طوعه[٢]. غير أن هذا لا يعني انتهاء المعارضة بتاتا، "فقد بقي منهم غير واح ، كما ظهر من بين أبنائهم أكثر من طامح يحصي على الإمام أخطاءه، ويلهج بسوء التصرف وفساد الإدارة والحاشية"[٣]، وما كان هدوئهم في فترة الاستقرار إلا نتيجة طبيعية لشدة سطوة الإمام وخوفهم من بطشه لعدم امتلاكهم

(١) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٦٥ب ؛ طيب الكساء ، ص٣٣٠ .

(٢) راجع ما سبق : مرحلة تثبيت الحكم ، ص ٨٩ وما بعدها .

(٣) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ٩٩ .

الإمكانيات اللازمة لصده، لكنهم عملوا خلال تلك الفترة الطويلة ــ التي امتدت عشرين عاماً تقريباًــ على تأهيل أنفسهم وأبناءهم ونخروا في جسم الدولة حتى إذا ما ضعفت سيطرة الإمام ظهرت على الساحة منددة بالوضع مستثيرة لكل القوى لتحفزها في الانضواء والقتال تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكانت تولية الإمام المناصب لأولاده أول نقطة ضعف تظهر على شخصية الإمام مع تقدمه في العمر وطول فترة حكمه، فظهر على أولاده فسادهم الإداري وعدم صلاحيتهم ومحاولتهم الاستبداد بالأمور، وغلب عليهم الكبر والعنجهية وعدم الكفاءة، بل نشب التنافس والحقد فيما بينهم، ولم يكن فيهم الشخصية القيادية القوية، وكل ذلك أدى إلى تقليص أدوار القيادات السابقة وتهديد مصالحهم بل وأصبحوا معرضين لبطش الإمام متى ما شك في ولائهم، الأمر الذي حتّم عليهم الدفاع على كيانهم والحفاظ على أنفسهم فبحثوا عن شخصية يضمنوا بواسطتها حقوقهم وسلامة أرواحهم، فاستغلوا ذلك التنافس الذي دبّ بين أولاد الإمام مما حوّل البلاط الإمامي إلى مسرح مؤامرات فيما بينهم حتى صارت لهم مهنة، كما أشار إلى ذلك العلامة ابن الأمير حين زار المواهب عام (١١٢٥هــ / ١٧١٣م) في مقطوعة شعرية نقتطف منها هذا البيت :

حرفت الساكنين فيها نفاق ... واختلاق بالنميمة يسعى [(١)]

ولعلنا ندرك أن بوادر تلك المؤامرات بدأت تظهر منذ تولية الإمام ولده "محسن" الوزارة إلى جانب الحريبي عام(١١٠٩هــ/ ١٦٩٨م)، وهذا ما غاض أخاه يوسف ابن الإمام من جهة، فأخذ يُدبر الحيلة ــ حال مرض والده ــ في أخذ البيعة ليوسف بن المتوكل، مما أدى إلى الوشاية به لدى والده الذي زجَّه في السجن مع مولاه سلمان عام (١١١٠هــ / ١٦٩٩م)[(٢)]، ومن جهة أخرى فقد أمتعض الوزير الحريبي من مشاركة المحسن له في الوزارة، ولعل الأخير تدخل كثيراً في تقليص دور الحريبي الأمر الذي يعطينا تفسيراً معقولاً لطلب الحريبي من الإمام ولاية بيت الفقيه عام(١١١١هــ

(١) غالب وآخرون : ابن الأمير وعصره ، ص٣٣٤ .

(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٣٥ب ، ٣٦ب ؛ وطيب الكساء ، ص٢٦٨ .

/ ١٧٠٠م) بحجة إنه سيورد للإمام الأموال الكثيرة، وبذلك تخلص من براثن المؤامرات، وترك الدور لصديقه الحبيشي الذي يبدو أنه كان أكثر قدرة منه على التآمر، حيث شكلً تحالفا مع ولدي الإمام يوسف وإبراهيم ضد المحسن فتمكنوا من الإيقاع به عام (١١١٦هـ/ ١٧٠٤م)[1] .

وقد رأينا أن الحبيشي ويوسف كانا سببا في فقدان ولاء الشيخ صالح بن هادي حبيش ــ زعيم حاشد وبكيل ــ الأمر الذي أدى إلى اضطراب المنطقة الشمالية وخروج قبائلها بقيادته عن الطاعة وإثارة المتاعب في وجه الإمام مما أدى إلى ضعف الدولة المركزية ــ كما سبق ذكره ــ إضافة إلى أن الحبيشي كان سبباً في اضطراب المشرق وهجومهم على مدينة "إب" سالف الذكر . ولكن سرعان ما تحول تحالف الحبيشي ويوسف وإبراهيم إلى عداوة ، فقد استمر الأخوان في الدس على الحبيشي حتى زجَّ به الإمام في السجن بعد التنكيل به ومصادرته عام(١١٢١هـ/ ١٧٠٩م)[2].ثم نشب العداء بين يوسف وإخوته حتى تغلبوا عليه مما جعله يلوذ بالفرار وينضم إلى لمعارضة.

وخلال تلك الفترة توسع الحريبي في ولايته التي امتدت إلى أغلب مناطق سهل تهامة من اللحية شمالا إلى عدن جنوبا، وذاع صيته داخل اليمن وخارجها ، وكثُرت ثروته، وكاد أن يستقل بالحكم ولعل رسوخ فكرة عدم صحة الحكم من خارج ذرية البطنين هي التي منعته من إعلان الاستقلال بالتهائم ــ كما مر ذكره في الفصل السابق ــ، لذلك بحث عن الشخصية التي يضمن بها مصالحه والتي وجدها في شخص القاسم بن الحسين حال زيارته للإمام عام(١١١٧هـ/ ١٧٠٥م)[3] ولعله دار بينهما بعض المفاوضة والاتحاد الذي لم يظهر جليا إلا بعد أربع سنوات من التاريخ المذكور وذلك حين تولى الحريبي منصب كبير الوزراء عام (١١٢١هـ/ ١٧٠٩م)، الذي لم يطمئن إليه لشدة المكر الذي كان يحاك ضده رغم ما بذله من الأموال لإسكات الأفواه، لذلك فقد كان أول عمل يزاوله في المنصب الجديد أن وزّع أولاد الإمام عمالاً على الولايات

(١) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٣٩ أ ، ٥٢ أ ــ ب.

(٢) نفس المصدر : ق ٦٤ أ .

(٣) أبوطالب : السحر المبين (خ): ق ٥٥ أ .

ليبعدهم عن بابه، ويستفرد بالإمام، ثم أكَّد على التحالف مع القاسم بن الحسين ــ ابن أخي الإمام ــ على أسقاط الدولة [1].

وهكذا انشغل الإمام وأولاده وحاشيته عن تدبير شؤون الحكم بإحاكة المؤامرات فيما بينهم مما أدى إلى ضعف الدولة، واشتدت وطأت العُمَّال على الرعية، وظهر التذمر، وبرزت النزعات الاستقلالية بدعوة الحسين بن علي بن أحمد في صعدة، وعصيان القطبي في أبي عريش ثم انضوائهم تحت دعوة الحسين بن القاسم الشهاري .

أما القاسم بن الحسين فقد برز دوره القيادي وطموحه منذ عمالته على "خمر" و"حبور" عام (١١١٢هـ /١٧٠٠م) حيث تمكن من إقرار الأمن فيها وامتدت يده إلى ولاية علي بن أحمد مما أثار خوف الأخير فشن الكيد عليه لدى الإمام حتى عزله عنها، لكنه ولاَّه "قعطبة" عام (١١١٤هـ /١٧٠٢م) فتمكن من تثبيت قواعد الدولة في المشرق ، ثم نقله المهدي إلى ولاية "يريم" عام (١١١٨هـ / ١٧٠٦م)[2]، وفي العام التالي أرسله قائداً للجيش وعاملاً على "عمران" والمنطقة الشمالية لقمع تمردهم، فاظهر جدارته ــ كما رأينا ــ، الأمر الذي أثار حسد أولاد الإمام عليه بل وخوف الإمام نفسه من طموحاته "لما يرى من ميل الناس إليه وعلو همته وترشيحه للخلافة"[3]، مما جعلهم يحيكون المؤامرات ضده، فحاول ــ الإمام ــ الحط من شأنه تارة بتوقيفه عن العمل[4]، وأخرى بزجه في السجن[5]، لكن القاسم أدرك ذلك مبكراً فعمل على تحصيل ركائز له داخل البلاط وخارجه، حيث تحالف مع الحريبي كبير الوزراء، ومع الوزير الحسين الحيمي، ومع أمراء بعض الولايات، ومع العلماء والساخطين، وبذلك أفسد على الإمام "جميع الرؤساء وأعيان الدولة"[6]، ثم بحث عن الشخصية الدينية التي يخفي

---

(١) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٦٦ أ ، ٧٦ أ ؛ طيب الكساء ، ص ٣٣٠ .

(٢) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٤٢ب ، ٤٨ أ ، ٥٧ أ ؛ طيب الكساء ، ص٢٩٢ ــ ٢٩٣، ٣٠٧.

(٣) الشوكاني : البدر الطالع ، ص٥٦١ .

(٤) العابد : تهذيب الزيادة في تاريخ الأئمة السادة ، ص١٩٨ .

(٥) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٦٨ب ، ٧٠ أ .

(٦) الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره (خ) : ص١٢٨ .

وراءها طموحه ويكسب بواسطتها بقية القوى الشعبية الساخطة والمتذمرة ليسهل عليه الإطاحة بعمه الإمام الكهل .

لقد وجد القاسم بغيته في شخصية الحسين بن القاسم ابن المؤيد المولود في شهارة في اليوم السابع من شهر محرم [1] عام (١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩/٦/٦م)[2]، ومن المؤكد أنَّه كان حاقداً على المهدي محمد لأنه أختطف والده من شهارة وزج به في سجن صنعاء عام(١١٠٢هـ/ ١٦٩١م) ، وبعد عشرة أعوام[3] تم إطلاقه بشفاعة الحسين هذا ليبقى تحت الإقامة الجبرية في صنعاء، لهذا فلا يستبعد أن الحسين كان يتحين الفرصة للانتقام . فسعى في تأهيل نفسه "وتنقل مراراً لطلب العلم"[4] حتى اشتهر بغزارة علمه[5]، واتخذ الزهد شعارا له حتى نسبت إليه الكرامات والخوارق[6] ــ وهذه من أنواع الدعايات التي كان يختلقها الطامحون للإمامة .

ويبدو أن الحسين تبادل الرسائل مع القاسم بن الحسين حين تمردت قبائل الأهنوم على ولد أخيه ــ محمد بن علي بن الحسين ــ عندما أرسله عاملا على شهارة عام(١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م)، فتم الخوض بينهما في شأن القيام على الإمام "بواسطة بعض الأعلام من حبور"[7] وهذا ما جعله يشحذ همته منذ ذلك الوقت، فتنقل بين القرى والمدن يُعرّض بمفاسد الدولة ويحثهم على التعاون في القيام وإصلاح الوضع وبذلك أفسد على الإمام "بلاد القبلة وسائر العلماء"[8].

---

(١) العابد : تهذيب الزيادة في تاريخ الأئمة السادة (خ) : ص ٢٠١ .

(٢) زبارة : نشر العرف ، ٦٠١/١ .

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٢٩٥.

(٤) العابد : المصدر السابق ، ص٢٠١ .

(٥) الحوثي : نفحات العنبر (خ) : ٨٨/١ أ .

(٦) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٤٤٩ .

(٧) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٧٠ ب .

(٨) الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره (خ) : ص١٢٨ .

أ. تحالف قيادات المعارضة والعمل الموحد :

من المؤكد أن أخبار تلك الحركات كانت تصل إلى الإمام لذلك فلم يُستبعد أن يختلق مشكلة في شؤون بلاد الروس(*) التي أقطعها الإمام للقاسم بن المؤيد ـ ولعل هذا جاء كمناورة أولى لتهديد الحسين ووالده، الأمر الذي جعل الحسين يذهب لزيارة والده في صنعاء، ومنها تقدم في عام (١١٢٣هـ/ ١٧١١م) لزيارة الإمام لمراجعته في شأنها(١)، وقيل إن الإمام أشار على عامل صنعاء بان يُحسِّن للحسين زيارة الإمام فأسعده إلى ذلك، لكن الإمام لم يُحسن استقباله وحطَّ من شأنه الأمر الذي جعله يحسُّ بالخطر، وقيل إنهم أشعروه بأن الإمام عازم على حبسه فأوجس في نفسه خيفة وغادر المواهب ليلاً عائداً إلى صنعاء، وفيها عقد اجتماعا سرياً حضره كبار الشخصيات من آل القاسم منهم العلامة زيد بن محمد بن الحسن، والعلامة عبدالله بن محمد بن الحسين، واثنين من ذوي التجارب السابقة والمتبقين ممن نكل بهم المهدي وما زالا تحت الإقامة الجبرية وهما : يوسف بن المتوكل إسماعيل والقاسم بن المؤيد ـ والد المذكور ـ . فتم مناقشة فساد إدارة المهدي محمد وتسلط أولاده وحاشيته، ثم دعاهم الحسين للقيام بالدعوة في وجه المهدي، فاعتذروا وبرروا مواقفهم، لكنهم أشاروا عليه بالقيام "كونه في البلاد التي جنابها مرعي"(٢) أي البعيدة عن متناول يد المهدي، وهنا أخذ منهم المواثيق والعهود على "ألاّ تكون منهم معارضة، بعد الخوض [في]هذا والمفاوضة، فرفعوا عنه اللبس، وبذلوا ما طابت به منه النفس"(٣). ثم خرج من صنعاء في تلك الليلة وعاد إلى شهارة .

ولقد طلبه المهدي في اليوم الثاني لكنهم أفادوه بأنه قد سافر، حينها كتب إلى القاسم بن الحسين يأمره بالقبض عليه، الذي أرسل بدوره بعض الجنود لقبضه حسب

(*) بلاد الروس : جنوب صنعاء بنحو ٣٠كم، وتضم عدة قرى منها وعلان وخدار وعافش والعُبَس وذي يسان وغيرها . (معجم الحجري ، ٣٧٢/١ . معجم المقحفي : ١/ ٧٠٩).

(١) الحوثي: نفحات العنبر: ١/ ق ٨٨ ب؛ أبوطالب: طيب الكساء، ص٣٣٨؛ الجنداري: الجامع الوجيز: ق ١٧٠أ.

(٢) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٣٨ .

(٣) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٧٠ ب .

توجيهات الإمام فلما وصل لمقابلته في "وادعة" "بقي عنده نحو يومين وختم الكلام بينهما على دعوة الحسين"(١)، ودخل في هذا الحلف ابن جزيلان(٢)، ثم أذن للحسين بالعودة إلى شهارة، في حين ردَّ على عمه المهدي "أن هذا الرجل لا التفات له إلى إمارة، وإنما هو مشغول بالتدريس"(٣) حينها علم المهدي أن الأمر خطير فأمر بتجريد القاسم من قيادة الجيش وزج به في سجن صنعا، وفرض العقوبات المالية وغيرها على أصحابه (٤). عند ذلك بدأت حركات الحسين الجدية .

٣. التحالف مع أميري أبي عريش وصعدة والاستعانة بالقوات العثمانية :

يبدو أن الحسين تجدد نشاطه وفي نفس الوقت عَمِل الإمام في القبض عليه الأمر الذي أخاف الحسين من الاستقرار في شهارة مما جعله يقرر السفر لأداء فريضة الحج، والبحث عن المزيد من الأنصار، ومن المؤكد أنه سار من طريق "صعدة" وزار أميرها الحسين بن علي بن أحمد أبوطالب ــ ابن خاله(٥) ــ الذي كان قد دعا لنفسه بالإمامة وتلقب بالمؤيد عام(١١٢١هـ/ ١٧٠٩م)(٦)، فطرح عليه موضوع الدعوة، فأبدى الحسين بن علي هذا استعداده لمساندته بل إنه تنازل له بالإمامة وسلَّم له كل مقاليدها ــ كما سنرى ــ .

بعد ذلك توجه الحسين بن القاسم إلى مكة المكرمة وهناك قابل عبدالله بن أحمد بن المتوكل إسماعيل الذي فرَّ من سطوة المهدي إثر فشل التمرد الذي أعلنه عام (١١١٧هـ /١٧٠٥م)، وكان قد تعرّف بواسطة بعض تجار اليمن على نصوح باشا(*)

---

(١) جحاف : نقلاً عن : زبارة : نشر العرف ، ٢/٣١٩ .

(٢) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٦٩ ب .

(٣) أبوطالب : طيب الكساء، ص٣٣٨ .

(٤) جحاف نقلاً عن : زبارة ، نشر العرف ، ٢/٣١٩ .

(٥) العابد : تهذيب الزيادة ، ص٢٠٢ .

(٦) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ، (خ) : ٣/ ص٦٧٨ .

(*) نصوح باشا: من بدو مصر الأقوياء وقد ذاع صيته وعلا شأنه حتى تسلط على والي مصر مما جعل الدولة العثمانية تسعى في تأليفه، ولشدة سطوته فقد جعلوه أميراً للحج، وكان له كلمة مسموعة لدى الأبواب السلطانية، وكان بينه وبين ابن مصان معارك عدة انتهت بمقتل صاحب الترجمة عام ١١٢٤هـ/١٧١٢م.(ابن عامر: بغية المريد (خ) : ص٤٤٦ ؛ أبوطالب: السحر المبين(خ): ق ٧٠ب ؛ الكبسي: اللطائف السنية، الجيل الجديد ، ص ٣٩١).

ـ أمير الحج الشامي ـ وطرح عليه مشكلة تسلط الإمام وفساد حكمه "وأنه يريد من السلطان النصرة والقيام بدوره ضد استبداد الإمام المهدي، فوعده بخير"[1]، ولما وفد الحسين في عام (١١٢٣هـ/ ١٧١١م) جاء به لمقابلة نصوح باشا ليؤكد ما أخبره به سابقا، وليخبره بمستجدات مظالم الإمام ومفاسده، ليعمل على التعاون معهما، لكنه "أمرهما أن يجعلا مكتوباً إلى السلطان، ويوضحا فيه ما عندهما من أحوال اليمن" [2] .

ولعل الطموح كان قد ساور نصوح باشا حتى قيل إنه عزم "على أن يخرج إلى اليمن عامه الآتي"[3] . لكن مخابرات الإمام سرعان ما أرسلت إليه بذلك المتفق، الأمر الذي أقلق الإمام من التدخل العثماني مما جعله يرسل إلى صديقه ابن مصان[*] "بألف مشخص أحمر[4] وعرّفه بما يريد نصوح باشا من الخروج إلى اليمن، فجمع ابن مصان جموعه، ولقي نصوح باشا في طريق مصر وقتله، وقتل كثيراً من أصحابه"[5]. وتمكن الإمام بذلك من إحباط أكبر المحاولات الخطيرة للمعارضة .

وفي طريق عودة الحسين من مكة عرج على الأمير عزالدين القطبي أمير المخلاف السليماني وهو بمركز ولايته ـ أبي عريش ـ وطرح موضوع دعوته عليه، وكان الأمير ذو نزعة استقلالية، وقد تعرض لسجن الإمام أكثر من مرة لتردده في الولاء

(١) ابن عامر : نفس المصدر (خ): ص ٤٤٦ .

(٢) الكبسي : اللطائف السنية ، طبعة الجيل الجديد ـ صنعاء ، ص ٣٩١-٣٩٢.

(٣) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٧٠ ب ـ ٧١ أ.

(*) ابن مصان وفي بعض المراجع ابن مضيان: وهو زعيم قبيلة بني حرب التي تعيش بين ينبع والمدينة المنورة وأطراف مكة والطائف، وكانت تكلف بنقل الجراية المرسلة من مصر إلى المدينة، كما كانت تحرس تلك المنطقة، ومقابل هذه الخدمة كانت الدولة العثمانية تخصص لهم صرة سنوية . ويبدو أن هذه القبيلة كانت كثيرة وقوية حيث كان زعيمها هذا من المتسلطين على الولاة العثمانيين، وقد اتضح ذلك من تهديده لوالي المدينة حين منع أحمد بن الحسن من دخولها لزيارة مقام الرسول (ص) عام ١٠٦٢هـ فكتب إلى الوالي يهدده إما أن يتركه يدخل للزيارة وإلا ليدخلنه المدينة بنفسه في مئة ألف سيف. فأذعن الوالي وأذن للمذكور بالزيارة. (ابن عامر: بغية المريد ، ص ٤٤٦ ؛ أبوطالب: طيب الكساء ، ص٣٠ ؛ الكبسي: اللطائف السنية، طبعة الجيل الجديد ، ص ٣٦٢-٣٦٣ . ٣٩٢٢٦٨ ، ٢٩٠؛ جارشلي: أمراء مكة في العهد العثماني، ص١١٩ حاشية) .

(٤) مشخص أحمر : عملة ذهبية معدنية.

(٥) الكبسي : اللطائف السنية ، طبعة الجيل الجديد ، ص٢٩٠

وكثرة تمرداته [1]، ولعل محاولته الأخيرة للاستقلال كانت في بداية عام(١١٢٤هـ/ ١٧١٢م) إلا أن الإمام أرسل عليه جيشاً مكوناً من حوالي (٣٠٠٠) مقاتل تمكنوا من قمعه[2]، ومكث بعض الجنود في قلعة أبي عريش[3] تأكيداً على خضوعه، لذلك كانت وفادة الحسين عليه بمثابة فرصة لتحقيق طموحه "فقال : هذا متطلبي وغاية مأربي"[4] ووعده الإجابة متى دعا، بل "وعاهده على مناصرته بنفسه وماله"[5]، وبذلك ضمن الحسين ولاء ومساندة أمراء المنطقة الشمالية من صنعاء إلى نجران، مع ما واكب تلك الحركات من ظهور موجة تذمر وسخط عارمة بين صفوف قبائلها وتطلعهم إلى ثائر جديد يصلح تلك الأوضاع المتردية .

٤. إعلان الدعوة وبداية الحركات العسكرية :

يبدو أن الحسين بن القاسم بن المؤيد "راسل الموتورين الناقمين على حكم المهدي من آل القاسم"[6] وغيرهم ممن أتصل بهم وأخبرهم بالعهود والمواثيق التي أبرمها خلال رحلة حجِّه، وأن الوقت قد حان لتفجير الثورة وذلك حال وصوله شهارة، وفي الوقت نفسه كان الإمام قد طلب بعض مشائخ الأهنوم أهل شهارة واستمالهم بالأموال الكثيرة وأمرهم بالقبض عليه[7] ـ كما فعل بوالده من قبل ـ الأمر الذي أخاف الحسين مما جعله يخرج من شهارة متخفياً ليبحث له عن مكان آمن، فمر بالهَجَر ـ شمال شهارة ـ وأخذ العهود من أهلها، ثم تقدم إلى " قطبين"[8] إحدى قرى قفلة عذر من حاشد وبات فيها ثلاثة أيام يستوثق من أهلها[9]، ومنها سار إلى قرية "هبة"

(١) مجهول: ملحق اللآلئ المضيئة(خ):٣/ ٦٧٧ ؛ أبوطالب: السحر المبين (خ): ق ٣٥ أ، وطيب الكساء، ص٢٦٢.
(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص١٤٧ .
(٣) ابن عامر : بغية المريد ،(خ): ص٤٥٤ .
(٤) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٧١أ .
(٥) الحوثي : نفحات العنبر ،(خ) :١/ ق ٨٨ ب ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٤٢.
(٦) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص١٠٠ .
(٧) ابن عامر : بغية المريد ، ص٤٤٨ ؛ أبوطالب ، طيب الكساء ، ص ٣٤٣ .
(٨) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة (خ) : ٣ / ٦٧٩ .
(٩) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٤٣ .

المجاورة لبلدة "العِشّة" وتسكنها قبائل العُصيْمات من حَاشد، فمكث بها بضعة أيام وبدأ دعوته منها[(١)]، والراجح أنه حط ركابه عند قبيلة منها تسمى ذو سَلاَّب – لا تبعد عن القرية كثيراً – وذلك حين وجد مأمنه لدى الشيخ مُفلح السَّلابي الذي آواه ووهب له حصنه المسمى "مَرْكبان" الواقع شمال شرق مدينة شهارة ويبعد عنها بنحو (٤٠كم)، وكان مكان خالٍ لا يأوي إليه سوى رعاة الأغنام، فجدده الحسين وعمره وأعلن منه دعوته يوم الاثنين (٥/ ذي الحجة ١١٢٤هـ / ٢/ يناير/ ١٧١٣م) على أرجح الروايات[(٢)]، وتلقب بالمنصور .

يظهر أن رسل الحسين كانوا من السرعة بمكان فلم يصل إلى مقر دعوته حتى وصلته بعض إمدادات آل القاسم، حيث وصل إليه – أثناء تنقلاته بين قبائل عِذَر – الداعي محمد بن علي الغرباني – ذو الدعوات المتكررة منذ عهد المتوكل إسماعيل – رسولاً من جهة الحسين بن علي أبوطالب فمده بأموال، والأهم من ذلك أنه تنازل عن دعوته وأرسل للحسين مقاليد الإمامة وهي عبارة عن "مظلة وحصان وريح[(*)] وذهب قام بالأغراض، وأرسل حتى الدواة فيها الأقلام مبروه والسيلقون[(**)] والبياض"[(٣)] . ثم أقنع أهل ولايته بالدخول تحت طاعة المنصور هذا وأستعد لخوض غمار الحرب مع المنصور ضد الإمام المهدي .

ومن الطبيعي أن تأتيه الوفود والأنصار من جميع المناطق الشمالية الشرقية منها والغربية بعد توزيع مرسوم دعوته الذي وضح فيه المبررات التي دفعته لإعلان دعوته،

---

(١) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ) :٣/ ٦٧٩ .

(٢) ذَكَر إبراهيم بن القاسم – أخو الداعي – في طبقات الزيدية الكبرى : تحقيق الوجيه ،٣٧٩/١ ، أن الدعوة تمت في ٥ ذي الحجة ١١٢٥هـ ، والراجح ما تم إثباته بإجماع بقية المراجع المعاصرة للحدث وإن اختلفت في تحديد اليوم .(ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٤٤٩ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ) : ٣/ ٦٧٩ ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٤٤) .

(*) ريح : اسم لآلة الموسيقى العسكرية حالياً وكانت تسمى النوبة وهي عبارة عن طبل وطاسة .

(**) السيلقون: تحمل عدة معان ولعلها هنا بمعنى: السيف والدرع. (ابن منظور: لسان العرب: ١٠/ ١٥٩، مادة سلق)

(٣) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ١٧١ أ .

والتي تكمن في كثرة المظالم والفساد وانتهاك المحارم وضياع حقوق الضعفاء ومصادرتهم وتشريدهم من البلاد [1].

ومن المؤكد أن الأحداث الدامية التي تعرضت لها تلك المناطق خلال السنوات الأخيرة مضافاً إليها تنقلات الحسين بين مدنها وقراها قد هيأتها لتقبل الدعوة الجديدة والتطلع إلى التجديد، فما إن وصلتهم دعوة الحسين حتى أعلنوا الطاعة والمناصرة ، فتحركت الدعاية الإعلامية وانطلقت الألسن تلهج وتُشيد بفضل الحسين وعلمه وورعه، فشاع خبره في النواحي والأقطار[2]، حتى "تسب العوام إليه خوارق الكرامات من شدة الشغف"[3]، والتفوا حوله وتبركوا به[4]، ووصلت النذور والهبات وانساقت إليه من جميع الجهات[5]، وسلَّموا إليه الواجبات [6].

أما موقف المناطق الجنوبية والشرقية فقد اختلف قليلا عن المناطق المذكورة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى قربهم من الإمام وخوفهم من بطشه، ولعدم اجتماعهم بالداعي لطرح شروطهم في الإجابة ! لذلك اختلفت مواقفهم حال وصول دعوة المنصور إليهم "فمنهم من أجابه على خفية من الإمام الناصر ومنهم من ترك الجواب ومنهم من قبلها وأرسل بها إلى الإمام الناصر"[7] .

ولما أطلقت مدافع شهارة قذائفها استبشاراً بدعوة الحسين سمعت الولايات المجاورة دويها فأشعل أهلها النيران دليلاً على الدخول في الطاعة، ثم وثبوا على عمال الإمام المهدي الذين انقسموا إلى فريقين فمنهم من أنضم إلى الداعي ومنهم من فارق محل ولايته، مثل والي حَبور الذي تركها فاستولى عليها الحسن بن القاسم بدون قتال،

---

(١) انظر : مرسوم دعوته : الملحق وثيقة رقم (٥) .

(٢) العابد : تهذيب الزيادة في تاريخ الأئمة السادة ، (خ) : ص ٢٠٢ .

(٣) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٧١ ب .

(٤) الحوثي : نفحات العنبر ، (خ) : ١/ ق ٨٨ ب .

(٥) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ، (خ): ٣/ ٦٧٩ .

(٦) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص ٢٥٧ .

(٧) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٤٤ ؛ العابد : تهذيب الزيادة (خ) : ص٢٠٣

وكذا بلاد الشَّرف التي استولى عليها زيد بن علي بن القاسم وتم القبض على عاملها ثم أطلقه بشفاعة قبائل الأهنوم[1].

لقد التف حول الداعي الجديد لمناصرته الكثير من الناس منهم الصادق المخلص ومنهم الساخط الناقم على الإمام ومنهم الطامح إلى تولي المناصب والقيادات ومنهم الطامح لجمع الأموال والنهب والسلب، ومن هنا دخلت البلاد في حرب (أهلية) استمرت ست سنوات بين شد وجزر تثور في منطقة وتهدأ في أخرى .

ولما اكتملت دعوة المنصور حسين أرسل قياداته للاستيلاء على المناطق القريبة فاستولى أخوه الحسن على "حَبور" واستولى أخوه يحيى على "السُّودة" كما استولى ابن أخيه زيد بن علي على بلاد الشَّرف (المحَابِشَة) وهرب منها عاملها علي بن مهدي الشامي ومحطته إلى مَبْين حَجَّة [2] .

وفي الوقت نفسه الذي بذل فيه المهدي الأموال لاستمالة مشائخ المنطقة ليضعفوا شوكة الداعي والعمل على القبض عليه قام بتجهيز حملات متتالية لقمعه وقمع حلفائه الشماليين وإخماد تمردهم، ففتح الحرب في جبهتين : فنجحت قواته في الأولى وهي إخماد تمرد القطبي في المخلاف السليماني وإضعاف تمرد صعدة، لكنها فشلت في قمع ثورة الداعي كما سيتضح لاحقاً .

٥. إخماد تمرد أميري المخلاف السليماني وصعدة :

هناك خلافات طفيفة في روايات معاصري حدث قمع القطبي والأرجح أن الإمام كان شديد الحذر من نزعة القطبي الاستقلالية، لذلك فقد رأيناه سابقاً كيف وضع بعض العساكر رتبة في قلعة أبي عريش لمراقبة تحركات الأمير وذلك بقيادة الأمير بخيت شلخ، وكما هو مألوف من سياسة الإمام الازدواجية فلا يستبعد أنه وضع قريناً لمنافسة الأمير القطبي يكمن في الأمير حسين بن أحمد المرتضى ـ من نفس الفئة ـ الذي

---

(١) أبوطالب : نفس المصدر والصفحة .

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة، (خ) : ٣ / ٦٧٩ .

أسرع إلى الإمام يخبره بالاتفاق السالف الذي تم بين القطبي والداعي[1]، وبأنّ القطبي جمع أهل ولايته وبعض أصحاب الحسين بن علي وأراد الاستيلاء على قلعة أبي عريش[2]، فما كان من الإمام إلا أن جمع فرق الجيش من البنادر وأجزل لهم العطاء وأحسن تعبئتهم وأرسلهم صحبة المرتضى، وأمر عمال تهامة بالانضمام إليهم وتمويلهم[3]، ثم أمر الجميع بالقضاء على القطبي "لأنه منشأ هذه المفاسد وأعظم فتنة من الداعي" حسب زعم الإمام [4].

ولما علم الأمير القطبي بتوجه ذلك الجيش الكثيف استنجد بأمير صعدة الحسين ابن علي أبوطالب، وكذا بالداعي الحسين بن القاسم، "وأطمعهما في أخذ الجيش المتوجه عليه"[5]، فلم يكن هناك أية إغاثة من الداعي، ولعله كان مشغولا بالتجهيز على المناطق القريبة أو لافتقاره إلى الأنصار لأنه في بداية دعوته . أما الحسين بن علي فقد أغاثه بكل ثقله حيث أرسل بحملة مكونة من قبائل خولان صعدة وقبائل سحار كمقدمة لحملته التي قادها بنفسه، فقاتلوا مع القطبي حتى هُزِموا بهزيمته فمنهم من تراجع إلى المعنق ومنهم من تحصن مع القطبي في قلعة الدامغ[*] التي التف حولها جيش الإمام وضربوها بالمدافع وحاصروها، حينها أسرع الحسين بن علي على رأس حملة جلها من قبائل رازح لفك الحصار عن القطبي وأمر أخاه قاسم بان يجمع قبائل خولان ويتبعه، لكنه خذله وتثاقل عن التقدم "لشيء في نفسه على أخيه"[6]، نظراً لميله إلى الإمام المهدي ــ كما سنرى ــ، أما الحسين بن علي فقد وصل بتلك الحملة إلى قريب قلعة الدامغ محاولاً فك الحصار عن القطبي غير أنه لم يتمكن لكثرة جنود المهدي

(١) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة (خ) : ٣/ ٦٧٨ .

(٢) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص ٤٥٤.

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ٣٤٥ ــ ٣٤٦ .

(٤) الحوثي : نفحات العنبر ،(خ) : ١/ ق ٨٩ أ .

(٥) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٤٦ .

(*) قلعة الدامغ : هي قلعة شيدها عزالدين القطبي في وادي خلب المانق واستقر بها وجلب إليها التجار وأهل الحرف عام ١١٠٥هـ وذلك على غرار قلعة الدامغ التي شيدها الحسن بن القاسم في ضوران آنس ولعله شيدها استعداداً للتمرد . (مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ، (خ) : ٣/ ٦٧٨) .

(٦) مجهول : ملحق اللآلئ ، (خ) : ٣/ ٦٧٨ .

المحدقين بها، والذين توجهوا لحرب الحسين نفسه فوقعت بينهما معركة جسيمة انجلت عن هزيمة الحسين ومقتل الكثير من أصحابه كان أخيه إسماعيل من ضمنهم، وقد انسحب على إثرها إلى رازح فلبث بها بضعة أيام، "ثم صار إلى صعدة وقد اشتد به الكمد وانقطع لشدة الحرارة التي ألمت به، فمات قهراً، ويقال إنه دسّ له السم بيد بعض الأشراف"[1] بتدبير من إبراهيم بن المهدي[2] .

أما القطبي فقد يأس من المعين بعد وفاة الحسين بن علي وانسحاب أصحابه من القلعة ليلاً بعد طول حصار دام نحو تسعة عشر يوماً ابتداءً من يوم الأحد (٣محرم ١١٢٥هـ /٢٩ / يناير ١٧١٣م) [3]، لذلك خاض في الصلح بالتسليم بشروط منها الأمان، فكتب الأمير سرور فقيه ــ عامل اللحية والزيدية ــ [4] بشروط القطبي إلى الإمام الذي منحه وثيقة الأمان والعهود المؤكدة بعدم سفك دمه، فاستسلم القطبي مستنداً إلى تلك العهود، وأخذه الأمير سرور إبراهيم مع ولده فارس وسار بهما إلى الإمام الذي عنفه وأهانه فور وصوله وأمر بضرب عنقه، فضربت يوم الأربعاء (١١صفر ١١٢٥هـ/ ٨ مارس ١٧١٣م) ثم أمر بتعليق رأسه في سوق ذمار وبقيت جثته يوماً ترميها الصبيان والعامة بالحجارة، أما ولده فقد أرسله إلى سجن "جزيرة كمران" لكنه أطلقه بعد بضعة أشهر، وأخيراً أصدر توجيهاته إلى الأمير الحسين بن أحمد المرتضى بالتقدم إلى قلعة الدامغ وهدمها ففعل [5] .

من المؤكد أن هدف الإمام من استخدام تلك الطريقة الوحشية هو بث الذعر بين أطراف المعارضة ليحجموا عن مواصلة ثورتهم "وكان ظنه أنه سيكون لقتله هيبة كما كان في قتل الجملولي "[6] ــ سالف الذكر ــ، لكن ما حدث كان العكس إذ انطلقت الألسن تشيد بكرامات القطبي وبأنه قُتِل مظلوما "وأنه ظهر من قبره كما روته العامة

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٤٦ ــ ٣٤٧ .
(٢) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٧١أ .
(٣) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ) : ٣/ ٦٧٩ ؛ ابن عامر : بغية المريد،(خ): ص٤٥٥ .
(٤) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٧١ أ .
(٥) مجهول : المصدر السابق ، ٣/ ٦٧٩ .
(٦) الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره.(خ) : ص ١٢٨ .

وتواتر بعد ليال نوراً ساطعاً"[1]، كما أشارت بعض المراجع إلى ظهور غُبار شديد عند قتله[2]، وغير ذلك من الدعايات التي جعلت الناس تتشاءم من الإمام مما أضعفت من شأنه الأمر الذي جعله يجمع علماء ذمار علّه يستميلهم في إصدار فتوى شرعية باستحقاقه القتل لكنه لم يفلح، لميلهم إلى المعارضة فيما يبدو[3]، ورغم ذلك إلا أن نتائجها العسكرية كانت جيدة بالنسبة للمهدي حيث استعاد سيطرته على المخلاف السليماني وكذا على ولاية صعدة بتولية القاسم بن علي بن أحمد أبوطالب بعد وفاة أخيه الحسين فظل مخلصاً للإمام حتى نهاية حكمه [4] .

٦. هزائم جيش الإمام المهدي أمام قوات الداعي المنصور:

أما المنطقة الشمالية فقد فشلت حملات الإمام من قمع الداعي فيها بل وتوالت هزائمها، حيث أرسل المهدي أولى حملاته المكونة من حوالي (٤٠٠٠) فارس يقودهم السيد أحمد بن يحيى الشامي والسيد عبدالله الكبسي والسيد إسماعيل الخواجي وغيرهم، وذلك لاستعادة السّودة وحَبور فلما وصلت الحملة إلى جبل حجاج في السودة هجم عليهم نحو (٨٠٠) فارس من الأهنوم "فقتلوا منهم وغنموا منهم وأسروا جماعة منهم وأرسلوا بهم إلى المنصور ولم يُقتل من أصحابه أحد وأسروا الأمراء المذكورين وبعد أسرهم بذلوا مالاً لجماعة من أهل المحطة وأطلقوهم فرجعوا إلى عمران على أسوا حال"[5]. ومع أن هذه الرواية تحمل في ظاهرها بعض المبالغة إلا أنها لا تخل من الصحة إذا ما أمعنا النظر في وجود بعض رجال المعارضة بين صفوف أمراء جيش المهدي .

وهناك رواية تشير إلى أن المهدي جهز ولد أخيه المحسن بن الحسين ــ أمير صنعاء ــ "تجهيزاً ما كان مثله في قديم ، وأصحبه من يُعرف بالنجدة و الجدّة والأعداد

---

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ): ص ٤٥٥.

(٢) أبوطالب : السحر المبين، ق ٧١ ب ؛ وطيب الكساء ، ص٣٤٧ ؛ حيدرة : مطلع الأقمار : ص١٣١.

(٣) حيدرة : مطلع الأقمار : ص١٣١؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٧٣٦ .

(٤) انظر : ما سيأتي في هذا الفصل.

(٥) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ): ٣/ ٦٧٩ .

المستجدة، وطلب القبائل المحيطة بصنعاء وعمران والجبل وبني صُريم والصيدّ، فاجتمع له مالا يحصيه العدد، وضم إليهم المهدي جماعة من الرؤساء المعروفين ومن يظن بهم الثبات ــ وإن كانوا في الباطن منحرفين ــ، فرحل من صنعاء إلى عمران"[١]، ومكث فيها بضعة أيام لعله طلب قبائلها للانضمام إلى الحملة، ثم تقدم إلى جبل شظب المطل على السودة من جهة الجنوب وقام بترتيبه استعدادا للوثوب على يحيى بن القاسم في السودة، الذي استنجد بأخويه الداعي والحسن، فأرسل كلاً منهما بمجموعة من القبائل لنجدته، فلما اجتمعت تلك القبائل في السُّودة تسنموا ذلك الجبل وهجموا على المحسن بن الحسين وجيشه الذي تراجع قبل القتال، فَقَتَلَ أصحاب الداعي كثيراً منهم وحزوا رؤوسهم[٢].

لاشك أن الإمام المهدي قلق كثيراً من هذه الهزيمة واضطربت أحواله ومن المؤكد أنه داخله الشك في خيانة أمير الحملة المحسن بن الحسين الذي أمر باعتقاله ــ فيما بعد ــ، وفي الوقت نفسه استدعى القبائل فاجتمعت في بابه جموعاً كثيرة منهم، عند ذلك جهزهم أحسن تجهيز حتى قيل إنه أظهر من القوة مالا يوصف، ثم أمَّر عليهم محسن الشامي الذي سار بهم إلى بيت ابن علا (*)، فلما سمع الداعي الحسين وأخوه بتلك التجهيزات استنجد بقبائل المناطق الشمالية وسرعان ما لبّوا صريخه واجتمعوا حوله فأمّر عليهم محمد بن علي بن الحسين بن المهدي أحمد ومحسن بن أحمد بن المؤيد والشيخ علي بن هادي حبيش، فتقدموا إلى حبور وهناك زودهم الحسن بن القاسم ببعض المؤن وأمرهم بالتقدم لحرب محسن الشامي[٣]، فالتحم الفريقان في موضع بيت ابن علا يوم الاثنين (٦ربيع الآخر ١١٢٥هـ/ ١مايو١٧١٣م) فوقعت بينهما معركة أسفرت عن هزيمة جيش الإمام وقتل الكثير منهم [٤]، "وأُخذت جميع

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٤٥ .

(٢) أبوطالب : نفس المصدر والصفحة .

(*) بيت ابن علا : يطلق عليه بيت أبو علا ، وهو موضع صغير يقع جنوب بلدة السودة .

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٤٨ ــ ٣٤٩ .

(٤) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ،٣/ ٦٨٠ .

أموالهم وأثقالهم وسلاحهم وخيولهم وجمالهم"[1] وأسر حوالي ستين من أعيانهم[2] بما فيهم أمير الحملة ــ محسن الشامي ــــ بعد إصابته بجروح طفيفة، ثم سيق الجميع إلى المنصور فأمر بهم إلى سجن شهارة وأمر بخراب بيت ابن علا بالسهل والجبل[3] .

وقد وقعت هذه الهزيمة المنكرة على الرغم من ضخامة تجهيزات الحملة إضـــافة إلى أن الإمام حاول فتح جبهة في شرق السُّودة لغرض تشتيت قبائل الـــداعي لتـــتمكن الحملة من تنفيذ مهمتها بنجاح إذ أرسل إلى الشيخ علي الأحمر وابن ناشر بمال كثيـــر أخرجهما بواسطته عن طاعة الداعي، ثم أمرهما بالهجوم على أطراف السودة ليـــشغلا أميرها عن التصدي لتلك الحملة، فتقدما إلى قرية الظلعة بالسودة وأشعلا الحرب علـــى عاملها يحيى ابن القاسم الذي أرسل لحربها حملة تمكنت من هزيمتهما، فتراجعا علـــى إثرها إلى "حصن عتاد" ــ شمال شرق السودة ــ لكن توجه لحربهما الحسن بن القاسم ــ بعد وقعة بيت ابن علا ــ وحاصرهما ثلاثة أشهر حتى طلبا الأمـــان بـــشروط منهـــا تسليم الحصن بما فيه للمنصور والتعهد بعدم العودة لمحاربته[4].

ويبدو أن نتائج هذه الهزيمة كانت قاسية بالنسبة للإمام المهدي إذ فَقِدَ على إثرها مساندة ابن الأحمر من جهة، ومن جهة أخرى فَقِدَ ما بقي له من هيبة بين قبائل الشمال حيث وصل إلى المنصور بعد هذه الوقعة جماعات كثيرة من قبائل حاشد وبكيل [5] كانوا قد تأخروا في الإجابة خوفاً من الإمام.

٧. تقدم قوات الداعي في المناطق الشمالية :

لقد كان من ضمن الواصلين إلى المنصور ــ بعد معركة بيت ابن علا ــ قبائل ذو عناش وذو غريب من أهل حوث، وكذلك أهل خيوان وأهل خيار وكلهم من قبائل حاشد، فبايعوا المنصور وعاهدوه على السمع والطاعة، ثم طلبوا منه أن يُأمِّر عليهم أحد أولاد

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٤٩ ؛ ومثله في نفحات العنبر ، (خ) : ١/ ق ٨٩ ب .
(٢) مجهول : المصدر السابق ،٣/ ٦٨٠ .
(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٤٩ .
(٤) أبوطالب : نفس المصدر والصفحة .
(٥) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ،(خ) : ٣/ ٦٨٠ .

الإمام وتجهيزهم لفتح البلاد، الذي أسعدهم إلى ذلك وجهزهم بقيادة إبراهيم بن الحسن ابن الحسين بن المؤيد، فساروا جميعاً إلى حوث، وواصلوا سيرهم حتى اقتحموا مدينة خمر، ولعلهم عسفوا بأهاليها حتى قامت لحربهم بنو صُريم وأجبرتهم على التراجع إلى حوث، فقُتل أثناء تراجعهم الشيخ ناصر بن محمد الغريبي ــ زعيم ذو غريب ــ والشيخ حسين بن صالح العنيشي[1] زعيم ذو عناش، وكليهما من حوث .

ولعل هزيمة بيت ابن علا قد شجعت الداعي بأن يأمر ولد أخيه زيد بن علي ــ بعد عودته من الشرف ــ بالتقدم للاستيلاء على البلاد "وجعل إليه فيما افتتحه الإصدار والإيراد"[2]، فتوجه للسيطرة على "كحلان" إلا أن حاميتها قاومت بقيادة الفقيه حسين ابن جميل الغولي، ولم تُسلَّم الحصن إلا بعد حصار دام نحو خمسة عشر يوماً وبعد أن شرطوا الخروج بسلاحهم "فخرجوا مُجمَّلين"[3]. ثم تقدم في بداية عام (١١٢٦هـ/ ١٧١٤م) نحو حصن عفار فاستولى عليه بعد فرار الحسن بن المهدي أحمد الذي كان أميراً على الحصن من جهة أخيه الإمام المهدي محمد[4] .

أما ولاية حجة فقد كان أميرها محمد بن الحسين بن عبد القادر[*] من أهم زعماء المعارضة إذ راسل الداعي منذ أول يوم تربع فيه على ولايتها في (شهر رمضان ١١٢٤هـ/ أكتوبر ١٧١٢م)، وكان يرسل للداعي بالأموال، إلا أنه لم يعلن انضمامه للداعي خوفاً من سطوة الإمام خاصةً وأن الإمام كان قد بعث إليه بعض الأمراء وعيوناً لمراقبته، وأمرهم بالسطو به إن أدركوا تلاعبه، لذلك لجأ إلى إرسال أحد أمرائه ليخبر الداعي بأن يرسل جيشاً لحربه ومحاصرته في مركز ولايته حتى يظهر عجز الإمام

(١) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة .(خ) : ٣/ ٦٨٠ .

(٢) أبوطالب : طيب الكساء . ص٣٥٠

(٣) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة . (خ) : ٣ / ٦٨٠ .

(٤) أبوطالب : طيب الكساء . ص ٣٥٠ .

(*) محمد بن الحسين بن عبد القادر بن الناصر (١٠٩٠ ــ ١١٦٢هـ/١٦٧٩ــ ١٧٤٩م) : كان من المع أمراء آل شرف الدين في عصره سياسي محنك. وكان ناقما على الإمام بسبب تنكيله بوالده الحسين حتى توفي في سجن حدة وبسبب صده عن تولي كوكبان التي كانت ولايتها حكراً على أسرتهم، وقيل إنه انضم إلى المعارضة حفاظاً على أمواله وثروته التي جمعها من ولاية حجة خوفاً عليها من سطو المهدي. كما كان له صولات وجولات كثيرة إلا أن الحظ لم يحالفه إذ تعرض للسجن والتنكيل والنفي أكثر من مرة في عهد المتوكل القاسم بن الحسين وولده المنصور الحسين. (أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٥٠؛ السحر المبين(خ): ق ٧٣ أ ؛ الكوكباني: المواهب السنية (خ) : ٢/ ص١٢؛ زبارة : نشر العرف . ٣/ ١٣٨ــ ١٤٥) .

ويستسلم بمبررات شرعية، فاستجاب الداعي لذلك الطلب وأرسل حملة بقيادة إبـراهيم ابن علي[1]، وقيل إن الحملة بعثها زيد بن علي بأمر المنصور بقيادة محمد بن إبـراهيم ابن الحسين المؤيد[2]، والنقيب علي هادي حبيش[3]، اللذين ضربا على حجة حصاراً دام شهرين[4]، استسلم على إثرها الأمير محمد بن الحسين، غير أن قائد الحملـة اشـترط عليه وصوله مع أمراء الإمام الذين كانوا عيوناً عليه إلى المنصور، فلما مثلوا بين يديه أكرم الأمير محمد بن الحسين وأمر بالبقية إلى سجن شهارة[5]. بعد ذلك أرسل الأميـر محمد بن إبراهيم بعض الجنود بقيادة محمد بن محمد الغرباني للاستيلاء علـى حـصن عولي ــ جنوب حجة ــ "وفيه محمود بن عبد الرحمن فحاصروه فيه وخرج بأمان بعد أن بذل مالاً في خروجه"[6]. وكذا توجه السيد أحمد بن هاشم عاملاً على حفـاش مـن جهة زيد بن علي، الذي ذاع صيته بعد استيلائه على المغارب ، فتقدم للاستيلاء علـى كوكبان[7] .

٨. تجهيزات الإمام المهدي لاستعادة تلك المناطق :

لما علم الإمام المهدي بسقوط تلك المناطق في يد قوات الـداعي الواحـدة تلـو الأخرى وزحف قبائله نحو كوكبان أظهر الجلد والقوة فوضع "الأنطاع[*] وصبَّ عليهـا الأموال وفتح بابه للناس وأجاش الجيوش من أهل النجدة والبأس وطلب الـسودان[**] من كل بندر وألبسهم الطرابيش والجوخ الأحمر وبذل فيهم الأموال، وأعطى مالا يخطـر

(١) الكوكباني : المواهب السنية (خ) : ٢/ ص٣٥ ــ ٣٩ ، ٤٩ .
(٢) أبوطالب : طيب الكساء، ص ٣٥٠ .
(٣) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة (خ): ٣/ ٦٨٠ .
(٤) الكوكباني: المواهب السنية، ٢/ ٣٨ ، وفي رواية أخرى "قدر شهر ونصف" مجهول : نفسه (خ):٣/ ٦٨٠ .
(٥) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٥١ .
(٦) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة (خ): ٣ / ٦٨٠ .
(٧) أبوطالب : طيب الكساء، ص ٣٥١ .
(*) الأنطاع : جمع نطع : وهو بساط من الجلد يفرش (في الأصل) تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس . (لسان العرب : ٣٥٥/٨) .
(**) السُّودان : هم جيش الإمام النظامي الذين استوردهم من أفريقيا ودربهم وسلحهم وحاول الاستغناء بهم عن الجيش الشعبي المكون من القبائل، وقد سبق ذكرهم وذكر الكردوس في الفصل السابق، ص٢٤٥ــ٢٤٦.

ببال ولا يمرّ في خيال، وفَرّق فيهم البنادق من عشرين قفلة(*) فما فوق، وملك قلوبهم بالإحسان فرموا بنفوسهم إلى القال من الشوك وأحصى عددهم فكانوا ستة عشر كردوساً. وفرّق فيهم اثنين وثلاثين بيرقاً يهابهم من رآهم . وأمَّر على كل كردوس أميراً، وأخذ عليهم في الإقدام والتشمير، وجعل أمير أمرائهم "بخيت شلخ" قاتل القطبي، وجعل على خيل منهم الأمير الماس عبد الرحمن"[1] وأمرهم "بوضع السيف من باب شبام إلى أطراف الشام"[2] أي إلى أطراف صعدة شمالاً .

انفصل ذلك الجيش عن المواهب بأبهة عظيمة ونظام فريد، حتى أن القاسم بن الحسين أُعجب بهم حين نظر إليهم من نافذة سجن صنعاء حال مرورهم بها ! ولشدة إعجابه وطموحه معاً قال : "لو كنت قائد هذه الرجال لم أرجع عن أخذ مصر"[3]. ومن صنعاء عرج الجيش على الروضة [4] ومنها إلى مُدع من وادي السيل وأعمال كوكبان وبالقرب منها[5]، فضربوا معسكرهم فيها .

عند ذلك استنجد الداعي بقبائل المناطق الشمالية لملاقات ذلك الجيش فالتفت حوله قبائل كثيرة[6] أرسلهم تحت قيادة زيد بن علي الذي اغتنم فرصة هطول الأمطار[7] وانتشار الضباب للهجوم على معسكر الإمام في مدع، فباغتهم يوم الأربعاء (٥ جماد الأول ١١٢٥هـ/ ٢٩/٥/ ١٧١٣م) ، ولم يشعروا إلا بالطعن والضرب فيهم حتى سقط منهم نحو مائه وسبعون قتيلاً وعلى رأسهم أميرهم بخيت شلخ، وتم أسر أكثر من ألف نفر[8]، ثم غنموا كل عدتهم وعتادهم حتى أنهم نزعوا ملابس الأسرى واطلقوهم عراة

(*) قفلة : يقال درهم قفلة أي وازن ، وجاءت بمعنى ضربة . (محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : القاموس المحيط ،١/ ١٣٥٦؛ محمود بن عمر الزمخشري : أساس البلاغة ،).

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٥١ ، وقريباً من هذه الرواية في : السحر المبين ، ق ٧٢ أ ؛ نفحات العنبر (خ) : ١/ ق ٨٩ ب ؛ تهذيب الزيادة ،(خ) : ص ٢٠٧ .

(٢) الحوثي : نفحات العنبر (خ) :١/ ق ٨٩ ب .

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٥٢ .

(٤) أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٧٢ أ .

(٥) يحيى بن علي : العلم المشهور ، نقلاً عن المواهب السنية ،(خ): ٢/ ص٤٣ .

(٦) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ،(خ): ٣ / ص٦٨٠ .

(٧) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٥٢ ؛ الحوثي : نفحات العنبر ، ١/ ق ٨٩ ب .

(٨) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ،(خ) : ٣/ ص٦٨٠ .

الأبدان بعد أن مثلوا بهم بقطع أنوفهم وآذانهم، ولما وصلوا إلى صنعاء ألبسهم عاملها المحسن بن الحسين ما يستر عوراتهم من الثياب وأرسلهم مع تقرير بالحادث إلى الإمام(١) .

وكانت هذه الحادثة بمثابة ضربة قاضية للإمام كما أشار أحد معاصريه إلى أنها "هدت أركان دولة المهدي وهدمت مملكته فاته جهز جل عبيده ورؤساؤه وعساكره، فان أهل صنعاء تحدثوا إنما قد جهز مثل هذا التجهيز وأنه سيأخذ به مكة"(٢) ، لكنه أخفق في مهمته فتكدر خاطر الإمام وعلم أن الزمان قلب له ظهر المجن (٣).

أما بالنسبة لقبائل الداعي فقد شجعهم هذا النصر للزحف على المناطق المجاورة فاستولوا على "حُفاش" و"مِلحْان" و"جُبع" و"تَمرة"، إضافة إلى ميل أهالي "كوكبان" و"البُستان" و"الحَيْمتين" إلى المنصور(٤)، وكذا تقدم زيد بن علي لحصار عبد الرحمن بن الإمام المهدي محمد في "كوكبان"(٥) .

لقد أنهكت معركة مُدع قوى الإمام العسكرية، وأدت إلى خذلان القبائل عن مناصرته الذي ظهر جلياً حينما جهز الإمام ولد ولده علي بن الحسين بن المهدي محمد على رأس حملة من القبائل، ولعلهم طالبوه بالمستحقات حال وصولهم صنعاء، فكانت المجموعة من القبائل تستلم مستحقاتها وتهرب، كما عبَّر عن ذلك أحد المعاصرين بقوله "وما أقلم من محطة هربت"(٦).

ورغم كل هذا إلا أن المهدي لم ييأس أو يصاب بالإحباط بل لجأ إلى طريقة بذل الأموال لزعامات وقيادات قبائل الداعي، حيث استصلح علي بن هادي حبيش بالأموال والنفائس الفاخرة، وبذل للأمير "زيد بن علي من الذهب ما أفسده على عمه"(٧) وجعله

---

(١) أبوطالب: طيب الكساء، ص٣٥٢؛ الحوثي: نفحات العنبر،(خ): ٨٩/١ ب؛ العابد: تهذيب الزيادة (خ): ص٢٠٧.

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣ / ص٦٨٠ .

(٣) أبوطالب : طيب الكساء، ص ٣٥٢ ؛ نفحات العنبر ،(خ): ١ ق ٨٩ ب .

(٤) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ): ٣/ ص٦٨١

(٥) أبوطالب: السحر المبين(خ) : ق ٧٢ ب ؛ أبوطالب: طيب الكساء، ص ٣٥٣؛ العابد : تهذيب الزيادة(خ): ٢٠٨ .

(٦) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ) : ٣/ ص٦٨١ .

(٧) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٥٣ .

يرفع الحصار عن كوكبان في يوم الأربعاء (٢٤رجب ١١٢٥هـ/ ١٧١٣/٨/١٥م)(١)، وخرج من شبام في حكم المنهزم وتراجع إلى شهارة بدون حرب، وزاد على ذلك بأن "كتب إلى العمال يأمرهم بالارتفاع من البلاد والانهزام فارتفعوا من حُفاش ولاَعَتين وحَجَّة وكُحلان وعفَار والسُّودة"(٢). واستعادها عمال الإمام المهدي. وبذلك انكمشت سيطرة الداعي إلى السُّودة بعد أن تمكن أخوه يحيى بن القاسم من طرد الشيخ ناصر بن منصور العبدي ـ عاملها من جهة المهدي ـ لكن الداعي غضب على الأمير زيد بن علي ـ ابن أخيه ـ وزجَّ به في سجن شهارة، وأمر أخويه بحفظ السُّودة وحَبُّور، ثم أستنجد بابن جزيلان(٣) زعيم قبائل برط ودُهمة .

في حين تنفس عبد الرحمن بن المهدي الصعداء وخرج من كوكبان لمطاردة بقية قبائل الداعي فلم يظفر بأحد سوى بالأمير حسن بن إبراهيم وأصحابه في حصن "بيت عز" ـ شمال غرب كوكبان ـ فألقى القبض عليهم وأرسل بهم إلى والده الإمام الذي هددهم بالقتل ثم أرسل بهم إلى سجن ترسخانة المخا(٤) .

وخلال تراجع قوات الداعي استعاد الإمام المهدي نشاطه فجهز حملة بقيادة الأمير علي بن الحسين بن علي بن المتوكل إسماعيل لتقرير الأوضاع في عمران فنجح في مهمته (٥). ثم جهز ولده إبراهيم على رأس جيش كثير وأمدّه بأموال كثيرة، ومنحه ولاية عامة على صنعاء والمناطق الشمالية "وفوضه في جميع الأمور وإليه التصرف في البلاد والأمر والمأمور، وكل نائبة تنوب فالدرك فيها عليه، وانفصل عن أبيه بأبهة عظيمة ومملكة جسيمة" (٦).

من المؤكد أن أعضاء المعارضة داخل البلاط قد أرسلوا بأخبار تجهيزات إبراهيم إلى الداعي الأمر الذي جعله يستغيث ويستنجد بالقبائل الذين أثرت فيهم رشوة المهدي

(١) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ) : ٣ / ص٦٨١ .
(٢) الحوثي : نفحات العنبر ،(خ) : ١/ ٨٩ ب .
(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤.
(٤) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة،(خ) : ٣/ ص٦٨١ ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤ .
(٥) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٥٤ .
(٦) أبوطالب : نفس المصدر ، ص ٣٥٥ .

سابقاً وغيرهم، لكنهم لبوا استغاثته، فلما التفوا حوله أمّر عليهم محمد بن الحسين بن عبد القادر، ويبدو أنهم اشترطوا عليه شروطاً مجحفة، لذلك أنفق عليهم نحو "سبعة عشر ألف قرش"[1] وقيل "عشرين ألف قرش"[2] حتى تمكن من استمالتهم تحت قيادته.

وأثناء توديع محمد بن الحسين للداعي في(شعبان ١١٢٥هـ / سبتمبر ١٧١٣م)[3] كان يرسل الحملات للاستيلاء مجدداً على المناطق، حيث أرسل حملة بقيادة ابن حبيش وابن أحمر الشعر البرطي نحو عفار فاستوليا عليها، ثم دخلوا كحلان ونهبوا أهلها بعد أن خرج منها عاملها ــ عبدالله بن صالح ــ بأمان منهما[4]، ثم توجه مهدي ابن أحمر الشعر نحو حجة لرفد أصحاب المنصور، عند ذلك لم يسع أميرها سليمان جوهر إلا الفرار منها إلى المواهب قبل وصول مهدي هذا مما أتاح الفرصة لأصحاب المنصور للاستيلاء عليها بسهولة. في حين أخضع محمد بن الحسين قبائل عيال يزيد، والتقى بابن حبيش وابن أحمر الشعر حول عمران وضربوا عليها الحصار[5]. أما ابن جزيلان فقد كان يتنقل بين قرى أرحب يحثهم على القيام مع الداعي منذ تراجعت قواته[6] .

وفي الوقت ذاته كان إبراهيم بن المهدي قد وصل إلى صنعاء ومنها تقدم إلى شِبام كوكبان فقابل أخيه عبدالرحمن وتم التنسيق بينهما على التقدم في المناطق الشمالية لقمع حركات قبائل الداعي، فتقدم إبراهيم من شبام إلى بلاد همدان وتنقل بين قراها، ثم عسكر في الجاهلية ــ إحدى قرى همدان الواقعة جنوب وغرب صنعاء ــ

(١) الحوثي : نفحات العنبر،(خ): ١/ ق ٨٩ ب ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٥٦ .

(٢) العابد : تهذيب الزيادة ، (خ): ص٢٠٩.

(٣) الكوكباني : المواهب السنية ،(خ): ٢/ ٥٢ .

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٥٥ ــ ٣٥٦ .

(٥) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة (خ) : ٣/ ص٦٨١ ــ ٦٨٢ .

(٦) مجهول : نفس المصدر ، ٣ / ص٦٨١ ؛ أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٧٣ أ .

وذلك لصد قبائل أرحب وابن جزيلان [١]، وكذا تَقَدَّمَ أخوه عبدالرحمن إلى مكان قريب منه[٢].

ولبث إبراهيم في الجاهلية "قريب شهر في أجناد مؤلفة وأجناس مختلفة"[٣] وخلال تلك المدة "قام في الناس أحسن قيام، وأجزل لهم العطاء العام"[٤]، ولكن كانت المفاجئة التي لم تخطر على البال أن انسحب من معسكره ولاذ بالفرار إلى صنعاء دون أي هجوم معادي وتبعه كل الأمراء والأفراد وتركوا كل متاعهم وأثقالهم في المعسكر الذي صار غنيمة باردة لابن جزيلان وقبائل أرحب [٥] .

فيا ترى لماذا هذه الهزيمة التي لم يسبقها قتال ولم يتقدم عليهم عدو؟

لقد أسندت المراجع ــ المتاحة ــ أسباب تراجع إبراهيم إلى خوفه من اجتماع ابن جزيلان ومحمد بن الحسين فيطبقوا عليه من الجهتين ويصبح في وسطهم لذا آثر السلامة والعودة إلى صنعاء لترتيبها والمقاومة منها ! وبما أنه سبب واهٍ وغير مقتنع نظراً لتلك التجهيزات والقوات التي تحت قيادته لكنه كان سبباً قوياً بالنظر إلى ما عُرفت به شخصية إبراهيم الفاشلة إدارياً وعسكرياً، ولما اشتهر عنه من الجبن وعدم الحنكة والدراية كما يقرر ذلك المؤرخ أبوطالب، وبأنه مال إلى آراء مرافقيه الذين أكثروا عليه الأراجيف، ولا شك أنهم كانوا من المنتمين إلى المعارضة، أو أن الحريبي دسهم في قيادة الجيش لهذا الغرض . لذلك دخل صنعاء متخفياً خوفاً من اللحاق به، فوقع فريسةً لهجمات وتحامل المؤرخ المعاصر للحدث حيث أشار بأنه شمله "الخزي والعار"[٦].

لعل نجاح ابن جزيلان في الاستيلاء على معسكر إبراهيم وسماعه باقتراب ابن حبيش من عمران من أهم أسباب اندفاعه في "نحو ستين نفراً أكثرهم من أرحب"[٧] للتجول في بلاد همدان والهجوم على سَمْسَرة جَرْبَان، وهناك أحدقت بهم قبائل همدان

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص٣٥٥ ــ ٣٥٦ ؛ السحر المبين، ق ٧٣ أ .

(٢) مجهول : المصدر السابق ، ٣ / ٦٨١ .

(٣) أبو طالب : طيب الكساء، ص ٣٥٦ .

(٤) العابد : تهذيب الزيادة ، ص ٢٠٩ .

(٥) أبو طالب : طيب الكساء ، ص٣٥٦ ــ ٣٥٧ ؛ السحر المبين، ق ٧٣ أ ؛ العابد : تهذيب الزيادة (خ): ص ١٠٩.

(٦) أبو طالب : السحر المبين(خ) : ق ٧٣ أ .

(٧) أبو طالب : نفس المصدر ، ق ٧٣ ب .

إلا أنهم حفظوا أنفسهم في السَمْسَرة واستنجدوا بالأمير محمد بن الحسين وابن حبيش وغيرهم الذين تركوا الحرب على عمران وتوجهوا لنجدته بعد نشوب خلافات بسيطة فيما بين ابن حبيش ومحمد بن الحسين[1]، غير أنهم لم يصلوا لنجدة ابن جزيلان إلا بعد انتصاره على قبائل همدان فقتل منهم "نحو خمسة وثلاثين نفراً"[2] وشتت جمعهم. ورغم انتهاء المعركة إلا أنهم توجهوا جميعاً لحرب همدان حيث أطبقوا عليها من جميع الجوانب وأنزلوا في أهلها القتل والنهب حتى "أبواب البيوت حملتها أرحب إلى بلادها وشرَّدوهم في البلاد"[3] وقتلوا منهم نحو سبعين نفراً وأشعلوا النيران في بعض قراهم وكانت هذه الحادثة يوم الخميس (آخر شهر رمضان عام ١١٢٥هـ /أكتوبر ١٧١٣م)[4]. ثم تقدم الجميع إلى الروضة . وقد برر أحد المؤرخين عبث محمد بن الحسين ببلاد همدان بسبب أن قبائلها تجمعت عقيب ظهر ذلك اليوم واتجهت لقتالهم[5] . والبعض أسندها إلى حقد ابن حبيش عليهم لمشاركتهم في قتل أخيه عام(١١٢١هـ/ ١٧٠٩م) سالف الذكر وبذلك أخذ ثأره منهم[6] (*) .

وفي اليوم التالي لقمع قبائل همدان تقدمت بعض سرايا محمد بن الحسين إلى الروضة فغاب خطيب صلاة الجمعة عن جامع الروضة ووقعت مناوشات لتقرير مصير خطبة الجمعة. ثم تبعهم محمد بن الحسين والقبائل ودخلوها يوم السبت وعبثوا بها ونهبوها وتفرقوا في البيوت، ولم يحرك إبراهيم ساكناً سوى أنه أغلق على نفسه

---

(١) أورد الكوكباني أسباب ذلك الخلاف في : المواهب السنية (خ) : ٢/ ص٥٣ ــ ٥٤ .

(٢) أبو طالب : طيب الكساء ، ص٣٥٧ .

(٣) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ): ٣/ ص٦٨٢ .

(٤) أبوطالب : السحر المبين، ق ٧٣ ب .

(٥) الكوكباني : المواهب السنية ،(خ): ٢/ ص٥٥ .

(٦) العابد : تهذيب الزيادة ، (خ) : ص٢١٠ ؛ أبو طالب : السحر المبين ، ق ٧٣ ب.

(*) وهنا نلاحظ مع المؤرخ أبوطالب ظهور الثارات والنعرات القبلية مصاحبةً لاضطراب الوضع فينتج من الصراع على السلطة بعض الصراعات القبلية فهذه قبائل همدان المنحدرة من قبائل حاشد تستدعي بقية قبائل حاشد ضد قبائل بكيل كون المعتدين عليها ابن حبيش وابن جزيلان وأرحب وكلهم من بكيل، فقام ابن الأحمر بجمع قبائل حاشد وقادهم إلى قرية القابل شمال صنعاء وهي من بكيل وأنضم إليه عبد الرحمن بن الإمام المهدي من كوكبان وعلي بن الحسين من عمران فاعملوا فيها القتل والنهب والتنكيل ثم عاد ابن الأحمر إلى بلاده وسار عبد الرحمن وعلي بن الحسين إلى الروضة، ومنها إلى المواهب، فما علاقة قرية القابل في الصراع كون المعتدين على همدان من برط ومن أرحب غير العصبية وحب الأطماع.(أبوطالب: السحر المبين(خ): ق ٧٥أ).

وجيشه أبواب صنعاء "متلفعاً من ذلته أثوابها، وعظمت لديه القضية وصعبت، وضاقت الأرض بما رحبت، وصار يتردد إليه ابن يعيش للوساطة، وأخذ لهم من ماله مالا تبلغ إلى قدره الإحاطة، وكان الأمر للنقيبين لا تصرف لمحمد بن حسين معهم ولا إطلاع، ولا يدري ما فعلا إلا بمجرد السماع" [1] .

لقد ظهرت سذاجة إبراهيم بن المهدي وعدم صلاحيته للقيادة للمرة الثانية في هذا الموقف وذلك عندما أغلق أبواب صنعاء على نفسه وجيشه الكبير المجهز، في حين زحف محمد بن الحسين وقبائله إلى الروضة وعاثوا فيها الفساد بل وامتدت أيديهم إلى القرى المجاورة لصنعاء ومكثوا بها نحو خمسة عشر يوماً[2] كل ذلك بدون أي مقاومة تذكر من جهة إبراهيم سوى مصالحتهم بالأموال حيث بذل لابن حبيش وابن جزيلان سبعين ألف قرش، كل ذلك لكي يوهم والده بأنه تمكن من قمع القبائل فلا يطلق القاسم ابن الحسين ليتولى القيادة، ورغم ما بذله من الأموال إلا أن ابن حبيش اشترط عليه أيضاً مدَّ سيطرتهم إلى بلدة حَدَّة جنوب صنعاء حسب ما يريدون لا على ما يريد إبراهيم، ولما توجهت القبائل حسب الشرط خرجت عليهم فرقة الخيل من باب اليمن بقيادة يوسف بن الحسين وقتلت منهم أربعة أفراد، حينها غضب ابن حبيش وظنها خدعة فأحدق على صنعاء من جميع الجوانب . وفي الوقت نفسه غضب إبراهيم على الفرسان وعنَّفهم، ثم اعتذر لابن حبيش وصانعه وزاد له في العطاء بل أوكل إليه مهمة اغتيال القاسم بن الحسين إن تم إطلاقه[3]، ولعل ابن حبيش استمر في حصار صنعاء ولم يرضخ لمغريات إبراهيم، إلا أن الأخير تأكد من إطلاق القاسم بن الحسين وتوليته قيادة الجيش فكرر الطلب لابن حبيش حتى وافقه على الانسحاب من حول صنعاء بعد أن ألبسه خلعة ومنحه عشرة آلاف قرش، الأمر الذي أغضب ابن جزيلان فشدد الضغط على إبراهيم حتى منحه نفس ما حصل عليه ابن حبيش[4]، وفي رواية أخرى لصاحب

(١) أبو طالب : السحر المبين (خ) : ق ٧٣ب ــ ٧٤ أ .
(٢) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٥٩ .
(٣) أبو طالب : السحر المبين (خ) : ق ٧٤ أ ــ ب .
(٤) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٦٠ .

المواهب السنية والمجهول تذكر غضب ابن جزيلان واستئذانه للأمير محمد بن الحسين لاستخراج القروش من إبراهيم، بعد انسحاب ابن حبيش، وذلك مقابل رفعهم الحصار عن صنعاء وانسحابهم على جهة الهزيمة، فانسحب محمد بن الحسين مكرهاً وعاد معهم عن طريق الجوف[1]، ولكن لم يتم ذلك الانسحاب إلا حال وصول القاسم بن الحسين ففاز بالجمالة حيث زعم الناس "أن رجوعهم خوفاً منه"[2].

٩. القاسم بن الحسين من السجن إلى قيادة الجيش :

يبدو أن تصرفات إبراهيم كانت أشد وقعاً في قلب والده الإمام، فعظم مصابه ولعله أفقده الأمل حتى اشتد غضبه عليه وأتهمه بالأنوثة ! وأمر به إلى سجن "سناع" غرب حدة، ثم طلبه إليه بعد أيام[3]، ولا يستبعد أنه بحث عن الشخصية القيادية القوية التي تقوم بهذه المهمة إلا أنه لم يجدها؛ الأمر الذي جعله يعقد مجلساً لكبار مستشاريه لعلهم يساعدوه في معالجة هذه الكارثة التي حلت بمملكته. وهنا ظهر دور الوزراء المنضمين إلى المعارضة حيث أشاروا عليه بإطلاق القاسم بن الحسين من السجن وتوليته قيادة الجيش، وبما أن الإمام تردد في قبول هذا الاقتراح نظراً لكثرة شروطه والخوف من انتقامه وطموحه معا، لكن الوزراء أشادوا بقدرته الفائقة وأكدوا بعجز غيره عن إخماد ثورة الداعي وتسكين الأوضاع [4]. وضَمِنَ على إخلاصه ابنه يوسف[5]، إضافة إلى التزام الوزير حسين الحيمي بمرافقته ورفع حركاته إليه[6]، وعلى ذلك فلا يستبعد أنهم وضعوا الإمام عند الأمر الواقع فتمت موافقته .

وقد قيل إن القاسم بن الحسين زُفَّ من سجن ذمار إلى حضرة عمه الإمام المهدي كالعريس الذي استقبله بحفاوة واعتذر له عن الإهانة التي أصابته في السجون، ثم طلب

---

(١) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة(خ) : ٣ / ص٦٨٢ ؛ الكوكباني : المواهب السنية ، ٢ / ٥٨ .
(٢) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٦١ .
(٣) أبو طالب : السحر المبين(خ) : ق ١٧٥ أ .
(٤) أبوطالب : طيب الكساء، ص٣٥٩ ؛ العابد : تهذيب الزيادة، ص٢١٠ــ ٢١١ ؛ الحوثي : نفحات العنبر(خ):٨٩/١ ب ــ ٩٠ أ.
(٥) أبوطالب : السحر المبين(خ) : ق ٧٨ب .
(٦) الحوثي : نفحات العنبر (خ) : ٢/ ق ١٥ ب ؛ زبارة : نشر العرف ، ١/ ٥٣٨ .

منه قيادة الجيش لحرب الداعي، وهنا ظهرت حنكة القاسم السياسية والقيادية حيث امتنع عن قبول القيادة حتى وافق الإمام على شروطه، والتي من أهمها الولاية المطلقة والعامة على صنعاء وكوكبان وعمران والمناطق الشمالية والغربية وتكون كل حصونها بنظره، ويمنحه من الخيل والسلاح والمال بما نصّ عليه(١)، فوافق المهدي على تلك الشروط، حيث رفع ولده عبد الرحمن من ولاية كوكبان، ورفع ولده إبراهيم من صنعاء، وكذا رفع علي بن الحسين بن علي بن المتوكل من عمران، ولعل الإمام فَهِم هدف القاسم إلا أنه كان مضطراً للموافقة على شروطه لعدم وجود الشخصية القيادية بين أولاده، ولم يملك أية حيلة سوى أنه طلب من القاسم العهد "باستمرار الطاعة"(٢)، وبتلك الشروط حصل القاسم على الشطر الأعلى من اليمن، إضافة إلى المال والسلاح والجيش ولم يبق للإمام سوى القليل من ذلك وأصبح تحت رحمة القاسم.

١٠. انقلاب قائد جيش الإمام وانضمامه إلى المعارضة :

ندم الإمام المهدي على تولية القاسم بن الحسين إمارة الجيش، وهو ما نبهه كذلك أحد الوزراء(٣) ـ لعله زين العابدين بن سعيد المنوفي المُخلص للإمام والمنافس للحريبي ـ فلم يبلغ القاسم مسافة الميل حتى أرسل الإمام إليه يستدعيه لأمور مهمة، لكنه فهم إرادة عَمّه، كما فهم الإمام إرادة ابن أخيه، لذلك فقد اعتذر عن الرجوع وتعلل، ثم استمر يحث السير نحو صنعاء . حينها لجأ الإمام إلى استخدام التودد والمجاملة في الظاهر ، واستخدم الكيد والدس عليه باطناً(٤).

كان القاسم ذا أبعاد سياسية عميقة فهو يمهد لتولي السلطة منذ سنين، ولم يكن بالرجل السهل الذي يميل نحو المغريات بسرعة، فلا يستبعد أنه كان يُسخّر الأحداث لصالحه، فعلى رغم تحالفه مع المعارضة منذ عام(١١٢١هـ/ ١٧٠٩م) ـ كما تقدم معنا ـ، ورغم معاناته إهانات سجون عمه الإمام وما لاقاه من مكائده أثناء قيادته

(١) أبوطالب : طيب الكساء، ص٣٥٩ ؛ العابد : تهذيب الزيادة، ص٢١٠ ـ ٢١١ ؛ الحوثي : نفحات العنبر (خ):٨٩/١ ب ـ ٩٠ أ.
(٢) أبوطالب : السحر المبين، ق ٧٤ ب .
(٣) أبو طالب : السحر المبين ، ق ٧٤ ب ؛ الشوكاني : البدر الطالع (بتحقيق : د .العمري)، ص ٥٦١ ؛ الجرافي : المقتطف ، ص ٢٤٧ .
(٤) أبو طالب : السحر المبين، ق ٧٤ ب ، ٧٥ أ ،٧٦ ب .

الأخيرة إلا أنه لم يعلن انضمامه إلى الداعي بسرعة حيث استمر في طاعة عَمِّه ظاهرياً حتى تمكن من ترسيخ قواعده وتثبيت يده على كل مقاليد الحكم، ولم يترك للداعي منها سوى ذكر اسمه في الخطبة .

ففي أثناء تقدم القاسم نحو صنعاء كانت القبائل محيطة بها بقيادة الأمير محمد بن الحسين، الذي أرسل إلى القاسم يستفسر منه هل مازال على ولائه الخفي للداعي أم مال إلى مُغريات عمِّه الإمام ؟ فكانت الإجابة بالاستمرار مع المعارضة، والعزم على خلع الإمام[١]، حينها عمل محمد بن الحسين على تمهيد طريق القاسم حيث أدرك أن الشيخ علي بن هادي حبيش السفياني ـ الذي كان من أبرز قيادات محمد بن الحسين ـ يتحين الفرصة لأخذ ثأر أخيه من القاسم بن الحسين فأقسم بأنه سوف يبذل كل ممكن لقتل القاسم قبل دخوله صنعاء، إضافة إلى أنه كان قد أخذ الأموال من إبراهيم لتنفيذ هذه المهمة، لكن محمد بن الحسين حال دون تنفيذها، حيث أرسل للقاسم بتحديد الوقت المناسب لدخوله وخلالها أمر القبائل بالجمع والخروج إلى الرّوضة ـ شمال صنعاء ـ لعرض الجند وتحفيزهم للقتال فلم يعودوا منها إلا بعد دخول القاسم صنعاء ففشلت المهمة[٢] .

لاشك أن أعضاء المعارضة في صنعاء قد لعبوا دوراً كبيراً في الإشادة ببطولة القاسم وترويج سمعته الأمر الذي جعل قبائل أرحب بقيادة ابن ردمان تستقبله إلى سنحان ـ جنوب صنعاء ـ وتنضم إليه رغم محاصرتهم لصنعاء من جهة الداعي، وكذا خرج أهل صنعاء لاستقباله فدخلها في موكب مهيب، وأمر بفتح أبوابها وتسكين أهلها وترتيب أوضاعها فأخرج الناس من الشدة التي ألمت بهم خلال ولاية إبراهيم بن المهدي[٣]. ثم مكث بها أياماً يُثَبِّت أموره ويُقَرِّب خصومه ويستميلهم[٤]، وذلك استعدادا للتمركز فيها للوصول إلى السُّلطة ـ كما سنرى ـ.

---

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٦٠ .

(٢) الكوكباني : المواهب السنية ،(خ): ٥٧/٢ ـــ ٥٨ .

(٣) الكوكباني : نفسه ،(خ): ٥٧/٢ ـــ ٥٨ .

(٤) أبو طالب : السحر المبين، ق ٧٥ أ

إن فشل ابن حبيش في اغتيال القاسم وانسحابه مع القبائل الأخرى من حول صنعاء، وتأثيرهم على محمد بن الحسين في الانسحاب ـ رغم توجيهات القاسم إليه بالانتظار في الجراف ـ وما صاحب انسحابهم من انكماش حركة الداعي إلى حَبُور[1] . كل هذه الأحداث كانت من أهم العوامل المساعدة للقاسم حيث أكسبته شهرة وهيبة وزادته ثقةً في نفسه. وأخلت له الميدان يلعب فيه كما يشاء .

وعلى ذلك فقد أصبح القاسم في صنعاء سيد الموقف بين الإمامين فعمّه سلّم له الولاية والمال والسلاح والجيش لم يبق له سوى حثه على التقدم، والداعي انكمشت دعوته إلى السُّودة فاكسبه الشهرة والهيبة . كما أنه كان مُنسقاً مع الخصمين وصار في موضع ثقتهما معاً فأصبح مصيرهما مرتبط بترجيحه أحدهما. وهو ذاته طموح لتولي السُّلطة لكنه عارف بأنه مازال بحاجة إلى مرحلة ثانية لتأهيله، وكان رافضاً العودة إلى طاعة عمّه والانغماس بين براثن مؤامرات أولاده مرة أخرى، مع شيخوخة عمّه وما صاحبها من التضارب وعدم التوازن، ولعله "عرف بعين البصير مدى الثورة التي تجمعت في النفوس على عمّه"[2].

وكان القاسم خبيراً بشخصية الداعي الحسين بن القاسم المتعلمة تعليماً دينياً والمفتقرة إلى الحنكة السياسية والقيادة العسكرية، لذلك عرف أنه سيحقق طموحه بواسطة هذه الشخصية ففضل الانتماء إلى الداعي، لكنه كان غير مستعد للانضواء تحت قيادته دون الحصول على امتيازات أكثر من تلك الامتيازات التي منحها له عمه لتؤهله لمرحلة قادمة .

إذاً ما هي الإجراءات التي قام بها القاسم بن الحسين وكيف كان موقفه من الطرفين؟

يبدو أن انكماش حركة الداعي المذكورة قد شجعت القاسم في التظاهر بالطاعة لعمّه وجعلها وسيلة لممارسة الضغط على الداعي لكي يرضخ لشروطه . فلم يستقر به

---

(١) مجهول: ملحق اللآلي المضيئة (خ): ٣/ ص٦٨٢ ؛ الكوكباني : المواهب السنية (خ):٢/ ص٥٨ ـ ٥٩ ؛ أبوطالب: طيب الكساء ، ص ٣٦٠.

(٢) غالب وآخرون : ابن الأمير وعصره ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .

المقام في صنعاء حتى أرسل الحملات العسكرية لاستعادة المناطق الشمالية فاستولى على "السُّودة"[1]، وكذا على "حَجَّة" "وعفار" و"كُحلان"، ثم غادر "صنعاء" بعد أن أحكم تحصيناتها وولى عليها ابن أخيه أحمد بن علي بن الحسين، وجعل حسين بن يحيى الأخفش أميراً لحامياتها، وأمر أن لا يدخلها أحد من الموالين لعمِّه المهدي[2]، كما استمال أمراء وجنود مناطقها المجاورة والشمالية، استعداداً للانقلاب.

ثم قضى إجازة عيد الأضحى لعام (١١٢٥هـ/ ديسمبر ١٧١٣م) في "الرّوضة". وفي بداية العام التالي زحف إلى "عمران" ومازال يتظاهر بطاعة عمه، حيث أرسل حملة مكونة من حوالي (١٢٠٠) فرد[3] لاستعادة بلاد الشرف[4]، لكنها مُنيت بهزيمة ساحقة أمام قوات الداعي، حيث قتلوا الكثير منهم، وأسروا البقية، وغنموا جميع عتادها. وقد قيل إن هذه الحملة كانت بمثابة طيب خاطر لعمه الإمام لكثرة إلحاحه عليه بالتقدم لاستعادة البلاد، ورغم هزيمتها إلا أن نتائجها كانت سيئة بالنسبة للداعي؛ إذ توقفت على إثرها الحملة في حبور، التي كان قد أرسلها لاستعادة البلاد بقيادة محمد بن الحسين[5] في(٢٧محرم ١١٢٦هـ/ ١٢/ ٢/ ١٧١٤م)[6]، كما نتج عنها انسحاب معظم القبائل من حوله، بل تحول بعضهم ضده حيث تخطفوا من يصل إليه حتى "انقطعت عنه المواد والنذور"[7].

وعلى ما يبدو أن الإمام كان غير معتمدٍ كلياً على قيادة القاسم بن الحسين، وهذا ما نلاحظه من خلال الترتيبات الأخرى التي كان يقوم بها، حيث عمل مجدداً على كسب ودّ زعماء المناطق الشمالية، ففي ذلك الوقت أعلن القاسم بن علي بن أحمد ـ أمير صعدة ـ ولائه للإمام وأرسل إليه يطلبه المال ليتقدم بأهل ولايته على الداعي من جهة

---

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٦٢ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ): ٣/ ٦٨٢ .

(٢) العابد : تهذيب الزيادة (خ) : ص ٢١٢ ؛ الحوثي : نفحات العنبر، (خ) : ١/ ق٩٠أ .

(٣) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ص٦٨٣ .

(٤) أبوطالب: طيب الكساء، ص٣٦٢ ـــ ٣٦٣؛ العابد: تهذيب الزيادة(خ): ص٢١٢؛الحوثي: المصدر السابق١/ ٩٠أ.

(٥) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ) : ٣ / ص٦٨٢ ـــ ٦٨٣.

(٦) الكوكباني : المواهب السنية ،(خ) : ص٥٩ .

(٧) العابد : تهذيب الزيادة (خ) : ص ٢١٢ .

الشمال، فأسرع الإمام بإرسال الأموال الجزيلة صحبة أخيه يحيى بن علي بن أحمد وحثه في تنفيذ المهمة، لكن القاسم بن علي دخل في شجار مع مشائخ سحار لعدم منحهم من تلك الأموال التي قبضها من المهدي[1]، فتركوا مناصرته وانتموا إلى المنصور بزعامة الشيخ يحيى بن علي روكان، ووقعت بينه وبينهم حروب آلت إلى حصاره في ساقين، بعدها تمكن المنصور من إرسال ولاته على "صعدة"، فكانت أول خطبة له على منابرها في (٣جماد أول ١١٢٧هـ/ ١٧١٥/٥/٦م)، غير أن القاسم بن علي استمر في التخريب على الداعي حيث أرسل ولاة إلى "رغافة" وإلى "فللة" وغيرها، لكن عامل "رغافة" استدعى القبائل وتمكن من صدهم . ورغم ذلك إلا أن القاسم بن علي استمر في منابذة المنصور وإخلاصه للمهدي حتى نهاية حكمه[2] .

ومن جهة أخرى جهز الإمام حملة كبيرة بقيادة أخيهما أحمد بن علي بن أحمد وأمره بالتقدم من جهة تهامة فوصل إلى "مور" واستولى على "الأمروخ" من الشرف الأسفل وطرد أحمد بن خيرات عاملها من جهة الداعي، لكنه لم يستمر بها طويلاً إذ خرج منها بعد هزيمة أصحاب القاسم بن الحسين في الشرف[3] .

وكذلك أصدر الإمام المهدي توجيهاته إلى عامل المخلاف السليماني ـ الأمير حسين المرتضى ـ بالتقدم نحو الشرف، فسار إلى "المُعرَّض" وهناك سمع بتجهيزات محمد ابن خيرات فهرب منها عائداً إلى أبي عريش[4].

كما أن الإمام حاول استقطاب قبائل "يام" من نجران فأكرمهم وطلب منهم المصاهرة تاليفا لقلوبهم ولعلهم يقفون إلى جانبه ضد الداعي، فزُفت إليه العروس اليامية في (شهر صفر ١١٢٦هـ/ فبراير ١٧١٤م) لكنه تشاءم منها وأعادها إلى أهلها لأسباب غير معروفة وانقطعت علاقته بهم[5] .

---

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٦٢ ـ ٣٦٣ .

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ):٣/ ص٦٨٣.

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٤) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة (خ): ٣ / ٦٨٣ .

(٥) أبوطالب : السحر المبين، (خ) : ق ٧٥ أ، ب .

أما الداعي المنصور فقد تضرر كثيراً من مناورة القاسم السالفة وداخلته الظنون من جهة تغير القاسم لوجهته بعد الاتفاق السابق، لذلك فقد أسرع في إرسال القاضي العلامة محمد بن الحسين المعمري لمعرفة أهداف القاسم إلا أنه كان عميق الأغوار حيث أشار بأنه لم يُعَرِفه إلا "بأطراف"[١]، الأمر الذي زاد من قلق الداعي مما جعله يرسل محمد ابن الحسين، فمكث في حَبُور عشرة أشهر تم خلالها تبادل الرسل والرسائل للمفاوضة حول شروط القاسم لصحة بيعته، بعدها عاد إلى المنصور في شهر(شوال ١١٢٦هـ/ أكتوبر ١٧١٤م) ، حاملاً إليه شروط القاسم[٢] للموافقة عليها واعتمادها.

وكما يتضح من خلال مرسوم بيعة القاسم الغامضة فإنها تدلُّ على شدة دهائه ومكره وحرصه على السريّة التامة، حيث إنه لم يشر فيها إلى الشروط التي اشترطها وأبلغ ما لمَّح به هو كثرة تردد الرسائل فيما بينه وبين محمد بن الحسين "على ما اشتهر في البال وتأكد عندنا من أول الحال كما يعلمه ذو العظمة والجلال . ولما تم لنا ما نريد أشهدنا الله القوي الشديد الفعال لما يريد على مبايعتكم ومناصرتكم ومعاضدتكم"[٣]. ولكن بعض معاصريه أشار إلى شروط بيعته للمنصور والتي تكمن في إقطاعه جميع البلاد التي كانت تحت يد جد أبيه الحسن بن الإمام القاسم(ت: ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م)[٤]، وان يفوض تفويضاً مطلقاً في جميع مقاليد الحكم[٥]، أي أن الحل والعقد بيد القاسم بن الحسين وليس للداعي المنصور الحسين إلا الاسم[٦]، وبواسطة هذه الشروط تمكن القاسم من الاستحواذ على الإمامة ـ كما سنرى بعد قليل ـ وبما أن موافقة الداعي تمت على تلك الشروط المجحفة حال وصولها ـ في التاريخ المذكور ـ إلا أن القاسم استمر في المراوغة عدة شهور، الأمر الذي ضاعف قلق الداعي، ولعله

---

(١) انظر : مرسوم بيعة القاسم بن الحسين للمنصور الشهاري : الملحق ، وثيقة رقم(٦) .

(٢) الكوكباني : المواهب السنية ،(خ): ٢/ ٥٩ .

(٣) انظر : مرسوم بيعة القاسم بن الحسين للمنصور الشهاري : الملحق ، وثيقة رقم(٦) .

(٤) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٢٦٧ .

(٥) أبوطالب السحر المبين (خ) : ق ٧٦ب ، ٧٩ ب .

(٦) الشوكاني : البدر الطالع ، ص٥٦١.

بلغه أن القاسم يستشير في الدعوة إلى نفسه[١] . وحين طبع القاسم الخيل باسمه[٢] أرسل الداعي إليه علي بن محمد جحاف ليتحقق أخباره ويستحثه في إرسال البيعة، وقد أشار القاسم إلى ذلك في قوله:"فإنه منذ وصل إلينا بَحَثَ في ذلك الأمر الواجب على كل مسلم معرفة الصواب فيه ولم يعلم ما انطوت عليه النية إلاَّ خير فَهمْنَا ذلك، وصَبَرَ وانتَظَر وأبا الله أن لا يعود إليكم إلا بتمام الإرادة"[٣] أي بالبيعة التي وصلت إلى المنصور يوم الجمعة(٨ ربيع الأخر ١١٢٧هـ /١٢/ إبريل ١٧١٥م)[٤] وخطب له في بداية الشهر التالي[٥] ، أي بعد خمسة عشر شهراً من استقراره بعمران، وبعد ستة أشهر من عودة محمد بن الحسين إلى الداعي وموافقته على الشروط .

لعلنا ندرك أن تلك المُدة كلها لم يستهلكها القاسم فقط في الضغط على الداعي لموافقته على الشروط بل عمل إلى جانب ذلك كل ممكن في ترتيب أوضاعه باستقطاب الشخصيات القوية إليه، وتقليص نفوذ القيادات المخلصة لعمه الإمام المهدي مثل أخيه إسماعيل بن الحسين الذي كان في "وادعة" حاشد بمثابة الشوكة في حلق الداعي المنصور فلما وصل القاسم إلى عمران طلبه إليه، ولما أمتنع عن مبايعة الداعي زج به وبجميع أصحابه في السجن، بعد أن استولى على أملاكه[٦]، ولاشك أنهم كانوا يشكلون خطراً كبيراً عليه لكثرتهم، لذلك احتاج إلى وقت طويل وجهد كبير لتقطيع أواصرهم أو إقناعهم بالانضمام إلى الداعي، حيث بدأ باستشارة العلماء، ثم تدرج في إعلان بيعته، فبعد إرسالها إلى المنصور في ربيع الأول قام بطبع الخيل باسمه، ثم خطب للحق والمحقين، ولم يخطب للمنصور الحسين إلاَّ في بداية جماد الأول[٧]، أي بعد شهر

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٦٥ــ ٣٦٦.

(٢) أبوطالب : السحر المبين،(خ) : ق ٧٧ أ ؛ العابد : تهذيب الزيادة ، ص ٢١٢ ــ ٢١٣.

(٣) انظر : مرسوم بيعة القاسم بن الحسين للمنصور الشهاري : الملحق ، وثيقة رقم(٦) .

(٤) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ، (خ): ٣/ ص٦٨٤.

(٥) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص ٢٥٨ .

(٦) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٧٧ أ ؛ وطيب الكساء ، ص ٣٦٦ ؛ العابد : تهذيب الزيادة ، ص١١٣ ؛ ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٢٥٩ــــ ٢٦٠ ؛ زبارة : نشر العرف ١/ ٣٥٦.

(٧) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص ٢٥٨ ؛ أبوطالب : السحر المبين ، ق ٧٧ أ .

ونصف من إرسال بيعته للمنصور، ثم توجه إلى صنعاء لإرسال الجيش لحرب عمّه الإمام .

كان انقلاب القاسم على عمه وانضمامه علناً إلى الداعي بمثابة الحل الحاسم للأزمة فبالنسبة للداعي فقد قويت شوكته، وتأكد من نفسه أنه إمام حيث بعث بالبشرى إلى جميع الجهات، وظهر بالمظهر الرسمي للإمامة بأن وضع المظلة على رأسه التي لم يضعها إلا بعد بيعة القاسم، ثم تقدم إلى حوث ومنها جهز الجيوش لحرب المهدي(١).

أما بالنسبة للمهدي فقد انهارت قواه المعنوية والحربية لان معظم جيشه وعتاده قد استولى عليها القاسم ولكنه لم ييأس فقد استمر في شن الحرب بالمال والرجال ــ كما سيتضح ذلك خلال هذه الصفحات .

١١. توجه التحالف لحرب الإمام المهدي وخلعه :

لم يُقدم القاسم بن الحسين على إعلان انقلابه على عمّه وانضمامه إلى الداعي المنصور إلا بعد أن تمكن من إصلاح أوضاع المنطقة الشمالية وترتيب حصونها وضمها تحت قبضته، ثم أرسل المقدمات لحرب عمّه الإمام، وكان أول طلباته من المنصور أن حثه على سرعة جمع الجيوش وإرسالها لحرب الإمام حيث قال: "وحال صدرت [أي البيعة] وقد بثينا الرسائل في جميع القبائل وأنفذنا الأولاد إلى جميع البلاد ومنتظرين باديكم [مبادرتكم] ومسارعتكم ببث الجنود وعقد الألوية والبنود وإرسال الأمراء ومن هو بهذا الأمر أحرى كالصنو [الأخ] عز الإسلام محمد بن الحسين بن عبدالقادر فإنه المجاهد الصابر ثبّته الله في جميع المصادر، والتراخي مُخِلٌ والساعة فَرَط، ولم يبق عذر" (٢) .

لقد أسرع الداعي الحسين بن القاسم في تلبية طلب القاسم حيث بذل قصارى جهده في جمع القبائل منذ بداية شهر (جماد الأول ١١٢٧هـ/ مايو ١٧١٥م) .

(١) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ): ٣/ ص٦٨٤ ــ ٦٨٥ ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٦٦ ــ ٣٦٧ .

(٢) انظر : مرسوم بيعة القاسم بن الحسين للمنصور : الملحق ، وثيقة رقم (٦) .

أما القاسم بن الحسين فقد غادر مدينة عمران عائداً إلى صنعاء ومنها تابع إرسال الجيوش لحرب عمّه الإمام، وكان قد أرسل حملة مكونة من قبائل خولان بقيادة محسن الشامي، وأحمد بن محمد الشامي كانت مهمتها الاستيلاء على قرية "خدار" جنوب صنعاء، وترتيب "نقيل يسلح" لمنع عبور جيش المهدي، ثم أرسل حملة ثانية بقيادة ولد أخيه محمد بن علي بن الحسين للاستيلاء على "ضوران"[1]، لكن المهدي كان أسرع منهم إذ أرسل حملة بقيادة وزيره زين العابدين إلى "جهران"، وحملة أخرى مكونة من نحو (٧٠٠) فارس و(٢٠٠٠) من التوابع، وأهل الحدا وعنس، بقيادة ابن ابنه علي بن الحسين المعروف بالأسود إلى "زراجة"[2]، فاجتمعا في "جهران" واتفقا على التقدم إلى أسفل نقيل يسلح للهجوم على أصحاب القاسم بن الحسين، وهناك حصلت بينهما معركة كبيرة كاد النصر أن يكون حليف جيش المهدي لولا هبوط محمد بن علي من أعلا النقيل فظن أصحاب المهدي أنه القاسم بن الحسين وساورهم الفشل[3]، فانسحب زين العابدين إلى رصابة ومنها إلى المواهب، وانسحب علي بن الحسين إلى زراجة بعد أن سقط منهم نحو ثلاثين قتيلاً وتم أسر ستين مقاتل، ثم تقدم أصحاب القاسم إلى ضوران وتمكنوا من الاستيلاء عليها بسهولة نظراً لميل حاميتها إليهم[4]، وكان ذلك بقيادة محمد ابن علي بن الحسين [5].

في حين أرسل القاسم بن الحسين حملة كبيرة بقيادة ولده الحسين بن القاسم ـ الذي صار إماماً فيما بعد ـ وأمره بالزحف على المواهب، ثم أمده بالحملة التي وصلت من عند الداعي بقيادة الأمير محمد بن الحسين بن عبدالقادر، حيث أمره بالتوجه إلى "زراجة" ، التي لجأ إليها علي بن الحسين الأسود وجيشه ـ سالف الذكر - فأبدى شجاعته في البداية وشن هجوماً مفاجئاً[6] تمكن خلاله من إلحاق الهزيمة بمحمد بن

(١) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) :٣/ ص٦٨٥ ؛ أبو طالب: طيب الكساء ، ص ٣٦٨ ؛ أبوطالب : السحر المبين (خ) : ق ٧٧ أ.

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ص٦٨٥ .

(٣) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .

(٤) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣/ ص٦٨٦ .

(٥) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٧٧ أ، ب ؛ وطيب الكساء ، ص ٣٦٩ .

(٦) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٧٨ أ ؛ طيب الكساء ، ص٣٧٠.

الحسين وأصحابه، وطارد فلولهم الذين دخلوا المنازل للاحتماء بها، وبعضهم واصل الفرار إلى صنعاء، والقتل والأسر فيهم وكان من ضمن الأسرى علي بن الحسين وأحمد ابن الحسين أخوي الأمير محمد بن الحسين، ثم استمر الحرب على اللاجئين في البيوت من بعد الظهر إلى صباح[1] يوم الخميس (٤ شعبان١١٢٧هـ/٤ أغسطس ١٧١٥م)[2]، وكادوا أن يظفروا بهم لولا الظنون التي خالجتهم[3] فانسحبوا على إثرها إلى المواهب مقتنعين بما معهم من الأسرى، لكن محمد بن الحسين تتبعهم بالقتل والنهب والسلب، ثم حزّ رؤوس القتلى وأرسل بها إلى صنعاء[4] .

لاشك أن الخوف والقلق والسهر الذي انتاب القاسم[5] إثر هزيمة محمد بن الحسين في زراجة قد رفع من معنويات الإمام وأصحابه خاصةً حال مثول الأسرى بين يديه الذي هددهم بالقتل ثم وبخهم وزجَّ بهم في السجن، الأمر الذي شجعهم على ملاقاة جيش القاسم[6] في معركة قُباتِل[*] التالية :

- *قُباتِل آخر معارك صاحب المواهب :*

كانت معركة قُباتِل آخر المعارك الشديدة التي قادها الإمام المهدي حيث جمع حوالي عشرة الآف مقاتل من غير الخيالة[7]، ثم أمَّر عليهم ولده إبراهيم وإخوته[8]، وأمرهم بالتقدم لحرب جيش التحالف الذي كان قد عسكر في قرية قباتل بقيادة الحسين بن القاسم، ثم تبعهم بنفسه إلى ذي ماجد[**] لرفدهم ولحثهم على الإقدام، ولعلهم تشجعوا

(١) الكوكباني : المواهب السنية ،(خ) : ٢/ ص٦١ ـــ ٦٣.

(٢) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ،(خ) : ٣/ ص٦٨٧ .

(٣) أبوطالب: السحر المبين ، (خ) : ق ٧٨ أ .

(٤) الكوكباني : المواهب السنية ،(خ) : ٢/ ص٦٤ .

(٥) الكوكباني : نفس المصدر ، ٢/ ص٦٣ .

(٦) أبوطالب : السحر المبين ،(خ) : ق ٧٨ أ .

(*) قُباتِل : بضم القاف وكسر التاء: قرية من عزلة منقذة من أعمال ذمار ، وتبعد عنها بنحو ٣٢ كيلاً في الجهة الغربية الشمالية منها وبالقرب من هران .(معجم الحجري : ٢/ ٦٤٦)

(٧) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٦٩ .

(٨) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة،(خ):٣/ ص٦٨٦ .

(**) ذي ماجد : إحدى قرى عزلة منقذة من أعمال ذمار.(معجم الحجري: ٣٤٩/١).

من تحفيز والدهم حيث هجموا على جيش التحالف المُعسكر في قُباتل بشدة، فوقعت بينهما معركة ضارية أطاحت برؤوس كثيرة من الطرفين، وكاد النصر حليف أولاد المهدي لولا لجوء الحسين بن القاسم وأصحابه إلى البيوت للاحتماء بها، ورغم ذلك إلا أنهم أحاطوا عليهم من كل الجوانب، واستمروا في مضايقتهم حتى منتصف النهار إلى دخول الليل، حينها عاد المهدي إلى المواهب وأمرهم بمواصلة الضغط عليهم، وأمر مسئول الجمال بسرعة حمل العشاء وتوصيله إليهم [١]، لكن سرعان ما انهزم الجيش وتراجع إلى المواهب من بعد ذلك النصر وقد عول أحد المراجع أسباب الهزيمة إلى خيانة الوزير الحريبي حيث أشار بأن الحريبي "دسَّ إلى أولاد المهدي من يخوفهم المبات بتلك الليلة، فعملوا بقوله وتم له ما أراد من الحيلة"[٢]، كما أشار إلى مسئول الجمال بتأخير العشاء فلم يصل به إلاَّ في الصباح بعد عودة الجيش[٣]. وهذا لا يستبعد نظراً لانضمامه إلى المعارضة كما أسلفنا .

١٢. انضمام أولاد إسحاق إلى التحالف ضد عمهم المهدي :

لعل ظهور ضعف قيادة المهدي وفقدانه ما تبقى من هيبته كانت من أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه المعركة فمن جهة أدرك أولاد أخيه إسحاق[*] ــ أمراء المناطق الجنوبية والموانئ ــ نهاية عمهم القريبة فخافوا على مصالحهم وعدم نيلهم المزيد من الامتيازات إن استمروا في موالاتهم لعمهم لذلك أعلنوا انضمامهم إلى الداعي المنصور وبدؤوا زحفهم على المناطق المجاورة للاستيلاء عليها تحت زعامة الداعي. فأشعلوا الحرب ضد عمهم المهدي من جهة الجنوب والغرب، حيث استولى يحيى بن إسحاق

---

(١) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٧٧ب .

(٢) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٧٠ .

(٣) الحوثي : نفحات العنبر ،(خ): ١/٩٠ أ ، ب.

(*) كان أولاد إسحاق بن المهدي أحمد عمالاً لعمهم المهدي محمد على أهم المناطق الجنوبية فكان محمد بن إسحاق عاملاً على وصاب الأعلى، وأخيه يحي على الأسفل، وأخيهما الحسن على تعز، وبقية أخوتهم كانت تتم ولايتهم من جهة أخيهم محمد، وقد برزت نزعتهم وطموحهم إلى الإمامة مبكراً، ولهم صولات وجولات مع القاسم بن الحسين وولده من بعده أثناء محاولتهم الاستيلاء على السلطة إلا أن الحظ لم يحالفهم حيث تعرضوا للتنكيل والسجون كما سوف نرى .

على زبيد وحيس، واستولى أيضاً على بيت الفقيه بالتعاون مع حملة القاسم بن الحسين بقيادة الأمير سعيد الكامل فتمكنا من دخولها بعد حرب دامت شهراً حتى أستسلم الأمير سعيد شاوش واليها من جهة المهدي، كما استولى عبد الله بن إسحاق على العدين، وكذا استولى أحمد بن إسحاق على "إب" "وجبلة" "وحبيش"، أما أخوهم الحسين فقد استولى على "عُتمة"، عند ذلك حاول الإمام استعادة تلك البلاد وقمع أولاد أخيه، أو على الأقل مشاغلتهم عن مواصلة زحفهم واتصالهم بقوة التحالف الشمالية فأرسل حملة بقيادة الشيخ عمر مغلس للقبض على الحسن بن إسحاق لكن أولاد إسحاق أحاطوا بالحملة حال وصولها المخادر وشتتوا جمعها[١].

ولعل الإمام أشار إلى عبدالله بن صالح الحريبي بالهجوم على الحسن بن إسحاق، فجمع أهل الحجرية وضرب الحصار على الحسن في تعز وشدد الضغط عليه حتى أغار عليه أخوه عبدالله من العدين وأفرج عنه بعد حصار دام ثمانية أيام[٢]، ولا يستبعد أن هذه الحركة كانت بمثابة مناورة من جهة الوزير صالح الحريبي لكي يزول عنه شك الإمام بواسطة حملة ولده المذكور . كما أن الإمام أرسل حملة أخرى كبيرة بقيادة أولاده إسحاق ومطهر وعبد الكريم وولد ولده محسن وغيرهم من الشخصيات البارزة وأمرهم باستعادة تلك المناطق وضبطها[٣]، فتقدموا إلى "يريم" واستولوا عليها ونهبوها بعد أن طردوا عاملها من جهة القاسم بن الحسين[٤]، ثم واصلوا زحفهم حتى وصلوا "رأس نقيل سمارة" فتلقفهم النقيب حسين بن عبدالله الوادعي بالحرب فاضطروا إلى تحويل طريقهم وتقدموا إلى المخا، لكنهم لم يستقروا فيها حتى داهمتهم جنود التحالف من كل جانب حيث أغار عليهم أحمد بن إسحاق بن المهدي والفقيه علي الرضا، وكذلك أغار عبدالله بن إسحاق وكذا أهل حبيش، وبعض الجنود أرسلهم الأمير الحسين بن محمد القطابري من قعطبة، فوقعت بينهم معارك ضارية استمرت أربعة أيام سقط خلالها

(١) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ،(خ) : ٣/ ص٦٨٦؛ أبوطالب : طيب الكساء، ص ٣٧١.

(٢) أبوطالب : طيب الكساء، ص٣٧١ ؛ مجهول : المصدر السابق ، (خ):٣/ ٦٨٦ .

(٣) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ،(خ) : ٣/ ص٦٨٦.

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٧١.

قتلى كثيرة من الطرفين، لكنها أسفرت عن هزيمة أولاد المهدي والاستيلاء على جميع عدتهم وعتادهم ثم أخذوهم أسرى مع بقية أصحابهم وأرسلوا بهم إلى قاسم بن الحسين في صنعاء الذي عزر ببعضهم ثم زجَّ بهم في السجن[1] .

وهنا نلاحظ بروز دور قبائل المنطقة الشمالية التي أدركت فرصتها للانتقام من ذلك الإمام الذي سبق وأن دوخهم وأتعبهم، لذلك وصلوا إليه زاعمين مناصرته حتى إذا ما منحهم المال والسلاح عادوا إلى بلادهم ولعل أفضل دليل على ذلك ما فعله ابن حبيش وابن الأحمر حين أرسلهما الداعي لقتال الإمام فوصلوا إلى حَدَّة واشترطوا على القاسم ابن الحسين وأظهروا أنهم سائرين إلى الإمام مما جعله يرضخ لشروطهم وأعطاهم العطاء الواسع مقابل عودتهم إلى بلادهم[2]، وما هي إلا أيام قليلة حتى وصل ابن حبيش وقبائله إلى حضرة الإمام المهدي وأظهر مناصرته، فلما أعطاه الإمام الأموال والسلاح والنفائس الكثيرة أعلن الزحف على الداعي فتقدم إلى منقذة وبعد مكوثه فيها يومين هرب بجميع ما معه إلى بلاده عبر طريق الجوف[3]. "وقال : هذا بذاك ولا عتب على الزمن، وعندما بلغ الإمام المهدي يأس من الناس، وما علم أن ابن حبيش جُرحه لا يندمل على أخيه"[4]، وكذلك فعلت بقية القبائل ! والأكثر من ذلك فرار بعض أمراء جيشه النظامي وأفراده إلى القاسم الواحد يتلو الآخر خاصةً بعد فرار ولده يوسف[5].

رغم كل تلك الخطوب والهزائم التي توالت على شيخ المواهب الإمام المهدي إلا أنه لم يستسلم بسرعة بل استمر في المقاومة وكلما فشلت خطة أتبعها بأخرى، فحين أدرك خيانة قبائل الشمال وبعض أمراء جيشه توجه صوب قبائل المشرق حيث أرسل صهره ابن مغلس بالأموال إلى قبائل يافع ليستعين بهم في شن الحرب على التحالف من

(١) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ٦٨٨ ، وهناك رواية تشبهها في السحر المبين ، ق ٧٩ب ، لكن في طيب الكساء وضعها ضمن أحداث عام ١١٢٨هـ ، ص ٣٧٤.

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ٦٨٧ ؛ العابد : تهذيب الزيادة، ص ٢١٦.

(٣) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ٦٨٧ .

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٧٢.

(٥) مجهول: ملحق اللآلي : ٣/ ٦٨٧ ؛ أبو طالب: طيب الكساء :٣٧١ ـ ٣٧٢ ؛ والسحر المبين . ق ٧٨ ب ؛ العابد: تهذيب الزيادة : ٢١٦

جهتهم، لكنه لم يوفق في ذلك لتعرض رسوله للبطش والسلب والسجن من جهة إبراهيم ابن الحسين ــ عامله على رداع [1] .

وخلال اشتعال الحرب في المناطق الجنوبية تراجعت قوات الإمام إلى مدينة ذمار من أمام زحف قوات التحالف الشمالية التي كانت قد اجتمعت قياداتها بالقرب من ذمار[2]، ولعل الإمام أوقف زحفها هناك وذلك حين أرسل محسن الحبيشي ــ وزيره السابق ــ وسعيد المنوفي إلى القاسم بن الحسين "وأمرهما بالخوض في صلح باطنه المخادعات التي لا تخفى، ورام بهذا الإيهام تفتير العزيمة فاته بعد نفوذهما بلا فَصْلٍ جهّز"[3] الحملة المذكورة آنفاً والتي انتهت في المخا. حينها لم يسع قوات التحالف إلا ضرب الحصار على ذَمار ومنع الدخول والخروج منها وإليها حتى استسلمت حاميتها حال وصول المدد من القاسم بن الحسين بقيادة محمد بن الحسين بن عبدالقادر فدخلتها قوات التحالف في زها اثنى عشر ألف خيلاً ورجلاً، وذلك يوم السبت(٩ شهر رمضان ١١٢٧هـ /٧سبتمر ١٧١٥م)[4]، وحال دخولهم المدينة هدموا "حصن هِرَّان"[5]، وتوجهوا نحو المواهب .

عند ذلك عجز الإمام عن تلافي ذلك الخطب فلم يبق بوسعه سوى هدم حصن مِسْعِدَة ونقل المعدات والمدافع والسلاح إلى المواهب، ثم جمع أصحابه ودبّر أموره[6] واستعدّ للمقاومة .

أما القاسم بن الحسين فقد أرسل حملة كبيرة بقيادة أخيه العباس مدداً للقوات التي في ذمار وأمرهم بسرعة التقدم على المواهب، فتقدموا وأحاطوا بها من كل جانب حيث عسكر محمد بن الحسين بن عبدالقادر ــ أمير الأمراء ــ في مسعدة ، "والعباس بن الحسين بحصن هران والحسين بن القاسم بن الحسين في حيد ليوان، وعبد الله بن

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣ ؛ والسحر ، ق ٧٩ أ ؛ العابد : تهذيب الزيادة ، ص ٢١٦ــ ٢١٧.

(٢) الكوكباني : المواهب السنية ،(خ) : ٢/ ٦٥ .

(٣) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٧٤ .

(٤) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، ٣ / ٦٨٨ .

(٥) أبو طالب : السحر المبين ، ق ٧٨ ب .

(٦) ابن عامر : بغية المريد ، ص ٢٦٠ .

طالب والسيد عبد الله الكبسي بهجرة ذي غبب، ومحمد بن علي بن الحسين في ذي ماجد و أحمد بن إسحاق بن المهدي في ذمار"[١]، وبما انهم قد أحاطوا على الإمام المهدي من جميع الجوانب وأشعلوا عليه حرب عسكرية واقتصادية دامت أكثر من أربعين يوماً إلا أنه أبان خلالها عن شجاعة وشدة بأس يضرب بهما المثل رغم كبر سنه وتخلي الكثير عنه، حيث ضربهم بالمدافع وأوصل الطلائع بالطلائع، فقتل خلال تلك المعارك الكثير من الطرفين، ولو أنه سَلِمَ خيانة بعض خاصته لأنتصر عليهم وتمكن من صدهم على ما يبدو، ولعل خيانة رئيس الوزراء الحريبي الأخيرة كانت أشد وقعاً على الإمام وذلك عندما تخلى عنه خلال هذه الأزمة، حيث دسَّ للإمام من يقنعه بإرسال الحريبي للتلطف بالقاسم بن الحسين وإعادته إلى الطاعة والصلاح، فكان ذلك بمثابة الوداع الأخير[٢] .

وهنا يجب أن لا نتجاهل أهم العوامل المساعدة التي سهلت مهمة التحالف مثل تحول أصحاب الإمام ومستشاريه إلى التحالف، ولعلنا نذكر أن الحريبي المذكور كان من أهم عوامل نجاح الإمام للاستيلاء على السلطة عام (١٠٩٨هـ /١٦٨٧م) ـ كما سبق ذكره ـ وهنا تحول إلى أهم عوامل فشل حكم الإمام، وكذلك انتماء الولاة والقضاة وكل أعوانه إلى التحالف مثل الأمير الحسين بن محمد القطابري وقاضي ذمار محمد الأكوع وغيرهم[٣] .

١٣. تنازل الإمام المهدي صاحب المواهب عن الحكم :

إن شدة الحصار المضروب على الإمام وكثرة غاراته عليهم[٤] مع طول المدة قد أنهكت كلا الطرفين مما جعلهما يرضخا للسعي في الصلح الذي تم بواسطة سعيد المنوفي والد زين العابدين والحسين بن علي بن المتوكل على أساس تنازل الإمام المهدي عن الإمامة ومبايعته للداعي المنصور بشروط منها :

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٧٥ .
(٢) أبو طالب : السحر المبين (خ) : ق ٧٨ ب ـ ٧٩ أ .
(٣) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ): ٣/ ص٦٨٧ ؛ الكوكباني : المواهب السنية ،(خ) : ٢/ ص٤٠ .
(٤) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص ٢٦٠ .

١. إقطاعه بلاد خبان وولاية ريمة وبيت الفقيه باستمرار[١].
٢. أن يقرر له " حصة في العشر والمغانم"[٢].
٣. تسديد ديونه [٣] .
٤. تأمين من ثبت معه من أصحابه وعدم التعرض لهم بالسجن أو المصادرة[٤] .

كما تضمن مرسوم تنازله عن الإمامة بعض الشروط الصورية لتغطية ماء وجهه مثل اشتراط إقامة الشريعة المطهرة، وإزالة المظالم، وتقليد الأعوان الصالحين، وإزاحة أسباب الشر ، ومشورة العلماء في أمور العباد، وغيرها من الشروط التقليدية الهيكلية التي كان يستند عليها الطامحون إلى الإمامة، وفي الواقع أنه ركّز همته على الشروط الأربعة إن تم الوفاء بها و إلا فهو باقٍ على إمامته[٥] .

لقد خرج سعيد المنوفي من المواهب يوم الاثنين (١٦شوال ١١٢٧هـ /١٤/٥/١٧١٥م) [٦] حاملاً مرسوم تنازل المهدي إلى أمير الأمراء محمد بن الحسين بن عبدالقادر الذي دخل مع بعض الأمراء إلى المواهب في اليوم التالي للتأكد من البيعة وحضور الخطبة للمنصور في المواهب، وإلى تنازل المهدي عن الإمامة أشار الشاعر علي بن صالح بن أبي الرجال(ت:١١٣٥هـ /١٧٢٣م) مؤرخاً وواصفاً الحال في مقطوعة شعرية بديعة منها :

عَجباً للدَّهر مـن حَالاَتـه   لَمْ يَزَل للنَّاس فـي خـدَعٍ وشِـينِ
مَلك المهـدي حتـى أنهـا   عَظُمـت دَولتَـهُ فـي كـل عَـيْنِ
وأتـاني قَـائلاً فـي خَلْعِـه   قُلـتُ للقَائـل هـذا القـول مَـيْنِ

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٧٦ ؛ السحر المبين ، (خ) : ق ٧٩ أ .
(٢) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٧٩ ب.
(٣) ابن عامر : بغية المريد ، ص ٢٦٢، نقلاً من نص بيعة الإمام للداعي المنصور ، انظر: الملحق وثيقة رقم (٧).
(٤) ابن عامر: نفسه ، ص ٢٦٤ ، نقلاً من خطبة الجمعة التي خطبها خطيب الإمام المهدي بعد خلعه؛ الكوكباني : المواهب السنية ، ٢ / ص٧٦ .
(٥) انظر : مرسوم تنازل المهدي عن الإمامة وبيعته للمنصور : الملحق وثيقته رقم (٧) .
(٦) ابن عامر : بغية المريد ، ص ٢٦١ .

قـــال لاَ واللهِ قـــد أرخــــتَهُ		خُلِـع المهـدي بقاسـم وحـسين [1]

أما العلامة محمد بن إسماعيل الأمير (ت : ١١٨٢هـ / ١٧٦٩م) فقد وصف دولته العظيمة وجبروته وملكه الفخيم، ثم ما آل إليه من هوان وبخس ونهاية سيئة، وقصد بذلك العظة والعبرة لمن بعده وكان ذلك الوصف في قصيدة طويلة نقتطف منها الأبيات التالية :

إن المواهب قد شاهدت صاحبها		وكان في جوده كالعارض الهتن
سفاك كل دم عاداه صاحبه		مفرق منه بين الرأس والبدن
هتاك كل حمىً إن لم يطاوعه		كم من معاقل أخلاها ومن مدن
وحين أدبرت الأقدار عنه أتت		له المقادير بالآفات والمحن
ووجهت نحوه الأقدار أسهمها		وما لِسهمِ القضاء في الدفع من جنن
وعاد أعوانه عون عليه ولم		ينفعه أهل ولا مال مع المنن
وجاءه الضر ممكن كان ينفعه		ورب قبح أتى من ظاهر حسن
وضاق عيشاً وقد ضاق الفضاء بما		قد كان يحويه من خيل ومن خدن
وسار فرداً وفي أبنائه عدد		لكنهم وافقوا في جفوة الزمن
وأنضاف كل إلى من صار منتصبا		للأمر مرتفعاً في أرفع القنن

وبعد الإطاحة بهذا الإمام القوي تقاسم أمراء الأسرة البلاد فيما بينهم، فكان للقاسم ابن الحسين الحديدة وحيس ولحج وعدن والمخا إضافة إلى صنعاء وبلادها، أما المنصور الحسين الشهاري فكان نصيبه اللُّحية والزيدية و أبو عريش وحجة وكحلان وعفار مع الشرفين والسودة [2]، وكانت بلاد وصاب وتعز والعدين وشرعب و مغارب ذمار من نصيب محمد بن إسحاق واخوته[3]، أما كوكبان وبلادها فقد صارت من نصيب

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٧٦ ــ ٣٧٧ .

(٢) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٧٦ .

(٣) الحوثي : نفحات العنبر ، ١/ ق ٩١ ب .

محمد بن الحسين بن عبد القادر[1]، وبذلك عادت البلاد إلى أقطاعات مستقلة كما كانت في عهد المؤيد بن المتوكل قبل ثلاثين عاماً من تاريخ تنازل المهدي محمد المذكور.

ثانياً : محاولة المهدي محمد استعادة السلطة :

من المتبادر إلى الذهن بعد تقسيم البلاد ووقف تلك الحروب الدامية ـ التي استمرت ثلاث سنوات أنهكت البلاد والعباد في جميع أصقاع اليمن ـ أن تدخل اليمن في طور جديد من الاستقرار والهدوء ووقف نزيف الدم خاصةً بعد خلع المهدي عن الحكم ـ المسبب لتلك الحروب بزعمهم ـ وفي ظل الإمام الجديد المنصور الحسين بن القاسم الشهاري الذي التزم في مرسوم دعوته بتحقيق العدالة ونشر الأمن والاستقرار في ربوع اليمن[2]، ولكن ما حدث كان عكس ذلك تماماً فقد انتقل حال البلاد من سيئ إلى أسوأ ! كما عبَّر عن ذلك أحد المعاصرين في مقطوعة شعرية بديعة[3]، وهذا ما سوف تثبته الأحداث التي سيتم بسطها ومحاولة مناقشتها خلال هذه الأسطر .

١- ظهور الخلاف والحرب فيما بين الخلفاء :

لم تمض بضعة أسابيع ـ إذا لم تكن بضعة أيام ـ على تقسيم البلاد فيما بين الأمراء وعلى الاعتراف بالإمام المنصور الشهاري أيضاً حتى دبَّ الخلاف بينه وبين

---

(١) الحوثي : نفسه ١/ ق ٩١ ب ؛ الكوكباني : المواهب السنية (خ) : ٢/ ص ٧٩ـ ٨٠ ؛ انظر ملحق (١٤) شكل رقم (و) .

(٢) الحوثي : نفحات العنبر ، ١/ ق ٩١ ب ؛ الكوكباني : المواهب السنية (خ) : ٢/ ص ٧٩ـ ٨٠ .

(٣) لقد عاصر العلامة محمد بن إسماعيل الأمير أربعة من الأئمة ابتداءً من صاحب المواهب، فكانوا ينتقدون وضع البلاد وما صارت عليه من الظلم في عصره، لكن قارن ابن الأمير هذه المظالم بالمظالم التي صارت في عهد من أتى بعده من الأئمة فعبّر عن الوضع في قصيدة طويلة بعنوان "سماعاً عباد الله أهل البصائر" نقتطف منها الأبيات التالية :

وقد كنتم ترمون من كان قبلكم ... بظلم وجور قد جرى في العشائر
وقلتم نرى المهدي قد بان جوره ... لكل سميع في الأنام وناظر
صدقتم لقد كان الظلوم وإنما ... بظلمكم صار أعدل جائر
فكل فتى قد كان يشكو فعاله ... وسيرته قد صار أحسن شاكر

(ديوان ابن الأمير : طبعة القاهرة ١٩٦٤م ، ص٢١٥ ؛ غالب وآخرون : ابن الأمير وعصره ، ص٢٣٩) .

قائد جيشه الأعلى ــ القاسم بن الحسين ــ ولعل تجربة الإمام المخلوع الطويلة قد أنبأته بتلك الخلافات قبل وقوعها حيث نجده اشترط شروطاً في مرسوم بيعته واشترط الوفاء بتلك الشروط وإلا فالبيعة غير صحيحة ويستمر على إمامته[1]، لذلك فلا نستغرب من إشارة أحد المصادر حين رأى أن القصد من بيعة المهدي فك الحصار عن نفسه، كما أننا لا نستغرب من امتناع القاسم عن تنفيذ كل شروط عمه[2]، لتصبح سبباً في تحقيق طموحه الذي يكمن في الاستيلاء على السلطة والذي عمل من أجله منذ سنين عديدة، وقد رأيناه يشترط في صحة بيعته للمنصور السابقة تخويله الصلاحية المطلقة في جميع البلاد، فجعل من هذا الشرط الجسر الموصل إلى السلطة. وعلى ذلك فقد وقع الإمام الجديد بين داهيتين من أكبر دواهي عصره، إضافة إلى آخرين من ذوي الأطماع والطموحات البعيدة مثل أبناء إسحاق والأمير محمد بن الحسين بن عبدالقادر، فأثبتت تلك الأيام القليلة "أن المنصور لم يكن رجل سياسة، وإنْ كان رجل علِم"[3].

من الممكن القول أن القاسم بن الحسين قد رأى أنه قريب من الوصول إلى السُلطة بعد أن تمكن من الإطاحة بعمه الداهية، وتحجيم نفوذ المنصور في المناطق الشمالية القاحلة، ولم يبق أمامه سوى طموحات أولاد عمه إسحاق المتجددة والثابتين على الولايات الجنوبية الغربية والوسطى ذات الإيرادات الكثيرة، الأمر الذي يقف حائلاً دون وصوله إلى السُلطة بسرعة، لذلك عمل على إزاحتهم مستغلاً التفويض المطلق الذي منحه إياه المنصور بل الذي كان شرط من شروط قيامه معه كما تقدم .

لقد بدا تعنت القاسم واضحاً للعيان حين طلب من المنصور رفع يد يحيى بن إسحاق عن ولايتي بيت الفقيه وريمة، وطلب حضوره مع عامل ريمة ــ الأمير سعيد الكامل ــ الذي كان قد أرسله لقبض إيرادات تلك البلاد، وكان الهدف الظاهري من الحضور هو لغرض التفاوض في هذا الأمر، إلا أن مخادعة القاسم اتضحت باستيلاء سعيد الكامل عليها وعلى زبيد بعد ارتفاع يحيى بن إسحاق منها امتثالاً للأمر، وبذلك

---

(١) انظر : الملحق ، وثيقة رقم (٧) .

(٢) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٧٦ .

(٣) العمري : اليمن الحديث من المتوكل إسماعيل إلى المتوكل يحيى حميد الدين ، ص١٠٣ .

اخترق القاسم شرطاً من شروط صحة تنازل المهدي عن الإمامة لأن الولايتين من ضمن شروطه كما أسلفنا، وقد برر القاسم موقفه هذا بأن إيراداتهن الكثيرة سوف تساعد عمّه المهدي على الثورة مرة أخرى(١).

كان المنصور الشهاري قد وافق القاسم على عزل يحيى بن إسحاق عن بيت الفقيه على أساس تعويضه بولاية الحجرية(٢)، لكن القاسم زاد طموحه وظهرت ملامح استبداده حيث منع يحيى بن إسحاق من دخول الحجرية، ولم يقف عند ذلك بل طلب من آل إسحاق الارتفاع من تعز كلياً بحِجّة أنها من ضمن شروطه(٣)، وزاد الأمر حدّة عندما طلب من المنصور رفع آل إسحاق من ولاياتهم أجمع وأكد له عدم استقرار الوضع إلا بعد رفعهم، ولعله أرفق الطلب بإرسال يوسف بن المهدي محمد عاملاً على "جبلة" و"إب" وهي ولاية أحمد بن إسحاق، وأرسل النزيلي عاملاً على "العدين" وهي ولاية عبد الله بن إسحاق(٤)، ومن هنا عادت الفوضى مجدداً.

وفي نفس الوقت الذي تضرر فيه آل إسحاق من القاسم بن الحسين كان عمهم المهدي يطالب المنصور الشهاري الوفاء بالشروط بواسطة محمد بن إسحاق، عندئذٍ هرع الأخير مع إخوته شاكين تعسف القاسم إلى المنصور الشهاري الذي لم يتراجع عن إصدار توجيهاته بتثبيت كلّ منهم على ولايته حسب التقسيم السابق، كما أصدر توجيهاته التي تقضي بصد نزوة القاسم ولو بالحرب(٥)، وبذلك ضمن آل إسحاق مساندة المنصور ومساندة عمهم المهدي ضد القاسم بن الحسين. حينها تقدم يحيى بن إسحاق نحو "جبلة" فتمكن من استمالة يوسف بن المهدي إلى جانبهم، ولعل ميله نحوهم كان حمية على والده، حيث أرسل ولده يحيى بن يوسف إلى "المخادر" فاستولى عليها وقبض على عاملها من جهة القاسم وأرسل به إلى والده، ثم رتّب نقيل سمارة . وأرسل

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٧٦ ــ ٣٧٧ .

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣ / ٦٨٩ .

(٣) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٧٩ ب .

(٤) مجهول: ملحق اللآلي المضيئة : ٣/ ٦٨٩ ؛ أبو طالب: طيب الكساء، ص ٣٧٨؛ والسحر المبين، ق٧٩ ب ؛ ابن عامر: بغية المريد(خ): ٢٦٦.

(٥) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ٢٦٧ .

عبد الله بن إسحاق حملة بقيادة العواضي فاستولى على "حبيش" ، ومن هنا تطورت الأزمة إلى حروب دامية مجدداً، غير أن القاسم تمكن بدهائه من استعادة يوسف إلى جانبه سواءً بإرسال من يخوفه العواقب، أو بالمغريات التي قدمها له كتوليته "للحديدة" و"حيس" و"زبيد" المهم أنه تخلى عن آل إسحاق وعاد إلى صنعاء في شهر(جماد الثاني ١١٢٨هـ/ يونيو ١٧١٦م)(١)، عند ذلك أرسل القاسم بن الحسين ولده الحسين لتولي "إب" و"جبلة" والتصدي لآل إسحاق فكانت بينهما حروب طاحنة لم تتوقف إلا بعد التغلب على آل إسحاق وزجهم في السجون(٢) بعد دعوة القاسم ــ كما سنرى ــ .

وفي خلال تفاقم الأزمة واستمرار الحروب كانت الرسل تتردد فيما بين المنصور والقاسم للتفاوض في الصلح وإيقاف الحروب. وكان القاسم مصمماً على رفع أولاد عمّه إسحاق من البلاد بينما كان المنصور مصمماً على استمرارهم على ولاياتهم، لذلك طلب القاسم الاجتماع للتفاوض، ولعل المنصور خشي غيلة القاسم أو كان لديه من يخوفه عواقب الاجتماع(٣)، لكنه وافق على الاجتماع بشرط أن يصحب معه قبائل حاشد وبكيل فتعلل القاسم لذلك، ولعله خشي عواقب مرافقة تلك القبائل للمنصور فأحجم عن هذا الطلب والتفت صوب التجهيزات الحربية على آل إسحاق. كما ظهر خوف المنصور وتبرمه من القاسم فانتقل بعد هذا الموقف من حوث إلى شهارة، ليتخذها معقلاً حربياً ويجمع القبائل ويجهزهم لحرب القاسم. ثم فتح دار سك للنقود في شهارة، وأذن لمحمد بن الحسين بفتح دار سكٍ أخرى في كوكبان، فضعفت العملة وأرتفع الصرف لكثرت غشها بالنحاس(٤).

ورغم تعجرف القاسم ومراوغته معاً وشدة توتر الوضع إلا أننا نلاحظ محاولات المنصور الإصلاحية المتكررة حيث اقترح تثبيت أولاد إسحاق على ولاياتهم مقابل توريدهم أربعة آلاف قرش مع ثلث حاصلات الطعام إلى خزينة القاسم شهرياً، وأرسل

---

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص٣٧٩ ؛ السحر المبين ، ق ٨٠ أ ؛ مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة ،(خ):٣/ ص٦٨٩ ــ ٦٩٠.

(٢) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة : ٣ / ٦٩٤ ــ ٦٩٦ ؛ أبو طالب : السحر المبين (خ) : ق ٨١ أ ــ ٨٢ ب ؛ طيب الكساء ، ص٣٨٧ .

(٣) عوّل أبوطالب سبب الخلاف فيما بين المنصور والقاسم إلى مستشاري المنصور الذي وصفهم بقوله :"وكان عنده فقهاء جلة الدين عندهم لبس لخشن وأكل الحشب، فما زالت تباعد بينه وبين المتوكل وتذكي الآراب نار فرقه وتشب، فتجمع لتفريقهم، وأصغى إلى تزو يقهم" .(أبو طالب السحر المبين (خ) : ق ٨١ أ) .

(٤) أبو طالب: طيب الكساء ، ص٣٧٨ ــ ٣٧٩؛ العابد: تهذيب الزيادة ، ص٢١٩؛ الحوثي: نفحات العنبر،١/٩١ ب .

وفداً برئاسة أحمد بن هاشم الهدوي لعرض هذا الاقتراح على المتحاربين وتنفيذه، وقد أظهر القاسم موافقته على الاقتراح حال وصول الوفد إليه بل وكافأهم عليه، ثم أرسلهم إلى أولاد إسحاق، لكن الواقع اثبت عكس ذلك فلم يصل الوفد منطقة وصاب إلا وأصحاب القاسم مستمرين في الضغط على عُتمة رافضين وقف الحرب والإصغاء للصلح، ويبدو أن الوفد رفع بالواقع إلى المنصور واستمر في السعي بالصلح حتى أتت توجيهات المنصور بالانضمام إلى أولاد إسحاق، عند ذلك تقدموا معهم لصد أصحاب القاسم عن عُتمة وذلك يوم السبت (٩جماد الأخر ١١٢٨هـ /٣٠/٥/١٧١٦م)[١].

ثم أصدر المنصور توجيهاته التي تقضي بتوقيف الحرب في المناطق الوسطى وأن يرتفعوا جميعاً من تلك البلاد ولا يعتدي أحد منهم على بلاد الآخر، ومن لم يمتثل فهو خارج عن طاعته، عند ذلك ارتفع آل إسحاق، لكن في حال ارتفاعهم كان القاسم قد جهز أمراءه للوثوب على تلك الولايات ! إذ جهز الأمير الحسين بن محمد القطابري وجعل له ولاية في العدين، وجهز عبدالله بن علي الكبسي وجعل له ولاية في تعز، وكذلك جهز عبدالله بن طالب وجعل له ولاية في "إب" و"جبلة"[٢]. كما أنه تصالح مع يوسف بن المهدي على الولايات المذكورة سابقاً، حينها أشتد غضب آل إسحاق وعادت الحرب والتطاحن من جديد .

ثم أن المنصور أرسل أميرين من عنده مرة أخرى وأمرهما برفع عمال الجهتين من كل من ريمة والعدين، فلما وصل الأميران إلى القاسم رحَّب بهما وأمرهما بتنفيذ أوامر المنصور، وحال وصولهما ريمة امتثل محمد بن إسحاق للأمر، لكن حال رفع عسكره منها "دخلها عسكر القاسم بن الحسين عن أمره في ما زعموا، وكانت لهم الغنيمة، ويقال إنه أشار على من بالعدين بالثبات على حالهم، والتظاهر منهم في عدم امتثالهم"[٣]. وزاد القاسم على ذلك أيضاً أن أرسل في شهر (شعبان ١١٢٨هـ/ يوليو ١٧١٦م) حملة كبيرة بقيادة ولده الحسين بن القاسم لولاية تلك المناطق وقمع آل إسحاق [٤].

(١) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣ / ص ٦٨٩ .
(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة،(خ) : ٣ / ص٦٩٠ .
(٣) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ .
(٤) مجهول : المصدر السابق ،٣/ ص٦٩٠ .

٢- المنصور يعلن عزل قائد الجيش القاسم بن الحسين :

ولما تمادى القاسم بن الحسين في استبداده ومراوغته اشتد قلق المنصور وخوفه، ولعله تأكد أن الدور عليه بعد آل إسحاق، عند ذلك أعلن عزل القاسم "وكتب إلى البلاد جميعاً من بلاد حاشد وبكيل وأهل الجهات القريبة من صنعاء بأنهم يحتفظوا بالواجبات ويعتمدوا ما يصل إليهم، وأنه قد رفع يد القاسم بن الحسين"[١]. وكذا أمر آل إسحاق بالتقدم على موانئ اليمن والاستيلاء عليها[٢] .

غير أن القاسم بن الحسين لم يلتفت إلى إعلان عزله الصادر من إمامه الجديد، واستمر في إرسال الإمدادات إلى ولده الحسين ليتم القضاء على آل إسحاق في أقرب مدة ممكنة، ثم عزم على خلع المنصور، فبحث في مبرر شرعي ليصبغ هدفه به ولعله وجده في إرسال بعثة مكونة من كبار علماء صنعاء وأمرائها، وذلك للتفاوض مع المنصور وإقامة الحجة عليه بواسطتهم، لكن المنصور أقنعهم بأنه لن يتخلى عن آل إسحاق مهما كانت النتائج[٣]، وبذلك حقق رغبة القاسم .

لقد شحذ المنصور همته للتصدي للقاسم لكنه كان يفتقر إلى حُسن القيادة والتدبير فلم يكن بالرجل القيادي الماهر الذي يسيطر على قيادته وأتباعه، ففي بداية شهر شوال من العام نفسه قام بجمع قبائل حاشد وبكيل وأمرهم بالتقدم على صنعاء، وبتحصيل الواجبات من كل المناطق التي يمرون منها[٤].

ولما خرجت تلك الجموع من شهارة تحولت وجهتها من حرب قوات القاسم إلى نهب الرعية فتوجه ابن جزيلان وابن الأحمر نحو "السودة" و"كحلان عفار" و"حجة" فنهبوها نهباً ذريعاً، ثم تقدموا إلى "كوكبان" فصالحهم الأمير محمد بن الحسين بن عبدالقادر ببعض المال ضمن به لهم، ومنها خرجوا إلى "حراز" فنهبوها حتى صالحوا أهلها بالأموال الكثيرة والتزموا بالطاعة، ثم نزلوا إلى الحيمة فوقعت بينهم حرب

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٢٦٧ .

(٢) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة،(خ) : ٣ / ص٦٩٠ .

(٣) أبو طالب: طيب الكساء ، ص ٣٨١ ؛ والسحر المبين ، ق ٨١ أ ؛ العابد: تهذيب الزيادة (خ) : ٢٢٠ ؛ الحوثي: نفحات العنبر (خ) : ١/ ٩١ ب — ٩٢ أ.

(٤) ابن عامر : بغية المريد ،(خ) : ص٢٦٧

أسفرت عن أسر عاملها وسقوط بعض القتلى، عند ذلك أرسل إليهم القاسم بن الحسين ببعض المال مقابل عودتهم إلى بلادهم[1]. في حين كانت طريق علي بن هادي حبيش وجماعته نحو "تهامة" فاجتمع مع الأمير سرور فقيه عامل المنصور على "اللحية" والتقيا مع قوات القاسم في معارك عديدة كان النصر في الغالب حليف جنود المنصور[2]، لكنها انتهت بمقتل الشيخ علي حبيش وانضمام قائد جيش المنصور الشهاري[3] إلى جانب الإمام القاسم بن الحسين.

٣- دعوة القاسم بن الحسين وخلع المنصور:

لقد أضعف خروج القبائل هيبة المنصور الإدارية والسياسية الأمر الذي استغله القاسم لصالحه، حيث احتج على المنصور بتلك الفوضى والاضطرابات التي خلفتها القبائل، فجمع علماء صنعاء وأمراءها واستشارهم في حل هذه الأزمة، فكان بينهم الطامحون إلى السُلطة الذين أبرزوا سلبيات المنصور وأجمعوا على خلعه يوم الجمعة (٨ ذي القعدة ١١٢٨هـ /٢٣أكتوبر١٧١٦م) . وبقيت الإشكالية حول اختيار البديل، وبينما هم على وشك انتخاب البديل إذ بالقاسم يفضُ الاجتماع ويؤجل الخوض في ذلك إلى اليوم التالي، وهناك أظهر سياسته الخطيرة فكيف يسمح لغيره تولي السلطة بعد تلك التضحيات التي قدمها، ومع أنه كان غير حائز على شرط العلم الذي يؤهله للإمامة لكنه عمل على استعاضة هذا الشرط بماله وسيفه، إذ عمل على استمالة محسن بن المؤيد ــ أحد الشخصيات المرموقة في أسرة آل القاسم ــ، الذي برز خلال الاجتماع وقال :"لا نرضى بغير القاسم بن الحسين إماماً فهو الأنهض للمسلمين والعارف بأحوال الدنيا والدين، ثم اجتذب يده فبايعه فاقتدى به من حضر في المجلس ولم يراجعه"[4].

---

(١) ابن عامر : بغية المريد ، ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨.

(٢) الحداد : تاريخ اليمن العام،٤/١٠٧؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٨٦ ــ ٣٨٧.

(٣) ابن عامر : بغية المريد ، ص ٢٦٨ ؛ مجهول : المصدر السابق ، ٣/ ٦٩٢ ؛ أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٨٨ ــ ٣٨٩ ؛ والسحر المبين ، ق ٨١ ب ــ ٨٢ أ ؛ العابد : تهذيب الريادة ، ص٢٢٢ .

(٤) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٨٢ .

عند ذلك دعا القاسم إلى نفسه وتلقب بالمتوكل في يوم السبت (٩ ذي القعدة ١١٢٨هـ/ ٢٤ أكتوبر ١٧١٦م)[١]. ثم أرسل مرسوم دعوته إلى جميع الولاة والأمراء والمشائخ ومن ضمنهم المنصور وعمه المهدي وأولاد عمه إسحاق، فامتنعوا عن إجابته مبرراً كلاً منهم موقفه[٢]، ولم يبايعه سوى أمير كوكبان محمد بن الحسين بن عبدالقادر[٣] .

وعلى ذلك فقد تحتم على المتوكل قاسم أن يشن الحرب في ثلاث جبهات للحصول على بيعة المذكورين، فخاض ضدهم معارك شرسة تركت آثاراً سيئة على البلاد والعباد حتى يومنا هذا، خاصة في القرى والمدن التي دمروها وتُركت أطلالاً كقرية هجرة "ذي غبب" في شمال شرق ذمار التي ما زالت خِاربة إلى اليوم، وقد آلت تلك الحروب إلى القبض على آل إسحاق واستسلام أخيهم محمد في(شهر ربيع ١١٢٩هـ/ إبريل ١٧١٧م)[٤] بعد حروب دامية وقعت بينهما في تعز وعُتمة[٥]، كما خاض ضد المنصور معارك شديدة في تهامة وعفار والأشمور أنهكت قوى المنصور المالية والحربية فانفض الناس من حوله، واقتصر نفوذه في شهارة وحبور والشرفين[٦]، وبقي مسلوب الإرادة يتنقل فيما بين تلك المناطق حتى توفى يوم الثلاثاء (٧ أو ١٠ شعبان ١١٣١هـ/ يونيو ١٧١٩م)[٧]، أما عمّه المهدي فقد تصاولا حتى وافاه الأجل كما سنرى خلال هذه الصفحات.

٤- موقف المهدي من خلافات التحالف :

مضى عام كامل على بيعة المهدي للمنصور منذ شهر (شوال ١١٢٧هـ/ أكتوبر ١١١٥م) إلى دعوة القاسم في شهر (ذي القعدة ١١٢٨هـ/ أكتوبر ١٧١٦م)، شهدت

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ٢٦٩ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة،(خ) : ٣ / ٦٩٢ .

(٢) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص١٠٣.

(٣) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣ / ٦٩٢ .

(٤) ابن عامر : بغية المريد (خ) : ص٢٧٠ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، ٣/ ص٦٩٦.

(٥) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٨٧ .

(٦) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٨٨ـــ ٣٩٤ ؛ العابد : تهذيب الزيادة ، (خ): ص٢٢٨.

(٧) مجهول: ملحق اللآلي المضيئة،٣/ ٧٠٠ ؛ أبوطالب: طيب الكساء ، ص٣٩٩ ؛ ابن القاسم : طبقات الزيدية ، ١/ ٣٨٢ ؛ العابد : تهذيب الزيادة ، (خ) : ص٢٢٨ ؛ زبارة : نشر العرف ،١/ ٦٠٣.

خلالها البلاد حروباً طاحنة فيما بين الأحلاف آلت إلى خلع المنصور ودعوة القاسم بن الحسين . فماذا عن موقف الإمام المهدي المخلوع من هذه الخلافات؟

من الواضح أن المهدي التزم بما ورد في مرسوم بيعته للمنصور صاحب شهارة من السكون وعدم الفوضى، ورغم أنهم لم يطلقوا إليه ما شرطه من البلاد إلا أنه لم يتخذ أي إجراء معاكس سوى مطالبته بتنفيذ تلك الشروط وذلك بواسطة ابن أخيه محمد ابن إسحاق . فأتخذها الأخير سببا مباشراً لإعلان الحرب على القاسم ـ كما سبق ذكره ـ ، ورغم ذلك إلا أن المراجع المتاحة لم تشر إلى اشتراك المهدي في تلك الحروب مع أنه كان قادراً على ذلك فما زال محتفظاً بكمٍ لا بأس به من العدة والعتاد والجنود برغم تقدمه في العمر وقد تجاوز الثمانين من عمره.

وهنا أحد احتمالين أو هما معاً يمكن أن يُفسرا عدم اشتراك المهدي في الحرب وهما: إما إنه كان في حالة استراحة واستجماع لقواه النفسية والمالية والحربية التي بددتها تلك الحروب التي خاضها ضده قوى التحالف والتي استمرت ثلاث سنوات ـ كما تقدم ـ أو إن ولده إبراهيم كان معتقلاً في سجن القاسم إذا اعتبرنا أن إبراهيم كان سبباً في القلاقل والفتن كما أشار أبو طالب بسبب الحقد الذي كان يكنه على القاسم .

المهم أن الحرب تجددت بين الإمام المهدي وولد أخيه القاسم بن الحسين بعد دعوة الأخير وبالتحديد في الأيام الأخيرة من عام (١١٢٨هـ/ ١٧١٦م) ، فيا ترى ما هي الأسباب الداعية لذلك ؟ ومن هو السبب في اشتعالها ؟

أشارت المصادر المتاحة أن المهدي امتنع عن مبايعة القاسم بن الحسين(١) "متعللاً بأنه إنما خلع نفسه بشرط أن يكون الخليفة الحسين بن القاسم"(٢)، وكان امتناعه نتيجة طبيعية لما سبق أن فعله به القاسم من عدم تمكينه من الولايات التي شرطها، كما زج بولده إبراهيم في السجن، والأهم من ذلك ما كان شائعاً في عصره والذي يكمن في عدم اتفاقهم على امتيازات جديدة مقابل البيعة !

---

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٢٦٩ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣ / ٦٩٢ .

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ، (تحقيق : العمري) . ص٥٦٢ .

ولما امتنع المهدي عن مبايعة القاسم أمر الأخير عامله على ذمار بإعلان الحضر الاقتصادي على عمه، وأباح نهب الداخل إلى المواهب والخارج منها، كما أعلن إلغاء عملته التي يصدرها باسم المنصور، حينها تضرر المهدي من ذلك وحاول رفع الحضر عن نفسه بالسيف، فأرسل سرية بقيادة ولده عبدالرحمن نحو ذمار لكنه فشل وعاد إلى المواهب(١)، عندئذٍ جهز المهدي أتباعه وخرج بهم منوهاً الاحتفال بيوم الغدير(*) في (١٨ ذي الحجة ١١٢٨هـ /٢/١٢/١٧١٦م)(٣) ، وخرج عامل ذَمار للاحتفال بتلك المناسبة نفسها في نحو(٤٠٠٠) من أصحابه، عند ذلك أدرك المهدي الفرصة فهاجمهم، لكنهم لاذوا بالفرار إلى مدينة ذمار للاحتماء بها، فتبعهم المهدي وأصحابه ودخلوا المدينة ونهبوها وألقوا القبض على العامل والأمراء، ثم أعلنوا للناس أنهم في أمان الله وأمان المنصور، وعادوا بالأسرى إلى المواهب، وفي اليوم الثالث خرج المهدي ثانيةً إلى ذمار فزار قبور الأئمة، ثم أخذ بقية الخيول "وحمل المدافع ونهب دار الضرب وأخربها ورجع إلى المواهب"(٤) بعد أن ترك ولده عبدالرحمن عاملاً على ذمار وكتب إلى المنصور بالبشرى(٥) .

اشتد قلق القاسم بن الحسين لهذه الحادثة فاستدعى قبائل همدان وبني حشيش وخولان وبني الحارث و البستان وأرحب وأرسل الجميع لقتال عمّه، الذي كان قد استعد لمنازلتهم حيث وصل إليه ابن أحمر الشعر البرطي وقبائله، والهَيال الخَولاني وقبائله، فوقعت بينهم معارك شديدة في رُصَابة وقُباتل آلت إلى تراجع أصحاب المهدي إلى المواهب، وتقدم أنصار القاسم إلى ذمار يوم الخميس(٤ محرم ١١٢٩هـ /١٨/ نوفمبر ١٧١٦م)(٦).

---

(١) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ): ٣ / ٦٩٣

(*) يوم الغدير : سبقت الإشارة إليه في التمهيد ، ص ٣٦ ح .

(٣) مجهول : نفس المصدر والصفحة ؛ أبو طالب: طيب الكساء ، ص ٣٩٠ ؛ السحر المبين ، ق ٨٠ أ ؛ العابد : تهذيب الزيادة ،(خ) : ص٢٢٣ .

(٤) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ٦٩٣.

(٥) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٩٠ .

(٦) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ٦٩٣.

وخلال ضرب الحصار على المواهب كان أصحاب المهدي يشنون بعض الغزوات فيهدمون القرى وينهبوها كقرية هِجْرة "ذي غَبب" و"المُشْواق" و"ذي مَاجِد" وغيرهن، حينها رضخ الجميع للمفاوضة والصلح على بيعة المهدي للقاسم بشرط أن تُسلم له ولاية "ريمة" و"العدين" و"المخادر" ، وأن تُسلم له نسبة محددة من موارد جميع البلاد، وعلى ذلك تم الصلح وارتفع الحصار عن المواهب في أخر شهر (صفر ١١٢٩هـ / فبراير ١٧١٧م)[(١)].

لم يستمر الهدوء والوئام بين المهدي وولد أخيه المتوكل القاسم بن الحسين أكثر من سنة وشهر حتى جمع القاسم القبائل والجنود وأرسلهم لحرب عمه في شهر (ربيع الأول ١١٣٠هـ/ فبراير ١٧١٨م)، وأمرهم بخراب سور المواهب، وحمل ما فيها من آلات الحرب ، وكان الدافع لذلك أنه اتهم عمه بمكاتبة المشرق والاستنجاد بهم ضد القاسم[(٢)]، وكذا اتهمه بتحريض آل الرصاص الذين غزو على أطراف "المعسال" من بلاد "قيفة" بإشارة منه[(٣)] .

ولما اشتد الحصار على المواهب ولم يبق فيها سوى ثلاثين فارساً ونحو(٣٠٠) من التوابع كانوا يخرجون من المواهب لمناوشة المحاصرين لهم ونهب مزارع ذمار، عند ذلك أرسل القاسم "ابن عمّه عبد الله بن طالب بن المهدي في خيل ورجل قدر خمسمائة على أنهم يحوزون محمد بن المهدي ويقطعون مادته حتى يرضى بخراب دائر المواهب، ويُسَلّم المدافع وللإمام فيه النظر"[(٤)]. لكن المهدي لم يهتم بالتهديدات التي يصدرها القاسم حيث استدعى قبائل حاشد وبكيل واجتمع لديه جماعة منهم، واستمر في مناوشة أصحاب القاسم وشن الغارات عليهم، وكان القاسم قد زودهم بحملة كبيرة بقيادة ولده أحمد وأمره باستئصال المواهب والقبض على من فيها وإيصالهم إليه، لكن المنطقة الشمالية اضطربت فاضطر إلى استدعاء ولده وأرسل من يفاوض المهدي في

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص٢٦٩ ــ ٢٧٠ .
(٢) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ٢٧١ .
(٣) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ): ٣ / ٦٩٨ .
(٤) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ٢٧١ .

الصلح، فوافق المهدي بشرط إرجاع جميع ما قبضه القاسم عليه والتي كانت السبب الدافع له على مكاتبة القبائل المذكورة، وقد أشترط القاسم أن تُسلّم له بالتقسيط وليس دفعة واحدة، فوافق المهدي على ذلك وتم الصلح بينهما[١] .

٥- آخر مغامرات المهدي ووفاته :

يبدو أن القاسم لم يف بالشروط وتسليم ما التزم به أضف إلى ذلك فرار إبراهيم من سجن القاسم ووصوله إلى والده، وأخبره بالصعوبات التي يواجهها القاسم، ولعله حمل والده على العصيان وإعادة الدعوة لنفسه[٢]، لذلك فلا يستبعد أنه أعلن دعوته في (١٤رجب ١١٣٠هـ /١٢/٦/١٧١٨م) وحاول استعادة ما بدأ به قبل ثلاثة وثلاثين عاماً بالدعوة إلى نفسه متلقباً بالناصر[٣] . لكن الشيخوخة وعدم وجود القيادات الكفوءة الماهرة وقلة ما بيده من المال والسلاح والرجال قد خانته . ولعل دعوته هذه كانت بمثابة مناورة يهدف من وراءها الضغط على القاسم في وقت كان يعاني فيه من ضغط قبائل المنصور في الجهة الشمالية فيرضخ إلى تسليم نسبة الإيرادات التي التزم بتنفيذها وإطلاق تلك الولايات التي في شروط الصلح السابق .

ومع ذلك فإن المهدي رغم شيخوخته وقلة ما بيده إلا إنه حارب حرباً شديدة واستجلب القبائل وجهز حملة بقيادة ولده إبراهيم فهجم على ذمار، لكنه تراجع منهزماً إلى المواهب بعد معركة أسفرت عن مقتل بعض أصحابه[٤]، ثم كرروا الهجوم في اليوم التالي وكانوا قد اصطحبوا معهم "الجمال والزناجير الحديد لأخذ أموال أهل ذمار والقبض عليهم في الحديد"[٥] فوقعت بينهم وبين أهل ذمار معركة شديدة أسفرت عن قتلى كثيرة من الطرفين وهزيمة إبراهيم إلى المواهب[٦] .

---

(١) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة،(خ) : ٣ / ٦٩٨ .

(٢) أبو طالب : السحر المبين . ق ٨٣ أ ؛ طيب الكساء ، ص ٣٩٥ ؛ العابد : تهذيب الزيادة . (خ) : ٢٢٥ .

(٣) مجهول : نفس المصدر ، ٣ / ٦٩٩ .

(٤) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة،(خ) : ٣/ ص٦٩٩ .

(٥) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ٢٧٣ .

(٦) مجهول : المصدر السابق ، ٣/ ٦٩٩ ؛ ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ص ٢٧٣ .

عند ذلك تابع المتوكل قاسم إرسال الحملات على عمّه وأمرهم بضرب الحصار على المواهب الذي بدأ من منتصف شهر شعبان، فاشتدّ عليهم الضغط وبلغ منهم الجهد مبلغه حيث تعذر دخول الحبوب والتمويل إلا بالخفية وبأسعار عالية حتى بلغ سعر القدح الواحد من الحنطة ستة قروش وعُدِم السَّمن وغيره، وهكذا استمر الحصار بقية شهر شعبان فكان يتخلله مناوشات عنيفة سقط خلالها قتلى كثيرة من الطرفين[١]. ومع ذلك كان المهدي في أشد حالات المرض وتعطلت خزائنه مع مطالبة أصحابه بالنفقات والمستحقات[٢]، لكنه وعدهم بالفرج إلى يوم الاثنين[٣]، فاشتدت الحرب عليهم يوم الأحد ثالث شهر رمضان حيث حملت قوات القاسم على المواهب من كل جهة، واستمر الوطيس طول ذلك اليوم حتى أن الرصاص كانت تصل إلى النوافذ، ولم يوقف الحرب إلا العويل الذي سُمع من المواهب إثر وفاة المهدي بعد عشاء تلك الليلة[٤]، فظن أصحاب القاسم أن أحداً من الأمراء قد قُتل، ولم يتضح لهم الأمر إلا في الصباح عندما وصلت إليهم كتب أولاده تخبرهم وفاة والدهم المهدي يوم الاثنين (٥ رمضان ١١٣٠هـ / ١أغسطس ١٧١٨م)[*]. وقد علّق أحد معاصريه على وفاته بأنها كانت "تيسيراً عليه من تخبطه وإحواج أهله وترويع مكالفه وفرجاً على المسلمين من أذيته"[٥] نظراً لضيق المحاصرين له وما صاحب ذلك من شدة الجفاف وظهور المجاعات فهلك على إثرها كثيرٌ من الناس حتى خلت بعض القرى من ساكنيها، وهُجرت مزارع كثيرة، وعمَّت الأزمة جميع البلاد ما عدا صعدة[٦].

(١) ابن عامر : بغية المريد ، (خ) : ٢٧٣ .

(٢) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٩٥ .

(٣) أبو طالب : السحر المبين ، ق ٨٤ أ .

(٤) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة،(خ) : ٣/ ص٦٩٩ .

(*) أشار أبو طالب أن وفاته يوم الاثنين لثمان بقين من رمضان ولعل الأصح ما أثبتناه نقلاً عن بغية المريد نظراً لقرب المؤلف من ساحة الأحداث . (طيب الكساء ، ص ٣٩٦ ؛ السحر المبين ، ق ٨٤ أ) .

(٥) ابن عامر : بغية المريد ، (خ): ٢٧٣ ــ ٢٧٤ .

(٦) مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة،(خ) : ٣/ ص٦٩٩ .

وهناك رواية تشير إلى أن وفاة المهدي كانت انتحاراً، وذلك حين ضاق حاله من شدة الحصار، وظهر عجزه أمام تغطية نفقات أصحابه حينها شرب عصارة الراوند[*] فأودت بحياته. لكننا نستبعد هذه الرواية إذا ما أمعنا النظر في شيخوخته المفرطة التي أنافت على ثلاثة وثمانين عاماً، مع المرض الذي اشتد به من قبل وفاته بأسبوعين، كما أن هذه الكارثة ليست الأولى من الكوارث الشديدة التي تعرض لها حتى تؤثر عليه إلى درجة الانتحار فحياته مليئة بالكوارث كان أعظمها كارثة تنازله عن الإمامة، التي ربما كانت تدفع به للانتحار إذا كان ينوي ذلك. ولكن رغم مبررات استبعاد رواية الانتحار هذه إلا أن هناك من يعتمد عليها كالشاعر الذي أرخ وفاته بقوله :

أرى رب المواهب بعد غلبٍ ... وعظم مصائب وهوان بخسٍ
يقول خلافتي زالت واني ... بعام أرخوه قتلت نفسي[1]

ولعلنا نستنتج من خلال تلك الهجمات المتكررة التي كان يشنها المهدي على ولد أخيه أنها كانت بمثابة دفاع عن شروطه التي كان القاسم يمتنع عن تنفيذها، وليس محبةً منه في إثارة الفوضى أوالمشاكل كما أشار إليها بعض معاصريه، أوبهدف استعادة السلطة، اللهم إذا كان ذلك في محاولته الأخيرة بتحفيز ولده الطامح إبراهيم الذي كان يريد السلطة لنفسه على ما يبدو، لأنه قاد تلك الحرب، أما والده المهدي فقد كان حينها على فراش الموت .

وبعد وفاته "انتثر نظام سلك أولاده وسقط في أيديهم، وذهلوا لما نزل بهم ولم يأس أحد عليهم، فقد كانوا في عنجهية وتيه، وإن طلب من أحدهم الخير لم يلقه، وصاروا إلى المتوكل فأحسن إليهم كلية الإحسان"[2]، وانضموا إليه جميعاً مع العبيد والخيل والتوابع "سامعين مطيعين"[3].

(*) الراوند : دواء صيني بارد جيد للكبد ، لكنه مسهل خطر بالنسبة للطاعنين في السن. (ابن منظور : لسان العرب ، ٣/ ١٨٦ ، مادة : رند ؛ الكوكباني : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيرة . (خ) : ص ١٢٨) .

(١) أبو طالب : السحر المبين ، ق ٨٤ أ .

(٢) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٨٤ أ .

(٣) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣ / ص٦٩٩ .

وقد ذكر بعض كاتبي سيرة المهدي المهيلة والمتناقضة ما قيل في رثائه، ومن ذلك قصيدة مُعبّرة للحسين بن علي بن المتوكل (ت : ١١٤٩هـ / ١٧٣٧م) يرثي فيها خاله المهدي مطلعها :

مافي الأمانيّ ما ينجي من القدر   فأنجو بنفسك أما كنت ذا حذر

مضى محمد المهدي وقد نفذت   أحكامه في جميع الأرض فأعتبر[١]

وبوفاته تخلص المتوكل قاسم من أكبر عقبة كانت تقف حائلاً دون نفوذ سلطته التي تمكن منها بجدارة وصبر ، واستعاد بعضاً من هيبة الدولة المركزية، كما حاول استعادة أطرافها التي خرجت عنها .

وأخيراً نخلص من هذا الفصل بنتائج عدة تكمن أهمها في ظهور النتائج العكسية لاستبداد الإمام بالسلطة وارتيابه فيمن حوله وعنجهية أولاده واستبدادهم بدون كفاءة، كل تلك العوامل وغيرها خلقت طبقة طموحة تريد المشاركة في الحكم وتضمن مصالحها ونفوذها، فكونت معارضة تحمل مبادئ دينية وأخرى وطنية إنسانية وتلهج بأخطاء الإمام ومظالمه، ثم انفجرت ثورة عارمة حال دعوة الحسين بن القاسم الشهاري، فساندها الكثير من الشخصيات المتذمرة والطامحة وذات المصالح الفردية، مما حول المعارضة إلى تحالف، وشنوا حروباً ضارية أتلفت الأخضر واليابس، وشملت جميع أجزاء البلاد، وذهب ضحيتها آلاف البشر. وما أن تمكنوا من الإطاحة بالإمام حتى تقاسموا البلاد فيما بين أمراء التحالف، مكافأةً لحروبهم كل بقدر مشاركته وتضحيته التي بذلها، حينها فقدت الدولة المركزية هيبتها، وتحولت إلى شبه إمارات مستقلة، ولم يبق للإمام الجديد سوى نقش اسمه على السكة وذكره في خطبة الجمعة . ففشلت القيادة الجديدة في تحقيق ما كانت تلهج به من تطبيق المبادئ الدينية والإنسانية وتحقيق العدالة ونشر الأمن والاستقرار . كما أن الوضع لم يستقر عند تقسيم البلاد فيما بينهم فحسب، بل سرعان ما شب النزاع فيما بين المتحالفين أنفسهم، وذلك على المصالح والنفوذ، وظهر أمراء طامحون آخرون يتطلعون للمزيد من الولايات التي

---

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ .

توصلهم لنيل السلطة والاستقلال بها، فتطور النزاع إلى شن حروب دامية فيما بينهم ذهب ضحيتها آلاف الأبرياء، وتركت آثاراً ملموسة تراها واضحة على أطلال القرى والمدن التي هدتها تلك الحروب، والتي آلت إلى الاستبداد بالسلطة بالقوة العسكرية والدهاء والمكر . ومن هنا ضربوا بشروط الإمامة الزيدية عرض الحائط، وأصبحت تلك المبادئ والقيم الدينية والإنسانية التي يعلنوها في مراسيم دعواتهم للإمامة وفي محاضرهم شعارات زائفة، فصارت السلطة دنيوية خالصة وملك جبري وليس دينية كما يزعمون !!!

الفصل الخامس

علاقات الإمام المهدي محمد الخارجية

مدخل إلى علاقات المهدي محمد الخارجية :

بما أن الموضوع واسع ومتشعب ومراجعه نادرة إلا أنه من الممكن وضع عدة اعتبارات لتكون بمثابة عوامل مساعدة في استقراء تلك العلاقات ، وتكمن هذه الاعتبارات في تحديد أهم السمات التي اتسمت بها تلك الدول الكبرى خلال فترة البحث المحددة بالعقد الأخير من القرن السابع عشر والربع الأول من القرن الثامن عشر الميلاديين والتي يمكن إجمالها فيما يلي :

١. التدهور المستمر في إدارة الدولة العثمانية التي كانت تسود العالم، وذلك بسبب الفساد الذي لحق بأجهزة الحكم نظرا لتولي سلاطين ضعاف، وتسلط جنود الإنكشارية عليهم، مما أدى إلى هزائمهم المتكررة في أوربا، فقدت على إثرها الكثير من أراضيها، ومنحت الامتيازات الكثيرة للدول الأوربية كتجوالهم في أراضيها بدون ضرائب، وإعفائهم من الجزية التي كانت تمثل أهم مصدر من مصادر دخل الدولة . وقد ساد ذلك الاضطراب جميع الأجزاء الداخلة تحت سلطة الدولة في شمال أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية باستثناء عُمان واليمن .

٢. أفول نجم الإمبراطورية البرتغالية، وظهور التنافس التجاري القوي فيما بين القوى الكبرى: (هولندا وبريطانيا وفرنسا) للسيطرة على مناطق إنتاج التوابل وطُرق مواصلاتها في الخليج العربي والمحيط الهندي .

٣. ضعف شديد في كيان الدولة الصفوية، أدى إلى سقوطها في الربع الثاني من القرن الثامن عشر .

٤. تنافس فيما بين أمراء اليعاربة العمانيين آخر القرن السابع عشر الميلادي ، ثم تفوق في البحرية العمانية بداية القرن التالي .

٥. اضطراب أوضاع مكة والحجاز بشكل عام نتيجة لتنافس أشرافها على الولاية .

ولعل هذه الاعتبارات المذكورة قد هيئت المناخ لتقوية علاقات دولة المهدي بمختلف القوى الخارجية، فشهدت تفوقاً كبيراً لا عهد لليمن به خلال عهود سابقه من

حكم أئمة آل القاسم ولا في عهود من خلفه، أضف إلى ذلك عدة عوامل داخلية وطـدت تلك العلاقات منها :

١. زيادة شهرة تجارة البُن عالميا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثامن عشر الميلادي[١]، رغم معرفة الأوربيين المبكرة بهذه السلعة، بواسطة التاجر الهولندي فان دي بروك (Van de Brock) الذي زار صنعاء عام (١٦١٦م) [٢] .
٢. وصول التجار الفرنسيين إلى المخا عام (١٧٠٩م) لمنافسة التجـار الهولنـديين و البريطانيين مما أدى إلى زيادة الطلب على البُن وارتفاع سعره [٣].
٣. كرم الإمام المفرط حتى صار محطاً لِركاب الوفود من عدة أقطار أجنبية طمعا لنيـل عطاياه وجوائزه[٤] وخاصة الوفد الصفوي الذي استقبل استقبالاً عز نظيره.
٤. طموحات الإمام التوسعية فحاول منافسة الدول الكبرى في الوصول إلـى مـصادر بعض المنتجات واحتكارها، بل وتقديم التسهيلات التجارية، ولذلك قام بالسيطرة على جزيرة وميناء زيلع المقابل لباب المندب وجعله من أهم المراكز التجاريـة، وثكنـة عسكرية لتأمين المياه اليمنية من القرصنة [٥].
٥. حب الإمام للشهرة حيث كان يحاول مد نفوذه على الحجاز لغرض حـصوله علـى المكانة الدينية العظيمة التي كانت تتمتع بهـا الإمبراطوريـة العثمانيـة لحمايتهـا للحرمين الشريفين[٦].

ومع أن هذه العلاقات كانت تتسم بالطابع الاقتصادي والتجاري في الغالب إلا أنها كانت لا تخلو من الطابع السياسي والديني والاجتماعي، كما أنها كانت تتأرجح بين الود

---

(١) Marston : Britain's Imperial Role In The Red sea Area,U.S.A.١٩٦١ , P٢٧ .
(٢) C.G Brouwer : A L –Mukha Profile of Yemeni Seaport as Sketched by Servants of the Dutch East India company(VOC)١٦١٤-١٦٤٠, D,Fluyte Rarob, Amsterdam, p ١٤١.
(٣) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٧٩ .
(٤) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٤٤ أ .
(٥) أبوطالب : نفسه ، (خ) : ق ٣٣ أ ، ٧٠ أ ؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص٩٣ .
(٦) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ٥٣ أ ، ب .

والتوتر، وتخضع للمصلحة المرتبطة في بعض الأحيان . ففي حالة صفاء العلاقات كان يتم تبادل المراسلات والوفود والهدايا، أما في حالات التوتر فقد كان يتم إحاكة المؤامرات والدعم والمساندة لحركات العصيان والتمرد ــ وهذا ما سوف نلاحظه خلال الصفحات التالية :

أولاً : العلاقات مع الأقطار المجاورة :

١ ـ العلاقة مع أشراف مكة :

يبدو أن الحديث عن علاقة الإمام المهدي محمد مع أشراف مكة(*) يحتاج إلى معرفة أوضاع الأشراف ونوع سلطتهم باعتبارهم حكاماً للحجاز والحرمين حينذاك تحت سيادة الدولة العثمانية .

فقد كان الأشراف في بداية العصر الحديث حكاماً على الحجاز تحت سيادة المماليك في مصر، وحين تم للسلطان سليم الأول(ت: ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) القضاء عليهم والسيطرة على بلاد الشام ومصر عام(٩٢٣هـ /١٥١٧م) دخلت الحجاز ضمن سلطة الدولة العثمانية سلمياً، وذلك حين أرسل الشريف أبونمي ولده إلى السلطان سليم حاملاً مفاتيح الكعبة دليلاً على الولاء والطاعة فأكرم السلطان وفادته وأعاده بالخلعة وأقره على الولاية حسب ما كان عليه في عهد المماليك (١).

(*) أطلق المؤرخون لقب "شريف" على كل من يتصل نسبه إلى آل بيت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كنوع من أنواع المرتبة الدينية الرفيعة، وأشراف مكة ينحدر نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) الذين تفرعوا ــ مع مرور الزمن ــ إلى أسر عديدة مثل بني أخيضر، وبني موسى، وبني فليته، وبني قتادة، وتوالوا على حكم مكة والمدينة وبلاد الحجاز واليمامة منذ عام(٢٥١هـ /٨٦٥ م) حين استولى عليها إسماعيل بن أخيضر . ثم استمر الحكم في أسرة أخيضر حتى اجتاح القرامطة مكة عام(٣٦٠هـ/ ٩٦١م) وبعد انسحابهم منها استولى عليها موسى بن عبد الله مؤسس هذه الأسرة، ومع تكاثر أفرادهم كان يظهر من بينهم أمراء طامحون للولاية مما يؤدي إلى نشوب الخلاف والتنافس فيما بينهم، فتنتقل الولاية من فرع إلى آخر. وفي فترة البحث جرى التنافس فيما بين بني بركات وبين بني زيد ، كان يؤدي إلى الصدام المسلح في أغلب الأوقات إلا أن السلطة العثمانية كانت تحسم ذلك الخلاف بتولية أحدهما ومساندته كما سيظهر ذلك خلال البحث. (دحلان (أحمد زيني): خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، المطبعة الخيرية، القاهرة ، ١٣٠٥هـ ، ٨ ــ ٢١؛ جارشلي : أمراء مكة في العهد العثماني ، ص ٩٩ وما بعدها ؛ الغالبي: المتوكل على الله إسماعيل ، ص ١١٨ح ؛ السباعي : تاريخ مكة ، ط ٦ ، ٢ / ٣٧٤) .

(١) أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي، ص١٢٨ــ١٢٩؛ العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، ص١٤.

من المعلوم أن العثمانيين كانوا يكنون الود والاحترام للأشراف بحكم انتسابهم إلى البيت النبوي الشريف، فتركوهم يمارسون سلطتهم في الحكم التي امتدت على الحجاز كله، وأجروا لهم الرواتب والمكافئات مكتفين منهم بالتبعية الاسمية[1]، لكن يلاحظ هنا احتفاظ العثمانيين بولاية "جدة" تحت إدارتهم المباشرة، فكانوا يرسلون أمراءهم لإدارتها، كما أنهم ضموا إليها موانئ الساحل الإفريقي وأطلقوا عليها "صنجقية الحبش"[2]. وهذا يدل على تأكيد سيادتهم وتمسكهم بحق الإشراف العام إضافة إلى أهداف سياسية واقتصادية أخرى ستتضح فيما بعد .

وبما أن عملية اختيار شريف مكة كانت تتم فيما بين الأشراف أنفسهم، إلا أنه لا يتم الاعتراف به رسمياً إلا بعد المصادقة عليه من السلطان العثماني، حيث يمارس سلطته بالوكالة حتى يصدر له فرمان عثماني فيصبح والياً بالأصالة . وفي حالة تنافس الأشراف فيما بينهم على الإمارة ــ الذي كان يصل أحياناً إلى الصدام المسلح ــ فقد كان السلطان يتدخل في حسم هذا الخلاف ويصدر فرمان تعيين لأحد الأشراف، ويسانده بقوات عثمانية بحيث لا يخرج هذا التعيين عن أحد أفراد العائلة[3].

وتكمن مهمة شريف مكة في العمل على تأمين طرق الحجاج التي تفد إلى مكة والمدينة من جميع أقطار العالم الإسلامي، التي كانت تتوقف في تنفيذها على نوع علاقة الشريف مع القبائل المطلة على تلك الطرق البرية والبحرية[4]، ويتقاضى الشريف مقابل ذلك الكثير من المكافآت العينية والمالية التي كان يرسلها السلطان مع أمراء الحج وتسمى "الصر أو الصرة"[5]، إضافة إلى تخصيص نسبة معينة من إيرادات ميناء "جِدة" للشريف وأحياناً يمنح كل إيراداتها مقابل قيامه بتلك المهمة، وهذا ما صار مع الشريف

---

(١) أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٢٨.

(٢) الجمل (د. عطاء الله) : سياسة مصر في البحر الأحمر ، ص٤٢ ؛ أنيس: نفس المرجع ، ص ١٢٩.

(٣) جار شلي : أمراء مكة في العصر العثماني، ص١٢٦؛ أنيس : نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

(٤) أنيس: المرجع السابق ، ص ١٢٨.

(٥) ابن الوزير : طبق الحلوى ، ص ٢٩٤ ؛ أنيس : نفس المرجع ، ص ٢٧ ؛ يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣ / ق ١٦٣ أ ؛ جارشلي : المرجع السابق ، ص ٥١ وما بعدها .

"أحمد بن زيد" ـ آتي الذكر ـ حال ولايته الثانية[1] . وفي حالة اضطراب وضع الشريف وعجزه عن تنفيذ مهامه كان السلطان يرسل قوات عثمانية لقمع المتمردين، وتولية شريف آخر عند اللزوم [2]، كما إن تولية شريف أوعزله كانت تخضع لنوع العلاقة التي ينتهجها الشريف مع متصرف "جدة" وأمراء الحاج المصري أو الشامي. ومن هنا يرى الباحث أن الأشراف حكموا الحجاز تحت السيادة العثمانية المباشرة، وإن كانوا يتمتعون بصلاحيات واسعة فهذا لكونهم ينتسبون إلى البيت النبوي الشريف، وكذا للضعف الذي دب في أجهزة الدولة العثمانية، ولا يعني ذلك أنهم حكموا مستقلين كلياً عن الدولة كما أشارت إليه بعض المراجع الأجنبية[3]، وهذا ما سوف تؤكده نوع العلاقات التي مارسها الأشراف مع إمام اليمن خلال الأسطر التالية :

لقد عاصر الإمام المهدي محمد ثمانية من الأشراف كانوا يترددون على ولاية مكة، من مرتين إلى أربع[4]، وذلك نتيجة للتنافس الذي كان يحدث فيما بينهم على الإمارة في ظل تدهور الدولة العثمانية. وقد كانت علاقة الإمام تختلف من شريف إلى آخر بحسب المصالح المشتركة أو الاتصال فيما بينهما، إلا أنها كانت في الغالب متوترة نظراً لطموح الإمام المهدي الكامن في مد سيطرته على الحجاز وذْكر اسمه على منابر الحرمين الشريفين .

لقد كان الشريف "أحمد بن زيد"[*] أول أشراف مكة المعاصرين للإمام المهدي محمد، الذي كان ذا شخصية قوية وطموحة على ما يبدو، إذ تمكن من قمع العصاة

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ،(خ) : ٣/ ق ٩٩ أ .

(٢) الجبرتي : عجائب الآثار ،١/ ٤٤ .

(٣) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٨٥ ـــ ٨٩ .

(٤) انظر : الملحق رقم (٩) .

(*) أحمد بن زيد بن محسن بن الحسن بن الحسن بن أبي نمي: (١٠٥٢ـ ١٠٩٩هـ /١٦٢٤ـ ١٦٨٨م)، تولى إمارة مكة للمرة الأولى مشاركاً لأخيه سعد عام(١٠٨٠هـ)، ثم حدثت خلافات بينهما وبين أمراء العثمانيين أسفرت عن عزلهما في ذي الحجة (١٠٨٢هـ)، فتنقلا فيما بين قرى ومدن بلاد الحجاز حتى اضطرا إلى التوجه نحو السلطان العثماني عام(١٠٨٥هـ) الذي عفا عنهما وأكرمهما وأقامهما في استنبول. ولما توفي الشريف بركات عام(١٠٩٣هـ) شبّ التنافس بين الأشراف على السلطة، لكن السلطان العثماني حسم الخلاف بإرسال المذكور والياً على مكة وسانده بقوة عثمانية وجعل له إيرادات بندر جدة، وذلك في(٥ ذي الحجة ١٠٩٥هـ/١٢نوفمبر١٦٨٤م)، واستمر والياً حتى=

والمفسدين، فاستتب الأمن وعمَّ الرخاء ورخصت الأسعار[١]، ولم يقف عند ذلك بل قاده الطموح إلى محاولة مد نفوذه إلى الأراضي اليمنية مستغلاً ذلك الاضطراب الذي عمَّ اليمن خلال حروب الإمام المهدي محمد بن أحمد ضد منافسيه في بداية حكمه .

ففي بداية عام(١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م) امتدت يد الشريف أحمد بن زيد إلى بلاد "نجد" بالقرب من "نجران" . وبعد ثلاثة أشهر أرسل بعض الجنود العثمانيين بقيادة "الشريف طالب بن حسين الخواجي فاستولى على صبيا بعد أن طرد واليها من جهة الإمام المؤيد ابن المتوكل (ت: ١٠٩٧هـ /١٦٨٦م) وقال : "أصلها لنا وللسلطان"[٢]. غير أن الحسن بن المتوكل ــ أمير اللحية ــ حاول استعادتها الأمر الذي جعل الشريف "طالب بن حسين" يزور الإمام المؤيد ويلتمس منه منع عامل اللحية من التعرض له، ولكنه لم يوفق لشدة مرض المؤيد، لذلك عاد للاستنجاد بالشريف "أحمد بن زيد" ثانيةً[٣].

وفي شهر (ربيع الآخر ١٠٩٨هـ/ مارس ١٦٨٧م) اشتدت محاصرة الأمراء للإمام الناصر (المهدي) محمد بن أحمد في حصن المنصورة مما جعله يرسل إلى الشريف "أحمد بن زيد" مستنجداً به على منافسيه . وبما أن راصد الأحداث لم يفصح عن موقف الشريف المذكور إلا أنه أشار بوصول أخبار خلال شهر جماد الآخر تفيد بأن الشريف أرسل حملة بقيادة الشريف "أحمد بن غالب" ــ آتي الذكر ــ فوصلت إلى أطراف بلاد "قحطان" من عسير . ثم وصلته أخبار أخرى في الشهر الثاني تفيد بتوجه الشريفين "أحمد بن زيد" و"أحمد بن غالب" على رأس جيش كبير مكون من عرب وأتراك وأن أولهم وصل "صبيا"، متوجهين نحو صنعاء[٤]، ولعل الحملة تعثرت لسبب ما، مما جعل الشريف "أحمد بن زيد" يحجم عن مواصلة الزحف، واكتفى بإرسال كتاب

=وفاته .(المحبي : خلاصة الأثر، ١/ ١٩٠ ــ ١٩٧ ؛ جار شلي: أمراء مكة المكرمة في العصر العثماني، ص١١٧ ، ١٢١؛ يحيى بن الحسين : بهجة الزمن (خ) : ٣/ ق٩٩ أ) .

(١) الداعي : الدامغة الكبرى ،(خ):١٨٥/٢ ؛ يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ):٣/ ق٩٩ أ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣ / ق١١٤ أ .

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المصدر، (خ) : ٣ / ق١١٦ ب .

(٤) يحيى بن الحسين : نفسه ، (خ) : ٣ / ق١١٩ ب ، ١٥٧ ب ، ١٦٠ أ ، ب.

ينذر فيه المتنافسين عن إهمالهما موافاته بـ"صرّ" العام الماضي والحالي، وهددهم بعدم التسامح معهم(١)، وفيما يبدو أن الكتاب وصل في شدة الأزمة فلم يلق أي اهتمام، الأمر الذي جعل الشريف يرسل أحد أشراف صبيا في شهر ذي القعدة مصطحباً معه كتباً أخرى تتضمن التحذير من مغبة الاستمرار في التنافس، ونصحهم بسرعة الاتفاق على تنصيب أحدهم للإمامة، لأن أخبار التنافس قد وصلت إلى السلطان العثماني، كما أنه استفسر عن سبب عودة محمل الحج اليماني العام الماضي من غير الطريق المعتادة؛ فإن كان بسبب الخوف فيمكنهم السفر صحبة هذا الشريف، وكذا استمد منهم "الصرِ"(٢).

لقد كان اضطراب حجاج اليمن إحدى النتائج الحتمية لعدم اهتمام الإمام ومنافسيه بمراسلة الشريف مما أدى إلى اعتراض حجاج اليمن في الحدود ومنعهم من الدخول إلا بأمير حج وتسليم صرِّ العام الماضي والحالي، لكنهم تراجعوا عن طلبهم بعد مفاوضات طويلة مع الحجاج أنفسهم أسفرت على أن يدخلوا صحبة شريف صبيا المكلف من الشريف "أحمد بن زيد" فدخل بعض الحجاج وعاد البعض الآخر (٣) .

لم يستمر الوضع على هذا الحال كثيراً ففي نفس الوقت الذي توفى فيه الشريف "أحمد بن زيد" (٢١ جماد أول ١٠٩٩هـ/ ٢٣ مارس ١٦٨٨م) كان الإمام المهدي محمد قد تمكن من القضاء على أخطر منافسيه، وفرَّ بعضهم إلى مكة، وبدأ في الاستقرار؛ على عكس أشراف مكة الذين اختاروا "الشريف سعيد بن سعد بن زيد"(*) لولاية مكة بعد وفاة عمّه أحمد، وبينما هم منتظرين فرمان السلطان العثماني بالولاية إذ برز "الشريف أحمد بن غالب"(**) إلى ساحة التنافس وحصل على فرمان مزور من والي

(١) يحيى بن الحسين : نفسه ، (خ) : ٣ / ق١٦٣ أ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) : ٣ / ق١٦٧ ب .

(٣) يحيى بن الحسين : نفسه ، (خ) : ٣ / ق١٧٤ أ .

(*) الشريف سعيد بن سعد بن زيد (١٠٨٥ــ ١١٢٩هـ/ ١٦٧٤ــ ١٧١٦م): تردد على إمارة مكة أربع مرات إلا أنه لم يكن إدارياً ناجحاً، حيث دخل مع الأشراف في خلافات فكانت فترات حكمه من أصعب فترات حكم الأشراف، وكان مجموع مدة حكمه (عشر سنوات وأشهراً)، وتوفى أميراً عليها. (الزركلي : الأعلام ، ٣/١٦٨؛ جار شلي : أمراء مكة المكرمة في العصر العثماني ، ص ١٢٦ ــ ١٢٨) .

(**) الشريف أحمد بن غالب بن محمود بن مسعود بن الحسن بن أبي نمي الثاني : كان رجلاً قيادياً سياسياً طموحاً تولى إمارة مكة بعد وفاة أحمد بن زيد باقتراح من متصرف جدة، لكن سرعان ما لاذ بالفرار إلى اليمن فجهزه الإمام على رأس جيش استعداداً لفتح مكة، لكنه تآمر ضده مما أدى إلى عزله وترحيله إلى مكة عام(١١٠٥هـ/ ١٧٩٣م) فتوجه في العام التالي مع صديقه الشريف عبد الله بن هاشم إلى مصر واستقرا فيها=

"جدة" بعد أن أغراه ببعض الأموال، واقترح على السلطان العثماني بإصدار فرمان رسمي لتوليته، حينها هرب الشريف "سعيد بن سعد" إلى اليمن(١). وفي خلال شهر (رجب ١١٠١هـ/ إبريل ١٦٩٠م)(٢)، كان الأمراء الفارين من بطش الإمام في "مكة" لدى أميرها الشريف "أحمد بن غالب" وكان من بينهم الشاعر "أحمد بن أحمد الآنسي" المعروف بالزنمة والذي مدحه بقصيدة بائية(*) عرَّض فيها بفساد ومظالم الإمام المهدي محمد وحثَّ الشريف على غزو اليمن(٣)، لكن الشريف لم يمكث أكثر من بضعة أيام حتى لاذ بالفرار بنفسه إلى الإمام(٤)، إثر هزيمته في الحرب التي شنها ضده خصومه من الأشراف وأمراء الأتراك، وأمَّروا بدلاً عنه الشريف "محسن بن حسين"(**) (٥) . ويبدو أن تعاونهم ضد أحمد بن غالب كان بسبب استيلائه على غلال وصرة أهالي الحرمين الشريفين وعشائر العرب المكلفة بنقل تلك الغلال، كما أنه مد يده إلى مجوهرات الروضة المطهرة على جهة الاقتراض (٦) .

من المؤكد أن الإمام المهدي محمد قد فرح بوصول الشريفين المخلوعين إليه ليحقق بواسطتهما طموحاته التي تكمن في سيطرته على الحجاز وإعلان اسمه على منابر الحرمين الشريفين، ورغبته في استعادة منافسيه اللاجئين في مكة ليتمكن من

=إلى عام(١١١١هـ/ ١٧٠٠م)، ثم توجها إلى استنبول وهناك وافاه أجله بعد شهر من وصوله، بينما توفى صديقه عام(١١١٣هـ/١٧٠١م) . (البهكلي : العقد المفصل مخطوط في ٣٠ ورقه رصد فيها المؤلف أحداث الشريف المذكور أثناء إمارته على أبي عريش من عام ١١٠٢هـ ــ ١١٠٥هـ ؛ جار شلي : أمراء مكة في العصر العثماني ، ص ١٢١ ــ ١٢٥ ، ١٢٨؛ العمري : الموسوعة اليمنية، ط٢، ٤/ ٣٠٤٣) .

(١) جار شلي : نفس المرجع ، ص ١٢٥ ــ ١٢٦ .

(٢) الآنسي : العلم المفرد من إنشاء المثنى أحمد بن أحمد، (خ) : ص٥٠.

(*) مطلع القصيدة :

غَج بِالْكَثِيبِ وَحَيِّ الحيَّ مِنْ كَثَبِ   فثم يَذْهَبُ مَا في الصَّب من وَصَبِ

وهي طويلة فيها الكثير من مثالب حكم الإمام ومفاسده ، وتحريض الشريف لغزو اليمن لما جبل عليه من القحة كما علق عليه العلامة الشوكاني في: البدر الطالع ، (تحقيق : العمري) ، ص ٥٥. وانظر القصيدة في: ديوان الآنسي: المصدر السابق ، ص٤٧ ــ ٥٠ .

(٣) الحوثي : نفحات العنبر، (خ) : ١/ ق٤٨أ؛ الشوكاني : البدر الطالع ، ص ٥٥ ؛ زبارة : نشر العرف ،١/ ٧٥ .

(٤) البهكلي : العقد المفصل،(خ): ق ٢ ب ؛ الداعي: الدامغة الكبرى،(خ): ٢/ ١٧٦.

(**) لم نعثر لهذا الشريف على ترجمة وافية ، لكنه التزم بعد عزله بالعزلة والهدوء في المدينة المنورة حتى وفاته عام(١١٠٧هـ /١٦٩٥م). (جارشلي : أمراء مكة في العهد العثماني ، ص ١٢٦) .

(٥) الجبرتي: عجائب الآثار ،١/ ٤٤ ؛ الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ) : ق ١٦٢ أ .

(٦) جار شلي : أمراء مكة في العهد العثماني ، ص ١٢٣ .

إهانتهم، إضافة إلى رد الفعل لما فعله به الشريف "أحمد بن زيد" سابقاً. لهذا وذاك فقد قام بمساندة الشريف "سعيد بن سعد" حتى تمكن من استعادة ولاية مكة ثانيةً في عام (١١٠٢هـ/ ١٦٩١م) بعد أن هَزَم الأتراك وطرد واليها الشريف "محسن بن الحسين". وقد أقرت الدولة العثمانية ولاية الشريف سعيد "مؤقتاً" ومنحته درجة وزير في (محرم ١١٠٣هـ / ١٦٩٢م) نظراً للظروف التي كانت تمر بها الدولة من الفساد الإداري والحروب التي كانت تشنها داخل القارة الأوروبية[١]، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً فقد أرسلت "الشريف سعد بن زيد"[*] والياً على مكة بدلاً عن ولده المذكور وذلك في شهر رجب من العام نفسه [٢] .

لعل الشريف سعيد أراد ردَّ الجميل للإمام فعمل على مضايقة الأمراء اللاجئين حتى ضاقوا ذرعاً وعادوا إلى الإمام الذي أودعهم في السجون[٣]. وهنا سؤال يطرح نفسه وهو كيف كان موقف الإمام من استنجاد الشريف "أحمد بن غالب" به ما دام قد حقق غايته بنجاح نصيره ــ الشريف سعيد ــ في تولي مكة ؟!

من المؤكد أن إجابة السؤال تكمن في تتبع الأحداث حيث يشير أحد المراجع أن وفادة "أحمد بن غالب" على الإمام كانت في العشر الوسطى من شهر (رمضان

---

(١) جارشلي : أمراء مكة في العهد العثماني ، ص ١٢٤ ـــ ١٢٦ .

(*) الشريف سعد بن زيد: (١٠٥٢ـــ ١١١٦هـ/ ١٦٤٢ـــ ١٧٠٥م) كان شجاعاً كريماً، أبياً نشيطاً يحب الاستقلال بالسلطة دون غيره، ويكره تسلطُ الأتراك، وقد تولى مكة أربع مرات متقطعة كانت الأولى في عام (١٠٧٧هـ) بعد وفاة والده بالاشتراك مع الشريف حمود ثم انفرد بالولاية بموجب فرمان سلطاني في رجب من نفس العام. وفي عام (١٠٨٠هـ) أشترك معه أخوه زيد في الولاية، بموجب فرمان سلطاني . لكنه دخل في نزاع مع الأمراء العثمانيين فأعلن العصيان واستعان بقوات من اليمن واحتل جدة، وقيل إن مقتل واليها الباشا حسن كان بتدبير منه ! وذلك حال رميه لجمرات العقبة، فأرسلت الدولة العثمانية حملة عام(١٠٨٣هـ) تمكنت من طرده مع أخيه أحمد وتولية الشريف بركات، ففرا إلى صبيا ثم تجولا في وادي الحجاز محاولان جمع قوات للكرة على مكة لكنهما فشلا، فاضطرا إلى مغادرة البلاد عام(١٠٨٥هـ) وتوجها نحو السلطان العثماني الذي عفا عنهما، ثم أنعم على صاحب الترجمة بولاية "حماة ومعرة النعمان" وله بها أحداث كثيرة، وفي عام (١١٠٣هـ/ ١٦٩٢م) أرسله السلطان والياً على الحجاز للمرة الثانية، ثم عزل وعاد ثالثاً ثم استقال، وعاد للمرة الرابعة وتوفى والياً عليها كما سنرى خلال البحث).(أبوطالب: طيب الكساء ، ص٩٨ ،١٠٨ ، ١٢٥،١٢٣؛ والسحر المبين (خ): ق ٥٣ أ، ب ؛ جارشلي : نفس المرجع ، ص١١٥ـــ ١٢١؛ الزركلي : الأعلام، ٣/ ١٤٨؛ المرادي : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ص ٢٩٥١) .

(٢) الجبرتي : عجائب الآثار ، ١/ ٤٥ ؛ جار شلي : نفس المرجع ، ١١٨ .

(٣) انظر : الفصل الأول ، ص ٩٦-٩٧ / ١٢٧-١٢٨ .

١١٠١هـ/ يونيو ١٦٩٠م)[١] ـ أي قبل وثبة نصيره "الشريف سعيد" على الولاية بعدة شهور ـ، لذلك لم يكن الإمام متأكداً من نجاحه، إضافة إلى أن الشريف أحمد بن غالب استعرض قدراته الإدارية والعسكرية أمام الإمام، ولعل الأخير لاحظ ذلك عندما أرسله للمشاركة في قمع قبائل همدان بعد شهر من وصوله فأعجب به، كما أنه "منَّاهُ بملك مكة ومصر والشام على يديه، وسهّل له من ذلك ما هو متعسر عليه"[٢]، وذلك بعد أن شرح للإمام مدى ضعف الأشراف وتسلط الأتراك وفسادهم . لهذا وذاك عزم الإمام أن يجعل الشريف قائداً أعلى للجيش ويتوجه لفتح مكة، فأعطاه "من الأموال النقدية نحو مائتي ألف[*] ومن الخيل نحو خمسين فحلاً عليه العدد المحلاة بأنواع الذهب والفضة والجواهر، ثم شحن له المراكب في البحر من أنواع الزاد، ثم أقطعه من بيت الفقيه والزيدية إلى نحو القنفذة"[٣]، وأمر عامل شهارة وعامل اللُّحيَّة وعامل صَعْدة بدعم الشريف، وإرسال كل منهم ألف مقاتل للانضمام تحت قيادة الشريف[٤]. وأخيراً أمره بالتقدم إلى أبي عريش والانتظار بها ريثما يستكمل إعداد الجيش[٥] . ثم منع الحج هذا العام من البر والبحر[٦]، ولعل الغرض من منعه هذا هو استخدام القوافل والمراكب لصالح التجهيزات العسكرية.

وفي أول شهر (محرم ١١٠٢هـ/ أكتوبر ١٦٩٠م) غادر الشريف أحمد بن غالب حضرة الإمام حسب توجيهاته مصطحباً معه الشريف "أبو طالب بن حسين الخواجي" حاكماً من جهة الإمام على "صبيا" الذي كان قد ضمها إلى الشريف "أحمد بن زيد" سابقاً.

---

(١) البهكلي : العقد المفصل ، (خ) : ق ٢ ب .

(٢) البهكلي : العقد المفصل ، (خ) : ق ٢ ب .

(*) كانت العملة المتداولة آنذاك القرش الفرنسي ـ ماريا تريزا ، فإذا حسبنا قيمتها بالدولار الأمريكي على أساس أن سعر القرش الواحد يساوي خمسة دولارات ـ حسب إفادة الصرافين الآن ـ فسوف تساوي (٥× ٢٠٠,٠٠٠= ١,٠٠٠,٠٠٠) مليون دولار .

(٣) أبو الرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر ، (خ): ٣ / ق١٤٢ ب .

(٤) البهكلي : العقد المفصل ، (خ) : ق ٢ ب .

(٥) مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣/ ٦٧٤ .

(٦) الداعي : الدامغة الكبرى،(خ) : ٢/ ١٧٦ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ، (خ) : ٣/ ٦٧٤ ؛ البهكلي: المصدر السابق ، (خ) : ق ٣ ب .

وكذا القاضي "يحيى الجباري" قاضياً لها[1] لكنه توفي في أبي عريش عام (١١٠٤هـ/١٦٩٢م)[2].

ولقد وصل الشريف "أحمد بن غالب" إلى أبي عريش في العشر الوسطى من شهر صفر من نفس العام "بما يكثر عدده من الأجناد والخيل المسوّمة الجياد ولم يزل حاله يعلو وأمره يربو"[3]. وبالرغم من تلك التجهيزات الفخمة التي كان من المتوقع توجهها نحو مكة المكرمة لكن ما حدث كان العكس فقد جاءت توجيهات الإمام تقضي بتوجيه الشريف للقبض على "علي بن أحمد" ـ أمير صعدة ـ وكذا منحه ولاية عامة على "المخلاف السليماني" بعد فرار "الحسن بن المتوكل" ـ أمير المخلاف ـ إلى مكة في شهر ربيع الأول . وقد أشارت بعض المصادر المعاصرة للحدث إلى أن الإمام أحجم عن تقدم الشريف لفتح مكة بسبب انشغاله بقمع عصيان قبائل يافع [4]. وربما كان السبب في إحجام الإمام يكمن في وصول أخبار انتصار الشريف سعيد واستيلائه على ولاية مكة، لذلك تحقق هدفه فرجح توجيه قوات الشريف للضغط على والي صعدة أخطر منافسيه .

كان الشريف "أحمد بن غالب" قد تمكن من إدارة المخلاف السليماني والتقى مع "علي ابن أحمد" في عدة معارك كان ينتصر في أغلبها، لكن الأخير تمكن بدهائه من استقطاب الشريف أحمد إلى جانبه وشكلا حلفاً مشتركاً ضد الإمام[5]، إضافة إلى فساد إدارة الشريف وميله إلى ظلم الرعية وتأديبهم بالأموال الباهظة وقتلِهم وتشريدهم[6]، الأمر الذي أثار غضب الإمام فأرسل لقمعه جيشاً التقى معه في عدة معارك أنهكت قوى الشريف، وتخلى عنه حليفه ـ علي بن أحمد ـ مما جعله يذعن للإمام الذي تحنن

(١) البهكلي : العقد المفصل ، (خ) : ق ٣ أ .

(٢) ابن القاسم : الطبقات : ٣ / ١٢١١.

(٣) البهكلي : نفس المصدر والورقة .

(٤) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ١٧٧ ؛ مجهول : ملحق اللآلي المضيئة ،(خ) : ٣/ ٦٧٤ .

(٥) البهكلي : العقد المفصل ، ق ٢٨ أ ؛ أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٣١ ب .

(٦) البهكلي : المصدر السابق ، ق ٢١ ب .

عليه فأمر بترحيله دون أن يعاقبه بل منحه ثلاثة آلاف قرش ومائتي جمل ورحل من اليمن في(١٢رجب ١١٠٥هـ/ ٨ مارس ١٦٩٤م) عائداً إلى مكة(١) .

أما الشريف "سعيد بن سعد" فقد استمر على ولائه للإمام حتى عُزل بوالده الشريف "سعد بن زيد" الذي وصل من استنبول بولاية سلطانية للمرة الثانية في شهر (رمضان ١١٠٣هـ/ مايو ١٦٩٢م)(٢) .

- الإمام المهدي محمد والشريف سعد بن زيد :

يبدو أن العلاقة بين الإمام والشريف سعد قد سادها الوئام باستثناء آخر أيام الشريف ويرجع ذلك في الغالب إلى اتفاقهما في الشجاعة والكرم والطموح وحب الاستقلال إضافة إلى ميل الشريف إلى المذهب الزيدي ورغبته في الانضواء تحت راية الإمام (٣)، بل إنه فعل ذلك وأرسل ولده بالبيعة إلى الإمام وطلبه ولاية مكة (٤). الأمر الذي جعله في صراع مستمر مع السُلطة العثمانية رغم ضعفها وانشغالها في حروبها داخل أوربة.

وبالإمكان هنا أن نتتبع علاقة هذين العاهلين اللذين توافقا في تلك الخصال الحميدة، ولا يستبعد أن لهذا التوافق دوراً هاماً في خلق روح الوئام والتعاون فيما بينهما باستثناء ما قيل في نهاية الشريف سعد، ولعل كراهيته للأتراك التي نبعت من مشاركتهم له في الحكم قد دفعته إلى التقرب من الإمام، بغية تحقيق أمنيته الكامنة في الاستقلال بالسُلطة، وكذلك الإمام كان يطمح إلى ذكر أسمه على منابر الحرمين الشريفين الأمر الذي كانت تحرص عليه السُلطة العثمانية بشدة، مما جعلها على اتصال مستمر لمعرفة ما يجري في الساحة، لذلك فلا يستبعد أن قرار عزل الشريف سعد وتولية الشريف "عبدالله بن هاشم"(*) عام(١١٠٥هـ/ ١٦٩٤م) لم يأت من فراغ، الأمر

(١) البهكلي : نفسه ، ق ٢٨ ب ـــ ٣٣ ب .

(٢) جار شلبي : أمراء مكة في العصر العثماني ، ص ١١٨ ؛ الجبرتي : عجائب الآثار، ١/ ٤٥ .

(٣) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٥٣ أ .

(٤) أبو الرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر، (خ) : ٤ / ق٢٢٢ أ .

(*) الشريف عبدالله بن هاشم : (ت: ١١١٣هـ/١٧٠١م) وقد سبق ذكره خلال ترجمة صديقه أحمد بن غالب .

الذي رفضه الشريف سعد بشدة مما أدى إلى اندلاع الحرب بينه وبين الأمراء الأتراك ــ وهم مُحْرِمون لأداء مناسك الحج ــ [1]. وهنا ظهرت أولى بوادر تلك العلاقات حيث انحاز أمير الحج اليمني "طالب بن المهدي" ــ أخو الإمام ــ إلى جانب الشريف سعد وقاتل معه، ورافقه إلى يماني مكة خوفاً عليه من الأتراك[2]، وقد أشادت المصادر المعاصرة للحدث ببطولة طالب[3]، باستثناء أحدها الذي تهكم عليه وأتهمه بالفرار بعد أن نهب "قطيراً [رتل] من جمال أهل الشام أو مصر موقرة [محملة] وكان ذلك غاية حجه" [4].

ولقد أشارت الوثائق العثمانية إلى فرار الشريف سعد وولده إلى اليمن إثر هذه الهزيمة[5]، كما أشارت المصادر اليمنية[6] إلى أن الشريف أرسل ولده "مسعد" صحبة "طالب بن المهدي" مستنجداً بالإمام الذي أكرم وفادته، وبما أنه لم يعده بالمناصرة إلا أنه أرسل للشريف بالأموال الجزيلة صحبة ولده المذكور، فتمكن بواسطتها استعادة ولاية مكة، وطرد "عبد الله بن هاشم"[7]، الذي فرَّ إلى مصر ــ كما تقدم ــ وأَسَرَ والي جدة "محمد بيك" [8]. في حين غضت الدولة العثمانية النظر عنه، وأرسلت له بفرمان التعيين في (ربيع الآخر ١١٠٦هـ/ نوفمبر ١٦٩٤م)[9]، فكان هذا الفرمان مثار تعليق شارح سيرة الإمام المهدي حيث قال : "ولما حقق الأتراك استناده إلى الخليفة أعزه الله

(١) لعلَّ أبو طالب والجبرتي وهما حين ذكرا هذه الحادثة ضمن أحداث عام(١١٠٦هـ) و لعلَّ الأصح أنها في عام (١١٠٥هـ) ، حسب رواية معاصري الحدث . (انظر : الداعي: الدامغة الكبرى(خ) : ٢/ ١٨٤؛ أبوالرجال: الروض الزاهر شرح نزهة البصائر (خ) : ٢ / ق١٠٠ أ) .

(٢) أبو الرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر، (خ) : ٤ / ق٢١٥ ب .

(٣) أبو الرجال: نفس المصدر والورقة ، أبو طالب: السحر المبين (خ): ق ٣٣ أ؛ طيب الكساء ، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .

(٤) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢/ ١٨٤ .

(٥) (راشد تاريخي ،ج٢، ص ٢٨٤ و ٣٠٤ ، ومهمة دفتري ، الرقم ١٠٥، ص ١٤١، سنة ١١٠٦هـ). نقلاً عن : جار شلي : أمراء مكة في العصر العثماني ، ص ١١٩ ح .

(٦) أبوالرجال : الروض الزاهر ،(خ) : ٢/ ق١٠٠ أ ، ٤/ ق٢١٣ ب ؛ الداعي : الدامغة الكبرى، (خ) : ٢/ ١٨٥.

(٧) أبوالرجال : نفس المصدر ،(خ) : ٢/ ق١٠٠ أ، ٤/ ق٢١٣ ب ؛ الجبرتي : عجائب الآثار ، ١/ ٤٦ ؛ جار شلي: المرجع السابق ، ص ١١٨.

(٨) أبو الرجال : نفس المصدر ، (خ) : ٢ / ق١٠٠ أ .

(٩) جار شلي : المرجع السابق ، ص ١١٩ .

وما بعث به من الأموال وتقويته له وإعانته تركوه ووادعوه مهابةً لا محبةً وصار الآن بحمد الله مستنداً إلى الخليفة في مَصْدره ومَوْرِده"[1].

لم يلبث الشريف سعد بعد ذلك إلا بضعة أشهر حتى أرسل وفداً إلى الإمام يعترف له بالولاء، ويطلب منه المزيد من الإمدادات العسكرية والمالية وذلك في شهر شوال من نفس العام [2]. ولعل الشريف أراد التحرز من غدر أمراء الحج الشامي أو المصري، وتثبيت سلطته وضبط الأوضاع خلال موسم الحج. ويبدو أنه تمكن من ذلك بشهادة رسائل الحُجَّاج التي وصلت آخر شهر ذي الحجة تَصِفُ "قوة سعد وعوده إلى مكة وكثرة جمعه" [3] .

وبعد أن تمكن الشريف من إخضاع منافسيه وساوى خلافاته مع أمراء الأتراك فاستقرت أوضاع سلطته، بعث في شهر (شعبان ١١٠٨هـ/ فبراير ١٦٩٧م) رسولاً إلى الإمام محملاً بالهدايا النفيسة من ضمنها خمسين رأساً من الخيول الجيدة، وكان ذلك تعبيراً لشكره وامتنانه للإمام، في حين قابله الإمام بالمثل ومنحه صحبة ذلك الرسول "من الأموال ما يعد حصره في المحال"[4]. لكن كان بود الإمام سماع أخبار ذكر اسمه على منابر الحرمين، بحسب وعد الشريف سعد ؛ لذلك عزز الهدايا للشريف في موسم الحج للعام نفسه، صحبة ولده يوسف بن الإمام، الذي رضخ للشريف سعد بالأموال الجزيلة وطلب منه الخطبة لأبيه على منبر الحرم. لكن كان جواب الشريف قاسياً على ما يبدو بل ومتجافياً إذ قال: "صه يا يوسف أبوك ما قدر على أخذ بدوي، وسلطان الروم يجهز إلى هذه البيت كل عام مالا تضبطه الأقلام ولا تفي الدَّوي"[*] [5].

إن رد الشريف هذا يدل على استغنائه عن مساعدات الإمام ويوحي إلى رغبته في قطع العلاقة الودية فيما بينهما، ولعله رأى من المصلحة سد هذا الباب والتودد إلى

---

(١) أبو الرجال : المصدر السابق ، (خ) : ٤ / ق٢١٤ أ .

(٢) أبو الرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر ، (خ) : ٢ / ق١٠٠ أ .

(٣) الداعي : الدامغة الكبرى ، (خ) : ٢ / ١٨٦ .

(٤) أبو الرجال : الروض الزاهر ، (خ) : ٤ / ق٢١٤ ب .

(*) الدَّوي : الأرض الواسعة . (ابن منظور : لسان العرب ، ٤/ ٤٥٢) .

(٥) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٣٥ أ .

الدولة العثمانية نظراً لشح موارد الحجاز واعتماده في تدبير شؤون الحكم على تلك الأموال التي تجلب من السلطنة عبر أمير المحمل الشامي والمصري[1] ، كما أن العبارة توحي إلى قلة الموارد التي تأتيه من اليمن، والاستهانة بقوة الإمام التي لا يمكن الاعتماد عليها في تقوية سلطته ليعلن انتمائه إلى الإمام ويخلع طاعة الدولة العثمانية.

لا شك أن ذلك الرد الذي صدر من الشريف سعد للإمام كان سبباً كافياً لتوتر العلاقات بينهما إضافة إلى أنه رفض تزويج الإمام من ابنته، وكذا قام بنهب هدية الإمام التي أرسلها إلى السلطان العثماني[2]، وبما أن الإمام لا يملك الإمكانيات اللازمة لإعلان الحرب ضد الشريف سعد إلا أنه لم يصمت عن تلك الإهانات، لذلك فلا يستبعد أنه دعم مناوئيه من الأشراف مما أدى إلى منازعتهم للشريف سعد والتي انتهت بتنازله عن الحكم لولده سعيد في بداية عام(١١١٤هـ/١٧٠٢م)[3] . ولعل زيارة وفد والي "جدة" للإمام في نفس العام كانت لها دور هام في سخط الوالي على الشريف سعد وولده مما جعله يساند حركة الأشراف التي تزعمها الشريف "عبدالمحسن بن أحمد بن زيد"[*] فتمكن من دخول مكة وإزاحة الشريف سعد وولده عنها في(ربيع الأول ١١١٦هـ / يوليو ١٧٠٤م)، في حين وصل مرسوم السلطان بتولية الشريف "عبدالكريم بن محمد ابن يعلي" (ت: ١١٣١هـ/١٧١٨م)[4] . وبالرغم من استعادة الشريف سعد للولاية بواسطة القوة التي جمعها من البدو، تم إثرها فرار الشريف "عبد الكريم" إلى اليمن إلا أن الشريف سعد لم يمكث في ولايته هذه أكثر من ثمانية عشر يوماً حتى عاد عبدالكريم بقوات من اليمن تمكن بواسطتها الانتصار على الشريف سعد وطرده إلى خارج مكة،

---

(١) أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٢٧ .

(٢) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٥٣ ب .

(٣) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٥٣ ب ؛ جار شلي : أمراء مكة في العصر العثماني ، ص ١٢٠ ، ١٢٦؛ الزركلي : الأعلام ، ٣/ ١٤٨.

(*) الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد : قيل إنه تولى شرافة مكة عام (١١١٣هـ) لكنه تنازل عنها باختياره للشريف عبدالكريم ، واحتفظ بمكانته السياسية والعلمية حتى وفاته في مكة عام (١١٣١هـ/١٧١٨م) . (الزركلي : الأعلام ، ٤/ ٢١٧) .

(٤) جار شلي : أمراء مكة في العصر العثماني ، ١٢٠ ؛ الزركلي : الأعلام ، ٤/ ٧٢.

ومن ثمَّ كانت سبباً في مقتله في شهر ذي القعدة من نفس العام[1] . فخلفه على الإمارة ولده سعيد للمرة الثالثة الذي لم يمكث أكثر من تسعة أشـهر حتى عزله السلطان بالشريف "عبدالكريم بن محمد" للمرة الثالثة في (رجب١١١٧هـ/نوفمبر ١٧٠٥م)[2] .

ولعل الشريف سعيد خرج إلى اليمن خوفاً من بطش أمراء الأتراك لأنه ضرب أحد أمرائهم بالسيف انتقاماً لأبيه خلال المعركة التي دارت بينهما أثناء عزله[3]، لذلك يغلب الظن أن الشريف سعيد هو الذي رآه الرحالة الفرنسيون في "المخا" حال زيارتهم لها عام (١١٢١هـ / ١٧٠٩م) فأثار فضول أحد الرحالة للكتابة عن الأشراف، ووَصَف الشريف سعيد وأشار بأنه كان لاجئاً في "المخا" وأثناء إقامته بها أرسل أمير مكة خطاباً إلى الإمام يطلب منه ترحيله من "اليمن" فاستجاب الإمام للطلب وأمر بترحيله غير مأسوف عليه [4]. فعاد الشريف سعيد إلى المدينة المنورة، ليشن المؤامرات ضد منافسه ـ عبدالكريم ـ والإمام معا، فاستعاد على إثرها إمارة مكة للمرة الرابعة عام (١١٢٣هـ/ ١٧١١م) واستمر أميراً عليها حتى وفاته في (محرم ١١٢٩هـ/ يناير ١٧١٧م)[5].

يبدو أن العلاقة كانت جيدة فيما بين الإمام المهدي والشريف "عبدالكريم" في مقابل توترها فيما بينهما وبين "تصوح باشا" ـ أمير المحمل الشامي ـ الذي ساند منافسي الإمام حين اجتمع معهم في مكة عام(١١٢٣هـ/ ١٧١١م)[6] ووعدهم بالمساعدة ضد الإمام، وفي نفس الوقت عمل على عزل الشريف عبدالكريم وتولية الشريف "سعيد بن سعد" للمرة الرابعة فنجح في ذي القعدة من نفس العام، لكن الشريف عبد الكريم لجأ إلى قبيلة حرب، ولعله أوحى إلى سعيد المنوفي بسرعة إرسال أخبار مؤامرة "تصوح باشا"

(١) جار شلي: نفسه، ص ١٢١ ، ١٢٩؛ أبوطالب: السحر المبين (خ): ق ٥٣ ب ؛ وطيب الكساء ، ص ٣١٢ ؛ الزركلي: الأعلام ، ٣ / ١٤٨.

(٢) جار شلي : المرجع السابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٩ .

(٣) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٣١٨ ؛ السحر المبين (خ) : ق ٥٧ أ ، ولعل الزميلة الباحثة إيمان مانع قد وهمت عندما أشارت إلى مقتل الشريف سعيد على يد أحد الأتراك في هذه المعركة ، والأصح ما أثبتناه . انظر : السحر المبين (تحقيق : إيمان مانع) : ص٨٧ .

(٤) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٨٤ ـ ٨٩.

(٥) جار شلي : المرجع السابق ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٦) انظر : الفصل الرابع ، ص ٢٧١ .

السالفة إلى ولده زين العابدين الذي كان وزيراً للإمام، وفي نفس الوقت كانت علاقة الإمام جيدة مع زعيم قبيلة حرب، لذلك أرسل له ببعض الأموال وعوّل عليه سرعة القضاء على "تصوح باشا" فتمكن من ذلك وهم في طريق عودتهم إلى الشام ـ كما سبق ذكره ـ .

أما ولاية الشريف "سعيد بن سعد" الرابعة التي امتدت نحو ست سنوات فقد أغفلت المصادر التي بين يدي عن علاقته بالإمام خلالها، ولعلها كانت متوترة بسبب الأحداث السابقة ومن المرجح أن للشريف سعيد دور في مساندة حركة المعارضة التي أدت إلى تنازل الإمام المهدي عن الحكم في نهاية عام (١١٢٧هـ/١٧١٥م) .

وعلى كل فإنه يتضح من خلال هذا العرض أن العلاقة بين الإمام والأشراف كانت سياسية بحته تحددها مصلحة كل منهما مع الآخر، ولا أعتقد أنها تخضع لوحدة النسب أو الدين أو الاقتصاد كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين، بل كانت تخضع لنزعة الطموح التوسعية والاستقلالية، وكذا كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع السلطة العثمانية، كما أننا نلاحظ في حالة صفاء العلاقة يكون تبادل الهدايا والمجاملات، أما في حالة توترها فكان كل منهما يُغذي حركات العصيان في بلد الآخر ويكون مأوى للخارجين عن السلطة والمنشقين، كما أن الإمام كان يمتاز بدهاء أكثر حين استقطب بعض العلماء من مكة ومنحهم المناصب العالية في الدولة مثل الوزير "زين العابدين بن سعيد المنوفي"[*]، وكذا وظَّف بعضهم في مكة وجعلهم كاستخبارات يوافونه بكل ما يدور من مؤامرات ضده ليعمل على تلافيها بسرعة كما فعل سعيد المنوفي سالف الذكر .

٢ـ العلاقة مع أئمة اليعاربة في عُمان:

لقد أغفلت المراجع التي بين يديّ الإشارة إلى علاقة اليمن مع عُمان في عهد الإمام المهدي محمد ـ صاحب المواهب ـ، ولم يعد هناك الهجوم العماني المتكرر على سواحل اليمن الجنوبية والغربية كما كان في عهد الإمامين المتوكل إسماعيل، والمهدي أحمد بن الحسن[١]، باستثناء محاولة هجوم فاشلة قام بها العمانيون على سواحل "عدن"

(*) انظر عن : مواقف الوزير زين العابدين فيما سبق ص : ٢٢٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ .

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٥، ١٧٥.

عام (١١٢٢هـ/ ١٧١٠م). فإذا ما أمعنا البحث بين طيات تلك المراجع نجد أن هناك عدة عوامل تفسر لنا جمود العلاقة بين الطرفين سلباً أو إيجاباً وإغفالها ولعل أهمها التالي :

١. توقف طموحات أئمة اليعاربة[١]التوسعية بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف عام(١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م) وذلك لميل خلفه الإمام "بلعرب بن سيف" إلى سياسة سلمية واهتمامه بالعمران، ثم دخوله في صراع مع أخيه على السلطة لم تنته إلا بوفاته عام (١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م)[٢].
٢. اضمحلال الوجود البرتغالي في تلك المدة الذي كان يمثل المبرر الشرعي لهجمات العمانيين على السواحل اليمنية التي تكررت في عهدي المتوكل إسماعيل والمهدي أحمد بن الحسن، وأحيانا إرسال البارود والرصاص للتعاون في صد البرتغال[٣].
٣. اهتمام الإمام سيف بن سلطان (١١٠٤ ـ ١١٢٣هـ / ١٦٩٢ ـ ١٧١١م) بتقوية الجيش والأسطول العُماني، ومحاولته استعادة نفوذهم في سواحل الهند وشرق أفريقيا التي سيطر عليها البرتغاليون أثناء حروب تنافسه مع أخيه المذكور [٤].
٤. توجه الإمام سلطان بن سيف الثاني(١١٢٣ـ ١١٣١هـ/١٧١١ ـ ١٧١٨م) نحو الخليج العربي، وشن الهجمات على الصفويين حتى تمكن من انتزاع البحرين منهم وبعض الجزر[٥] .
٥. توجه اهتمام الإمام المهدي محمد وطموحه نحو مكة والساحل الشرقي لأفريقيا ، وعزوفه عن التدخل مع سلاطين عُمان .

(١) انظر جدول أئمة اليعاربة المعاصرين للإمام المهدي في : الملحق رقم(١١) .
(٢) وزارة الإعلام العمانية : عُمان في التاريخ ، ص ٣٨٩ ، ٤٠١ .
(٣) أبوطالب : طيب الكساء : ١١٦، ١٢٣، ١٧٥.
(٤) وزارة الإعلام العمانية : عُمان في التاريخ ، ص ٤١٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٤ .
(٥) وزارة الإعلام العمانية : نفس المرجع ، ص٣٩١ ؛ الريس (رياض نجيب) : مصاحف وسيوف إيران من الشاهنشاهية إلى الخاتمية ، مكتبة رياض الريس للنشر ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص٢٧٦.

٦. عدم تدخل العمانيين فيما بين أمراء آل كثير المتنافسين على إمارة حضرموت ـ رغم محاولة بعضهم الانفصال عن الدولة، وعزوف السلطان عمر بن جعفر عن ولاية "ظفار" ولجوئه إلى مسقط [١] ـ كل ذلك كان له دور بارز في تجنب الاحتكاك مع العمانيين .

على الرغم من تلك العوامل التي تكاد تكون قاعدة إلا أن ذلك لا يعني عدم وجود نوع من العلاقات السياسية والاقتصادية وغيرها وإن كانت طفيفة، فقد أشار أحد المراجع إلى هجوم المراكب العمانية على ميناء عدن عام (١١٢٢هـ /١٧١٠م)، لكنها منيت بهزيمة ساحقة أمام الحاميات اليمنية التي بعثرت مراكبهم وردّتهم على أعقابهم خاسرين . وقد فَسّر ذلك الحادث إلى أنه بإيعاز من الوزير الشيخ صالح الحريبي، ليحيل دون وصول السفن التجارية إلى ميناء المخا المزدهر بالتجارة [٢]. وهذا تفسير معقول إذا نظرنا إلى أن عزل المذكور عن تلك الموانئ ـ ومنها المخا ـ كان في العام السابق، فلعله أراد أن يُثبت للإمام المهدي عجز غيره عن إدارة الموانئ، كما أنه انضم إلى المعارضة التي أطاحت بالإمام المهدي فأراد بذلك إحداث الاضطراب في أهم مصادر الإيرادات انتقاما لعزله ـ كما سبق ذكره في الفصل السابق[٣] ـ ولعل بالإمكان إضافة تعليلات أخرى تكمن في امتداد طموح الإمام سيف بن سلطان العماني بعد أن تمكن من استعادة نفوذه على السواحل الهندية وبعض موانئ الساحل الإفريقي مثل "ممباسة وزنجبار وبمبا"، فأراد بذلك الهجوم جس نبض قوات اليمن ليوسع نفوذه في مدخل البحر الأحمر، أو أن هناك تضارباً حدث في مصالحهما على سواحل القرن الأفريقي فقام بذلك الهجوم لغرض تسوية تلك الخلافات، أو أن تلك الاحتمالات جميعها مشتركة قد سببت هذا الهجوم .

(١) هاشم : الدولة الكثيرية ، ص ١٢٩ ، ١٣٣.

(٢) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٦٨ أ .

(٣) انظر : الفصل الرابع ، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٦.

وفي الوقت نفسه كان هناك بعض الألفة والتقارب بين العمانيين واليمنيين فعلى سبيل المثال قام الإمام سيف بن سلطان عام(١١٢٣هـ /١٧١١م) بتعيين كبير المزاريع(*) الحضارم حاكما دينياً على جزر ممباسة [١] .

أما في الجانب الاقتصادي فقد كان التجار العمانيون يتوغلون في مناطق إنتاج البُن لشرائه من المزارعين مباشرة في منتصف القرن السابع عشر الميلادي[٢]، كما أن السفن العُمانية كانت تنقل البُن من الموانئ اليمنية في حالة اضطراب أوضاع اليمن، وتعذر دخول السفن المصرية والعثمانية[٣]، ومن المؤكد أن العمانيين استمروا في مزاولة تجارتهم مع اليمن واحتكوا مباشرة مع السلطات المحلية وغيرها وكذلك اليمنيين، وهذا ما يمكن ـ بل ونأمل ـ أن تفصح عنه مصادر أخرى ما زالت مجهولة لنا حتى اليوم .

٣ـ العلاقة مع القرن الأفريقي :

لقد امتازت علاقة الإمام المهدي محمد مع دول وإمارات القرن الأفريقي بالعلاقة التجارية والسياسية معاً، ولكن لم تذكر المراجع المتوفرة التبادل التجاري الذي تم بين اليمن وتلك الأقطار رغم انتعاش التنافس التجاري خلال هذه الفترة وازدهار أسواق أفريقيا بالرقيق والعاج وغيره، ورغم ذلك فلم تذكر المراجع سوى قيام الإمام في عام (١١٠٧هـ / ١٦٩٥م) بإرسال "نعمة الله اللآهوري" إلى "سنار" السودانية لشرى عبيد بالفضة ـ التي تم استخراجها من اليمن وكسد بيعها فيه لركاكتها ـ فأشترى بها ألف عبد من السودان[٤].

(*) المزاريع : نسبة إلى قبائل آل مزروع إحدى قبائل الصيعر الساكنة شمال غرب وادي حضرموت . (معجم المقحفي: ١/ ٩٣٠ ، ٢/ ١٥٠٣).

(١) الملاحي (عبد الرحمن) : الحضارم في ممباسة ودار السلام ، دار حضرموت، ٢٠٠٤م، ص٣٣ .

(٢) براور . ك . ج : المخا ميناء تصدير البُن الممتاز في العقود الأولى من القرن السابع عشر،(تعريب ومراجعة : أ . د . حسين العمري)، مجلة الثوابت ، العدد ٣٢ ، إبريل ـ يونيو ٢٠٠٣م، ص ٤٨، ٦١.

(٣) براور : نفس المرجع ، ص ٥٨ .

(٤) أبوطالب : السحر المبين ،(خ): ق ٣٣ب ؛ وطيب الكساء ، ص٢٥٦ .

ومن المدهش حقا قيام الإمام في نفس العام بتجهيز حملة بقيادة "إبراهيم باشا" تم بواسطتها السيطرة على ميناء" زيلع" ــ الذي يقع في خليج عدن على الساحل الصومالي ويبعد عن باب المندب نحو ٧٩ميلاً [١] ــ وجعل قائد الحملة واليا عليها، ثم أولاها الإمام جل الاهتمام إذ جرَّ إليها المدافع وسورها، وبنى فيها داراً للدولة ومسجداً، وأنعشها حتى صارت بندراً يقصده التجار، ومركزاً لبيع الرقيق[٢] . ثم حاول التوغل نحو الغرب في أوسة التابعة للحبشة [٣].

ولكن إذا تتبعنا مدينة"زيلع" عبر التاريخ لوجدنا أنها أُنشئت بواسطة تلك الهجرات التي تدفقت إليها من جنوب الجزيرة العربية، ثم أصبحت ذات شان في القرن السابع عشر الميلادي، حيث بلغت ممتلكاتها من الاتساع "مسيرة ٤٣ يوماً مشياً على الأقدام، تسمى بلاد عدال" [٤] . ويأتي الهمداني (ت: ٣٦٠هـ /٩٧٠م) فيشير إلى أن جزيرة زيلع من ضمن جزر اليمن ــ وكان يرد إليها المعزى [الأغنام] من الحبشة فينتفع بإهابها ويرمى معظم مسالخها في البحر ــ [٥]. أما العثمانيون فقد ألحقوها بإدارة عدن واستخدموها لإغلاق البحر الأحمر في وجه الملاحة الأوربية، ومنعهم من الوصول إلى الأراضي المقدسة، ولضمان المكوس، ومركز تهديد للحبشة[٦]. وبعد انسحابهم الأول من اليمن عام (١٠٤٥هـ / ١٦٣٨م) قام الأمير الحسن بن القاسم (ت: ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م) بتحسينها[٧] . ولعلها أُهملت بسبب تنافس الأمراء على الإمامة فاستعادها المهدي محمد بعد استيلائه على الحكم وجعلها موضع اهتمامه ــ كما أشرنا ــ فكان ذلك امتدادا لما فعله جده المذكور .

والجدير ذكره هنا أن استيلاء الإمام المهدي محمد على أجزاء من الساحل الأفريقي ليس فقط بدافع استرضاء ناقديه من العلماء وتطبيق رغبتهم في توجيه قواته

(١) عبدالله (أ . د . يوسف محمد) : زيلع ، الموسوعة اليمنية ، ط٢، ٢/١٥٥١ـ١٥٥٢ ؛ انظر : ملحق الخرائط (١٤) ، شكل رقم (ز) .
(٢) العمري : تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ط ٢ ، ص ٩٣ .
(٣) أبوطالب : السحر المبين . (خ) : ق ٧٠ أ .
(٤) الجمل : سياسة مصر في البحر الأحمر ، ص ١٥٩ .
(٥) الهمداني (الحسن بن يعقوب) : صفة جزيرة العرب ، ص٦٨ـ٦٩ .
(٦) الجمل : المرجع السابق ، ص١٦٠ .
(٧) بعكر: الرجل الذي أحبه الحرم والهرم ، ط١، ص٢٠ .

لحفظ الثغور بدلاً من تسليطها على قبائل المشرق و صعدة، أو للتظاهر أمام منافسيه بالقوة والعظمة ـ كما سبق ذكره ـ بل تجاوز ذلك كثيراً وأثبت حُسن قيادته العسكرية والسياسية والاقتصادية، وذلك بمواكبته عصر التجديد والانتعاش الأوروبي وتنافسهم التجاري . لذلك فلا يستبعد أنه حاول منافستهم بالسيطرة على "زيلع" أكبر أسواق أفريقيا لبيع الرقيق[١]، ليحتكر التجارة فيه، فيأخذهم إلى المخا لينتقي منهم من أراد ويضمهم إلى خدمته، ثم يبيع الفائض منهم للأوروبيين الذين كانوا يتصارعون للحصول عليهم نظرا لاحتياجهم في عمارة العالم الجديد. إضافة إلى أنه استخدمها كمحطة تجارية لعرض البضائع ولتقديم الخدمات والإرشادات للأجانب وهذا ما لمسناه من خطاب حاكم "تاجورة" ـ الواقعة شمال زيلع ـ المرسل إلى قائد السفينة الفرنسية الذي ظل الطريق فأمدهم بمرشد وبما يحتاجونه من الماء وغيره [٢].

والأهم من ذلك أنه استخدمها للتحكم على مدخل البحر الأحمر - كما كان يفعله العثمانيون - ، وكقاعدة عسكرية لحماية وتأمين المياه اليمنية لصد أي هجوم متوقع هذا من جهة، ومن جهة أخرى لمنع القرصنة وهجوم الأجانب بعضهم على بعض ما داموا في المياه اليمنية، فصار ذلك شرطاً لإقامة العلاقات اليمنية مع غيرها من الدول[٣]، كما نشر الدوريات العسكرية التي كانت تروح وتغدو في السواحل والموانئ، فشمل الأمان المنطقة حتى أن الفرنسيين شاهدوا البضائع متروكة على ساحل باب المندب بدون حراسة [٤].

يبدو أن التفوق الذي حققه الإمام من وراء سيطرته على زيلع قد شجعه على مواصلة طموحه للتوغل والتوسع نحو الداخل، فلا يستبعد أنه سيطر على ميناء تاجورة الواقع شمال زيلع وذلك لما لمسناه من خطاب حاكمها السالف الممهور باسم السلطان محمد الدثيني نسبةً إلى" دثينة" [٥] .

(١) الجمل : سياسة مصر في البحر الأحمر ، ص ١٧٧ــ ١٧٨ .

(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٥٠ .

(٣) انظر : نص المعاهدة اليمنية الفرنسية ، في الملحق رقم (٣) نقلا عن: لاروك: نفس المصدر، ص٦٦.

(٤) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٥٥ ــ ٥٦ .

(٥) دثينة : إحدى المناطق الواسعة التابعة لمحافظة أبين . انظر : ما سبق ، ص ١٥٠.

فإذا لم يتم ذلك فالواقع أن آخر محاولات الإمام التوسعية كانت في عام(١١٢٣هـ / ١٧١١م) حيث أرسل بأموال جزيلة إلى عامل زيلع وأمره بتوزيعها على الجند والمعتقلين السياسيين الذين تم نفيهم إلى سجن زيلع، وأمره بالتحرك بهم نحو الداخل والسيطرة على مدينة "أوسة" أو "أدمة" الواقعة غرب زيلع، ويبدو أن الكاتب أبا طالب تناقض في تقدم الحملة من عدمه ! حيث أشار أحد مراجعه إلى أنهم هاجموا المدينة وقتلوا بالبنادق الكثير من سكانها ــ الصومل ــ ، إلا أن الماء نفد على الجيش وتكاثر عليهم المدافعون فانسحبوا ليلا إلى زيلع والناس في إثرهم[1]. وفي مرجع آخر للكاتب نفسه يفيد أنهم أخذوا العطاء واستعدوا للسير ــ فظن السجناء أن هدف الإمام معاقبتهم والخلاص منهم ــ لذلك أوقعوا فيما بين التوابع ــ الجنود ــ وبين القائد مما أدى إلى تمرد التوابع وفشل سير الحملة[2].

وأخيراً مهما قيل في الهدف من ذلك التوسع إلا أنه يُعدّ من أعظم منجزات الإمام المهدي محمد فقد ساهم بذلك في تشييد حضارة اليمن، وَوَقْف التسلط الأوروبي حينذاك، بل واستمرت تلك البلاد في حوزة اليمن تجبى إليها خيراتها ومن ضمن إدارة حاكم الحديدة حتى صدر فرمان سلطاني عام (١٢٩٢هـ /١٨٧٥م) قضى بتحويل ميناء زيلع إلى الإدارة المصرية مقابل توريد مبلغ خمسة عشر ألف "ليرة" عثمانية سنوياً إلى خزينة الدولة العثمانية [3] .

ثانياً : العلاقات مع الدول الإسلامية :

١ ـ العلاقة مع السلطنة العثمانية :

يلاحظ أن الأئمة تحاشوا أي تصرف يؤدي إلى الاحتكاك بالدولة العثمانية خوفاً من لفت نظرها نحو اليمن واستعادته تحت سيطرتها مرة أخرى بعد انسحابهم الأول منها عام (١٠٤٥هـ / ١٦٣٨م) خاصة وأن هيبتها مازالت موجودة رغم ما أصابها من ضعف وتفكك، وهذا ما ظهر جلياً من إغفال المتوكل إسماعيل عن مساندة الشريف سعد

(١) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٧٠أ .

(٢) أبوطالب : طيب الكساء ، ص٣٣٩ــ ٣٤٠ .

(٣) الجمل: سياسة مصر ، ص١٦٣؛ آمال محمد إبراهيم : الصراع الدولي حول البحر الأحمر ، ص٦٢.

حين استنجد به على الأتراك عام (١٠٨٢هـ/١٦٧١م)[(١)]، بيد أن الإمام المهدي محمد كان أكثر جرأةً وطموحاً من سابقيه إذ رأيناه يساند الشريف سعد مرة بعد أخرى، كما أنه احتك احتكاكاً مباشراً مع والي الأتراك في جدة فتبادل معه الهدايا والوفود وغير ذلك، ثم إنه استقطب الأمراء العثمانيين الخارجين عن السلطة وقلدهم مراكز قيادية في الجيش، وكذا دخل في مؤامرات مع أمراء محامل الحجاج الشامي والمصري، كما أننا لا ننسى علاقته التجارية التي دفعت بالسُلطة العثمانية إلى إرسال وفداً إلى المواهب لتسوية العلاقات التجارية وغيرها. وكل ذلك سوف يتم مناقشته خلال الأسطر التالية :

لاشك إن الدولة العثمانية كانت تحاول استعادة اليمن تحت سيطرتها خاصةً بعد اشتهاره بإنتاج البُن وتنافس التجارة الدولية في شراء هذا المحصول فانتعشت الموانئ اليمنية، ولعل تلك المحاولة التي قام بها الشريف أحمد بن زيد لتوسيع ولايته في الأراضي اليمنية، كانت بإيعاز من "السلطان محمد الرابع"[(*)]، الذي زود الشريف بالجنود والمال ــ كما سبق ذكره ــ لكن تزامنت تلك المحاولة مع عصيان الإنكشارية الذي أسفر عن مقتل الصدر الأعظم وعزل السلطان المذكور إثر هزيمة العثمانيين في أوروبا في معركة "موهاكز" بالمجر (٣شوال ١٠٩٨هـ/ ١٢ أغسطس ١٦٨٧م)[(٢)] فكان ذلك سبباً كافياً لتراجع الشريف عن التوسع وعودته أدراجه .

وما أن استقر الإمام المهدي محمد على السُلطة حتى ظهر نشاطه السياسي، وقد سبقت الإشارة إلى تدخله المباشر وغير المباشر في شؤون أشراف مكة بغية مد نفوذه على الحرمين الشريفين بما يمثلانه من المهابة الدينية والمعنوية التي يتمتع بها المسيطر عليها في أوساط العالم الإسلامي. وبهذه المحاولة يعتبر منازعاً للسلطان

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ١٢٧ .

(*) السلطان محمد بن إبراهيم بن أحمد: (١٠٥١ــ ١١٠٤هـ/ ١٦٤٢ــ ١٦٩٢م) تولى السلطة بعد عزل والده في (رجب ١٠٥٨هـ / أغسطس ١٦٤٨م) وهو لم يتجاوز السابعة من عمره، فرضخ لتسلط الإنكشارية الذي تفشى الفساد فيما بينهم مما أدى إلى هزيمة العثمانيين في أوروبا، واندلاع حركات العصيان في آسيا، ثم عُزل في (٢محرم ١٠٩٩هـ / ٨ نوفمبر ١٦٨٧م) بعد حكم دام أربعين عاماً فآثر العزلة حتى وفاته . (المحامي (أ. محمد فريد بك) : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٢٨٨ ــ ٣٠٤).

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ .

العثماني في هذا الشرف الذي يصبغ سلطته بالصبغة الدينية باعتباره حامي الحرمين الشريفين، الأمر الذي لن يتنازل عنه السلطان مهما بلغت درجة ضعفه ! هذا من جهة.

ومن جهة ثانية كان الإمام يستقطب الوافدين إليه من الضباط المتمردين على السُلطة العثمانية، فيوليهم المناصب القيادية المختلفة ويستفيد من خبراتهم الإدارية والعسكرية . مثل "علي باشا" ــ الذي فضَّل الإقامة في اليمن وأنف العودة إلى السلطان بعد عزله عن ولاية الحبشة عام (١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م)[١]، فلقي حفاوة كبيرة من الإمام وجعله قائداً للجيش المكون من ثلاثين ألف مقاتل الذي وجهه الإمام لقمع يافع عام(١١٠١هـ/ ١٦٩٠م)[٢]. كما أن مؤلف سيرة الإمام قد أشار إلى أن بعض الجنود المكلفون بالخدمة في مكة قد تركوها ووصلوا إلى الإمام راغبين الالتحاق بالخدمة لديه، ولعله استخدم جزء منهم على مدفعيته في عاصمته " الخضراء" [٣] .

من المؤكد أن الدولة العثمانية كانت على علم بمجريات الأمور في الساحة اليمنية لكنها كانت في وضع لا يسمح لها بإرسال حملة كبيرة لقمع إمام اليمن وشريف مكة معاً خاصةً بعد أن فشلت في مساندة الشريف "عبد الله بن هاشم" الذي نصبته والياً لمكة نهاية عام (١١٠٥هـ /١٦٩٤م)، حينها لجأت إلى إقرار الشريف سعد وتجديد ولايته رغم علمهم بعدم إخلاصه للدولة ــ كما سبق ذكره ــ ولعلهم وضعوه تحت مراقبة والي جدة الجديد ــ بعد عزل محمد بك الذي لم يتمكن من مساندة الشريف عبدالله بن هاشم .

وعلى ما يبدو أن سليمان باشا والي جدة كان على قدر كبير من الحنكة السياسية إذ عَرَفَ بضعف الدولة واضطراب إدارتها الداخلية، وما تعانيه من الهجمات الأوربية المتكررة، خاصة بعد معاهدة "كارلوفتس" في شهر (رجب ١١١٠هـ/ يناير ١٦٩٩م) التي أفقدت الدولة الكثير من أراضيها وألغت الجزية على النصارى التي كانت تمثل أهم موارد الدولة [٤] . لذلك فقد أراد تجنب الصدام العسكري مع كل من اليمن والحجاز

(١) أبو طالب : طيب الكساء ، ص ١٧٦ .

(٢) الضبوي : عقد الجواهر ، (خ) : ق ٢٤ ب .

(٣) أبو الرجال : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر ، (خ) : ٤/ ق٢١٣أ، ٢٢٢ أ .

(٤) المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٣١٠ .

فاستخدم سياسة التودد مع كل من الإمام والشريف، وفي نفس الوقت عمل على دس العداوة فيما بينهما، ولعله نجح في ذلك حين استمال الشريف سعد في الوقت الذي أوشك فيه أن يعلن انتماءه للإمام، لكنه أظهر عكس ذلك حين أغلظ القول لولد الإمام الذي طلب منه تنفيذ وعده بإعلان الخطبة للإمام ــ كما سبق أن ذكرنا ــ فكان سبباً كافياً لتوتر العلاقات بينهما .

وفي عام(١١١٤هـ /١٧٠٢م) بدت مودة والي جدة ظاهرة إذ أرسل وفداً فخيماً برئاسة أخيه الآغا أحمد حاملاً هدايا مكونة من نفائس الأسلحة والخيل إلى الإمام المهدي محمد، الذي بالغ في ضيافتهم حسب عادته، ويبدو أنه أقام الحفلات احتفاء بالوفد أُلقيت فيها قصائد الترحيب، وزيادة في الكرم قام الإمام بمبارزة الآغا في الميدان ومنحه إثر السباق خنجراً مرصعاً بالجواهر " قصداً للتفاخر" [١] .

وبعد عدة أيام استأذن الآغا الإمام في العودة وأظهر رغبته في زيارة صنعاء فأبدى الإمام موافقته وأتحفه بهدايا كثيرة "ما لم يعط الغير"[٢]، ثم أمر العمال بإكرامه، فأمر عامل صنعاء بتزيين الأسواق وأضافه ضيافة كبيرة وعقد لهذه المناسبة مجلساً كبيراً حضره أعيان صنعاء وعلماؤها ، وألقى الأديب عبد الله بن علي الوزير (ت: ١١٤٦هـ / ١٧٣٣م) قصيدة ترحيبية مطلعها :

شرفتمونا يا بني يا فث ... فلله هذا المقدم الأشرف [٣]

وبعد تنزه الوفد بصنعاء واصل سيره مروراً بعمران فقابله واليها بنفس الحفاوة ، ثم سار منها إلى اللحية ومنها ركب البحر عائداً إلى جدة [٤] .

من المؤكد أن وراء هذه الزيارة أبعاد سياسية وغيرها ولعلها كانت بمثابة جولة استطلاعية لمعرفة كل شيء عن الإمام ودولته عن قرب، وذلك للتأكد من تلك الأخبار التي كانت تتردد إلى أسماع والي جدة من قوة الإمام وطموحاته التوسعية. ولعل زيارة

---

(١) أبوطالب : السحر المبين ، ق ٤٧ أ .

(٢) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٠٥ .

(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٠٥ ؛ والسحر المبين ، ق ٤٧ أ .

(٤) أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٤٧ أ ؛ وطيب الكساء ، ص ٣٠٥ .

الوفد الصفوي للإمام عام (١١١٣هـ / ١٧٠١م) قد أثارت مخاوف والي جدة من إقامة تحالف صفوي يمني (شيعي) ضد الدولة العثمانية نظراً لتقاربهما في المذهب. بيد أن الهدف المؤكد من وفد جدة يكمن في مهادنة الإمام وكسب وده خشية من سطوه على الحرمين الشريفين، وهذا ما أثبته المؤرخ أبوطالب عمَّا تناقلته الرواة من أن والي مصر اتهم والي جدة بانتمائه إلى الإمام فطلبه إليه عازماً على قتله، إلا أن والي جدة برر موقفه بان رمى إلى والي مصر بالخنجر الذي أعطاه المهدي أخاه، "وقال: مَن يُعطي مثل هذا جائزة طراد الميدان حقيق أن تهابوه وتتّقوه فاني لم أُوجّه أخي إليه عن محبّة بل والله مخافة أن يصرف همّته إلى هذه الديار فمَن يعطي هذا العطا يتخّوف جانبه ولا تؤمن مصائبه وعجائبه فاني مع كرمه وبذله وهمّته السامية أتخّوف أن يوجه إلى هذه البلاد المصرية والشامية فأنا أجامله وأُظهر له المودّة وأُراسله، فنظر في قوله بالمعقول وراجع عنده صدق ما يقول وأمره للفور بالعودة إلى ولايته" (١) .

يتضح أن ذلك الوفد قد حقق نتائج قيمة، ولعل أبرزها توطيد العلاقة الجيدة بين الإمام ووالي جدة مقابل توترها فيما بين الأتراك والشريف سعد وولده سعيد الأمر الذي أدى إلى إثارة الأشراف ضدهما فأسفر عن مقتل الشريف سعد عام (١١١٦هـ / ١٧٠٤م) وعزل ولده سعيد وتولية الشريف عبد الكريم بن محمد الذي كان موالياً للإمام ــ كما مر معنا ــ .

في حين ظهرت نتيجة اقتصادية تكمن في تجميع كميات كبيرة من البُن في بيت الفقيه لصالح تركيا وقد لاحظ ذلك أحد التجار الفرنسيين الذي وصل إلى بيت الفقيه عام (١١٢١هـ/ ١٧٠٩م)(٢). وعلى ذلك يمكن القول أن وفد جدة قد أشاد بعظمة السلطان العثماني(مصطفى الثاني)(*) وقوة الدولة في عهده، وتمكن من إقناع الإمام بضرورة

---

(١) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٠٦ . وقريب من هذه الرواية في السحر المبين ، ق ٤٨ أ .

(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٧٨ .

(*) السلطان مصطفى بن محمد بن إبراهيم: (١٠٧٤ ــ ١١١٥هـ/ ١٦٦٤ ــ ١٧٠٣م) تربع على عرش السلطة بعد وفاة عمه السلطان أحمد الثاني عام(١١٠٦هـ/١٦٩٥م) وكان شجاعا قاد الجيوش بنفسه وحقق عدة انتصارات على الأوربيين، ولكن في عام (١١١٤هـ/١٧٠٣ استقال الصدر الأعظم فثارت الإنكشارية على من خلفه فاستبدل بآخر لكنهم لم يوافقوا عليه وطلبوا عزله ولما رفض السلطان طلبهم قاموا=

التواصل مع السلطان، لذلك أرسل الإمام بهدية للسلطان صحبة هذا الوفد، فكانت مثاراً لغضب الشريف سعد مما دفعه إلى نهبها أثناء ترحيلها من جدة إلى السلطة، الأمر الذي أدى إلى إثارة غضب السلطان والإمام معاً على الشريف سعد [١].

ولعل ذلك الوئام الذي استمر بين والي جدة والإمام كان سبباً في تدخل نصوح باشا الذي عمل على تولية الشريف سعيد ــ بعد طرده من المخا ــ وتحالفهما معاً مع منافسي الإمام في مكة عام(١١٢٣هـ /١٧١١م) لكنه أسفر عن مقتل نصوح باشا بإيعاز من الإمام، ومن المحتمل أن والي جدة كان له يد في الحادث الأمر الذي أدى إلى عزله وتولية خليل باشا الذي جاء عبر الشام على رأس قوة عسكرية كبيرة، وذلك في (ربيع الأول ١١٢٤هـ/ إبريل ١٧١٢م)[٢] . على عكس العادة التي كان يتم فيها تولية والي جدة عبر والي مصر .

ويظهر أن نتائج تآمُر نصوح باشا ضد الإمام قد بدت أثارها السلبية على مصالح الدولة العثمانية الاقتصادية مع اليمن، ولعل الإمام لم يكتف بالعمل على قتل نصوح باشا فقط ! بل تجاوز ذلك إلى إحباط تجارة البن مع السلطة العثمانية الأمر الذي دفع السلطان "أحمد الثالث"[*] إلى سرعة إرسال سفيرٍ[٣] "محاطٍ بكثيرٍ من الأبهة والعديد من الأتباع، ومصحوبٍ بالكثير من الهدايا أهمها ساعة ثمينة بديعة الصنع"[٤] إلى الإمام، وذلك بغية تسوية ذلك الخلاف الذي أحدثه نصوح باشا أو للتحقيق في قضية مقتله أو لكليهما معاً.

=بعزله في (٢ربيع الآخر ١١١٥هـ/١٥ أغسطس ١٧٠٣م) لكنه توفي بعد عزله بخمسة أشهر تقريباً . (المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٠٨ ــ ٣١١).

(١) انظر : ما سبق ، ص ٣٣٦ ــ ٣٣٩.

(٢) الجبرتي : عجائب الآثار ، ١/ ٨٨ ؛ وانظر : الملحق رقم (١٢).

(*) السلطان أحمد (الثالث) بن محمد :(١٠٨٣ ــ ١١٤٩هـ/ ١٦٧٢ــ ١٧٣٧م) تولى السلطة بعد عزل أخيه السلطان مصطفى، وقد زاد فساد الدولة في عهده فحاول إصلاحها على النمط الأوربي، لكنه فشل وتلاحقت هزائم الدولة في أوربا واضطرب الوضع أكثر، فتم عزله عام (١١٤٣هـ /١٧٣٠م) ومال إلى العزلة حتى وفاته. (المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٣١٢ــ٣٢٠) .

(٣) Playfair : (A) History Of Arabia Felix . P١١٥ ; Marston : Britain's Imperial Role In The Red sea , P٢٨ .

(٤) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ١٤٦ .

المهم أن الوفد العثماني وصل إلى المواهب ـ عاصمة الإمام ـ خلال إقامة الوفد الفرنسي لدى الإمام لمعالجته[*]، وكان الفرنسيون شديدو الملاحظة إذ تتبعوا السفير العثماني وقدموا تقريراً يبدو أنه دقيقاً نظراً لحسهم التجاري، حيث أشاروا بأن السفارة تُعبِّر في ظاهرها عن العلاقات الجيدة بين العاهلين لكنها تحمل في طياتها تسوية العلاقات التجارية التي شابها التوتر بسبب وصول المراكب الأوربية التي كانت تحمل معظم البن مما أضر بمصالح الدولة العثمانية، فاشتكوا من قلة البن وارتفاع أسعاره وضآلة إيراداته[1]، وعلى ذلك قدموا احتجاجهم وشكواهم إلى الإمام المهدي طالبين منه الإكتفاء بتصدير البن إلى الموانئ العثمانية عبر مصر فقط! لكن الإمام لم يهتم بطلبهم ولاحظوا عليه عدم ارتياحه بالوفد، بل أظهر رغبته في توديعهم بأسرع وقت ممكن. مُعللِين رغبته تلك بالتكاليف الثقيلة في ضيافتهم "فقد امتعض من رؤية هذا العدد من الأتراك ومكوثهم حوله" [2]، وبما أننا نستبعد هذا التعليل نظراً لما عُرف به من الكرم وحُسن الضيافة، إلا أننا نؤيد بعض المراجع التي أشارت إلى أنه أمتعض من الوفد العثماني لأنه أعتبر طلبهم السالف تدخلاً في سلطته ومنافياً لمصلحة بلاده لأن التجارة مع الأوربيين والضرائب التي كانت تجبى منهم صارتا من أهم روافد خزينة الدولة[3]. وبالإضافة إلى ذلك يمكن القول: أن الوفد التركي كان قد أصدر بعض التلميحات توحي بأنهم على علم باشتراك الإمام في مقتل نصوح باشا، ولعلهم استخدموا ذلك كوسيلة ضغط على الإمام لتلبية مطالبهم، وهذا ما يفسر لنا امتعاضه وارتيابه منهم ورغبته في توديعهم بسرعة، لذلك انقطعت علاقته بالأتراك بعد مغادرة هذا الوفد .

(*) كانت مدة إقامة الوفد الفرنسي لدى الإمام حوالي ثلاثة أسابيع بدءاً من يوم وصولهم في (١٥محرم ١١٢٤هـ/٢٢فبراير١٧١٢م) .

(١) لاروك: نفسه ، ص ١٤٦؛ الصايدي: اليمن في عيون الأجانب ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ٦٠ ـ ٦١ ، يناير ـ يونيو ١٩٩٩م ، ص ٩٧ .

(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص١٤٦ ـ ١٤٧ ؛ شلحد : وفد فرنسي يزور المهدي صاحب المواهب ، مجلة دراسات يمنية : العدد ٣٢، أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٨٤م ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٣) Playfair : A History Of Arabia Felix . P١١٥ ; Marston : Britain's Imperial Role In The Red Sea , P٢٨ .

٢- العلاقة مع الإمبراطورية المغولية في الهند :

لقد ارتبطت الهند بعلاقات وثيقة مع أئمة الدولة القاسمية لكونها كانت إمبراطورية إسلامية يحكمها المغول كما أنها مصدر إنتاج التوابل فكانت مثار تنافس التجارة العالمية. وبما أن علاقاتها باليمن في عهد الإمام المهدي محمد قد اتسمت بالعلاقات التجارية التي لم تلق اهتماماً كبيراً من المؤرخين إلا أنها لم تخل من العلاقات السياسية الودية في الغالب كتبادل الهدايا واستخدامها كمنفى للمغضوب عليهم من أتباعه.

لقد ظهرت بوادر علاقات الإمام الحميمة مع الهند في عام(١١٠٩هـ/ ١٦٩٨م) حين أرسل وفداً حاملين معهم هدايا كثيرة مكونة من سيوف وخيول وعقيق وبعض التحف اليمنية[١]، إلى الإمبراطور "محمد أورنك زيب"[*] الذي يبدو أنه بادل الإمام نفس الشعور فأرسل إلى الإمام هدية كان من ضمنها فيل ضخم إلا أن الإمام تشاءم منه وباعه للتجار الهنود عام(١١١٥هـ/ ١٧٠٤م) الذين منحوه مقابل ثمنه كمية من الأرز الهندي استعان بها على تخفيف حدة المجاعة التي حدثت في العام المذكور [٢] .

وفي ظل تلك العلاقات الودية كان الإمام يقوم بنفي المغضوب عليهم من رعاياه وأتباعه إلى الهند، وقد نفى إلى هناك الكثير مثل قبائل ذو خليل من همدان الذي نفاهم إلى الهند والصين عام (١١٠١هـ/ ١٦٨٩م)، وذلك بعد أن تمكن من قمع عصيانهم[٣].

---

(١) أبو طالب : السحر المبين ،(خ) : ق ٣٥ ب .

(*) محمد أورنك زيب بن شاه جاهان :(١٠٢٨ـ ١١١٨هـ/ ١٦١٩ـ١٧٠٧م) استقل بالسلطة عام(١٠٦٨هـ/ ١٦٥٨م) بعد أن تمكن من الإطاحة باخوته واعتقال والده في القلعة حتى وفاته عام (١٠٧٦هـ)، وكان محمد هذا إمبراطورا قوياً وسياسياً بارعاً. إذ تمكن من توحيد إمارات الهند تحت قيادته، وبلغت الهند في عهده أوج ازدهارها في جميع المجالات العمرانية والثقافية والعلمية، إذ شجع العلماء وقربهم منه وفتح دور العلم، وله عدة مؤلفات في عدة فنون، كما أمر بجمع الفتاوى الشرعية من المذاهب المختلفة لكنه كان على المذهب الحنفي المتصوف لذا حارب الشعراء ونهى عن صياغة الشعر . واستمرت الهند مزدهرة حتى وفاته، لكنها انقسمت بعده إلى إمارات عديدة نهشتها أيدي الاستعمار الأوربي. (المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، استطراد في ترجمة السلطان محمود بن إبراهيم عادل شاه سلطان الدكن، ٣١٦/٤ ـ ٣١٧ ؛ المرادي: سلك الدر في أعيان القرن الثاني عشر ، ص٣١٦١ ـ ٣١٦٥ ؛ الحسني: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، ص ٣٢٣٥ ـ ٣٢٦٢ ؛ أبوطالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٥٥ ب ؛ وطيب الكساء ، ص ٣١٦) .

(٢) أبو طالب : السحر المبين ، ق ٥١ ب .

(٣) انظر : الفصل الأول ، ص ١١٠ – وما بعدها.

أما الوزير العلامة إسحاق العبدي[١] الذي نفاه الإمام عام(١١١١هـ /١٧٠٠م) فقد لقي حفاوة كبيرة من الإمبراطور "محمد اورنك زيب" تشهد بعظمته وكرمه ومساندته للعلماء، حيث قدم له الأموال الكثيرة "وأوقفه على خزائن جليلة في كتب العلوم"[٢]، فتمكن من تأليف كتابه المسمى الاحتراس عن نار النبراس على الأساس، وهو في أربعة مجلدات يوجد نسخة منه في "مكتبة الجامع الكبير الغربية بصنعاء برقم ٣٢ علم الكلام"[٣]. لكن العلامة العبدي لم يستمر طويلاً إذ وشى به حساده بأنه يقرض الشعر الذي كان السلطان يمنع الناس من ارتياده باعتباره عمل مستهجن عندهم[٤]، لذلك أعرض عن العبدي مما جعله يعود إلى اليمن .

أما العلاقة التجارية فهي كثيرة جداً رغم عدم اهتمام المؤرخين اليمنيين بذكرها إلا أن الهنود "البانيان" مثلوا قمة التجارة والصناعة اليدوية في موانئ اليمن وبعض المدن الهامة ، فكانت تجارة البلاد تقوم على أيديهم[٥]. ويبدو أن أحد المؤرخين قد أصاب حين ضمهم ضمن اقليات المجتمع اليمني[٦]، نظراً لكثرتهم وطول فترة بقائهم بل إن بعضهم اندمجوا في المجتمع خاصة الذين أعلنوا إسلامهم، فتبوءوا مناصب علمية وقيادية في الدولة، كالشيخ نعمة الله اللاهوري الذي تولى عمالة المخا عدة سنوات حتى طرده الإمام المهدي محمد إلى الهند، لكنه عاد ثانيةً وسكن في اليمن حتى توفى في المدينة المنورة أثناء الحج، وخلف أسرة عاشوا في اليمن وتولوا أعمالاً مهمة في الدولة[٧].

---

(١) انظر ترجمته فيما سبق ، ص ٢٢٧ وما بعدها.

(٢) الحوثي : نفحات العنبر ، (خ) : ١/ ٦٠ أ .

(٣) الشوكاني : البدر الطالع ، (تحقيق : العمري) . ص ١٥٠ حاشية .

(٤) الجنداري : الجامع الوجيز ، (خ) : ق ١٦٥ أ ؛ الحسني: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، ص ٣٢٤٨.

(٥) ، لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٩٣ : Marston :
Britain's Imperial Role In The Red Sea , P٢٦ .

(٦) الصايدي : المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن ، ص١٧٠ ، ١٩٣ .

(٧) أبوطالب: طيب الكساء، ص ٢٩٦؛ أبو الرجال: الروض الزاهر شرح نزهة البصائر (خ): ٤/ ٢٢٣ب؛ زبارة: نشر العرف، ٣/ ٢١٤، ٢١٥.

وكان هؤلاء البانيان فقد كانوا يأتون من مجتمعات هندوسية من الهند إلى الجزيرة العربية في مقتبل العمر بحثاً عن المال بطريق التجارة، ويمتهنون إلى جانب التجارة مهنة صياغة الذهب والفضة وجميع أنواع الصناعة، إضافة إلى قدراتهم الفائقة على العمليات الحسابية والترجمة فاستخدمتهم الدولة كوسطاء تجاريين ومحاسبين ومترجمين [1]، لذلك سيطروا على جميع أنواع التجارة والمهن وعمليات التسويق، لكن الرحالة الفرنسي اتهمهم بالغش والخداع كلما لاحت لهم الفرصة، وهذا ما أكده المؤرخ يحيى بن الحسين حيث أشار بان أحد البانيان أعلن إفلاسه في صنعاء عام(١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥م) بعد أن كان قد استأمنه التجار بحوالي "أربعين ألف" وأفاد بان البانياني كان يرسل بتلك الفلوس دفعاً متتالية إلى الهند مع أصحابه الذين كانوا يأتون إلى اليمن في مواسم التجارة [2]. لكننا نجد نيبور قد أشاد بأماناتهم وأشار بأن المرء يستطيع التعامل معهم بالحوالات المالية إلى أصحابهم في الموانئ المختلفة، بدلاً من حمل النقود التي كانت تتعرض للنهب في أغلب الأوقات[3] .

إضافة إلى ذلك فقد كان للسفن الهندية دور كبير في نقل البضائع اليمنية إلى الهند والخليج ومصر، خاصةً في وقت توتر العلاقات اليمنية العثمانية وفي حالة اضطراب أوضاع اليمن [4] الناتج عن صراع التنافس على السلطة الذي كان ينشب بين الحين والآخر فيما بين أمراء الأسرة القاسمية .

لعل بالإمكان القول أن العلاقات السياسية قد اختفت بعد وفاة الإمبراطور أورنك زيب (١١١٨هـ / ١٧٠٧م) نظراً للصراع الطويل الذي نشب فيما بين خلفائه على السلطة الأمر الذي أدى إلى انهيار الإمبراطورية المغولية وتشتتها إلى دويلات صغيرة،

---

(١) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٩٣ ، ٧٧ ، ٩٨.

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن ، (خ) ، ٣ / ق٩٩ ب .

(٣) الصايدي : المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن ، ص١٧٠.

(٤) براور : المخا ميناء تصدير البن الممتاز في العقود الأولى من القرن السابع عشر، (تعريب ومراجعة : أ. د. العمري)، مجلة الثوابت ، العدد ٣٢ ، إبريل ـــ يونيو ٢٠٠٣م ، ص ٥٨ .

وظهور إمبراطورية المهاراثا الهندوسية لأول مرة مما سهل عملية دخول الهند تحت نير الاستعمار البريطاني[1] .

وأخيراً نلاحظ أن العلاقة الهندية اليمنية اتسمت بالمودة السياسية في عهد الإمبراطور اورنك زيب ثم انقطعت بعد وفاته، أما التبادل التجاري فقد استمر دون توقف.

٣ ـ العلاقة مع الإمبراطورية الصفوية في فارس :

إن علاقة اليمن بفارس الودية والتجارية لها جذور تاريخية عريقة ويبدو أنها اتسعت، في ظل حكم الأسرة القاسمية في اليمن والأسرة الصفوية في فارس نظراً للتقارب فيما بين المذهبين الزيدي والإمامي اللذين يندرجان تحت اسم الشيعة، ولعل هذا التقارب وزيادة الألفة قد دفعا بالشاه عباس (ت: ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٧م) إلى الإرسال إلى الامام المتوكل إسماعيل يطلب التكاتف والتعاون لشن حرب ضد العمانيين نظراً بهجماتهم المتكررة على البلدين، غير إن الإمام اعتذر في تلبية الطلب[2]، الأمر الذي صار سبباً معقولاً في انقطاع وتوتر العلاقات بينهما بقية حكم الشاه عباس وطيلة حكم ولده الشاه سليمان (ت: ١١٠٥هـ/ ١٦٩٤م) الذي خلفه في الحكم .

في حين نجد المهدي محمد قد تجاوز ذلك الانقطاع بل إنه أعاد المودة فيما بين البلدين إلى أفضل مما كانت عليه في عهود سابقيه، وقد بدأها في عام(١١٠٩هـ/ ١٦٩٨م) عندما تلقب بالمهدي المنتظر آخر القابه، حيث أرسل وفداً برئاسة محمد حيدر آغا حاملاً هدايا كثيرة منها السيوف والخيول والعقيق وبعض التحف اليمنية الثمينة، إلى الشاه حسين بن سليمان (ت :١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م) وذلك لإعلامه بهذا اللقب الجديد، وفي اعتقادي أن الإمام قصد من وراء ذلك الشهرة والفخر وهذا ما أثبته معاصر الحدث بقوله: "فظهر في الملوك شأنه وعظم اليمن الميمون"[3].

(١) مراد (محمد عدنان) : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج ، دار دمشق، ١٩٨٤م، ص ٢٠١ ، ٢١٦ .

(٢) الوزير : طبق الحلوى ، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ ؛ أبو طالب : طيب الكساء ، ص ٩٥ ــ ٩٦ ؛ الغالبي : المتوكل إسماعيل ، ص ١٣٣ .

(٣) أبو طالب : السحر المبين ، ق ٣٥ ب .

رغم إغفال المراجع المتاحة عن مصير وفد الإمام إلا أنها أكدت بأن الشاه حسين قد بادل الإمام نفس المشاعر حيث قام في عام (١١١٣هـ/ ١٧٠٢م) بإرسال وفدٍ كبيرٍ محملاً بالهدايا النفيسة إلى الإمام[١]، و قد أفصحت تلك المراجع بأن الهدف من الوفد هو هدف مذهبي يكمن في الكشف عن حقيقة دعوة الإمام بالمهدي المنتظر الذي يمثل مصدر اعتقاد الشيعة الإمامية التي تنكر وفاته وتزعم أنه اختفى في السرداب وتؤمن بظهوره مجدداً ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[٢] . ولكن لا يعني ذلك أن زيارة الوفد الصفوي كانت خالية من أهداف أخرى كالسياسية والاقتصادية .

وعلى كل فقد أظهر هذا الوفد ما كان يتمتع به الإمام من القوة والعظمة والأبهة الملوكية وذلك من خلال مظاهر مراسيم الاستقبال والضيافة التي أقامها الإمام، إذ أمر عمالهُ بتزيين كل المدن التي يمر بها الوفد ابتداءً من ميناء المخا وانتهاءً بمدينة المواهب حاضرة حكمه، كما أمر كل عامل باستضافة الوفد حال مرورهم من ولايته[٣] . وحال استقبالهم "صُفَت الأجناد من المواهب إلى قريب ذمار، ثم صُفَّت بعد ذلك الخيل إلى ميدان الدار، وقد فُرش جميعه بالمفارش الرومية، وعند رأس كل حصان عبد من العبيد حتى وصلوا إلى الديوان، وقد قعد لهم المهدي فيه ولبس لبس الزهاد والعباد، مع عظم ما قد تزينت به الحاشية والأجناد"[٤].

ثم أستقبل الإمام الوفد في وسط مهرجان كبير كان قد أعده لهذه المناسبة حضره أعيان الدولة وغيرهم، وأُلقيت فيه كلمات الترحيب وقصائد التهاني كان أبرزها قصيدة طويلة للشاعر "أحمد بن أحمد الآنسي" الذي بالغ في مدح الإمام وقوة حُكمَه وعظمته وعدالته، حتى أنه جمع محاسن كل الملوك والحكماء في الإمام، كما شبه المواهب بالكعبة يأتيها الزوار من جميع الأماكن[٥]، وكذا حاول خلالها الاستدلال على أن الإمام

(١) أبو طالب : السحر المبين ، ق ٣٥ ب .

(٢) الذهبي : التفسير والمفسرون ، ط٢ ، ٢/٧ ــ ٨ .

(٣) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٤٤ أ ؛ وطيب الكساء ، ص ٣٠١ .

(٤) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) : ٢ / ١٤ .

(٥) انظر القصيدة في : السحر المبين ، ق ٤٤ أ ، ب ؛ طيب الكساء ، ص ٢٩٨ ــ ٣٠٠ ؛ نشر العرف ، ١ / ٧٩ ــ ٨٠ ، وديوان الشاعر نفسه المسمى : العلم المفرد من إنشاء المثنى أحمد بن أحمد ،(خ) : ص ١١٣ ــ ١١٩ .

المهدي محمد هو المهدي المنتظر . مما أثار إعجاب الإمام فأجاز الشاعر عنها جائزة كبيرة، وكذلك رئيس الوفد الصفوي أعطاه خلعة سنية لكن الآنسي تحرج من أخذها خوفاً من سخط الإمام عليه[1]. ولكن اختتم هذا الحفل البهيج بموقف حرج نظراً لاختلاف المراسيم المتبعة في كلا البلدين، وذلك حين تردد رئيس الوفد الصفوي في تسليم رسالة الشاه للإمام عندما أدرك عدم وقوف الإمام حال التسليم ــ حسب مراسيمهم المتبعة ــ مما أغضب الإمام وكاد أن يسطو برئيس الوفد لولا حنكة أحد الوزراء الذي تمكن من تهدئة الموقف وإزالة الحرج، وذلك بأن وضع فوق الرسالة مصحف موشى بالذهب ومصحف بالفضة فقام الإمام إجلالاً للمصحف [2] .

المهم أن الإمام استضافهم ضيافة كبيرة وأقامهم بالقرب منه في بستانه الخاص وانفق عليهم النفقات الواسعة طوال فترة إقامتهم التي استمرت أربعة أشهر [3] ، وعندما أعلنوا موعد الرحيل أتحفهم الإمام بالهدايا الجزيلة التي منها "سبعون فرساً من الخيل العتاق، ثم ألبسها جميع ما تحتاج إليه من العدة الفاخرة التي رق لبسها وراق، وغير ذلك مما يقابل به الملوك من النفائس والذخائر والسيوف المحلاة بالذهب المسبوك" [4]، وكان من جملة الهدايا التي خص بها الشاه نسخة من ديوان الشاعر "الحسن بن علي بن جابر الهبل"[*][5] ، وفرس عظيم القوة والحجم، مجهز بسرج وعصى مصنوعة من العقيق [6]. لذلك لا نستغرب من تعليق أحد معاصري الحدث حين قال: "ولو أنها وفدت هذه الأعاجم إلى غير ذلك الإنسان من الملوك لأكدوا [لشحوا]، ولعجز عن نفقتهم كيف المكافأة بما أهدوا، لكن صادفوا من بيت ماله في لسانه، وكلما

---

(١) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٤٤ ب .

(٢) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٤٤ ب ؛ وطيب الكساء ، ص ٢٩٨ .

(٣) أبو طالب : نفس المصدر ، ق ٤٥ أ .

(٤) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) : ٢ / ١٥ .

(*) الحسن بن علي بن جابر الهبل : (١٠٤٨ــ ١٠٧٩هـ/ ١٦٣٨ــ ١٦٦٩م) كان شاعراً كبيراً ومن المقربين إلى المهدي أحمد بن الحسن قبل إمامته، لكنه كان يتهجم على الصحابة في قصائده وكان جارودي المعتقد، واسم ديوانه (قلائد الجواهر) جمعه صديقه العلامة أحمد بن ناصر بن عبد الحق المخلافي المتوفى (١١١٧هـ /١٧٠٥م). (الشوكاني : البدر الطالع، (تحقيق : د . العمري)، ١/ ٢١٣) .

(٥) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٤٥ أ، وطيب الكساء ، ص ٣٠١ .

(٦) الكوكباني : المصدر السابق ، (خ) : ٢ / ١٦ .

في أيدي الناس فيحكم فيه بسلطانه، فادرّ عليهم الأرزاق بلا كيف، واكره رعاياه بالتسليم لإكرام الضيف»[١].

لقد غادر الوفد الصفوي مدينة المواهب عائداً إلى بلاده فارس عبر طريق المخا بعد مكوثه في حضرة الإمام نحو أربعة أشهر . ولكن لماذا مكث هذا الوفد تلك المدة كلها رغم كثرة أعدادهم ؟

يبدو أن مكوثهم هذه الفترة تؤكد الرأي الذي يراه معاصر الحدث من أن الغرض من مكوثهم طويلاً يكمن في مراقبة سلوكيات الإمام ليتحققوا من صحة دعوته بالمهدي المنتظر ومدى تطابقها في شخصيته بما عندهم من إمارات المهدوية وهذا ما يمثل هدف الزيارة، ولعل استضافتهم للإمام في البستان ــ مقر إقامتهم ــ وشدة احتفائهم به وبحاشيته[٢]، كانت للهدف ذاته .

لكننا نلاحظ من خلال اهتمامهم بنسخ ديوان الشاعر حسن الهبل، وإكرامهم لمن يميل إلى مذهبهم الجارودي الإمامي هدفاً مذهبياً آخر يكمن في العمل على نشر مذهبهم واستمالة الإمام وحاشيته إليه. ولعل الإمام لم يستجب لرغبتهم لذلك منع الناس من الاختلاط بهم خاصة المُعتنقين لمذهبهم، وقد قيل إن الإمام طرد الشاعر يوسف بن يحيى ابن الحسين بن المؤيد (ت: ١١٢١هـ/ ١٧١٠م) من المواهب لكثرة مجالسته لهم وإعجابهم به لكونه جارودي المعتقد [٣] .

ولا يستبعد أيضاً أن الوفد حاول خلال مكوثه تلك الفترة عقد حلفاً سياسياً مع الإمام للقيام بهجوم مشترك على العمانيين الذين كانوا قد انتزعوا البحرين وبعض الجزر من أيدي الفرس في ظل الضعف الذي دبَّ في كيان الدولة الصفوية في عهد الشاه حسين، وتخلي البريطانيين عنهم عندما أرادوا الهجوم على مسقط عام (١١٠٦هـ/١٦٩٥م) [٤]. ولعل الإمام لم يستجب لمطلبهم وهذا ما يفسر لنا انقطاع العلاقة بينهما

(١) أبو طالب : السحر المبين ، (خ) : ق ٤٥ أ.

(٢) الكوكباني : المواهب السنية ، (خ) : ٢ / ١٥ .

(٣) الحوثي : نفحات العنبر ، (خ) : ٣/ ٨٠ أ ؛ زبارة : نشر العرف ، ٣ / ٤١٨ ــ ٤٢١ .

(٤) وزارة الإعلام العمانية : عمان في التاريخ ، ص ٤١٣ ؛ الرئيس : مصاحف وسيوف إيران ، ص٢٧٤؛ مراد : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج ، ص ٢١٦ .

بعد ذلك، إضافة إلى الضعف الذي أحدق بالدولة الصفوية بعد هذه الزيارة والـذي أدى إلى سقوطها في أيدي الأفغان والروس والعثمانيين عام (١١٤٨هـ / ١٧٣٦م)، أي بعد خمسة وثلاثين عاماً من تاريخ الزيارة [١] .

ثالثاً : العلاقات مع الدول الأوربية :

لقد اتسمت علاقة الإمام المهدي محمد بالأوربيين في العلاقات التجارية بشكل أكثر تفاعلاً نظراً لتفرد اليمن بإنتاج ثمرة البُن التي بلغت أوج أنتاجها في عهده، وأصبح العالم يطلب القهوة من اليمن بكثرة، إضافة إلى موقع اليمن الاستراتيجي المتميز الذي صار ملتقى البضائع الشمالية بالجنوبية، فكانت تجارة العبور تتطور في مينائي المخا وعدن منذ النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي. لذلك فلا نستغرب إن وَضَعَ الإمام بعض الضوابط والقيود لتقوية هذه التجارة واستمرارها، كمنع الأوربيين من ممارسة القرصنة ما داموا على المياه اليمنية مهما كان المبرر ، وكتحديد الجمارك وغير ذلك مما سنذكره خلال بسط العلاقات الفرنسية .

وتجدر الإشارة هنا إلى إحجام بعض الدول الأوروبية عن الوصول إلى الموانئ اليمنية خلال هذه الفترة وذلك بسبب انشغالها بالحروب مع الدولة العثمانية واقتطاع أراضيها في أوربا، ولعل وجود مبشرين إيطاليين في المخا عام (١١٢١هـ/ ١٧٠٩م)[٢] كان بمجهود فردي من دون تدخل الدولة. أما البرتغاليون الذين كانوا يهاجمون المخا وعدن بين الحين والآخر خلال عهود سابقيه[٣]، فقد اضمحلت قوتهم منذ منتصف القرن السابع عشر ولعل آخر احتكاكهم باليمن كان عندما فشلوا في الهجوم على المخا، واحرقوا مركب عماني في بروم عام (١٠٨١هـ /١٦٧١م)، ثم فشلوا في اقتحام ميناء المخا العام التالي رغم ضربهم الحصار عليه والذي دام نحو شهر تقريباً [٤]. لذلك كان انهيار البرتغال بمثابة الفرصة السانحة لتنافس كلاً من

(١) الرئيس : مصاحف وسيوف إيران ، ص ٢٧٦ ؛ موسوعة سفير التاريخية ج٢ CD.
(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٦١ .
(٣) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٨٦ ، ٨٩ ، ١١٨ .
(٤) أبو طالب : نفس المصدر، ص ١١٨ ـــ ١٢٠ ، ١٢٦ ـــ ١٢٧.

بريطانيا وهولندا وفرنسا في النشاط التجاري داخل الموانئ بشرط التزامهم باللوائح اليمنية ، كما سيتضح خلال هذه الأسطر .

١ ـ العلاقات البريطانية اليمنية :

لقد سعى الإنجليز إلى إقامة وكالة تجارية في الموانئ اليمنية منذ أن وطأت أقدامهم أرض مصادر التجارة في الشرق حال تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية عام (١٠٠٧هـ /١٥٩٩م) ، حيث قام الإنجليز في مطلع القرن السابع عشر بعدة محاولات لإقامة وكالة تجارية في عدن والمخا[١]. وبما أن معظم المحاولات قد باءت بالفشل وتعرضوا للقتل والنهب والأسر من قبل الولاة العثمانيين في اليمن لكنهم لم ييأسوا بل كرروا المحاولات حتى سمحت لهم السلطات العثمانية في عام (١٠٢٧هـ / ١٦١٨م) بمزاولة نشاطهم التجاري في المخا وتشييد وكالة تجارية تُشرف على مصالحهم مقابل دفع ضرائب استيراد وتصدير بنسبة ٣ % فقط [٢] .

والجدير ذكره أن الإنجليز لم يتمكنوا من إقامة هذه الوكالة إلا حال اضطراب حكم الأتراك في اليمن ومقاومة الحكام المحليين لهم بقيادة الأئمة الزيدية، لذلك فقد عمدوا إلى مساندة حركة الأئمة لكي يجدوا لهم نصيراً داخل اليمن "يمكن أن يسهم في تسهيل عمليات التبادل التجارية وخاصة ما كان يتعلق منها بتجارة البُن اليمني في ميناء المخا. وقد استمرت هذه العلاقات الودية لمدة قرنين من الزمان"[٣].

وخلال مزاولة نشاطهم التجاري كانوا يستخدمون سفنهم في نقل الذهب والفضة والبضائع المهمة لحمايتها من القرصنة نظراً للتسليح الجيد الذي تتمتع به سفنهم[٤] ،

---

(١) Marston : Britain's Imperial Role In The Red Sea , P٢٥ , Playfair ; R.L. : PP١٠٥ -١١٠

جاد طه : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٢٥ ــ ٢٦ ؛ أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٦٦ ــ ٦٨ .

(٢) أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٦٨ .

(٣) أباظة : نفس المرجع والصفحة .

(٤) براور : المخا ميناء تصدير البن الممتاز في العقود الأولى من القرن السابع عشر ، (تعريب ومراجعة : أ.د . حسين العمري) ، مجلة الثوابت ، العدد ٣٢، إبريل ــ يونيو ٢٠٠٣م ، ص٥٨ .

لكن المهدي محمداً كان قد ضبط السواحل وحرَّم القرصنة فيها كما هو واضح في المعاهدة اليمنية الفرنسية [١].

ولا شك أن البريطانيين كانوا أكثر نشاطاً في عملياتهم التجارية مع اليمن كما أنهم وطدوا علاقاتهم مع الجهات المسئولة خاصة في الموانئ حيث نجد قبول وساطة القبطان الإنجليزي في تسوية الخلاف الذي نشب فيما بين الفرنسيين والبانياني الذي كاد يؤدي إلى اندلاع الحرب عام(١١٢١هـ /١٧٠٩م) [٢].

وقد استمرت العلاقات التجارية الجيدة فترة طويلة إلا أنها تحولت مع مرور الأيام إلى علاقة استعمارية حيث قصفوا ميناء المخا عام(١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م) محاولين الاستيلاء عليه ، ثم تمكنوا من احتلال عدن عام (١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م)[٣] .

٢ ـ العلاقات الهولندية اليمنية :

لم يكن الهولنديون أقل طموحاً من الإنجليز فقد حذوا حذوهم في محاولة إقامة وكالة تجارية لهم في الموانئ اليمنية منذ سنواتهم الأولى من اكتساحهم للاحتكار البرتغالي على تجارة الشرق، وبالتحديد بعد تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية عام(١٠١٠هـ/ ١٦٠٢م) [٤] . التي أرسلت أسطولا بقيادة "فاندي بروك" إلى البحر الأحمر عام(١٠٢٢هـ /١٦١٤م) الذي وصل إلى عدن فاستقبله واليها التركي بحفاوة لكنه نصحه بسرعة مغادرة الميناء نظراً لتذمر التجار الآخرين، لذلك باءت محاولته بالفشل[٥] . وبعد عامين كرر المحاولة فوصل إلى المخا ومن ثمَّ إلى باشا صنعاء بغية موافقته على إقامة وكالة في المخا لكن الباشا اعتذر بحجة أن هذه الموافقة لا تتم إلا

---

(١) انظر : نص المعاهد في الملحق رقم (٣) .

(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٩٨ .

(٣) العمري : اتصال الغرب باليمن ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ٤٢ ، أكتوبر ــ ديسمبر ١٩٩٠م ، ص ٦٣ .

(٤) مراد : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي ، ص ١٦٥ ؛ العمري : اتصال الغرب باليمن ، مجلة دراسات يمنية العدد ٤٢ ، أكتوبر ــ ديسمبر ١٩٩٠ م ص ، ٥٩ ح .

(٥) جاد طه : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٢٦ ــ ٢٧ .

بفرمان من السلطان العثماني[1].وكذلك فشلت المحاولة الثالثة عام (١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م)[2]، ولم ينجحوا في إقامة وكالة تجارية في المخا إلا في العام التالي [3] ، وبذلك تمكنوا من تنظيم رحلاتهم التجارية إلى المخا وإن كانوا يضطرون إلى إغلاق وكالتهم بين الحين والآخر بسبب اضطراب أوضاع اليمن الناتجة عن حروب التنافس على السلطة، أو لتوتر العلاقات اليمنية الهولندية الناتجة عن أعمال القرصنة التي كان يمارسها الهولنديون في المياه العربية .

أما في عهد المهدي محمد فقد تحولت أرباح الهولنديين إلى خسائر وبالتحديد منذ عام (١١٠١هـ/١٦٩٠م) [4] الأمر الذي أفقد مركز الهولنديين كقوة كبرى احتلتها بريطانيا فيما بعد[5] . ولكن رغم ذلك فقد استمرت رحلات السفن الهولندية إلى المخا مدة طويلة، حيث كانوا يرسلون كل عام سفينة حمولتها(٧٠٠) طن ـ من "بتا فيا" مقرهم الرئيس في الهند ـ فتباع شحنتها في المخا وتعود محملة بالبن والبضائع العربية وفي "بتا فيا" يتم "تصديرها إلى أوربا، أو إلى جزء آخر من جزر الهند"[6]. وقد كانوا "يبتاعون المعادن الكريمة في المخا وسورات وفارس واليابان مقابل الفلفل، ومن ثَمَّ يشترون المنسوجات في سورات وكورماندل والبنغال مقابل هذه المعادن الكريمة. وبالمنسوجات أمكنهم الحصول على الفلفل وغيره من أرخبيل الهند الشرقية لسد حاجة السوق الأوربية"[7].

والجدير ذكره هنا امتياز رئيس الوكالة الهولندية المقيم في المخا خلال عهد المهدي محمد والذي امتاز بالذكاء والنباهة إذ حاول تطوير علاقته الجيدة مع عُمال

---

(١) جاد طه : نفس المرجع ، ص ٢٧ ؛ العمري : اتصال الغرب باليمن وأهم بعثاتهم في العصر الحديث ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ٤٢ ، أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٩٠ م ، ص ٦١ .

(٢) شبيب : أهمية مضيق باب المندب ، ص ٥٤ .

(٣) براور : المخا ميناء تصدير البن الممتاز في العقود الأولى من القرن (١٧م) تعريب ومراجعة (أ . د .حسين العمري)، مجلة الثوابت ، العدد ٣٢ إبريل ـ يونيو ٢٠٠٣ م ، ص ٤٦ .

(٤) براور وكبلانيان : اليمن في أوائل القرن السابع عشر ، مركز عبادي ، ط٣، ١٩٩٨م ، ص ٢١ .

(٥) العمري : اتصال الغرب باليمن وأهم بعثاته في العصر الحديث ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ٤٢ ، أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٩٠ ، ص ٦٠ .

(٦) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٦٣ .

(٧) براور وكبلانيان : اليمن في أوائل القرن السابع عشر ، ص٢١ .

الإمام ومع الأجانب أيضاً، بدليل أنه استضاف القباطنة الفرنسيين الذين وصلوا المخا عام (١١٢١هـ /١٧٠٩م) رغم شدة العداء فيما بينهما لما سبق أن فعله الفرنسيون من استيلائهم على سفينة هولندية في رأس الرجاء الصالح قبل وصولهم إلى المخا بعدة أشهر [١] .

ومن جهة أخرى كانت علاقة رئيس الوكالة الهولندية وثيقة بأمير المخا وتهامة ــ الشيخ صالح الحريبي ــ بدليل أنه خرج مصطحباً عشرين من إتباعه كمرافق للوالي حال استقباله مبعوث الإمام الذي جاءه بتجديد الولاية والخلعة بعد أن كاد الخلاف يتفاقم بينهما عام(١٧٠٩م /١١٢٠هـ) [٢]. وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على نباهة هذا الهولندي وعزمه على كسب ود المسئول اليمني لما له من أهمية في تسهيل المعاملات التجارية والجمركية، ويبدو أنه لقي بواسطة نباهته هذه حفاوة كبيرة من جهة المسؤولين في المخا، حتى إن الإمام منح الهولنديين إعفاء من الضرائب لكمية(٦٠٠) بالة من البن سنوياً [٣].

إضافة إلى أن اليمنيين استخدموا الهولنديين كمستقبلين للسفن الأوربية ومترجمين نظراً لطول إقامتهم في الميناء[٤] ، لكونهم الوحيدين الذين يمتلكون وكالة فيه[٥] . ولكن سرعان ما تقلص النشاط الهولندي في اليمن بعد هذه الفترة، ولعلهم استغنوا عن بن اليمن بالبن الذي زرعوه في بتافيا وجاوة منذ عام (١٦٩٦م) فبلغ محصولهما نحو (٩٠%) من حجم البن الوارد إلى هولندا[٦]، وهذا ما يفسر لنا سبب إغلاق الشركة الهولندية لوكالتها في المخا عام (١٧٣٨م)[٧] .

---

(١) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٦٣ ، ١٨ .

(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة، ص٩٠. وقد تردد خلاف الحريبي والإمام في عدة مواضع من هذا البحث.

(٣) Boxhall: The diary of Mocha Coffee Agent , p: ١٠٢- ١٠٣.

(٤) لاروك : نفس المصدر ، ص ٦٠.

(٥) الصايدي : اليمن في عيون الأجانب، مجلة دراسات يمنية ، العددين٦٠ ــ ٦١، يناير ــ يونيو١٩٩٩، ص ٨٦ .

(٦) ماكرو: اليمن والغرب ، ص: ٣٥.

(٧) العمري : اتصال الغرب باليمن وأهم بعثاته في العصر الحديث ، مجلة دراسات يمنية . العدد ٤٢ ، أكتوبر ــ ديسمبر ١٩٩٠ م ، ص ٦٠ .

٣ ـ العلاقات الفرنسية اليمنية :

اهتم الفرنسيون بالتجارة مع الشرق من مطلع القرن السابع عشر، وإن كان ذلك بصورة فردية حتى تأسست شركة الهند الشرقية الفرنسية عام(١٠٠٩هـــ /١٦٠١م)، لكن ضعف نشاطها أدى إلى إعادة تنظيمها عام (١٠٧٤هـ /١٦٦٤م) بدعم من الملك لويس الرابع عشر(١٠٥٣ ــ ١١٢٧هـ / ١٦٤٣ - ١٧١٥م) الذي بلغ بالملكية الفرنسية إلى أوج عظمتها خلال عهده الطويل(١) .

غير أن الفرنسيين لم يرتبطوا بعلاقاتهم التجارية مع اليمن إلا في النصف الثاني من حكم المهدي محمد، حين وصلت أولى رحلاتهم إلى المخا في (٣يناير ١٧٠٩م) (*) ، وكانت مكونة من السفينتين "كروزCurieys" و "ديليجنت Diligent" التابعتين لمجموعة تجار "سانت مالو" تم ارسالهما بقيادة السيد "دي ميرفيل M . de Merveille " ، للبحث عن مصادر إنتاج ثمرة البن التي زادت شهرتها في أوربا عامة وفرنسا خاصة. وقد وصلت السفينتان إلى عدن في منتصف شهر (ديسمبر ١٧٠٨م / شوال ١١٢٠هـ) بعد مرورهما بجزيرة سقطرى. ثم واصلتا مسيرتهما حتى رستا في المخا في (٣ يناير ١٧٠٩م) (٢).

مما لا شك فيه أن شدة اهتمام الفرنسيين بهذا المحصول العزيز واكتشاف مصدر إنتاجه قد أدت إلى تصدي المستشرق "جان دي لاروك" لكتابة أحداث هاتين الرحلتين، ووصف هذا المحصول وشجرته ومناطق زراعته ومناخه، ووصف سكان البلاد من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، معتمداً في ذلك على الحوار الذي دار بينه وبين رئيس البعثة السيد " دي غرة لو ديار" وكذا على مذكرات أعضاء

---

(١) مراد : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي . ص ١٧٤ ــ ١٧٥؛ الصطوف وآخرون : (د . عبدالكافي) ، دراسات في تاريخ أوربة في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق،١٩٩٧م. ص١٩٢ ــ ٢١٤.

(*) لعله وهم أو خطا مطبعي عند الأستاذ حسن صالح شهاب حين أرخ هذا الحدث في عام ١٧٠٦م ، والصحيح ما أثبتناه أعلاه . انظر : شهاب (حسن صالح) : أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ط ٢، ١٩٨١، ص ٢٦ ، وعدن فرضة اليمن ، ص ٢٣٨ .

(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٢٦ ــ ٣٢، ٥٩ .

البعثة [١]، وجمع كل ذلك في كتاب على شكل تقرير قدمه لوزير الخارجية الفرنسي في (١٥ مايو ١٧١٥م) تحت عنوان "رحلة إلى العربية السعيدة"[٢]. ورغم ما في هذا الكتاب من أخطاء جسيمة ومبالغات وخلط في بعض المعلومات إلا أنه يعتبر مصدر فريد من نوعه لاغنىً عنه في تاريخ تلك الفترة، وقد تفرّد بذكر معلومات مهمة وكثيرة لم تقف عليها المصادر المحلية، لذلك فقد تُرجم هذا الكتاب إلى عدة لغات، واعتمد عليه الكثير من الباحثين و المستشرقين والرحالة .

والمهم في ذلك أن البعثة قد حظيت باهتمام وعناية حاكم عدن ــ أخو صالح الحريبي حاكم المخا ــ حال مرورهم بها ، وحثهم على ضرورة المتاجرة مع بلاده موضحاً الأرباح التي ستعود عليهم من تلك التجارة، ثم زودهم بمذكرة توصية إلى أخيه حاكم المخا حال مغادرتهم عدن[٣]. وعلى كل فقد أسفرت رحلة الفرنسيين الأولى إلى اليمن عن نتيجتين مهمتين هما :ــ

١. معرفة مصادر إنتاج البُن، الذي كان يُجلب إلى فرنسا عبر مصر بأسعار مرتفعة، فتم للفرنسيين اكتساح ذلك الاحتكار، حيث ظلت سفنهم راسية في المخا أكثر من سبعة أشهر أقبلوا خلالها على شراء البن حتى صار كل مخزونهم من البن "بقيمة تزيد على مائتي ألف قرش"[٤].
٢. تم التوصل إلى إبرام معاهدة تجارية فرنسية يمنية [٥]، والتي أوحت بنودها إلى مبادئ تعامل اليمنيين التجاري المستمد من الدين الإسلامي الحنيف، حيث بدأت بنودها بالسماح لهم بإقامة وكالة تجارية في المخا، ثم منحهم الحق في ممارسة شعائرهم الدينية بحرية مطلقة، وكذا ممارسة نشاطهم التجاري نهاراً ومنعهم ليلاً ، وحقهم في رفع رايتهم على وكالتهم، ثم تفتيش بضاعتهم في الجمارك

(١) شلحذ : وفد فرنسي يزور الإمام المهدي صاحب المواهب سنة (١٧١٢م / ١١٢٤هـ) ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ١٨، أكتوبر ــ ديسمبر ١٩٨٤م ، ص ٧٠ .
(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٧ ــ ٨ .
(٣) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٣٩ ــ ٤٢ .
(٤) لاروك : نفسه ، ص ٧٨ ، ٩٥ .
(٥) لاروك : نفس المصدر ، ص ٦٣ ؛ ماكرو : اليمن والغرب ، ص ٣٩ ؛ جاد طه : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٠ .

قبل وصولها إلى الوكالة وتحديد الجمارك على بضائعهم بنسبة ٣ % ، وإلزامهم بدفع رسوم على كل فرد منهم نزل إلى الشاطئ مقابل حمايته من أي شخص يوجه إليه الإهانة، والتزامهم بعدم الإهانة لأي شخص سواءً من التابعين للسفن الراسية أو من أهل المدينة أو من الموظفين. وكل هذه البنود منوط تنفيذها بعدم هجومهم على السفن القادمة نحو اليمن سواءً أكانوا أصحابها من أعدائهم أو أصدقائهم. وعلى هذا اختتمت المعاهدة ومهرت من الطرفين [١] .

ولكن رغم هذه المعاهدة التي ضمنت حقوق الفرنسيين ورغم العناية التي حضوا بها من جهة حاكم المخا الشيخ صالح بن علي الحريبي إلا إنهم لم يكونوا جديرين بذلك الاهتمام فيما يبدو، فالطمع والجشع قد جعلا رئيس البعثة يتعامل في جلب البن مع أحد الأشخاص دون تدخل الدلال (السمسار) ـ الذي زودهم به الحاكم حسب البند التاسع من المعاهدة ـ، ولمّا تأخر الشخص في جلب البن، وأرسل كمية رديئة إلى رئيس البعثة ـ حسب زعمه ـ احتار الأخير في أمره، حينها كان عليه أن يخبر الحاكم بالأمر، لكن بدلاً من أن يفعل ذلك، قام باستدعاء الشخص وحجزه في الوكالة ورفض تسليمه للسُلطة المحلية حتى يسدد المال الذي أخذه منه، الأمر الذي كاد يؤدي إلى فض المعاهدة وتوتر العلاقات فيما بينهم لولا تسامح وحنكة حاكم المخا الشيخ صالح الحريبي[٢] . وفوق هذا كله فقد قام هذا القبطان باختلاق مشكلة أخرى حال مغادرتهم المخا. وكانت هذه المشكلة مع ذلك الدلال "بيرا الباتياني" ، ـ الذي كلفه الحاكم بمرافقتهم ـ وقد زعم رئيس البعثة بان البانياني "مدعوما من أمير البر وبعض ضباط الحاكم" وكادت المشكلة أن تؤدي إلى اشتباك بين الفرنسيين والسلطات اليمنية في الميناء، ولولا تدخل القبطان البريطاني وتلطفه في حلها لَمَا غادر الفرنسيون المخا بسلام في (٦ /٦/١١٢١هـ ـ /١٢/ ٨/ ١٧٠٩م) [٣] .

---

(١) انظر : نص المعاهدة في الملحق وثيقة رقم (٣) .

(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ٧٩ ــ ٨٤ .

(٣) لاروك : نفسه ، ص ٩٨ ــ ٩٩ ، ١٠١.

أما الرحلة الفرنسية الثانية التي وصلت إلى المخا في(٢٢/١٠/١١٢٣هـ/ ١٧١١/١٢/٢م) [١] فقد نال بعض أعضائها شرف التوغل في المناطق الداخلية والمثول بين يدي الإمام في عاصمته المواهب، وذلك عندما أرسل الإمام المهدي محمد وفداً إلى قباطنة السفن الفرنسية يطلب إسعاده بإرسال طبيب الرحالة لمداواته من القروح التي أحاطت برأسه وساعديه، وقد انتهز الفرنسيون هذه الفرصة للتقرب من إمام اليمن والحصول على امتيازٍ أفضل ولمعرفة المزيد عن هذه البلاد ذات الفوائد الكثيرة والاستفادة منها في التجارة، وأضاف راصد أحداث الرحلة أنهم استغلوا هذه المناسبة لتعريف الإمام عن الأمة الفرنسية .

لقد أسرع الفرنسيون في تلبية طلب الإمام فأرسلوا بعثة مكونة من عشرين فردا بما فيهم الطبيب مصطحبين معهم بعض الهدايا لتقديمها للإمام مكونة من مرآة جميلة ارتفاعها ما بين خمسة إلى ستة أقدام مع زوج من المسدسات وبعض الأقمشة[٢] . وغادر الوفد المخا في (١٧١٢/٢/٤م الموافق ١١٢٣/١٢/٢٧هـ) ، ووصلوا المواهب بعد رحلة دامت ثمانية أيام، وكان الإمام قد أرسل لاستقبالهم استقبالا حافلا، لكنهم لم ينتظروا حفل الاستقبال ، وفضلوا دخول القصر بسرعة نظراً لشدة حرارة الجو التي لم يكن بمقدورهم احتمالها [٣] .

ثم مكث الوفد أكثر من ثلاثة أسابيع حتى شفي الإمام من قروحه. وقد لقوا خلالها جل اهتمام الإمام وإكرامه إذ أنزلهم في قصره ومنحهم أفضل المأكولات والمشروبات وغير ذلك من مستلزمات الضيافة، كما أنهم تمتعوا خلالها بكامل الحرية حتى تمكنوا من رصد معلومات معظمها دقيقة [٤] بحيث يعجز صاحب البلاد إدراكها بسهولة .

---

(١) لاروك : نفسه ، ص ١٢٩ ــ ١٣١ ؛ الصايدي : اليمن في عيون الأجانب ، مجلة دراسات يمنية العدد ٦٠ــ ٦١، يناير ــ يونيو ١٩٩٩م ، ص ٩٠ ــ ٩١ .

(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص١٣١ ــ ١٣٢ ؛ الصايدي : اليمن في عيون الأجانب ، مجلة دراسات يمنية : العدد ٦٠ــ ٦١ ، يناير ــ يونيو ١٩٩٩ ، ص ٩١.

(٣)لاروك: نفس المرجع ، ص ١٣٥ ؛ الصايدي : نفس المرجع ، ص ٩٢ ؛ شلحذ : وفد فرنسي يزور الإمام المهدي صاحب المواهب ، مجلة دراسات يمنية ، العدد١٨، شتاء ١٩٨٤م ، ص٧٢ .

(٤) لاروك : نفس المرجع ، ص ١٣٦ ــ ١٤٨ .

وعندما أراد الوفد الفرنسي العودة إلى سفنهم الراسية في ميناء المخا أقام الإمام لتوديعهم حفلاً كبيراً حضره كبار رجال الدولة وغيرهم. أما الهدايا التي أتحفهم بها فقد كانت كثيرة وقيمة حيث أعطى كل فرد منهم حلة وعباءة مطرزة بالذهب والفضة وفرس مطهمة، وأرسل للقباطنة بمثل ذلك، وكذا أراد أن يرسل بـ(٥٠٠) بالة [*] من البن هدية لإمبراطور فرنسا لكنهم اعتذروا عن قبولها لكون سفنهم محملة وليس بمقدورها استيعاب هذه الكمية الكبيرة [١] .

أما أهم النتائج التي أسفرت عنها زيارة الوفد الفرنسي للإمام فتكمن في كسب ثقة رجال الدولة بالفرنسيين حيث فضَّلهم الحكام عن غيرهم من التجار في شراء البن "والأكثر من ذلك إرسال السفن بسرعة، علاوة على إلغاء رسم جمركي جديد كان حاكم بيت الفقيه قد أصرَّ على تحصيله باعتباره حقاً من حقوقه"[٢]. ثم أنهم تعرفوا على خاصية زراعة شجرة البن وعلى بعض مناطق زراعتها ، ثم أخذوا شتلات منها لزراعتها في فرنسا .

يبدو واضحاً أن العلاقة الفرنسية بلغت أوجها في عهد الإمام المهدي محمد فقد تلت هذه الرحلة رحلتان وذلك في عام(١٧١٤م) ، وأخرى في عام (١٧١٧م) ، ثم ثالثة بعد وفات الإمام المهدي كانت في عام (١٧١٩م) ، ولعل هذه الرحلة الأخيرة كانت بداية توتر العلاقات التي أدت إلى قصف الفرنسيين للمخا عام(١٧٣٧م) ، وسواءً أكان القصف بسبب رفع حاكم المخا الرسوم الجمركية عمَّا كانت عليه في اتفاقية عام(١٧٠٩م)[٣] ، أو بسبب تراكم الديون لدى الحاكم ومطله[٤]، أو اجتمع السببان معاً.

(*) بالة : هي وحدة وزن كانت مستخدمة آنذاك وتزن نفس زنت البهار والرزمة، والوحدة منها تساوي ٣٩٣ رطل هولندي . أي بما يعادل ١٩٥ كغم، فإذا ضربنا هذا الوزن في الكمية المذكورة أعلاه فسوف تعادل ٥٠٠ × ١٩٥ = ٩٧.٥٠٠ كغ)، وإذا كانت قيمة البالة الواحدة حينذاك بمبلغ (١٥٠) قرش فسوف تكون (٥٠٠ × ١٥٠ = ٧٥.٠٠٠) قرش ، فانظر إلى عظمت هذه الهدية) . عن الأوزان انظر : (براور : المخا ميناء تصدير البن الممتاز ، (تعريب ومراجعة : أ.د.العمري) ، مجلة الثوابت العدد ٣٢ ، إبريل ــ يونيو ٢٠٠٥م ، ص ٥٠ ، وعن الأسعار انظر : لاروك : نفس المصدر ، ص ٧٩) .

(١) لاروك : نفس المصدر ، ص ١٤٨ ــ ١٥٠ .

(٢) لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص ١٥١ .

(٣) ماكرو : اليمن والغرب ، (تعريب : أ.د. حسين العمري) ، ص٤٠ .

(٤) جاد طه : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن . ص ٣١.

المهم أن هذا الضرب أدى إلى رضوخ حاكم المخا، فسدد ديون الفرنسيين وابرم اتفاقية تم بمقتضاها تخفيض الرسوم الجمركية إلى ٢,٢٥ % [١].

وعلى ذلك نخلص من علاقات الإمام الخارجية التي اتسمت بالطابع السياسي مع أشراف مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ حكام الدولة العثمانية ـ حين حاول مد نفوذه عليهما بغية حيازته شرف المكانة الرفيعة بين العالم الإسلامي التي كانت الدولة العثمانية تفخر به فدافعت عنه بكل وسيلة مثل الصدام المسلح والمؤامرات ضده وأحيانا بالتودد وتبادل الهدايا. وهذا ما جعل علاقته بأشراف مكة متأرجحة بين التودد والصداقة وبين التوتر وشن المؤامرات فأصبح البلدان أحيانا مصدراً لتغذية حركات العصيان وملجناً للخارجين على السلطة من البلدين . أما العلاقة التجارية والسيطرة الفعلية فقد كانت على القرن الأفريقي خاصة الموانئ المقابلة لجهة اليمن وذلك للتحكم في منابع تجارة الرقيق والعاج، ولحماية السفن التجارية القادمة إلى اليمن من القرصنة، ومواكبةً للدول الأوربية، والدولة اليعربية العمانية التي امتدت سيطرتها على ممباسة وكلوي وزنجبار في شرق أفريقيا، وفي نفس الوقت تجنب الصدام المسلح معهم وغض الطرف عن مصادقتهم . ومن منطلق حبه للشهرة والفخر فقد بادر بتبادل الهدايا مع إمبراطورية المغول والهند وإمبراطورية الصفويين في فارس، وقليلاً مع العثمانيين، ثم علاقة التجارة مع الدول الأوربية لتفرد اليمن بزراعة البن الذي اشتهر عالميا في عهده مما جعلها سوقا لتجارة العبور وملتقى لتبادل جميع السلع الواردة من مختلف دول العالم .

* * * *

(١) جاد طه : نفس المرجع والصفحة ؛ ماكرو : نفس المرجع ، ص ٤١ .

الخاتمـــــة :

كانت هناك عوامل عدة أهلت الزعامة الزيدية لوراثة الحكم بعد انسحاب العثمانيين ، ولعل أهمها ما أتصف به زعيم المقاومة الزيدية ـ الإمام المؤيد بـن القاسـم ـ مـن أوصاف علمية وإدارية وقيادية مكنته من كسب ود الزعامات المحلية الأخرى وضـمهم تحت قيادته، فبنى دولة زيدية قوية تمتّع بخيراتها أخوه المتوكل من بعـده ووسـعها ، لكنه لم يحافظ على استمرار قوتها ووحدتها؛ إذ سرعان ما عاد الصراع على الـسلطة مجدداً الذي كان مصبوغاً بالشعور الوطني في عهد العثمانيين ليظهر مجرداً في تطاحن أمراء الأسرة الحاكمة فيما بينهم، مما أضعف قوة الدولة وأفسد حكمها وأفقدها هيبتهـا وتفككت أجزاؤها .

ولقد أثرت تلك الأجواء المفعمة بالنشاط السياسي والاقتصادي تـأثيراً كبيـراً فـي تكوين شخصية الإمام المهدي محمـد بـن أحمـد بـن الحـسن بـن الإمـام القاسـم (١٠٩٧ـ١١٣٠هـ / ١٦٨٦ـ ١٧١٨م) ، فمنذ طفولته وهو ملازم لوالده ـ القائـد الأعلى لجيش المتوكل إسماعيل، ثم المهدي أحمد فيما بعد ـ فشهد معه وقائع توحيـد اليمن وما واكبها من التطورات السياسية والإدارية، ممـا أكـسبه الحنكـة الـسياسية والإدارية والشجاعة والمكر والدهاء وحب المغامرة ، حتى صار أكثر أمراء آل القاسـم طموحاً إلى السلطة ، فعمل كل ممكن حتى انتزعها منهم بالقوة ، وانفرد بحكـم الـيمن نحو ثلث قرن من تاريخه الحديث ، وبما أن فترة حكمه قد اتسمت خـلال الثلـث الأول والثلث الأخير بالصراع الشديد على السلطة إلا أنها مثلت أهم فتـرات تـاريخ الـيمن الحديث أثناء حكم الأئمة ، من حيث استعادة وحدة الدولة وفرض هيبتها، وما شـهدته من الانتعاش الاقتصادي، والتوسع العمراني، والتطور السياسي، لمواكبة عصر التجديد والانتعاش الأوربي، فكان الإمام المهدي محمد آخر الأئمة الأقوياء الذي حاول التجديـد والمحافظة على وحدة الدولة وفرض هيبتها، إذ ضعفت اليمن من بعده وضاعت هيبتها وتسلط الأمراء على الولايات. وعلى ذلك فقد اتضح من خلال البحث التالي:

١- اضطراب أوضاع اليمن وعدم استقرارها في الغالب ، نظراً للصراع الذي كان يدور فيما بين أمراء الأسرة الحاكمة لتنافسهم على السلطة الذي ظهر مجرداً بعد اختفائه تحت الشعور بالوطنية ومحاربة الظلم والفساد طيلة عهد العثمانيين، ذلك الصراع الذي كان يسانده توريث الأمراء للولايات واستبدادهم بها، ويذكي ناره مبادئ وشروط الإمامة الزيدية، التي تجيز الخروج وإعلان الإمامة لمن يرى في نفسه توفر شروطها، غير أن الأمراء المتنافسون لم يقفوا عند خرق تلك الشروط فقط ! بل تجاوزوها إلى أبعد من ذلك حتى أصبحت الإمامة تخضع في نيلها لمن يملك القوة والمال ويتمتع بالحنكة السياسية، وإنما كانت الشروط والمبادئ الزيدية شعارات يتستر بها الطامح ليخفي طموحه تحتها كوسيلة للوصول إلى السلطة . لذلك فقد ظهر العديد من الأمراء المتنافسين على السلطة عقب وفاة المؤيد بن المتوكل عام(١٠٩٧هـ / ١٦٨٦م) كانت الغلبة للمهدي محمد بن أحمد بن الحسن إذ تمكن بواسطة القوة والمال والحنكة السياسية من إخضاع منافسيه والاستحواذ على الحكم .

٢-لم تقف طموحات الإمام المهدي محمد عند إثبات حقه في السلطة فقط ؛ بل تجاوزت أكثر من ذلك، فقد عمل على استقطاب الشخصيات القيادية الجيدة ــ من علماء وفقهاء وزعماء قبائل وغيرهم ــ ثم أوكل إليهم المناصب المهمة في دولته ، فشهد اليمن بواسطتهم نوعاً من الاستقرار السياسي والانتعاش الحضاري والتوسع العمراني ، إذ تمكن من استعادة وحدة الدولة وفرض هيبتها، وكذا حاول النهوض باليمن لمواكبة عصر الانتعاش الأوربي فأدخل بعض التنظيمات على الجهاز الإداري مثل تكوين جيش نظامي من العبيد ، ومحاولة استخراج الفضة ، كما أنه حاول التوسع خارج إطار الدولة وإن فشل في بسط السيطرة على الحجاز لكنه سيطر على ميناء زيلع في ساحل الصومال وجعله بندراً يمنياً ساهم إلى حد ما في النهضة التجارية التي شهدتها اليمن خلال حكمه، والتي ظهرت عائداتها من خلال تلك المدن التي بناها والحصون التي جددها، ومن خلال مظاهر الترف التي ظهرت على

حاشيته ومن يلوذ به، وتلك السمعة الخارجية التي امتاز بها اليمن خلال عهده فأعاد لليمن أهمية موقعه الاستراتيجي التي فقدها منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

٣-لقد مثَّل مبدأ الخروج على الحاكم الظالم أهم مصادر القلق لسلطة الإمام ، كما كان من أهم عوامل زعزعة أمن واستقرار الدولة، إضافة إلى وقوفه أمام تقدمها وازدهارها ، حيث اتخذه الطامحون وسيلةً لتحقيق طموحاتهم ، فكانوا يرصدوا على الإمام أخطاءه وعثراته ، ويستغلونها للدعاية ضده، ويجمعوا بواسطتها الساخطين على الحكم ويمنونهم بأن العدالة وإزالة المفاسد ستتحقق بواسطتهم، ثم يوجهونهم لإعلان التمرد تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما يجعل الإمام يهمل تدبير شؤون الحكم الأخرى، مركزاً اهتمامه في المحافظة على السلطة والعمل على تثبيت الأوضاع حسب ما هي عليه دون البحث عن وسائل نمو الدولة وازدهارها، ومن هنا يتحول الحكم إلى أداة للقمع فتصاب الدولة بالجمود والعزلة، ولكن رغم نجاح المهدي في قمع تلك الحركات المضادة التي كان يقوم بها الطامحون بين الحين والآخر خلال فترات حكمه الطويل، وعدم تأثير تلك الحركات بشكل كبير على المضي في تحقيق طموحه وإنجازاته إلا أنه وقع في عدة أخطاء مثل: استبداده بالسلطة، وتسلط أولاده على المناصب بدون كفاءة ، وارتيابه من رجال دولته، والبطش ببعضهم ومصادرتهم ثم إعادتهم إلى مزاولة أعمالهم السابقة، كل تلك الأخطاء وغيرها كانت سببا كافياً لتحويل كبار رجال دولته من عوامل بناء إلى معاول هدم لحكمه، حيث تحالفوا ضده وبحثوا عن شخصية مؤثرة في العامة ليضمنوا تعاطفهم معها ومفتقرة إلى الحنكة الإدارية ليمارسوا صلاحياتهم في ظلها ويأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، وقد وجدوا هذه المواصفات في شخصية الحسين ابن القاسم بن المؤيد الشهاري ، فكانت نهاية حكم الإمام المهدي محمد كنتيجة لأخطائه نفذها كبار رجال دولته تحت شعار وجوب الخروج على الحاكم الظالم .

٤- بروز دور القبيلة الذي تبلور في صورة تكتل سياسي لدعم سلطة الإمام أو تقليصها والذي ظهر من خلال قوة وترابط كلاً من قبائل يافع في الجنوب والشرق ، وقبائل بكيل وحاشد في الشمال، ومدى تأثيرهما في استقرار حكم الإمام الذي كان يتوقف على نوع السياسة التي ينتهجها لحكمهم .

٥- تفوق الإمام في التوسع خارجياً وربط علاقات سياسية واقتصادية قوية مع الأقطار العربية والإسلامية والأوربية، وقد ساعده على ذلك موقع اليمن الاستراتيجي الهام وتفرده بإنتاج محصول البُن الممتاز الذي حوّل اليمن إلى سوق مهم لتجارة العبور فزادت إيرادات الخزينة وانتعش الاقتصاد في عهده . الأمر الذي لم يحافظ عليه من أتى بعده ، حيث اضطربت أوضاع البلاد وانفصلت أطرافها ، وتدهورت العلاقات الخارجية فتعرضت المخا للقصف الفرنسي وتسلطت بريطانيا على عدن .

وأخيراً فقد أثبتت الدراسة أن قوة الدولة واستقرارها وازدهارها مستمدٌ من قوة الحاكم وحنكته السياسية والإدارية ، ومدى قدرته على اختيار الشخصيات الجديرة لمساندته في الحكم، وكسب ودهم واخلاصهم للوطن. كما كشفت الدراسة عن الآثار العكسية المترتبة على الاستبداد والمحسوبية في الحكم وعدم الثقة فيما بين القادة وتنافسهم على السلطة لتحقيق مصالحهم الشخصية ، كل ذلك أدى إلى اضطراب الأوضاع وانهيار الحكم فضعفت البلاد وتفككت وحدتها ، واضطربت أحوال المواطنين حيث صار المواطن ضحيةً لإطماع أولئك المتنافسين ففقد أملاكه وخيم عليه الفقر والمرض والجهل .

*　　*　　*　　*

الملاحق والفهارس والمصادر

أولاً : الملاحق .

ثانياً : فهارس الأعلام .

ثالثاً : فهارس البلدان والأماكن والبقاع والقبائل.

رابعاً : فهارس الفرق والمذاهب والأسر.

خامساً : المصادر والمراجع .

سادساً : الفهارس العامة للكتاب.

أولاً : المـــلاحـــق

١- مرسوم تولي غرامة بن عبد أحمد على واردات ميناء عدن عام ١١١٠هـ .

٢- مرسوم تولي السلطان عمر بن صالح هرهرة وأخوته معاشير بلاد يافع ونذورهم .

٣- معاهدة الصداقة والتجارة بين اليمن وفرنسا عبر حاكم المخا الشيخ صالح بن علي الحريبي .

٤- رسالة العلامة المقبلي إلى الإمام يندد بفساد حكمه ومظالم الولاة في الرعية .

٥- مرسوم دعوة الحسين بن القاسم بن المؤيد الشهاري .

٦- وثيقة مرسوم بيعة القاسم بن الحسين للداعي الحسين بن القاسم بن المؤيد .

٧- وثيقة مرسوم تنازل الإمام المهدي عن الحكم وبيعته للمنصور الشهاري .

٨- السلاطين العثمانيين المعاصرين للمهدي محمد .

٩- أمراء (أشراف) مكة المكرمة والحجاز المعاصرين للمهدي محمد .

١٠- شاهات الصفويون المعاصرين للمهدي محمد .

١١- أئمة اليعاربة العمانيين المعاصرين للمهدي محمد .

١٢- ولاة جدة خلال عهد المهدي .

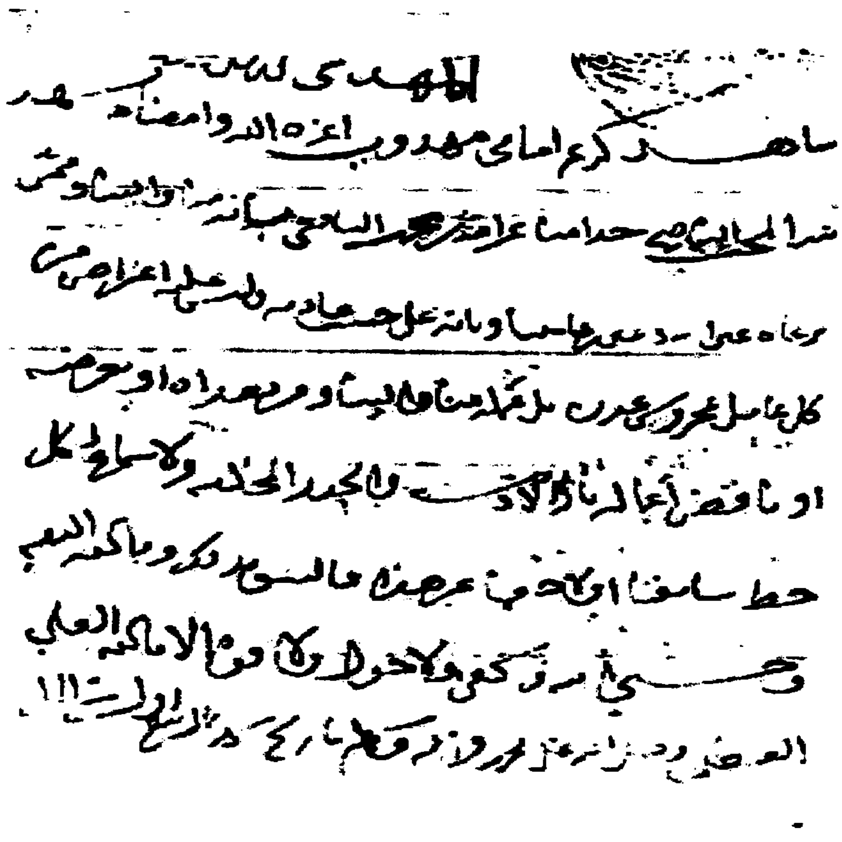
١٣- جداول شجرة أمراء أسرة آل القاسم بن محمد وجدول أمراء آل كثير سلاطين حضرموت .

١٤- الأشكال التوضيحية (الخرائط) .

١٥- الصور الفوتوغرافية لمدينة المواهب حاضرة حكم المهدي محمد ومكان قبره .

ملحق رقم (١) :

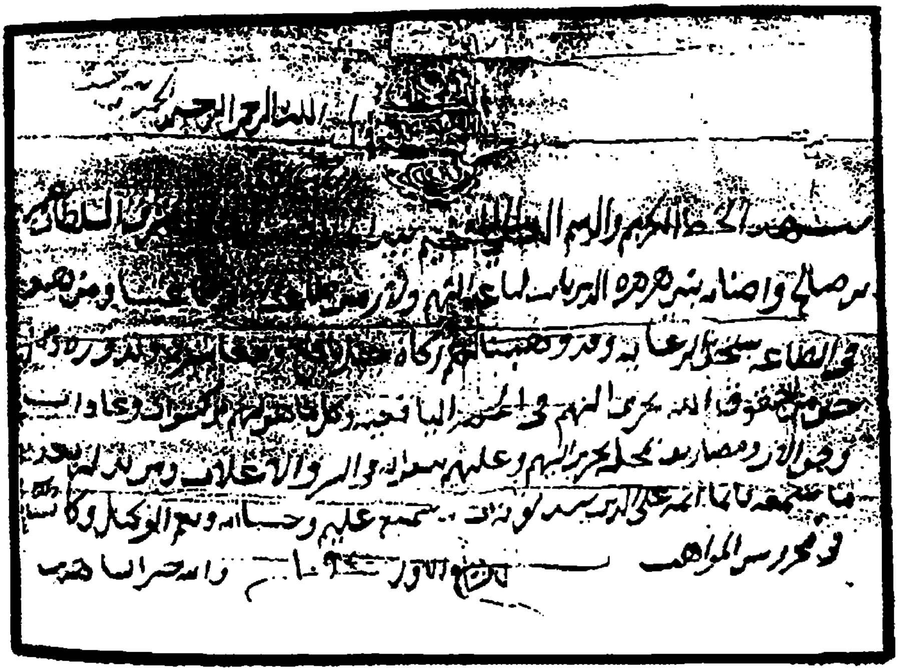
وثيقة تبين تولية غرامة بن عبد أحمد لواردات ميناء عدن ربيع الأول سنة ١١١٠هـ[1] .



(١) مستلة من ملاحق : بن سبعة : من ينابيع تاريخنا اليمني .

ملحق رقم (٢) :

وثيقة تولية السلطان عمر بن صالح هرهرة واخوته معاشير بلاد يافع ونذورهم[1] .


بسم الله الرحمن الرحيم
[illegible] الكريم والاسم [illegible] السلطان
[illegible] بن صالح واخوانه بني هرهرة الرياسة [illegible] ومن معهم
في الطاعة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] عليهم [illegible] ونعم الوكيل [illegible]
[illegible] المواهب
[illegible]

(1) مستلة من ملاحق بن سبعة ، وملاحق زين محمد القعيطي ، يافع .

ملحق رقم (٣)

معاهدة الصداقة والتجارة بين اليمن وفرنسا عام (١١٢٠هـ/١٧٠٩م) [1].

معاهدة بين حكومة المخاء وقباطنة السفن الفرنسية في يناير ١٧٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

صالح بن علي حفظة الله

وهنا خاتمه

« بعد الحمد لله، الذي أمر بالحمد استهلالاً لأحاديث الناس كافة كي يعلمهم الدخول عبر بوابة الحمد هذه في جميع أعمالهم، وبعد شكره على نعمائه وتبارك اسمه على صادق وعده وهدي كلمته، والصلاة والسلام على رسله، الذين أدوا الأمانة وهدوا خلقه إلى الصراط المستقيم.

نعلن أنه في عام ١١٢٠ في عهد سيدنا أمير المؤمنين ومولى المسلمين المهدي لدين الله رب العالمين حفظه الله، وصلت إلى هذا الميناء دائم الازدهار بحسن صنيع أمير المؤمنين ثلاث سفن من الإمبراطورية الفرنسية ، حسب ما أفاده قباطنة السفن المشار إليها الأماجد، الذين طلبوا منا كتابا خطيا يظل بحوزتهم، كتعهد وشهادة، كي يكون لهم ثقة بنا، ومن جانبهم سيلتزمون بالشروط الواردة فيه:

١- سوف تكون لهم حرية ممارسة دينهم في أمور حياتهم ومماتهم ولا يمكن حرمانهم من هذا الحق، فقد جرت العادة دوما على ذلك.

٢- يحق لزوارقهم الخفيفة ان تروح وتغدو، من مطلع الشمس حتى مغيبها، ولكن رجالهم سيقضون الليل على متن سفنهم. ويحق لرجالهم النزول إلى الشاطئ في جميع الأوقات ، ولكن في المد العالي الذي لا يمكنهم العمل خلاله يجب أن لا يذهبوا إلى الشاطئ بدون إذن.

---

[1] لاروك : رحلة إلى العربية السعيدة ، ص٦٤ ـــ ٦٧.

٣- لهم الحق برفع رايتهم على البيت الذي يقيمون فيه.

٤- البضائع التي سيجلبونها سوف توضع بالقرب من بوابة دار الفرضة *، حتى يلاحظها الأمناء هناك، وسوف تنقل من بوابة دار الفرضة إلى بيتهم الخاص بهم، حيث تفتح بمقتضى العرف المتبع مع جميع الأجانب.

٥- سوف يدفعون جمارك بنسبة ٣٪، وسيدفعون الجمارك عن البضاعة التي يتم بيعها، وبالنسبة لتلك التي تأتي من عين المال فلن يدفعوا الجمارك عنها.

٦- عندما يحتاجون إلى قوارب من بيت المال، فسوف يدفعون قرشين عن التحميل وقرشين بالمثل عن التفريغ، وللريمات الصغيرة سيدفعون قرشا واحدا فقط.

٧- عندما ينزلون إلى الشاطئ يدفعون عن كل رجل ما جرت العادة على دفعه في مثل هذه المناسبات.

٨- إذا وجه أي من سكان ميناء المخاء الإهانة لأي من رجالهم فإننا ننصفهم في ذلك.

٩- سوف توضع البضائع في حساب الدلال إذا بيعت بحضوره وبمعرفته، ولكن إذا أفلس أي ممن يتعاملون معهم، أو رفض الدفع، أو هرب باي من سلعهم والتي سيبيعونها بأنفسهم من دون مساعدة طرف ثالث فإننا سننصفهم.

١٠- بينما قادة السفن يأتون إلينا مباشرة من بلدهم ، وهم الربان مسيو دي لا ميرفيل والربان مسيو دي شامبلوريه لو برون، الذين هم غرباء وضيوف في بلاد أمير المؤمنين ومولى المسلمين، خليفة سيد الرسل المهدي لدين الله رب العالمين حفظه الله، وطلبوا بعض المعروف، وللدلالة على تكريمنا واحترامنا لهم، فإننا نعيد لهم القسم الرابع من الجمارك على ذلك الجزء من بضاعتهم الذي ينزلونه هذا العام

فقط. والآن في حين تدوين هذا الخطاب أكدوا لي أنهم أبلغوا رجالهم بأنهم لهذا العام معفوون من الدفع عن كل ما يحضرونه إلى الشاطئ وما يحملونه على سفنهم. وقد أمرنا بهذا بخصوص ما ينزلونه وما يأخذونه لهذا العام فقط، حيث إنهم ضيوف الإمام شرط أن لا يهاجموا السفن التي تصل إلى هذا الميناء السعيد، سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء ، ولا أن يسيئوا إلى أي من الدول التي ترفع رايات على دور رعاياها. وزيادة على ذلك يجب عليهم أن لا يؤذوا أو يهينوا المشرف على البحر في الخان المعتمد أو أي خان آخر حيث يأخذون الماء العذب. وعليهم أن لا يوجهوا الإهانة أو الإساءة للشخص المعين لوزن السلع.

ومن يحضر أولا يأخذ الماء أولا حيث إن كل هذه الأمور معروفه ومحسومة، وإذا حدث أن التقت سفنهم بمراكب دول أخرى في الطريق إلى المخاء فلن يسمح لهم بالهجوم على بعضهم البعض، حيث أن الطريق مكان مقدس، وللجميع الأمان من الله والأمان من أمير المؤمنين حفظه الله، ولهذا السبب فهم ملزمون بالاحجام عن ذلك وشرفهم معلق بهذا .

وحين يغادرون فيجب أن يخرجوا رافعي الرايات مع نفخ الأبواق، ودوي السلاح، حسب عادات الدول الأخرى . وإذا هرب أي من رجالهم، وجاء إلى الشاطيء ، فإننا سنسلمه لهم ثانية. وإذا فكر أي منهم في تغيير دينه فإننا لن نستقبلهم بدون موافقة قباطنتهم. وإذا رغب أي مسلم أو غيره بالدخول إلى سفنهم فهم أحرار في استقباله.

حرر في الثلاثين من ذي القعدة سنة ١١٢٠ من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نحن مديري الشركة الفرنسية الملكية، نعد مولانا الشيخ صالح الحربي حاكم

مدينة المخاء هذه بأن سفننا الثلاث الراسية في طريق المخاء لن تقترف اي إهانة أو إساءة لأصدقائه في البحر الأحمر، متطلعين إليه على أنه صديقنا الحميم وحليفنا، ونتعهد بأن نقوم بالشيء نفسه من جانبنا في كل المناسبات.

كتب بيدنا ومهر بخاتمنا في ١٦ يناير ١٧٠٩

ملحق رقم (٤)

رسالة العلامة المقبلي إلى الإمام يندد بفساد حكمه ومظالم الولاة في الرعية[1].

وهذه من قصيدة طويلة مطلعها:

عج بالكثيب وحيِّ الحيَّ من كثبِ
فثمَّ يذهبُ ما بالقلب من وَصَبِ
[illegible]
بين الجميتين والهندية القضب

وكتب العلامة المجتهد صالح بن مهدي المقبلي كتاباً إلى المهدي المترجم له هذا نصه: بسم الله الرحمن الرحيم مولانا أمير المؤمنين وسيد المسلمين، أما قولنا: مولانا فلأن كل مسلم مولانا، وأما قولنا: أمير المؤمنين فلأن من تأمّر على طائفة سمي أميرهم محقاً كان أو مبطلاً، وتلك الطائفة بحمد الله مؤمنون، وأما قولنا: وسيد المسلمين فكذلك لأن كل من ساد قوماً وترأس فيهم أضيف إليهم، والحاضرون هؤلاء مسلمون.

وبعد حمد الله والصلاة والسلام على نبيه، والسلام على مولانا فإني كنت مستحيياً في مكاتبتك لما يبلغني من الخلط فخشيت أن أرضى بما لا أعلم، وأخذت بقوله ﷺ في مثل هذه الحال العمياء: دَعْ ما تعرف ودع ما تنكره، ثم بدا لي الآن أن أعرض عليك ما عندي، وذلك أني نظرت في سيرة السلف الأول المتسمّين بالخلفاء، وإذا هم يجمعون الحقوق الشرعية المحققة، ثم يفرقونها في المسلمين ويرون لكل مسلم حقاً، ولا من حرج بذلك لا غناء به في الدين. قال علي عليه السلام للحَبر ابن عباس في مراجعة جرت بينهما حين ولاه البصرة: أعجباً لك يا ابنَ عباس ترى لنفسك أكثرَ من واحد من المسلمين. وقال الخليفة عمر (رضي الله عنه): لئن عشتُ ليناك العجوزُ في العراق، والراعي في جبل صنعاء حقَّهم من هذا المال، ثم إذا أرادوا الجهادَ طلبوا حاجاتهم من عَرض من المسلمين فرأوا إجابتهم، ولم يدخروا عنهم نصحاً، كما أن الأمراء لم يستأثروا عليهم بذلك، وأول ما بويع لأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه فرّق ما كان مجتمعاً في بيت المال، وكنس محله، وصلى ركعتين، وكان عمر (رضي الله عنه) يفعل ذلك في رأس كل سنة. هذه سيرة الخلفاء، ثم الملوك الأموية والعباسية وغيرهم جمعوا الأموال وجندوا

[1] الأكوع: هجر العلم ومعاقله ٣، ١٥٧٠ ـ ١٥٧٤.

عسكراً، ثم تأخذون عوضَ ذلك دراهم، وتكرر ذلك حتى صار مطلبةً معتادةً ليس فيها قانون في القدر، ولا في الوقت، وتَزَحَّج سمكه الولاة ومشايخ القبائل فعظموا شأنكم وشأن هذه المطلبة، وأخذوا من ذلك حظوظهم من السُّحت، ولا يقدر أحدٌ الأفراد أن يرفعَ إليكم مظلمته لأنه يعلم أن غاية إنصافكم أن تطلبوا المشكو وتهتكونه وتنهبون ما جمع، ثم ترسلون آخر يفعلُ مثل فعله وشراً منه، لأنه قد تبصر واتعظ بغيره، ثم يكيدُ الشاكي لأول مع كيد الأول، ويصرف همته في كل من يرفع رأسه للشكوى فيأسوا من الإنصاف، لأن الإنصاف إنما هو أن تؤخذ مظلمةُ من الظالم، وتُرد إلى المظلوم ولم يكن ذلك، ولا سَلِمَ الشاكي أيضاً من شر، فصارت الشكوى محرمةً عقلاً وشرعاً. ومما يدلك على ما قلنا لو كان تأمنك للحقيقة سليماً لما رأوا حاصلَ الأمر أنه مجرد جمع الأموال وجمع التعب لبعضهم على بعض، والعداوة بينهم على غير مقصد ديني ولا دنيوي، كما قال بعضُ الأراذل في مثل ذلك :

أأقتُلُ مسلماً من غير جُرمٍ
على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلى إثمي
معاذ الله من جهلٍ وطيشِ

فحين علموا ذلك تقاعدوا عن نُصرتك، وإنما يُمشي بعضَهم الشعبُ أن يذكروا منك شيئاً، ثم ينكصون على أعقابهم لوقت الحاجة، وقد علم ذلك كلُّ أحد، فإن أنكرته وجدتك لم تضر إلا نفسك، وكنت كما قال المتنبي:

تصغر الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ
عما يُرادُ به وما يتوقع
ولمن يغالطُ في الحقيقة نفسه
ويرومُها طلبَ المحال فتقنع

فإن شئت فَرُزْ نفسك، وغزَّ هزاتك هل تحصل على ما كنت تحصل أولاً؟ هيهات، لقد حيل بين العير والنزوان، لقد مكنك الله من أمر لو رعيته حقَّ رعايته لأدركتَ سيادةَ الدنيا والآخرة، ولكنك ظننتَ أن ذلك التسخيرَ خصوصيةٌ أو نتيجةُ الرضا عنك، وغفلتَ عن قوله

تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ومن شاهد ما قلنا فتكلّف لمن رأيتَ له أدنى ذنب. ومعاملتك لهم بما ليس يشبه [illegible] ولا يعقل، [illegible] أهلَ المروءات، وأهلُ الآراء السديدة والمعونة النافعة، والقيام بوظائف الخدم فلم يحصل بك بعدُ إلا كلُّ من لا يبالي بما جرى له أو رجلٍ مغرور، أو من تغره الأماني. وتحريز المستبعد. فانفردتَ بالآراء أو شاركك من ليس به أهلية، وقد عرفتُ بلا تثبيت بل بالخبرة واليقين أن من أجرأ الناس لديك اليوم بعضَ المردة وبعضَ من لا يُؤبه له، وهذه من أمارات الساعة أن يسندَ الأمرُ إلى من ليس بأهله، ولا من يُؤبه له. هذا وما ذكرته صار يتحدث به كلُّ أحد، ولستُ أنا أطلبُ منك جواباً ولا غرضي النقم والجدل، فإنه لا مصلحةَ لي في أي ذلك، ولكن ما زلت أهمُّ بتنبيهك لرجائي أن تتقيّدَ لأحوالك فتعرف حقائقها، فإما أن تعرف حقيقةَ ما قلتُ أو بعضَه أو تعرفَ خلافَه، وتعامل نفسَك والمسلمين بما هو الإنصاف، ولو علمتُ أن لي دعوةً مستجابةً لجعلتُها في أمر العامة فإن فيه

صلاح الخاصة من صلاح العامة، وأنت أعظمُهم عندي لأنك ترى أنك إمامُ حقٍ ملتزمٌ للشرائع، وأما غيرُك فلا يدعون ذلك، لأن يكون من لا يَعرف فيدّعي بقلة الحياء، وسيرتُه تشهد عليه أن بينه وبين السيرة الشرعية مراحلَ. ومن قد آن للمكتوب ختمٌ، وقد أسمعتُ إذ ناديتُ حياً. ومما عمنا بالتواتر عدم إيصال الحقوق إلى أهلها التي كانت تصلُ إليهم زمنَ مَن قبلك. وأضرب لك مثلاً في بلد التي نشأتُ فيه بلاد كوكبان، كانت لا تفي الحقوقُ أهلَها لأن عليها بلدَين كوكبان وشبام أشرافٌ وشرايف، وشيعة وعساكر ما لهم سببٌ غيرُ بيت المال، وكذلك أهل الحقوق في سائر البلاد. وما علمتُ أن الأئمة قبلكم ظفروا من أمرها شيئاً، بل علمتُ أن المتوكلَ كان يُعين الأمير الناصر في قضاء ديونه. وأنتم اليومَ ما تزالُ رُسلكم على الولاة تطلبون الأموال فتفرح بذلك الولاةُ ومشايخُ البلاد، ثم يقتسمون ما جمعوا من الحقوق الأجنبية والمطلوبة، يجعلون بعضاً لنفوسهم، وبعضاً للمداراة لكم وخدمتكم من أعلاهم إلى أدناهم،

ولا يصير إلى أهل [illegible] شيء إلا من [illegible]

[illegible] ومن رأى كلامي

هذا [illegible] يعرف [illegible] عيناً. [illegible]

[illegible] معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾

[illegible]

[illegible]

[illegible] ولا حول ولا قوة إلا

[illegible] وحسبي الله ونعم [illegible]

[illegible]

[illegible]

ملحق رقم (٥) :

مرسوم دعوة الحسين بن القاسم بن المؤيد الشهاري [١] .

[illegible] أما بعد [illegible]

[illegible]

[illegible] الضلالة واحتكام [illegible]

[illegible] شرعة [illegible] وعدة [illegible]

[illegible] واستيصال [illegible]

[illegible] مصارفها [illegible] فأحدث

[illegible] الواجبات [illegible]

---

[١] الحوثي : نفحات العنبر ، ١/ ٨٨ب ــ ٨٩أ ، وفي بغية المريد ، ص٤٥٠.

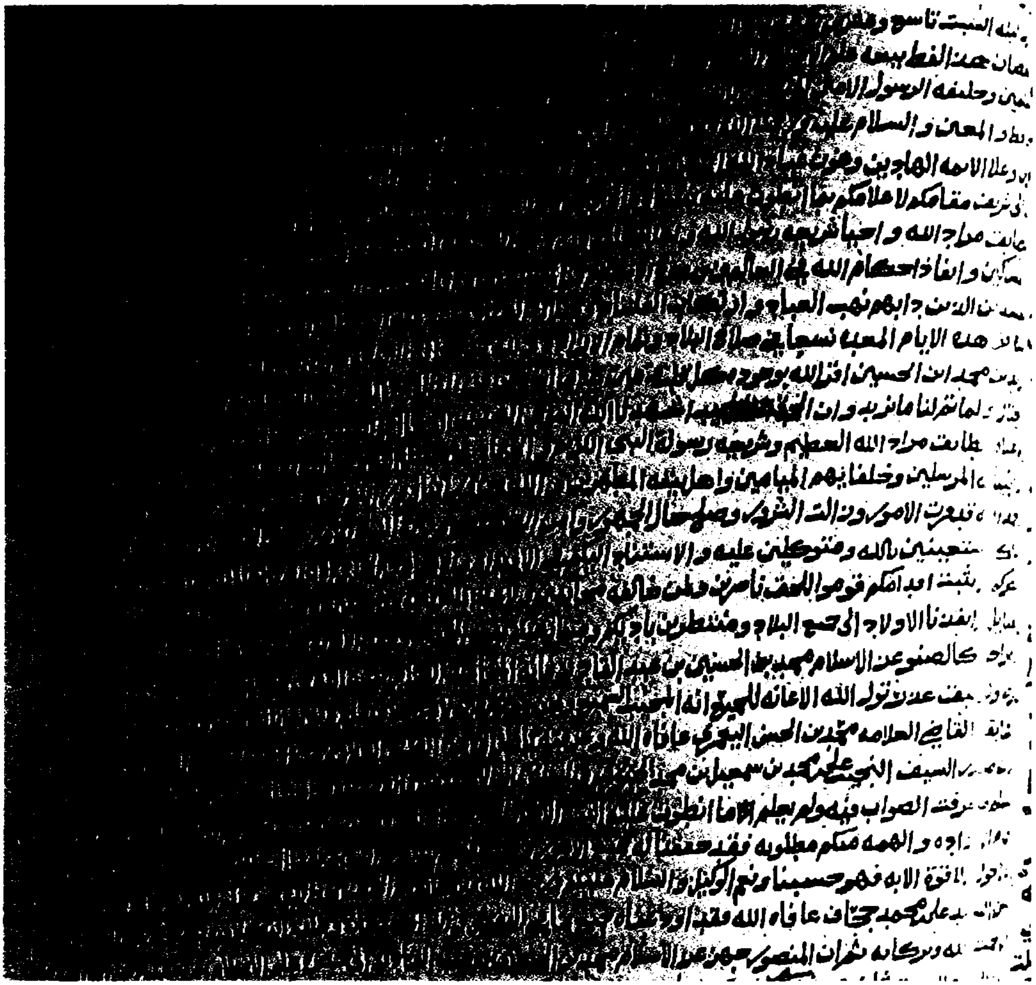


ملحق رقم (٦) :

مرسوم بيعة القاسم بن الحسين للداعي الحسين بن القاسم بن المؤيد الشهاري [1].

---

[1] مجهول : ملحق اللآلئ المضيئة، ٣/٦٨٥ .



ملحق رقم (٧) :

وثيقة مرسوم تنازل الإمام المهدي عن الحكم وبيعته للمنصور الشهاري [1] .

(١) الحوثي : نفحات العنبر ، ١/ ٩٠ب ـــ ٩١ب ، وفي بغية المريد ، ص ٢٦١ .

في جبين الزمان في سنة [illegible] صاحب المواهب [illegible] ونسب [illegible] كتاب بيعة الإمام بسم الله الرحمن
الرحيم حمداً لله [illegible] أمير المؤمنين ووفقه [illegible] الذي شرح صدره [illegible] فوض أمور اليمن إليه
وجعل إرشاده وحله وإبرامه على يده [illegible] من بعضنا [illegible] شاكر الإنعام على السر
والعلن والصلاة والسلام على نبيه محمد الهادي [illegible] وعلى آله [illegible]
وعلى الذرية المقتدين بآثاره [illegible] الذين جعلوا [illegible]
بحار الهدايا والحذو [illegible] لنعرف [illegible] وبعد فإنه لما [illegible] الحرب بيننا وبين [illegible]
الولد [illegible] عز الإسلام القاسم بن الحسين أمير المؤمنين حفظه الله على ما دعا إليه من موالاة الوالد
[illegible] في الإسلام والدين المنصور [illegible] المحسن [illegible] بالله حسب [illegible]
[illegible] الدين [illegible] ونصره [illegible] وكانت دائرة الحرب بجيش المواهب المحروسة
ونحن [illegible] منعة وقوة [illegible] أهل [illegible] حتى [illegible] المقصد [illegible] الصلح
[illegible] الولد النجيب الإمام عز الإسلام محمد بن الحسين [illegible] بيننا وبين الولد عز الإسلام
[illegible] بن الحسين حفظه الله [illegible] وعلى شروط [illegible] تمام أمر الموالاة والبيعة
[illegible] المفاوضة والمشاركة [illegible] عنه
[illegible] دماء المسلمين [illegible] كلمة [illegible]
[illegible] بالبيعة [illegible] موالاة [illegible]
[illegible] المنصور بالله [illegible] الإمام [illegible]
رسول الله صلى الله عليه وآله [illegible] الصالحين [illegible] شرطنا عليه شروطاً
[illegible] مبايعته وموالاته [illegible]
في إقامة شريعة [illegible] المظلوم من
الظالم بتقليد [illegible] الأعلام وأمور
العباد وجهاد أرباب البغي والفساد [illegible] الله عز وجل وتنفيذ [illegible] أحكامنا
[illegible] الدين [illegible] الشروط التي [illegible]
[illegible] البيعة المذكورة [illegible]

ما صدر من النفوذ عن الإمام الهمام المنصور بالله الحسين بن القاسم ومن الولد الجليل القاسم بن الحسين
ما هما انه حكم وهو شرط الوفا بجميع ما ضمنه الولد المشار اليه فخر الحسين من الشروط المذكورة
ابدا ما نحن عليه من الموالاة وتوثير شروطها المبرورة والدخول في جمعة هذه البلاد وجماعته
والنجوى في طوفة الامة ومناصرته ونه علينا الكف من مناجزته ومنابذته وهدم التي لا فيها
وعلى فير الناس تحت ظلها عند وضمنا لرعلينا في الوفا بجميع ما اشترط علينا في ابناونا التادة
النجبا الولد ضيا الاسلام الصادق والولد صارم الدين ابرهيم والولد وجيه الاسلام محمد بن الحسن
كل شرط الولد علم الاسلام القاسم بن الحسين هاه بعرف موضوع الشرعي الذي عليه توقيع من لديه
من لم يدر من ابنا الامام وللعلما الاعلام وقد اشهدنا الله عز وجل تعالى علينا ونسأله ان يسلك بنا
احسن مسالك وان يجمعنا على ذلك من المعاونين على البر والتقوى ومن المتمسكين في ظل هذه
بالسبب الوثيق الاقوى والحمد لله في المبتدا والختام والصلوة على محمد وآله السلام ثم دخل جماعة
من الروسا الى المواهب لحضور صلاة الجمعة وسماع الخطبة لخطب خطيب المواهب بهذه الخطبة
ولفظها بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي له الملك والكبريا والعظمة من عز به وتوكل عليه وضعه
والاصطفاه احمده الكبير الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش
الرحمن فاسئل به خبيرا واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له القايل في كتابه والصلح خير
واشهد ان محمدا عبده ورسوله الذي ضال ما نهض الى الاصلاح وحث فيما السير صلى الله عليه
وعلى آله الكرام افضل صلاة كما ملة ولذي سلام اما بعد ايها الناس فقد علم الخاص والعام انه
كان امير المؤمنين هذا هو الحريص على جمع كلمة الاسلام وانه الذي قام اود الدين حتى استقام
عملا في كتاب الله وسنة رسوله من مقاصد الاسلام ما خابا في الدين ولا فرق بين كلمة المسلمين انه
الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شي انما امرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ولما حصل
من سفك الدما ما حصل ووصل من النفوس من الهلاك ما وصل دون دور المواهب من رمي
البنادق ودوس الخيول السلاهب واشتغال المؤمنين في اوقات الطاعة بالحرب واعرضوا عن
ليلة القدر المباركة بالطعن والضرب وعظم التفريط باداء الصلوة المكتوبة وكانت مواضيعهم على
القتال لسبب عظيمه مشوبة ثم لما زحفوا الى جمعة الشريف باب النبايل من دخل تحت امره
المنيف متوقعون منه بعد هذا الخلاف العقاب من المصادرة بالمال وخراب الديار وضرب
الرقاب اخذ في استخارة الله العزيز الرحيم وذلك ليلة الجمعة اخر جمعة من شهر رمضان الكريم فالامر
حين بان بالغ في حقن الدما وتأمين النفوس المروعة وتسكين الدهما المصلحة دينية ولامر
ما لا عن فشل وخوف ولا عجز توقع من سيف وسوف والانفعال زعيد ولا وهن في جنده جدد
فقد آتاه الله من التمكين ما لم يؤتيه احد من العالمين وانما كان ذلك عظامة لملك الله الذي ينبغي
ان يطابق وتأتى بالآيات القرآنية التي ينبغي بها ان توافق وجمعا لكلمة المسلمين التي يجب
جمعها ودفعا لمكايد الشيطان التي ينبغي دفعها فكان منه حفظه الله حسن الموالاة للامام
المنصور بشروط شرطها عليه وامور منها العمل بكتاب الله وسنة رسوله وان يجعل اقامة
الشريعة غاية سؤله والسيرة المرضية في الرعية وانصاف المظلوم من الظالم وازالة المنكرات
ومنها رفع ما يتعاطى العدو المحصورين في المواهب لا يعتقد على احد منهم ابدا ولا اصابة من يصادر
منهم خلقا ومنها الوفا لما اشترطه من البلاد بما يقوم بتكليفه العظيم كبيوته وبيوت اولاده
وحاصته

وخمر وقبيصة وسائر الاجناد وكانت الشروط تجمع تحت الاعيان وتمام التعلق بواسطة
الكامل في الشرف والنسب السيد الاجل محمد بن الحسن بن عبد القادر فتح الله له في الاجل وما توسط
بين ان شاء الله وتمام في الامامة فاطلعه وبينه وبين الامام ان تم الشرط الموالاه والاقوى باق
على دعوته بالمبالاه ولا يتعرض لشيء مما في المعهود ولا يتحول عن مفاوضة المعهود والمومنون
على شروطهم بلا اختلاف والوافون مقدمون ولو كان فيه اتلاف فجعل الله في هذه الصلح
للتجار حسنا وطمس به من دواعي الهرج حيدا وسنا وامن به الطرقات والمسالك وجنب
عباده به اسباب المهلكات وانما كل هو الله ذو علاء فتح المحسن المنزل عن قلوب المومنين
ما تعاظم من الاحن اعوذ بالله من الشيطان الرجيم فان كنتم تحبون الله الاية وذكر في الخطبة
الثانية تعقبا صلوات على الخمسة اهل الكسا صلوات الله وسلامه عليهم ما انعقد وعلى امام
العصر الذي دعا فأجيب وظهر فرتب النعم وقام بما يجب في الترحيب وخطب العليا
فجابر هذه الخليفة الى نكاحها وما برزهم تحته بجلالها وشرفها فزفت من كفو الى كفو
مثله لما كان من اهل البيت اشترك في نجابة ونسله مولانا امير المومنين وسيد المسلمين
المتوكل بالله رب العالمين الحسين بن القاسم بن امير المومنين اللهم اجعل شيعته لك خالصا وظله
ممدود في الآفاق اصلا واعنه على صالح هذه الامانة واتجح في صيانة هذه الجانة وامن به
الثغور واصلح بنيانه الامور واعز به الدين وشاد واستعد على من يريد علوا او فسادا
الى اخر الدعا وبعد وقوع هذه الصلح سكنت الفتن وارتفعت الخطط على المواهب و...

* * * *

ملحق رقم (٨) :

السلاطين العثمانيون الذين عاصروا المهدي صاحب المواهب :

١ـ السلطان محمد الرابع (١٠٥٨ـ ١٠٩٩هـ/ ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧م) .

٢ـ السلطان سليمان الثاني (١٠٩٩ـ ١١٠٢هـ/ ١٦٨٧ ـ ١٦٩٠م) .

٣ـ السلطان أحمد الثاني (١١٠٢ـ ١١٠٦هـ/ ١٦٩٠ ـ ١٦٩٥م) .

٤ـ السلطان مصطفى الثاني (١١٠٦ـ ١١١٥هـ/ ١٦٩٥ ـ ١٧٠٣م).

٥ـ السلطان أحمد الثالث (١١١٥ـ ١١٤٣هـ/ ١٧٠٣ ـ ١٧٣٠م) .

ملحق رقم (٩) :

أمراء (أشراف) مكة خلال عهد المهدي صاحب المواهب :

١ ـ الشريف أحمد بن زيد بن محسن{للمرة الثانية}(١٠٩٥ـ ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٤ـ ١٦٨٨م)

٢ـ الشريف سعيد بن سعد {بالوكالة} (١٠٩٩ ـ ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨ـ١٦٨٨م)

٣ـ الشريف أحمد بن غالب (١٠٩٩ ـ ١١٠١هـ/ ١٦٨٨ـ١٦٩٠م)

٤ـ الشريف محسن بن حسين بن زيد (١١٠١ ـ ١١٠٣هـ/ ١٦٩٠ـ١٦٩١م)

٥ـ الشريف سعيد بن سعد (١١٠٣ ـ ١١٠٣هـ/ ١٦٩١ـ١٦٩١م)

٦ـ الشريف سعد بن زيد {للمرة الثانية} (١١٠٣ ـ ١١٠٥هـ/ ١٦٩١ـ ١٦٩٤م)

٧ـ الشريف عبدالله بن هاشم (١١٠٥ ـ ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤ـ ١٦٩٦م)

٨ـ الشريف سعد بن زيد {للمرة الثالثة} (١١٠٦ ـ ١١١٤هـ/ ١٦٩٦ـ ١٧٠٢م)

٩ـ الشريف سعيد بن سعد{للمرة الثانية} (١١١٤ ـ ١١١٦هـ/ ١٧٠٢ـ ١٧٠٤م)

١٠ـ عبدالمحسن بن أحمد بن زيد (١١١٦ ـ ١١١٦هـ/ ١٧٠٤ـ ١٧٠٤م)

١١ـ عبدالكريم بن محمد بن يعلي (١١١٦ ـ ١١١٦هـ/ ١٧٠٤ـ ١٧٠٥م) .

١٢ـ الشريف سعد بن زيد {للمرة الرابعة} (١١١٦ ـ ١١١٦هـ/ ١٧٠٥ـ ١٧٠٥م) .

١٣ ـ الشريف سعيد بن سعد {للمرة الثالثة} (١١١٦ ـ ١١١٧هـ/ ١٧٠٥ـ ١٧٠٥م) .
١٤ ـ عبدالكريم بن محمد بن يعلي {للمرة الثانية} (١١١٧ ـ ١١٢٣هـ/ ١٧٠٥ـ ١٧١١م)
١٥ ـ الشريف سعيد بن سعد {للمرة الرابعة} (١١٢٣ ـ ١١٢٩هـ/ ١٧١١ـ ١٧١٧م)
١٦ ـ الشريف عبدالله سعيد بن سعد{للمرة الأولى} (١١٢٩ ـ ١١٣٠هـ/ ١٧١٧ـ ١٧١٨م)

ملحق رقم (١٠) :

شاهات الصفويون الذين عاصروا المهدي محمد صاحب المواهب .

١ ـ الشاه سليمان الأول (١٠٧٧ ـ ١١٠٥هـ/ ١٦٦٧ـ ١٦٩٤م) .

٢ ـ الشاه حسين الأول (١١٠٥ ـ ١١٣٥هـ/ ١٦٩٤ـ ١٧٢٢م) .

ملحق رقم (١١)

أئمة اليعاربة الذين عاصروا المهدي محمد صاحب المواهب .

١ ـ الإمام سلطان بن سيف (١٠٥٩ ـ ١٠٩١هـ/ ١٦٤٩ـ ١٦٨٠م) .

٢ ـ الإمام بلعرب بن سلطان (١٠٩١ـ١١٠٤هـ/ ١٦٨٠ـ ١٦٩٢م) .

٣ ـ الإمام سيف بن سلطان (١١٠٤ ـ ١١٢٣هـ/ ١٦٩٢ـ ١٧١١م) .

٤ ـ الإمام سلطان بن سيف (الثاني) (١١٢٣ـ ١١٣١هـ/ ١٧١١ـ ١٧١٨م) .

ملحق رقم (١٢):

ولاة جدة خلال عهد المهدي محمد

أحمد باشا	(١٠٩٥-١١٠٦هـ/ ١٦٨٤-١٦٩٤م)[1] .
محمد بك أبو الشوارب	(١١٠٦-١١٠٦هـ/ ١٦٩٤-١٦٩٤م)[2] .
رضوان باشا	(١١٠٦-١١١٢هـ/ ١٦٩٤-١٧٠٠م)[3] .
سليمان باشا	(١١١٢-١١٢٤هـ/ ١٧٠٠-١٧١٢م)[4].
خليل باشا	(١١٢٤-١١٣٢هـ/١٧١٢-١٧٢٠م)[5] .

* * * *

(١) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن.(خ): ٣/١٩٩أ . المحبي: خلاصة الأثر، CD الموسوعة الشعرية ، ص٥٧٧ .

(٢) محمد بك الذي حارب الشريف أحمد بن غالب وطرده من مكة في محرم ١١٠١هـ . (الجبرتي : عجائب الآثار ، ١/٤٤، ٤٦).

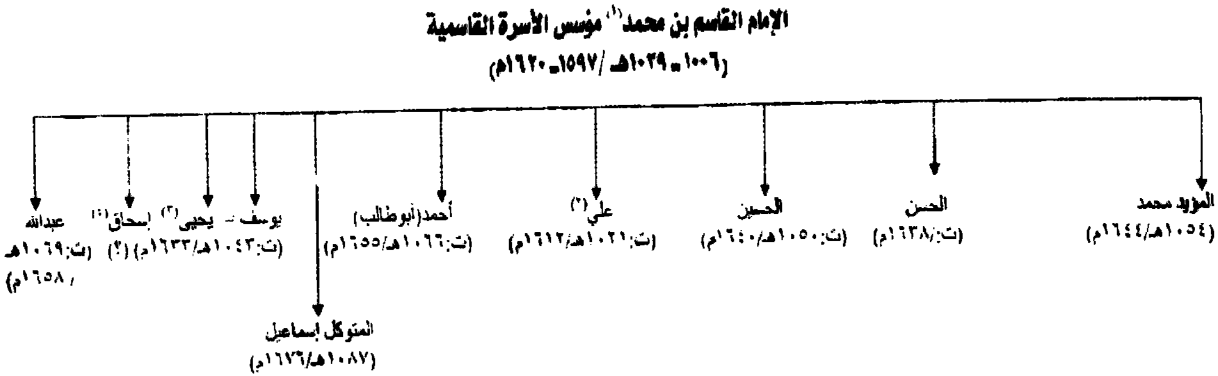
(٣) الجبرتي : عجائب الآثار . ١/١٥٣ .

(٤) أبوطالب : طيب الكساء ، ص ٣٠٥ ؛ الزركلي : الأعلام ، ط٥ . ٤/ ٢١٧.

(٥) الجبرتي : نفسه ، ١/ ٨٨ . جارشلي : أمراء مكة ، ١٣٢ .

ملحق رقم (١٣) : جداول توضح أمراء بيت القاسم إلى نهاية حكم المهدي محمد صاحب المواهب :

جدول رقم(١) :



---

(١) الجدول مستل من غاية الأماني ومن ورقة ضمن مجموع كتبها المؤلف مشاهد على محمد بن الحسين بن الإمام القاسم، وقد زاد فيها على أنه ... وهو مخطوط، ص٣٣

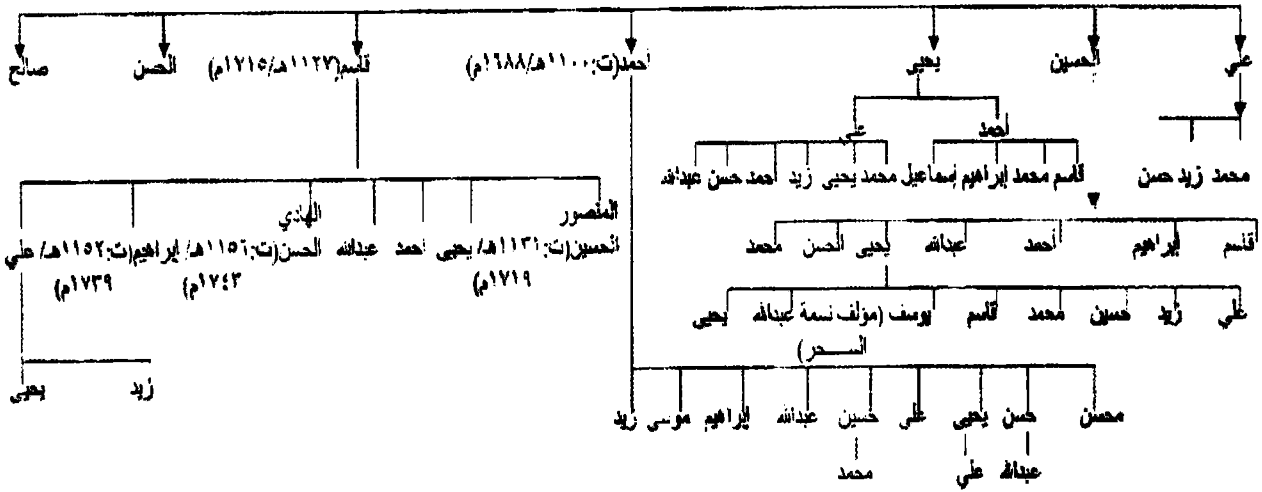
(٢) علي: قتل في معركة دارت بينه وبين العثمانيين في صعدة في ... وأرسل رأسه إلى أبيه في شهارة.

(٣) يوسف ويحيى توفيا في نفس العام أثناء حصار القاسم في ...

(٤) إسحاق: مات مقتولاً لدى أخواله بني حجاف في حوث.

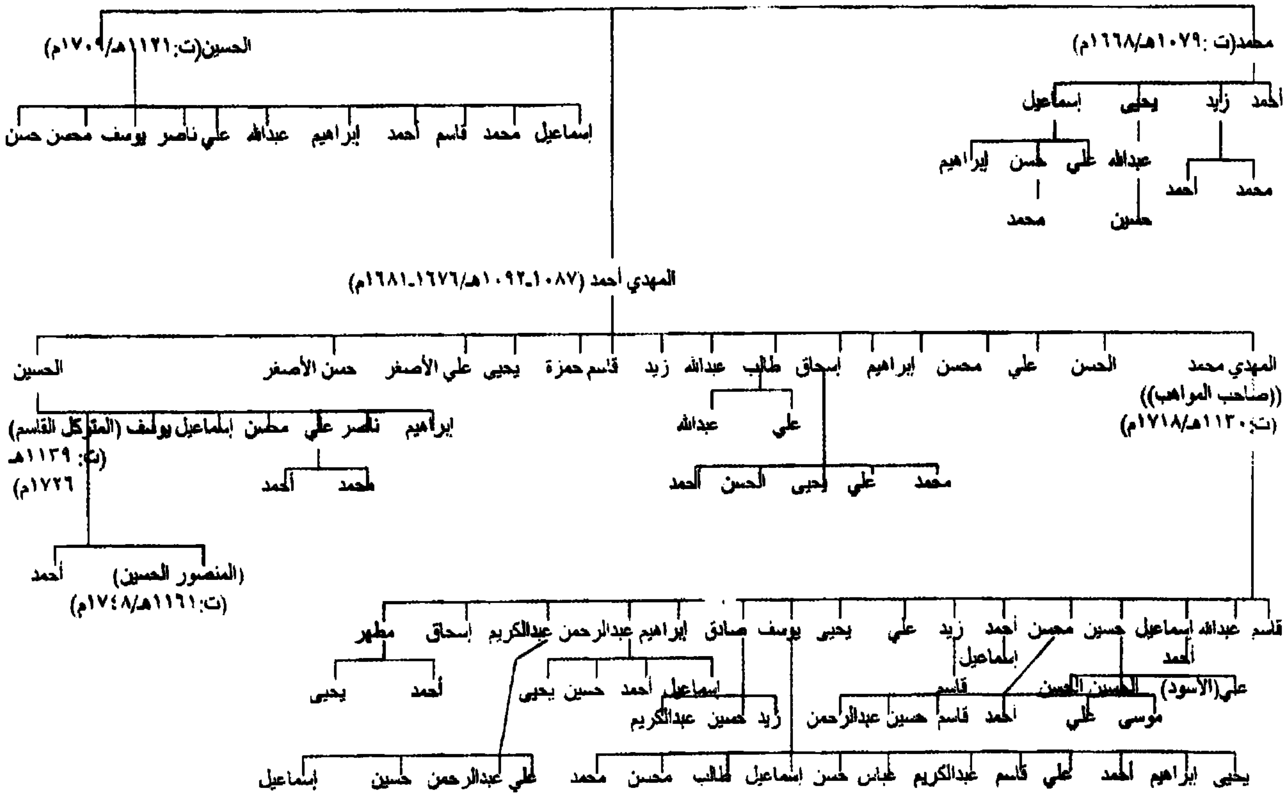
جدول رقم (٢) :

أولاد المؤيد محمد ابن القاسم



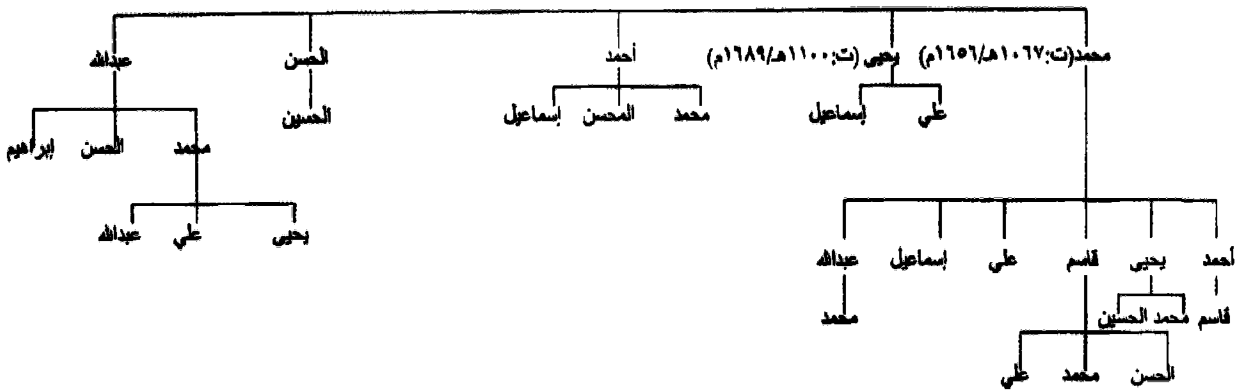
جدول رقم (٣):

أولاد الحسن ابن الإمام القاسم



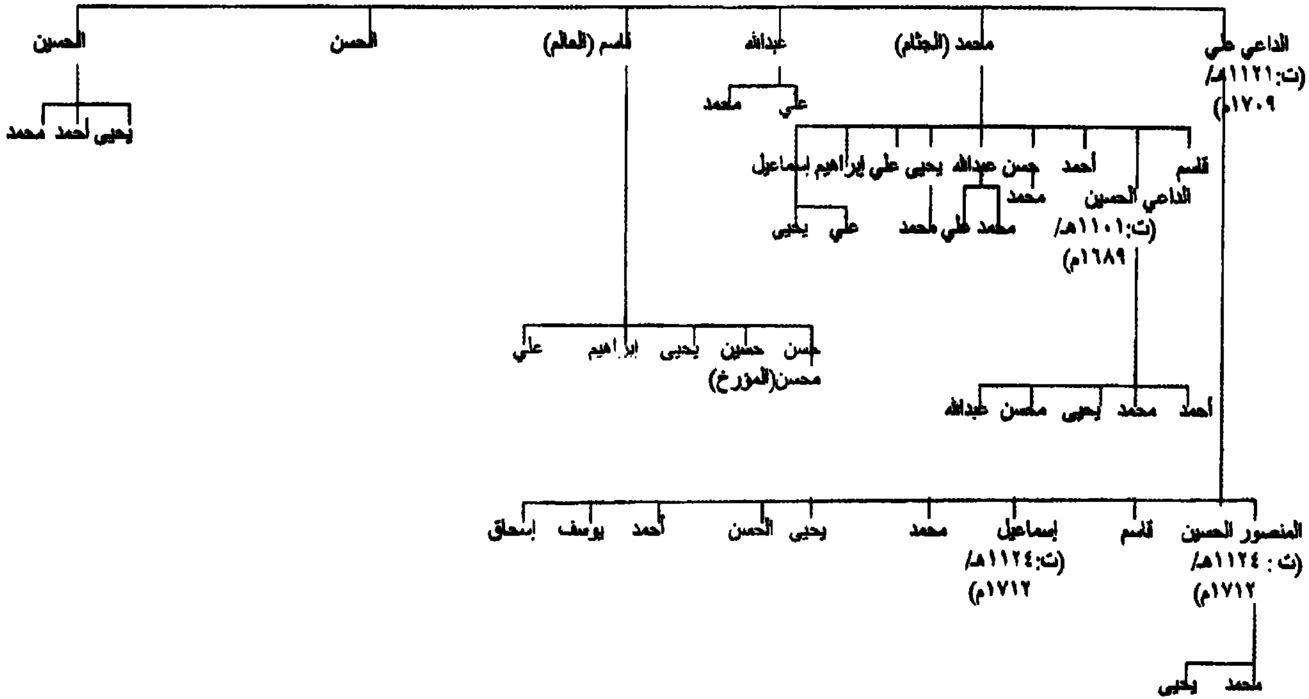
جدول رقم (٤) :

أولاد الحسين بن القاسم

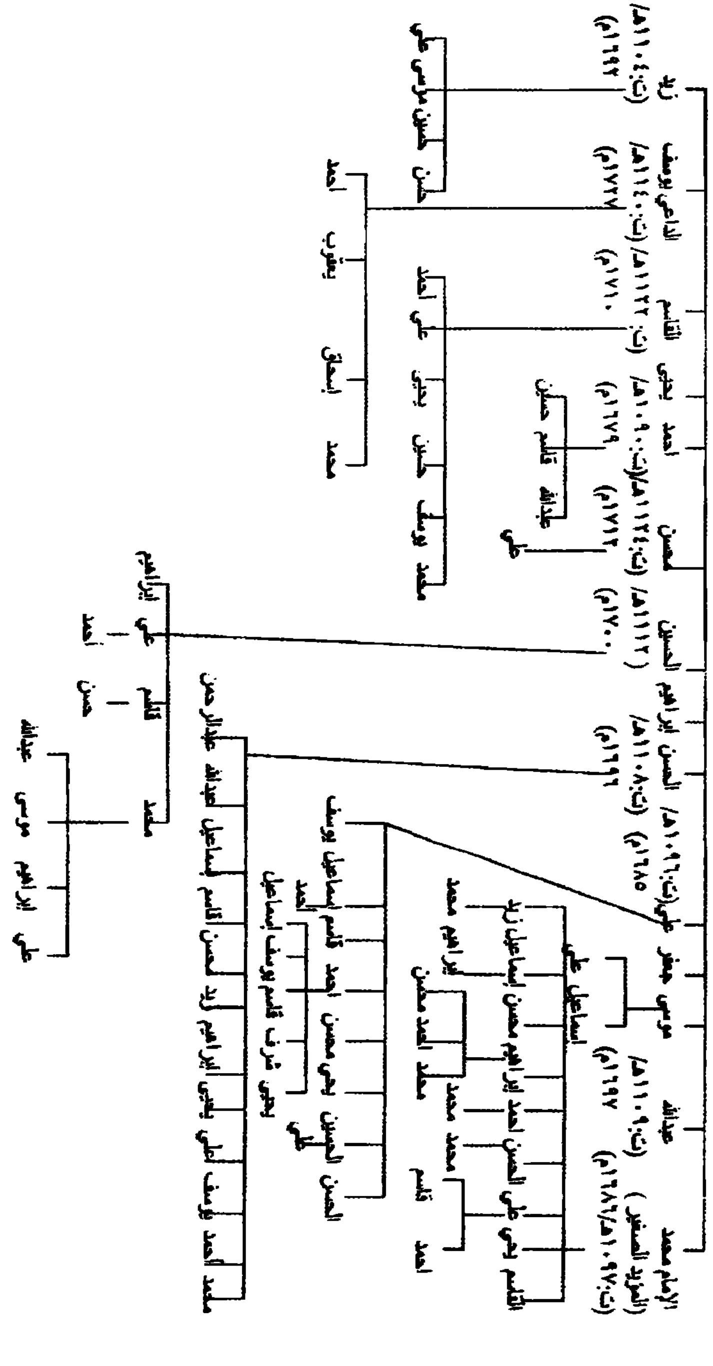


جدول رقم (٥) :

أولاد أحمد بن القاسم (أبوطالب)

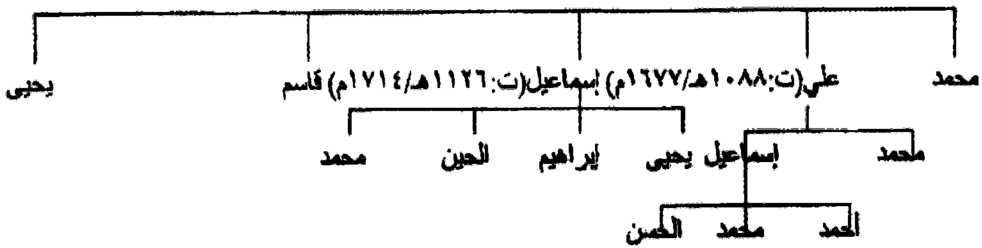


جدول رقم (٦):
أولاد المتوكل إسماعيل بن القاسم



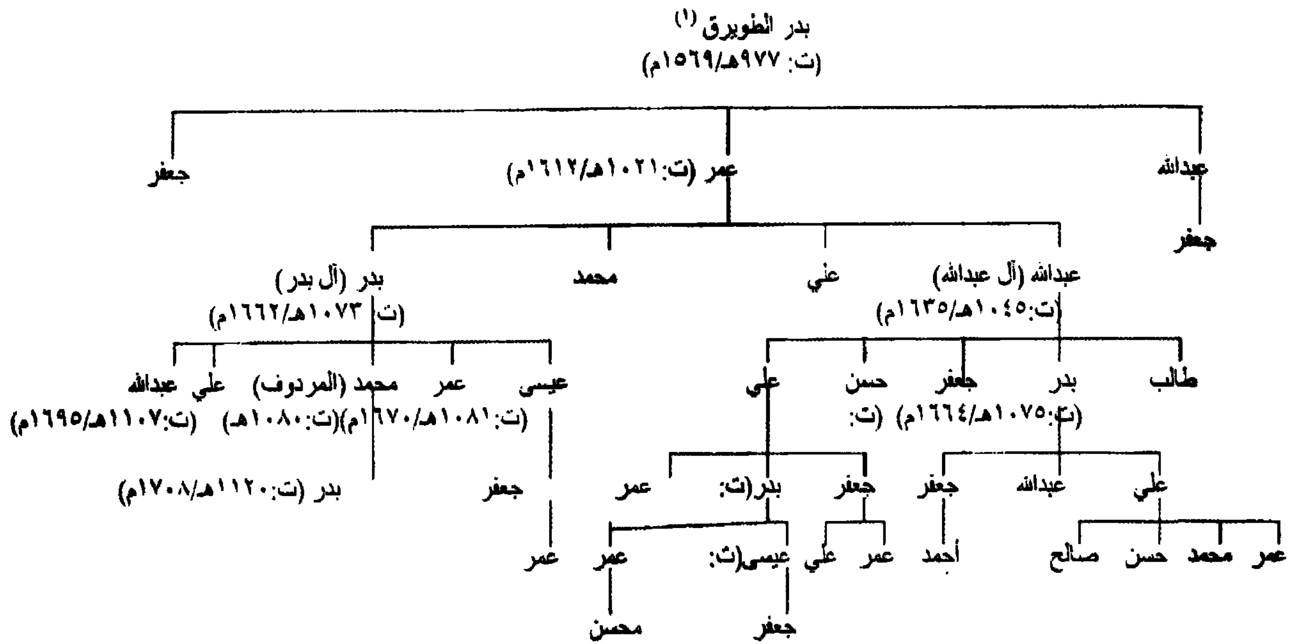
جدول رقم (٧) :

أولاد عبدالله بن القاسم



جدول رقم (٨) :

أمراء وسلاطين آل الكثيري في حضرموت من بداية تاسيس الدولة القاسمية إلى نهاية صاحب المواهب :



ملحق رقم (١٤)

الأشكال التوضيحية (الخرائط) . وقد اعتمد الباحث في إخراجها على خرائط مكتب الإحصاء والتخطيط الحضري ، مع بعض التغييرات الطفيفة حسب إشارات المصادر المعاصرة للأحداث .

شكل (أ) يوضح امتداد دولة المتوكل إسماعيل .

شكل (ب) يوضح سيطرة مراكز القوى على الولايات قبيل حكم المهدي محمد .

شكل (ج) يوضح طريق الإمام المهدي من المنصورة إلى ذمار عام (١٠٩٨هـ/١٦٨٧م) .

شكل (د) يوضح أسماء قبائل المشرق وأماكنها .

شكل (هـ) يوضح مدينة المواهب .

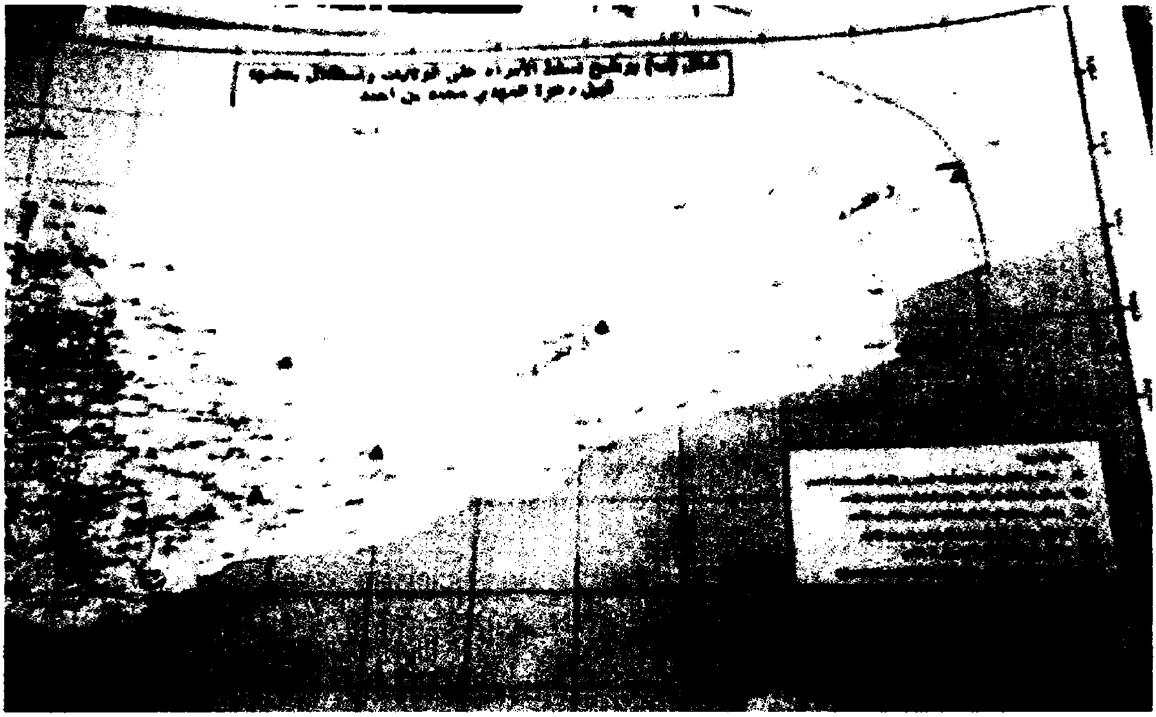
شكل (و) يوضح أماكن تكتل المعارضة وإطاحتها بالمهدي محمد .

شكل (ز) يوضح اليمن خلال حكم المهدي محمد وتوسعاته الخارجية في زيلع .



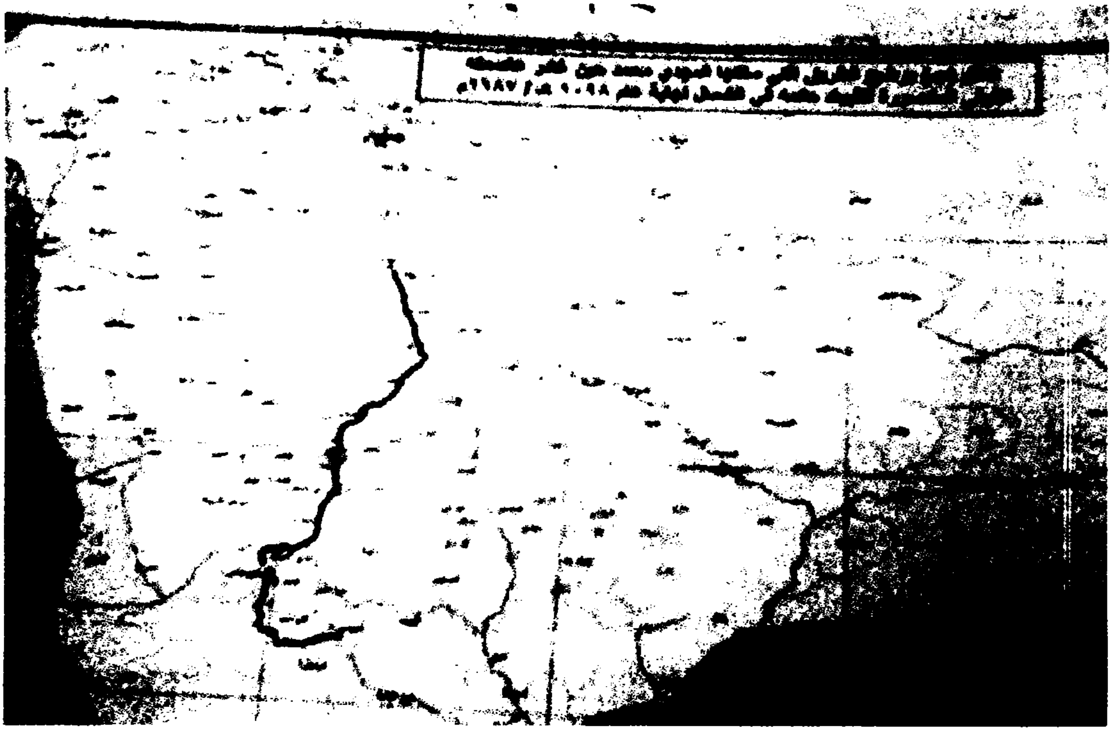
شكل (أ)

يوضح امتداد دولة المتوكل إسماعيل



شكل (ب)

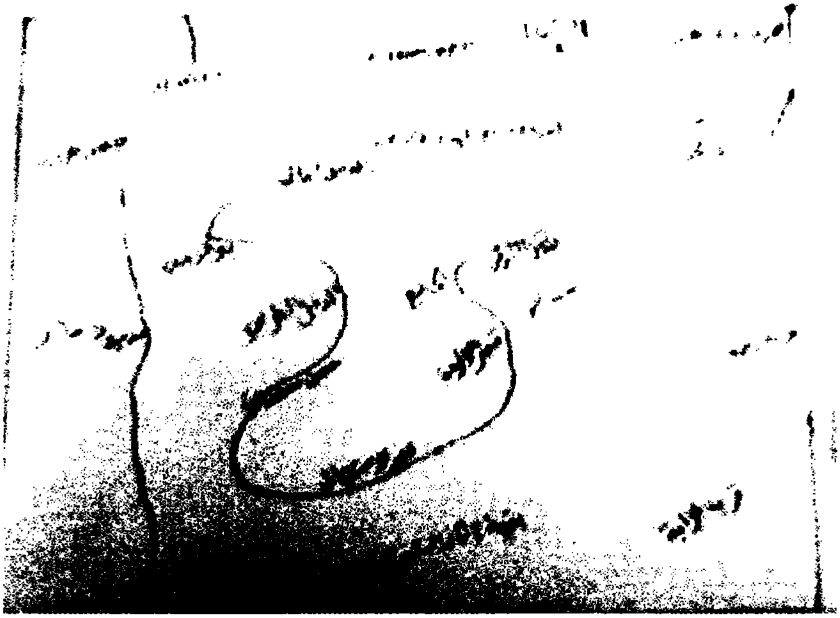
يوضح سيطرة مراكز القوى على الولايات قبيل حكم المهدي محمد



شكل (ج)

يوضح ـريق الإمام المهدي من المنصورة إلى ذمار عام

(١٠٩٨هـ /١٦٨٧م) .



شكل (هـ)

يوضح موقع مدينة المواهب العاصمة الأخيرة للمهدي ومواقع ثراه [1].

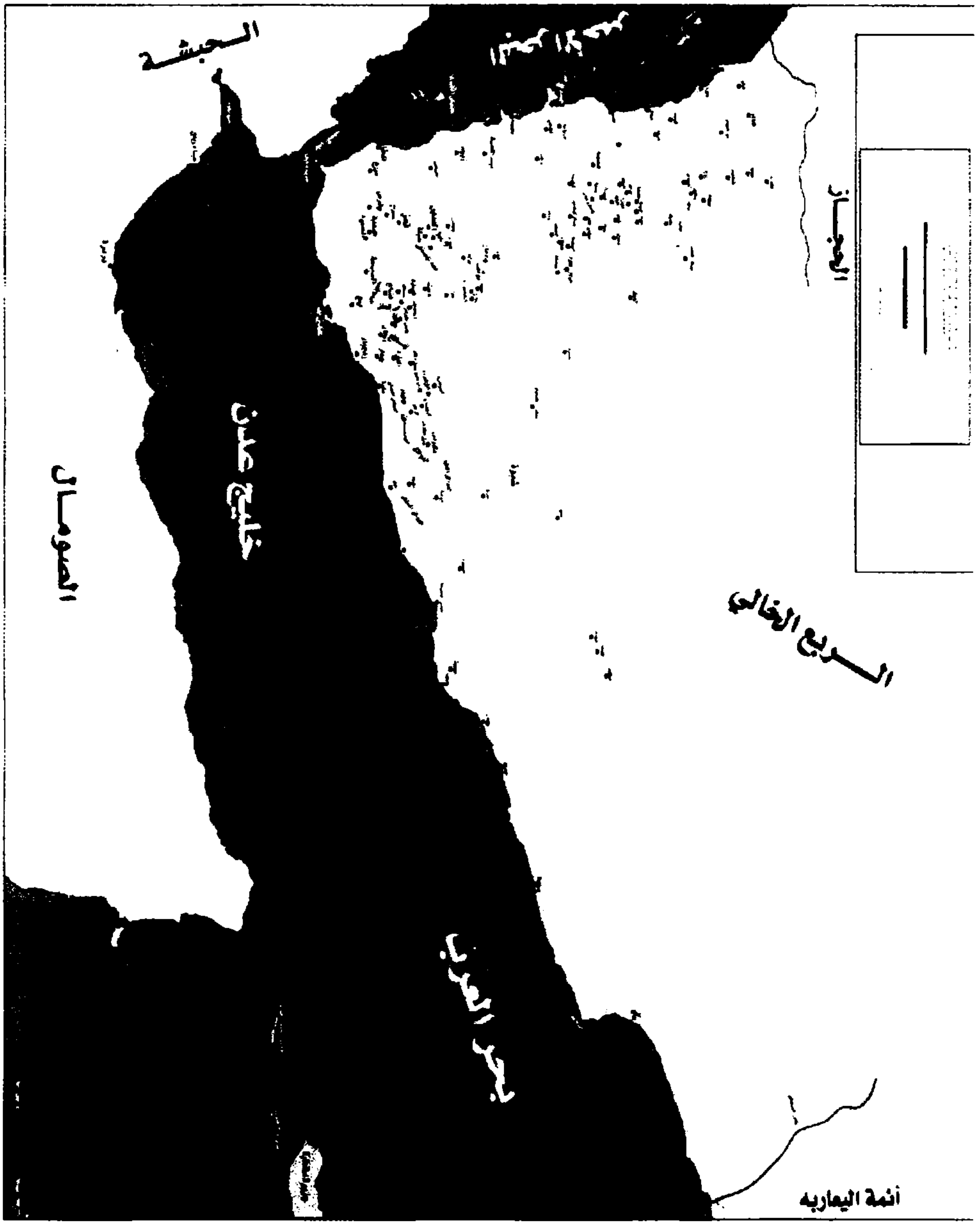
(1) صنع هذا الشكل التقريبي للمواهب من خلال زيارة الباحث الميدانية للموقع شهر مارس ٢٠٠٧م ، مع العلم أن الأراضي المحيطة بها كلها زراعية خصبة وسهلة ما عدا المدينة فهي مرتفعة عنها قليلا .



شكل رقم (ز)

يوضح حدود اليمن في عهد المهدي محمد ومنا ـق توسعاته في القرن الأفريقي

شكل رقم (ز) يوضح حدود اليمن في عهد المهدي محمد ومناطق توسعاته في القرن الأفريقي



ملحق رقم (١٥)

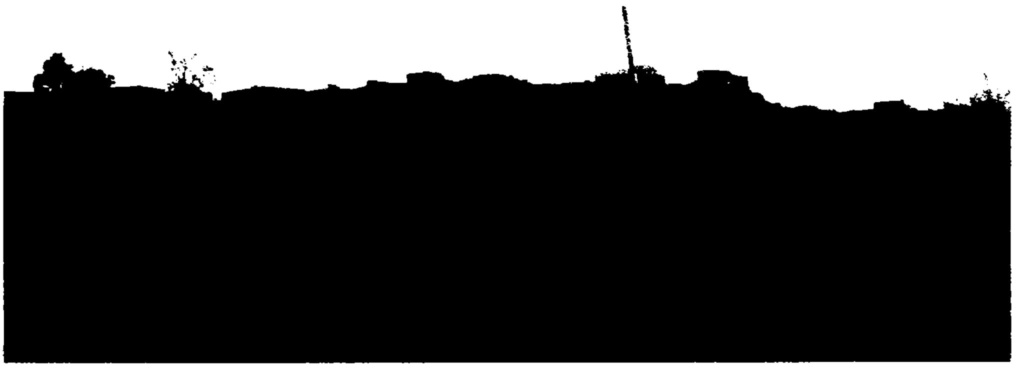
صور فوتوغرافية لمدينة المواهب حاضرة حكم المهدي محمد ومقر مثواه .



الضاحية الجنوبية لمدينة المواهب ويظهر فيها بقية آثار البئر وجامع الأزهر كما قيل .



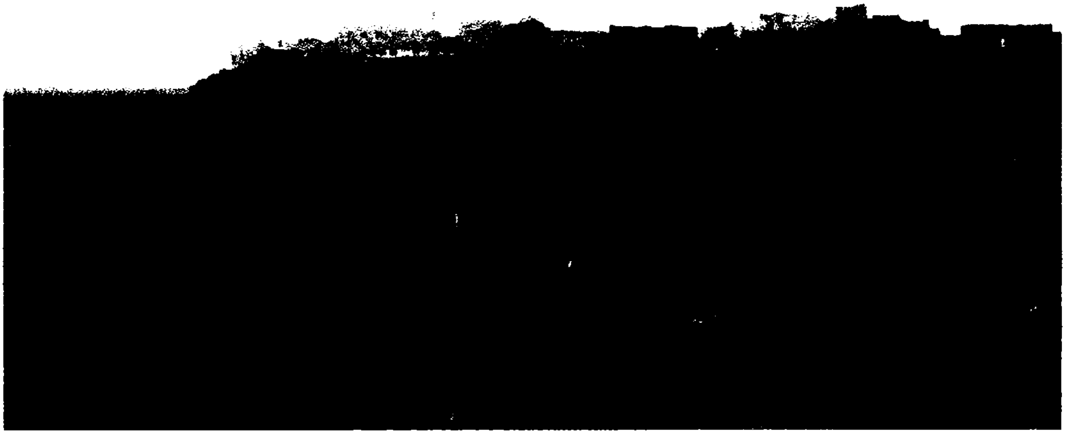
الضاحية الشمالية للمدينة .



المدخل الشمالي لمدينة المواهب



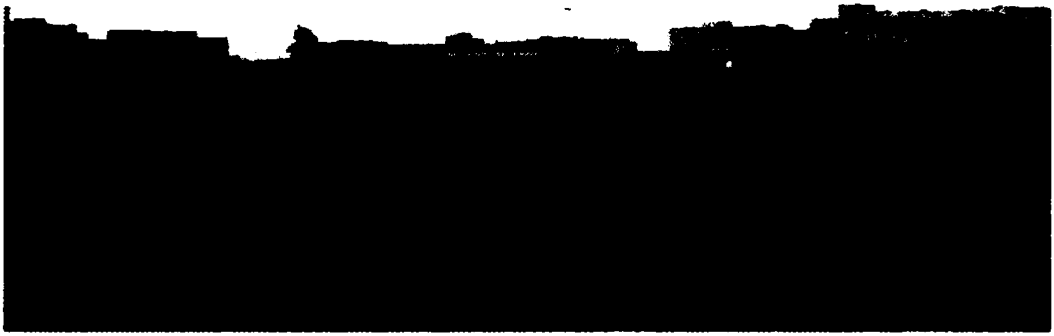
الضاحية الشرقية لمدينة المواهب ويظهر من بعيد قرية رخمة وعلى يسار الصورة حارة الحبس .



وسط غرب المدينة .



الحافة الغربية والمدخل الغربي للمدينة .



جامع وسط المدينة وأمام المدخل الغربي لها .



بقايا حصن في الجهة الغربية للمدينة .



آثار السور الجنوبي الشرقي للمدينة .



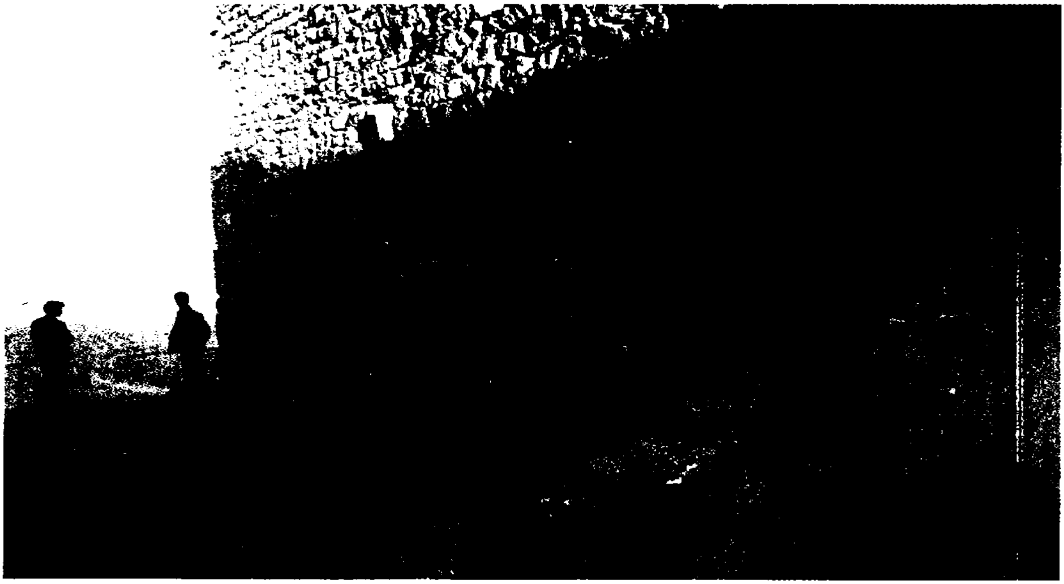
آثار منازل وسط غرب المدينة .



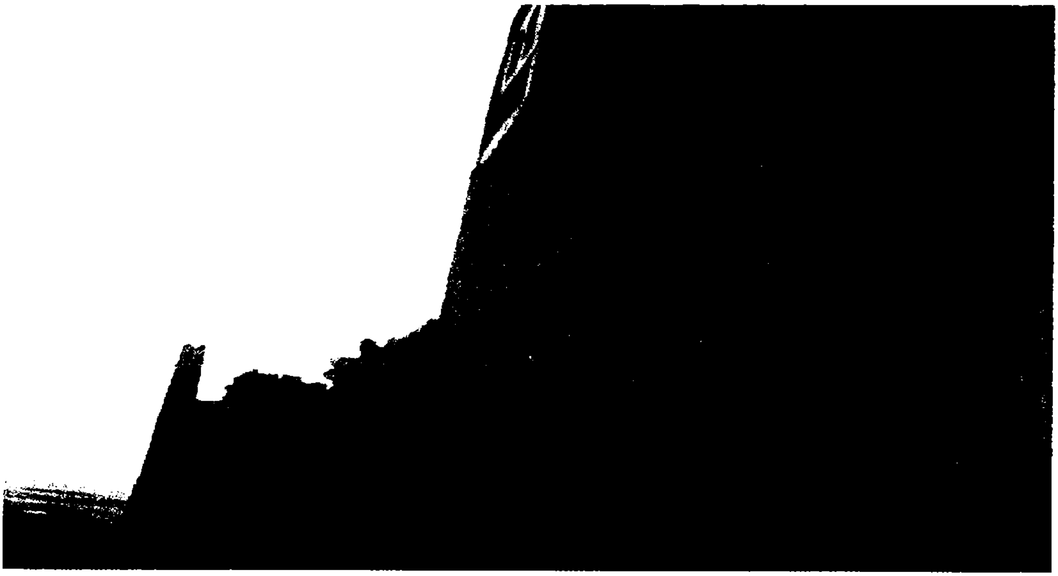
بقية المباني في الطرف الجنوبي الغربي للمدينة .



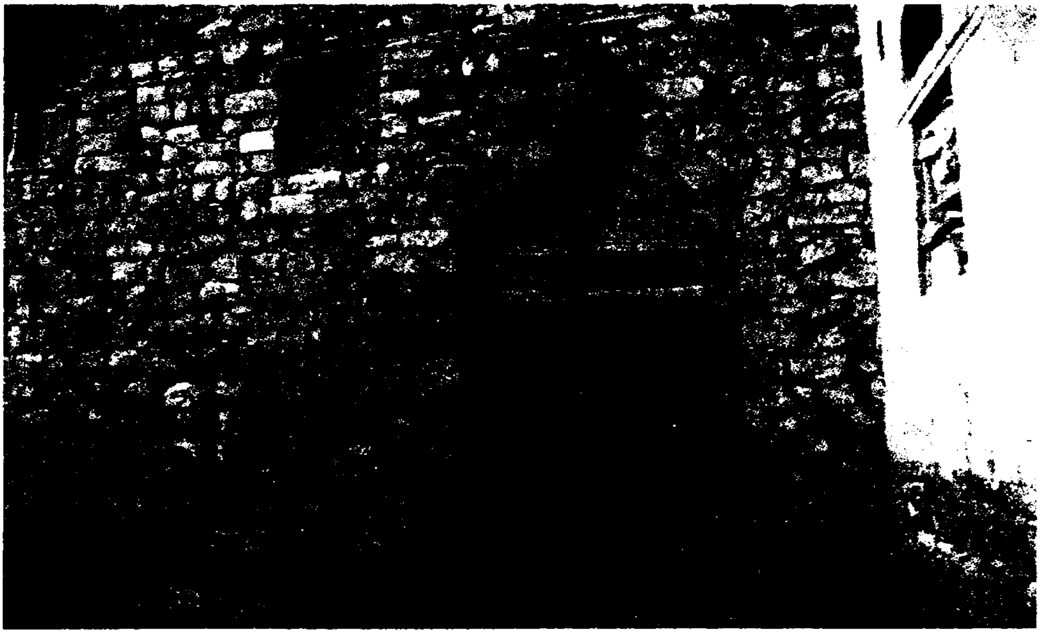
الجانب الغربي لقصر اللؤلؤة .



البوابة الشمالية لقصر اللؤلؤة .



البوابة الشرقية لقصر اللؤلؤة ويليه بقية السور والحيد .



البوابة الجنوبية لقصر اللؤلؤة .



قيل إن هذه بقية للحمام الملاصق لقصر اللؤلؤة من جهة الجنوب ، ويظهر عليها آثار التجديد والترميم.



بقايا قصر الاستقبال في الجنوب الغربي للمدينة .



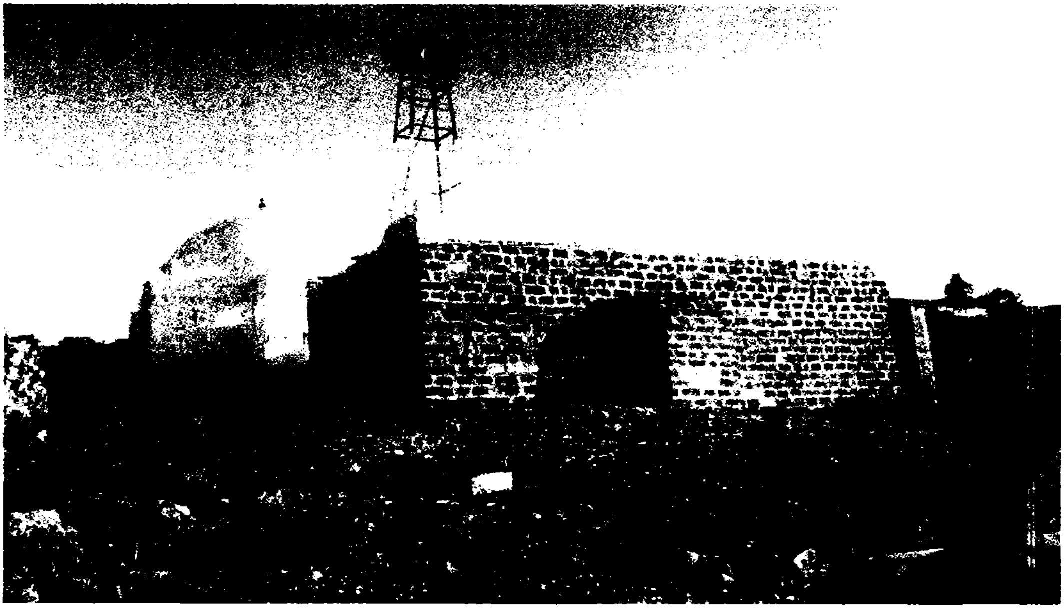
بقايا درج قصر الاستقبال من الداخل .



آثار حصن سعدان .



بوابة جامع المهدي الغربية ويظهر عليها معالم التجديد والترميم كما هو مبين على سفح البوابة الشمالية .



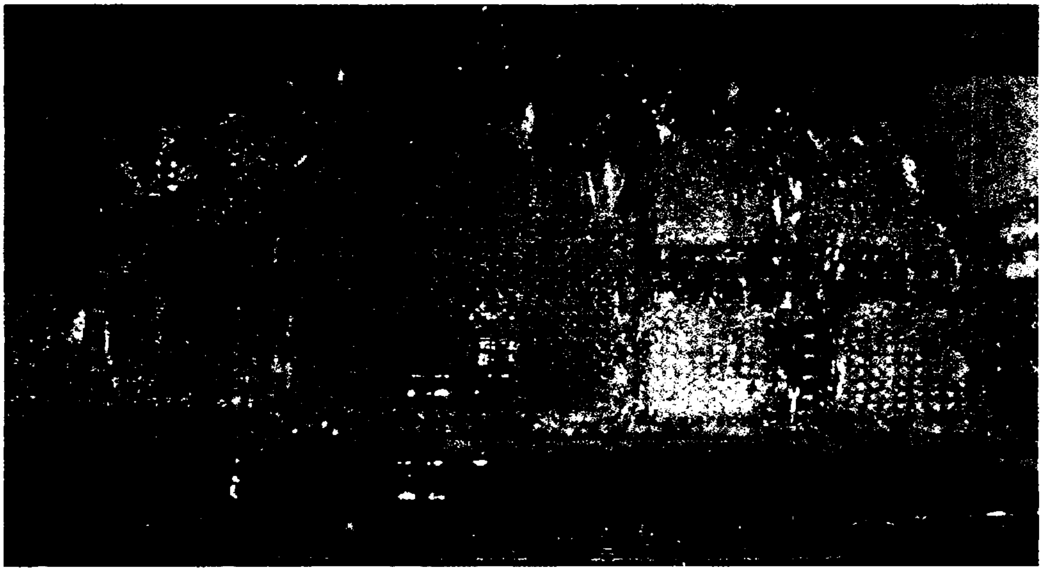
جامع وقبة المهدي من الجهة الشمالية ويظهر عليه معالم التجديد وعلى يمين الصورة بقية المبنى السابق .



الغلاف الخارجي لتابوت الإمام المهدي ويظهر عليه بعض آلاته الحربية كالرمح والمنجل ، وعلى يمينه تابوت أحد أولاده .



تابوت الإمام المهدي من الداخل ، ويظهر على الضريح بعض أغصان الورد لعله من بعض مرتادي المزار .



غطاء تابوت الإمام المهدي المطرز بالخيزران.

ثانياً : فهرس الأعلام

ثالثاً : فهرس البلدان والأماكن والبقاع

رابعاً : فهرس الفرق والمذاهب والقبائل والأسر

خامساً : المصادر والمراجع

أ- المخطوطات (خ) :-

١. الآنسي (أحمد بن أحمد الزنمة) : العلم المفرد من إنشاء المثنى أحمد بن أحمد ، ويسمى أيضاً ـــ الروض النادي في مدح الإمام الهادي ـــ ،(المكتبة الغربية ، رقم ٢٣١١).

٢. البهكلي (علي عبد الرحمن) : العقد المفصل بالنوادر والغرائب الحادثة في دولة الشريف أحمد بن غالب ١١٠١ – ١١٠٦هـ ، (المكتبة الغربية رقم ١٢٨٨).

٣. جحاف (لطف الله) : درر نحور حور العين بسيرة المنصور علي ورجال دولته الميامين ، أرخ فيه من عام(١١٨٩ـــ١٢٢٤هـ/١٧٧٥ــــ١٨٠٩م)، (وزارة الثقافة صنعاء ٢٠٠٤م) .

٤. الجنداري (أحمد عبد الله) : الجامع الوجيز في وفيات العلماء ذوي التبريز، (المكتبة الغربية رقم ٢٥٢٤) .

٥. الحبسي (يحيى بن علي) : تتمة الإفادة في تاريخ الأئمة السادة، (مكتبة الجامع الغربية ، رقم ٣٥) .

٦. الحوثي (إبراهيم عبد الله) : نفحات العنبر بفضلاء اليمن في القرن الثاني عشر ، ثلاثة أجزاء . (المكتبة الغربية رقم ٢٦٣٥) .

٧. الداعي (الحسن بن صلاح المؤيدي) : الدامغة الكبرى ،(مكتبة آل الهاشمي صعدة).

٨. أبوالرجال (زيد بن صالح) : الروض الزاهر شرح نزهة البصائر ، (المتحف البريطاني رقم ٣٨٤٧) .

٩. ابن شرف الدين (صلاح بن عيسى بن لطف الله بن المطهر) : الجزء الثالث من روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، أرخ فيه من عام (١٠٣١ ـــ ١٠٦٧هـ) ، ضمن مجموع ، (مكتبة خاصة) .

١٠. الشرفي (أحمد بن محمد بن صلاح) : اللآلئ المضيئة الملتقطة من اللواحق الندية في أخبار أئمة الزيدية ، الجزء الثالث، (المكتبة الغربية ، رقم ١٠٧ تاريخ) .

١١. وطالب (محسن بن الحسن) : السحر المبين وفتور الحاظ الحور العين في ما سنح من أخبار اليمن الميمون وأهله الميامين (المكتبة الغربية رقم ٢٥٥٣) .
١٢. الضبوي (أحمد محمد) : عقد الجواهر في سيرة الإمام الناصر . (مكتبة القاضي علي أبو الرجال) .
١٣. ابن عامر (عامر بن محمد بن عبد الله) : بغية المريد و أُنس الفريد في أنساب ذرية السيد علي بن محمد الأملحي بن علي بن الرشيد . (المكتبة الغربية رقم ٢٤٣٩).
١٤. العابد (علي بن محمد):تهذيب الزيادة لتاريخ الأئمة السادة ،(المكتبة الغربية رقم ٣٥).
١٥. العمراني (محمد بن علي) : إتحاف النبيه بتاريخ القاسم وبنيه . (المكتبة الغربية رقم ٢٥٣٨) .
١٦. الكوكباني (الحسن بن عبد الرحمن) : المواهب السنية والفواكه الجنية من أغصان الشجرة المهدية والمتوكلية . (المكتبة الغربية رقم ٢٥٦٢) .
١٧. الكوكباني (علي بن صلاح) : المختصر المستفاد من تاريخ العماد وغيره . ضمن مجموع ، (مكتبة خاصة) .
١٨. المرهبي(محمد بن الحسين) : نزهة البصائر في سيرة الإمام الناصر . (المكتبة الغربية) .
١٩. مجهول : ملحق باللآلئ المضيئة ،ج٣. (مكتبة آل الهاشمي صعدة) .
٢٠. يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم : بهجة الزمن في حوادث اليمن ، ثلاثة أجزاء، الجزء الأول درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة صنعاء عام ١٩٩٧م ، وبالجزأين الأخيرين الدكتوراه عام ٢٠٠٤م .

٢- *المطبوعات :-*

١. أباظة (د. فاروق عثمان):الحكم العثماني في اليمن ، دار العودة ، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
٢. عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧م.

٣. الأكوع (إسماعيل بن علي) : هجر العلم ومعاقله في اليمن، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٥م .
٤. الأكوع (إسماعيل بن علي) : المدارس الإسلامية في اليمن ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٩٨٥م .
٥. ابن الأمير (محمد بن إسماعيل) : ديوان ابن الأمير ، القاهرة ، مطبعة المدني ، ط١، ١٩٦٤م .
٦. الأمير (أمةالغفور عبدالرحمن) : التطورات السياسية في اليمن أواخر القرن السابع عشر الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب ، ٢٠٠٤م.
٧. أنيس (د . محمد) : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ، مطبعة الأنجلو المصرية ، (دون طبعة) ، ١٩٩٣م .
٨. إبراهيم (آمال محمد) : الصراع الدولي حول البحر الأحمر ، صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، ط١، ١٩٩٣م .
٩. إيفا هوك : سنوات في اليمن و حضرموت ، (ترجمة: خيري حماد) بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٢م .
١٠. براور : ك.خ، و آ. كبلانيان : اليمن في أوائل القرن السابع عشر ، ليدن، شركة ا.ي بريل ، ١٩٨٨م .
١١. البردوني (عبدالله) : اليمن الجمهوري ، بيروت ، دار الفكر ، ط٤ ، ١٩٩٤م .
١٢. البسام (حياة محمد) : الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في اليمن ، جدة ، الدار السعودية للنشر ، ط١ ، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م .
١٣. البطريق(د.عبد الحميد):من تاريخ اليمن الحديث،القاهرة،جامعة الدول العربية،١٩٦٩م
١٤. بعكر (عبدالرحمن): نظرات في التاريخ العام لليمن ، صنعاء ، مركز عبادي ، ط١، ٢٠٠٢م .
١٥. البكري (صلاح) : في شرق اليمن ، بيروت، دار الكشاف ، ١٩٥٥م .

١٦. تاريخ حضرموت السياسي،القاهرة،مصطفى البابي الحلبي،ط١٣٥٥،١هـ/١٩٣٦م
١٧. - : حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي ، القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .
١٨. البهكلي (عبد الرحمن حسن) : خلاصة العسجد من حوادث دولة الشريف محمد بن أحمد (تحقيق : ميشيل توشيرير وعدنان درويش) ، دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ٢٠٠٠ م .
١٩. جارشلي (إسماعيل حقي) : أمراء مكة في العهد العثماني ، (ترجمة : د. خليل علي مراد) ، البصرة ، مركز دراسات الخليج العربي ، ١٩٨٥م .
٢٠. الجبرتي (عبدالرحمن بن حسين) : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت ، دار الجيل ، ط٢ ، ١٩٧٨م .
٢١. الجرافي (عبدالله عبد الكريم) : المقتطف من تأريخ اليمن ، بيروت ، منشورات العصر الحديث ، ط٢ ، ١٩٨٧م.
٢٢. جحاف (لطف الله) : درر نحور حور العين (تحقيق / عارف الرعوي) ، الناشر / وزارة الثقافة – صنعاء ٢٠٠٤م.
٢٣. الجرموزي (المطهر بن محمد) : الجوهرة المنيرة في جمل من عيون السيرة ، (تحقيق : أمة الملك الثور) رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب ، ٢٠٠٤م .
٢٤. - : تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار ، (تحقيق : عبدالحكيم الهجري) ، صنعاء ، مؤسسة الإمام زيد ، ٢٠٠٢م .
٢٥. الجمل (د. عطاء الله) : سياسة مصر في البحر الأحمر ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٤م .
٢٦. الحامدي (صالح بن علي) : تاريخ حضرموت ، جده ، مكتبة الإرشاد ، ١٩٦٧م .
٢٧. الحبشي (عبد الله بن محمد) : الأدب اليمني عصر خروج الأتراك ، صنعاء ، الدار اليمنية للنشر ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .

٢٨. مصادر الفكر العربي والإسلامي في اليمن ، صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمنية ، ١٩٧٨م .
٢٩. المقامات اليمنية ، بيروت ، المؤسسة الجامعية ،١٩٩١م .
٣٠. دراسات في التراث اليمني ، بيروت ، دار العودة ، ط١ ، ١٩٧٧م .
٣١. حكام اليمن المؤلفون المجتهدون، بيروت، دار القرآن الكريم، ط١ ،١٩٧٩م .
٣٢. يوميات صنعاء ، أبوظبي ، المجمع الثقافي ، ١٩٩٦م .
٣٣. الحجري (محمد بن أحمد) : مجموع بلدان اليمن وقبائلها (تحقيق : إسماعيل بن علي الأكوع)، صنعاء ، دار الحكمة اليمانية.
٣٤. الحداد (محمد يحيى) : تاريخ اليمن السياسي ، القاهرة، دار الهناء ، ط٣ ، ١٩٧٦م.
٣٥. التاريخ العام لليمن ، بيروت ، دار التنوير ، ط١، ١٩٨٦م .
٣٦. الحسني (عبدالحي بن فخر الدين) : نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ـ في تراجم أعلام الهند من أول الإسلام إلى القرن الرابع عشر الهجري ـ ، ٨ مجلدات ، مؤسسة الرسالة – بيروت.
٣٧. حيدرة (الحسن بن الحسين) : مطلع الأقمار ومجمع الأنهار في تراجم المشاهير من علماء ذمار (تحقيق : عبد الله الحوثي) ، مؤسسة الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، ط١، ٢٠٠٢م .
٣٨. الخطابي (أروى أحمد) : تجارة البُن في اليمن ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ٢٠٠٤م .
٣٩. دحلان : (أحمد زيني) : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، مصر ، المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ .
٤٠. ابن الديبع (عبدالرحمن بن علي) : الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، (تحقيق : د . يوسف شلحذ) ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٣م .
٤١. الذهبي (د. محمد حسين) : التفسير والمفسرون ، القاهرة ، دار إحياء التراث العربي.

٤٢. الربعي (مفرح بن أحمد) : سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين القاسم ومحمد ابني جعفر ابن الإمام القاسم بن علي العياني (تحقيق : أ . رضوان السيد ، د. وزميله) بيروت ، دار المنتخب العربي للدراسة والنشر والتوزيع .
٤٣. الريس (رياض نجيب) : مصاحف وسيوف إيران من الشاهنشاهية إلى الخاتمية ، مكتبة رياض الريس للنشر ، ط١ ،٢٠٠٠م .
٤٤. زبارة (محمد بن محمد) : نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ومكتبتها ، ط١، ١٣٧٦هـ .
٤٥. نيل الحسنيين ، صنعاء ، مكتبة اليمن الكبرى ، ١٩٨٤م .
٤٦. ملحق البدر الطالع ، بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، (د . ت) .
٤٧. الزركلي (خيرالدين) : الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت.
٤٨. سالم (أ . د. سيد مصطفى): الفتح العثماني الأول لليمن ، القاهرة ، ط٤ ،١٩٩٢م .
٤٩. وثائق يمنية ، القاهرة ، المطبعة الفنية ، ١٩٨٢م .
٥٠. بن سبعة (نصر صالح حسين) : من ينابيع تاريخنا اليمني وأشعار الشيخ هيثم بن سبعة ، دمشق، مطبعة الكاتب العربي ، ط١، ١٩٩٤م .
٥١. السباعي (أحمد) : تاريخ مكة ، نادي مكة الثقافي ، جزء ثاني ، ط٦ ، ١٩٨٤م .
٥٢. السياغي (حسين بن أحمد) : قانون صنعاء في القرن الثاني عشر الهجري ، القاهرة ، مطبعة دار العلم ، ١٣٨٦ هـ .
٥٣. الشاطري (محمد بن أحمد) : أدوار التاريخ الحضرمي، جدة، مكتبة الإرشاد، ١٩٦٢م.
٥٤. شبيب (د. قصي كامل) : أهمية مضيق باب المندب في التاريخ الحديث والمعاصر ، صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، ط١ ، ١٩٩٤م .
٥٥. الشرجبي (قائد نعمان) : الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع ، بيروت ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، ١٩٨٥م .

٥٦. شهاب (حسن صالح) : عدن فرضة اليمن ، صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمني .
٥٧. يافع في عهد سلطان آل عفيف وهرهرة ، كريتر ، عدن ، مركز الشرعبي للطباعة ، ط١ ، ٢٠٠١م .
٥٨. الشوكاني (محمد بن علي) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (تحقيق : أ . د . حسين بن عبد الله العمري) ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٩٨م .
٥٩. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار ، (تحقيق : محمود إبراهيم زايد) ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١، ١٤٠٥هـ ، ٤أجزاء .
٦٠. دار السحابة في مناقب القرابة والصحابة ، (تحقيق : أ. د . العمري) ، دمشق ، دار الفكر.
٦١. الصايدي (د. أحمد قايد) : المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن ، بيروت ، دار الفكر، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .
٦٢. أبوطالب (محسن بن الحسن) : طيب أهل الكساء ، (تحقيق : عبد الله الحبشي) ، صنعاء.
٦٣. الصطوف وآخرون : (د . عبدالكافي) ، دراسات في تاريخ أوربه في العصر الحديث ، منشورات جامعة دمشق ، مطبعة الداودي ، ١٩٩٧م .
٦٤. طه (د . جاد) : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، بيروت ، دار الفكر العربي ، ط٢،(د . ت) .
٦٥. العبدلي (أحمد فضل) : هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، صنعاء ، مكتبة الجيل الجديد – صنعاء ٢٠٠٣م ، تحقيق أبو حسان الأذرعي.
٦٦. العرشي (حسين بن أحمد) : بلوغ المرام في شرح مسك الختام(تحقيق: الأب انستانس الكرملي) صنعاء ، مكتبة اليمن الكبرى ، ١٩٣٩م .
٦٧. العطاس (عمر بن سالم): إثبات نسب السادة العلويين الساكنين في حضرموت، القاهرة ، ١٣١٧هـ .

٦٨. عقيل(علي) : حضرموت ، دمشق ، دار الفكر ،١٩٥٠م .
٦٩. العلوي (محمد هاشم): تأريخ الدولة الكثيرية ، صنعاء ، مركز عبادي للطباعة والنشر ، ط١، ٢٠٠٢م .
٧٠. العمري (أ . د. حسين عبد الله): مئة عام من تأريخ اليمن الحديث ، دمشق ، دار الفكر .
٧١. الأمراء العبيد ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٩م .
٧٢. تاريخ اليمن الحديث والمعاصر من المتوكل إسماعيل إلى المتوكل يحيى حميد الدين، دمشق ، دار الفكر ، ط٢، ٢٠٠١م .
٧٣. العقيلي (محمد أحمد) : تأريخ المخلاف السليماني ، الرياض ، دار اليمامة ، ط٢ ، ١٩٧٨م .
٧٤. غالب (قاسم وآخرون) : ابن الأمير وعصره ، صنعاء ، وزارة الإعلام ، ط٢، ١٩٨٣م .
٧٥. غالب (محمد أنعم) : اليمن الأرض والزراعة والاقتصاد ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط٢، ١٩٦٦م .
٧٦. الغالبي (سلوى سعد) : الإمام المتوكل على الله إسماعيل ودوره في توحيد اليمن ، ط١ ، ١٩٩١م ، (دون ذكر مكان الطباعة) .
٧٧. أبو غانم (د. فضل علي): القبيلة والدولة في اليمن ، القاهرة ، دار النهار، ١٩٩٠م.
٧٨. الفراهيدي (الخليل بن أحمد) : كتاب العين ، (تحقيق: د. مهدب المخزومي ، د. إبراهيم السمرائي) ، دار مكتبة الهلال ، ٥ أجزاء .
٧٩. القعيطي (زين بن محمد): يافع صفحات من التاريخ اليمني ، صنعاء ، مطابع الآفاق ، ط١ ، ١٩٩٩م .
٨٠. الكبسي (محمد إسماعيل) : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية ، مكتبة الجيل الجديد، ٢٠٠٥م ، صنعاء ، تحقيق أبو حسان الأذرعي.

٨١. غوري (إبراهيم) : أطلس العالم ، سورية ، حلب ، المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية ، دار الشرق للطباعة والنشر ، ط ٣ ٢٠٠٣م .
٨٢. لاروك (جاندي) : رحلة إلى العربية السعيدة (ترجمة : صالح محمد علي) ، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، ط١، ١٩٩٩م .
٨٣. لقمان (حمزة بن على) : معارك حاسمة في تأريخ اليمن ، صنعاء ، مركز الدراسات اليمني ، ط١ ، ١٩٧٨م .
٨٤. تأريخ الجزر اليمنية ، بيروت ، حمزه لقمان ، مكتبة الجيل الجديد.
٨٥. ماكرو (أريك) : اليمن والغرب (ترجمة : د. حسين العمري) ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٧م.
٨٦. المحامي (أ. محمد فريد بك) : تاريخ الدولة العلية العثمانية، (تحقيق : د . إحسان حقي) دار النفائس ، بيروت.
٨٧. المحبي (محمد أمين) : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر [الهجري]، القاهرة ، مطبعة وهبة ، ١٨٦٩م ، ٤ مجلد
٨٨. مراد (محمد عدنان) : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٨٤م.
٨٩. المرادي (محمد بن خليل) : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ٤ أجزاء .
٩٠. بامطرف (محمد عبد القادر) : المختصر في تاريخ حضرموت العام ، صنعاء ، مركز عبادي، ٢٠٠١م .
٩١. جامع شمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم ، بغداد ، دار الرشيد ، ١٩٨٠م .
٩٢. مقبل (سيف بن علي) : وحدة اليمن تاريخياً ، بيروت ، دار الحقائق ، ط١ ، ١٩٨٧م .
٩٣. دراسات في التاريخ اليمني ، صنعاء ، دار الهمداني ، ١٩٨٨م .
٩٤. المقحفي (إبراهيم) : معجم البلدان والقبائل اليمنية ، صنعاء، دار الكلمة، ط ٢٠٠٢م

٩٥. الملاحي (عبد الرحمن): الحضارم في ممباسة ودار السلام، دار حضرموت ،٢٠٠٤م
٩٦. ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ، دار صادر، ط١ ، ١٥ جزء .
٩٧. الموسوعة اليمنية : صنعاء ، مؤسسة العفيف ، ط٢، ٢٠٠٣م ، ٤مجلدات .
٩٨. ابن المؤيد (يوسف بن يحيى) : نسمة السحر في من تشيع وشعر ، (تحقيق : كامل سلمان الجبوري) ، بيروت ، دار المؤرخ العربي ، ط١، ١٩٩٩م .
٩٩. ابن المؤيد (إبراهيم بن القاسم) : نسمات الأسحار في طبقات رواة الأخبار [طبقات الزيدية الكبرى]، (تحقيق : عبد السلام الوجيه وآخرون) ، عمّان ، مؤسسة الإمام زيد، ط١، ٢٠٠١م .
١٠٠. المؤيدي (مجد الدين بن محمد) : التحف شرح الزلف (تحقيق : محمد يحيى عزان وعلي أحمد الرازحي) ، صنعاء ، مؤسسة أهل البيت ، ط١ ، ١٩٩٤م .
١٠١. نافع (محمد بن عمر) : في ربوع عسير ، القاهرة ، دار العهد الجديد ،١٩٥٤م .
١٠٢.النهروالي (قطب الدين محمد بن أحمد) : البرق اليماني في الفتح العثماني ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ط١ ، ١٩٦٧م .
١٠٣. الهاروني (يحيى بن الحسين) : الإفادة في تاريخ الأئمة الزيدية ، (تحقيق : محمد يحيى سالم عزان) ، دار الحكمة اليمانية ، ط١ ، ١٩٩٦م .
١٠٤. الهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب) : صفة جزيرة العرب ،(تحقيق : محمد علي الأكوع) ، الرياض ، دار اليمامة ، ١٩٧٤م .
١٠٥. الواسعي (عبد الواسع) : فرجة الهموم والحزن في تاريخ اليمن ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ط١ ، ١٣٤٦هـ .
١٠٦. وزارة الإعلام العمانية : عُمان في التاريخ ، لندن ، دار اميل للنشر ، ١٩٩٥م .
١٠٧. الوزير (عبدالله بن علي) : طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى ، (تحقيق : محمد عبدالرحيم جازم) ، صنعاء ، الجيل الجديد ناشرون.
١٠٨. باوزير(سعيد عوض) : صفحات من التاريخ الحضرمي، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٧٨هـ.

١٠٩. الويسي (حسين بن علي) : اليمن الكبرى، صنعاء ، مكتبة الإرشاد ، ط٢ ، ١٩٩١م.

١١٠. يحيى بن الحسين بن القاسم : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، (تحقيق : عبدالفتاح عاشور) ، القاهرة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

٣- الدوريات :-

١. الأكوع (محمد بن علي) : [واقع اليمن في عهد الأئمة] ، اليمن الجديد ، العدد ٩ ، سبتمبر ١٩٨٩م . ص ٤٣ .

٢. شلحذ (د. يوسف) : [وفد فرنسي يزور المهدي صاحب المواهب] ، دراسات يمنية العدد١٨ ، شتاء ١٩٨٤م . ص ٦٧ .

٣. براور . ك . ج . المخا في المصادر الهولندية [أو المخا ميناء تصدير البُن الممتاز في العقود الأولى من القرن السابع عشر] ، (تعريب ومراجعة : أ .د . حسين بن عبدالله العمري) ، مجلة الثوابت ، العدد٣٢ ، إبريل ــ يونيو ٢٠٠٣م ، ص ٤٢ .

٤. العمري (أ . د . حسين بن عبدالله) : [اتصال اليمن بالغرب] ، دراسات يمنية ، العدد٤٢ ، أكتوبر ١٩٩٠م ، ص ٥٩ .

٥. الصايدي (د. أحمد قايد) : [الرحلة الأولى للفرنسيين إلى العربية السعيدة] دراسات يمنية ، العدد ٦٠ ــ ٦١ ، يناير ــ يونيو ١٩٩٩م ، ص٧٩ .

٦. الكحلاني (حسن محمد) : النظام الضرائبي وعلاقته بالجوانب الاقتصادية والسياسية في عهد ما قبل الثورة ، مجلة دراسات يمنية ، العدد الثلاثون ، نوفمبر ــ ديسمبر ١٩٨٧م ، ص ١٣٣.

٤- الصحف :

- الأسطى (أكرم) : [المواهب كانت العاصمة الطبيعية لليمن]، صحيفة الثورة ، العدد ١٤٢٧٨ ، الأربعاء ٣٠ شوال ١٤٢٤هـ /٢٤ديسمبر ٢٠٠٣م ، ص٧ .

٥- المراجع الأجنبية :

١- Al- Hiyed, Abd- Allah Hamid :
Relations Between The Yaman and South Arabia During The Zaydi Imamate Of Al al - Qasim : ١٦٢٦ - ١٧٣٢ , Thesis presented for the Degree of Doctor of philosophy of the University of Edinburgh , June ١٩٧٣ .

٢- Boxhall , Peter :
The diary of Mocha Coffee Agent Arabian Studies , London ,Vol .١, ١٩٧٤ .

٣ – Brouwer . C . G :
AL - Mukha Profile of a Yemeni Seaport as Sketched by Servants of the Dutch East India Company (VOC) ١٦١٤ - ١٦٤٠ , Amsterdam , Fluyte Rarob, ١٩٩٧ .

٤- Bury , G . Wyman :
Arabia Infelix Or The Turks In Yamen , first Published In ١٩١٥ , By Macmillan And Co , London .

٥- Marston , E, Thomas :
Britain's Imperial Role In The Red Sea Area, ١٨٠٠- ١٨٧٨ .
Shoe Press Inc Hamden Connecticut , U.S.A .The Copyright ١٩٦١.

٦- Playfair , (a):
History of Arabia Felix, Bombay .١٨٥٩ .

٧ - Serjeant (R.B) With Lewcock , Ronald:
Sana'a An Arabian Islamic City , London , ١٩٨٣ .

الفهارس العامة للكتاب

الفصل الأول : مرحلة الوصول إلى السلطة وتثبيت الحكم
(١٠٩٧ـــ ١١٠٥هـــ/ ١٦٨٦ ـــ ١٦٩٤م)

الفصل الثاني
سياسة المهدي في يافع وحضرموت (المشرق)

الفصل الثالث : مرحلة الاستقرار وتنظيم الحكم
(١١٠٥ ــ ١١٢٤هـ / ١٦٩٤ ــ ١٧١٢م)

الفصل الرابع :- مرحلة الاضطرابات ونهاية الحكم
(١١٢٥ – ١١٣٠ هـ / ١٧١٢- ١٧١٨م)

الفصل الخامس:- علاقات الإمام المهدي الخارجية

الملاحق والفهارس والمصادر

* * *